

مِجَالِجُ التَّفَكُّرِ

وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرُ تَدْبِيرِيٍّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ الْزُّوْلِ
وَفُقْ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الْأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»

المجلد الثامن

تفسير سور

طه / ٤٥ - الواقعة / ٤٦ - الشعراء / ٤٧

عبد الرحمن حسن جببنة الميداني

دار الفاء
دمشق



مَعَاجِزُ التَّفَكُّرِ
وَرَدِّ قَائِقِ التَّيْدْرِ

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣ / ٦٥٠١

تنوع جميع كتبنا في السعودية عبر طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سِرُّ وَرَقِ طَاهِر

٢٠ مصحف - ٤٥ نُزُول
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجَهَّرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴿١٠﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ

١ - سكت أبو جعفر سكتة لطيفة بدون تنفس على «طا» و«ها». ولم يسكنك هذه السكتة باقي القراء العشرة.

١٠ - قرأ حمزة: [لَأَهْلِهِ امْكُثُوا] بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَأَهْلِهِ امْكُثُوا] بكسر هاء الضمير، وهما لغتان عربيتان جائزتان.

١٠ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي آنَسْتُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

١٠ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: «لَعَلِّي آتِيكُم» بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

١٢ - قرأ نافع: [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ] بفتح ياء المتكلم وكسر همزة «إِنَّ» وقرأها ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [أَنِّي أَنَا رَبُّكَ] بفتح ياء المتكلم، وفتح همزة «أَنَّ» من: «أَنِّي».

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ] بإسكان ياء المتكلم وكسر همزة «إِنَّ» من [إِنِّي].

إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُتْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ

= وسبق أن عرفنا أنَّ فتح ياء المتكلم وإسكانها وجهان عربيان لِنُظْفِقَهَا. كَسُرُْ همزة «إِنَّ» على معنى أن الجملة ابتدائية، وفتحها هو على تقدير حرف جرٍّ محذوف، أي: نودي أن يا موسى بأني أنا ربُّك، وهما وجهان نحويان جائزان.

- ١٢ - • قرأ يعقوب: [بالوادي] فأثبت الياء في الوقف فقط.
- وقراها باقي القراء العشرة: [بالوَادِ] بحذف الباء في الوقف والوصل.
- ١٢ - • قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [طُوًى] بالتثنية، على أنَّ اللفظ مَضْرُوفٌ، بتقدير أنه نكرة وهو اسم وادٍ أو مكان ما.
- وقراها باقي القراء العشرة: [طُوًى] بدون تنوين، على أنَّ اللفظ ممنوع من الصرف، بتقدير أنه معرفة، إذ هو اسم بقعة معروفة.
- ١٣ - • قرأ حمزة: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ] بضمير المتكلم العظيم.
- وقراها باقي القراء العشرة: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ] بضمير المتكلم المفرد.
- والقراءتان تدلَّان على أن الله عزَّ وجلَّ خاطب موسى أولاً بضمير المتكلم العظيم، لتربية المهابة في قلبه، ولإشعاره بأنَّ الخالق قد اصطفاه بعظمة رُبوبيته. وبعد ذلك عاد إلى مخاطبته بضمير المفرد، لإيناسه.
- ١٤ - • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَنَا اللَّهُ] بفتح ياء المتكلم. وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.
- ١٤ - ١٥ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [لِذِكْرِي] بفتح ياء المتكلم. وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.
- ١٨ - • قرأ ورش، وحفص: [وَلِيَ فِيهَا] بفتح ياء المتكلم. وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.

أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
 تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى
 ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً
 أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
 ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي
 وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾
 وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾
 إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾
 وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى
 ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ

٢٦ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي] بفتح ياء المتكلم من [لِي]. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٠ - ٣١ • قرأ ابنُ عامر: [أَخِي أَشْدُدْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٢ - • قرأ ابنُ عامر: [وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي] بضم همزة [أَشْرِكْهُ] على معنى أَنَّ موسى يجعل أخاه شريكاً له في رسالته.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَشْرِكْهُ] بفتح الهمزة، على معنى أَنَّ موسى سأل رَبَّهُ أَنْ يجعل أخاه هارون شريكاً له في أمره.

والقراءتان تَدْلَانِ على أَنَّ موسى قال أولاً: [وَأَشْرِكْهُ] ثم رأى أَنَّ هذه العبارة لا تليق في مقام متلقي الرسالة عن رَبِّه فعدل عنها، وقال سائلاً رَبَّهُ: [وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي].

يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ ۖ
 عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ
 فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتِ نَفْسًا
 فَفَجَّتْكَ ۖ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَمِيتَ سِنِينَ ۖ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
 جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرٍ يَمْؤُوسٍ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ
 أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
 إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَنَّا نَعْلَمَ ۖ يَذْكُرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾
 قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا
 تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ ۖ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا
 رَسُولَا رَبِّكَ فَارْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ

٣٩ - • قرأ أبو جعفر: [وَلِتُصْنَعَ] بلام الأمر وجزم الفعل. وهي تدلُّ على أمرٍ التكوين الصادر عن الله.

وقراها باقي القراء العشرة: [وَلِتُصْنَعَ] بكسر اللام على أنها لام التعليل، ونُضِبَ الفعل بأن مضمرة. وهي تدلُّ على الغرض من جعله يُنشَأ في القصر الفرعوني.

٣٩ - ٤٠ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَيْنِي إِذْ] بفتح ياء المتكلم. وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٠ - • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [جِئْتَ] بإبدال الهمزة ياء. وقراها باقي القراء العشرة: [جِئْتَ] على الأصل دون إبدال.

٤١ - ٤٢ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [لِنَفْسِي أَذْهَبَ] بفتح ياء المتكلم وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٢ - ٤٣ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [فِي ذِكْرِي أَذْهَبَا] بفتح ياء المتكلم.

وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.

بِأَيِّهِ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ
إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا
يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى
﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي
كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَابَى
﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ
مَنْ وَلا أَنْتَ مَكَاثِرٌ سُوَّى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ

٥٣ - • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [مَهْدًا] مَصْدَر «مَهْدًا». وقرأها
باقي القراء العشرة: [مِهَادًا] أي: فراشاً.

أي: مَهْدَهَا فجعلها كالفرش.

٥٧ - • قرأ السوسي وأبو جعفر: [أَجِئْنَا] بإبدال الهمزة ياءً. وقرأها باقي القراء
العشرة: [أَجِئْنَا] على الأصل دون إبدال.

٥٨ - • قرأ أبو جعفر: [لَا نُخْلِفُهُ] بالجزم على أنه جواب الطلب. وقرأها باقي
القراء العشرة: [لَا نُخْلِفُهُ] بالرفع، على أنه ليس جواب فاجعل. والإعرابان
وجهان عربيان جائزان.

٥٨ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [سُوَّى] بكسر
السين. وقرأها باقي القراء العشرة: [سُوَّى] بضم السين. كسر السين وضمها
لغتان عربيتان.

يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَرِيبُكُمْ لَا تَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنِ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا

٦١ - • قرأ حفص، وحزمة، والكسائي، ورؤيس، وخلف: [فَيُسْحِتَكُم] من فعل: «أَسْحَتَ الشَّيْءُ» أي: استأصله فلم يَبْقَ له أثر.

وقراها باقي القراء العشرة: [فَيُسْحِتَكُم] من فعل: «سَحَتَ الشَّيْءُ» أي: استأصله فلم يَبْقَ له أثر. فالقراءتان متكافئتان لغة.

٦٣ - • قرأ ابن كثير: [إِنَّ هَٰذَا] مع المد المشبع. وقرأها أبو عمرو: [إِنَّ هَٰذَيْنِ]، وقرأها حفص: [إِنَّ هَٰذَا]. وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّ هَٰذَا].

٦٤ - • قرأ أبو عمرو: [فَأَجْمِعُوا] من فعل: «جَمَعَ يُجْمَعُ» يقال: جَمَعَ المتفرق. وقرأها باقي القراء العشرة: [فَأَجْمِعُوا] من فعل «أَجْمَعَ يُجْمَعُ» يقال لغة: أَجْمَعَ الأمر، أي: أحكمه وجمع متفرقه.

ومؤدَّى القراءتين واحد، وهما من التفتن في التعبير.

٦٦ - • قرأ ابن ذكوان وروح: [تُخَيَّلُ] بالتاء. وقرأ باقي القراء العشرة [يُخَيَّلُ] بالياء. القراءتان وجهان جائزان في العربية.

٦٩ - • قرأ البرزي في الوصل: [تُلْقَفْ] بتشديد التاء. وقرأ ابن ذكوان: [تَلْقَفْ] =

صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ
قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِطَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ
إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ
الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ

= بفتح اللام وتشديد القاف، ورفع الفاء. دون ملاحظة أنه جواب الطلب، وهو جائز نحويًا. وقرأ حَفْص: [تَلْقَفْ] بإسكان اللام، وتخفيف القاف، وجزم الفاء. وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلْقَفْ] بفتح اللام وتشديد القاف، وجزم الفاء. الجزم على أنه جواب: [وَأُلْقِيَ].

٦٩ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [كَيْدُ سِحْرٍ]. وقرأ باقي القراء العشرة: [كَيْدُ سَاحِرٍ] مؤدّى القراءتين واحد، وهما من قبيل التفتن في التعبير.

٧١ - • قرأ حفص وزُوس: بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية من: [ءَامَنْتُمْ] وقرأ قبل في الوصل بإبدال الهمزة الأولى واوًا وتسهيل الثانية.

وقرأ شعبة، وزُوح، وحمزة، والكسائي، وخلف: بتحقيق الهمزتين. وقرأ باقي القراء العشرة بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال، وهو وجه قبل حالة الوقف.

٧٢ - • قرأ وُزْش، والسوسي، وأبو جعفر: [نُؤْثِرَكَ] بإبدال الهمزة واوًا. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [نُؤْثِرَكَ] بالهمزة الساكنة.

٧٥ - • قرأ السوسي: [وَمَنْ يَأْتِيهِ] بإسكان الهاء. =

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنَ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ

= وقرأ رويس، وقالون بخُلفٍ عنه: [وَمَنْ يَأْتِيهِ] بكسر الهاء من غير صلة.
وقراها باقي القراء العشرة: [وَمَنْ يَأْتِيهِ] بكسر الهاء مع الصلة، وهو الوجه الثاني لقالون.

وهذه القراءات وجوه عربية في الأداء، نزل القرآن بها.

٧٧ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [أَنْ أُسْرِ] بوصل همزة «أُسْرِ» وبيدوون بهمزة مكسورة. وقرأها باقي القراء العشرة: [أَنْ أُسْرِ] بقطع الهمزة مفتوحة وصلًا ووقفًا، وبيدوون بهمزة مفتوحة.

٧٧ - • قرأ حمزة: [لَا تَخَافُ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَا تَخَافُ] أي: حالة كونك لَا تخاف. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

٨٠ - ٨١ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [أَنْجَيْنَاكُمْ - وَوَعَدْنَاكُمْ - مَا رَزَقْنَاكُمْ] بضمير المتكلم المفرد. وقرأها أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَنْجَيْنَاكُمْ - وَوَعَدْنَاكُمْ - وَمَا رَزَقْنَاكُمْ] بضمير المتكلم العظيم.

وفي القراءتين تنوع في الخطاب، فالأفراد للمؤانسة، وضمير المتكلم العظيم لتربية المهابة، والإشعار بعظمة الربوبية.

وقراها الباقيون: [أَنْجَيْنَاكُمْ - وَوَعَدْنَاكُمْ - وَمَا رَزَقْنَاكُمْ].

٨١ - • قرأ الكسائي: [فَيَحِلُّ - وَمَنْ يَخْلُلُ] من: [حَلَّ يَحِلُّ]. وقرأها باقي القراء =

يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَاَمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ
يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ
يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ
أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي
﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن
زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمُ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ

= العشرة: [فَيَحِلُّ - وَمَنْ يَخْلِلْ] من فعل: «حَلَّ يَحِلُّ» وهما وجهان عربيان.

٨٤ - • قرأ رؤيس: [عَلَى إِثْرِي] بكسر الهمزة وإسكان التاء.

وقراها باقي القراء العشرة: [عَلَى أَثْرِي] بفتح الهمزة والتاء.

ومعنى القراءتين واحد: إِذْ يُقَالُ: جَاءَ فِي إِثْرِهِ، وجاء في أَثْرِهِ، أَي: عَقِبَهُ.

٨٧ - • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: [بِمَلِكِنَا] بفتح الميم.

وقراها حمزة، والكسائي، وخلف: [بِمَلِكِنَا] بضم الميم.

وقراها باقي القراء العشرة: [بِمَلِكِنَا] بكسر الميم.

وهي لغات متكافئات.

٨٧ - • قرأ أبو عمرو، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [حُمِلْنَا] بفتح الحاء

والميم.

وقراها باقي القراء العشرة: [حُمِلْنَا] بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

يظهر أن بعض بني إسرائيل حَمَلَ باختياره، وبعضُهُمْ حُمِلَها بتأثير غيره

كزوجته مثلاً.

﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا
 نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ
 بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ
 نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَكَ
 مَنِيعٌ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿٩٣﴾
 قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ
 فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
 خَطْبُكَ يَسْمِعِرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ

٨٩ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهِمْ] بضم الهاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

والقراءتان وجهان عربيان.

٩٣ - • قرأ نافع، وأبو عمرو: [اتَّبِعْنِي] بإثبات الياء في الوصل، وحذفها في

الوقف. وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات هذه الياء في الوصل والوقف.

وقرأ أبو جعفر بإثباتها مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة بحذفها وصلًا ووقفًا.

٩٤ - • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [يَا بَنُؤُمْ] بكسر الميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَا بَنُؤُمْ] بفتح الميم.

٩٤ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [بِرَأْسِي إِنِّي] بفتح ياء المتكلم، وقرأ

باقي القراء العشرة بإسكانها.

وأبدل الهمزة مطلقاً أبو جعفر والسوسي، وأبدلها حمزة في الوقف فقط.

٩٦ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [تَبْصُرُوا بِهِ] بتاء المخاطبين. وقرأها باقي

القراء العشرة: [يَبْصُرُوا بِهِ] بياء الغائبين.

والقراءتان تعبران عن بيانين قالهما السامري أحدهما واجه به موسى وحاضري

مجلسه. والآخر تحدّث به عن الغائبين من بني إسرائيل.

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ
 لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ
 لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي
 ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا
 ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ
 شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ
 آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلْدَيْنَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾
 يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ
 بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

٩٧ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [لَنْ تُخْلَفَهُ] أي: نَعِدْنَا بَعْدَ إِخْلَافِهِ.
 وقرأها باقي القراء العشرة: [لَنْ تُخْلَفَهُ] أي: نَعِدُكَ بَعْدَ إِخْلَافِهِ. القراءتان
 تُعْبِرَانِ عَنْ بَيَانَيْنِ.

٩٧ - • قرأ ابن زدران: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] من فعل: «حَرَقَهُ يُحْرِقُهُ».
 وقرأ ابن جَمَاز: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] من فعل: «أَحْرَقَ يُحْرِقُ».
 وقرأ باقي القراء العشرة: [لَنُحَرِّقَنَّهُ].

هذه القراءات وجوه عربية جائزة. وقراءة الجمهور تدلُّ على أن موسى عليه
 السلام شدد في عبارته في بعض أحوال غضبه من اتخاذ العجل.

١٠٢ - • قرأ أبو عمرو: [نُفْخُ] بنون المتكلم العظيم. وقرأ باقي القراء العشرة:
 [يُنْفَخُ].

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: نَأْمُرُ بِالنْفَخِ فِي الصُّورِ،
 فَيُنْفَخُ فِيهِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ الْمَكْلُفِ بِالنْفَخِ فِيهِ.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَاسْتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ
فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا
تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ
لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ
لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾
وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾
وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ
الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ

١١٠ - • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهِمْ] بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القراء العشرة:

[أَيْدِيهِمْ] بكسر هاء الضمير وهما وجهان عربيان في النطق.

١١٢ - • قرأ ابن كثير: [فَلَا يَخَافُ]، وقرأ باقي القراء العشرة: [فَلَا يَخَافُ].

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فقراءة: [فَلَا يَخَافُ] عبارة طمانينة منذ الحياة الدنيا.

وقراءة: [فَلَا يَخَافُ] تعبر عن حال المؤمن الذي عمل من الصالحات بأنه سوف يكون غير خائف يوم الدين.

١١٤ - • قرأ يعقوب: [مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ] بضمير المتكلم العظيم باعتبار أنه الأمر بالوحي إليه.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ] أي على لسان جبريل عليه السلام المأمور بأن يوجي إليك القرآن.

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى
 وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
 فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ
 وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
 تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى
 ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى
 شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا
 سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ
 رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ
 أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي
 هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
 عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

١١٦ - • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بضم تاء الملائكة مراعاة لضم جيم اسجدوا.

وقراها باقي القراء العشرة: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بكسر تاء الملائكة على الأصل.

١١٩ - • قرأ نافع، وشعبة: [وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ] بكسر همزة «إن» على أن الجملة ابتدائية.

وقراها باقي القراء العشرة: [وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ] بفتح همزة «أن» على اعتبار أن الجملة معطوفة على [أَنْ لَا تَجُوعَ].

أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا
 ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
 أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٦﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ
 يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١٢٧﴾
 وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَّاجِلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٨﴾
 فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
 وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ
 تَرْضَى ﴿١٢٩﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
 زَهْرَةً الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣٠﴾
 وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ
 نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ

١٢٥ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى] بفتح ياء المتكلم.

وقراها باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

١٣٠ - • قرأ شعبة، والكسائي: [تَرْضَى] أي: راجياً أن يُرضيك الله.

وقراها باقي القراء العشرة: [تَرْضَى] أي: إذا أرضاك ربُّكَ فإنَّكَ تَرْضَى.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

١٣١ - • قرأ يعقوب: [زَهْرَةً] بفتح الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة: [زَهْرَةً]

بإسكان الهاء، وهما وجهان عربيان لنطق كلمة «زَهْرَةً».

١٣٢ - • قرأ ورش، والسُّوسي: [وَأْمُرْ] بإبدال الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في

الوقف، وقرأها باقي القراء العشرة: [وَأْمُرْ] دون إبدال.

رَبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَن أَهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

١٣٣ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وابن جَمَاز، ورُوح: [أَو لَمْ تَأْتِهِمْ] بناء التانيث.

وقراها باقي القراء العشرة: [أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ] بياء التذكير.

وليوزش، والسوسي، وابن جَمَاز إبدال الهمزة ألفاً.

وضم رُويس هاء الضمير في الوصل والوقف، وكسرها باقي القراء العشرة.

١٣٥ - • قرأ قُتُب، ورُويس: [الصِّرَاطِ] بالسّين.

وأشَم خلف عن حمزة: الصاد زائياً.

وقراها باقي القراء العشرة: [الصِّرَاطِ] بالصاد.

(٢)

مما ورد في السيرة النبوية بشأن سورة (طه)

جاء في سيرة ابن هشام ما يلي:

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عُمَر فيما بَلَغني أَنَّ أُخْتَهُ فَاطِمَةَ بنت الخطاب، وكانت عند سَعِيد بن زَيْد بن عُمَر بن نُفَيْل، وكانت قَدْ أَسْلَمَتْ وَأَسْلَمَ بَعْلُهَا سَعِيدُ بن زَيْد، وهما مُسْتَخْفِيَات بإسلاميهما مِنْ عُمَر، وكان نُعَيْمُ بن عَبْدِ اللَّهِ النَّحَّام، رجلٌ من قومه، من بني عَدِيٍّ بنِ كَعْبٍ قد أَسْلَم، وكان أيضاً يَسْتَخْفِي بإسلامِهِ فَرَقَا مِنْ قَوْمِهِ، وكان حَبَابُ بن

الْأَرْتِ^(١) يَخْتَلِفُ إِلَى فَاطِمَةَ يُقْرِئُهَا الْقُرْآنَ.

فخرج عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ يوماً مُتَوَشِّحاً سَيْفَهُ، يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَهْطاً مِنْ أَصْحَابِهِ، قَدْ ذَكَّرُوا لَهُ أَنَّهُمْ قَدْ اجْتَمَعُوا فِي بَيْتِ عِنْدِ الصَّفَا، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعِينَ، مَا بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمُّهُ حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبُو بَكْرُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ الصَّدِيقُ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَقَامَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِيمَنْ خَرَجَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَلَقِيَهُ «نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ مُحَمَّدًا هَذَا الصَّابِي، الَّذِي فَرَّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ آلَ هَيْثَهَا، فَأَقْتَلَهُ.

فقال له نُعَيْمُ: وَاللَّهِ لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ، أَتَرَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَارِكِيكَ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟! أَفَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَتُقِيمَ أَمْرَهُمْ؟

قال: وأيُّ أهل بيتي؟

قال: خَتْنُكَ^(٢)، وَابْنُ عَمِّكَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو، وَأَخْتُكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ، فَقَدْ - وَاللَّهِ - أَسْلَمَا، وَتَابَعَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ، فَعَلَيْكَ بِهِمَا.

فَرَجَعَ عُمَرُ عَامِداً إِلَى أُخْتِهِ وَخَتْنِهِ، وَعِنْدَهُمَا «خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِ» مَعَهُ

(١) ذَكَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، سَأَلَ «خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِ» عَمَّا لَقِيَ فِي ذَاتِ اللَّهِ، فَكَشَفَ ظَهْرَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ! فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ أَوْقَدْتُ لِي نَارًا، فَمَا أَطْفَأُهَا إِلَّا شَحِيمِي.

(٢) خَتْنُكَ أَيُّ: زَوْجُ أُخْتِكَ فَاطِمَةَ، الْخَتْنُ: زَوْجُ الْبِنْتِ، وَزَوْجُ الْأَخْتِ، وَكُلٌّ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْمَرْأَةِ، كَأَيِّهَا، وَأَخِيهَا.

صحيفة، فيها «طه» يُقرئُهما إيّاها، فلَمَّا سَمِعُوا حِسَّ عُمَرَ تَغَيَّبَ «خَبَابٌ» في مَخْدَعٍ لَهُمْ، أو في بَعْضِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ الصحيفةَ فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فِخْذِهَا، وَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ حِينَ دَنَا إِلَى الْبَيْتِ قِرَاءَةَ «خَبَابٍ» عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْئَةُ^(١) الَّتِي سَمِعْتُ؟

قَالَ لَهُ: مَا سَمِعْتَ شَيْئًا.

قال: بلى والله لَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكُمْ تَابَعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ، وَبَطَشَ بِخَتْنِهِ «سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ» فَقَامَتْ إِلَيْهِ أُخْتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ، لَتَكْفُهُ عَنْ زَوْجِهَا، فَضْرَبَهَا فَشَجَّهَا.

فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وَخَتْنُهُ: نَعَمْ قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَاضْنَعْ مَا بَدَا لَكَ.

فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِأُخْتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ، فَارْعَوَى، وَقَالَ لِأُخْتِهِ: أَعْطِينِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَؤُونَ أَنفَاءً أَنْظُرْ مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، وَكَانَ عُمَرُ كَاتِبًا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ: إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا.

قال: لا تخافي، وَحَلَفَ لَهَا بِآلِهَتِهِ لَيَرُدَّنَّهَا إِذَا قَرَأَهَا إِلَيْهَا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ طَمِعَتْ فِي إِسْلَامِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي، إِنَّكَ نَجَسٌ عَلَى شَرِّكَكَ، وَإِنَّهُ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ.

فَقَامَ عُمَرُ فَاعْتَسَلَ، فَأَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةَ، وَفِيهَا «طه» فَقَرَأَهَا، فَلَمَّا قَرَأَ مِنْهَا صَدْرًا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَكْرَمَهُ!

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ «خَبَابٌ» خَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عُمَرُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ أَمْسَ وَهُوَ يَقُولُ:

(١) الْهَيْئَةُ: صَوْتُ كَلَامٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ.

اللَّهُمَّ أَيْدِ الْإِسْلَامِ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَإِنَّ اللَّهَ
يَا عُمَرَ.

فقال له عند ذلك عمر: فدلّني يا خَبَّابُ على مُحَمَّدٍ حَتَّى آتِيَهُ
فَأُسْلِمَ.

فقال له خَبَّابُ: هو في بَيْتٍ عند الصَّفا، مَعَهُ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ،
فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ فَتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَضْرَبَ
عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
فَنَظَرَ مِنْ خَلَلِ الْبَابِ، فَرَأَاهُ مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ
فَزِعٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ، فَقَالَ
حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: فَأَذَنْ لَهُ، فَإِنْ جَاءَ يُرِيدُ خَيْراً بَدَلْنَاهُ لَهُ، وَإِنْ كَانَ
جَاءَ يُرِيدُ شَرّاً قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ.

فقال رسول الله ﷺ: ائْذَنْ لَهُ، فَأَذَنْ لَهُ الرَّجُلُ، وَنَهَضَ إِلَيْهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى لَقِيَهُ فِي الْحُجْرَةِ، فَأَخَذَ حُجْرَتَهُ^(١)، أَوْ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ،
ثُمَّ جَبَذَهُ بِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا
أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزَلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً^(٢).

قال عمر: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُكَ لِأُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَبِمَا جَاءَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ.

فكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَكْبِيرَةً عَرَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُمَرَ قَدْ أُسْلِمَ.

فَتَفَرَّقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَانِهِمْ، وَقَدْ عَزَّوْا فِي أَنْفُسِهِمْ

(١) الْحُجْرَةُ: مَوْضِعُ شَدِّ الْإِزَارِ.

(٢) الْقَارِعَةُ: الْمَصِيبَةُ الشَّدِيدَةُ.

حِينَ أَسْلَمَ عُمَرُ مَعَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمَا سَيَمْنَعَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،
وَيَنْتَصِفُونَ بِهِمَا مِنْ عَدُوِّهِمْ.

(٣)

موضوع سورة (طه)

يدور موضوع سورة (طه) حول الرسول والقرآن وبعض وظائفهما في الناس، وتحذير من يُعرض عن القرآن من الناس، من سوء المصير يوم الدين، مع بيان بعض ما يجري في يوم القيامة من تغييرات وأحداث كونية، ومع بيانات تتعلق بآدم عليه السلام، وبغض ما أنزل الله عليه لهداية الجيل البشري الأول، فمن بعدهم حتى احتاج الناس إلى رسول بعد آدم، وأن الله حذر الجيل الأول من الإعراض عما يأتيهم من هدى، كما حذر الناس في الدين الخاتم من الإعراض عن القرآن، الذي أنزله الله عز وجل للناس أجمعين، واستتبع هذا التحذير الإنذار بعقاب مشابه لأنواع العقاب التي عاقب الله بها كفار القرون السابقة.

وقد تضمن هذا الموضوع توصية من الله لرسوله وحملته رسالته من أمته ببعض الوصايا التي تتطلبها وظيفة حامل الرسالة الربانية للناس.

وجاء في آخر السورة معالجة الكافرين حول بعض أقوالهم التي ظهرت قبل نزول سورة (طه)، وفي هذه المعالجة إقناع وإنذار بالعقاب.

وقد اقتضى هذا الموضوع عرض لقطات من قصة موسى عليه السلام، وتتضمن هذه اللقطات جوانب تربوية ينتفع بها الرسول ﷺ، والذين آمنوا به واتبعوه، وتتضمن تلويحات بعض الإنذار لمن كفر وعصى، قياساً على ما جرى لفرعون وقومه.

وتتضمن أيضاً بيان بعض ما جرى لبني إسرائيل من اضطهاد في مصر، وما كان منهم من أحداث بعد خروجهم منها، وفي هذا البيان ما

يفيد بشأن موضوع السورة الأساسي، لمن أحسن التدبر واستبصر وعقل، فقَصَصُ الرُّسُلِ وأَمَمِهِم مُتَشَابِهَةٌ، ويُستفاد من قِصَصِ السابقين لِلأَحْقَيْنِ الشيءُ الكثير.

(٤)

دروس سورة (طه)

تشتمل هذه السورة على تسعة دروس:

الدرس الأول:

يتضمَّن ما يلي:

(١) بيان وظيفة الرُّسُولِ التبليغية.

(٢) بيان وظيفة القرآن التعليمية والتذكيرية.

(٣) بيان أنَّ القرآن كلام الله وتنزيلٌ من لدنه، مع التذكير بأنَّ مُنَزَّلَ القرآن هو خالقُ الأرض والسموات العلَّا، وهو العظيم الرَّحْمَنُ الذي على العرش استوى، وله ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وأنه يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى، وأنه الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنَى.

وهو الآيات من (١ - ٨).

الدرس الثاني:

يتضمن بيان لقطات من قصة موسى بدءاً من وصوله إلى قرب جبل الطور، في رِحْلَةٍ رَجَعَتْهُ إِلَى مِصْرَ من مَدْيَن، هو وأهله، ومكالمَةِ الله له، وتكليفه وظائفَ رسالَتِهِ، وأحداثِ قيامِهِ برسالةِ رَبِّهِ في مِصْرَ، حتَّى خروجه بَنِي إِسْرَائِيلَ من مِصْرَ، وَعُبُورَهُمُ الْبَحْرَ، وَغَرَقَ فِرْعَوْنَ وجنوده، مع ذكر بعض الأحداث التي جرت في سيناء بعد العبور.

وفي عرض هذه القصة غطأت تربيّة عظيمة للرسول وللذين آمنوا به
واتَّبَعُوهُ، وإنذاراتٌ للذين كفروا به ولم يَسْتَجِيبُوا لدعوته.

وهو الآيات من (٩ وحتى بعض الآية ٩٩).

الدرس الثالث:

يتضمّن تحذير من يُعْرَضُ عن القرآن الذي آتاه الله نبيّه ذِكْراً
للعالمين، من سوء المصير يَوْمَ الدِّينِ.

مع عرض لَقْطَةٍ من لقطات أحوال المجرمين يومئذٍ.

وهو الآيات من (بعض الآية ٩٩ - ١٠٤).

الدرس الرابع:

يتضمّن لقطاتٍ من وصف يوم القيامة، وما يكون فيه من تغييراتٍ
كونيّة، وأحداثٍ كبيرة.

وهو الآيات من (١٠٥ - ١١٢).

الدرس الخامس:

يتضمّن بياناً عن القرآن، وتربيّة شَبّه مُعْتَرِضَة موجهة للرسول ﷺ
تُوصِيهِ بِعَدَمِ تَعْجِلِهِ بِتَرْجِيدِ آيات القرآن حين تَنْزِيلِهِ عَلَيْهِ، من قَبْلِ أَنْ يُفْضَى
إِلَيْهِ وَخِيَهُ.

وهو الآيتان: (١١٣ و ١١٤).

الدرس السادس:

يتضمّن لقطات من قصّة آدم عليه السلام، وبيانات تتعلّق بما أنزل
الله عزّ وجلّ على الجيلِ البشريّ الأوّل من هُدى، وأنّ الله حَذَرَهُم من
الإعراضِ عَنْهُ، وهذا التَّحْذِيرُ يَنْسَجِبُ على كُلِّ الناس حتّى آخر إنسانٍ
مُكَلَّفٍ في الحياة الدُّنيا، أن لا يُعْرَضَ عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ للنَّاس على توالي

الأجيال، ومعلومٌ أَنَّ الْمَطْلُوبَ الْعَمَلُ وَفَقَّ آخِرُ تَنْزِيلٍ أَنْزَلَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ.
وهو الآيات من (١١٥ - ١١٧).

الدرس السابع:

يتضمَّن تحذير مُكذَّبِي الرِّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ والكافرين بما أنزل الله عليه
من عقابٍ إَهْلَاكِيٍّ شامل، مشابهٍ للعقاب الذي أنزله بكفَّار القرون الأولى.
وهو الآيتان: (١٢٨ و ١٢٩).

الدرس الثامن:

يتضمَّن توصية الله لرسوله، ولكلِّ حاملٍ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، بالصَّبْرِ
والتَّسْبِيحِ، وَأَنْ لَا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَى مَا مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ أَصْنَافاً مِنَ الْبَشَرِ، بِزِينَةِ
الحياة الدنيا لَامْتِحَانِيٍّ فِيهِ.

ويتضمن تَوْجِيهِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ولكلِّ حاملٍ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، لملاحظة
ما هو خير وأبقى، وهو ما أعدَّهُ اللهُ من نعيمٍ باذخٍ ومُلْكٍ عظيمٍ يوم الدين
لأوليائه. والتوصية بأنْ يُأْمَرَ أَهْلُهُ بِالصَّلَاةِ وَأَنْ يَصْطَبِرَ عَلَيْهَا.
وهو الآيات من (١٣٠ - ١٣٢).

الدرس التاسع:

يتضمَّن معالجة بعض أقوال الكافرين الاقتراحية، بالإقناع وبالإنذار
بالعذاب والإهلاك.
وهو الآيات من (١٣٣ - ١٣٥) آخر السورة.

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة طه (طه) وهو الآيات من (١ - ٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرٌ لِّمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾
تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجَهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ .

• سكت أبو جعفر سَكَنَةً لطيفة بدون تنفّس على «طا» و«ها»، ولم يَسْكُتْ هذه السكَنَةُ باقي القراء العشرة.

التدبر التحليلي:

• [طه] حرفان من الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض سُور القرآن، وقد ذَكَرْتُ ما يَكْفِي بشأنها لدى تدبر أول سورة (القلم).

وذكروا أَنَّ كلمة (طه) هي بمعنى: يا رجل، في لغة «عك» وفي لغة «عكل» وفي لغة «طي»، وقيل: هي كذلك في اللُّغة النبطيّة، وفي اللُّغة الحبشيّة، وفي اللُّغة السّريانيّة.

ولفظ «طه» اسمٌ لهذه السورة.

ولم يصحّ أنها اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، أو اسم من أسماء الرسول محمد ﷺ.

قول الله عزّ وجلّ:

[مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾]:

الخطابُ في هذه الآية موجّه للرّسول محمد ﷺ، وهو ينسحب من بعده، فيشملُ كُلَّ حَمَلَةٍ رسالته من أُمَّته.

[لِتَشْقَى]: الشقاء: يُطْلَقُ في اللُّغة على كلّ ما لا يسُرُّ الإنسان من أُمُور، وعلى كلّ ما يُخالفُ رغبةً له ومطلوباً من مطالبه، في عاجلِ أمرِهِ أو آجله، من أدنى المزعجات والمكدرات، إلى أشدّ المؤلّمات.

أي: ما أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدٌ لَتَكْلِفِيكَ أَعْمَالاً تَشْقَى بها،

أي: تُتَعَبُ نَفْسَكَ وَقَلْبَكَ بِهَا، كَتَحْمِيلِكَ وَاجِبَ حَمْلِ النَّاسِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وبما جاء فيه، ووَاجِبَ حَمْلِ النَّاسِ عَلَى تَطْبِيقِ شَرَائِعِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وما جاء فيه من أَوَامِرَ وَنَوَاهِي.

وقد جاء في القرآن معالجةُ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ، بشأنِ حُدُودِ مَسْئُولِيَّتِهِ تجاه رسالته، في نصوص متعدّدة، وفي مراحل متتابعة من تاريخ رسالته صلوات الله عليه، وبأساليب بيانية مختلفة، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) خطاباً

له:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿... فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

• [إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾]:

قام في أذهاب المفسّرين أنّ «إِلَّا» في هذه الآية أداة استثناء، أو الاستثناء بها استثناء منقطع، فأخذوا يُؤَوِّلُون تأويلات لا لزوم لها.

والأوّلَى أنْ نَعْتَبِر «إِلَّا» هنا وفي مواضع أخرى مشابهة، أداة استدراكٍ بمعنى: «لَكِنْ» وعندئذٍ فلا حاجة في العبارة إلى تأويل.

وعلى هذا يكون المعنى: ما أنزلنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لتكليفِكَ أَعْمَالاً

تَشَقَّى بِهَا، لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ لَتَقُومَ بِتَبْلِيغِهِ، وَبَيَانِ مَا جَاءَ فِيهِ، وَمَتَابَعَةِ تَذْكِيرِ مَنْ يَخْشَى، وَلِيَكُونَ نَصُّهُ دَوَاماً أَدَاةَ تَذْكِيرٍ لِمَنْ يَخْشَوْنَ عِقَابَ رَبِّهِمْ، بِمَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[تَذْكِرَة]: التَّذْكِرَة: تَأْتِي بِمَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: التَّذْكِرَة: اسْمٌ لِمَا يُسْتَذَكَّرُ بِهِ الشَّيْءُ الْمَطْلُوبُ تَذْكِرُهُ، كَالرَّائِمَةِ، وَكَالْبَطَاقَةِ الَّتِي تُذَكَّرُ بِمَوْعِدِ اللَّقَاءِ وَالِاجْتِمَاعِ.

المعنى الثاني: التَّذْكِرَة: مَصْدَرٌ لِفِعْلِ «ذَكَرَ» يُقَالُ لُغَةً: ذَكَرَهُ تَذْكِيراً وَتَذْكِرَةً.

قَالَ الصَّرْفِيُّونَ: وَنَدَرَ مَجِيءُ مَصْدَرِ «فَعَلَ» عَلَى «تَفْعِلَةً» وَمِنْ هَذَا النَّادِرِ: «ذَكَرَ تَذْكِرَةً» وَ«جَرَّبَ تَجْرِبَةً» وَ«بَصَرَ تَبْصِرَةً».

وَيُمْكِنُ حَمْلُ لَفْظِ «تَذْكِرَة» فِي الْآيَةِ عَلَى الْمَعْنَيْنِ:

• فنقول على الأول: لَكِنْ لِيَكُونَ الْقُرْآنُ نَصّاً ثَابِتاً مَكْتُوباً، يَسْتَذَكِّرُ بِهِ مَنْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• وَنَقُولُ عَلَى الثَّانِي: لَكِنْ تَذْكِيراً مِنْكَ وَمِنْ حَمَلَةِ رِسَالَتِكَ مِنْ أَمَتِكَ، لِمَنْ يَخْشَى.

أَي: أَنْ تُتَابَعَ بِالتَّذْكِيرِ بِالْقُرْآنِ مَنْ تَجِدُ لَدَيْهِ اسْتِعْدَاداً لِأَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَعِقَابَهُ.

[لِمَنْ يَخْشَى]: أَضْلُ مَعْنَى الْخَشْيَةِ، الْخَوْفُ مِنْ شَيْءٍ مَخُوفٍ مِنْهُ.

وَالْخَشْيَةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُسْتَوَاهَا الْأَعْلَى، خَوْفٌ مَصْحُوبٌ بِتَعْظِيمٍ، وَإِجْلَالٍ، وَمَهَابَةٍ، وَقَدْ يَفْتَرُونَ بِهَا الْحُبَّ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• [تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤٥﴾]:

[تَنْزِيلًا]: مَصْدَرُ «نَزَلَ» وهو بمعنى «الإنزال» مَصْدَرِ «أنزل» لأنَّ الفعل المضعف أخو الفعل المهموز.

وقد يُخْتَارُ لَفْظُ «التَّنْزِيلِ» للدَّلَالَةِ على الأناة والتَّمَهُّلِ.

وهو مفعول مطلق من الفعل في [أَنْزَلْنَا] في الآية (٢) بشيء من التأويل، أو هو مفعولٌ مُطلقٌ من فِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: نُزِّلَ تَنْزِيلًا بِأَنَاءٍ وَتَمَهُّلٍ مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى.

وقد سَبَقَ أَنْ ظَهَرَ لَنَا بالتدبر، أَنَّ كُلَّ عَطَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا يَأْتِي مِنْهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ إِنْزَالٌ وَتَنْزِيلٌ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْعِلْمِيُّ الْأَعْلَى، وَلَوْ كَانَ مَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صُنْعًا مِنْ صُنْعِهِ فِي الْأَرْضِ، لَمْ يُنْزَلْهُ مِنَ السَّمَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الرُّمِّ/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿... وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ...﴾ ﴿٦١﴾

في معظم النصوص القرآنية التي اجْتَمَعَ فِيهَا ذِكْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، نَجِدُ أَنَّ لَفْظَ «السَّمَاوَاتِ» أَوْ «السَّمَاءِ» قَدْ جَاءَ مُقَدِّمًا عَلَى الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الْبَدْءِ بِذِكْرِ الْأَكْبَرِ، وَبَعْدَهُ يَأْتِي ذِكْرُ مَا هُوَ أَصْغَرُ.

لكن جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْبَدْءُ بِذِكْرِ الْأَرْضِ، لِمُرَاعَاةِ فِتْنَةِ التَّنَازُلِ بَيْنَ رُؤُوسِ الْآيَاتِ، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وُصِفَتِ السَّمَاوَاتُ بِكَلِمَةِ [الْعُلَى].

[الْأَرْضِ] هِيَ هَذَا الْكَوْكَبُ الَّذِي نَعِيشُ عَلَيْهِ، بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ مَنَافِعَ وَعَجَائِبِ خَلْقِ رَبَّانِي.

[وَالسَّمَاوَاتِ]: هِيَ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَيُلْحَقُ بِهَا الْكُرْسِيُّ وَالْعَرْشُ، لِأَنَّهَا تَقَعُ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَرْضِ وَسُكَّانِهَا، فَالسَّمَاءُ فِي اللَّغَةِ كُلُّ مَا عَلَا وَارْتَفَعَ عَنْ رَأْسِ مُشَاهِدِهِ، وَهُوَ غَيْرُ مُنْكَسِ الْقَامَةِ.

[الْعُلَى]: على وَزْنِ «الْفَعْل» جَمْعُ «الْعُلَيَا» على وزن «الْفُعْلَى» مثل «الكُبْرَى» تُجْمَعُ على «كُبَر» والصُّغْرَى تُجْمَعُ على «صُغَر» وهو جَمْعٌ قياسي.

العُلا: أي: المرتفعة، وارتفاعها العظيم مشهودٌ لكلِّ ذي نظر. أمَّا ما في السَّمَاوَاتِ من عجائب خَلْقِ الله - جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطَانُهُ - فَشَيْءٌ لَا تَسْتَطِيعُ كُلُّ الْخَلَائِقِ حَضْرَهُ.

أي: إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عَظَمَةُ الْقُرْآنِ مُتَنَاسِبَةً مَعَ عَظَمَةِ مُنْزَلِهِ، خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾:

أي: خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا هُوَ الرَّحْمَنُ، وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى.

[الرَّحْمَنُ]: اسم من أسماء الله الحُسْنَى، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَتَّصِفٌ بِالرَّحْمَةِ الْعَظْمَى.

الرَّحْمَةُ: صفة من صفات الله الجليلة، وهي صفة نَفْسِيَّةٌ نَشِئَتْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ.

ومن آثار صفة الرَّحْمَةِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يَسَّرُ، وَيُسَكِّنُ النَّفْسَ، وَيَطْمِئِنُّ الْقَلْبَ، وَيُمْنَعُ ذَا الْحَيَاةِ بِمَا يَطِيبُ لَدِيهِ، وَيَهْبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَاتِهِ، وَيَكْفُ عَنْهُ الشَّرُّ وَالضَّرُّ وَالسُّوءُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُ وَسَعَادَتُهُ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَآجِلِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ وَضَرٌّ وَأَذَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا.

[عَلَى الْعَرْشِ]: الْعَرْشُ: كائِنٌ عَظِيمٌ، فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَفَوْقَ الْكُرْسِيِّ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا. وَلَيْسَ لَدَيْنَا بَيَانٌ صَحِيحٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ يُبَيِّنُ وَضْفَهُ، أَوْ يُبَيِّنُ وَضْفَ الْكُرْسِيِّ، وَالَّذِي التَّقْتِ عَلَى بَيَانِهِ الْآثَارُ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاحَ، وَأَنَّ الْكُرْسِيَّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاحَ.

[اِسْتَوَى]: اِلِاسْتَوَاءُ: فِي اللُّغَةِ اِلِاسْتِقَامَةُ وَاِلِاعْتِدَالُ، يُقَالُ لُغَةً: اِسْتَوَى فَلَانٌ عَلَى كَذَا، أَيْ: اِعْتَدَلَ وَاسْتَقَامَ فَوْقَهُ.

وَيُقَالُ: اِسْتَوَى إِلَى فِعْلٍ كَذَا، أَيْ: اِعْتَدَلَ وَاسْتَقَامَ مُتَوَجِّهًا لِفِعْلِهِ، قَاصِدًا إِلَيْهِ، لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ آخَرَ.

وَيُقَالُ: اِسْتَوَى فَلَانٌ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ، أَيْ: تَوَلَّى تَصْرِيفَ شُؤُونِ مَمْلَكَتِهِ.

وَأَحْسَنُ بَيَانٍ حَوْلَ اِلِاسْتَوَاءِ الَّذِي وَضَفَ الرَّحْمَنُ بِهِ نَفْسَهُ، مَا قَالَهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ:

«الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَاِلِاسْتَوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَاِلِإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ١٠:

• [لَهُ]: أَيْ: مِلْكُ اللَّهِ جَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَلَفْظُ «مَا» هِيَ فِي الْأَصْلِ لَغَوِي الْعَاقِلِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَكِنْ قَدْ تُسْتَعْمَلُ مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ عَلَى ذَوِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ «مَنْ» الْخَاصَّةُ بِذَوِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، فِي قَوْلِ

الله عز وجل في سورة (الرؤم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) دالاً على أنهم ملكه:

﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ فَتَنُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

ونظيره في قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

[كُلُّ لَهُ قَانِثُونَ]: أي: كُلُّ لَهُ طَائِعُونَ خَاضِعُونَ، والمراد بالطاعة والخضوع هنا ما كَانَ مِنْهُمَا جَبْرِيًّا لَا اخْتِيَارِيًّا، نظراً إلى أَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَوْجَدُ فِيهِمْ عَاصُونَ وَمُسْتَكْبِرُونَ، وغير طائعين ولا خاضعين باختيارهم الحرّ.

[لَا يَسْتَحْسِرُونَ]: أي: لَا يَتَعَبُونَ وَلَا يَمْلُونَ، وهم الملائكة.

• [وَمَا تَحْتَ الثَّرَى]: الثَّرَى: الثَّرَابُ النَّدِيّ، وَيُظَلَّقُ أَيْضاً عَلَى النَّدَى.

أي: لِلَّهِ الرَّحْمَنُ مِلْكُ كُلِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ أَشْيَاءٍ وَأَحْيَاءٍ، وَكُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَشْيَاءٍ وَأَحْيَاءٍ، وَكُلِّ مَا فِي دَاخِلِ الْأَرْضِ مِنْ كُنُوزٍ إِنْبَائِيَّةٍ، بِسَبَبِ النَّدَى وَالْمَاءِ الَّذِي يَبْلُ الثَّرَابَ فَيَكُونُ صَالِحاً لظُهُورِ النَّبَاتِ وَنُمُوِّهِ، وَكُلِّ مَا فِي دَاخِلِ الْأَرْضِ مِنْ كُنُوزٍ أُخْرَى، كَالْمَعَادِنِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَالْمِيَاهِ وَالنَّفْطِ، وَالْفَخْمِ الْحَجَرِيِّ، وَالْحَرَارَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَوْدَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ.

واختير لفظ «الثَّرَى» هنا لحكمتين:

الحكمة الأولى: مراعاة فنية التناظر بين رؤوس الآيات.

الحكمة الثانية: أَنَّ سَطَحَ الأرض وما تكشفه المحاريث والحفريات منها داخلٌ في عُمومِ عبارة: [وَمَا فِي الْأَرْضِ] لأنَّ أكثرَ النَّاسِ يَفْهَمُونَ من الأرض ما هو مرئيٌّ منها، ولا يفهمون من لفظ «الأرض» ما هو داخلٌ في أعماقها حتَّى مَرَكَزِ كُرَتِهَا.

فاقتضى البيانُ التَّنْبِيهَ على هذا الباطن، بعبارة: [وَمَا تَحْتَ الثَّرَى]، أي: وما تحت الترابِ النَّديِّ المَبْلُولِ، الَّذِي يُهْمُّكُمْ لزراعته واستنبات ما تحتاجونه لأنفسكم وأنعامكم ودوابكم.

وإذا كان كُلُّ ما في السَّمَاوَاتِ والأرض وما بَيْنَهُمَا وما في باطنِ الأرض، داخلًا في مِلْكِ الله عزَّ وجلَّ، فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خاضِعاً لِسُلْطَانِ مُلْكِهِ في كلِّ التصاريِف والتدبيرات.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾: ﴿٧﴾

• [وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ]: الجَهْرُ بالقول هو إعلانُه برفع الصوت عند النُّطْقِ به.

وفي استعمال «إِنْ» الدَّالَّةُ على النُّدْرَةِ، إشارةٌ إلى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رُبَّمَا جَهَرَ بِبَعْضِ دُعَائِهِ، من شِدَّةِ ما أَصَابَ نَفْسَهُ من ضيقٍ، بسبب عدم استجابة كبراء قومه لدعوته.

• [فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى]: السِّرُّ: هو ما حَدَّثَ به المحدث غيرُه بمقدار ما يُسْمِعُهُ، واستكتمَهُ إِيَّاهُ، حتَّى لا يصلَ العلمُ به إلى غيره.

والآراء الأخرى التي ذكرها بَعْضُ المفسِّرين في تعريف السِّرِّ يُبْطِلُهَا ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التحریم/٦٦ مصحف/١٠٧):

﴿وَإِذَا أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا...﴾ ﴿٣﴾

فقد عبّر الله عزّ وجلّ عن حديث النبي لبعض أزواجه بأنه أسرّه لها، فهو سرّ، وهذا الحديث لا بُدّ أن يكون بكلام مسموع.

والأخفى من السرّ: هو ما حدّث به الإنسان نفسه في داخل نفسه، دون أن ينطق به، كالخواطر، والأحاديث الكثيرة التي تجري داخل النفس، دون أن ينطلق منها على اللسان شيء.

إنّ الأفكار التي يُعبّر عنها بالكلام لها ثلاثة أحوال:

(١) إمّا أن يجهر الناطق بها، إذ يرفعُ بها صوته، دون أن يحاول إخفاءها عن أحد.

(٢) وإمّا أن يحدث بها من يستأمنه على سرّه، وهو حريص على إخفائه عن غير من استأمنه.

(٣) وإمّا أن يحدث بها نفسه في داخل نفسه، دون أن ينطق به.

ولعلّ الرّسول ﷺ أعلن بعض دُعائه لرّبّه، فيما يتعلّق بإعراض قومه عن القرآن وهجرهم له، وعدم استجابتهم لدعوته، كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ﴾

فأعلن الرّسول ﷺ بدعائه هذا، وجهر به، فأعلمه الله عزّ وجلّ بأنه لا حاجة إلى جهرك بمثل هذا الدعاء، فإنّ ربّك يعلم مناجاتك له سرّاً، ويعلم أحاديث نفسك وخواطرِكَ.

وقد سبق لدى تدبّر الآية (٣) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بيان أدب الدعاء والذكر لله عزّ وجلّ، وكذلك لدى تدبّر الآية (٢٠٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

والتوجيه للرّسول ﷺ في هذا يعمّ كلّ فردٍ من أفراد أمّته.

قول الله عز وجل:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿٨﴾

هذه الآية بمثابة قرينة مُشْعِرَة بالمراد بالآية (٧) السابقة لها، وهو أنَّ الرُّسُولَ ﷺ قد جَهَرَ بالقول في بَعْضِ دَعَائِهِ لِرَبِّهِ، وكان أدبُ الدُّعاء أن يناجي رَبَّهُ به مناجاةً، أو يَكْتَفِي بالدُّعاء النَّفْسِي.

فذكرُ الأسماء الحُسنى، التي يَدْعُو المؤمنُ بها رَبَّهُ، وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾.

يُسْعِرُ بأنَّ الأمرَ الذي وَجَّهَهُ اللهُ عز وجل لرسوله، يَتَعَلَّقُ بدعاء جَهَرَ به، وكان الأولى أن يلتزم أدب الدُّعاء، فيناجي رَبَّهُ، أو يَدْعُوهُ في نَفْسِهِ.

ويؤكد هذا قول الله لرسوله في الآية الثانية من هذا الدرس: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَّي﴾ ﴿٢﴾.

• [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ]: أي: الله لا مَعْبُودَ بحقِّ عبادة تَنفَعُ العابدَ إِلَّا هو جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

وقد جاءت هذه العبارة تمهيداً لعبارة [لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]، أي: التي لا عبادةَ لِلَّهِ بالدُّعاء إِلَّا بها.

وأسماءُ اللَّهِ الحُسنى تَشْمَلُ كُلَّ أسمائه وصفاته، وَمِنْهَا ما جاء في الحديث الصحيح:

«إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

[الحُسنى]: مؤنَّث «الأحسن» فهي أفضل الأسماء بالإطلاق العام

الشامل.

ولعلَّ في ذكر «الحُسْنَى» إشارةً إلى أنه يَحْسُنُ أن يَسْتَخْدِمَ الداعي في دعائه من أسماء الله ما يُلائِمُ المدعُوَّ به.

فإذا كان المطلوب يتعلَّقُ بِرَحْمَةِ الله، سأل رَبَّهُ بِاسْمِي الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وإذا كان المطلوب يتعلَّقُ بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، سأل الداعي رَبَّهُ بِاسْمِي الْعَفْوَ الْغَفَارِ.

وإذا كان المطلوبُ الانتقامُ مِنَ الظَّالِمِ الْكَابِرِ، سأل الداعي رَبَّهُ بِأَسْمَائِهِ الْمُنْتَقِمِ الْقَهَّارِ الْجَبَّارِ.
وهكذا...

وبهذا انتهى تدبُّر الدَّرْسِ الأوَّل من دُرُوس سورة (طه)، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه)

وهو الآيات من (٩ وحتى بعض الآية ٩٩)

وهذا الدرس يتضمن لقطات من قصة موسى عليه السلام

ولطوله يَحْسُنُ تجزئته إلى فقرات

الفقرة الأولى

الآيات من (٩ - ٣٦)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى (١١) أَنَا رَبُّكَ فَانْخَعْ نَعْلَيْكَ ۚ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا

اٰخَرْتَكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ اِنِّى اَنَا اللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدْنِىْ وَاَقِمِ الصَّلَاةَ
لِدِكْرِىْ ﴿١٤﴾ اِنَّ السَّاعَةَ ءَايَةٌ اَكَادُ اُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعٰى ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاَتَّبَعَ هَوٰىهُ فَتَرَدٰى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَسْمِيْنٰكَ
يَمُوْسٰى ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ اَتَوَكَّلُ عَلٰىهَا وَاهْبَشُ بِهَا عَلٰى غَنَمِىْ وَلِىْ فِيْهَا مَخْرَبٌ
اُخْرٰى ﴿١٨﴾ قَالَ اَلْفَهَا يَمُوْسٰى ﴿١٩﴾ فَاَلْقٰنَهَا فَاِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعٰى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيَرَتَهَا اَلٰوَلٰى ﴿٢١﴾ وَاَضْمُمْ يَدَكَ اِلٰى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ
غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ اُخْرٰى ﴿٢٢﴾ لِّرَبِّكَ مِنْ ءَايٰتِنَا اَلْكُبْرٰى ﴿٢٣﴾ اَذْهَبْ اِلٰى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ طَغٰى
﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اَشْرَحْ لِيْ صَدْرِىْ ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيْ اَمْرِىْ ﴿٢٦﴾ وَاَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِّسَانِىْ
﴿٢٧﴾ يَقْفُوْهُا قَوْلِىْ ﴿٢٨﴾ وَاَجْعَلْ لِّىْ وَزِيْرًا مِّنْ اَهْلِىْ ﴿٢٩﴾ هٰزُوْنَ اَخِىْ ﴿٣٠﴾ اَشَدُّ بِهٖ
اُزْرِىْ ﴿٣١﴾ وَاَشْرِكْهُ فِىْ اَمْرِىْ ﴿٣٢﴾ كِىْ سُبْحَكَ كَثِيْرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيْرًا ﴿٣٤﴾ اِنَّكَ
كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ اُوْتِيتَ سُوْلًاكَ يَمُوْسٰى ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾

القراءات:

- ١٠ • قرأ حمزة: [لِأَهْلِهِ امْكُثُوا] بضَمِّ هاء الضمير.
- وقراها باقي القراء العشرة: [لِأَهْلِهِ امْكُثُوا] بكسر هاء الضمير، وهما لغتان عَرَبِيَّانِ جائزتان.
- ١٠ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَنَسْتُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.
- ١٠ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [لَعَلِّي آتِيكُمْ] بفتح ياء المتكلم.
- وقراها باقي القراء العشرة: [لَعَلِّي آتِيكُمْ] بإسكان ياء المتكلم.
- ١٢ • قرأ نافع: [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ] بفتح ياء المتكلم وكسر همزة «إِنَّ».
- وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [أَنِّي أَنَا رَبُّكَ] بفتح ياء المتكلم، وفتح همزة «أَنْ» من «أَنِّي».

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ] بإسكان ياء المتكلم، وكسّر همزة «إِنَّ».

كسّر همزة «إِنَّ» هو على أَنَّ الجملة ابتدائية، وفتحها هو على تقدير حرف جرّ مَحذوف، أي: نودي يا مُوسَى بِأَنِّي أَنَا رَبُّكَ. وهما وجهان جائزان، وفيهما تفنُّن في التعبير.

١٢ • قرأ يعقوب: [بِالْوَادِي] فأثبت الياء في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِالْوَادِ] بحذف الياء في الوقف والوصل.

١٢ • قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [طَوَى] بالتونين، على أن اللفظ مصروف، بتقدير أنه نكرة وهو اسمُ وادٍ، أو مكان ما.

وقرأها باقي القراء العشرة: [طَوَى] بدون تنوين على أَنَّ اللفظ ممنوعٌ من الصَّرْف، بتقدير أنه معرفة إذ هو اسم بَقْعَةٍ مَعْرُوفَةٍ.

١٣ • قرأ حمزة: [وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ] بضمير المتكلم العظيم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ] بضمير المتكلم المفرد.

والقراءتان تَدُلُّانِ على أَنَّ الله عزَّ وجلَّ خاطب موسى بضمير المتكلم العظيم أولاً، لتربية المَهَابَةِ في قَلْبِهِ، ولإشعاره بأنَّ الخالق قد اصطفاه بعظمة رُبُوبِيَّتِهِ، وَبَعْدَ ذلك عاد إلى مخاطبَتِهِ بضمير المفرد لإيناسِهِ، فَالسَّبَاقُ وَالسِّيَاقُ اشتملا على خطاب الله له بضمير المفرد.

١٤ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ] بإسكان ياء المتكلم.

١٤ - ١٥ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [لِذِكْرِي إِنَّ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٨ • قرأ ورش، وحفص: [وَلِي فِيهَا] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلِي فِيهَا] بإسكان ياء المتكلم.

٢٦ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي] بفتح ياء المتكلم من [لي].

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي] بإسكان ياء المتكلم من [لي].

٣٠ - ٣١ • قرأ ابنُ عامر: [أَخِي اشْدُدْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَخِي اشْدُدْ] بإسكان ياء المتكلم.

٣٢ • قرأ ابنُ عامر: [وَأُشْرِكُهُ] بضمّ الهمزة على أن موسى يجعلُ أخاهُ شريكاً له في أمرٍ رسالته.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأُشْرِكُهُ] بفتح الهمزة، على أن موسى عليه السلام سأل رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ أخاه هارون شريكاً لَهُ في أمرِهِ.

والقراءتان تَدُلَّانِ على أن موسى عليه السلام قال أولاً: [وَأُشْرِكُهُ في أَمْرِي] ثُمَّ رَأَى أَنَّ هَذِهِ العبارة لا تَلِيْقُ في مقام متلقّي الرسالة عن رَبِّهِ، فَعَدَلَ عَنْهَا، وقال سائلاً رَبَّهُ: [وَأُشْرِكُهُ].

تمهيد:

هذه فقرة تصِفُ حَدَثاً جرى لموسى عليه السلام، وهو راجعٌ بأهله من أرضِ مَدين إلى مصر، حيث قومُه وأهلُه الإسرائيليون، بعد أن خرج منها خائفاً يترقبُ، حذراً من أن تقتله السُلْطَةُ الفرعونية، إذ شاع في المصريين خَبَرُ قَتْلِهِ المِصْرِيِّ انتصاراً للإسرائيلِي المظلوم الذي استنجد به، إذ وَكَزَّهُ وَكَزَّهُ فَقَضَى عليه.

والحدث العظيم الَّذِي تَصِفُ هذه الفقرة لقطاتٍ منه، هُوَ نداء الله لموسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، ومكالمته له، وَمَنْحُهُ آيَتِي الْعَصَا واليد، وتكليفُهُ حَمَلَ رسالةٍ عظمى لفرعون والمصريين، ولبنِي إسرائيل، ولكلِّ مَنْ تَبْلُغُهُمْ دَعْوَتُهُ.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ٩:

العطف في مطلع هذا الدرس الثاني يَدُلُّ على ربطه بالدرس الأول، وهذا الرَبْطُ يُشْعِرُ الرَّسُولَ المخاطب به بأن ينظر متفكراً فيما لاقى موسى من متاعب ومشقات في حَمَلِهِ رسالةً ربه، وأنه لم يكن مكلفاً أن يحوّل فرعون وقومه إلى الإيمان والإسلام، من الكفر والعصيان، بل كان مكلفاً أن يُبَلِّغَ رسالة ربه بالبيان وبالحجة والبرهان، فإذا نظر إلى قصّة موسى بإمعان هان عليه ما هُوَ فيه. ثم على حَمَلَةِ رسالة محمّد من أمته أن ينظروا هذا النظر وَيَتَفَعَّلُوا به.

[هَلْ]: حرف استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن النسبة الحكميّة في حالة الإيجاب، لا في حالة السَّلْبِ، والنَّسْبَةُ الحكميّة ما يُعْرَفُ عند المناطقة بالتصديق.

والاستفهام في هذه الجملة خارجٌ عن أَصْلِ دلالته، وهي طَلَبُ الإفهام والإعلام، إلى معنى آخر من المعاني الكثيرة التي يخرج فيها الاستفهام عن أَصْلِ دلالته.

ونفهم هُنَا أَنَّ المرادَ التَّنْبِيهَ على أمرٍ يُرادُ الإعلام به، ممّا يتعلّقُ بالنبيِّ الرَّسُولِ موسى عليه السلام.

[أَتَاكَ]: فعل «أَتَى» هو في الأصل بمعنى المجيء لذاتٍ من الملموسات، واستُعْمِلَ بمعنى العِلْم بالخبر، أو وُصُول الكلام المتضمّن للخبر، وهذا من التوسّع اللّغويّ الذي صارَ بمثابة الحقيقة.

[حَدِيثُ مُوسَى]: الحديث: كُلُّ ما يَنْطِقُ به اللّسان من كلامٍ ذي معنى.

و«مُوسَى» هو النبيُّ الرّسول، مُوسَى بْنُ عمران، بن قاهث، بن عازر، بن لاوي، بن يعقوب، بن إسحاق، بن إبراهيم عليهم السلام.

لفظ «موسى»: اسم مصري معناه «ولد»، ومعناه بالعبري «مُنْتَشِل»، أي: مُنْتَشِلٌ من الماء.

عمران: هو عند أهل الكتاب ينطق «عمرام» و«قاهث» هو عندهم «قهاث».

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِذْ رَمَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾

[إِذْ]: ظرفٌ للزَمَنِ الماضي، وهو هنا زَمَنُ بعض الأحداث الماضية التي جَرَتْ لموسى عليه السّلام، بَعْدَ أَنْ رَأَى نَاراً وهو في رحلة عَوْدَتِهِ إلى مصر، مع أهله من أرض مَدْيَن، الّتي تَزَوَّجَ فيها ابْنَةُ الشَّيْخ الصّالِح، وأقام فيها نحو (١١) عاماً، خَدَمَ عَشْرًا منها صِهرُهُ أبا زوجته، والحادية عشرة هي الّتي جعل له صِهرُهُ فيها مقابل خدمته له ما ولدَتْ غنْمُهُ من «قَالِبِ ألوان»، أي: من غير ألوان أمّهاتها، بَعْدَ أَنْ أَدَّى في خدمته «أَوْفَى الأجلين وأكْمَلُهُمَا» وهو عشر سنين، وكان قال له صِهرُهُ: أَنْكِحْكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ^(١).

قال أهل الكتاب: واسمُها «صَفُورَة».

• [إِذْ رَأَىٰ نَارًا]: قال المفسِّرون والمؤرِّخون: قد حصل ذلك في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وباردة، وأنَّ موسى وأهلَهُ تاهُوا، فلم يَهْتَدُوا إلى السُّلوكِ في الدَّربِ المألوف إلى مِصر، وأنَّه جعلَ يُورِي زِنَادُهُ فلا يُعْطِي شَرًّا لِيُوقِدَ ناراً، وقد اشتدَّ الظلامُ والبرد.

• [فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا]: أي: فقال لزوجته وولَدَيْهِ ورُبَّما كان معهم خادم: امْكُثُوا، دَلَّ على هذا مخاطبَتُهُ لهم بضمير الجماعة: امْكُثُوا.

لفظ «الأهل» يطلقُ على الأقارب، والعشيرة، والأصحاب، والزوجة، وأهلُ الدَّار هم سُكَّانُها.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ بشأنِ لوطٍ عليه السَّلام في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَنبَيْتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٢)

وكان أهلُهُ عليه السلام ابْتَنَيْهِ وزَوْجَتَهُ.

[امْكُثُوا]: المَكْثُ: التوقُّفُ والانتظار والتمهُّل، يقالُ لغة: «مَكَّثَ بالمكان يَمْكُثُ مَكْثًا ومَكْثًا ومُكْثًا» أي: توقَّف، وانتظر، وتمهَّل.

• [إِنِّي آنَسْتُ نَارًا]: أي: إِنِّي أَبْصَرْتُ ناراً، يُقالُ لغة: «آنَسَ الشيءَ»، أي: أَحَسَّ به. وآنَسَهُ، أي: أَبْصَرَهُ. وآنَسَ الصَّوْتُ: أي: سَمِعَهُ. وآنَسَ الأمرَ، أي: عَلِمَهُ.

• ﴿لَعَلَّيْكُمْ مِنْهَا يَقْبَئِينَ أَوْ آخِذُوا عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١٠٠)

[لَعَلِّي]: ذَكَرَ هذه العبارة التي تدلُّ على الترجي، لأنه لم يكن جازماً بتحَقُّق كلا الأمرين وكان يُرَجَّح تحَقُّق أحدهما، والترديد بحرفِ «أو» يجعل القضية مانعة حُلُوًّا، لا مانعة جمع.

[بقبس]: القبس: لفظ يُطْلَقُ على النار، ويُطْلَقُ على شُعْلَةٍ منها.

وقد دلّت عبارة: [لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ] على أنّ موسى عليه السلام وأهله كانوا بحاجة إلى نارٍ يوقدونها، وأنّ الزناد الذي كان معه لم يُورِ فلم يستطع إيقاد النار التي يحتاجون إليها.

ودلّت عبارة: [أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى] على أنّهم كانوا تائهين عن الطريق الموصل إلى مصر، فهم بحاجة إلى من يهديهم، ويدلّهم على الطريق. ودلّ حرف [على] دون «عند» على أنّ موسى عليه السلام قصد المشرفين على إيقاد النار، لأنّهم يكونون أصحاب معرفة بالطريق غالباً.

نظرة إلى ما جاء في التّصوُّص القرآنيّة الأخرى بشأن هذا الحدث:

(١). جاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

[بشهاب]: الشهاب: الشُعْلَةُ الْمُتَهَبَّةُ من النار.

[تَصْطَلُونَ]: أي: تَسْتَدْفِئُونَ. وهذه العبارة تدلّ على أنّهم كانوا يُعَانُونَ من شِدَّةِ البَرْدِ.

ولكن جاء في هذه الآية قول موسى لأهله على سبيل الجزم: ﴿سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾.

بينما جاء التعبير في آية سورة (طه) على سبيل التّرجي لا على سبيل الجزم، إذ قال فيها: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾، فكيف نُوفِّقُ بَيْنَ العبارتين؟

أقول: يظهر أنّ موسى عليه السلام لما رأى ناراً فرح برؤيتها، فقال

دُونَ تَرْيُثٍ عِبَارَتُهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ، كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ (النمل). وَلَمَّا هَدَأَتْ فَرْحَتَهُ، عَدَّلَ عِبَارَتَهُ فَجَاءَ بِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّرْجِي، كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ (طه) إِذْ رَأَى أَنَّ الْجَزْمَ فِي مِثْلِ هَذَا لَا يَلِيقُ بِحَكِيمٍ عَاقِلٍ رَشِيدٍ، وَرَبِّمَا قَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ مِمَّا تَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ، فَتَرَاوَجَعَ عَنْ جَزْمِهِ، وَعَدَّلَ عِبَارَتَهُ، فَجَعَلَهَا بِصِغَةِ التَّرْجِي.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُوفٍ مِنْ الْنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩).

الجدوة: مثلثة الجيم في اللغة، وهي الجَمْرَةُ الملتهبة.

أضافت هذه الآية من سورة (القصص) أن رِحْلَةَ عودته إلى مصر كانت بعد أن قضى أَجَلَ خِدْمَتِهِ لِصِهْرِهِ أَبِي زَوْجَتِهِ، وَكَانَتْ أَوْفَى الْأَجَلِينَ وَأَكْمَلَهُمَا، وَهِيَ (٨) أَوْ (١٠) سَنَاتٍ.

وأضافت بيان أن النَّارَ الَّتِي آنَسَهَا قَدْ رَأَاهَا مِنْ جَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ، وَيُسَمَّى عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ: «جَبَلُ اللَّهِ حُورِيب».

وجاء التعبير في آيَتِي (النمل) و(القصص) بعبارة: [بِخَبَرٍ] أَي: بِخَبَرٍ عَنِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى مِصْرَ. أَمَّا التَّعْبِيرُ فِي آيَةِ (طه) فَقَدْ جَاءَ بِعِبَارَةٍ: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾، وَالْمَرَادُ خَبَرٌ يَهْدِيهِ الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَى مِصْرَ، فَهُوَ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي التَّعْبِيرِ، قَالُوا: وَلَمْ تَكُنْ نَاراً ذاتَ لَهَبٍ يُحْرِقُ، وَإِنَّمَا هُوَ نُورٌ عَلَى شَكْلِ نَارٍ.

فَالْآيَاتُ الثَّلَاثُ مُتَكَامِلَاتٌ، وَفِي بَعْضِهَا بَيَانٌ عَنِ التَّعْدِيلِ الَّذِي جَاءَ فِي عِبَارَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنَ الْجَزْمِ إِلَى التَّرْجِي، مَعَ مَا فِي تَغْيِيرِ بَعْضِ الْعِبَارَاتِ مِنْ تَفَنُّنٍ بَيَانِي.

وهكذا نجد فيما يَبْدُو في النُّصوص القرآنية من مكررات أنَّها متكاملات، لكنَّ تدبُّرها يحتاج إلى أناةٍ وتأملٍ وتفكيرٍ بعمقٍ.

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه):

• ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودَىٰ يَمُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

وفي قراءة حمزة: [وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ] بضمير المتكلم العظيم.

[فَلَمَّا آتَاهَا]: أي: فحينَ وُصِّلَ إلى قُرْبِ مَوْقع النار مُباشرةً.

[نُودَىٰ يَا مُوسَىٰ]: أي: نَادَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ: يَا مُوسَىٰ.

• نظرة إلى ما جاء في النصوص الأخرى بشأنِ هذا الحدث أيضاً:

(١) جاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول)

بقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩

نزول) بقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وجاء فيها أيضاً خطاباً للرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فلكلِّ صالحٍ للخطاب:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٣) وجاء بيانُ عنه في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٦﴾﴾:

شرح المفردات والجمل:

• [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ]: عبارة جاء فيها التوكيد بالمؤكدات: «إِنَّ - والجملة الإسمية - وضمير الفصل «أنا»» لأنَّ الخطاب من وراء المنظور، لإنسان لم يَسْبِقْ له أن تلقَّى وحي رَبِّه، لا بمخاطبة الله له، ولا عن طريق وسيط من الملائكة، فَهُوَ يحتاج أن يؤكِّد له الخبر.

أي: إِنِّي أَنَا الَّذِي أَكَلَّمُكَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ خَالِقُكَ، وَمُؤَمِّدُكَ بَعِطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَامًا، والمُدَبِّرُ لِكُلِّ مَقَادِيرِكَ عَلَى تَوَالِي الْأَزْمَانِ.

• [فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ]: أي: فَاخْلَعْ مَا تَلْبَسُ بِقَدَمَيْكَ. وهذا أمرٌ له بأن يقف بين يَدَيِ رَبِّهِ مَوْقِفَ الْخُضُوعِ والتواضع والأدب الجَمِّ، وكان هذا من أدب الوقوف بين يَدَيِ الله في تعليماتِ الدين، وألغِيَ في الإسلام.

وجاء عند الإسرائيليين، في الإصحاح الثالث من سفر الخروج، أَنَّ الله قال له:

«اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ واقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».

• [إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى]: بالوادي المقدس، أي: بالوادي المطَهَّرِ من الأرجاس المعنوية بتطهيرِ الله له، فَمِنْ المناسب أن تُلْصِقَ قَدَمَيْكَ حَافِيَتَيْنِ بَتْرَابِهِ وَرِمَالِهِ.

الوادي المقدس: هو الوادي المتَّصِلُ بِجَبَلِ الطُّورِ، فَأَسْفَلُ جَبَلِ الطور شَاطِئُهُ.

المقدس: أي: المطهر. القدس: الطهارة. ويقال لغة: قدس الشيء: أي: طهر. ويقال: تقدس: أي: تطهر. طوى: مَصْرُوفَةٌ وغير مصروفة، اسمُ هذا الوادي الذي يتصلُ جانبُ منه بجبل الطور.

[وَأَنَا اخْتَرْتُكَ]: أي: وَأَنَا اصْطَفَيْتُكَ انتقاءً من الأخيار، وفي القراءة الأخرى: [وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ] بضمير المتكلم العظيم، وقد سبق بيان النظرة التكاملية بين هاتين القراءتين، لدى ذكر القراءات.

[فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى]: أي: فاسمع بإصغاءٍ كاملٍ ووعي تامٍّ، للكلام الذي نُوحِيَ بِهِ إِلَيْكَ، على قراءة [وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ] أو أُوحِيَ بِهِ إِلَيْكَ على قراءة: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ].

• [فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ]. [فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ] عبارتان متماثلتان معنىً، ومُتَشَابِهَتَانِ لفظاً مع تغييرٍ تَرَادُفِيٍّ بين: «أَتَاهَا» و«جَاءَهَا».

ونُداؤُهُ كان من الله عز وجلّ له، وبنداءٍ عالٍ يَسْمَعُهُ، وقد حَصَلَ هذا النداء قبل أن يُقَرَّبَهُ اللَّهُ نَجِيًّا فَيُنَاجِيَهُ دون رفع صَوْت.

﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾:

﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾: شاطئ الوادي الأيمن، هو جانبُ الطُّورِ الأيمن، فشاطئ النهر، أو شاطئ الوادي، هو جانبه.

ونفهم بداهةً أنّ شاطئ الوادي الواقع إلى جانب الجبل، هو أسفلُ الجبلِ الملاصقُ للوادي.

ووصفَ كُلُّ مِنْهُمَا بِالْأَيْمَنِ لأنَّ موسى عليه السلام كان متوجّهاً بوجهه لِمِنْطَقَةِ وَسْطِ مِنَ الجبل، فَالْطَّرْفُ الْأَيْمَنُ مِنَ الجبل ومن الوادي يَنْطَبِقُ عليه ما جاء في التَّصْنِيفِ مِنَ الوَصْفِ، إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا رَاعَى جانب الوادي، والآخر راعى جانب جبل الطور.

وجاءت الآية (٤٤) من سورة (القصص) فأبانت أن هذا الجانب هو الجانب الغربي الواقع إلى جهة الغرب.

﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾:

البُقْعَةُ: هي القطعة من الأرض المتميزة مما حولها.

المُبَارَكَةُ: أي: التي جعل الله عز وجل فيها البركة، وهي الزيادة والنماء من الخير.

مِنَ الشَّجَرَةِ: أي: من حدود الشجرة وامتدادات جذورها وفروعها، إذ جعلها الله مباركة. وهي التي رأى موسى عليه السلام النار ساطعة منها، ولم تكن ناراً لاهبة، وإنما كانت نوراً على صورة نار.

وسمّاها الإسرائيليون في الإصحاح الثالث من سفر الخروج «عُلَيْقَةَ»، وظنّ بعض باحثي أهل الكتاب أنها من شجر «السَّنط».

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٨﴾ يَسْمُوعُ إِتَنُ، أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ (النمل).

• ﴿أَنْ يَسْمُوعَ إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (القصص).

• ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ (مريم).

• ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ

فَاسْتَعِمْ لِيَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾ (طه).

يظهر لمتدبر هذه النصوص تدبراً تكاملياً ما يلي:

(١) أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَادَاهُ أَوَّلًا بِمَا جَاءَ فِي نَصِّ سُورَةِ (النمل):

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٨﴾ يَسْمُوعُ إِتَنُ، أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾.

[وَسُبْحَانَ اللَّهِ]: أي: وتنزيهاً لله عما لا يليقُ بجلاله وعظيم سلطانه.

[رَبِّ الْعَالَمِينَ]: أي: خالقِ كُلِّ الكائناتِ، والمتصرف فيها بحكمته دواماً وبسلطانِ رُبوبيّته.

[إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ]: أي: إِنَّ الشَّانَ العظيمَ الَّذِي يجب أن تَعْرِفَهُ الآنَ يا مُوسَى، هو «أَنَا اللَّهُ» الَّذِي تُؤْمِنُ به، وَيُؤْمِنُ بِهِ آبَاؤُكَ وَأَجْدَادُكَ حَتَّى إِبْرَاهِيمَ.

[الْعَزِيزُ]: أي: القَوِيُّ الغَالِبُ.

[الْحَكِيمُ]: أي: الَّذِي يُقَدِّرُ مقاديره، ويقضي أقضيته، وَيُنْفِذُهَا بحكْمَةٍ بالغة.

(٢) وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَادَاهُ بعد ذلك بِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (القصص):

﴿أَن يَمُوسَى إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٠):

[أَن]: حرف تَفْسِيرٍ للمَقُولِ في النداء.

[إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ]: أي: إِنِّي أَنَا اللَّهُ الَّذِي تُؤْمِنُ به، أَنْتَ وآبَاؤُكَ الْمُؤْمِنُونَ المُوَحِّدُونَ، وَأَنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ جميعاً، أي: خالقُ الكائناتِ كُلِّهَا، والمتصرف فيها بحكمته دواماً، وبسلطانِ رُبوبيّته الشاملة لكلِّ ما في الكون من حوادث وتصاريف.

وبما جاء في سورة (طه): ﴿يَمُوسَى إِنَّتَ أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٢).

(٣) وبعدَ ذَلِكَ قَرَّبَهُ اللَّهُ نَجِيًّا، أي: قَرَّبَهُ بعدَ النداء، فَجَعَلَهُ مُنَاجِيًّا،

المناجاة: هي الإسرار بالحديث، إذ قد انتهى حدث النداء، وهو ما جاء في سورة (مريم): ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (٥٢).

(٤) وَبَعَدَ أَنْ قَرَّبَهُ نَجِيًّا سَارَّهُ بِقَوْلِهِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (طه):

﴿وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) ، وَبَعْدَهُ تَلَطَّفَ بِهِ مُؤَانِسًا،
فَقَالَ لَهُ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٤) كما في قراءة جمهور القراء
العشرة.



قول الله عز وجل في سورة (طه):

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) إِنَّ
السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ
لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦).

في هذا التكليم الربّاني من وراء حجاب لموسى عليه السّلام، بيّان
سِتّ قضايا:

القضية الأولى: جاءت في قول الله عز وجل لموسى عليه السلام:
﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾:

أي: اعْلَمْ بتأكيد شديد يا موسى، أنني أنا الأزليّ الأبديّ خالق
الأكوان، والمتصرّف فيها دواماً بحكمته، والمُهيمن عليها دواماً بعلمه
وقُدْرته وخلقه، والخالق لأحداثها دواماً برُبوبيّته، واسمي العلم الجامع
لكلّ أسمائي وصفاتي الحُسنى: «الله» وهو الدالّ على أنني الخالق
والمتصرّف والمُهيمن على كلّ الأكوان، والدالّ على أنّك عبّد من عبادي،
وعلى أنني أنا إله آبائك الموحّدين، المؤمنين بي ربّاً لا إله إلّا هو. كلّ
هذه المعاني من لوازم دلالات اسم العلم «الله».

القضية الثانية: جاءت في قول الله عز وجل لموسى عليه السلام:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾:

أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ فِي الوجودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنَا الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ اسْمِي العلم «الله»، ومن يعبدني يَجِدْ أَثَرَ عبادته لي في عاجل أمرِهِ في الحياة الدنيا، وأجل أمرِهِ يومَ الدين.

لفظ «إله» معناه مَعْبُود. وَلَمَّا كانت المعبودات الأخرى من خَلْقِ الله، والْمَتَّخِذَةُ «آلِهَةً» عِنْدَ مُؤَلِّهِهَا، باطِلَةٌ، لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِنَ الإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ، وَلَا تَجْلُبُ عبادتها نفعاً لعبادها، وَلَا تَدْفَعُ عنهم ضرراً، بل تَجْلُبُ لهم عذابَ الله الأبدى، لأنَّ عبادتها عُذْوَانٌ على صاحبِ حقِّ العبادة، إذ هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ التَّامَّةُ الكاملةُ لَخَلْقِهِ، وَحَقُّهُ على مَرْبُوبِيهِ الَّذِينَ يَغْمُرُهُمْ بِأَيَادِي نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ دَوَاماً أَنْ يَعْْبُدُوهُ، لِيَجْزِيَهُمْ بالسعادة الأبدية الخالدة في جنَّات النعيم، وَلِيَدْفَعَ عنهم عذابَ الحريقِ المقرَّرَ في حُطَّتِهِ لِمَنْ جَحَدَ رَبَّهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ جَحَدَ إِلَهِيَّتَهُ، أَوْ أَشْرَكَ بهما أَوْ بِأَحَدِهِمَا غَيْرَهُ.

القضية الثالثة: جاءت في قول الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾:

أي: إِذَا عَرَفْتَ يَا مُوسَى أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ غَيْرِي، لِأَنِّي أَنَا الله الرَّبُّ، فاعْبُدْنِي.

العبادة: تَشْمَلُ الطَّاعَةَ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَ الله به، وَتَرْكُ مَا نَهَى الله عنه، وإفراده بالدُّعاء لأُمُورِ العاجلة، وأُمُورِ الآجلة، والتَقَرُّبُ إِلَيْهِ بفِعْلٍ مَا يُحِبُّ من عباده أَنْ يَفْعَلُوهُ، وترك ما يُحِبُّ من عباده أَنْ يَتْرُكُوهُ، اِتِّعَاءَ مَرْضَاتِهِ.

القضية الرابعة: جاءت في قول الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

الصَّلَاةُ: عبادةٌ معروفة في كلِّ الأديانِ الرِّبَّانِيَّةِ، وهي المعبرةُ عن الصَّلَةِ المتكرِّرة من العَبْدِ بِرَبِّهِ، في مواقيت معلومة.

وهي داخلة في عبادة العباد لله عز وجل، ولكن جعلها الله بحكمته بمثابة وعاءٍ لأداء عبادة ذكره، ووظيفة واجبة تكرر في كل يوم عدة مرات، في أوقات موسعات، وفيها مع الأذكار والتلاوات حركات جسدية، تستعمل على القيام، والرُّكُوع، والسُّجود والجلوس، ومن حقوق الصلاة لله عز وجل استيفاء الواجبات والشروط التي لا تكون تامةً إلا بها، والمبينة في تعليمات الدين.

وتحقيق ذلك يتطلب عناية خاصة، لإقامتها على الوجه المطلوب فيها شرعاً.

وإقامة الصلاة: تكون بالمواظبة على أدائها في أوقاتها، كما فرض الله، وبأدائها مستوفاة الحقوق من واجبات وشروط.

عبارة [لِلذِّكْرِ]: تبيين الغرض الديني من عبادة الصلاة، وهو تكرار ذكر الله والحضور معه، بما في الصلاة من تلاوات وأذكار.

وقد جعل الله عز وجل التلاوات والأذكار المذكّرة بالله وبصفاته الجليلة، وبحكمته العظيمة، في أوعية من التحرك، والمكث، لأنّ هذا التنقل بين التحرك والمكث، أكثر ملاءمةً لواقع حال الإنسان، إذ يقضي مطالب حياته كلّها ما بين تحرك ومكث، ولا يفضيها وهو ساكن دوماً، أو متحرك دوماً.

وفي أعمال الصلاة التي تشترط لها الطهارة، وفيها الوقوف والركوع والسجود والجلوس، حكمٌ عظيمة، تُعبّر عن خضوع العبد لربه، حتى غاية الخضوع بالسُّجود، وتُعبّر عن طاعته ومراقبته لربه، ملاحظاً أنّ الله - جلّ جلاله وعظم سلطانه - مُطلّع عليه دوماً، يعلم أعَمَقَ خواطره، لا تخفى عليه خافية.

القضية الخامسة: جاءت في قول الله عز وجل لموسى عليه السلام:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١٥):

أي: إن ساعة البعث للحياة الأخرى يوم الدين، آتية لا محالة، لأنها إحدى بُنُودِ خُطَّةِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ لِلْمَخْلُوقِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلإِبْتِلَاءِ.

وبما أن الْخَلْقَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلامْتِحَانِ قَدْ تَحَقَّقَ، وهو الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنْ حِكْمَةِ الْخَلْقِ، فلا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْقِسْمُ الْآخَرُ مِنْ حِكْمَةِ الْخَلْقِ، وهو الْحَيَاةُ الْآخِرَى، لتحقيق الحساب، وفُضِّلَ الْقَضَاءُ وَالْجَزَاءُ.

[أَكَادُ أُخْفِيهَا]: اشتغل المفسرون في فهم المراد بهذه العبارة، وَذَهَبُوا فِي هَذَا مَذَاهِبَ مُتَعَدَّةً مِنَ التَّأْوِيلَاتِ، وَأَرَى أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ إِذَا فَهِمْنَا مِنْهَا: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَادَ يُخْفِي الْإِخْبَارَ عَنِ السَّاعَةِ كُلِّهَا، لَا عَنْ وَقْتِ حَدُوثِهَا فَقَطْ، مُكْتَفِيًا بِالْدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْمُسْتَدُّ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَمْ يَفْعَلْ، بَلْ أَخْبَرَ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ النَّاسَ قَلَمًا يَهْتَدُونَ إِلَى الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهَا، مَا لَمْ يُنَبِّهُوا عَلَيْهَا تَنْبِيهًا مُقْتَرِنًا بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَدُوثِهَا، وَعَمَّا يَكُونُ بَعْدَهَا، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِخْبَارُ عَنِ السَّاعَةِ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهَا، كَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْهَكِيمِينَ﴾ (٨):

[لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى]: أي: لِيُجْزَىٰ يَوْمَ الدِّينِ كُلُّ نَفْسٍ مَوْضُوعَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، بِمَا تَسْعَى عَلَى تَتَابُعِ الزَّمَنِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الجزء: مقابلة الْعَمَلِ بِمَا يُلَائِمُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيَكُونُ بِمُقَابَلَةِ الْحَسَنَةِ بِمِثْلِهَا فَمَا فَوْقَ تَفَضُّلاً، وَبِمُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا فَمَا دُونَ تَجَاوُزاً وَصَفْحاً.

القضية السادسة: جاءت في قول الله عز وجل لموسى عليه السلام:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (١١)

[فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا]: أي: فلا يَصْرِفُكَ وَلَا يَمْنَعُكَ عن السَّعي للظفر

بأعظم الجزاء في جنَّات النعيم يوم الدين بَعْدَ قيام الساعة.

[مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا]: أي: مَنْ لَا يُؤْمِنُ بقيام ساعة البعث للحساب،

وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدين، لأنه غير مؤمن بقضية الجزاء الربَّاني.

[وَاتَّبَعَ هَوَاهُ]: أي: وَاتَّبَعَ وهو كافر بالساعة هواه المتعلق بزيينة

الحياة الدنيا، وَزُخْرُفُهَا، ومتاعها الزائل الفاني.

وربما كان اتِّباعه هَوَاهُ هو الذي طَمَسَ بصيرته، فكفر بساعة القيامة

والبعث ليوم الجزاء.

الهوى: ميل النفس لما تحبُّ ولو كان فيه ضرٌّ وشرٌّ، وإثمٌ وعصيان،

وفي الهوى معنى السقوط في مهوأة، كالسقوط من شاهقٍ إلى وادٍ سحيق،
وكالسقوط في بئر عميقة.

[فَتَرْدَى]: أي: فَتَسْقُطُ في أودية الآثام والجرائم، وبذلك تنال سَخَطَ

الله وعذابه.

وفي خطاب الله عز وجل النبي الرُّسُول المختارَ المفضَّل بمكالمته

له، بمثل هذا الخطاب الشديد التحذير، دليل على أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ

السَّلام مَكْلُفُونَ القيامَ بأحكام الدين، وأنَّهم غير مَغْفِيَيْنَ من الواجبات، بل

هم أوَّلُ المأمُورين بها، وأوَّلُ المسلمين، بل ربَّما كانت التكاليف

الموجَّهة لهم أشدَّ، كوجوب قيام اللَّيْلِ بالنسبة إلى الرسول محمد ﷺ،

دون سائر المسلمين.

ولكن ربّما يجعل الله لهم بعض أحكام خاصّة، تقتضيها وظائف رسالاتهم، كإباحة تعدّد الزوجات للرّسول محمّد ﷺ فوق الأربعة.

يقال لغة: «رَدِي في الهُوّة يَرْدِي رَدِي» أي: سقط فيها. ويقال: «رَدِي» أي: هَلَكَ، وهذا المعنى من لازم السَّقُوط في الهُوّة غالباً.



(١) قول الله عزّ وجلّ في مكالمته لموسى عليه السلام، في سورة (طه):

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿١٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٤﴾﴾

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمَّا يَعْقِبْ يَمْوَسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ رَاغِبَةٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

(٣) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمَّا يَعْقِبْ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ

غَيْرِ سُورٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَذَلِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٧٣﴾.

هذه النصوص الثلاثة من سور (طه) و(النمل) و(القصص) متكاملات
الدلالات حَوْلَ حَدِيثٍ كُلِّيٍّ وَاحِدٍ، جرى لموسى عليه السلام عند مناجاة
ربه له عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، وبيان تكاملها يَحْتَاجُ تَدَبُّراً يَرَاعِي فِيهِ تَرْتِيبُ
جُزْئِيَّاتِ الْحَدِيثِ الْكُلِّيِّ عَلَى وَفْقِ التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ الْحَكِيمِ الَّذِي يَهْدِي إِلَيْهِ
الْفِكْرُ السَّلِيمُ.

أولاً: يأتي في أولى جُزْئِيَّاتِ هذا الحدث بَعْضُ ما جاء في سورة
(طه) وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ ﴿٧٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ
بِهَا عَلَى غَنِيِّ وَلِيِّ فِيهَا مِثْرَبُ أُخْرَى ﴿٧٨﴾﴾.

دلّ هذا البيان على أَنَّ الله عز وجل بدأ مناجاته لموسى عليه
السلام، بِدَايَةِ إِبْنَائِيَّةٍ، مع ما فيها من تَوَظُّعٍ لِمُنْحَةِ آيَةِ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ
بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ التَّكْوِينِيِّ ثُعْبَاناً مُخِيفاً مُرْعَباً لِلْأَقْوِيَاءِ الْأَشْدَّاءِ.

• [وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى]:

هذه الجُمْلَةُ الاستفهاميَّةُ معطوفة بالواو على مَا جاء قبلها من خطاب
الله لَهُ في السورة.

[ما]: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن غير ذي العقل والعلم،

[تِلْكَ]: اسْمُ إشارَةٍ مَوْضُوعٍ للبعيد، واختير أن يكون للمؤنث، لأنَّ
لفظ العصا مؤنث مجازي التانيث.

واختير هنا اسْمُ الإِشارَةِ المَوْضُوعِ للبعيد، ليتناسب مع نداء الله عز
وجلّ لموسى، بِأَدَاةِ النِّدَاءِ «يا» المَوْضُوعَةِ لِنِداءِ البعيد، الَّذِي يَدُلُّ هُنَا

على بُعْدِ الْمَنْزَلَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَرَّبَ مُوسَى إِلَيْهِ نَجِيًّا، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ هَذَا، الْوَارد فِي سُورَةِ (مريم).

[بِمِمينِكَ]: أي: بِبَيْدِكَ الْيُمْنَى، فَذَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَيْمَنَ وَلَمْ يَكُنْ أَعْسَرَ، إِذْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ عَصَاهُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى.
[يَا مُوسَى]: نِدَاءٌ فِيهِ إِيْنَاسٌ وَتَلَطُّفٌ وَتَحَبُّبٌ.

• ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُوا بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾.

لَمَّا شَعَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِيْنَاسِ رَبِّهِ لَهُ إِيْنَاسًا يُشْعِرُ بِالتَّحَبُّبِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَالَ لَهُ: ﴿وَإِنَّا أَخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١٣)، رَغِبَ أَنْ يُطِيلَ الْإِجَابَةَ عَلَى السُّؤَالِ، بِذِكْرِ بَعْضِ مَا يَسْتَفِيدُهُ مِنْ عَصَاهُ الَّتِي يَسْأَلُهُ رَبُّهُ عَنْهَا. وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ رَبَّهُ سَيَسْأَلُهُ عَنْ هَدَفِهِ مِنْ اتِّخَاذِهِ الْعَصَا، فَبَسَطَ الْجَوَابَ، شُعُورًا مِنْهُ بِأَنَّ سؤَالَ رَبِّهِ عَنِ الْعَصَا الْمَشْهُودَةِ فِي يَدِهِ، سَيَسْتَشِيعُ سؤَالُهُ عَنْ هَدَفِهِ مِنْ اتِّخَاذِهَا، وَكَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَقُولَ: هِيَ عَصَايَ.

[أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا]: أي: أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا، فَأَجْعَلُ بَعْضَ ثِقَلِ جِسْمِي مَحْمُولًا عَلَيْهَا فِي الْمَشْيِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ.

[وَاهْتَسُوا بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي]: أي: أَخْبِطُ بِهَا الشَّجَرَ، لِيَسْقَطَ الْوَرَقُ، فَتَأْكُلَ مِنْهُ غَنَمِي.

يقال لغة: «هَشَّ الرَّاعِي يَهْشُ هَشًّا» أي: ضَرَبَ الشَّجَرَ بِالْعَصَا، لِيَتَساقَطَ الْوَرَقُ مِنْهَا عَلَى مَسَرَّحِ غَنَمِهِ فَتَأْكُلَ مِنْهُ.

﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ (١٤): «مَآرِبُ» جَمْعُ «مَآرَبٍ» و«مَآرِبَةٍ» وَهُمَا «الْإِرْبُ» و«الْأَرَبُ»: الْحَاجَةُ. الْبُعْيَةُ الَّتِي يُرَادُّ الْحَصُولُ عَلَيْهَا.

أي: وَلِي فِيهَا حَاجَاتُ أُخْرَى، كَقِتَالِ عَدُوٍّ، وَسَوْقِ غَنَمٍ، وَدَفْعِ ذَنْبٍ، أَوْ كَلْبِ عَقُورٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وأعجبني ما نقل الشوكاني عند تفسيره لهذه العبارة، ما جاء في قول بعض العرب بِشَأْنِ منافع العصا:

«عَصَايَ أَرْكُزُهَا لِصَلَاتِي، وَأَعِدُّهَا لِعُدَاتِي، وَأُسُوقُ بِهَا دَابَّتِي، وَأَقْوِي بِهَا عَلَى سَفَرِي، وَأَعْتَمِدُ بِهَا فِي مَشْيِي، لِيَتَّسِعَ خَطْوِي، وَأَثْبُ بِهَا النَّهْرَ، وَتُؤَمِّنُنِي الْعَثَرَ، وَأُلْقِي عَلَيْهَا كِسَائِي فَتَقِينِي الْحَرَّ، وَتُدْفِنُنِي مِنَ الْقَرِّ، وَتُدْنِي إِلَيَّ مَا بَعْدَ مِنِّي، وَهِيَ تَحْمِلُ سُفْرَتِي، وَعِلَاقَةُ إِذَاوَتِي، أَغْصِي^(١) بِهَا عِنْدَ الضَّرَابِ، وَأَفْرَعُ بِهَا الْأَبْوَابَ، وَأَقِي بِهَا عُقُورَ الْكِلَابِ، وَتَنْوُبُ عَنِ الرَّمْحِ فِي الطَّعَانِ، وَعَنِ السَّيْفِ عِنْدَ مُنَازَلَةِ الْأَقْرَانِ، وَرِثْتُهَا عَنْ أَبِي، وَأَوْرَثْتُهَا بَعْدِي بَنِيَّ».



وبَعْدَ هذا الحوار الإيناسي والتمهيدي:

• جاء في سورة (طه) ما في قول الله عز وجل خطاباً لموسى عليه السلام:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾ (١٦): أي: قال الله لموسى: أَلْقِهَا، الضمير يعودُ على العصا.

• وجاء في سورة (النمل) بعبارة: [وَأَلْقِ عَصَاكَ].

• وجاء في سورة (القصص) بعبارة: [وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ].

عباراتٌ عَنِ الأَمْرِ بِإِلْقَاءِ الْعَصَا، جاءت مُمَهَّدَةً لما بَعْدَهَا، في كُلِّ نَصٍّ منها، بحسب السَّوَابِقِ وَاللَّوَاحِقِ في السُّورِ التي هي منها.

وبَعْدَ هذا الأَمْرِ بِإِلْقَاءِ الْعَصَا يَأْتِي مَضْمُونُ قول الله عز وجل في

سورة (طه):

(١) أي: أَضْرِبُ بِهَا.

﴿فَالْقَنَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (٢٠):

أي: فلما ألقى موسى عصاه على الأرض تحولت بصورة مفاجئة، فصارت حية حقيقية تسعى، أي: تمشي بسرعة ونشاط مخيف مشي الثعابين ذوات الحركة السريعة.

وجاء لهذه العبارة تكميل في سورة (النمل) الآية (١٠) وفي سورة (القصص) الآية (٣١).

﴿لَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ﴾.

[تهتز]: أي: تتحرك تحركاً سريعاً.

[كأنها جان]: جان: نوع من الحيات أكل العينين، يضرب إلى الصفرة، كثير الحركة وسريعها، يجمع على «جنان» و«جوان»، أي: كأنها جان في السرعة والحركة المخيفة، لا في سائر الصفات، لأن هذا الصنف من الحيات غير مؤذ.

[ولّى مدبراً]: أي: انهزم مبتعداً، معطياً ظهره إلى جهة العصا التي انقلبت حية مخيفة تسعى.

ولّى: أي: ابتعد.

مدبراً: الإدبار: هو إعطاء الدبر للشيء، فجمع موسى عليه السلام بين الابتعاد وإعطاء الدبر.

[ولم يعقب]: أي: ولم يكر ولم يرجع من شدة خوفه على نفسه، بحسب طبيعته البشرية ذات الحدة والسرعة في التنفيذ.



وبعد هذا الحدث الذي جرى من موسى عليه السلام، يأتي في متابعة البيان مضمون قول الله عز وجل لموسى في سورة (القصص):

﴿... يَمْوِسْ أَيْلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ﴿٦٣﴾.

ومضمون قول الله له التكميلي الذي جاء في سورة (النمل):

﴿... يَمْوِسْ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٦٥﴾.

هاذان النصان متكاملان في الدلالة على المعنى المراد.

أي: أَيْلَ كَارَأً إلى المكان الذي فَرَرَتْ مِنْهُ خَوْفًا من الحية، وَلَا تخف أن تُؤْذِيكَ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ بتأمين ربك لك، إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ المختارُونَ مِنِّي لِحَمَلِ رِسَالَةِ ذاتِ شَأْنٍ. لَكِنْ يَخَافُ مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِي، بِمَعْصِيَةِ أَوَامِرِي، وَمَعْصِيَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ تكون في حُدُودِ التَّكَالِيفِ الزَّائِدَةِ الَّتِي تُوجَّهُ لَهُمْ خَاصَّةً مِنْ حَقُوقِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَرُبَّمَا مِنْ حُدُودِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ.

أَمَّا حُدُودُ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ فَهُمْ مَعْصُومُونَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي حَقٍّ مِنْ حُقُوقِهَا، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ النَّاسَ بِأَنْ يَتَأَسَّوْا بِهِمْ فِي حُدُودِهَا، فَلَوْلَا الْعِصْمَةُ لَكَانَ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالتَّأْسِي بِهِمْ فِي مَعْصِيَتِهِمْ.

ثُمَّ لَا يَخَافُ مَنْ عَصَى مِنْهُمْ، مَنْ بَدَّلَ حُسْنًا بِتَوْبَةٍ وَعَمَلَ صَالِحًا، بَعْدَ سُوءٍ ارْتَكَبَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ فَيُؤَمِّنُهُ، لِأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: وَأَنْتَ يَا مُوسَى لَسْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَلَا تَخَفْ.



وَبَعْدَ هَذَا الَّذِي تَكَامَلَتْ بِشَأْنِهِ النُّصُوصُ الثَّلَاثَةُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَابًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (طه):

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ ﴿٢١﴾ :

[خُذْهَا وَلَا تَخَفْ]: أي: خُذِ الْحَيَّةَ كَمَا لَوْ كَانَتْ عَصَا.

[سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى]: أي: سَنُرْجِعُهَا بَعْدَ أَنْ تُمَسِكَ بِهَا وَهِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ عَصَا، لَا حَيَاةَ فِيهَا وَلَا حَرَكَةَ.

[سِيرَتَهَا الْأُولَى]: السَّيْرَةُ: الطَّرِيقَةُ - الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الشَّيْءُ.

[الْأُولَى]: أي: السَّابِقَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا.

جاءت كلمة «سيرة» من عبارة [سِيرَتَهَا] منصوبة، مع أَنَّ فعل «نُعِيدُ» لَا يَنْصِبُ مُبَاشَرَةً، بَلْ يَتَعَدَّى إِلَى مَعْمُولِهِ بِحَرْفِ الْجَرِّ «إِلَى».

قال الأخفش والرجَّاج: سَنُعِيدُهَا إِلَى سِيرَتِهَا الْأُولَى، أي: إِنْ لَفْظُ «سيرة» نَصِبَ بَنَزَعِ الْخَافِضِ، فَصَارَ بِمَثَابَةِ الْمَفْعُولِ بِهِ.

أقول: مِنَ الْجَائِزِ أَنْ نُقَدِّرَ فِي الْكَلَامِ مَحذُوفًا عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي الْمَحَازِفِ، وَأَصْلُ الْعِبَارَةِ قَبْلَ الْحَذْفِ كَمَا يَلِي:

سَنُعِيدُهَا، فَتَعُودُ سِيرَتَهَا الْأُولَى. يُقَالُ لُغَةً: عَادَ الْأَمْرُ كَذَا، أَيْ: صَارَ إِيَّاهُ.

وكان هذا تَدْرِيبًا عَمَلِيًّا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ مُسْتَقْبَلًا بِمَا يُجْرِيهِ اللَّهُ لَهُ فِي الْعَصَا مِنْ آيَةٍ بَاهِرَةٍ، أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، ثُمَّ أَمَامَ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ.

وَطَوَتْ النُّصُوصُ الثَّلَاثَةُ مَا كَانَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ: فَكَّرَ مُوسَى رَاجِعًا، وَأَخَذَ الْحَيَّةَ، فَأَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ سَابِقًا عَصَا كَسَائِرِ الْعِصِيِّ.



وبَعْدَ بيان آيةِ الْعَصَا، يأتي بيانُ الآيةِ الثانيةِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ لموسى عليه السلام، وهي آيةُ الْيَدِ.

وهنا يأتي قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه) خطاباً لموسى عليه السلام:

﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ فَتُخْرِجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَى ۚ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ۝﴾ (٢٣)

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل) خطاباً له أيضاً:

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ فِي سِتْجِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾ (٧٢)

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص) خطاباً له أيضاً:

﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ وَأَضْمُكُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ ۚ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾ (٣٢)

هذه النصوص الثلاثة متكاملاتُ الدَّلَالَتِ على المعنى المراد بيانه، مع تفنُّنٍ في بعض العبارات بتغيير بعض الكلمات.

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه) خطاباً لموسى عليه السلام:

﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَىٰ جَنَاحِكُمْ... ۝﴾ (٢٣)

ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ يَكُونُ بجمعهما معاً.

الْجَنَاحُ: يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا يَطِيرُ بِهِ الطَّائِرُ، وَيُطْلَقُ تَوْسَعًا لُغَوِيًّا عَلَى الْعَصَدِ، وَعَلَى الْإِبْطِ، وَعَلَى الْجَانِبِ مِنَ الْإِنْسَانِ.

﴿... فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... ۝﴾ (٢٣): أي: وأَخْرِجْهَا تَخْرُجُ

بَيَضَاءَ حَسَنَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ عَلِيلَةً مَرِيضَةً بِمَرَضِ الْبَرَصِ، وقد كَانَ موسى عليه السلام أَشْمَرَ. عبارة: [مِنْ غَيْرِ سُوءٍ] اخْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى الذَّهْنِ أَنَّهَا تَخْرُجُ بَرَصَاءَ.

قالوا: فإذا هي تَبْرُقُ كالْبَرْقِ.

﴿... آيَةٌ أُخْرَى﴾ (٢٢): أي: حالة كون هذه التحويلة في اليَدِ آيَةً أُخْرَى، غَيْرَ آيَةِ الْعَصَا وتحويلها إلى حَيَّةٍ تَسْعَى.

الآية: العلامة الدَّالَّةُ، والعلامة على إثبات صِدْقِ الرِّسُولِ، في كونه رَسُولاً مِنْ رَبِّهِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَوَارِقِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ مُعَارَضَتَهَا بِمِثْلِهَا.

﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٣): أي: لِنُرِيكَ فِي هَذَا اللَّقَاءِ بَعْضَ آيَاتِنَا الْكُبْرَى الَّتِي سَنُجْرِيهَا لَكَ مُسْتَقْبَلًا.

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل) خطاباً لموسى أيضاً:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثَلَاثِ رَفَعَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢).

أي: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ لِتَضُمَّهَا إِلَى جَنَاحِكَ، فَتَكْمُلَ نَصًّا «طه» و«النمل».

جَيْبُ الْقَمِيصِ أَوْ الثَّوْبِ: مَا يَدْخُلُ مِنْهُ الرَّأْسُ عِنْدَ لُبْسِهِ، يَجْمَعُ عَلَى: «جُيُوب» و«أَجْيَاب».

وإدخال اليَدِ في الجيب يكون بإدخالها في المكان المنفتح من القميص مِنْ تَحْتِ الرَّقَبَةِ، لِإِصْلَاحِهَا إِلَى الْإِطْبَاقِ، أَوْ الْجَنْبِ.

وأضاف هذا النص عبارة:

﴿فِي ثَلَاثِ رَفَعَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢):

أي: هاتان الآيتان كائنتان في حساب تسع آيات قررنا أن نُؤتيك آياتها، وقد أريناك هاتين الآيتين، وسنريك الآيات السبع فيما بعد حين تُؤدي وظائف رسالتك.

وجاءت عبارة: ﴿إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ لبيان الغرض من الإرسال لفرعون وقومه. وهي في موقع جواب سؤال مطوي، مضمونه: ما الغرض من الرسالة ومن هذه الآيات؟

الجواب: ﴿إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وما زالوا مُتَمَادِينَ في فسقهم.

الفسق: هو العصيان والخروج عن الحق والواجب، وأوامر الله ونواهيه. تقول العرب: «فَسَقَ يَفْسُقُ وَيَفْسُقُ فِسْقًا وَفُسُوقًا، إِذَا عَصَى وَخَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ».

ويُقال: فَسَقَ، أي: فَجَرَ.

وهو مصطلح إسلامي مأخوذ من قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا، ومعلوم أنها إذا خرجت من قشرتها تعرضت بسُرْعَةٍ إلى الفساد.

وسُمِّيتِ المؤذيات من الحيوانات فواسق، والفأرة فُوَيْسِقَةٌ، لأنها بخروجها من جحرها تُفْسِدُ.

(٣) وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ) خُطَاباً لِمُوسَى أَيْضاً:

﴿أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْوَءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

جاء في هذا النَّصِّ كَلِمَةُ [أَسْلُكَ] بدل: [أَدْخَلَ] في نصِّ سورة (التَّمَلُّ) وكَلِمَةُ «أَسْلُكَ» هي بمعنى كلمة «أَدْخَلَ» فهما من التَّفَنُّنِ في اختيار الكلمات.

وجاء في هذا النص إضافةً عبارة: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ﴾: أي: مِنَ الرَّغْبِ.

يظهر أَنَّ مُوسَى عليه السَّلام على الرَّغْم من إقباله وعودته إلى المكان الذي فَرَّ مِنْهُ، طاعةً لأمرِ رَبِّه، وعلى الرَّغْم من أَخْذِهِ الحَيَّةَ التي عَادَتْ بِأَخْذِهِ لها سِيرَتَهَا الأولى، عصاً كسائرِ العصيّ، ما زالَ قَلْبُهُ يَرْجُفُ رَجْفَاناً مكيانيكياً، من تأثيرِ الخوفِ السابق، فقال اللهُ لَهُ هذا القول.

﴿جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ﴾: أي: واضمم يَدَكَ اليُسْرَى إلى جانبِ جِسْمِكَ الأيسر، حيثُ قَلْبُكَ، لِيَسْكُنَ مِنْ أَثَرِ الرَّهْبِ الذي كان قد أصابه. واختَرْتُ في الفهم اليَدَ اليُسْرَى لأنها الأقرب إلى تَسْكِينِ رَجْفَانِ الجانبِ الَّذِي فِيهِ الْقَلْبُ.

أَمَّا اليُمْنَى فقد تناوَلَ بها الحَيَّةَ التي عَادَتْ كما كانت عصاً، وصار يَتَوَكَّأُ عليها كسابق عَهْدِهِ بها.

إذا كان انقلابُ العصا حَيَّةً مُرْعَبَةً، قد أَخافت مُوسَى وهو بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ يُتَاجِهه، ففَرَّ منها ولم يُعَقِّبْ حتَّى أَمَرَهُ اللهُ بالِرُّجُوعِ، فكيف يكونُ حالُ فرعون وملئِهِ، حين إجراء هذه الآيَةِ الرِّبَانِيَّةِ أَمَامَهُمْ؟!

﴿فَلَنِلَّكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾:

«ذَانِ» اسم إشارة للمثنى المذكر، والكاف لخطاب المفرد. والمشارُ إليه آيتا العصا واليد.

﴿بُرْهَانَانِ﴾ مثنى «بُرْهَان» وهو الحجَّةُ البَيِّنَةُ الفاصلة، وجمعه «بَرَاهين».

أي: فذَانِكَ الخارقان: خَارِقُ العصا التي تنقلب حَيَّةً حَقِيقِيَّةً مُخِيفَةً جداً، وخَارِقُ اليَدِ السَّمَرَاءِ التي تنقلب إلى بَيضاء تَبْرِقُ كالْبَرْقِ، هُمَا

بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ. أَي: حُجَّتَانِ بَيِّنَتَانِ فَاصِلَتَانِ، تُثْبِتَانِ أَنَّكَ رَسُولُ مُرْسَلٍ مِنْ رَبِّكَ.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ بَيَانٌ أَنَّ الْمُرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا، فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ.

المَلَأُ: أَشْرَافُ الْقَوْمِ وَسَرَائِهِمْ، الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ، وَمَلَأَ فِرْعَوْنَ هُمْ وَزُرَاؤُهُ، وَحَاشِيَةُ قَصْرِهِ، وَكِبَرَاءُ الْمَصْرِِيِّينَ الْمَسَانِدُونَ وَالْمَوَالُونَ لِفِرْعَوْنَ.

وَلَمَّا كَانَ سَائِرُ الْمَصْرِِيِّينَ يَوْمئِذٍ تَبَعًا لِفِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ، كَانَتْ رِسَالَةُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ مُوجَّهَةً لَهُمْ جَمِيعًا.

وَقَدْ سَبَقَ فِي النَّصِّ الَّذِي هُوَ مِنْ سُورَةِ (النَّمْلِ) بَيَانٌ أَنَّ الرِّسَالَةَ شَامِلَةٌ لِفِرْعَوْنَ وَكُلِّ قَوْمِهِ، أَشْرَافِهِمْ وَعَلِيَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ، إِذْ جَاءَ فِيهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿...إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ...﴾ (١٢).

الآيات التسع:

بِالنَّظَرِ فِي النُّصُوصِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمَبِينِ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (النَّمْلِ)، أَنَّ عَدَدَهَا تِسْعُ آيَاتٍ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَبَيِّنَهَا فِيمَا يَلِي:

(١) آيَةُ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ تُعْبَانًا مُرْهَبًا.

(٢) آيَةُ الْيَدِ الَّتِي تَنْقَلِبُ بَيضَاءَ لَامِعَةٍ كَالْبَرْقِ.

وَقَدْ سَبَقَ آنفًا بَيَانُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ.

(٣) آيَةُ الطُّوفَانِ، وَجَاءَ عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي سَفَرِ الْخُرُوجِ (٩) بَيَانٌ أَنَّ اللَّهَ أَمَطَرَ عَلَيْهِمْ بَرْدًا لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ، فَأَهْلَكَ النَّبَاتَاتِ، وَبَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّاسِ.

(٤) آية الجراد، وجاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج (١٠) أنّ موسى أنذر فرعون بجراد يغطي وجه الأرض، ويأكل جميع الشجر النابت في الحقول، وحصل ذلك.

(٥) آية القمل، وجاء في سفر الخروج (٨) أنّ هارون ضرب بالعصا تراب الأرض فصار البعوض على الناس والبهائم، وأن موسى أنذر فرعون بالذبان، فخربت الأرض من الذبان، وهو الذباب المؤذي.

(٦) آية الضفادع، وجاء في سفر الخروج (٨) أن موسى أنذر فرعون بالضفادع التي تَصْعَدُ وتدخل في البيوت وتكون في كل مخدع وعلى كل سرير، وتسقط في الأطعمة، وحصل ذلك.

(٧) آية الدم، وجاء في سفر الخروج (٧) أن موسى وهارون ضرب بعصاه النهر فتحول كل الماء الذي في النهر دماً.

دَلَّ على هذه الآيات الخمس، قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدمَّ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقد سبق تدبر هذا النص في موضعه من تدبر سورة (الأعراف).

(٨) آية الرجز، وهو عذاب من الله أنزله بفرعون وملئه وقومه، كأمرأض وأوجاع لا عهد لهم بمثلها.

دَلَّ على هذه الآية قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَىٰ آدُعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَلِّغُوهُ إِذَا هُم يَنْكُثُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وقد سبق تدبرُ هذا النص في موضعه من سورة (الأعراف).

(٩) آية السنين المجذبات والنقص في الثمرات والطمس على أموالهم والضغط على قلوبهم: الطمس على الشيء: يأتي بمعنى التثويه، ويأتي بمعنى الإزالة والمحو. يقال لغة: طمست الريح الأثر، أي: أزالته ومحته، ويقال: طمس على عينه، أي: أغمأها. وقد دلّ على هذه الآية قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾.

ودلّ عليها أيضاً قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/

٥١ نزول) حكاية لما دعا به موسى عليه السلام ربه:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٨٨﴾.

عرفنا الطمس على الأموال، أما الشد على قلوبهم فالذي أراه أنه نوع من عصر قلوبهم بالمكارة والمؤلمات في حياتهم، لأن قول موسى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يشعر بأن الشد على قلوبهم هو من العذاب الأليم الذي دعا ربه أن ينزله بهم.

وأما ما ذهب إليه المفسرون من أن المراد اجعل قلوبهم قاسية لا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان، فهو يتنافى مع قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ إذ تشعر هذه العبارة بأن موسى حريص على إيمانهم، لكنه رأى عدم جدوى الآيات التي لم يذوقوا فيها العذاب الأليم، فسأل ربه أن يطمس على أموالهم التي تُغريهم بالاستمرار في الكفر، وأن يشد على قلوبهم بالمؤلمات الموجعات رجاء أن تلين نفوسهم وقلوبهم فيؤمنوا.

الشد على القلوب بالعذاب يكون بالمؤلمات الموجعات لإلانتها

للحق.

والرَّيْبُ عَلَى الْقُلُوبِ لِلتَّشْيِيتِ والمعونة يَكُونُ بِالْمُطْمَئِنَاتِ من عناصر القاعدة الإيمانية، وبالصَّلَاةِ بالله عن طريق عبادته وحُسن مراقبته، والاعتصام بالأذكارِ والتلاوات، وبنفحاتِ يُلْقِيهَا اللهُ على قلوب المؤمنين.

وَأَمَّا آيَةُ فَلَقِ الْبَحْرِ، فَمَعَ أَنَّهَا أكبر الآياتِ وأَعْظَمُهَا، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ آيَةً لِفِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ وَجُنُودِهِ، إِذْ كَانَتْ سَبَباً لِنَقَازِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغُبُورِهِمُ الْبَحْرَ، وَسَبَباً لِإِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ وَجُنُودِهِ. وَإِذْ رَأَى فِرْعَوْنَ لَهَا وَهُوَ يَغْرُقُ لَمْ يَنْفَعُهُ بَشْيٌ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيْقِناً هُوَ وَمَلَأُوهُ بِصَحَّةِ بَرَاهِينِ الآياتِ السَّعِ السَّابِقَاتِ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا مُعَانِدِينَ مُسْتَكْبِرِينَ مُكَابِرِينَ.

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ آيَةَ فَلَقِ الْبَحْرِ قَدْ كَانَتْ آيَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَآيَةً لِمَنْ بَقِيَ فِي مِصْرَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يَهْلِكُوا مَعَ الْهَالِكِينَ.



قول الله عز وجل في سورة (طه):

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ﴾ (٢١) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ﴾ (٢٨) وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ ۖ﴾ (٢٩) هَٰؤُلَاءِ أَخِي ۖ﴾ (٣٠) أَشَدُّ بِهِ ۖ﴾ (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۖ﴾ (٣٢) كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٣٣) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ﴾ (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ ۖ﴾ (٣٦)

القراءات:

- ٢٦ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وَيَسِّرْ لِي] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء.
- ٣٠ - ٣١ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [أَخِي أَشَدُّ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء.
- ٣٢ • قرأ ابنُ عامر: [وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي] بضم همزة «أَشْرِكُهُ» على أن المُشْرِكَ لَهُ في أمره هو موسى عليه السلام.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي] بفتح همزة «أَشْرِكُهُ» على أن موسى يَدْعُو رَبَّهُ بأن يَجْعَلَ أَخَاهُ هَارُونَ شَرِيكاً له في أمر رسالته.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فإمّا أن يكون موسى عليه السلام دعا أولاً بأن يجعل الله أخاه شريكاً له في أمره، وبعد ذلك قال: «وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» أي: فإذا جعلته شريكاً في أَمْرِي فأنا أَشْرِكُهُ فيه.

وإمّا أن يكون قَالَ أولاً: «وَأَنَا أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» وبعد ذلك رأى أن مثل هذا القول لا يليق به أن يقوله لرَبِّهِ، فتراجع وسأل رَبَّهُ قائلاً: [وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي].

وجاء بشأن هذا الطَّلَبِ الذي طَلَبَهُ موسى عليه السلام من رَبِّهِ تَكْمِلَتَانِ لِلْمُرَادِ بَيَانُهُ في القرآن المجيد.

(١) فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٦ نزول) بعد بيان أن الله عزّ وجلّ أَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ برسالته إلى فرعون وملئه حكايةً لِقَوْلِ مُوسَى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۖ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۖ (٣٤) قَالَ سَنُنْذِرُ عَصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۖ بِأَيِّتِنَا أَنْتَا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا أَغْلِبُونَ ۖ (٣٥)﴾.

• قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْغٰلِيَمِينَ ۖ (١٦) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَنْفَقُونَ ۖ (١٧)﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٤﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِإِيتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾

القراءات:

- ١٢ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.
- ١٢ - ١٤ • قرأ يعقوب: [يَكْذِبُونِي - يَقْتُلُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف. وقرأهما باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم: [يَكْذِبُونَ - يَقْتُلُونَ].

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، وحذف الياء إيجاز في النطق وتخفيف.

- ١٣ • قرأ يعقوب: [وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي] بَنْضَبٍ فعلي «يضيق» و«يَنْطَلِقُ» عطفاً على: [أَنْ يُكَذِّبُونِ] أي: أخاف أن يُكَذِّبُونِي، وأخاف أن يَضِيقَ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقَ لِسَانِي.

وقرأهما باقي القراء العشرة بالرَّفْعِ: [وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي]: أي: وَأَنَا يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فيما أُعْهِدُ مِنْ أَمْرِي، عطفاً على: [أَخَافُ]، أو على الاستئناف.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد بيانه، وهما تَدْلَانِ على أَنَّ مُوسَى عليه السَّلام عَبَّرَ بالعبارتين، إحداهما أَبَانَ فيها ما يَعْلَمُ من نفسه بِحَسَبِ العادة، والأخرى أَبَانَ فيها تَخَوُّفَهُ من أَنْ تُسَيِّطَرَ عَلَيْهِ صِفَتُهُ المعتادة.

- تدبّر هذه النصوص الثلاثة من سورة (طه) و(القصص) و(الشعراء) تَدْبُرًا تَكَامُلِيًّا:

أَذْرَكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِظَمَ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَثَقَلَ الرِّسَالَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي كَلَّفَهُ رَبُّهُ جَلًّا جَلَّالُهُ أَنْ يَقُومَ بِوُظَائِفِهَا، فَجَالَتْ فِي خَوَاطِرِهِ ثَلَاثَةُ تَخَوُّفَاتٍ تَعْتَرِضُهُ فِي سَبِيلِهِ لِلْقِيَامِ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، فَعَبَّرَ عَنْهَا فِي مُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ بِجَانِبِ الطُّورِ فِي اللَّقَاءِ الْأَوَّلِ، وَفِي الْخَتَامِ سَأَلَ رَبُّهُ مَسَائِلَ تَتَعَلَّقُ بِمَخَافِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: لَقَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى.

التخوف الأول: أَنْ تَقْتُلَهُ السُّلْطَةُ الْفِرْعَوْنِيَّةُ، لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ مِصْرَ قَدْ قَتَلَ مِنَ الْقَبْطِ رَجُلًا، انتصاراً لإِسْرَائِيلِيٍّ وَجَدَهُ مَظْلُومًا مُعْتَدِيًّا عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ الْقَبْطِيِّ، إِذْ وَكَّزَهُ وَكَّرَهُ بِجُمُوعٍ يَدِهِ عَلَى ذَقْنِهِ فَقَضَى عَلَيْهِ، وَكَانَ الْمَكَانُ خَالِيًا إِلَّا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ، فَدَفَنَهُ عَلَى مَا ذَكَرَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ.

وظَنَّ أَنَّ الْخَبَرَ سَيَبْقَى خَفِيًّا لَنْ يَنْتَشِرَ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ وَلَنْ يَصِلَ إِلَى الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، لَكِنَّ الْخَبَرَ فَشَى بَيْنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى الْأَقْبَاطِ بِسُرْعَةٍ، فَأَلَى رِجَالَ الْقَصْرِ، فَرَأَى رِجَالَ الْقَصْرِ أَنَّ يَقْتُلُوهُ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نَاصِحًا لَهُ صِلَةَ بِالْقَصْرِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْقَوْمَ يَأْتِمُرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، وَنَصَحَهُ بِأَنْ يَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ، فَاسْتَجَابَ لِنَصِيحَتِهِ، فَفَرَّ مِنْ مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ مَنْ يَعْرِفُهُ فَيَقْبِضُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ اللَّهَ أَعْمَى عَنْهُ الْعَيُونَ، فَخَرَجَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَرْضِ مَدْيَنَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لِلْمِصْرِيِّينَ سُلْطَةٌ عَلَيْهَا حِينَئِذٍ، وَقَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِأَنْ يَأْمَنَ، وَيُرْزَقَ رِزْقًا حَسَنًا، وَيَتَزَوَّجَ ابْنَةَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِشَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَبِّمَا كَانَ رَئِيسًا دِينِيًّا فِي قَوْمِهِ، كَمَا يَذْكُرُ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ.

وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ تَخَوُّفِهِ هَذَا بِقَوْلِهِ لِرَبِّهِ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الْقَصَصِ) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٣٣﴾

وبقوله لربه كما جاء في سورة (الشعراء):

﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٢٤)

فأضافت هذه العبارة بياناً أنّ تَخَوُّفَهُ من قَتْلِهِمْ لَهُ، سَبَبُهُ أَنْ لَهُمْ عَلَيْهِ ذَنْبًا، وَهُوَ قَتْلُهُ قَبْلَ أَكْثَرِ من عشر سنين لِلْقَبْطِيِّ.

فأجابه الله عزّ وجلّ على هذا التَخَوُّفِ بقوله لَهُ: [...] كَلَّا] في الآية (١٥) من سورة (الشعراء) بهذه الأداة التي فيها معنى الزَجْر، أي: لا يليق برسولٍ اختاره الله لِحَمْلِ رِسالَتِهِ أَنْ يَخَافَ مِنَ الْقَتْلِ، أو أَنْ يَشْكَّ في حِمَايَةِ رَبِّهِ لَهُ.

وطمأنه على نفسه وعلى نفس أخيه هارون بأنّه سَيَحْمِيهِمَا مِنْ كُلِّ المخاوف، وَسَيَجْعَلُ لهما سُلْطَانًا مِنْ قُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ قَاهِرَةٍ، تَجْعَلُ بتدبيراته فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ وَجُنُودَهُمْ، لَا يُفَكِّرُونَ بِقَتْلِهِمَا أو إِيْذَائِهِمَا، مخافة عاقبة ذلك، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ سَتَكُونُ على يَقِينٍ مِنْ صِدْقِهِمَا.

وأبان الله له أنّ حمايته لهما سَتَكُونُ بآياته الخوارق - جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - مِمَّا هو ظاهرٌ ومِمَّا هو خَفِيٌّ غَيْبِيٌّ.

فقال تبارك وتعالى لَهُ كما جاء في سورة (القصص):

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتَا وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٢٥)

[سُلْطَانًا]: أي: قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ غَيْبِيَّةٌ الأَدْوَاتِ أو مشهودتها.

التَخَوُّفُ الثاني: حَالُ عُقْدَةِ لِسَانِهِ الَّتِي كَانَ سَبَبُهَا أَنَّهُ فِي طِفُولَتِهِ وَضَعَ جَمْرَةً فِي فَمِهِ بَدَلَ تَمْرَةٍ، فَاخْتَرَقَ طَرَفُ لِسَانِهِ فَصَارَتْ فِيهِ عُقْدَةٌ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ كما ذكروا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِسَبَبِ عُقْدَةِ لِسَانِهِ.

فتخوَّفَ عليه السَّلامُ أَنْ تَكُونَ هذه العقدة مانِعَةً لَهُ مِنْ أَنْ يُحْسِنَ بَيَانَ رِسالَتِهِ لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ.

وقد عَبَّرَ عَنْ تَخَوُّفِهِ هَذَا بِقَوْلِهِ لِرَبِّهِ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ):

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٤﴾﴾.

[رِدْءًا]: أي: مُعِينًا وَنَاصِرًا. الرِّدْءُ فِي اللُّغَةِ: الْمَعِينُ وَالنَّاصِرُ. وَالْقُوَّةُ وَالْعِمَادُ. يُقَالُ لُغَةً: رَدَأَ الْبِنَاءُ الْجِدَارَ مِثْلًا، أَي: دَعَمَهُ وَقَوَّاهُ.

[يُصَدِّقُنِي]: أي: يَكُونُ سَبَبًا فِي تَصْدِيقِ الْقَوْمِ لِي إِذْ نَكُونُ قُوَّتَيْنِ.

وقال موسى عليه السلام أيضاً ما جاء بيانه في نص سورة (الشعراء):

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾: أي: وَلَا يَنْدَفِعُ لِسَانِي بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ بِالْبَيَانِ، لِلْعُقْدَةِ الَّتِي فِيهِ، فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ لِأَنَّهُ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا، وَأَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَنْطَلِقَ لِسَانُهُ مِنِّي.

الانطلاق: السَّرْعَةُ فِي التَّحَرُّكِ، وَمِنْهُ انْطِلَاقُ الْخَيْلِ فِي السَّبَاقِ.

وقد أجابه الله عز وجل في النص الذي جاء في سورة (القصص) بقوله:

﴿... سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ... ﴿٢٥﴾﴾.

الْعَضُدُ: هُوَ مِنَ الْيَدِ مَا بَيْنَ الْمِرْفَقِ إِلَى الْكَتِفِ، وَجَمْعُهُ: «أَعْضَادُ» وَشُدُّ الْعَضُدِ كَنَايَةٌ عَنْ تَقْوِيَّتِهِ بِأَخِيهِ.

وبقوله له كما جاء في نص (الشعراء) بأسلوب غير مباشر:

﴿... قَالَ كَلَّا فَإِذْهَا بِأَيِّنَّا تُطَّ إِنَّآ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: قَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أَخِيكَ هَارُونَ، وَتَحَقَّقَ ظَلَبُكَ، فَادْهَبَا مَصْحُوبَيْنِ
بآيَاتِنَا الْخَوَارِقِ، وَآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ لِمَا تَقُولَانِ، وَلَمَّا يُقَالُ
لَكُمَا، وَمُؤَيَّدُونَ وَنَاصِرُونَ وَحَافِظُونَ.

وقد جاء التعبير هنا بضمير المتكلم العظيم، لإشعار موسى عليه
السلام بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ الْقَادِرَةِ عَلَى تَأْيِيدِهِمَا وَحِمَايَتِهِمَا وَنَصْرَتِهِمَا.



التخوُّفُ الثالث: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مَقْطُورٌ
عَلَى طَبِيعَةِ التَّعَجُّلِ وَالْحِدَّةِ وَسُرْعَةِ الْغَضَبِ، الَّتِي يَضِيقُ مَعَهَا صَدْرُهُ تُجَاهَ
مَا يَرَاهُ مُخَالَفًا لِلْحَقِّ أَوِ الْخَيْرِ، أَوْ لِمَزَاجِهِ وَإِحْسَاسَاتِ نَفْسِهِ، أَوْ مُصَادِمًا
لِمَا يُرِيدُهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ، مِنْ خَيْرٍ.

فهو يَتَخَوَّفُ مِنْ أَنْ تَجْعَلَهُ طَبِيعَتُهُ هَذِهِ يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَاتٍ لَا تَحْسُنُ مِنْ
رَسُولٍ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ حَكِيمٍ، وَقَائِدٍ رَشِيدٍ، لِأَنَّهَا تُحْطَمُ حَاجِزُ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ
الْحَمِيدَيْنِ.

وقد عَبَّرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَذَا التَّخَوُّفِ، بِقَوْلِهِ لِرَبِّهِ كَمَا جَاءَ
فِي نَصِّ سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ):

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي...﴾ (١٣)

ضِيقُ الصَّدْرِ يَكُونُ بَعْدَ قُدْرَةِ صَاحِبِهِ عَلَى تَحْمِلِ الْمَزْعَجَاتِ
وَالْمُؤَلِّمَاتِ لِلنَّفْسِ، بِصَبْرِ حَمِيدٍ، وَحِلْمٍ رَشِيدٍ، وَلَا سِيمَا لَدَى تَعَامُلِهِ مَعَ
النَّاسِ ذَوِي الْأَخْلَاقِ وَالطَّبَاعِ الْمُخْتَلِفَةِ.



وبعد أَنْ أَبَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ تَخَوُّفَاتِهِ الثَّلَاثَ الَّتِي سَبَقَ
شَرْحُهَا، سَأَلَ رَبَّهُ بِشَأْنِهَا جَمِيعًا، مَعَ غَيْرِهَا مِنْ مُطَالِبٍ، قَائِلًا فِي دُعَائِهِ
مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي نَصِّ سُورَةِ (طه):

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ﴾ (٢٥) ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ﴾ (٢٨) ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۖ﴾ (٢٩) ﴿هَؤُلَاءِ أَشْدُّ بِهِ ۖ﴾ (٣٠) ﴿أَنْزِرْ ۖ﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۖ﴾ (٣٢) ﴿كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٣٣) ﴿وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٣٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ﴾ (٣٥):
تدبر هذا النص:

• ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ﴾ (٢٥):

[اشْرَحْ]: دُعاءٌ بصيغة الطلب. الشَّرْحُ: البَسْطُ والتَّوْسِيعَةُ. وَشَرَحَ الصَّدْرَ يكون بجفله واسعاً قادراً على تَحْمِلِ الْمُزْعِجَاتِ والمكَاَرِه، بِصَبْرِ حَمِيد، وَحِلْمٍ رَشِيد، دُونَ انْدِفَاعٍ بِغَضَبٍ سَرِيع.

الصَّدْرُ: معروف، فيه القلب والكبد والرئة ونحوها. وَلَكِنَّ الصَّدْرَ فِي تَحْلِيلِ النَّفْسِ هُوَ الْوَعَاءُ الَّذِي يَحْوِي فِي الْإِنْسَانِ خِصَائِصَ نَفْسِهِ، مِنْ سَطْحِ هَذِهِ الْخِصَائِصِ إِلَى عُمُقِهَا، وَتَأْتِي فِي سَخَطِهَا الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ. وَيَأْتِي فِي عُمُقِهَا مَرْكَزُ اسْتِقْرَارِ الْمَعَارِفِ الْكُبْرَى، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِرَادَاتِ الشَّدِيدَاتِ مِنْ مُسْتَوَى الْعِزَمِ.

• ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ﴾ (٣١):

أَي: وَسَهِّلْ لِي كُلَّ أُمُورِي، وَلَا تَجْعَلْ فِيهَا عَسِيراً وَلَا صَعْباً. اسْتِفِيدَ الْعُمُومُ مِنْ إِضَافَةِ «أَمْرٍ» إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.

التَّيْسِيرُ: التَّسْهِيلُ، وَجْعَلُ الشَّيْءِ مَطَاوِعاً هَيئاً لِيُنَاقِضَ مُنْقَاداً، لَا تَقِفُ دُونَ تَحْقِيقِهِ أَوْ دُونَ تَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنْهُ، عَقَبَاتٌ وَلَا مَوَانِعَ وَلَا سُدُودَ. وَالْيُسْرُ: هُوَ ضِدُّ الْعُسْرِ.

• ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ﴾ (٢٨):

حَلُّ الْعُقْدَةِ: فَكُّهَا. الْعُقْدَةُ فِي الْمَنْظُورِ: عُقْدَةُ الْخَيْطِ أَوْ الْحَبْلِ حِينَ يُدَارُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيُشَدُّ. وَنَظِيرُهَا يَكُونُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ.

عُقْدَةُ اللِّسَانِ: عَيْبٌ فِي نُطْقِ اللِّسَانِ خِلْقِيَّيْ أَوْ طَارِيئٌ، يجعل اللسان غيرَ قادِرٍ على النُّطْقِ بانطلاقٍ ويُسرٍ وسَلَاسَةٍ، وإفهامٍ سريعٍ للمراد ببيانه بالكلام.

[يَفْقَهُوا قَوْلِي]: أي: يَفْهَمُوا قَوْلِي بِإِمعانٍ. الفقه: هو في اللُّغة الفهم، والعِلْمُ. وَيُسْتَعْمَلُ الفقه للدلالة على العِلْمِ ببواطنِ الأُمُورِ ودَقَائِقِهَا وَخَفَايَاهَا، وعلى البحث عنها للتوصلِ إلى مَعْرِفَتِهَا، فهو أَخَصُّ من مُطْلَقِ العِلْمِ.

أي: واخْلُلْ يا رَبِّ عُقْدَةً من لِسَانِي، وهي العقدة الَّتِي تَحْبَسُ نُطْقِي بَعْضَ الشَّيْءِ، فَإِذَا حَلَلْتُهَا بِقُدْرَتِكَ وَحِكْمَتِكَ صِرْتُ قَادِرًا على إِفْهَامِ الَّذِينَ أُبَلِّغُهُمْ رِسَالَاتِكَ دَقَائِقَ المعاني الَّتِي أُقِيمُ بِهَا عَلَيْهِمُ البراهينَ الدَّامِغَةَ، والحججَ السَّاطِعَةَ القاطِعةَ، الكاشفة لباطل المجادلينَ بالباطلِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُدْحِضُوا الحَقَّ بِزُخْرَفٍ من القول.

• ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ ٱلْٔٓاٰلِ ٓهٰرُونَ أَخِي ۖ﴾

الوزير: المُوَازِرُ المعين المساعد المسانِد.

أي: واجْعَلْ لي مُوَازِرًا مُعِينًا مُسَاعِدًا يَحْمِلُ مَعِيَ أَثْقَالَ وَطَائِفِ رِسَالَتِي.

الْوَزْرُ، والْوِزْرُ، والْوِزْرَةُ: حَمْلٌ ما هُوَ ثَقِيلٌ على الظَّهْرِ. هو في المَادِّيَّاتِ ظاهر، وفي المعنَوِيَّاتِ هو من قِبَلِ التَّوَسُّعِ اللُّغَوِيِّ.

﴿...مِّنْ أَهْلِ ٱلْٔٓاٰلِ ٓهٰرُونَ أَخِي ۖ﴾: سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ الوزيرَ الَّذِي يَخْتَارُهُ لَهُ مُسَاعِدًا مُّسَانِدًا مِنْ أَهْلِهِ، وَعَيْنَ أَخَاهِ هَارُونَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ لِعِلْمِهِ بِأَخِيهِ، وبأنَّهُ أَهْلٌ لِهَذِهِ الْوِزَارَةِ الدِّينِيَّةِ، دِينًا وَخُلُقًا وَبَيَانًا وَحِكْمَةً وَجِلْمًا.

• ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١): أي: قَوُّ بِهِ قُوَّتِي. الأزرُ: القوة. يُقال لغة: شَدَّ أزرَهُ، أي: قواه.

استُعْمِلَ فِعْلُ الشَّدِّ في القرآن بمعنى التَّقْوِيَةِ، وبمعنى الشَّدِّ الضَّاعِطِ المؤلم، كَشَدَّ وَثاقِ الأسير، والشَّدُّ على القلوب بالكُروب، وبالمؤلِمات المحزنات.

• ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢)

أي: واجعله شريكاً لي في أمر رسالتي التي كلَّفْتَنِي إياها، وحَمَلْتَنِي وظَائِفَهَا. وفي قراءة ابن عامر: [وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي] بضم همزة «أَشْرِكُهُ» أي: فَإِنْ جَعَلْتُهُ وزيراً شريكاً لي في أمرِ رسالتي، أَجْعَلُهُ شريكاً في ذلك.

• ﴿كُنْ نَسِيحَك كَثِيراً﴾ (٣٣)

أي: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَسَاعَدَ وَتَتَسَانَدَ عَلَى تَنْزِيهِكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَالِكَ وعظيم صفاتك، تنزيهاً كثيراً في مفهومات التنزيه، وكثيراً في تَكَرَّارِهِ طوال أزماننا، بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَنْفُسِنَا، وفي دَعْوَتِنَا الَّتِي نَقُومُ بِهَا إِذْ نَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِكَ وصراطك المستقيم.

التَّسْبِيحُ لله: تَنْزِيهُهُ وَتَقْدِيسُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ جَلًّا جلاله وَعَظَمَ سلطانه. وهو تمجيد لله بصفاته السَّلبِيَّةِ التي هو مُنَزَّهٌ عنها. وهو عَكْسُ التَّوْقِيرِ: الذي هو تمجيد لله بصفاته الوجودية التي هي لله عز وجل على ما يليقُ به.

• ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ (٣٤)

أي: وَنَذْكُرُكَ بِمَحَامِدِكَ الْجَلِيلَةِ، وَصِفَاتِكَ الْعَظِيمَةِ، وَأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى، فِي أَنْفُسِنَا، وَفِي دَعْوَتِنَا لِلنَّاسِ الَّتِي نَقُومُ بِهَا، ذِكْراً كثيراً، بَيَانِ كَمالِ ذاتِكَ، وَكَمالِ صفاتِكَ وَأَسْمَائِكَ، وَبِتَكَرُّارِ ذَلِكَ تَكَرُّراً كثيراً طوال أزمان حياتنا.

• ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٢٥):

أي: إِنَّكَ كُنْتَ وَمَا زِلْتَ وَلَنْ تَزَالَ بِنَا بَصِيرًا مَا دُمْنَا فِي الوجود. وهذا يَجْعَلُنَا نَظْمَعُ بِثَوَابِكَ الْعَظِيمِ الَّذِي تَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْنَا، مُقَابِلَ قِيَامِنَا بِتَسْبِيحِكَ كَثِيرًا، وَذِكْرِكَ كَثِيرًا.

إِنَّ صِفَاتِ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ ذَاتُ كَيُونَةٍ دَائِمَةٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا هُوَ كَائِنٌ دَوَامًا.

البصير: فِي إِطْلَاقِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ بِالْغِ الْغَايَةِ الْعَظْمَى فِي صِفَةِ الرُّؤْيَةِ، وَهِيَ الَّتِي يَرَى فِيهَا كُلَّ مَا يُمَكِّنُ عَقْلًا رُؤْيَتَهُ، مَهْمَا صَغُرَ أَوْ كَبُرَ، وَمَهْمَا بَعُدَ أَوْ قَرُبَ.

هَذِهِ الْأَدْعِيَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا مُوسَى رَبَّهُ فِي أُولَى مَكَالِمَةِ اللَّهِ لَهُ بِجَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ، قَدْ أَجَابَهُ اللَّهُ بِشَأْنِهَا:

إِذْ كَانَ الْجَوَابُ الْآخِرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (طه) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٣٦):

أي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ أَعْطَيْنَاكَ كُلَّ مَا سَأَلْتَنَا إِيَّاهُ يَا مُوسَى، جَاءَ فِعْلُ: [أُوتِيتَ] بِصِيغَةِ الْمَبْنِيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ الْبَدْهِيِّ الظَّاهِرِ أَنَّ اللَّهَ رَبَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاهُ سُؤْلُهُ.

وَدَلَالَةُ الْعَمُومِ الَّتِي شَمَلَتْ كُلَّ مَطَالِبِهِ أَفَادَتْهَا إِضَافَةُ السُّؤْلِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ، وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

السُّؤْلُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ الشَّيْءُ الَّذِي يُطْلَبُ بِالسُّؤَالِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي النَّصِّ الْآخَرَيْنِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ آتَاهُ سُؤْلُهُ بِشَأْنِ أَخِيهِ هَارُونَ، وَبِشَأْنِ مَا كَانَ يَتَخَوَّفُ مِنْهُ، فَجَاءَ فِي نَصِّ سُورَةِ (الْقَصَصِ) قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْنٰكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

وجاء في نص سورة (الشعراء) قول الله عز وجل:

﴿... فَأَذْهَبَآِآيٰتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: أَرْسَلْنَا مَعَكَ أَخَاكَ فَأَذْهَبَا، وهذا المطوي في اللفظ يُفْهَمُ باللزوم الفكري.



وهكذا ظهر لنا تكامل النصوص الثلاثة في دلالاتها، دون تكرار،
إلا ما يقتضيه التعريف بأصل الموضوع، ولا يُفْهَمُ المراد بالنص من دونه،
وما يقتضيه ترابط فقرات النص.

وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد.



تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه)
المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السلام

الفقرة الثانية

الآيات من (٣٧ - ٦٠)

قال الله عز وجل خطاباً لموسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرٰى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحٰى ﴿٣٨﴾ أَنْ
أَقْرِضْهُ فِي الْآبُوتِ فَأَقْضِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ
وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَبَقَّى أَخَاكَ فَقَوْلْ هَلْ أَدْرٰكُ
عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَجَيْنَاكَ مِن

أَلْقَمَ وَفَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُوسٍ ﴿٤٠﴾
 وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَحُوكَ بِإِثْبَاطِي وَلَا لِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى
 فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا
 نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾
 فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ
 بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ
 عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْؤُوسٍ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ
 شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمْنَا مِنْ رَبِّ فِي
 كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
 سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُّوْا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ
 وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ
 أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسٍ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأَيُّتَنَّاكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ
 وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ *

القراءات:

٣٩ • قرأ أبو جعفر: [وَلْتَضَنِّعْ عَلَى عَيْنِي] بلام الأمر، التي هي هنا
 لامُ أمر التكوين، وبجزم الفعل بلام الأمر.

وقراها باقي القراء العشرة: [وَلْتَضَنِّعْ] بكسر اللام، على أنها لامُ
 التعليل، وينصب الفعل بأن مضمرة بعد لام التعليل، وهذه القراءة تدلُّ
 على الغرض من جعله يُنشأ في القصر الفرعوني تنشئة القادة، وعليماً بما
 يجري في القصر من أمور.

٣٩ - ٤٠ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَيْنِي إِذْ] بفتح ياء

المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٠ • قرأ السُّوسي، وأبو جَعْفَر: [جِيتَ] بإبدال الهمزة ياءً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [جِئْتُ] على الأصل دون إبدال.

٤١ - ٤٢ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جَعْفَر: [لِنَفْسِي

أَذْهَبَ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٢ - ٤٣ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جَعْفَر: [فِي

ذِكْرِي أَذْهَبًا] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٥٣ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [مَهْدًا] وقرأها باقي

القراء العشرة: [مِهَادًا].

٥٨ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر:

[سَوَى] بكسر السين، والباقون بضمها، وهما لغتان عربيتان للكلمة.

تمهيد:

مما ذكر ابن كثير مُتَفَرِّقًا في كتابه «قصص الأنبياء» أجمع مع بعض

اختصار وتصرفٍ في التعبير، ما يلي مما يتعلّق بمنة الله على موسى إذ

أنجاه وهو طفل صغير من الذَّبْح، بمقتضى أمر فرعون مصر بقتل الذكور

من مواليد الإسرائيليين.

(١) أَنَّ فرعون مصر الَّذِي وُلِدَ في عهده موسى عليه السَّلام، قد

استَعْبَدَ بني إسرائيل، وأذلَّهم، وجَعَلَ يستخدمهم في أخْس الصنائع

والجِرَف، ويُسَخِّرُهُم في الأعمال الشاقَّة، وقد أَمَرَ بذبح مواليدهم من

الذكور، واستبقاء مواليدهم من الإناث.

(٢) وكان الحاملُ لَهُ على هذا الظُّلم الشنيع أَنَّ بني إسرائيل كانوا يتدارسونَ فيما بينهم، عن إبراهيم عليه السَّلام، أَنَّهُ سيخرج من ذُرِّيَّتِهِ، بَنِي إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ غَلامٌ يَكُونُ هَلاكَ مَلِكٍ مُضِرٍّ على يَدَيْهِ، فتحدَّثَ بها القِبْطُ فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فأمرَ عِنْدَئِذٍ بِقَتْلِ أبناء بني إسرائيل، حَذراً من وجود هذا الغلام.

(٣) ورُوي عن ابن مَسْعُودٍ وعن أناسٍ من الصحابة أَنَّ فِرْعَوْنَ رأى في منامه، كأنَّ ناراً قد أَقبلَتْ من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضرَّ بني إسرائيل، فلمَّا استيقظ هاله ذلك، فسأل من له عِلْمٌ بتعبير الأحلام، فقالوا له: هذا غلامٌ يولدُ من هؤلاء يكون سَبَبُ هلاك أهل مصر على يَدَيْهِ، فلهذا أَمَرَ بِقَتْلِ الذكور من مواليد بني إسرائيل، واستحياء المولودات من الإناث منهم.

(٤) وذكر عَدَد من المفسِّرين، أَنَّ القِبْطَ شَكَّوا إلى فرعون قِلَّةَ بني إسرائيل، بسبب قتل وَلَدَانِهِم من الذكور، وأنَّهم خافوا أَن يتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الَّذِينَ يَقومون بما كانَ بنو إسرائيل يَقومون به من أعمال شاقَّة، أو أعمال دنيئة حَقِيرَة، فأمرَ فرعونُ بأن تقتل أبنائَهُم عاماً، وأن يُترَكُوا عاماً.

وذكروا أَنَّ هارون وُلِدَ في عام المُسامَحَةِ عن قَتْلِ الأبناء، وأنَّ موسى وُلِدَ في عام قَتْلِهِم، وأنَّ أُمَّه لما حملت به ضاقت بحملها دَرْعاً، وأخذت تحترز من أوَّل ما حَمَلَتْ به، ولم تَكُنْ تُظْهِرُ عليها مَحَايِلَ أَنَّها حُبْلَى، خَوْفاً من أَن يَأْتِيها وَلَدٌ ذَكَر، فيقتله جُنُودُ فرعون.

فلَمَّا وَضَعَتْهُ أَلْهَمَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ أَن تَخْذَلَهُ تَابُوتاً (صندوقاً) وربطت حبلاً بهذا الصندوق، وكانت دارُها مُتَاخِمةً لِلنَّيلِ، فكانت تُرْضِعُهُ، فإذا حَشِيَتْ من أَحَدٍ وَضَعَتْهُ في ذلك التَّابُوتِ، فأرْسَلَتْهُ في ماء النيل،

وَأَمْسَكَتْ طَرَفَ الْحَبْلِ عِنْدَهَا، فَإِذَا ذَهَبَ الرُّقْبَاءَ مِنَ الْقَبْطِ اسْتَرْجَعَتْهُ إِلَيْهَا.
فَأَرْسَلَتْهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَذَهَلَتْ أَنْ تَرِبَطَ طَرَفَ الْحَبْلِ عِنْدَهَا، فَذَهَبَ مَعَ
النِّيلِ وَجَرَيَانِهِ، فَمَرَّ عَلَى سَاحِلِ قَصْرِ فِرْعَوْنَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ.

(٤) وَذَكَرُوا أَنَّ جَوَارِيَ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ التَّقَطُّنَةُ مِنَ النَّيْلِ فِي تَابُوتٍ
مُغْلَقٍ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَتَجَاسَّرَنَّ عَلَى فَتْحِهِ، حَتَّى وَضَعْنَهُ بَيْنَ يَدَيْ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ،
فَلَمَّا فَتَحَتْ غَطَاءَهُ، وَكَشَفَتِ الْحِجَابَ، وَرَأَتْهُ أَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا جَدًّا.

فَلَمَّا جَاءَ فِرْعَوْنٌ قَالَ: مَا هَذَا؟ وَأَمَرَ بِذَبْحِهِ، فَاسْتَوْهَبَتْهُ مِنْهُ، وَدَفَعَتْ
عَنْهُ، وَقَالَتْ: «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ؟»

قَالَ فِرْعَوْنُ: أَمَّا لَكَ فَنَعَمْ، وَأَمَّا لِي فَلَا.

(٥) وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الصَّبِيُّ «مُوسَى» بِقَصْرِ فِرْعَوْنَ، أَرَادُوا أَنْ يُرْضِعُوهُ،
فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيًا، وَلَا أَخَذَ طَعَامًا، فَحَارُوا فِي أَمْرِهِ، فَأَرْسَلُوهُ مَعَ الْقَوَائِلِ
وَالنِّسَاءِ إِلَى السُّوقِ، لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مُرْضِعَةً يَرْضَى أَنْ يَرْضَعَ مِنْ ثَدْيِهَا.

فَبَيْنَمَا هُمْ وَقُوفٌ بِهِ، وَالنَّاسُ عَاكِفُونَ عَلَيْهِ، إِذْ بَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ، فَلَمْ
تُظْهِرْ أَنَّهَا تَعْرِفُهُ، بَلْ قَالَتْ: «هَلْ أَذُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وَهُمْ
لَهُ نَاصِحُونَ؟».

قَالُوا لَهَا: وَمَا يُذَرِّيكَ بُنْصَجِهِمْ وَشَفَقَتَهُمْ عَلَيْهِ؟

قَالَتْ: رَغْبَةٌ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءٌ مَنَفَعَتِهِ.

فَذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنْزِلِ أَبِيهَا وَأُمِّهَا، فَأَخَذَتْهُ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْ حُلْمَةً
ثَدْيِهَا فِي فَمِهِ التَّقَمَّهَا، وَأَخَذَ يَمْتَصُّ حَلِيبَ أُمِّهِ وَيَرْتَضِعُهُ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ
فَرَحًا شَدِيدًا.

وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى «آسِيَةَ» امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَأَعْلَمَهَا بِمَا جَرَى،
فَاسْتَدْعَتْ هَذِهِ الْمَرْضِعَةَ (الَّتِي هِيَ أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ) إِلَى قَصْرِهَا، وَعَرَضَتْ

عليها أن تكونَ عندها، وأن تُحسِنَ إليها، فأبَتْ، وقالت: إن لي بَعْلًا وأولادًا، ولَسْتُ أَقْدِرُ على هذا إلَّا أن تُرْسِلِيه معي، فَأَرْسَلْتُهُ مَعَهَا، وَرَبَّتْ لَهَا رَوَاتِبَ، وَأَجَرَتْ عليها النفقات والكساوي والهبات.

وَرَدَّ الله ابْنَهَا إليها تُرْضِعُهُ، وَتَخْضُنُهُ، مأجورة مُعَزَّزة مُكْرَمة.

ما جاء عند الإسرائيليين بشأن هذه القصة:

جاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج ما يلي معناه:

قام في مصر مَلِكٌ بَعْدَ المَلِكِ الذي كان في عهد يوسف عليه السَّلام، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ يوسُفَ. فرأى أن العبرانيين يتكاثرون، وتعظُم قُوَّتُهُمْ في مصر. وتصور أنه إذا قامت حَرْبٌ بَيْنَهُ وبين أعدائه أن ينضمَّ العبرانيون إلى الأعداء، فأمر الشَّعْبَ المصريَّ بِتَسْخِيرِ الإسرائيليين، وإذْلالِهِمْ، واستِعبَادِهِمْ استعباداً قاسياً، ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِ موالِدِهِمْ من الذُّكور.

وفي السَّنة القاسية الَّتِي كان القبط يقتلون فيها مواليد العبرانيين الذكور، وُلِدَ موسى، من بيت لاوي، أباً وأماً.

فَحَبَّأَتْهُ أُمُّهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، لَكِنَّهَا لَمَّا لَمْ يُمْكِنُهَا أَنْ تَحْبِيَهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، أَخَذَتْ لَهُ سَفْطاً مِنَ الْبَرْدِيِّ ذَا غَطَاءٍ (السَّفْطُ: صندوق يُصْنَعُ مِنْ قُضْبَانِ الشَّجَرِ) وَطَلَّتْهُ بِالْحُمْرِ^(١) وَالزَّفَتِ، وَوَضَعَتْ ابْنَهَا فِيهِ، وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ الْحِلْفَاءِ (الحلفاء: نباتٌ قليل الارتفاع ينمو في المستنقعات، وعلى بعض شواطئ النيل ويُقْتَلُ إِلَى حَبَالٍ) عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ، وَوَقَفَتْ أُخْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ لَتَعْرِفَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِ.

(١) الْحُمْرُ: نوع من الفار المعدني، شبيه بالقطران الشديد، ويتحوَّلُ إلى زفت إذا جُمِدَ تماماً، وكان يُسْتَعْمَلُ ولا زال في طلاء المراكب البحرية، ويوجدُ في البحر الميت وبالقُرْبِ مِنْهُ. وكان يستخدم في بابل عوضاً من الإسمنت. (عن كتاب قاموس الكتاب المقدس).

فنزلت ابنة فرعونَ إلى النَّهْرِ لتغتسل، وكانت جواربها ماشياتٍ على جانب النهر، فرأتِ السَّفَطَ بين الحَلَفَاءِ، فَأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وَأَخَذَتْهُ، وَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ الْوَلَدَ، وَإِذَا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكِي، فَرَقَّتْ لَهُ، وَقَالَتْ: هذا من أولادِ العبرانيين.

وقالت أُخْتُه لابنةَ فرعونَ: هَلْ أَذْهَبُ وَأَدْعُو لِكَ امْرَأَةٍ مُرْضِعَةٍ من العبرانيات لِتَرْضِعَ لَكَ الْوَلَدَ.

فقالَت لها ابنةُ فرعونَ: اذهبي بهذا الولدِ وأَرْضِعِيهِ لي، وأنا أُعْطِيكَ أَجْرَتَكَ.

فأخذت أُمُّ الصَّبِيِّ وَلَدَهَا وَأَرْضَعَتْهُ، وَلَمَّا كَبُرَ جَاءَتْ إِلَى ابْنَةِ فرعونَ وَأَعْطَتْهَا الصَّبِيَّ، فَتَبَنَتْهُ وَلَدًا لَهَا، وَسَمَّتْ اسْمَهُ «موسى» وقالت: إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ.

التدبر:

قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لموسى في سورة (طه) الَّتِي أَتَابَعَ تَدْبُرَ دروسها:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرْجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ فَنُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

• ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لموسى بعبارة [لَقَدْ] ويعطف الجملة على الجمل السابقة لها في السورة.

[مَنْنًا]: أي: أَحْسَنَّا وَتَفَضَّلْنَا وَأَنْعَمْنَا، بِاسْتِعْمَالِ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، إِذْ كَانَ فِي هَذِهِ الْمِنَّةِ أَلْطَافٌ رَبَّانِيَّةٌ عَجِيبَةٌ.

الْمَنْ: هُوَ فِي اللُّغَةِ الْإِحْسَانُ وَالتَّفَضُّلُ وَالْإِنْعَامُ. يُقَالُ لُغَةً: «مَنْ فُلَانٌ عَلَى صَدِيقِهِ يَمْنُ مَنًّا»، أَي: أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ طَيِّبَةٍ.

[مَرَّةً أُخْرَى]: أَي: غَيْرَ مِنَّةٍ مُكَالَمَتِكَ، وَمَنْحِكَ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، وَآتَيْتِ الْعَصَا وَالْيَدَ، مَعَ مَا سَنُعْطِيكَ مِنْ آيَاتٍ لَمْ نَكْشِفْ لَكَ مَفْرَدَاتِهَا فِي هَذَا اللَّقَاءِ.

وهذه المنة الأخرى التي سيأتي بيانها هي منة حمايته من الذبح، بأيدي جنود فرعون صاحب الأمر بذبح المواليد الذكور من بني إسرائيل.

• ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يُوْحَىٰ﴾ (٢٨):

أي: ضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ يَا مُوسَىٰ أُنَّا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَمْرِكَ إِلَهَامًا مِّنَّا أَنْ تَعْمَلَ أَعْمَالًا كَانَتْ سَبَبًا صَوْرِيًّا فِي نَجَاتِكَ مِنَ الذَّبْحِ وَتَنْشِئَتِكَ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ تَنْشِئَةً أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ.

أَوْ مَنَّا عَلَيْكَ وَقْتَ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَمْرِكَ مَا يُوْحَىٰ.

[مَا يُوْحَىٰ]: أَي: مَا يُوْحَىٰ نَظِيرُهُ لغير الأنبياء والمرسلين، إِذْ يَأْتِيهِمْ إِلَهَامًا عَلَى شَكْلِ خَوَاطِرٍ قَوِيَّةٍ دَافِعَةٍ بِقُوَّةٍ إِلَى الْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهَا، أَوْ بِوَاسِطَةِ حُلُمٍ جَلِيٍّ يُرَىٰ فِي الْمَنَامِ، أَوْ بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ يَأْتِي بِصُورَةِ إِنْسَانٍ نَاصِحٍ غَيْرٍ مَعْرُوفٍ أَنَّهُ مَلَكٌ. وَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مَلَائِكَةً لِبَعْضِ عِبَادِهِ، فَبَلَّغُوهُمْ وَأَخْبَرُوهُمْ أَخْبَارًا صَادِقَةً دُونَ أَنْ يَكُونَ الْمَرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءٌ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْأَقْرَعِ وَالْأَبْرَصِ وَالْأَعْمَى، عِنْدَ الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَكَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ سَلَّمَتْ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ الْحَصِينِ، وَهُوَ لَيْسَ بِنَبِيٍّ، وَكَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الَّذِي ذَهَبَ لِيُزُورَ أَخَاهُ لَهُ فِي اللَّهِ سَاكِنٍ فِي بَلَدٍ غَيْرِ بَلَدِهِ فَظَهَرَ لَهُ الْمَلَكُ وَسَأَلَهُ عَنْ قَصْدِهِ وَحَادِثِهِ، فَلَيْسَ مِثْلُ هَذَا مَقْتَضِيًّا لِلنُّبُوَّةِ.

وقد اتفق جمهور أهل العلم أنّ النبوة لا تكون للنساء، فلم تكن أم موسى نبيّة يُوحى إليها كما يُوحى إلى الأنبياء.

• ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾:

[أن] تفسيرية جاءت بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، فالعبرة جاءت تفسيراً للفعل في: [أَوْحَيْنَا].

وأضل معنى القذف رمي الشيء بقوة، وليس هذا هو المراد بالعبرة هنا. ولكن جاء استعمال فعل [اقْذِفِيهِ] للدلالة على أنها حينما تَضَعُهُ في التابوت، فإنها تَقْلَعُهُ بعنف من قلبها الْمُتَعَلِّق بَوْلَدِهَا، والمطلوب منها أن تَضَعَهُ بِسُرْعَةٍ في التابوت، ودون تَرَدُّد، لأنَّ العملية تحتاجُ سُرْعَةً وَجُرْأَةً بلا تَرَدُّد، إخفاءً لِلأَمْرِ عن عُيُونِ السُّلْطَةِ الفرعونية وسائر المصريين، وكثير من الإسرائيليين، كَيْلًا يَشِيعُ وجودُ صَبِيٍّ وَلِيدِ سَنَتِهِ في بيتٍ من بيوت بني إسرائيل.

﴿فِي التَّابُوتِ﴾: أي: في الصُّنْدُوقِ الَّذِي تُعَدِّينُهُ إِعْدَاداً حَسَناً، لِيُطْفَوُ على الماءِ دون أن يتعرَّضَ للغرق، حين تُلْقِيَنَهُ في النيل.

﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾: أي: وبِقُوْرَةٍ وَسُرْعَةٍ تُشْبِهُ سُرْعَةَ قَذْفِ الْحَجَرِ، ضَعِيهِ فِي الْيَمِّ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ أَحَدٌ بِمَا فَعَلْتَ.

هذان أمران تكليفيّان جاءا إلى أم موسى، تضمّنهما ما أُوحِيَ إليها به، على ما سبق به البيان بشأن المراد بالوحي إليها.

«الْيَمُّ»: البحر، وهو الماء الواسع الكثير، وأُطْلِقَ لفظ «الْيَمِّ» على نهر النيل لأنّه عظيم، وماؤه واسع وكثير.

• ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾:

هذا أمرٌ تكوينيٌّ صادرٌ عن الرَّبِّ الْخَالِقِ، فلا بُدَّ من تحقُّقه في وقته

المحدّد له . وقد تحقّق فعلاً على ما تمّت به إرادة الله وقضاؤه .

[السّاحل]: هو شَطُّ البَحْرِ، وسُمّي ساحلاً لأنّ الماء سَحَلَ أرضه، أي: قَسَرَ عنها سَطْحَهَا بأمواجه، ومدّه وجَزَرِه .

والمراد بالسّاحِلِ في هذه العبارة جانبُ الساحل من النّهر، لا السّاحِلُ نفسه، أو طرفُ السّاحل الذي تتوقف عنده الأشياء التي يحملها الماء .

• ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ :

أي: وسيُحْدِثُ بوصوله إلى جانب الساحل حَدْثٌ أُخْذِهِ مِنْ قِبَلِ آلِ فرعون الكافر، الَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لِلَّهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِ، وَعَدُوٌّ لِمُوسَى، لِأَنَّهُ مِنْ أبنَاءِ بني إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَمَرَ فرعون بِقَتْلِهِمْ عَقِبَ ولاداتهم، إِذْ اعْتَقَدَ أَنَّ هلاكه وهلاك أنصاره وجنوده سيكونُ على يَدَيْهِ .

جاء فعلُ: [يَأْخُذْهُ] مجزوماً على أَنَّهُ جوابٌ لِلطَّلَبِ في: [فَلْيُلْقِهِ] لِأَنَّ إرادة الله عزّ وجلّ قَدَرَتْ أَنْ يَتَرَتَّبَ أَخْذُ آلِ فِرْعَوْنَ لَهُ، بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَى جانب ساحل قَصْرِهِ . وَبَعْدَ انْتِشَالِهِ بِأَيْدِي الجوّاري، أَوْ بِيَدِ بِنْتِ فرعون، أَوْ بِيَدِ زوجته، فمُصِيرُهُ إِلَى فرعون نفسه، لِأَنَّهُ هُوَ سَيِّدُ القَصْرِ وَالْأَمْرِ النّاهي فيه، ويكون في الحقيقة هو الذي يَأْخُذُهُ إِذْ يُوافِقُ على تَبَنِّيهِ أَوْ تَرْبِيَّتِهِ في قَصْرِهِ كأحدِ أولاده .

• ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ :

أي: وأنزلتُ بِإِلْقَاءِ سريع على ذاتك شيئاً خاصّاً من لدنّي وبأمرّي، يَجْعَلُ مَنْ يُشَاهِدُكَ يَمِيلُ قَلْبُهُ إِلَيْكَ حُبّاً، فيتعلّق بك .

وهكذا كان حينما شاهدهُ أَهْلُ قَصْرِ فرعون، بنظراته وقسماته الأخاذة الجذّابة، إِذْ تَعَلَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِهِ .

• ﴿وَلِصَنَعَ عَلَىٰ عَيْفٍ﴾:

يُقَالُ لُغَةً: صَنَعَ الرَّجُلُ فَرْسَهُ، أَي: تَعَهَّدَهُ وَأَحْسَنَ الْقِيَامَ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ وَتَدْرِيْبِهِ.

ويقال: صَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، أَي: تَوَلَّى تَوْجِيْهَهُ وَتَنْشِئُهُ وَتَرْبِيَّتَهُ عَلَى الْكَمَالَاتِ، فِي مُخْتَلَفِ أَطْوَارِ إِعْدَادِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ.

ويقال: صَنَعَ عَمَلَهُ بِعَيْنِ فُلَانٍ، أَي: قَامَ بِعَمَلِهِ مَشْمُولاً بِرَعَايَتِهِ.

أَي: وَقَدَّرْتُ وَقَضَيْتُ إِيْصَالَكَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَإِلْقَاءِ مُحَبَّتِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، لَتُنْشَأَ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ إِِنْشَاءً خَاصّاً، تُصْنَعُ فِيهِ صُنْعاً رَاقِياً بِعَنَائِي بِكَ، وَحَمَائِي وَرَعَائِي لَكَ.

﴿عَلَىٰ عَيْفٍ﴾: أَي: عَلَى الْمَكَانِ الْمُحَاطِ بِعَنَائِي بِكَ، وَحَمَائِي، وَرَعَائِي لَكَ.

أُطْلِقَ لَفْظَ الْعَيْنِ، وَأُرِيدَ بِهِ بَالِغُ الْعِنَايَةِ؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ بِهَا تَكُونُ الرُّؤْيَةُ وَالْمِرَاقِبَةُ، فَيَكُونُ مُوسَى عَلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَشْمَلُهَا وَتَحِيطُ بِهَا عِنَايَةُ اللَّهِ الدَّائِمَةُ لَهُ، كَدَوَامِ رُؤْيَةِ اللَّهِ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ عَقْلاً رُؤْيَتُهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ.

• ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾:

أَي: وَضَعَ فِي ذَاكَرَتِكَ الْأَحْدَاثَ الَّتِي كَانَتْ حِينَ مَشَى أُخْتُكَ مُتَابِعَةً لَكَ عَنْ بُعْدٍ، تُرَاقِبُ مَاذَا سَيُحْدِثُ بِالتَّابُوتِ، وَإِلَى أَيْنَ يَصِلُ.

وَلَمَّا عَلِمْتَ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَأَنَّهُ قَدْ التَّقَطَّهُ آلُ فِرْعَوْنَ، جَعَلْتَ تَقْتَرِبُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْقَصْرِ.

وَلَعَلَّهَا كَانَتْ تَنَادِي: مَنْ يُرِيدُ مُرْضِعَةً مُرَبِّيَّةً حَاضِنَةً، لِطِفْلِ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى.

يُشْعِرُ بِهَذَا عِبَارَةً [فَتَقُولُ] بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ الدَّالِّ عَلَى تَكَرُّارِ

القول، ومثل هذا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْبَاعَةِ المتجولين، أو عارضي وعَارِضَاتِ
الْخِدْمَاتِ المتجولين والمتجولات.

ولَمَّا عَلِمَتْ أَنَّ آلَ فرعون طَلَبُوا لَهُ مُرْضِعَةً مُرَبِّيَّةً حَاضِنَةً، يَقْبَلُ
الطُّفْلُ الرِّضَاعَ منها، إِذْ لَمْ يَقْبَلِ الطُّفْلُ ثَدْيَ مُرْضِعَةٍ مَا فِي الْقَصْرِ أَوْ مِنْ
حَوْلِهِ، أَقْبَلَتْ أُخْتُهُ فَقَالَتْ لَهُمْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ؟﴾: أي: يتعهَّد
بإرضاعه، وتربيته، وخدمته، وحضانتِه لَكُمْ.

قَالُوا لَهَا: وَمَنْ يَكْفُلُهُ؟

قَالَتْ: أُمِّي.

قَالُوا لَهَا: هَلْ لَهَا لَبَنٌ؟

قَالَتْ: نعم، لَبَنُ أَخِي هَارُونَ، وكان هَارُونَ أَكْبَرَ مِنْ مُوسَى، ولكنه
ما زال فِي السِّنِّ الَّتِي يُحِبُّ فِيهَا الرِّضَاعَ، قالوا: هَارُونَ أَكْبَرُ مِنْ مُوسَى
بثلاث سنين.

قالوا: أَحْضِرِي أَمْلَكَ لِنَرَى هَلْ يَقْبَلُ الصَّبِيُّ ثَدْيَهَا أَمْ يَرْفُضُهُ، كما
رَفَضَ أَثْدَاءَ الْمُرْضِعَاتِ الْأُخْرَيَاتِ.

فجاءت أُمُّهَا، وَأَلْقَمَتْهُ ثَدْيَهَا فَقَبِلَهُ، وَأَخَذَ يَرْضَعُ مِنْهُ اللَّبَنَ.

وكانَ كُلُّ هَذَا مِنْ أَلْطَافِ اللَّهِ الْخَفِيَّةِ، لِيَرُدَّ الطُّفْلَ إِلَى أُمِّهِ، وَلِتَسْعَدَ
بإرضاعه، وحضانتِه، وإقامتِه عندها.

• ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾:

فعل «رَجَعَ» يُسْتَعْمَلُ لازماً ومتعدياً، ففي اللازم تقول مثلاً: «رَجَعْتُ
إِلَى دَارِي». وفي المتعدي تقول مثلاً: «رَجَعْتُ الصَّبِيَّ إِلَى أُمِّهِ».

«رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعاً، وَرُجُوعاً، وَرُجْعَى، وَرُجْعَاناً وَمَرْجِعاً»، وفي لغة
هَذِيلٍ يقال: «أَرْجَعُهُ إِزْجَاعاً» في المتعدي.

﴿كَىَ نَقَرَّ عَيْنَهَا﴾: اسْتَعْمِلَ التعبيرُ بِقُرَّةِ الْعَيْنِ، كُنَايَةً عَنِ السُّرُورِ وَالرَّضَا.

أي: من أجل أن تكونَ راضيةً مَسْرُورَةً بِمُشَاهَدَتِكَ وَإِرْضَاعِكَ، وَتَرْبِيَتِهَا وَحَضَانَتِهَا لك.

أصل معنى «نَقَرَّ» تَبَرَّدَ، ضَدَّ تَسَخَّنَ. يقال لغة: قَرَّتْ عَيْنُ فُلَانٍ، أي: بَرَدَتْ، وفي هذا التعبير كُنَايَةً عَنْ سُرُورِهِ، وَرِضَاةٍ؛ لِأَنَّ بَرَدَ الْعَيْنِ الْمَضَادَّ لِسُخُونَتِهَا يَكُونُ فِي حَالَةِ السُّرُورِ وَالرَّضَا.

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: أي: فَارْجِعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ، وَقَدَّرْنَا أَنْ تَكُونَ أَنْتَ سَالِمًا مِنَ الْآفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْعَاهَاتِ وَالْعَوَارِضِ الْمُؤَلِّمَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، كِي تَقَرَّ عَيْنُ أُمِّكَ بِرَجْعَتِكَ إِلَيْهَا، وَلَكَيْلَا تَحْزَنَ مِنْ أَجْلِكَ إِنْ أَصَابَكَ مَكْرُوهٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَفِي هَذَا حَذْفٌ مِنَ الْأَوَائِلِ لِدَلَالَةِ الْآخِرِ.

ولولا هذا التقدير لكانت عبارة: [وَلَا تَحْزَنْ] مُسَاوِيَةً فِي الْمَعْنَى لِعِبْرَةِ [تَقَرَّ عَيْنُهَا] بِأَسْلُوبِ التَّعْبِيرِ بِنَقِيضِ الْكَلَامِ، وَهَذَا إِطْنَابٌ لَا دَاعِيَ لَهُ.

الْحُزْنُ: مُشَاعِرُ أَلَمٍ فِي النَّفْسِ بِسَبَبِ قَوَاتٍ مُحِبُّوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ النُّزُولِ، كَالْحُزْنِ مِنْ أَجْلِ مُحْكُومٍ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ، وَيَنْتَظِرُ تَنْفِذَ الْحُكْمِ فِيهِ.

وطوى النص بيان موافقة آل فرعون على إرضاعه عند هذه المرأة المرضعة من بني إسرائيل، فالفاء في [فَرَجَعْنَاكَ] تعطف على محذوف مقدر ذهناً، وتسمى عند النحاة الفصيحة.



وقد جاء بيان هذا الحدث من قصة موسى في طُفُولَتِهِ الْأُولَى فِي

قول الله عز وجل في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) مشتملاً على إضافات مكمّلات لبعض جوانب الحدث:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاتَّقِيهِ فِي الْيَمْرِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ۖ فَالْقَطْعَةُ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ ۖ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَسْتَحِذَهُ وَلَكَّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ۖ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَدَرِغًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ۖ وَقَالَتِ لِأُخْتِي قُصِّيهِ بَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۖ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ ۖ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

القراءات:

٨ • قرأ حمزة والكسائي وخلف: [وَحَزَنًا].

وقراها باقي القراء العشرة: [وَحَزَنًا].

حُزْنًا وَحَزَنًا: لغتان عربيتان، والمعنى واحد.

٨ • قرأ أبو جعفر: [خَاطِبِينَ] بحذف الهمزة في الوقف والوصل. وكذلك قرأها حمزة في الوقف فقط.

وقراها باقي القراء العشرة: [خَاطِبِينَ] على الأصل دون حذف.

التدبر:

هذا النص متكامل الدلالات مع النص الذي سبق تدبره آنفاً من سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول).

(١) فهذا النص من سورة (القصص) قد جاء عَرَضاً لكلِّ مُتَلَقٍّ للخبر، بِأَسْلُوبٍ قِصَّةٍ تُرَوَّى.

أما النص السابق الذي من سورة (طه) فهو حكاية ما خَاطَبَ الله به موسى، بِذِكْرِ مَنِّهِ عَلَيْهِ.

(٢) وجاء في نص سورة (القصص) إضافة ما في البيان التالي من المعاني، حكاية لما خاطب الله به أم موسى وحياً، على ما سبق في بيان المراد بالوحي إليها:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلِفِهِ فِي الْبَرِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٧

أي: اسْتَمِرِّي على إرضاعه في الخفاء، عن أعْيُنِ الرُّقَبَاءِ، أو مُشِيعِي الأنباء، فإذا خِفْتُ عليه أن يُعْلَمَ أمره فضعيه في صندوقٍ يَحْمِلُهُ الماء كما يَحْمِلُ الْفُلُكُ، وَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ.

هذا البيان يَدُلُّ على أَنَّ وَضْعَهُ فِي التَّابُوتِ، وإلقاءه في اليمِّ، لم يكن عَقِبَ ولادته مباشرة، بَلْ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ أَرْضَعَتْهُ فِيهَا سَرّاً، وهي تُخْفِي أن يكونَ لها وَلَدٌ تُرْضِعُهُ، وقد تكونُ هذه المدة ثلاثة أشهرٍ كما ذكر الإسرائيليون في سفر الخروج.

وظاهر هذا النص يُشْعِرُ بِأَنَّهُ قد كَانَ وحياً صريحاً ببيانٍ قولِي، إذ جاء فيه: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بِضمير المتكلم العظيم، لَكِنَّ هَذَا غَيْرُ قَطْعِيٍّ الدَّلَالَةِ.

فقد يكون رؤيا منامية ذات وضوح، كأن تَرَى في المنام أَنَّهَا جَعَلَتْهُ فِي صُنْدُوقٍ مُحْكَمٍ صَالِحٍ لِأَنَّهُ يَظْفُو عَلَى الْمَاءِ وَلَا يَغْرُقُ، وهذا الصندوق على قَدْرِ رَاحَةِ جِسْمِهِ، وَأَنَّهَا أَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ، وَأَنَّ قَائِلاً قَالَ لَهَا فِي الْمَنَامِ: لَا تَخَافِي عَلَيْهِ هَلَاكاً، وَلَا تَحْزَنِي لِفِرَاقِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ

وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ - رَأَاهُ إِلَيْكَ. وَأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّهُ عَادَ إِلَى حِضْنِهَا فَتَرَبَّى بِعِنَايَتِهَا، وَرَأَتْ أَنَّهُ صَارَ رَجُلًا كَبِيرًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي النَّاسِ، وَمَعَهُ بَعْضُ الْآيَاتِ الْخَوَارِقِ.

فَمِثْلُ هَذِهِ الرُّؤْيَا تُعَبِّرُ بِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي النَّصِّ، لِأَنَّهَا وَاضِحَةٌ الدَّلَالَةُ.

هذا إذا لم يَكُنْ الذي أَخْبَرَهَا مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جَاءَهَا عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ، دُونَ أَنْ تَكُونَ نَبِيَّةً.

(٣) وجاء في نص سورة (القصص) إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿فَاللَّقَطَةُ ۖ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ وَخُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾:

• فجاء في هذه الآية بيان أن من اللَّقَطَةِ مِنَ النَّيْلِ إِلَى جَانِبِ شَطِّ قَصْرِ آلِ فِرْعَوْنَ، هُمَ آلُ فِرْعَوْنَ، وَهَذَا يَصْدُقُ بِأَنْ تَكُونَ اللَّاقِطَةُ الْأُولَى لَهُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، أَوْ ابْنَتُهُ، أَوْ جَوَارِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، لِأَنَّهُ وَصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ جَمِيعًا وَعَلِمُوا بِهِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ الْمَجَابَةِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ نَفْسِهِ، سَيِّدِ الْقَصْرِ.

كلمة «آل» مثل كلمة «أهل»، إِلَّا أَنَّهَا لَا تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَشْرَافِ الْأَهْلِ، وَذَوِي الْمَكَانَةِ الْمُطَاعَةِ فِيهِمْ، فَآلُ فِرْعَوْنَ هُمُ مَنْ كَانَتْ لَهُمْ مَكَانَةٌ فِي قَصْرِهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَكَلِمَتُهُمْ مُجَابَةٌ عِنْدَ سَيِّدِ الْقَصْرِ.

• وجاء في هذه الآية بيان الغاية من تقدير الله وقضائه بالتقاط آلِ فِرْعَوْنَ لَهُ مِنَ النَّهْرِ، وَتَنْشِئَتِهِ مَحْمِيًّا فِيهِ، وَتَرْبِيَّتِهِ كَرْبِيَّةً أَوْلَادَ الْمُلُوكِ، هِيَ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَدُوًّا، وَلِيَكُونَ سَبَبًا فِي إِنْزَالِ الْحَزَنِ فِيَمَنْ سَبَقَى مِنْهُمْ بَعْدَ إِهْلَاكِ اللَّهِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ غَرَقًا فِي الْبَحْرِ، وَهُمْ يَتَابِعُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْخَارِجِينَ مِنْ مِصْرَ، فِي اتِّجَاهِ سِينَاءَ.

الْحُزْنُ وَالْحَزَنُ: ضِدُّ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ. يقال لغة: «حَزَنَهُ الْأَمْرُ يَحْزُنُهُ حُزْنًا» و«أَحْزَنَهُ الْأَمْرُ إِحْزَانًا».

قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لُغَةٌ قُرَيْشٍ، و«أَحْزَنَهُ» لغة تميم.
ويقال: «حَزَنَ الرَّجُلُ يَحْزُنُ حَزْنًا» فهو «مَحْزُونٌ، وَمُحْزَنٌ، وَحَزِينٌ، وَحَزَنٌ» من قوم «حِزَانٍ، وَحُزَنَاءَ».

الحُزْنُ: مشاعر ألم في النفس، بسببِ فواتِ محبوب أو مَرْغُوب فيه، أو بسببِ حُدُوثِ مَكْرُوه، أو تَوَقُّعِ حَدُوثِهِ، كالحزن على محكوم عليه بالقتل وهو يترقب التنفيذ.

قالوا: واللام في [لِيَكُونَ] من عبارة ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقبة، وليست للغاية.

أي: التَّقْطُوهُ ليكون عاقبة أمرِهِ أَنْ يَصِيرَ عَدُوًّا لمريدي قتله والتخلُّصِ منه فيهم، وليكون حَزَنًا، أي: سبباً مُحْزِنًا لسائر من يبقَى منهم، بَعْدَ هلاكِ فرعون ومن معه من آلِه، كالتَّسَاءِ الكوافر، وكالذين لم يخرجوا من كَفَّارِ آلِ فِرْعَوْنَ، مع فرعون وجنوده لقتال بني إسرائيل الخارجين من مِصْرَ بقيادة موسى عليه السَّلام.

• وجاء في هذه الآية إضافة البيان التالي:

﴿... إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَهَمَكَ وَخَوَّدَهُمَا كَاثُورًا خَطِيعِينَ﴾ (٨).

هذه الجملة فيها معنى التعليل لقضاء الله بأن يكون لهم في المستقبل عَدُوًّا وَحَزَنًا.

هامان: هو الوزير الأول لفرعون، والمعين الأَكْبَرُ له على ارتكاب العدوان والظُّلم والجرائم المختلفة وارتكاب الخطايا، مع الإصرار على الكُفْرِ عناداً واستكباراً.

[كَانُوا خَاطِئِينَ]: أي كانوا مُذْنِبِينَ عن عَمْدٍ وإصرار، اتِّبَاعاً للأهواء والشهوات، وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسلطان، بفرض جبروتهم وكِبْرِيائِهِمْ في الأرض.
يُقَالُ لَعَةً: «خَطِيءٌ يَخْطَأُ خَطَأً وَخَطْأً» أي: أذنبَ عن عَمْدٍ، وكذلك: «أَخْطَأَ».

وَتُسْتَعْمَلُ المادة أيضاً بمعنى الغلط عن غيرِ عَمْدٍ.

(٤) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْلُتْهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٩)

أي: وقالت امرأةُ فِرْعَوْنَ له: هذا الصبيُّ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولك، وقالت له: لا تَقْلُتْهُ، أي: لا تأمرُ جُنُودَكَ بأن يقتلوه. وقالت له: عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا إِذَا كَبُرَ وَنَمَا فِي قَصْرِنَا فَيَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ عَسَى أَنْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا لَنَا.

عَسَى: فعلٌ غيرٌ متصرّف، ومعناه المقاربة على سبيل الترجي، وهي هنا في النصّ تامة لا تحتاج إلى خبرٍ منصوب.

وصَرَفَ اللَّهُ عن أذهَانِ فرعون وآله، اِحْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ هو الولدُ المَحْذُورُ منه من بني إسرائيل، والذي صدرَ الأمرُ الفرعونيّ بِقَتْلِ المواليد الذكور لبني إسرائيل مِنْ أَجْلِهِ، وهذه من ألطاف الله الخفية، وقد دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: ولم يَحْضُرْ لهم أَقْلٌ تَصَوَّرَ احتماليَّ بأن يكون هو الولدُ المحذور منه.

وعبارة [قُرَّةُ عَيْنٍ] سبقَ تفسيرَ نظيرها قريباً لدى تدبّر النصّ الذي من سورة (طه).

(٥) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي

من المعاني:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾:

الفؤاد: هو عمق القلب في كيان الإنسان النفسي.

أي: وإن فؤاد أم موسى بعد إلقاءه في تابوته في النيل نحو آخر الليل وفق الوحي الربّاني الذي جاءها، أصبح فارغاً، أي: خفيفاً طائشاً، غير ذي وزنٍ ثقيل يُبْثِّه، وبخفته وطيشه صار مُوهَّلاً لأن يتأثر بالآلام نفسها على ولدها، فيُعْطِي بطيشه وخفته توجيهه لإرادتها، فتضدّر أوامرها للسانها بأن يُوَحَّ بما فعلت سرّاً، وعندئذٍ يفتضح أمرها ويتعرّض الصبي للقتل بعد استخراجه من النهر.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾:

«إن» هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن الذي يُحذف دواماً في اللسان العربي.

أي: إنَّ الشَّأنَ الخطير أنَّ أم موسى كادت لتُبْدِي أمرَ ما فعلت بولدها، إذ وَضَعَتْهُ في صندوق، وألقته في النيل، وعندئذٍ يفتضح أمرها، ويشيع خبرها.

لكن الله عزّ وجلّ ربّط على قلبها برِباطٍ معنويٍّ من التجلّد، والصّبر، والثّقة بالله، والتوكّل عليه، فهو الَّذِي أوحى إليها وحياً على ما سبق بيانه، بأن تَضَعَهُ في صندوق، وتلقّيه في اليمّ.

وبهذا الرِّبْط الرِّبَّاني ارتقت منزلتها من فئة المؤمنات إلى فئة المؤمنين من الرّجال، إذ المؤمنون الصّابرون الثابتون المتوكّلون على الله من الرّجال يَضْبِطُونَ بإراداتهم الحازمات تصرّفاتهم على مقتضى الحكمة، بخلاف

النساء فَإِنَّ طِبَائِعَهُنَّ تَغْلِبُهُنَّ فَتَدْفَعُهُنَّ الْخِفَّةَ إِلَى تَصَرُّفَاتٍ لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا، إِلَّا مَنْ يَعْتَنِي اللَّهُ بِهَا مِنْهُنَّ، فَيَرْبُطَ عَلَى قَلْبِهَا، فَيَجْعَلُهَا فِي خَصَائِصِهَا النَّفْسِيَّةِ كَفَضْلَاءِ الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ.

وهذا نظير وصف الله عز وجل مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامَ بِأَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الْقَائِتِينَ، وَلَمْ يَقُلْ مِنَ الْقَائِنَاتِ.

الرَّبْطُ عَلَى الْقُلُوبِ فِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْقِرْآنِيَةِ يُفِيدُ مَعْنَى التَّثْبِيتِ وَالتَّقْوِيَةِ وَمَنْعِهَا مِنَ الانْدِفَاعِ بِخِفَّةٍ وَطَيْشٍ، وَعَوَامِلُ هَذَا الرَّبْطِ التَّشْبِيتِيَّ هِيَ عَوَامِلُ إِيْمَانِيَّةٍ، مِنَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ وَبِحُكْمَتِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَتَسْلِيمِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَسَائِرِ مُمِدَّاتِ النَّفْسِ بِالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى تَحْمُلِ الْمُؤَلِّمَاتِ.

بخلاف الشَّدِّ عَلَى الْقُلُوبِ، فَهُوَ يُفِيدُ مَعْنَى الضَّغْطِ عَلَيْهَا بِالْمُؤَلِّمَاتِ وَالْمَكَارِهِ وَالْكُرُوبِ وَالْمَخَافِ وَالْأَحْزَانِ.

(٦) وجاء في نصِّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾

[لِأُخْتِهِ]: قالوا: اسْمُهَا مَرْيَمُ، وَقَدْ كَانَتْ حَيْثُذِ فَتَاةً رَاشِدَةً.

[قُصِّيهِ]: أَي: تَتَّبِعِي تَنَقُّلَاتِ أَخِيكَ فِي الصَّنَدُوقِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَتَتَّبِعِي حَرَكَتَهُ، وَإِلَى أَيْنَ يَصِلُ.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ أَقْصُهُ قَصّاً وَقَصَصْناً» أَي: تَتَّبَعْتُ أَثَرَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً.

[فَبَصُرَتْ بِهِ]: أَي: فَعَلِمَتْ بِهِ، يُقَالُ لُغَةً: «بَصَرَ بِالشَّيْءِ، يَبْصُرُ بَصْراً وَبِصَارَةً» أَي: عَلِمَ بِهِ عِلْماً صَحِيحاً مُؤَكِّداً، فَهُوَ بِهِ بَصِيرٌ.

[عَنْ جُنُبٍ]: أي: حالة كونها متجاوزة مكاناً يَفْصِلُ بَيْنَهَا وبين التَّيْلِ بمقدارٍ هو في نظر الناس بعيد، لا يُعْتَبَرُ الموجود فيه مراقباً لما يَحْدُثُ في النَّهْرِ.

الجُنُبُ: البعيد، وَيُطْلَقُ أيضاً على القريب، فهو من الألفاظ التي تُطْلَقُ على المتضادين، إِلَّا أَنَّ المراد هنا المعنى الأول والله أعلم.

[وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ]: أي قُصِيهِ في حالة أَنَّ الَّذِينَ يَعْنِيهِمْ قتل مواليد بني إسرائيل من الذكور، أو يَعْنِيهِمْ إشاعة الأخبار عنهم، لَا يَشْعُرُونَ بوجود مراقب متابع لشيء ما في النَّهْرِ.

الشُّعُور بالشيء: هو العلم به، ولو من أدنى درجات الإحساس به، أخذاً من مَسَّ الشعر الذي يَحْصُلُ به إحساسٌ خفيف.

(٧) وجاء في نصِّ سورة (القصص) أيضاً، إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ (١٢)

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾:

أي: وَمَنَعْنَاهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ مِنْ قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ مَا تُرْضِعُهُ غَيْرَ ثَدْيِ أُمِّهِ.

التَّحْرِيمُ فِي اللُّغَةِ: الْمَنَعُ، وهو يكون بِأَمْرِ تَكْوِينِيٍّ، ويكون بِأَمْرِ تَكْلِفِيٍّ، وَيُسَمَّى حَيْثُئِذٍ: نَهْيًا.

المراضع: جمع «مُرْضِعٍ» و«مُرْضِعَةٍ» وهي التي تُرْضِعُ مِنْ ثَدْيِهَا لَبَنًا.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ وُضُوعِ أُخْتِهِ إِلَى مَكَانِ طَلَبِ مُرْضِعٍ لِلصَّبِيِّ الْمُتَمَقِّطِ وَالْمُتَشَلِّهِ مِنَ النَّهْرِ.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ﴾ (١٢) ﴿:﴾

عبارة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ فيها تكرير لمضمون ما جاء في نصّ سورة (طه) مع بعض تغيير في التعبير، هو من باب التفتّن في القول، مع إيضاح في المعنى.

أي: فقالت أخته لما علمت أنه لم يقبل أئداء المُرَضَّعات اللواتي عَرَضْنَ عليه: هل أدلكم على أهل بيت يقومون بإرضاعه، وتربيته، وحضانته، وخدمته، لكم بالأجر، في كفالة حسنة، وهم أهل نصح لمن يكفلونه.

عبارة: ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ﴾، مضافة في نصّ سورة (القصص) إلى ما جاء في نصّ سورة (طه) فينبههما تكامل.

﴿نَصِيحَةٌ﴾: أي: مُخْلِصُونَ، لَيْسَ فِي كَفَالَتِهِمْ لَهُ غِشٌّ، وَلَا خِيَانَةٌ لِلْأَمَانَةِ.

وأرادت بعبارة: «أهل بيت أمها، وأبائها، ونفسها، وسائر من في بيت أبيها، إلا أن التي تُرَضِّعُ هي أمها.

وهنا طوى النص ما جرى من تفاوض بين طالبي الموضع للصبي، وبين أخته التي لم تكشف أن لها علاقة ما به، فجاء ما بعد في النصّ معطوفاً على هذا المطوي، لإمكان العلم به استنتاجاً فكرياً.

(٨) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) ﴿:﴾

في هذه الآية تكرير لبعض ما جاء في نصّ سورة (طه) مع تغيير لفظ [فَرَدَدْنَاهُ] إلى لفظ [فَرَدَدْنَاهُ] والمعنى فيهما واحد. ومع اختلاف في كون

ما في سورة (طه) قد جاء خطاباً لموسى، وما في سورة (القصص) قد جاء جزءاً من حكاية لقطاتٍ من قصّة موسى الموجهة لكلّ مُتلقٍ لها.

وجاء في هذه الآية إضافة: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

فأبانت هذه العبارة أنّ من مقاصدِ رَدِّهِ إلى أُمِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، إِذْ أَوْحَى إِلَيْهَا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ إِذْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَحْفَظَهُ اللَّهُ وَيُرْعَاهُ دُونَ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْهَا. وجاء التعليق على حقيقة: ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بقوله جلّ جلاله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: جاهلون لَا يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة، ولا سيّما وَعْدَهُ بِالْبَعْثِ، والحياة الأخرى، وما فيها من جزاءٍ في الجنة دار المؤمنين المسلمين، أو في النار دار العصاة والمجرمين.



قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه) خطاباً لموسى في اللقاء الأول بجانب الطور:

﴿إِذْ نَسِيتَ آخُتَكَ فَقُولْ هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَدْ جِئْتَكَ مِن قَبْلِكَ بِقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۚ وَنُفِثْنَاكَ نَافِثَةً فِي سِتْرَيْنَ فَإِذَا هِيَ بِنُفْسِكَ فَكَفِلْهَا وَاتَّخِذْ إِلَيْنَا لِمَنْ يُدْرِكُهُ ۚ﴾

تمهيد:

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ من سورة (طه) يُتَابَعُ اللَّهُ عزّ وجلّ في تكليمه لموسى عليه السلام بجانب الطور بيان مِنْهُ عَلَيْهِ - جلّ جلاله وعظم سلطانه - مُذَكِّراً له بها، ومُبَيِّناً له ما خَفِيَ عليه منها، ومطمئناً له بأنّه سَيَكُونُ مُعْتَنَى به مِنْ رَبِّهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ.

فذكر له في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ثلاث مِّنْ غيرِ الْمِثَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ سبقَ بيانُهما، فتصيرُ المِنُّ خمساً.

المِنَّةُ الأولى: حمايَتُهُ من القتل، وهو وليدُ محكومٍ عليه بالقتل، من قَبْلِ فرعون مصر، إذ هو في الحقيقة المقصودُ بقتلِ كلِّ المواليد الذكور من بني إسرائيل.

المِنَّةُ الثانية: اختيارُهُ للنُّبُوَّةِ والرَّسالة ذاتِ المهمَّاتِ العظمى.

المِنَّةُ الثالثة: تنجيَتُهُ من عقوبةِ القتل، لأنَّه قتلُ قبطياً كان يتقاتل مع إسرائيليٍّ، فاستغاث به الإسرائيليُّ، ورأى أنَّ القِبْطِيَّ هو المعتدي الظالم، فوكَّزَهُ وكُزَّهَ كَانَتْ هِيَ القاضِيَّةُ عليه، ولم يكن يَقْصِدُ قَتْلَهُ، وإنَّما كان يَقْصِدُ دفعه وكَفَّهُ عن الإسرائيليِّ، في قصَّةِ جاء بعض تفصيل لها في سورة (القصص).

المِنَّةُ الرابعة: إقامَتُهُ الأمانةَ المطمئنَّةَ أكثر من عشر سنين، في أهل مَدْيَن آمناً، مرزوقاً، ذا زوجةٍ حسنةٍ صالحةٍ، هي بنت رَجُلِ الدِّينِ الأوَّلِ في مَدْيَن.

المِنَّةُ الخامسة: اصطناعُ الله له لِنَفْسِهِ، اصطِناعاً مصحوباً ببالغِ العناية والرَّعاية والإنقاذ، لِيُحَمِّلَهُ مُهِمَّاتِ الرَّسالةِ العظمى، الَّتِي حَمَلَهُ إياها.

التَّدْبِيرُ:

حكاية قول الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السَّلام:

﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَيْرِ...﴾ (١٠٦)

﴿فَجِئْنَاكَ﴾: أي: فحلَّضْنَاكَ من القتل، الذي ائْتَمَرَ به مَلَأُ^(١) فرعون لِيَقْتُلُوكَ، عقوبة لك على قَتْلِكَ القِبْطِيَّ انتصاراً للإسرائيليِّ.

(١) مَلَأُ فرعون: هم وزراؤه وأهل مشورته. المَلَأُ: هم أشرف القوم وِسْرَانَهُمْ، سُمُوا مَلَأُ لأنَّهم يَمْلُؤُونَ عُيُونَ العامة.

النجاة: الخلاص من المكروه، يقال لغة: «نَجَا مِنْهُ يَنْجُو، نَجَاءً، وَنَجَاةً» أي: خَلَصَ مِنْ أَذَاهُ. ويُقال: «نَجَّى فُلَانٌ فُلَانًا تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوهِهِ مُتَوَقِّعِ الْحَدُوثِ.

﴿مِنَ الْفِرِّ﴾: أي: من الكَرْبِ الَّذِي نَزَلَ بِكَ بِسَبَبِ خَوْفِكَ مِنْ عَقُوبَةِ الْقَتْلِ، سُمِّيَ غَمًّا، لِأَنَّهُ يُحِيطُ بِالْقَلْبِ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ، وَيَغْلُفُهُ تَغْلِيفًا تَامًّا بِالْمُؤَلِمَاتِ الْمَوْجِعَاتِ، مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزَنِ وَنَحْوِهِمَا.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي دَفَعَ بِالطَّافَةِ الْخَفِيَّةِ، الرَّجُلَ ذَا الْخَبْرَةِ بِمَا يَجْرِي فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ حَتَّى جَاءَ إِلَى مُوسَى وَقَالَ لَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ/ ٢٨ مَصْحَف/ ٤٩ نَزُول):

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي سَتَرَهُ بِالطَّافَةِ الْخَفِيَّةِ عَنْ عُيُونِ الْقَوْمِ، إِذْ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، وَحَذِرًا مِنْ أَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ، أَوْ يَدُلَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ، كَمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ) أَيْضًا:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي هَدَاهُ بِالطَّافَةِ الْخَفِيَّةِ سَوَاءَ السَّبِيلِ حِينَ تَوَجَّهَ تَلَقَاءَ مَدِينٍ فَارًّا مِنْ مِصْرَ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ) أَيْضًا:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

سَوَاءَ السَّبِيلِ: أي: وَسَطُ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى مَدِينٍ، وَسَطُ الطَّرِيقِ هُوَ أَغْدَلُهُ وَأَعْلَاهُ.

وَالْبُعْدُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ يَقَاسُ بِالْبُعْدِ عَنْ وَسْطِهِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، أَوْ مِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ.

وسواء السبيل: الطريق المستوية السهلة، والسواء من الأرض هي التي يكون ثرابها كالرمل، ليس فيه حجارة مؤذية، والتي تكون مستوية سهلة.

قول الله عز وجل:

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾: أي: وامتحانك امتحاناً شديداً صعباً، فيما مضى من عُمرِكَ، بالمكارة، وبالشهوات، فنَجَحْتَ في امتحانِكَ، إِذْ كُنْتَ صَبُوراً، محافظاً على حدودِ الله تقيّاً، ولا يخفى ما في القصور الملكية من مغريات مزلفات فيها امتحانٌ عظيم للإراداتِ، ولا سيما تجاه فتنِ الشهوات.

الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، يقال لغة: «فَتَنَ الْمُخْتَبِرُ فُلَانًا يَفْتِنُهُ، فِتْنًا، وَفُتُونًا» أي: ابتلاه، واختبره، وامتحنه.

أصلُ الفتن: الصَّهْرُ بالنار للمعادن ونحوها، يقال لغة: «فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ» أي: أذابه بالنار، ليختبر ما فيه من خليط ليس ذهباً، أو ما فيه من شوائب.

﴿فُتُونًا﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، وَيُفْهِمُ من التنكير هنا على ما يَرَى البلاغيون مع القرينة، أَنَّهُ كَانَ فُتُونًا شَدِيدًا وصعباً على النفوس، فالمعنى: وَفَتْنَاكَ فُتُونًا شَدِيدًا صَعْبًا، وبهذا عَلِمْنَا مَدَى صَلَاحِيَّتِكَ لِتَحْمُلِ أَعْبَاءِ رِسَالَةٍ نَكَلَّفَكَ فِيهَا أُمُورًا ثَقِيلَةً جِدًّا، تَتَطَلَّبُ رَجُلًا قَوِيًّا مِنْ أُولِي الْعِزْمِ، ذَا صَبْرٍ وَتَجَلُّدٍ وَعَقْلٍ رَاجِحٍ وَحِكْمَةٍ فِي تَصْرِيفِ الْأُمُورِ، مع إيمانه العظيم بربه، وقُوَّتِهِ لَهُ، وخضوعِهِ لأوامره ونواهيه، ورضاه بمقاديره.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾:

[فَلَبِثْتَ]: اللَّبْثُ بالمكان الإقامة فيه، يقال لغة: «لَبِثَ بِالْمَكَانِ يَلْبِثُ، لَبْثًا، وَلُبْنًا، فَهُوَ لَا يَبِثُ، وَلَبِثَ» أي: أقام فيه.

والمعنى: فأوصلناك يا موسى بالطفانا الخفية إلى مدين، وهياًنا لك فيها، رزقاً وزوجةً صالحةً حسنةً، وإقامةً آمنةً مستقرةً، لا خوف فيها ولا قلق، ورزقناك فيها ذريةً، ومالاً من غنم.

وفي بيان هذا إشارة خفية إلى منن الله عليه في مدين.

والأعوام التي لبث فيها في مدين أقلُّ تقدير لها أحد عشر عاماً، عشرةً منها كانت خدمةً لأبي زوجته مقابل تزويجه ابنته، على عادات أهل ذلك الزمان، فموسى عليه السلام قد أدى أوفي الأجلين وهو عشر سنين، ولم يقتصر على أدائهما وهو ثماني سنين، لما سبق بيانه.

وفوق العشر تأتي سنة خدمة مقابل أجر، وهو ما تلد غنمه من قوالب ألوان.

ولا ندري هل أقام في مدين أكثر من ذلك أم لا؟ الله أعلم؛ إذ لا نملك دليلاً يثبت أو نفي.

قول الله عز وجل:

• ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِئُ ۖ﴾ :

أي: ثم بعد إقامتك السنين التي لبثتها في مدين، جئت للقائنا إلى جانب الطور ومكالمتنا، ولمنحك النبوة والرسالة العظيمة، ووصلت إلى المكان المحدد لك، وفي الزمان المحدد لك، وقد كانت تحركاتك كلها معتمدة ومبنية من حيث لا تشعر، على قدرٍ حدّدنا فيه كلَّ حركة تتحركها مع الأزمان، ومنها حركة وصولك إلى لقائنا جانب الطور، كل ذلك قد سبق أن قدّرناه وأمضينا به قضاءنا، بمقتضى سابق علمنا بكل صغيرة وكبيرة من أمورك، ومنها حركة وصولك في الزمان والمكان المقدّرين.

أصل مادة كلمة «القدر» بفتح الدال وإسكانها، يدور حول مقادير

الأشياء وحُدُودِ كَمِّيَّاتٍ وحدَاتِها الصغرى، من كُلِّ ما يمكن عقلاً تجزئته وتقدير كَمِّيَّةٍ له .

قول الله عز وجل:

• ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ :

اصطنع: أصلها «اصْتَنَعَ» على وزن «افْتَعَلَ» من فعل «صَنَعَ» بإضافة تاء الافتعال إليه، للدلالة على كثرة العناية والدقة والإتقان في الصُّنْع، وقلبت التاء طاء على وفق القاعدة الصرفية في مثل هذا.

ومع أن الله عز وجل قد أنقنَ كلَّ شيءٍ صنْعاً، ومع أن الصُّنْع فيه معنى العناية بالتعهد والتَّشْيِئَة والتربية، إلّا أن فعل «اصْطَنَعَ» يدلُّ على مزيد من العناية والدقة والإتقان في الصُّنْع.

﴿لِنَفْسِي﴾: أي: للدين الذي يَشْتَمِلُ على الإيمانِ برُبوبيّتي، وإلهيّتي اللَّتَيْنِ لا يشارِكُنِي فيهما أحد، وتَشْتَمِلُ على تكليف الموضوعين موضوع الامتحان بعبادتي وحدي، وابتغاء مَرْضَاتِي، والطمع في ثوابي، والخوف من عقابي وعذابي، وهذه كلها لنفسِي.

وأنت يا موسى رَسُولِي إذ اجْتَبَيْتُكَ واختَرْتُكَ لأداء رسالتي المتعلقة بالدين الَّذِي اصْطَفَيْتُهُ لعبادي.

وهذا الاصطناع لموسى مِنَّةٌ من مَنِّ الله عليه.

وينبغي أن نَعْلَمَ أن الله عز وجل لَيْسَ لِنَفْسِهِ مصلحة ما من عناصر الدين المتعلقة بنفسه - جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه - إذ لا تَنفَعُهُ عبادة عابديه، ولا يَضُرُّه جحودُ جاحديه، ومَعْصِيَةُ عاصيه، وإنما يقيم الله بعباده عَدْلَهُ، وَيَمْنَحُهُمْ فَضْلَهُ، فالأمرُ كُلُّهُ راجِعٌ إليهم كما جاء في الحديث القدسي، الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا بَيْنَكُمْ فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَسْكُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَفَجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).



قول الله عز وجل خطاباً لموسى عليه السلام، مما جاء بيانه في سورة (طه):

﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِمَا بَيْنِي وَلَا بَيْنَا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٦) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ بِتَذْكُرٍ أَوْ يَحْشَىٰ﴾ (٤٤) ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ (٤٥) ﴿قَالَ لَا نَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ﴾ (٤٦) ﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمُهْدَىٰ﴾ (٤٧) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزيادته» رقم الحديث (٤٣٤٥).

كَذَّبَ وَقَتَّلَ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ .

تمهيد:

في هذه الآيات بيان تكليف الله عز وجل موسى وأخاه هارون بأن يَحْمِلَا رِسَالَتَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وهي تَشْتَمِلُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: دَعْوَتُهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرِسْوَائِهِ، وَبِرِسَالَتِهِ الْمَوْجَّهَةِ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّاسِ، وَإِلَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، مَعَ تَوْصِيَةِ اللَّهِ لِمُوسَى وَهَارُونَ بِأَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُمَا لِفِرْعَوْنَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَهَذِهِ تَكُونُ بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ.

أما التَّارْغِيبُ فِجَاءَ بِعِبَارَةٍ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ دَارُ السَّلَامِ يَوْمَ الدِّينِ.

وأما التَّارْهيبُ فِجَاءَ بِعِبَارَةٍ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَقَتَّلَ﴾ ﴿٤٨﴾: وَجَهَنَّمُ هِيَ دَارُ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

الأمر الثاني: مَطَالِبَتُهُ بِأَنْ يَأْذَنَ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ بِالْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي قَدِمَ أَجْدَادُهُمْ مِنْهَا فِي عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَهُمَا وَبَقِيَادَتُهُمَا لَهُمْ. وَمَطَالِبَتُهُ بِأَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ، أَي: بِأَنْ يَرْفَعَ الْعَذَابَ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ عَذَابُ التَّسْخِيرِ وَالْإِذْلَالِ وَالِاسْتِعْبَادِ.

وفي هذه الآيات بيانٌ مُخْتَزَلٌ لِلْمَوْضُوعَيْنِ الَّذِينَ جَرَى الْحَوَارُ حَوْلَهُمَا بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ مِنْ جِهَةٍ، وَفِرْعَوْنَ مِنَ الْجِهَةِ الْمَقَابِلَةِ.

والموضوعان هما:

(١) موضوعُ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٢) موضوع الجزاء يوم الدين بالثواب، أو بالعقاب.

التدبر:

قول الله عز وجل في حكاية خطابه لموسى عليه السلام في لقاء المناجاة الأولى:

• ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢):

عبارة: [وَأَخُوكَ] معطوفة على فاعل فعل [أَذْهَبَ] وهو ضمير مُسْتَتِرٌ، لوجود ضمير الفصل المؤكد له: [أَنْتَ].

أي: أذهب أنت يا موسى، وأخوك هارون معك، فخاطب الله عز وجل موسى حضورياً، وبالمواجهة غير المنظورة لموسى، وكلف هارون بالذهاب وهو غائب.

ويظهر أن الله عز وجل أَرْسَلَ جبريلَ في ذلك الوقت، إلى هارون، فَنَبَّأَهُ، وَحَمَلَهُ رسالة ربه مع أخيه موسى عليهما السلام، وقال له: اذهب أنت وزيراً مع أخيك موسى بآيات ربكما، ولا تَنِيَا في ذكره.

• ﴿بِآيَاتِي﴾: أي: مَصْحُوبَيْنِ بآياتي الخوارق التي كَشَفْتُ لَكَ في هذا اللقاء آيَتَيْنِ منها، هُما آيَةُ الْعَصَا، وَآيَةُ الْيَدِ.

• ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾: أي: وَلَا تَضَعُفَا، وَلَا تَفْتُرَا، وَلَا تَكِلَا، وَلَا تَغِييَا، في الدعوة إلى الإيمان بي، وبصِفَاتِي، وبرسَالَتِي لعبادي، والدعوة إلى الإسلام والاستِسْلَامِ لأوامري ونواهيي، والقيام بعبادتي وَخُدي لا شريك لي، بكلّ وجوه العبادات.

وَلَا تَنِيَا أيضاً في ذِكْرِي في أَنْفُسِكُمَا، وفي عبادتكمَا لي، لتكونا على صِلَةٍ دائمة بي.

فهذه كُلُّهَا من عناصر ذكر الله عز وجل.

يقال لغة: «وَنَى فِي الْأَمْرِ يَنِي، وَنِيًا، وَوَنِيًا، وَوَنَاءً، وَوَنَى» أي: فَرَّ، وَضَعَفَ، وَكَلَّ، وَأَعْيَا.

وَيُقَالُ: «وَنَى رَبُّ الْعَمَلِ الْعَامِلَ عِنْدَهُ» أي: أَتَعَبَهُ، وَفَتَرَهُ وَأَضْعَفَهُ.

وَجُوهُ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَكُونُ بِثَلَاثَةِ وَجُوهِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ:

يَكُونُ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي النَّفْسِ، وَهَذَا يَكُونُ بِاسْتِحْضَارِ الْمَعْلُومَاتِ الْمُتَعَلِّقَاتِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَبَيَانَاتِهِ فِي دِينِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ، وَبِنِعْمِهِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ إِحْصَاءُهَا عِبَادُهُ.

وهذا الاستحضار يَكُونُ فِي الْذَاكِرَةِ الْحَاضِرَةِ فِي الذَّهْنِ، أَوْ فِي جِهَازِ التَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ فِي الدِّمَاغِ، بِاسْتِخْرَاجِهَا مِنْ مَخَازِنِ الْمَعْرِفَةِ فِي عُمُقِ النَّفْسِ.

ومن هذا الذكر ما جاء بيانه في قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

الوجه الثاني:

يَكُونُ بِذِكْرِ اللَّهِ بِاللِّسَانِ، لِأَنَّهُ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُسَاعِدَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي النَّفْسِ.

ومن ذكر الله باللِّسَانِ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَمِنْهُ تِلَاوَةُ آيَاتِهِ فِي كِتَابِهِ.

وهذا الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ قَدْ يَكُونُ بِالْجَهْرِ وَالْإِعْلَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَا هُوَ

دون الجَهْر من القول، وهو الأفضل، إلّا في مجالات التعليم والتوجيه.

وأضعف أحوال الذكر اللّسانيّ ما يصير عادةً غير مصحوبةً باستحضار فكري.

الوجه الثالث:

يكونُ بدعوةِ الناس إلى الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة، وبشرح أسماء الله الحسنی وصفاته لهم، وبيانِ أنّه الخالق الرَّبّ الذي لا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وبيانِ نِعَمِهِ الكثيرة على عباده، وبيانِ ابتلائه لهم في ظروف الحياة الدنيا، إعداداً لمجازاتهم يوم الدين، على ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا من عمل صالحٍ أو فاسد، وبيانِ حكمته في تصاريفه في كونه، وإتقانه صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ.

ويكون بتلاوة آيات كتابه المجيد عليهم، وشرحها لهم، لإقناعهم بالحقّ والخير والفضائل والكمالات، وتغييرهم من الباطل والشرّ والرذائل والنقائص، وترغيبهم فيما أعدَّ اللَّهُ للمؤمنين المسلمين من ثوابٍ عظيم فضلاً منه، وترهيبهم ممّا أَعْتَدَ للعصاة وللكافرين المجرمين من عذاب، على مقادير أعمالهم السيئة بالعدل.

ومن هذا الوجه قول يوسف للذي ظنَّ أنّه ناج من رفيقته في السّجن، وهو الذي رأى أنّه يَغْصِرُ لِفِرْعَوْنَ خَمِراً: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، أي: تحدّث بما شاهدته من أمري، عند سيّدك فرعون، لعلّه يُعِيدُ النَّظَرَ في أمرِ سِجْنِي، ويكتشف الحقّ، فذكره يوسف عليه السلام عند سيّده لئیس المراد به ذكر اسمه فقط، بل المراد ما يَشْمَلُ كُلُّ ما يتعلّق به مِنْ أمرٍ عِلِمَهُ، وَهُوَ مَعَهُ في السّجن، ومنه دَعْوَةُ يوسفَ صاحِبِهِ في السّجنِ إلى دينِ الله الحقّ.

وهذه الوجوه الثلاثة مُرادَةٌ بعبارة: ﴿وَلَا نُنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةَ (٤٢) بَيَانًا أَنَّ اللَّهَ كَلَّفَ مُوسَى وَهَارُونَ حَمْلَ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، فِي شَعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ كُلِّهِ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمْ فِرْعَوْنَ وَأَهْلَهُ وَمَلَؤُهُ.

قول الله عز وجل في حكاية ما قاله لموسى:

• ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٢﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٣﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَخْصِيصُ فِرْعَوْنَ، وَيُلْحَقُ بِهِ مَلَؤُهُ وَهُمْ وَزُرَاؤُهُ، وَمُسْتَشَارُوهُ، وَمَنْ لَهُمْ كَلِمَاتُ مُسْتَجَابَاتٍ فِي قَصْرِهِ، وَتَأْثِيرٌ فِي أَوَامِرِ الْقَصْرِ وَنَوَاهِيهِ وَأَنْظِمَتِهِ وَقَرَارَاتِهِ.

وَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ مُوسَى مَلِكًا مُسْتَبَدًّا، وَمَتَّخِذًا نَفْسَهُ إِلَهًا فِي قَوْمِهِ، وَكَانَ قَوْمُهُ لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَا يَرَى، وَلَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يَأْمُرُ بِهِ أَوْ يَأْذَنُ بِهِ، كَانَ إِقْنَاعُهُ حَتَّى يُؤْمِنَ وَيُسَلِّمَ وَسِيلَةً لِإِيمَانٍ وَإِسْلَامٍ كُلِّ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ، الْخَاضِعِ الْخَانِعِ لِسُلْطَانِهِ الْإِسْتِبْدَادِيِّ، وَمَنْ أَجَلَ هَذَا خَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وَالْمَعْنَى تَبَلَّغْ أَنْتَ، وَأَبْلِغْ أَخَاكَ بِتَكْلِيفِي هَذَا.

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ وَصَلَ مِثْلَ هَذَا التَّكْلِيفِ إِلَى هَارُونَ عَنْ طَرِيقِ أَمِينِ الْوَحْيِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِنَّهُ طَغَى﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ بَيَانُ حِكْمَةِ تَخْصِيصِ فِرْعَوْنَ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَهِيَ أَنَّهُ طَغَى، أَي: وَكَانَ طَغْيَانُهُ سَبَبًا فِي فَسَادِ شَعْبِهِ فِي زَمَانِهِ، وَسَبَبًا فِي طَغْيَانِ آلِهِ وَمَلَئِهِ وَأَنْصَارِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَجُنُودِهِمْ.

طَغَى: أَي: تَجَاوَزَ كُلَّ حُدُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ، إِلَى الظُّلْمِ الْفَاحِشِ، وَالْعُدْوَانِ الشَّنِيعِ، وَالْفَسَادِ الْعَرِضِ.

يقال لغة: «طَغَى الشيء، يَطْغَى، طَغْيًا، وطغيانًا» أي: جاوز الحد الذي يمكن بالصبر والحلم احتمالاه، وصار ضارًا ضَرَرًا كبيرًا، أو صار مُفسِدًا إفسادًا عَرِيضًا، أو ظالمًا ظُلْمًا فاحشًا.

قول الله عز وجل في حكاية ما قاله لموسى:

• ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾:

أي: فأبلغاه رسالتي بقول لئِن، فيه رِفْقٌ ومداراةٌ وتلطّف.

اللَّيِّنُ: السَّهْلُ المطاوع المستساغ القابلُ للدَّفْعِ كالعجين الرخو، والقابل للانقياد، الذي لا شِدَّةَ فيه ولا صلابة.

وَضَدَ اللَّيِّنِ: القاسي الصُّلْبُ الشديد، والخَشِنُ الجارح المؤذي.

فَاللَّيِّنُ من القول هو المقبول منه، المستساغ في النفس، والمرغوب في استماعه، والذي لا تشتمُّرُ منه الأسماع، ولا تَنَفِّرُ مِنْهُ الطُّبَاعُ.

والقول اللَّيِّنُ من عناصر الحكمة في الدَّعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

وَضَدَ القول اللَّيِّنِ، القولُ القاسي الصُّلْبُ العنيف، والخشن الذي فيه فظاظَةٌ وغلظةٌ، والمكروه الذي تَشْمِئُزُ منه الأسماع، وتَنَفِّرُ مِنْهُ الطُّبَاعُ، وتوجيه مثل هذا القول القاسي، أو الخشن في الدَّعوة إلى الله، أو في النَّصْحِ والإرشاد، منافٍ مُنَافَاةً تامَّةً للحكمة المطلوبة من حَمَلَةِ رسالة الرِّسُولِ في الناس.

وقد عَلَّمَ الله عز وجل موسى عليه السَّلام أسلوب القول اللَّيِّنِ، بتقديم نموذج منه، في قوله له الذي جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٧٩﴾ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ أَن تَزُكَّىٰ ﴿٨٠﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿٨١﴾﴾.

نلاحظ في عبارة التعليم هذه أنها اشتملت على عدّة كلمات هي من التَّلَطُّف التكريمي قبل عرض المقصود بالذات.

• [هَلْ]: أداة استفهام، فيها معنى العرض التخييري، لا التكليف الإلزامي.

• [لَكَ]: كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية كاف الخطاب، وقد كان من المُمْكِن الاستغناء عنهما، لكنَّ التَّلَطُّف بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاها.

• [إِلَى أَنْ]: كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية حرف ناصب للفعل المضارع، ويؤوّل مع الفعل المضارع بمصدر، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنَّ التَّلَطُّف بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاها.

• [تَزَكَّى]: هنا بدأ عَرَضُ المقصود بالذات، ومع ذلك قد حصل فيه اختصارٌ وتقليلٌ في اللَّفْظ، إذ أضلُّ الفعل «تَزَكَّى» فحذفت إحدى التَّاءَيْنِ اختصاراً، وتخفيفاً على أذن فرعون المدعوّ.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسى:

﴿... لَعَلُّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَنُ ۖ﴾

أي: فقولاً له قولاً ليناً حالة كَوْنِكُمَا راجيَيْنِ نَفْسِيّاً أن يتأثر بدَعْوَتِكُمَا، وطامِعَيْنِ في أن يستجيب استجابة أَرَادِيَّةً لما تقدّمان له من حقائق يقتنع بها، مقرونةً بالبُرْهَانَيْنِ من آيَاتِنَا الإِعْجَازِيَّةِ، أو أن يستجيب خشية من عذابنا الأليم الَّذِي تَخَوَّفَانِهِ منه، وهو جزاء يوم الدين، في جهنم دار المجرمين والظالمين، مع تخويفه من عذاب وإهلاك معجلين، كما حصل لكفار القرون السابقة.

إن طمعَ موسى وهارون عليهما السلام باستجابة فرعون لدعوتهما، يجعلهما مُتَفَائِلِينَ، والتفاؤل بتحقيق المُراد يزيد من هِمَّةِ الساعي إلى تحقيق ما يريد، فيجعلُه يضاعف جهده واجتهاده، مع التزام كمالِ الحكمة والقول اللَّيِّنِ الرَّشِيدِ، وحُسْنِ المِلاطفة والمداراة، والبُعْدِ عن كُلِّ خُشُونَةٍ وَقَسَاوَةٍ وَقَفَاطَةٍ وَغِلَظَةٍ، خَشْيَةِ التنفير.

فعل «يتذكَّر» وتصاريفه ومصدره، استعمل في القرآن المجيد، للدَّلالة على الأثر النفسي والقلبي والسلوكي، لحضور المعلومة ذات التأثير فيهما عند استِعْدَادِهِمَا للتأثر، في السَّاحَةِ الحاضرة للتَّذَكُّر، استدعاء لها مِنْ مخازن المعرفة، أو وروداً حديثاً لها من الخارج، عن طريق بيانٍ واري، أو تأملٍ فكريٍّ ذاتيٍّ، أو بتأثير حَدَثٍ، أو ظاهرة كونيَّة، أو غير ذلك. فصار هذا المراد بهذه المادَّة اللَّغويَّة، بمثابة مُصْطَلَحٍ قرآنيٍّ، كمصْطَلَحِ الصَّلَاةِ، ومصْطَلَحِ الزَّكَاةِ، في الدَّلَالَةِ على مَعَانِيهِمَا في النُّصوص الدينيَّة.

وهذا الأثر النفسي والقلبي والسلوكي، هو المطلوبُ الدينيُّ الغائيُّ من الذُّكْرِ، والتَّذَكُّرِ، واكتساب المعارف الدينية، وهو الدافع للسلوكِ الديني الملائم له، والمطلوب فيه.

فمثلاً: إنَّ أثر معرفة أنَّ اللَّهَ قد خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ، وأنقَرَنَ كُلَّ شَيْءٍ فيه صُنْعاً، هو الإيمانُ بكمال قدرته وشمولِ عِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ، والإيمانُ بكمال حكمته في مقاديره.

وأثر هذا الإيمان في السلوك يكون بالرِّضَا بقضاء الله وقدره، وبالخضوع له، وعبادته وحده لا شريك له.

وهكذا إلى أمثلة كثيرة يَصْعُبُ استيعابها.

﴿أَوْ يَخْشَى﴾: أي: أو يخاف من عقاب الله وعذابه، في حالة عدم استجابته لدعوة الرُّسُولين بِمَنْطِقِ الحقِّ، وبُرهان المعجزة.

التَّزْدِيدُ بحرف «أو» في هذه العبارة، لا يمنع من عدم تحقق
المرجوتين، أو أحدهما، ولا يمنع من اجتماعهما، فالقضية ليست مانعة
جَمْع ولا مانعة خُلُوّ بحسب مصطلح عُلماء المنطق.
قول الله عز وجل:

• ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥):

[قَالَ]: هذه العبارة تُدُلُّ على أَنَّ هارون عليه السلام، قال لأمين
الوحي جبريل عليه السلام، في مصر، مثلما قال موسى عليه السلام في
مناجاته لربه بجانب الطور، فمع كونهما متباعدَيْنِ قد تخوفاً تخوفاً واحداً،
فأفكارهما قد تواردت متفقةً حَوْلَ هذا التخوف، دون سابق محادثة أو
مشاورة بينهما.

﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾:

أي: أَنْ يُسْرَعَ وَيَعْجَلَ بِطَرْدِنَا وعدم الاستِمَاعِ إلينا، أو يَعَجَلَ
بعقوبتنا، ولا يَنْتَظِرَ حَتَّى يَسْمَعَ دَعْوَتَنَا، وَمَطَالِنَا.

يقال لغة: «فَرَطَ، يَفْرِطُ، فُرُوطاً، وَفَرُطاً» أي: عَجَلَ وأُسْرَعَ،
ويقال: «فَرَطَ مِنْهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ» أي: سَبَقَ دُونَ أَنَاةٍ وَرَوِيَّةٍ.

﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾:

أي: أَوْ أَنْ يَتَجَبَّرَ وَيُسْرِفَ فِي الظُّلْمِ حَتَّى الْقَتْلِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦):

أي: قال الله عز وجل لموسى مخاطباً، وقال لهارون ببلاغ أمين
الوحي جبريل عليه السلام: لَا تَخَافَا، مطمئناً لهما أَنَّهُمَا لَنْ يُصِيبَهُمَا مِنْ
قَبْلِ فرعون مكروهٌ مِنْ تَسْرِعٍ أَوْ طَغْيَانٍ، ونفهم من هذا أَنَّ اللَّهَ عز وجل

سيوقع في قلبه الخوف ممّا مَعَهُمَا مِنْ خَوَارِقِ آيَاتِ معجزات مخيفات .

وعبارة: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمُّ وَرَى﴾ فيها مزيد تثبيت على الطمأنينة بأسلوب الكناية، فكون رَبَّهُمَا مصاحباً لهما، وَيَسْمَعُ وَيَرَى كُلَّ ما يحدث منهما أو عليهما عند فرعون، من لوازمه الذّهنيّة أنّه سَيَحْمِيهُمَا وَيَحْفَظُهُمَا وَيَنْصُرُهُمَا بعزّته، إنّ أراد فرعون بهما سوءاً .

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا التعليم الربّاني الذي اشتملت عليه هاتان الآيتان، الموجهتان لموسى وهارون عليهما السلام، عُنوانات سيّ قضايا:

القضية الأولى: بيان أنّهما رسولان مُرسَلان من ربّه، وَيَحْمِلَانِ إِلَيْهِ رسالةً مِنْهُ، دلّت عليها عبارة: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿... فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: إِنَّا رَسُولَانِ، ولكنّا بمثابّة رسول واحد، لأنّنا مُتَعَاَصِدَانِ متكاملان، فما يَقُولُهُ أَحَدُنَا يُعَبِّرُ عن قولنا جميعاً، لا ينفرد أَحَدُنَا عن الآخر بشيء .

وهذا نظير قول وفدٍ من جمهور كبير للوافدين عليه: نَحْنُ شَخْصٌ واحد، أو رَجُلٌ واحد، أي: متكاتفون مُتَعَاَصِدُونَ، لا ينفرد أَحَدُنَا برأي على خلاف آراء الآخرين .

وبين هذين التّعليمين تكامل، أي: فَقُولَا لَهُ مَرَّةً: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ،

فَأَسْمِعْهُ أَنَّهُ خَاضِعٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ الْمَهِيْمَةِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ، وَقُولَا لَهُ مَرَّةً أُخْرَى: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَي: فَنَحْنُ رَسُولَانِ بِمِثَابَةِ رَسُولٍ وَاحِدٍ، وَرَبُّكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً مِنْ أَحْيَاءٍ وَغَيْرِ أَحْيَاءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

القضية الثانية: مُطَالَبَتُهُمَا بِأَنْ يَأْذَنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ جَمِيعاً بِالْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ بِقِيَادَتِهِمَا، وَعَوْدَتِهِمَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي قَدِمَ أَجْدَادُهُمْ مِنْهَا أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ قَدْ وَصَلَ عَدَدُهُمْ إِلَى قُرَابَةِ سِتْمِائَةِ أَلْفِ نَسَمَةٍ، وَرَفُضَ أَبْنُ خَلْدُونِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَدَدُ صَحِيحاً، نَظْراً إِلَى الْمُدَّةِ الزَّمَنِيَّةِ بَيْنَ دُخُولِهِمْ مِصْرَ فِي عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْهَا بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

القضية الثالثة: مُطَالَبَتُهُمَا بِأَنْ لَا يُعَذِّبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَي: بِأَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ التَّسْخِيرِ وَالْإِذْلَالِ وَالْاِسْتِعْبَادِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ، إِذْ سَخَّرَهُمْ هُوَ فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ، وَفَسَّحَ الْمَجَالَ لِلْمِصْرِيِّينَ بِأَنْ يُذِلُّوهُمْ وَيَسْتَعْبِدُوهُمْ، دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

مِنَ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّعْلِيمِ تَقْدِيمَ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَوْمِهِمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَأَنَّهُمَا مَتَدَوِّبَانِ مِنْ قَبْلِ شَعْبِهِمَا بَعَرَضٍ مُطَالِبُهُمْ عَلَى فِرْعَوْنَ.

أَي: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُعَانُونَ إِذْلَالاً وَاسْتِعْبَاداً مِنْ قَبْلِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، وَمِنْ قَبْلِ سَائِرِ الْمِصْرِيِّينَ، وَبِمَا أَنَّهُمْ مَقِيمُونَ غُرَبَاءَ فِي نَظَرِ الْمِصْرِيِّينَ، وَلَيْسُوا مُشَارِكِينَ فِي وَطَنِ لِهِمْ فِيهِ كُلُّ حُقُوقِ الْمَوَاطِنِينَ، فَإِنَّهُمْ يُفَضِّلُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مِصْرَ، وَيَعُودُوا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي قَدِمَ مِنْهَا أَجْدَادُهُمْ.

لَكِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُهُ كَانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مِصْرَ، وَيُعِدُّوا جَيْشاً

قويًا محاربًا، وَيَعُودُوا إِلَى مِصْرَ فَاتِحِينَ، وَيَسْلُبُوهُمْ مُلْكُهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَضْلَحَتِهِمْ أَنْ يَأْذَنُوا لَهُمْ بِالْخُرُوجِ.

القضية الرابعة: بيان أنهما جاءا بَعَلَامَةٍ مُعْجِزَةٍ مِنْ رَبِّهِ، تُثَبِّتُ أَنَّهِمَا رَسُولَانِ مَبْعُوثَانِ مِنْهُ، وَلَيْسَا مُدَّعِيَيْنِ أَنَّهُمَا رَسُولَانِ مِنْ رَبِّهِ دُونَ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِشَايِئٍ مِنْ رَبِّكَ﴾.

الآية في اللغة: العلامة، والآية الرَّبَّانِيَّةُ معجزةٌ خارقة باهرة، وهما يَقْصِدَانِ آيَةَ الْعَصَا، وآيَةَ الْيَدِ.

القضية الخامسة: دَعَوَتْهُمَا لَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ وَبِسَائِرِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَإِلَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَطَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، إِلَى سَائِرِ مَضَامِينِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، مَعَ إِطْمَاعِهِ بِالسَّلَامَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ. دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، أَي: وَالْأَمْنُ وَالسَّلَامَةُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى الَّذِي أَرْسَلْنَا اللَّهَ بِهِ، إِذْ يُسَلِّمُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِهِ، وَيُسَلِّمُهُ فِي الْآخِرَةِ بِدُخُولِهِ جَنَّتِهِ دَارِ السَّلَامِ وَالْأَمْنِ الْكَامِلِينَ: الْأَمْنِ الْغِذَائِيِّ، وَالْأَمْنِ الصَّحْيِيِّ مِنْ كُلِّ الْأَلَامِ وَالْعَوَارِضِ وَالْآفَاتِ، وَالْأَمْنِ النَّفْسِيِّ بِتَحْقِيقِ أَمَانِيهَا وَمَطَالِبِهَا وَكُلِّ مَا تَشْتَهِي وَتَهْوَى.

القضية السادسة: تَحْذِيرُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِذَا كَذَّبَ بِأَنَّهُمَا رَسُولَا رَبِّهِ، وَكَذَّبَ بِرِسَالَتِهِ الَّتِي حَمَلَهُمَا وَاجِبَ تَبْلِيغِهَا، وَمَنْ أَنْ يَتَوَلَّى مُذْبِرًا، وَمُبْتَعِدًا عَنْ اتِّبَاعِ الْهُدَى. دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

[الْعَذَابُ]: أَي: عَذَابُ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُنْزَلُ مِنْ عَذَابٍ مُعْجَلٍ فِي الدُّنْيَا.

[عَلَى مَنْ كَذَّبَ]: أَي: مُنْصَبٌّ عَلَى مَنْ كَذَّبَ رُسُلَ رَبِّهِ، وَكَذَّبَ بِمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ.

[وَقَوْلِي]: أي: أدارَ ظَهْرَهُ ونَأَى، وَلَمْ يَتَّبِعْ هُدَى اللَّهِ.

وَطَوَى النِّصَّ أَنَّهُمَا جَاءَا إِلَى قَصْرِ فِرْعَوْنَ، وَاسْتَأْذَنَا بِالْدُّخُولِ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهُمَا بِالْدُّخُولِ، بِاعْتِبَارِهِمَا مُمَثِّلَيْنِ وَنَائِبَيْنِ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي مِصْرَ، وَأَنَّهُمَا قَالَا لَهُ كَمَا جَاءَ فِي التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِي.

ويظهر أنَّ موسى عليه السلام قد كان صاحب اللسان الأول، وأنَّ هارون عليه السلام كان مُسَاعِداً لَهُ وَوَزِيْراً.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ (٤٩):

سؤالٌ من فِرْعَوْنَ عَنِ ذَاتِ الرَّبِّ، مُوهِماً أَنَّ هَذَا الرَّبَّ إِنْسَانٌ مِثْلُهُ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَتَغَاضَى عَنْ قَوْلِ مُوسَى لَهُ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وَعَنْ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠):

وأضاف إلى هذا ما جاء في التَّعْلِيمِ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١):

أي: قال موسى عليه السلام: إِنَّهُ لَيْسَ رَبُّنَا فَقَطْ، بَلْ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.

أي: وَضَعَ بَعْطَاءَ مِنْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُحَظَّطَ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، مِنْ مَادِّيَّاتٍ، وَمَعْنَوِيَّاتٍ، وَنَفْسِيَّاتٍ، فَهِيَ كَامِنَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ فِي أَعْمَاقِهِ، فَإِذَا أَخَذَ فِي النَّمَاءِ أَوْ فِي التَّحَرُّكِ الْإِرَادِيِّ، أَوْ غَيْرِ الْإِرَادِيِّ، جَرَى نَمَاؤُهُ وَتَحَرُّكُهُ وَفَوْقَ هَذَا الْمَحْظُوطِ الْمُسْتَقَرِّ فِي أَعْمَاقِهِ.

هذه الإجابة إجابةٌ عِلْمِيَّةٌ دَقِيقَةٌ لها سَطْحٌ وَعُمُقٌ، وَيَفْهَمُ مِنْهَا كُلُّ ذِي فِكْرٍ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَكُلُّ ذِي عِلْمٍ بِحَسَبِ مَبْلَغِهِ مِنَ الْعِلْمِ.

وقد كان النَّاسُ فِي النُّظَرَاتِ السَّطَحِيَّاتِ يُدْرِكُونَ أَنَّ لِكُلِّ حَيَوَانٍ مِنَ الْعَجَمَاوَاتِ، وَأَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبَاعاً نَفْسِيَّةً يَتَصَرَّفُ بِمَقْتَضَاهَا.

ثُمَّ كَشَفَتِ الْعُلُومُ الْحَدِيثَةُ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ الْمِيلَادِيِّ عُمُقَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْإِجَابَةُ، بِاكتشافِ «الْكُرُومُوزُومَاتِ» الْمُرْجَمَةِ بِالصُّبُغِيَّاتِ، الْمَوْجُودَةِ فِي عُمُقِ الْخَلَايَا النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ، وَالْمُورَثَاتِ الْجِنِّيَّةِ فِيهَا، وَأَنَّ نَمَاءَ النَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَتَحَرُّكَاتُهَا الْإِرَادِيَّةُ وَغَيْرُ الْإِرَادِيَّةِ تَكُونُ عَلَى وَفْقِ الْخَصَائِصِ الْمَوْجُودَةِ فِي هَذِهِ الصُّبُغِيَّاتِ وَهَذِهِ الْجِنَاتِ الصُّغْرَى جَدًّا فِي عُمُقِ الْخَلَايَا.

وهذه الْمَوْجَّهَاتُ الدَّاخِلَاتُ فِي عُمُقِ الذَّرَّاتِ، تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، مِنْ ذَوَاتِ الْحَيَاةِ الْمُدْرَكَةِ حَيَوَاتُهَا، وَمِنْ غَيْرِ ذَوَاتِ الْحَيَاةِ.

﴿ثُمَّ هَدَى﴾: وَبَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَأَجْرَى تَنْفِيدَهُ بِخَلْقِهِ، هَدَى كُلَّ غُنْصُرٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ لِلنَّمَاءِ أَوْ لِلتَّحَرُّكِ عَلَى وَفْقِ مَا رَسَمَ اللَّهُ لَهُ فِي خَصَائِصِهِ، وَمَسِيرَاتِهِ، فَالْمَجْبُورُ مِنْهَا يَنْمُو وَيَتَحَرَّكُ بِنِظَامِ جَبْرِيٍّ، وَالْمَخْتَارُ مِنْهَا يَتَحَرَّكُ وَفْقَ نِظَامٍ تَخْيِيرِيٍّ، لِمَحَاسِبَتِهِ وَمَجَازَاتِهِ عَلَى مَا اخْتَارَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.



وقد جاء تكميلٌ لهذا الحوار في سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا حِكَايَةً لِبَعْضِ مَا جَرَى مِنْ حِوَارٍ:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَانَاكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٨﴾ فَفَرَرْتُ

مِنْكُمْ لَمَّا خِفَّكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنَّنِي عِبَدْتُ رَبِّي إِسْرَافًا ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾

وهنا يأتي ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٢﴾﴾

وهنا يأتي ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أُولُو حِشْتِكَ بِشْيءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدِّانِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَنْبِغَ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَأَجْرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّتِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِجْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ لَا تُقِطِعَنَّ أَيِّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّتْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٥١﴾ .

التدبر:

قول الله عز وجل في نص سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ
أَلَمْ تَفْعَلْ وَآتَتْ مِنَ الْكُفْرِينَ ﴿٧٩﴾﴾ :

أي: قال فرعون لموسى عليه السلام ما دلّ عليه هذا البيان، وهو
يَشْتَمِلُ على مقالة فيها أربع قضايا، الثلاث الأولى مِنْهَا مُصَدَّرَةٌ باستفهام
تَقْرِيرِيٍّ من فرعون لموسى عليه السلام، لانتِزاع إقراره بها، والرابعة يَتَّهَمُ
فِرْعَوْنُ بها مُوسَى بأنه من الكافرين، أي: من الجاحدين لِلْمِنْنِ الَّتِي أَنْعَمَ
بها القُضْرُ الفرعوني عليه.

الكفر: يأتي في اللغة بمعنى جُحُودِ النُّعْمَةِ لِلتَّنَصُّلِ من أداء واجب
الشكر عَلَيْهَا.

القضية الأولى: استفهام تقريرِيٍّ، يَمْتَنُّ به فرعون على موسى عليه
السلام بأن القُضْرَ الفِرْعَوْنِيَّ رَبَّاهُ مُنْذُ كَانَ وَلِيدًا حديث الولادة، حَتَّىٰ بَلَغَ
وَاكْتَمَلَ، وَلَمْ يَقْتُلْهُ كَشَّانٍ سائر مواليد سنته من الإسرائيليين، إِذِ التَّقَطُّهُ
بعض آلِه من التِّلِ وأحبُّوه وكرَّمُوهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بأنه مِنْ أُنْبَاءِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ.

دلّت على هذه القضية من نص (الشعراء) عبارة: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا﴾ .

التربية: تجمع في معناها كل ما يتطلّبه إِنْشَاءُ المُرَبِّي، ورعايته
وحفظه، وتنميته، جَسَدِيًّا، ونفسيًّا، وفكريًّا، وسلوكيًّا.

والمراد: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِي ضِمْنِ أَسْرَتِنَا الْمَلَكِيَّةِ كَأَحَدِ أَوْلَادِنَا، مِنْذُ كُنْتَ حَدِيثَ الْوِلَادَةِ، حَتَّى صِرْتَ رَجُلًا مُكْتَمِلًا ذَا قُوَّةٍ تَسْتَبْدُ فِيهَا إِلَى أَنَّكَ وَاحِدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ فِي مِصْرَ.

القضية الثانية: استفهامٌ تَقْرِيرِيٌّ، يَمْتَنُّ بِهِ فِرْعَوْنُ عَلَى مُوسَى بِأَنَّهُ لَبِثَ فِي رِعَايَةِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَحِمَايَتِهِ، وَمَنْحِهِ فُرْصَ الْارْتِقَاءِ وَالنَّجَاحِ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا كَأَحَدِ أَفْرَادِ الْقَصْرِ، طَوَالَ سِنِينَ مِنْ عُمُرِهِ.

قيل: لَبِثَ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ (١٨) سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، وَقِيلَ: (٣٠) سَنَةً، وَقِيلَ: أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أَي: أَوْلَمْ تُقِمْ فِي كَنَفِنَا كَأَحَدِ أَفْرَادِ الْقَصْرِ مِنْ آلِنَا، سِنِينَ مِنْ عُمُرِكَ، وَنَحْنُ نَرْعَاكَ، وَنَمْنَحُكَ مَا تَطْلُبُ مِنْ مَطَالِبٍ، وَنُمِدُّكَ بِقُوَّةٍ مِنْ سُلْطَانِنَا، حَتَّى صِرْتَ رَجُلًا مُكْتَمِلَ الرَّجُولَةِ.

الاستفهام التقريري الوارد في القضية الأولى، مُنْسَجِبٌ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الثَّانِيَةِ.

[وَلَبِثْتَ]، أَي: وَأَقَمْتَ فِي قَصْرِنَا كَوَاحِدٍ مِّنَّا إِقَامَةً طَوِيلَةً امْتَدَّتْ طَوَالَ سِنِينَ مِنْ عُمُرِكَ. اللَّبْثُ: الْإِقَامَةُ فِي الْمَكَانِ زَمَنًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ.

القضية الثالثة: استفهامٌ تَقْرِيرِيٌّ يُقَرِّرُ بِهِ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنَّهُ قَتَلَ نَفْسًا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، انْتِصَارًا لِإِسْرَائِيلِيِّ هُوَ مِنْ شِيعَتِهِ وَقَوْمِهِ، وَهَذِهِ الْجَرِيمَةُ تَسْتَحِقُّ عَقُوبَةَ الْقَتْلِ، وَيُظْهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْعَقُوبَةُ قَدْ سَقَطَتْ بِمُرُورِ الزَّمَنِ، بِمَقْتَضَى قَانُونِهِمْ حِينَئِذٍ.

دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾، أَي: أَوْ لَمْ تَزَكِبْ جَرِيمَةَ قَتْلِ الْمِصْرِيِّ، انْتِصَارًا لِرَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ.

الاستفهام التقريري مُنْسَجَبٌ على هذه القضية أيضاً.

ومراد فرعون من تقرير مُوسَى عليه السَّلام بهذه القضايا الثلاث، إِشْعَارُهُ بِأَنْ مَا جَاءَ الْآنَ بِهِ، لَا يَتَلَاءَمُ مع سابقِ عَهْدِهِ، فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ وَآلِهِ، وَلَا سِيَمَا مَطَالِبَتُهُ بِالْإِذْنِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مِصْرَ، مع الاحتمال القويِّ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِمْ، لِيُعَدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً مُقَاتِلاً، وَيَرْجِعَ بِجَيْشِهِ لَتَقْوِيضِ مُلْكِ أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِ، وَانْتِزَاعِهِ مِنْهُمْ بِالْقُوَّةِ، وَالْاِسْتِيلَاءِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمَمْتَلَكَاتِهِمْ، وَهَمَّ خَبْرَاءَ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَبِرِجَالِهَا، وَبِمَرَاكِزِ قُوَى سُلْطَانِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ فِيهَا، إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ مُنَافٍ لِفَضِيلَةِ الْوَفَاءِ.

أي: فكيف يتلأَم هذا مع ما يَدْعُو إليه من حقٍّ وخَيْرٍ ورُشْدٍ وفضائلٍ، فِي الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ.

القضية الرابعة: إِدَانَةُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلام بِأَنَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ، لِمَا قَدَّمَهُ لَهُ الْقَصْرُ الْفِرْعَوْنِيُّ مِنْ نِعَمٍ وَمِنْ، وَقَدْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِهَذِهِ النِّعَمِ وَالْمِنْ، فَيَكُونَ مِنَ الْمُؤَيَّدِينَ الْمُنَاصِرِينَ، وَمِنْ ذَوِي الْوَلَاءِ الصَّادِقِ، لَا مِنَ الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ، الَّذِينَ يُقَابِلُونَ الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ، وَالْخَيْرَ بِالشَّرِّ، وَالْجَمِيلَ بِالْقَبِيحِ.

دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أَي: مِنَ الْجَاهِدِينَ لِلنِّعَمِ وَالْمِنْ الَّتِي تَلَقَّوْهَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ.

رَدُّ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ:

فَرَدَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام عَلَى فِرْعَوْنَ بِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي نَصِّ سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَعْبِيراً عَمَّا جَاءَ فِي مَقَالَتِهِ لَهُ:

﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي

حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ :

بدأ موسى عليه السلام بالإجابة على قتله المِصْرِيِّ انتصاراً لأحد أفراد قومه الإسرائيليين، فأبان أنه قتله في الزمن الذي كان فيه من الضالين الجاهلين، الذين يندفعون مع أهوائهم وعصبياتهم وولاءاتهم القومية، وفي الزمن الذي كان فيه خاضعاً لمؤثرات مدرسة القصر الفرعوني النفسية والاجتماعية والتسلطية، وأبان أنه لما علم بأن ملاً القصر يَأْتِمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَرَّ مِنْهُمْ، وخرَجَ من مصر هارباً، وأقام في مكان لا سلطان لحكام مصر عليه حينئذٍ، وأبان له أن الله ربّه وهب له حكماً عقب فراره من مصر، وأن الله ربّه جعله بعد ذلك من المرسلين.

دلّت على هذه الإجابة عبارة:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

• ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ :

[إذا]: قالوا: هي هنا حرف جواب، أي: نعم، قد فعلتها في حال أنني كنت من الجاهلين، الذين لا يعرفون الكثير من الأمور التي فيها تفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصالح والفاقد.

الضلال: يأتي في اللغة بمعنى الجهل بالشيء، لخلو الذهن من معرفته، ومنه قول الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضحى): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾، وهذا المعنى هو المعنى المناسب هنا.

ولست أدري لماذا لم يُورد النحويون احتمال أن تكون [إذا] هنا دالة على الظرفية، وأن يكون التنوين عوضاً عن مضاف إليه محذوف، كما قالوا في نحو: «حينئذٍ» و«يَوْمَئِذٍ»، فهذا المعنى هو الأقرب خطوراً في الذهن بحسب سوابق العبارة ولواحقها، أي: فعلتها حينئذٍ وأنا من الضالين.

• ﴿فَفَزَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾:

أي: فَعَقِبَ وَفَتِ خَوْفِي مِنْكُمْ أَنْ تَقْتُلُونِي، هَرَبْتُ مِنْكُمْ إِلَى حَيْثُ لَا يُمَسِّكُ بِي جُنُودُكُمْ، لَيْسُو قَوْنِي إِلَيْكُمْ.

[لَمَّا]: ظرِفٌ لِلزَّمانِ الْماضِي هُنَا، أي: حِينَ خِفْتُكُمْ فِيمَا مَضَى عَقِبَ قَتْلِي الْمَصْرِيَّ.

• ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾:

الهِبَةُ: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَغْوَاضِ. يُقَالُ لُغَةً: «وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ، وَهَبًا، وَوَهَبًا، وَهَبَةً، فَهُوَ: وَاهِبٌ، وَوَهَّابٌ، وَوُهِيبٌ، وَوَهَّابَةٌ».

[حُكْمًا]: الْحُكْمُ: فَهْمُ الْأُمُورِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَحُدُودِهِمَا. وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَحُدُودُهُمَا، وَالْحَسَنُ وَالسَّيِّءُ وَحُدُودُهُمَا، وَبِنَاءٌ عَلَى الْفَقْهِ، يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةَ، وَأَحْكَامَهُ الْقَضَائِيَّةَ.

أي: فَأَعْطَانِي رَبِّي بِفَضْلٍ مِنْهُ فَفَهَّمَهَا فِي الْأُمُورِ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ جَاهِلًا.

• ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أي: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَسُولًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ قَبْلِي لِتَبْلِيغِ أُمَمِهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ.

وقد دَلَّ الْوَاقِعُ التَّارِيخِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا فِي زَمَنِ مُتَأَخِّرٍ عَنْ زَمَنِ فِرَارِهِ مِنْ مِصْرَ، عَقِبَ قَتْلِهِ الْمَصْرِيَّ. لَكِنَّ عِبَارَةَ: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْهِبَةَ قَدْ كَانَتْ عَقِبَ فِرَارِهِ مِنْ جُنُودِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْرَ، فَالْعُطْفُ بِالْوَاوِ لِعِبَارَةِ: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى الْإِفْتِرَاقِ فِي الزَّمَنِ بَيْنَ هِبَتِهِ الْحُكْمَ وَبَيْنَ جَعْلِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ بَيَّنَّ الزَّمَنَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَجَابَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ مَا قَرَّرَهُ بِهِ بِشَأْنِ قَتْلِهِ
لِلْمِصْرِيِّ انتصاراً للإسرائيليّ، وَجَّهَ مُوسَىٰ لَهُ الْجَوَابَ عَلَى الْمِنَنِ الَّتِي امْتَنَّ
فِرْعَوْنُ بِهَا عَلَيْهِ، وَعَلَى إِدَانَتِهِ لَهُ بِأَنَّهُ مِنَ الْجَا حِدِينَ الَّذِينَ لَا يُقَابِلُونَ
الإحسانَ بالشكر، بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْعِبَارَةُ التَّالِيَةُ مِنْ نَصِّ سُورَةِ (الشعراء):

﴿وَلَكَ نِعْمَةٌ تَنْهَا عَلَىٰ أَنْ عَبْدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾ (٢٢) ﴿؟!﴾:

[تَمْنُهَا]: أي: تَحَدَّثُ بِأَنَّكَ تَفَضَّلْتَ بِهَا عَلَيَّ، وَتَعْتَبِرُهَا مِنْ مَحَامِدِكَ
وَإِحْسَانَاتِكَ.

﴿أَنْ عَبْدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أي: أَنْ جَعَلْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عبيداً لَكَ
وَلِقَوْمِكَ، بِالْقَهْرِ، وَالْعَلْبَةِ، وَقُوَّةِ سُلْطَانِكَ.

والمعنى: أَتِلَكَ الَّتِي ذَكَرْتَهَا مِنْ تَرْبِيَّتِي وَلِيداً فِيكُمْ، وَإِقَامَتِي فِيكُمْ،
كَأَحَدِ أَفْرَادِ قَضْرِكُمْ، تَضْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ نِعْمَةً عَلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
الَّذِينَ جَعَلْتَهُمْ عبيداً لَكَ وَلِقَوْمِكَ، بِالْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ وَقُوَّةِ السُّلْطَانِ؟

أشار عليه السَّلَامُ إِلَى الْمِنَنِ الَّتِي امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ
الْمَوْضُوعِ لِلْمِشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى احْتِقَارِهَا بِجَانِبِ الْإِسْتِعْبَادِ
الْمَسْلُوطِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتِهِ وَسَائِرِ الْمِصْرِيِّينَ.

وطوى مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ بَيَانَ أَنَّ الْمِنَّةَ لِرَبِّي الَّذِي أَنْقَذَنِي
مِنَ الْقَتْلِ الَّذِي فَرَضْتُمُوهُ عَلَى مَوَالِدِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، إِذْ
وَضَعْتَنِي أُمِّي فِي التَّابُوتِ، فَأَوْصَلَهُ رَبِّي إِلَى قُرْبِ شَاطِئِ قَضْرِكُمْ،
وَالْتَقَطَنِي مِنْ طَرَفِ النَّهْرِ بَعْضُ آلِكَ، وَأَلْقَىٰ مَحَبَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ، وَصَرَفَ
نَفُوسَكُمْ عَنْ قَتْلِي مَعَ مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِي، إِذْ تَصَوَّرْتُمْ أَنِّي سَأَنْفَعُكُمْ،
أَوْ أَنْ تَتَّخِذُونِي وَلِداً مِنْ أَوْلَادِكُمْ بِالتَّبَنِّيِّ.

تلك في الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ مِنَّا مَنَنْتُمْ بِهَا عَلَيَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ،
وَأَمَّا نَظَرْتُمْ فِيهَا إِلَى مَصَالِحِكُمْ، مَعَ مُرَاعَاةِ عَوَاطِفِ بَعْضِ آلِكُمْ، الَّذِينَ
أَلْقَىٰ رَبِّي مَحَبَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ.

عندئذ انتقل فرعون إلى حوار آخر مع موسى عليه السلام، وهذا الحوار يتعلق برّب العالمين الذي ذكره موسى، ويدعو إلى الإيمان به، فقال لموسى كما جاء في النص الذي من سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عز وجل فيها:

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رِجْزُكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

التدبر:

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

[مَا]: اسم استفهام يُستفهم به عن غير ذي العلم، ويُستفهم به عن صفات ذي العلم، ومن صفاته حقيقة ذاته.

وقد سأل فرعون موسى عليه السلام بمقتضى دلالة هذه العبارة، عن حقيقة ذات رب العالمين.

فأعرض موسى عليه السلام عن إجابة فرعون عن حقيقة ذاته - جلّ جلاله وسمت عن الإدراك ذاته - لأن حقيقة ذاته لا يستطيع مخلوق إدراكها، ولأن نور ذاته أو نوراً من ذاته لا يستطيع البشر إدراكه بأجهزة الإدراك التي وهبهم ربهم إياها.

ولكن أجابه بعبارة فيها تفصيل آثار صفات ربوبيته في كونه، الجامعة لكثير من صفاته الجليلات العظيمات، كالعلم المحيط بكل شيء، وكالإرادة الحكيمة، والقدرة على خلق ما يشاء، والتدبير الدائم الكامل لتصاريف الكون، والرحمة بعباده.

فذكر عليه السلام بعض مظاهر صفات ربوبيته:

• ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤):

خاطب موسى عليه السلام بما دلّ عليه هذا البيان فرعون وملائه من حوله.

أي: ربّ العالمين هو من له الصفات الجليلات العظيمة التي من آثارها خلق السماوات والأرض، وخلق ما بينهما، والهيمنة على تصارييف كل ذلك، وبقاء كل ذلك في الوجود، بصفات ربوبيته على وفق حكمته وشمول علمه كل شيء، وقدرته على ما يشاء.

• ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾: أي: إن كنتم مستعدين لأن تفكروا بالحقائق التي أعرضها عليكم، فتصلوا إلى إدراك الحق، فتوقنوا برّب العالمين الذي أدعوكم إلى الإيمان به، عن طريق البراهين والأدلة العقلية، بالنظر في لوازم خلقه للعالمين، ومن العالمين السماوات والأرض وما بينهما.

اليقين: هو العلم الذي لا شك فيه، وأدنى مراتبه ودرجاته ما اعتمد على أدلة نظرية عقلية، أو خبرية صادقة لا يعترها شك.

والمعنى: فإذا كنتم غير مستعدين لأن تفكروا فتوقنوا مستقبلاً بالحق الذي أدعوكم إلى الإيمان به، مهما قدّمت لكم من الأدلة، فإن بياني هذا لن يغيّر من جُحودكم لربكم شيئاً.

عندئذ استغلّ فرعون عدم إجابة موسى له عن حقيقة ذات ربّ العالمين، فنظر إلى من حوله من ملاّ قومه، فقال لهم ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٢٥):

أي: ألا تسمعون إجابته غير المطابقة للسؤال، إنّي أسأله عن ذات ربّ العالمين الذي يدعونا إلى الإيمان به، فلا يجيبني ببيان حقيقة ذاته،

وإِنَّمَا يَأْتِي بِذِكْرِ بَعْضِ عَنَاصِرِ كَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَيَذْكُرُ أَنَّهُ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ فِي عَقْلِهِ خَلْقًا.

فَتَابَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَانَهُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢١)

أي: رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ أَيْضًا رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ السَّابِقِينَ،
الَّذِينَ مَاتُوا عند انتهاء آجالهم في الحياة الدُّنْيَا.



وهُنَا يَأْتِي مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سورة (طه/ ٢٠ مصحف ٤٥/ نزول)
تَكْمِيلًا لما طُوِيَ فِي نَصِّ سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله
عزَّ وجلَّ فِي سورة (طه) حِكَايَةً لما دَلَّ عَلَيْهِ قولُ فِرْعَوْنَ لمُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَام:

• ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (٥١)

استغلَّ فِرْعَوْنُ حَدِيثَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام عن آبائهم الأولين، فطَرَحَ
عَلَيْهِ هَذَا السَّوْأَلَ.

[فَمَا بَالُ]: أي: فما شَأْنُ وَمَا حَالُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّتِي مَاتَتْ
وَتَفَتَّتَتْ ذَرَاثُ أَجْسَادِهَا فِي تُرَابِ الْأَرْضِ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلَا حَرَكَةٌ
وَلَا أَجْهَرَةٌ يُحْسُونُ بِهَا، هَلْ صَارُوا عَدَمًا، أَمْ سَوْفَ يَحَاسِبُونَ وَيُجَازَوْنَ
كَمَا تَزْعَمُ، وَقَدْ ضَلُّوا فِي الْأَرْضِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ؟!.

البالُ: الشَّأْنُ وَالْحَالُ.

الْقُرُونُ: جمع «الْقَرْن» وهم أهل زمانٍ واحدٍ كانوا يعيشون فيه.

فأجاب موسى عليه السلام بما جاء ببيان معناه في سورة (طه) أيضاً:

• ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٦﴾:

أي: إِنَّ خَلْقَهُمْ أَوَّلًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً، قد كان مسبوqاً بقدرٍ وقضاءٍ فيه تفصيلٌ كلّ جزئيةٍ من ذواتهم وصفاتهم طوال رحلة حياتهم، وهذا قد كان مَشْمُولاً بعلم الله الذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

وبَعْدَ أَنْ مَرُّوا رِحْلَةً امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى، كان العلم الربّانيُّ مُحِيطاً بكلّ ما كَسَبُوا أو اِكْتَسَبُوا من أعمالٍ ظاهرةٍ أو باطنة، جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيَّةٍ.

فإِعَادَتُهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخَرَى لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذُ الْجَزَاءِ هِيْنَ عَلَيْهِ، إِذْ يُعِيدُ خَلْقَهُمْ وَيَبْعَثُهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخَرَى، كَمَا بَدَأَ خَلْقَهُمْ.

وإِجَابَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ تَنَاوَلَتْ مِنْ هَذَا الدَّلِيلِ جَانِبَ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ، لِيَفْهَمُ فَرَعَوْنُ، وَأَذْكِيَاءُ مَلَكِهِ لَوَازِمَ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ، كَمَا كَانَتْ الْقُدْرَةُ عَلَى الْبَدْءِ، وَأَمَّا الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ فَمِنْ لَوَازِمِ كَوْنِ الرَّبِّ حَكِيماً، لَا يَجْعَلُ الْمُسْلِمَ كَالْمُجْرِمِ، وَلَا الْمُحْسِنَ كَالْمُسِيءِ.

وهذه الإجابة اشتملت على قضيتين، ويلزم من بيانهما عقلاً قضيةً ثالثة:

القضية الأولى: أَنَّ عِلْمَ الْقُرُونِ الْأُولَى مِنَ الْبَشَرِ، مَا يَتَعَلَّقُ بِإِنْشَائِهَا الْأَوَّلِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا، وَمَا قَدَّمَتْ مِنْ أَعْمَالٍ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾.

وقد قرَّبت لَنَا مَكْتَشَفَاتُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، عَنْ طَرِيقِ أَدَوَاتِ تَسْجِيلِ

الصُّوْتِ والصُّوْرَة، عظمة الكتاب الربّاني الذي يُسَجِّلُ كُلَّ شَيْءٍ، حتّى أحاديث النفوس وخواطر الأفكار، ودقائق ما في الحَلَايَا والذَّرَّات.

القضية الثانية: أنّ ربّي يُحِيطُ عِلْمُهُ الَّذِي هو صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذاته، بكلّ ذلك، إذ يَسْتَحِيلُ عقلاً أن يَتَعَرَّضَ عِلْمُهُ وهو خَالِقُهَا ومُتَابِعُهَا بقاءً وتصاريَفَ حَكِيمَةٍ، بصفات رُبُوبِيَّتِهِ، للضَّلَالِ عَنِ الواقعِ والبُعْدِ عنه، وَيَسْتَحِيلُ عقلاً أن يَتَعَرَّضَ لِنِسْيَانِ شَيْءٍ مِنْهُ، وهو مُحِيطٌ بكلّ شَيْءٍ علماً، ما مضى، وما هو كائنٌ، وما سيكون أو سوف يكون.

دلّت على هذه القضية عبارة: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾:

[لَا يَضِلُّ]: أي لا يضيع عن العِلْمِ الحقِّ. الضَّلَالُ: يأتي في اللغة بمعنى الضياع في المتاهات، بعيداً في مسائل العلم عَنِ الحقِّ والواقع.

[وَلَا يَنْسَى]: أي: ولا يَتَعَرَّضُ لنسيان المعلومات كما تَتَعَرَّضُ الخلائق لذلك، إنّهُ سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عَنِ نسيان شَيْءٍ ممّا لَدَيْهِ مِنْ عِلْمٍ.

القضية الثالثة: هي بعض لوازم كَوْنِ عِلْمِ القرون الأولى عِنْدَ الله ربِّ العالمين، في كتابٍ مُدَوَّنٍ فيه كلُّ ما يُمكنُ العِلْمُ به، وفي واسع عِلْمِهِ الشَّامِلِ لكلّ شَيْءٍ، والذي لا يَتَعَرَّضُ لَضَلَالٍ وَلَا نِسْيَانٍ.

وهي أنّه سَوْفَ يَبْعَثُهُمْ إلى الحياة مرّةً أُخْرَى، ليَحَاسِبَهُمْ وَيَجَازِيَهُمْ، في زمان يُقالُ له: يوم الدين.

وهذا اللازم مطويٌّ غير مصرّح به في النصّ، لكن سبق أن أَعْلَمَ موسى عليه السّلام به فرعونَ ومَلَأَهُ.



وهنا يأتي ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول)

حكاية لقول فرعون، مستغلاً جهل معظم ملئه بدقائق ما تفيده أجوبة موسى عليه السلام، ومستغلاً ما فرضه من إلهيته التي جعل فيها نفسه معبوداً لقومه، ومستغلاً خضوعهم وخنوعهم واستسلامهم لكل ما يقول لهم من رأي:

• ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧)

قال هذا تهكماً، وإنكاراً لأن يكون رسولاً، أو صالحاً لأن يحمل رسالة من رب العالمين على ما يدعي.

أي: أنا أسأله عن أشياء معينة، وهو يجيب بأجوبة بعيدة عما أسأله عنه، وهذه من صفات المجانين، وأكد لهم جنونه بالمؤكدات التالية: «إن - والجملة الإسمية - واللام المرحقة» أي: بما يدل في لغته على مثل هذه المؤكدات.

ولم يلتفت موسى عليه السلام لاثهام فرعون له بالجنون في مخاطبته لملئه، بل تابع بيانه بقوله الذي دل على معناه قول الله عز وجل في النص الذي من سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)

أي: رب العالمين هو المدبر والمتصرف بصفات ربوبيته لمكان شروق الشمس وزمانه، ولشروقها، وحركتها، ومسيرها، والمدبر والمتصرف بصفات ربوبيته لمكان غروب الشمس وزمانه، ولغروبها، وظهور الليل والكواكب فيه.

وهو رب كل ما بين المشرق والمغرب من أشياء، وناميات، ورياح وسحب وقوى ظاهرة أو خفية، وظلمة وضياء، وأحياء وبشر، وغير ذلك.



وهنا يأتي البيان الذي في الآيات من (٥٣ - ٥٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۖ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٤﴾ مِنهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۖ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

• قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وخلف: [مَهْدًا] مصدر «مَهْد».

وقراها باقي القراء العشرة: [مِهَادًا]، أي: فراشاً.

وفي الجمع بين القراءتين جمعاً تكاملياً أقول: مَهْدَهَا فَجَعَلَهَا فِرَاشاً.

يُقَالُ لغة: مَهَدَ الْفِرَاشَ يَمْهَدُهُ مَهْدًا، أي: بَسَطَهُ وَوَطَّأَهُ، وجعله مُرَبِّحاً لِلْجُلُوسِ أو الاضطجاع عليه، واستعمال لفظ «مَهْد» الذي هو مصدر «مَهْد» هو من إطلاق المصدر على اسم المفعول، مثل إطلاق الخرق على المخروق، والنقب على المنقوب، مع احتمال أن يكون لفظ «مَهْد» يراد به سرير الطفل الممهّد، فيكون على التشبيه كالمهاد، والتكامل مع هذا هو على معنى أن بعض الأرض كالمهد، وبعضها كالمهاد.

تمهيد:

هذه الآيات الأربع جاءت بياناً مُباشراً من الله عز وجل لا على سبيل حكاية مقالات موسى عليه السلام لفرعون وملئه، مع أنها تابعة في أفكارها لمقالاته، وقد جاءت بمثابة تكميل للبيان الذي قَدَّمَهُ موسى عليه السلام لفرعون وملئه، وهذا البيان التكميلي جاء ضَمَنَ البيان الذي يحكي بدلالاته مقالات موسى عليه السلام لِفِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ.

ويظهر لي أن الغرض الدلالة على أن ما قاله موسى حقٌ وصديق، وأنه تعبيرٌ عما أمره الله ببيانه للقوم، بدليل أن الله عز وجل أكملهُ ببيان مضافٍ من عنده، كشأن التلميذ حينما يقول قولاً في مسائل علمية بحضور أستاذه، فيبادر الأستاذ فيضيف كلاماً تكميلياً من عنده، قاطعاً حديث تلميذه قطعاً مؤقتاً، ليُشعر مُستمعي حديثه بأنه مُوافقٌ كُلِّ الموافقة على أقوال تلميذه في المسائل التي أبانها وشرحها، وليشعرهم بأنها بمثابة أقوال صادرة عنه شخصياً، وهذا فنُّ قرآني تكرر في عدَّة سور من القرآن المجيد.

وليس مستبعداً أيضاً أن يكون المراد بإيرادها بياناً مباشراً من الله عز وجل، الإشعار بأن موسى عليه السلام قد قال نظيرها بلسانه لفرعون وملئه، فقال في عبارة لهم نحو ما يلي: الذي جعل لكم الأرض مهّداً ومهاداً وسلّك لكم فيها سُبُلًا، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به أزواجاً من نبات شتّى، وأباح لكم أن تأكلوا منها ما يفيدكم وينفعكم ولا يضركم ولا يؤذيكم، وأن ترعوا أنعامكم، إنّ في ذلك لآياتٍ لأولي العقول الحصيفة النظيفة المستنيرة، من الأرض خلقكم، وإلى الأرض يُعيدكم فتكونون فيها أجزاءً من ترابها، ومن الأرض يخرجكم في حين آخر مرةً أخرى.

وعلق الله عز وجل عليها بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنْ﴾ (٥٦)

أي: وكان من أمر فرعون بعد ذلك أننا أريناه آياتنا التسع كلها في سنين عديدة، قبل أن نأمر موسى بالخروج ببني إسرائيل من مصر، وقبل أن يتابعهم فرعون وآله وجنوده لقتالهم، وقبل أن يتم في هذا الحدث فلق البحر لموسى وبني إسرائيل، وعبور بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون من مكان الفلق، ومتابعة الجيش الفرعوني لهم بقيادة فرعون من مكان الفلق

نَفْسِهِ، وَضُمَّ مِيَاهُ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ، وَإِغْرَاقَهُمْ جَمِيعاً، بَعْدَ نَجَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وكانت هذه الآية بمثابة فاصلةٍ أَنْهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا بَيَانَهُ الْمُبَاشِرَ.

وفي هذا الأسلوب البياني أيضاً، إشعارٌ بأنَّ مقالات موسى عليه السَّلام لفرعون ومَلَيْهِ، هي مقالات منزَّلاتٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَخَاطِبُهُمْ بِهَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام، مع جعل صيغة الكلام بأسلوب حديثٍ من موسى لهم، لا بأسلوب: يقول رَبُّكُمْ كذا وكذا.

التدبير:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ - وفي القراءة الأخرى [مِهَادًا] هذا خطاب من الله عَزَّ وَجَلَّ مُوجَّهٌ لِلنَّاسِ جَمِيعاً.

أي: وَرَبُّكُمْ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِمِثَابَةِ الْفَرَاشِ الْمَمْهَدِ الصَّالِحِ لِرَاحَةِ الْجَالِسِ أَوْ الْمَضْطَجِعِ عَلَيْهِ.

وفي هذا تشبيهٌ لمعظم سَطْحِ الْأَرْضِ بِالْفَرَاشِ الْمَمْهَدِ الْمَبْسُوطِ، نظراً إِلَى مَا فِي مَعْظَمِ سَطْحِهَا مِنْ انْبِسَاطٍ، فِي السُّهُولِ، وَالْوُدْيَانِ، وَفِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْجِبَالِ، وَنظراً إِلَى جَعْلِهَا صَالِحَةً لِلتَّسْوِيَةِ وَالتَّمْهِيدِ، بِأَعْمَالِ التَّعْرِيةِ، وَالتَّكْسِيرِ، وَالْحَفْرِ، وَالتَّجْرِيفِ، وَالنَّقْلِ.

ولولا هذا الْجَعْلُ الرَّبَّانِيُّ الْحَكِيمُ فِي تَكْوِينِ الْأَرْضِ، لَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ ضُلْبَةً شَدِيدَةً الْقَسَاوَةِ، وَأَنْ تَكُونَ عَلَى شَكْلِ مُرْتَفَعَاتٍ وَمُنْخَفَضَاتٍ كَأَشْوَاكِ ظَهْرِ الْقَنْفَذِ، لَا تَصْلُحُ لِإِقَامَةِ النَّاسِ عَلَيْهَا، وَلَا تَصْلُحُ لِلانْتِفَاعِ بِهَا بِأَعْمَالٍ يَسْتَطِيعُ النَّاسُ الْقِيَامَ بِهَا، مِنْهَا أَعْمَالُ الْبِنَاءِ وَالتَّعْمِيرِ، وَأَعْمَالُ التَّمْهِيدِ وَالتَّسْوِيَةِ، وَمِنْهَا أَعْمَالُ الْحَرْثِ وَالزَّرْعِ، وَأَعْمَالُ

شقَّ الطُّرُقَ، وتمهيد السُّبُل، وتكسير الصُّخُور ونحتها، وحَفَرِ الأنفاق، وحفر الآبار، إلى غَيْرِ ذلك من أمور كثيرة، جالبة منافع ومصالح للناس، ولو بمشقة وأعمال صعبة.

وَكُلُّ ذلك بسببِ أَنَّ الله قد جعلها للناس مهذاً، وجعلها مهذاً، كالفراش الصالح للبسط والتمهيد، والتسوية، والجلوس والاضطجاع عليه، براحة ثلاث أجيادهم ومصالحهم.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾:

[وَسَلَكَ لَكُمْ]: أي: وأدخل وأنفذ لكم. يُقال لغة: «سَلَكَ، يَسْلُكُ، سَلَكَ، وَسَلُوكًا»، أي: دَخَلَ ونَفَذَ، ويقال: «سَلَكَ الشَّيْءُ، فِي الشَّيْءِ، وَسَلَكَهُ بِهِ»، أي: أدخله فيه.

فالمعنى: وأدخل وأنفذ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا تَسْلُكُونَ فِيهَا، لتصلوا إلى ما تريدون الوصول إليه من أماكن ومواضع في الأرض.

السُّبُل: جمع «السبيل» يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وهو الطريق، وما وَضَحَ مِنْهُ.

هذه العبارة: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ صالحة للدلالة على ما جعل الله عز وجل في الأرض من سُبُل صالحة للسُّلُوكِ فيها، قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ، وصالحة للدلالة على ما منح الله الناس من قُدَرَاتٍ يَشْقُونَ بِهَا الطُّرُقَ، وَيُمَهِّدُونَ بِهَا السُّبُلَ.

فما منح الله النَّاسَ الْقُدْرَةَ عَلَى عَمَلِهِ وَصُنْعِهِ، وما جعل في الأشياء من مطاوعة لأعمال العاملين، وصنْعِ الصَّانِعِينَ، كُلُّهُ من خلق الله ومن جعله في كَوْنِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ - فتنتج أعمال عبادِهِ هي من جعله عز وجل، لأنها من آثار ما مَنَحَهُمْ وَهَيَّأَ لَهُمْ، ولولا ذلك ما استطاعوا أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئاً، وما اسْتَطَاعُوا أَنْ يَصْنَعُوا شَيْئاً.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾:

[مِنَ السَّمَاءِ]: أي: من السَّحَابِ الواقع في جهة العُلُوِّ بالنسبة إلى سُكَّانِ الأرض.

السماء: هي في اللغة كُلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ، وَسَمَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ. وأُضِلُّ لفظ «سَمَاء» مَصْدَرُ: «سَمَا، يَسْمُو، سُمُوًّا، وَسَمَاءٌ» أي: علا، وارتفع، وتطاوَل، ثُمَّ أَطْلِقَ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُوجَدُ فَوْقَهُ مَا هُوَ سَامٍ عَلَيْهِ، وَفِي جِهَةِ الْعُلُوِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

فالسَّقْفُ سَمَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا تَحْتَهُ، وَالْمِظَلَّةُ سَمَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَظَلِّينَ بِهَا، وَالسَّحَابُ سَمَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ، وَالْغُلَافُ الْغَازِيَّ سَمَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَيْضًا.

أي: وَرَبُّكُمْ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.

وجاء وصف هذا الماء الذي يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ فِي سُورَةِ (الْفِرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بِأَنَّهُ طَهُورٌ، أَي: طَاهِرٌ بِنَفْسِهِ مُطَهِّرٌ لْغَيْرِهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا: ﴿... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٥١﴾.

وجاء وَضْفُهُ فِي سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بِأَنَّهُ مُبَارَكٌ، أَي: كَثِيرُ الْخَيْرِ وَكَثِيرُ النِّعَمِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا... ۝٩﴾.

قول الله عز وجل:

• ﴿... فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۝٥٢﴾:

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ التَّفَاتُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، إِلَى التَّكَلُّمِ، وَهَذَا الْإِتِّفَاتُ مِنْ مُحَاسِنِ الْفُنُونِ الْبَلَاغِيَّةِ، لَمَّا فِيهِ مِنْ إِثَارَةٍ لِلْإِنْتِبَاهِ.

وجاء في هذه العبارة استخدام ضمير المتكلم العظيم، لأنَّ الموضوع الذي جاء بيانه فيها يتعلَّقُ بِخَلْقِ إِبْدَاعِيٍّ عَظِيمٍ، مِنَ الرَّبِّ الْجَلِيلِ الْعَظِيمِ.
 أي: فَأَخْرَجْنَا بِالْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّحَابِ، وَجَعَلْنَاهُ سَبَباً مِنْ أَسْبَابِنَا، أَصْنَافاً كَثِيراً مِنْ نَبَاتٍ مُتَفَرِّقٍ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ.
 [أَزْوَاجاً]: أي: أَجْنَاساً وَأَنْوَاعاً وَأَصْنَافاً، جَمْعُ «زَوْجٍ» بِمَعْنَى: جِنْسٍ، أَوْ نَوْعٍ، أَوْ صِنْفٍ.

[شَتَّى]: أي: مُتَفَرِّقَةً، جَمْعُ «شَيْتٍ» أي: مُتَفَرِّقٍ.
 وهذه ظاهرة من ظواهر إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ أُخْرِجَ مِنْهَا بِالْمَاءِ الْمُبَارَكِ نَبَاتَاتٌ ذَوَاتُ أَجْنَاسٍ، وَأَنْوَاعٍ، وَأَصْنَافٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ لِعِذَاءِ النَّاسِ وَلِذَاتِهِمْ وَاسْتِمْتَاعَاتِهِمْ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِعِذَاءِ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلدَّوَاءِ وَأَنْوَاعِ الْعِلَاجَاتِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلانْتِفَاعِ بِهِ فِي اللَّبَاسِ وَالْعِمْرَانِ كَالْأَقْطَانِ وَالْأَخْشَابِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلانْتِفَاعِ بِهِ فِي إِعْدَادِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلانْتِفَاعِ بِهِ فِي الصَّنَاعَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، كَالْقُطْنِ وَالْمِطَاطِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعَ لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ إِحْصَاءَ مَفْرَدَاتِهَا.
 قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾:

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ التَّفَاتٌ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى خُطَابِ النَّاسِ، أَي: كُلُّوْا يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مِمَّا هُوَ صَالِحٌ لِأَنْ يُؤْكَلَ دُونَ أَنْ يُحْدِثَ ضَرراً أَوْ أَذًى، مِمَّا فِيهِ غِذَاؤُكُمْ، وَلِذَلِكَ مَطَاعِمُكُمْ كَالْفَوَاكِهِ وَالتَّوَابِلِ. وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ الَّتِي خَلَقْنَاهَا لَكُمْ، لَطْعَامُكُمْ وَشِرَابُكُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْ مَصَالِحِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ كَحَمَلِكُمْ وَحَمْلِ أَثْقَالِكُمْ، وَجَرِّ عَرَبَاتِكُمْ، وَحَرْثِكُمْ، وَكَاسْتِخْدَامِكُمْ لِأَصْوَافِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَوْبَارِهَا، لِصِنَاعَةِ مَلَابِسِكُمْ، وَفُرُشِكُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ.

صيغة فعل الأمر في «كُلُوا» وفي «وَارْعَوْا» هي للإذن والإباحة، بشرط اجتناب ما حرم الله منها، مما فيه ضرر أو أذى، كالنباتات السامات، والنباتات المخدرات، التي خلقها الله للاستعمالات الدوائية، بمقادير محددة تستعمل عند الضرورة العلاجية، وهذه القيود قد دلت عليها نصوص أخرى، وفق المنهج التكاملي في دلالات النصوص.

[وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ]: أي: واجعلوها ترعى من نباتات الأرض، يارسلها في المراعي، أو وضعها فيها، أو جلب ما ترعاه إليها.

يقال لغة: رعى الراعي ماشيته، أي: جعلها ترعى.

ويقال: رعى الحيوان النبات، أي: أكله.

الأنعام: هي الأموال الراعية، وهي الإبل والبقر والغنم، ولفظ «الأنعام» يُذكر ويؤنث.

قول الله عز وجل:

• ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾: ﴿٥٤﴾

الآيات: هي العلامات الدالات على معنى ما، وتُستعمل الآية الكونية، فيما فيه دلالة قوية إعجازية، على صفة أو أكثر من صفات الربّ الجليل، ومعلوم أن إثبات الصفة يستلزم عقلاً إثبات الموصوف بها.

﴿لأُولِي النُّهَى﴾، أي: لأصحاب العقول الواعية الدراكة لآيات الله في كونه.

النُّهَى: هي العقول، ومُفَرِّدُهَا «النُّهْيَةُ».

والمعنى: أن أصحاب العقول الحصيفة النظيفّة الدراكة، يفهمون أن جعل الله الأرض مهذاً ومهاداً، وسلك سبيل فيها، وإنزال ماء من السماء كان به إخراج أصناف كثيرة من نبات شتى، يُقدّم آيات جليلات تدل على

طائفة عظيمة من صفاتِ الرَّبِّ الخالق، الدَّالَّاتِ على وُجُودِهِ، وعلى رُبُوبِيَّتِهِ الدائمة لكونه، إيجاباً، وإمداداً، وبقاءً، وتصاريحاً، وإحياءاً، وإماتةً، وإفناءً، وإعداماً، وإعادة متى شاء، وعلى ما يشاء.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿مِنهَا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾:

﴿تَارَةً أُخْرَى﴾: أي: عودةً إلى الحياة أُخرى، يقال لغة: «تَاوَرَهُ الأمرُ» أي: عاودَهُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ. التَّارَةُ: المَدَّةُ والحين.

والمعنى: من الأرض، أي: من ترابها ومائها خَلَقْنَا أَجْسَادَكُمْ، وإليها نُعِيدُكُمْ فنَجْعَلُكُمْ فيها، ضَمْنَ تُرابها، وأجزاء منها، ومنها نخرجُكم في حينٍ آخر، فنُعِيدُكُمْ إلى الحياةِ مَرَّةً أُخْرَى، للحساب، وفَضْلِ القِضاءِ، وتحقيقِ الجزاء.

ضَمَّنَ فعل: [نُعِيدُكُمْ] معنى فعل: نجعلكم، أو نُدْخِلُكُمْ، فَعُدِّي تَعْدِيَّتِهِ.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾:

أي: ونُؤَكِّدُ أَنَّا أَرَيْنَا فِرْعَوْنَ آيَاتِنَا التَّسْعَ كُلَّهَا، التي آتَيْنَاهَا مُوسَى، فَلَمْ يَعْمَلْ بما فَرَضْنَاهُ عليه دَلَالَتُهَا، بَلْ كَذَّبَ بِهَا، وَكَذَّبَ رَسُولُنَا مُوسَى وهارون، وَأَبَى أَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَقِّ، استجابةً لِدَعْوَتِهِمَا، وَخُضُوعاً لِدَلالاتِ آيَاتِنَا الباهرات المعجزات.

في هذه الآيَةِ نَقْلُهُ إلى آخر تاريخ دَعْوَةِ مُوسَى وهارون في مِصر، قُبِيلَ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ مُوسَى بِأَنْ يَخْرُجَ بِنِي إِسْرَائِيلَ مَتَّجِهاً شَطْرَ سِيناء.

وهذه النَّقْلَةُ الَّتِي لَا تُتَابِعُ سَوَابِقَهَا، وَلَا تَتَلَاءَمُ مع ما جاء بَعْدَهَا من

بيان في السورة، قَدْ جَعَلَهَا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ فَاصِلَةً خَاتِمَةً لكلامه المباشر،
الذي جاء معترضاً بَيْنَ فقرات قِصَّةِ مُوسَى مع فرعون وملئه.



وهنا يأتي بيانُ جاء في النِّصِّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦
مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٦):

لقد ضاق صدرُ فرعونَ من رُودِ موسى عليه السَّلام، الدَّقيقة
والمحكمة، فلم يَجِدْ لَدَيْهِ إِلَّا وسيلةَ التهديدِ الأوَّليِّ بالسَّجنِ.

أي: قال فرعون لموسى عليه السَّلام: لَئِنْ اتَّخَذْتَ مَعْبُوداً تَطِيعُهُ
وَتَعْبُدُهُ غَيْرِي، لَأَجْعَلَنَّكَ فِي السَّجْنِ مع المسجونين من العصاة
والمجرمين.

وهنا جاء دَوْرُ ما آتاه الله من آيَتَيْنِ بَاهِرَتَيْنِ لِإِخَافَتِهِ، وَرَدَّعِهِ عَنْ أَنْ
يَتَصَرَّفَ تَصَرُّفاً فِيهِ إِذَاءٌ لَهُ وَلِأَخِيهِ هَارُونَ، فقال له ما جاء بيانه في الآية
التالية:

• ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٢٧):

أي: أَتَأْمُرُ بِسَجْنِي وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ عَظِيمٍ، يَبَيِّنُ لَكَ أَنِّي رَسُولُ رَبِّ
العَالَمِينَ حَقّاً وَصِدْقاً؟

• ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٨):

أي: قال فرعون لموسى عليه السَّلام: فَأْتِ الْآنَ بِهَذَا الشَّيْءِ الْمُبِينِ
الَّذِي ذَكَرْتَهُ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

• ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٢٩) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظَرِ (٣٠):

أي: فألقى موسى عليه السلام عصاه، ففاجأت فرعون وملائه بتحولها ثعباناً واضحاً جليلاً مرعباً مخيفاً.

وأدخل يده في جيبه^(١) إلى إبطه، وأخرجها ففاجأت القوم بتحولها بيضاء متلائة كالبرق اللامع.

وأذهش بهاتين الآيتين فرعون وملائه في مجلسه، وأذرك فرعون قوة تأثيرهما على من حوله من قومه، وأراد أن يتدارك الموقف الصعب:

﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِن هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فردّد ملؤه مقالته، وهو ما جاء بيانه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) بقول الله عز وجل فيها:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ...﴾.

عندئذ قال لهم فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كما جاء في سورة (الأعراف) في الآية (١١٠)، وفي سورة (الشعراء) في الآية (٣٥).

أي: فما الشيء الذي تشيرون به عليّ. يُقال لغة: «أمر فلاناً بشيء» أي: أشار به عليه.

• ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الشعراء).

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الأعراف)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: [سَحَابًا] كنص (الشعراء).

[أَرْجُهُ]: أي) «أَرْجِيْهُ»، وهي قراءة جاءت في النص الذي من سورة (الأعراف)، والمعنى: أَخْرَهُ وَأَجْلَهُ، يُقَالُ لُغَةً: أَرْجَاهُ، أي: أَجَلُهُ، أَوْ جَعَلَ لَهُ أَجْلاً.

أي: اجْعَلْ لَهُ وَلِأَخِيهِ أَجْلاً مُّحَدَّداً، لإجراء مباراة سحرية بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَحْرَةِ مِصْرَ، وَأَرْسِلْ مَبْعُوثِينَ مِنْ قِبَلِكَ، لِلْبَحْثِ فِي الْمَدَائِنِ الْمِصْرِيَّةِ عَنْ كُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَاهِراً، وَعَنْ كُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ مَاهِرٍ، وَحَاشِرِينَ إِلَيْكَ مَنْ يَجِدُونَ مِنَ السَّحْرَةِ فِي مِصْرَ، إِعْدَاداً لِلْمُبَارَاةِ الَّتِي تُقِيمُهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.



وهنا يأتي بيانُ جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

• ﴿قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَكُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾﴾:

اتَّهَمَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ هَدَفَهُ انْتِزَاعُ حُكْمٍ مُضِرٍّ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَأَنْصَارِهِمْ، فَوَصَّفَ أَنَّ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ جَاءَ بِهِمَا هُمَا مِنْ أَعْمَالِ السَّحَرِ، وَأَنَّهُ اتَّخَذَهُمَا لِيُأْذَنَ لَهُ بِإِخْرَاجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، وَلِيُعِدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً، ثُمَّ يَعُودُ بِهَذَا الْجَيْشِ فَاتِحاً مِصْرَ، وَمُتَنَزِعاً مُلْكَهَا بِالْقُوَّةِ، وَمُخْرِجاً مِنْ مِصْرَ أَوْلِيَاءَ أَمْرِهَا وَكُلَّ أَنْصَارِهِمْ، أَي: لِيَجِدُوا أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْ قُوَّةِ جَيْشِهِ الْمُقَاتِلِ إِلَّا الْفِرَارَ، وَالْخُرُوجَ مِنْ مِصْرَ هَارِبِينَ حَذَرَ الْقَتْلِ.

وَإِذْ وَضَعَ فِرْعَوْنُ هَذَا التَّصَوُّرَ فِي ذَهْنِهِ، قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ﴾، وَكَانَ السُّحْرُ حِينئِذٍ هُوَ الْقُوَّةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الْمُرْهَبَةُ لِعَامَّةِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ، وَكَانَ أَمراً شائعاً فِي الْمَدَائِنِ الْمِصْرِيَّةِ.

وقال له: ﴿فَلَجَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾: و[سوى] في قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو والكسائي، وأبي جعفر.

[مَوْعِدًا]: الموعد: يُطْلَقُ عَلَى الْوَعْدِ، وَعَلَى مَكَانِهِ، وَعَلَى زَمَانِهِ. أي: حَدَّدَ بَوْعْدٍ مِنْكَ مَكَانَ الْمُبَارَاةِ الَّتِي سَنُجْرِيهَا بَيْنَكَ، وَبَيْنَ سَحَرَتِنَا، وَحَدَّدَ زَمَانَهَا، وَاخْتَرْنَا أَنْ يَكُونَ الْمَكَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَحَرَتِنَا مَكَانًا سُوًى، أي: مَكَانًا مُتَسَاوِي الْمَوَاقِعِ بِالْعَدْلِ.

المكان السوى: هو المكان المعتدل الذي يكون فيه فريقا المباراة متعادليْن في كُلِّ شَيْءٍ.

وَأُعْطِيَ فِرْعَوْنُ مِنْهُ وَعْدًا بِأَنْ لَا يُخْلِفَ إِحْضَارَ سَحَرَتِهِ الْمُبَارَاةِ، فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ الَّذِي يُحَدِّدُهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ لَا يُخْلِفَ حُضُورَهُ هَذِهِ الْمُبَارَاةِ.

فوافق موسى عليه السلام، وقال لِفِرْعَوْنَ ما جاء بيانه في الآية التالية:

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ۝٥٩﴾:

كَانَ لِلْمِصْرِيِّينَ حِينْتِدِ عِيدٍ يَخْرُجُونَ فِيهِ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ مُتَزَيِّنِينَ، وَيَلْتَقُونَ فِي مَكَانٍ وَاسِعٍ جَامِعٍ، يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَمْرَحُونَ وَيَلْعَبُونَ فِيهِ، كَشَأْنِ مُعْظَمِ الْأُمَمِ فِي أَعْيَادِهَا.

فاختار موسى عليه السَّلَامُ ذَلِكَ الْيَوْمَ لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ، لِيَكُونَ أَجْمَعَ لِلنَّاسِ، وَاخْتَارَ الْمَكَانَ الَّذِي يَلْتَقِي النَّاسُ فِيهِ يَوْمَ عِيدِهِمْ، لِأَنَّهُ مَكَانٌ وَاسِعٌ، وَفِيهِ مَوْضِعٌ سُوًى لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ.

[مَوْعِدُكُمْ]: أي: زَمَانُ إِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ وَمَكَانُهُ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ.

[يَوْمُ الزَّيْنَةِ]: هو الخبر، واقتصرَ على ذِكْرِ اليوم دون ذكر المكان، لأنَّ يومَ الزينة له مكانٌ معروف محدّدٌ عندهم، يلتقون فيه يومَ عيدهم، فتعيّنُ هذا اليوم يتضمّنُ تَعْيِينَ المكان.

وطلبَ موسى عليه السّلام من فرعون بأن يُحشَرَ الناسُ في ذلك المكان وقتَ الضّحى، لإجراء المباراة في ذلك الوقت المناسب تماماً للحضور والاجتماع، ومشاهدة المباراة، وفي طلبه حشِرِ الناس تحدّ ظاهر.

الحشِرُ: الجَمْعُ والسَّوق، يُقال لغة: «حشَرَ الأميرُ جُنْدَهُ يَحْشِرُهُمْ وَيَحْشِرُهُمْ» أي: جَمَعَهُمْ وساقهم.

الضّحى: هو الوقت الذي يَكُونُ ما بَيْنَ ارتفاع الشمس أوّل النهار حتى الزوال.

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ (١٠)

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: أي: فانصرفت عن مجلس هذه المواعدة بيّنه وبينَ موسى عليه السّلام.

التّوَلَّى: الإذبار، والنأي، ومن أذبر ونأى فقد انصرفت عن المكان الذي كان فيه.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾: أي: فجمع سَحَرَةَ المدائن المصرية التي يُريدُ أن يكيدَ بهم، ضدَّ آتَى موسى عليه السّلام.

الكَيْد: التدبير الخفي والظاهر بحق أو بباطل، فيه مكروه لمن دبر ضده. ويطلقُ الكَيْدُ على الحرب وإعداد وسائلها. ويطلقُ على الحيلة، وعلى كلّ تدبير يزجو صاحبه به النّصر، أو النجاة.

﴿ثُمَّ أَفَى﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إِعْدَادٍ فِي زَمَنِ مَتَرَاخٍ لَكَيْدِهِ، أَتَى لِحَضُورِ
المباراة في الزمان والمكان اللَّذَيْنِ تَمَّ التَّوَاعُدُ لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ فِيهِمَا.



وهنا يأتي مَوْقع بيانٍ جاء في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧
نزول) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ
﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

وبيان آخر جاء في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) وهو قول
الله عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٣٧﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾:

وبيان ثالث جاء في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) وهو قول
الله عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [بِكُلِّ سَحَّارٍ]: أي: عليمٍ ماهِرٍ في
السَّحَرِ. وجمعاً بَيْنَ الْقَرَاءَتَيْنِ نَفْهَمُ أَنَّهُ طَلَبَ إِحْضَارَ كُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَلَوْ
لَمْ يَكُنْ مَاهِراً بَارِعاً فِي سِحْرِهِ، وَإِحْضَارَ كُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ مَاهِرٍ بَارِعٍ فِي
سِحْرِهِ.

هذه النصوص الثلاثة متكاملات الدلالات فيما بينها.

- فالنص الذي من سورة (يونس) أَبَانَ أَنَّ فِرْعَوْنَ أَمَرَ مَنْ تَحْتَ
سُلْطَانِهِ بِأَنْ يَأْتُوهُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ، وَبِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.
- والنص الذي من سورة (الشعراء) أَبَانَ أَنَّ السَّحَرَةَ قَدْ جَمَعَهُمْ

جُنُودُ فِرْعَوْنَ لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ فِي مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَهُوَ الْمِيقَاتُ الَّذِي عَيْنُهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ.

● والنصّ الذي من سورة (الأعراف) أَبَانَ أَنَّ السَّحَرَةَ جَاءُوا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَالُوا لَهُ: أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ سَتَكُونُونَ عِنْدِي مِنَ الْمُقَرَّبِينَ الَّذِينَ أُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، وَالْبَيِّ مَطَالِبُهُمْ.

وجاء تأكيد ما جاء في هذا النصّ مع تغييرٍ يسيرٍ في بعض العبارة يتضمّن إضافةً بيانية، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ عبارة [فَلَمَّا]، أي: فَحِينَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا لَهُ... فَذَلَّ هذا البيان على أَنَّ السَّحَرَةَ طَالَبُوا فِرْعَوْنَ بِالْأَجْرِ مُنْذُ وَقْتِ وصولهم إليه، وإخباره إيّاهم بالمهمّة التي يُكَلِّفُهُمْ إيّاها.

وأضاف أيضاً كَلِمَةً «إِذَا»، أي: وَإِنَّكُمْ حِينَئِذٍ سَتَكُونُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيَّ، الَّذِينَ يَحْظُونَ بِإِنْعَامَاتِي.

تدبر بعض الفقرات:

● ﴿فَجَمَعَ جُنُودَ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ، لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ زَمَانًا وَمَكَانًا، فَصَارَ مَعْلُومًا لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُ الْمُبَارَاةِ.

أي: فَجَمَعَ جُنُودَ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ، لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ زَمَانًا وَمَكَانًا، فَصَارَ مَعْلُومًا لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُ الْمُبَارَاةِ.

[لِمِيقَاتٍ]: اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ، وَفِي الْعِبَارَةِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: لِحُضُورِ الْمُبَارَاةِ فِي مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ.

الميعات: الوقت المَعَيَّنُ لِفِعْلٍ ما. والموعِدُ الذي جُعِلَ لَهُ وَقْتُ، والمَوْضِعُ الَّذِي جُعِلَ لشيءٍ يُفَعَّلُ عِنْدَهُ.

• ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: أي: وقال مُذِيعُ نَبَأِ المباراة على سبيل العرض لا الإلزام: هَلْ أَنْتُمْ مجتمعون؟ وفي هذا العرض تَرْغِيبٌ في الحضور، فالاستفهام في العبارة استفهامٌ يُرَادُ به العَرَضُ الترغيبِيّ.

• ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ (١٠):

أي: رَاجِينَ أَنْ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ، فَتَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ السَّحَرُ، وَنَعْمَلْ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ، إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ في المباراة بينهم وبين موسى الَّذِي يَقُولُ: إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ مِنْ آيَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِسْلَامِ لَهُ، هُوَ وَأَخُوهُ هَارُونَ.



تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه)
المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السلام

الفقرة الثالثة

الآيات من (٦١ - ٧٦)

قال الله عز وجل:

﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (٦١) ﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمَ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسَجِرُنَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنَى﴾ (٦٣) ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (٦٤) ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (٦٥) ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ﴾

مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا سَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ
 ءَامَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
 وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَعَلَّكُمْ بَيْنَنَا عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾
 قَالُوا لَنْ نُؤْذِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا
 تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ
 السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا
 وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾
 جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

القراءات:

٦١ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، ورويس، وخلف: [فَيُسْحِتْكُمْ] من فعل «أَسَحَتِ الشَّيْءُ» أي: اسْتَأْصَلَهُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ أَثَرًا.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَيُسْحِتْكُمْ] من فعل: «سَحَتِ الشَّيْءُ» أي: اسْتَأْصَلَهُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ أَثَرًا.

فالقراءتان متكافئتان لغة.

٦٣ • قرأ ابن كثير: [إِنْ هَذَا] بتشديد النون المكسورة مع المد المشبع. وقرأها أبو عمرو: [إِنْ هَٰذِينَ]. وقرأها حفص: [إِنْ هَذَا]. وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنْ هَذَا].

«إِنْ» في قراءتي: ابن كثير، وحفص، هي المخففة من الثقيلة، وهذه يجوز إعمالها، ويجوز إهمالها، والأزجح في اللغة إهمالها، كما في هاتين القراءتين.

و«إِنَّ» في قراءة أبي عمرو جاءت ثقيلةً عاملةً بحسب الأصل.

وأما قراءة باقي القراء العشرة: [إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ] فأحسنُ توجيه لها أنها جاءت على لغة من يجعلون المثنى كالمقصور، يُرْفَعُ وَيُنْصَبُ وَيُجَرُّ بالألف، وهي لغة عَدَدٍ من قبائل العرب، فحركات الإعراب تكون مُقَدَّرَةً غَيْرَ ظاهرة.

وأما تشديد النون في قراءة ابن كثير فقد ذكر النحويون لها عدّة توجيهات متكلّفات، وأرى أَنَّ النون الثانية أضيفت للتأكيد، فصارت النون المشدّدة شبيهةً في تأكيدها لِنُونِ التوكيد الثقيلة في نحو: «لَتُنْصَرَانَّ - لَتُسْعَيَانَّ - لَتُرْمَيَانَّ» ومعلومٌ أَنَّ الزيادات التوكيدية في اللسان العربي كثيرة. والشبهة هنا واضح بين: «إِنَّ هَذَا» وبين «لَتُنْصَرَانَّ» في إرادة التوكيد.

وهذه القراءات من التفنّن في التعبير، ومن مراعاة بعض اللغات العربية.

٦٤ • قرأ أبو عمرو: [فَأَجْمَعُوا] من فعل: «جَمَعَ يَجْمَعُ» يقال لغة: جَمَعَ المتفرّق، أي: ضمّ بعضه إلى بعض.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَأَجْمِعُوا] من فعل: «أَجْمَعَ يُجْمَعُ» يقال لغة: أجمع الأمر، أي: أحكمه وجمع متفرّقه.

ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفنّن في التعبير.

٦٦ • قرأ ابن ذكوان وروح: [تُخَيِّلُ] بالتاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يُخَيِّلُ] بالياء.

القراءتان وجهان جائزان متكافئان في اللسان العربي.

٦٩ • قرأ البزّي في الوصل [تَلْقَفُ] بتشديد التاء، وفتح الـام وتشديد القاف المفتوحة، وبالجزم.

- وقرأ ابن ذَكْوَان: [تَلَقَّفُ] بفتح التاء واللام وتشديد القاف المفتوحة ورفع الفعل، دون ملاحظة أنه جواب الطلب، وهو جائز عند النحاة.

- وقرأ حفص: [تَلَقَّفُ] بإسكان اللام، وتخفيف القاف، وبجزم الفعل.

- وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلَقَّفُ] بفتح اللام، وتشديد القاف المفتوحة، وبجزم الفعل.

والجزم هو على أنه جواب: [وَأَلْقِ].

وفي هذه القراءات تفنن في التعبير، وبين تخفيف القاف وتشديدها تكاملاً في الأداء البياني، يدلُّ على أنَّ الحيَّة بدأت أولاً تتَلَقَّفُ بشدَّة، حتى إذا لم يَبْقَ إلَّا القليل من الجبال والعصي خَفَفَتْ من شدتها، فأَخَذَتْ تَلَقَّفُ.

٦٩ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [كَيْدُ سِخْرِ].

وقراها باقي القراء العشرة: [كَيْدُ سَاحِرٍ].

ومؤدَّى القراءتين واحدٌ، وهما من قبيل التفنن في التعبير.

٧٢ • قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر: [نُؤْثِرُكَ] بإبدال الهمزة واواً.

وكذلك حمزة في الوقف، وقرأها باقي القراء العشرة [نُؤْثِرُكَ] بالهمزة الساكنة المحققة.

وهي وجوه من الأداء في السنة بعض القبائل العربية، أنزل بها القرآن المجيد.

٧٥ • قرأ السوسي: [وَمَنْ يَأْتِيهِ] بإسكان الهاء.

وقراها رُوَيْسٌ، وقالون بخُلْفٍ عنه: [وَمَنْ يَأْتِهِ] بكسر هاء الضمير من غير صلة.

وقراها باقي القراء العشرة: [وَمَنْ يَأْتِهِ] بكسر الهاء مع الصلة.
وهي وجوهٌ عربيةٌ في الأداء، نزل القرآن بها.

تمهيد:

هذه الفقرة من الدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام، تحكي لقطات من فصل المباراة التي جرت بينه وبين سَحَرَةِ فرعون، وانتصار آيته على سِحْرِهِمْ، في حشدٍ جامع عظيم من الشعب المصري، ومن ملكه فرعون وملئيه وجُنْدِهِ، في يوم الزينة، وفي المكان الذي يقيمون فيه عيدهم عادةً، كما عيّن لهم موسى عليه السلام، بطلبٍ من فرعون، كما سبق بيانه قريباً.

وفيها بيان أنّ انتصار موسى بآيته قد جعل السحرة يخرون ساجدين، ويُعلنون إيمانهم برَبِّ العالمين، ربّ موسى وهارون، الأمر الذي أغضب فرعونَ أشدَّ الغضب، فهددهم بأنّه سوف يُقَطِّعُ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وبأنّ يُصلِّبهم في جذوع النخل إذا أصرُّوا على موقفهم ولم يتراجعوا.

فلَمْ يَعْبا السحرة بتهديداته، بل أصرُّوا على موقفهم بإيمانٍ صحيح صادق، وأعلنوا إيمانهم بشجاعةٍ نادرة، وقالوا له: أقض ما أنت قاضٍ، إنّما تُقْضِي هذه الحياة الدنيا.

وتحوّل السحرة من أدواتٍ قوّةٍ لفرعون ومذهبيه الديني، إلى دعاة إلى دين الله الحقّ، إذ رأوا من البيّنات الربّانيّة ما أذهشهم، وجعلهم على يقين كاملٍ بأنّ ما جاء به موسى وهارون حقٌّ لا ريبَ فيه.

وقد كانت تفصيلات دعوة موسى وهارون الإيمانية قد بلغتْهُمْ مِنْ قَبْلُ، إِذْ كَانَا يَنْشُرَانِهَا بَيْنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَبَيْنَ الْمَصْرِيِّينَ، وَكَانَ الْمَصْرِيُّونَ يَتَنَاقَلُونَهَا عَنْهُمَا، دُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَكَانَتْ هَذِهِ التَّفْصِيلَاتُ الْإِيمَانِيَّةُ مُسْتَقَرَّةً فِي مَخَازِنِ ذَاكِرَاتِ السَّحَرَةِ، فَلَمَّا رَأَوْا الْبُرْهَانَ الْعَظِيمَ، بِابْتِلَاعِ عَصَا مُوسَى الَّتِي انْقَلَبَتْ حَيَّةً حَقِيقَةً كُلَّ حَبَالِهِمْ وَعَصِيَّتِهِمُ السَّحَرِيَّةَ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ، وَرَأَوْا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْبَلَ إِلَى الْحَيَّةِ الْعَظِيمَةِ، فَتَنَّاوَلَهَا بِيَدِهِ فَعَادَتْ عَصَاً كَمَا كَانَتْ، وَلَيْسَ فِي سَاحَةِ الْمُبَارَاتِ مِنْ أَدَوَاتِ سِحْرٍ شَيْءٌ، تَبْقُظُ فِيهِمْ فَطَرُهُمُ الْإِيمَانِيَّةُ، وَخَافُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمَعْجَلِ وَالْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، تَحَوَّلُوا إِلَى دُعَاةٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

وَرَبَّمَا تَقَدَّمَ كَبِيرُهُمْ أَوْ بَعْضُ كُثَرَائِهِمْ يَدْعُونَ فِرْعَوْنَ بِالنِّيَابَةِ عَنِ السَّحَرَةِ جَمِيعاً، إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ هَارُونَ وَمُوسَى، وَأَنْذَرُوهُ بِعَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ الْمَجْرَمِينَ بِالْحَرِيقِ، وَأَظْمَعُوهُ بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي جَنَاتِ عَدْنٍ إِنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، لِأَنَّ هَذَا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ هُوَ ثَوَابُ كُلِّ مَنْ يَأْتِي رَبَّهُ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ صَالِحاً، وَثَوَابُ كُلِّ مَنْ تَزَكَّى، فَطَهَّرَ نَفْسَهُ مِنْ أَرْجَاسِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَنَمَّاهَا بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالصَّالِحَاتِ.

التدبر التحليلي:

قال الله عز وجل:

﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ۖ﴾ ﴿١١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿١٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿١٤﴾ ۖ

مقدمة:

ما جاء في هذه الآيات الأربع قد كان قَبْلَ بَدْءِ المباراة، وفي اليَوْمِ الذي جَرَتْ فيه.

وَيُظْهِرُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ داخلَ المدينة في صباح اليوم، قُبَيْلَ الخروج إلى مكان عيدهم القوميَّ المعَيَّن لإجراء المباراة فيه، وفي يوم هذا العيد، بدليل أَنَّهُ بَعْدَ انتهاء المباراة، وانتصار آية موسى عليه السلام على سِحْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ، وإيمان السَّحَرَةِ برَبِّ موسى وهارون، وسُجُودِهِمْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ والحَشْدِ المصريِّ الكثير، وإعلانِهِمْ إيمانَهُمْ، قال فرعون لهم كما جاء في نصِّ سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَايَتُهُمْ بِى قَبْلَ اَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ اِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَّرْتُمُوهُ فِى الْمَدِيْنَةِ لِتُخْرِجُوْا مِنْهَا اَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ۝١٧﴾.

ومثل هذا لَا يَقُولُهُ فِرْعَوْنُ إِلَّا إِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمٌ بِذهابِ موسى عليه السَّلَام إلى المكانِ الذي أُعِدَّ في المدينة نُزْلاً لِلْسَّحَرَةِ المَجْلُوبِيْنَ من المدائن المصرية، صَبَاحَ يومِ المباراة، وَأَنَّهُ اجْتَمَعَ بِالسَّحَرَةِ وَحَادَتْهُمْ.

فَدَلَّ هَٰذَا عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لَهُمْ فِي هَٰذَا اللِّقَاءِ كَلَاماً دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ۝١٨﴾.

﴿وَيَلَكُمْ﴾: أي: عذاباً شديداً شاقاً لَكُمْ بِسَبَبِ مَا تُعِدُّونَ أَنْفُسَكُمْ لَهُ، مِمَّا تَقْتُلُونَ بِهِ عَلَى اللَّهِ.

أُجْرِيَتْ كلمة «وَيْل» هُنَا مجرئُ المصادر المفردة، بسبب إضافتها، فالنَّصْبُ فيها هو على تقدير: يُعَذِّبُكُمُ اللهُ عَذَاباً شديداً.

«وَيْلٌ»: كلمة عذاب، تأتي في التحذير من عذاب شديد، وتأتي في الدُّعاء بالعذاب الشديد. وتأتي أيضاً بمعنى الحُزن، ومنه قول المتفجّع على نفسه، أو على مَحْبُوبٍ له: «وَيْلِي - وَيْلَكَ - وَيْلَهُ».

﴿لَا تَقْتَرُوا﴾: الافتراء: اختلاق الكذب عَنْ عَمْدٍ، وَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ عَمَلًا تَضْلِيلِيًّا بَاطِلًا، قَدْ يَتَّخِذُهُ السَّحَرَةُ وَسِيلَةً لَجَعْلِ الْبَاطِلِ حَقًّا، وَجَعَلَ الْحَقَّ بَاطِلًا، فِي تَصَوُّرِ النَّاسِ الْمَخْدُوعِينَ بِهِ، وَقَدْ يَتَّخِذُونَهُ وَسِيلَةً لِلْإِقْنَاعِ بِمَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَالْإِقْنَاعِ بِأَنَّ دِينَ اللَّهِ الْحَقُّ بَاطِلٌ، كَانَ مِنْ قَبِيلِ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ بِكَاذِبِ عَمَلِيَّةٍ، إِذْ هِيَ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ تَكُونُ مُقْتَرَنَةً بِادِّعَاءِ بَاطِلَاتٍ، مُصَرِّحٍ بِهَا فِي اللَّفْظِ، أَوْ غَيْرُ مُصَرِّحٍ بِهَا.

﴿كَذِبًا﴾: نائب مفعول مُطْلَقٌ، إِذْ جَاءَ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي عِبَارَةٍ: [لَا تَقْتَرُوا]، فَالْمَعْنَى: لَا تَكْذِبُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا مُخْتَلَقًا.

﴿فَيَسْتَأْصِلْكُمْ﴾: وفي القراءة الأخرى: [فَيَسْحَتُكُمْ]، أَي: فَيَسْتَأْصِلْكُمْ بِالْعَذَابِ، فَلَا يُبْقِي مِنْكُمْ أَثَرًا مَا.

• ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾: أَي: وَقَدْ خَسِرَ، وَحُرِمَ، وَذَهَبَتْ أَعْمَالُهُ الَّتِي عَمِلَهَا لِتَحْقِيقِ مُرَادِهِ سُدَى، كُلُّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ.

فعل «خاب» يأتي في اللغة بمعنى: «خَسِرَ - حُرِمَ - لَمْ يَنْلُ مَا طَلَبَ - ذَهَبَتْ أَعْمَالُهُ الَّتِي عَمِلَهَا سُدَى ضائعة».

فالْمَعْنَى: قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسَّحَرَةِ، فِي لِقَائِهِ لَهُمْ قُبِيلُ الْمُبَارَاةِ: إِنِّي أَحْذَرُكُمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا افْتَرَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ، فَلَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَيَسْتَأْصِلْكُمْ بِعَذَابٍ يُعَاقِبُكُمْ بِهِ عَلَى افْتِرَائِكُمْ عَلَيْهِ. وَقَالَ لَهُمْ: اعْلَمُوا أَنَّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ السَّابِقَةِ وَالِدَائِمَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، أَنَّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ الْخِيْبَةَ، بِالْحَرَمَانِ. وَالْخُسْرَانِ، وَبِذَهَابِ

أعماله التي عملها سُدىّ ضائعة، مَهْمَا كانت شاقّة ومضنيّة، وذات نفقاتٍ كثيراتٍ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي: فتجاذبوا بطريقة الانتزاع بتكلّفٍ وعُنفٍ مجادلة، الكلام المتعلّق بالسّحر، لموسى وما لديه من سحرٍ، أو آية ربّانيّة.

وفي هذا التجاذب التنازعيّ معنى مخالفة بعضهم لبعضٍ في الرأي، مع شيءٍ من المخاصمة:

• فقال بعضهم: إنّ ما جاء به موسى ليس من نوع السّحر، وسيُغلبُكم، وتفتضحون، وتُسْقَطُونَ من أعين الناس صاغرين، فجمهور المشاهدين كثيرون جدّاً.

• وقال الفريق الآخر: بل ما جاء به موسى هو من نوع السّحر، وإنّا بكثرتنا سنغلبه مَهْمَا كان عمله السّحريّ قويّاً.

وبعد التّنازع في الرّأي تغلب الرّأي الثاني على أصحاب الرّأي الأول، واعتمدت إقناعاتهم على الإطماع بالأجر الكبير الذي سينالونه من فرعون، إذا كانوا هم الغالبين، وعلى الإقناع بترديد مقالة فرعون، التي ردّدها ملؤه من بعده، ثم شاعت بأسلوبٍ دعائيّ بين جمهور المصريين، بأنّ موسى وهارون يريدان بسحرهما الاستيلاء على الحكم، وطرد كل أنصار الملك من مصر، بعد قتله أو إلجائه إلى الفرار، والاستيلاء على ممتلكاتهم.

• ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾: «النّجوى»: الإسرار في المحادثة، وجاء فعل: «أسروا» للدّلالة على شدّة إخفاء تناجيهم.

أي: فتنازع السحرة الكلامَ بَيْنَهُمْ بشأن ما أعدُّوه للقيام بمهمّة مباراة موسى عليه السّلام، بِسِرِّيَّةٍ بالغة، عَنْ مُوسَى وهارون، وعن غَيْرِهِمَا، لثلاثِ يَصِلَ أَمْرُ اختلافهم إلى فِرْعَوْنَ، فيتدارك الأمر، باستبعاد الذين يَرَوْنَ أَنَّ ما جاء به موسى لَيْسَ من نوع السّحر، بل هو آية رَبَّانِيَّة، أو بجعلهم هدفاً لِعِقابه.

وهذا الإسرار بالنجوى يؤكّد أَنَّهُمْ ما زالوا في المدينة، لم يخرجوا إلى مكان المباراة بعد، وَأَنَّهُمْ دَخَلُوا حِجْرَةَ خاصّة، وأغلقوا بابها، ومنعوا أي إنسانٍ من الدّخول عليهم وهم فيها، بِحُجَّةٍ أَنَّهُمْ يتشاورُونَ حولِ الأعمالِ والحيلِ السّحريّة التي سيقومُونَ بها.

• ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَنَالَى﴾ (١٦٣):

دلّ هذا البيان الرّبّانيّ على أَنَّ أصحاب الرأي الثاني قد انتصروا في نهاية التنازع بَيْنَهُمْ، على الَّذِينَ كانوا يَرَوْنَ أَنَّ ما جاء به موسى آيَةٌ حَقِيقَةٌ من رَبِّهِ، وليس من قبيل السّحر، فاتَّفَقوا جميعاً في آخر الأمر على أَنَّ موسى وهارونَ ساحران، وَأَنَّهُمَا يُرِيدَانِ بِسِحْرِهِمَا الاستيلاء على مُلْكٍ مُّضَرٍّ بجيش يُعدُّونه من الإسرائيليين.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ﴾: «إِنْ» في هذه العبارة، هي المخفّفة من الثقيلة «إِنَّ»، وهي هنا مُهمّلةٌ غيرُ عاملة، وما بَعْدَهَا مُبتدأٌ وخبر، و«اللام» في عبارة: [لِسَاحِرَانِ] هي اللّامُ المزحلّقةُ إلى الخبر، بسبب «إِنْ» وهي لام التأكيد التي تدخُلُ على المبتدأ، فالعبارة مؤكّدة بالمؤكدات: «إِنْ - الجُمْلَةُ الإسميّة - اللّامُ المزحلّقة».

﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾:

هذه هي العبارة التي قالها فِرْعَوْنُ لِمَلِكِهِ في قصره، بَعْدَ أَنْ شاهدَ آيَتِي العَصَا واليَدِ اللَّتَيْنِ أَجْرَاهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لموسى عليه السّلام.

فَرَدَّدَهَا مَلْؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَطَارَ الإِعْلَامُ بِهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى السَّحَرَةِ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمُ الْقُوَّةَ الْمَعْنَوِيَّةَ لِفِرْعَوْنَ وَحُكْمِهِ، وَلِمَذْهَبِهِ الْإِعْتِقَادِيِّ الدِّينِيِّ، الْقَائِمِ عَلَى الشَّرْكِ، وَتَرْيِيبِ وَتَأْلِيلِهِ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَمَّ مِنْ أَنْصَارِ الْمَلِكِ بِصُورَةٍ طَبِيعِيَّةٍ، فَيُلْحَقُهُمْ مَا يُلْحَقُ كُلَّ أَنْصَارِ الْمَلِكِ، إِذَا انْتَرَعَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ مُلْكَ مِصْرَ.

• ﴿...وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾:

«الطَّرِيقَةُ»: يُرَادُ بِهَا هُنَا الْمَذْهَبُ الدِّينِيُّ، وَالنِّظَامُ الْإِدَارِيُّ الْفِرْعَوْنِيَّانِ السَّائِدَانِ فِي مِصْرَ حِينَئِذٍ.

وهي في اللغة تطلق على: «السَّيْرَةُ - الْمَذْهَبُ - الْحَالُ - الْفِرْقَةُ».

﴿الْمُثْلَى﴾: أَي: «الْفُضْلَى» مُؤَنَّثٌ «أُمُثْلٌ» بِمَعْنَى «أَفْضَلُ» أَي: فَطَرِيقَتُكُمْ هِيَ الْمَفْضَلَةُ عَلَى سَائِرِ الطُّرُقِ دِينِيًّا، وَنِظَامًا إِدَارِيًّا.

وَالْبَاءُ فِي عِبَارَةِ: [بِطَرِيقَتِكُمْ] هِيَ لِلتَّعْدِيَّةِ، كَالتَّعْدِيَّةِ بِالْهَمْزَةِ، أَي: لِيُذْهِبَا مِنْ وَاقِعِ حَالِكُمْ وَوَاقِعِ حَالِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ الْمَذْهَبَ الْإِعْتِقَادِيَّ الدِّينِيَّ، وَالنِّظَامَ الْإِدَارِيَّ، الْفِرْعَوْنِيَّانِ، فَيُلْغِيَانِيَهُمَا مِنَ الْوُجُودِ، وَيُحْلَلْنَ مَحَلَّهُمَا مَذْهَبَهُمَا الدِّينِيَّ، وَنِظَامًا إِدَارِيًّا مُنْبَقًا عَنْهُ.

وَالتَّعْدِيَّةُ هُنَا نَظِيرُ التَّعْدِيَّةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ﴾ فِي الْآيَةِ (١٧) مِنْ سُورَةِ (البقرة)، وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ...﴾.

• ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾:

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾، أَي: فَأَحْكِمُوا أَمْرَكُمْ، وَأَعِدُّوا وَسَائِلَكُمْ، وَاجْمَعُوا الْمَتَفَرِّقَ مِنْ ذَلِكَ فِي نِظَامٍ عَامٍّ وَاحِدٍ، وَنَظِيرُهَا قِرَاءَةُ: «فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ».

«الكَيْد»: التدبير الخفيّ أو الظاهر، بحقّ أو بباطل، وفيه مَكْرُوهُ لِمَنْ دَبَّرَ ضِدَّهُ، وَيُطْلَقُ الكيد أيضاً في اللّغة على: «الحرب وإعداد وسائلها - الحيلة - كلّ تدبير يحقق لمدبّره النّصْرَ أو النّجاة».

﴿ثُمَّ أَثْنُوا صَفًّا﴾، أي: ثُمَّ بَعْدَ تَمَهُّلٍ، وَأَنَاةٍ، وإِتْقَانٍ وإِحْكَامٍ في الإِعداد، ودون تعجّلٍ جالبٍ للأخطاء، ائثّوا لمباراة موسى حالة كونكم صفاً واحداً غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ.

والمراد تنظيم العمل على خطّ مستقيم واحد بلا تفرّقٍ ولا اختلاف، وعلى خُطّةٍ عَمَلٍ لَا يُعَارِضُ فِيهَا بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ولا ينقصُ فيها بعضهم عَمَلَ بعض.

«الصّفّ»: هو في اللّغة القوم المصطفون المنتظمون كالسّطر المستقيم، ويُقالُ لُغَةً: «صَفّ القَوْمُ، يَصِفُّونَ، صَفًّا» أي: انتظموا في صَفّ واحدٍ.

• ﴿... وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾: ﴿١٦﴾

«قَدْ»: هنا من أدوات التحقيق والتوكيد، وهو حرف يختصّ بالأفعال.

«أَفْلَحَ»: أي: ظفر، وفازَ بما يريد.

﴿مَنْ اسْتَعْلَى﴾: أي: مَنْ كَانَ هو الغالب القاهر. يقال لغة: «اسْتَعْلَى فلانٌ على فلان»، أي: قهره وغلبه.

فالمعنى: وَنُحَقِّقُ ونُوَكِّدُ أَنَّ مَنْ كَانَ هو الغالب الْيَوْمَ في المباراة، ظفر وفاز بما يريد.

وانقَضَ مجلسهم الذي أَسْرُوا فيه النّجوى على هذا القرار الأخير، وأخذوا أدواتهم السّحريّة، وذهبوا إلى حيث يكون الاجتماع الحاشِدُ

الجامع، الذي كان يومَ الزينة، ودخلوا السَّاحَةَ المخصَّصة للمباراة بينهم وبين موسى وأخيه هارون عليهما السلام



قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه):

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۖ قَالَ بَلْ أَلْقَوُا فَإِذَا هُم بِجَاهٍ ۖ وَعَصِيَهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۖ﴾ (٦٥) ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۖ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾ (٦٦) ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ۖ﴾ (٦٧) ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۖ﴾ (٦٨) ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ ۖ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ۖ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۖ﴾ (٦٩) ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَاسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ (٧٠) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ﴾ (٧١):

وجاء حول هذا البيان الذي جاء في هذه الآيات من سورة (طه) نصَّانِ آخران، أحدهما في سورة (الأعراف)، والآخر في سورة (الشعراء).

• فالذي من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) هو قول الله عزَّ

وجلَّ فيها:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۖ﴾ (١١٥) ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۖ﴾ (١١٦) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُفُونَ ۖ﴾ (١١٧) ﴿فَلَمَّا لَبِثُوا لَحِقَ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾ (١١٨) ﴿فَعُلُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ۖ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ۖ﴾ (١١٩) ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ (١٢٠) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۖ﴾ (١٢١) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ﴾

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٢﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٣﴾
قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقِلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا نَنفَعُ مِنَّا إِلَّا أَتَ مَآمِنًا يَأْتِي رَبَّنَا بِمَا جَاءَنَا
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذَا بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَنَجِّنَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ .

• والذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) هو قول الله عز وجل فيها:

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُثْقَنُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَقُوا حِجَابَهُمْ وَعَصَبَتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾
قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
مُتَقِلُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ .

تمهيد:

هذه نصوص ثلاثة متكاملات الدلالات فيما بينها، وهي تتعلق بفصل إجراء المباراة بين آية موسى عليه السلام الربانية، وبين سحر سحره فرعون.

والتدبر التكاملي يتطلب من المتدبر أن يدرسها معاً دراسة تكاملية، ليجمع منها البيان الذي أراد الله عز وجل أن يبينه بشأن هذه المباراة، وما جرى فيها من أحداث، بدءاً ووسطاً، وختاماً.

وأستعين بالله الرب العزيز الحكيم الرحيم الوهاب، لاكتشاف التكامل فيما بينها، وفهم فقراتها فهماً سديداً، وتدوين ذلك، ليَعْلَمَ القارئ الدراك جانباً من جوانب إعجاز القرآن المجيد.

التدبر:

(١) قول الله عز وجل في سورة (طه):

• ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (٤٥):

(٢) وجاءت العبارة عَنْ هذه الفكرة في سورة (الأعراف) بقول الله

تعالى:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (١١٥):

[أَنْ تُلْقَى]: أي: أَنْ تَطْرَحَ في ساحةِ المِباراةِ ما عِنْدَكَ.

فَلَمْ يَأْتِ في عبارة الأعراف ذِكْرُ الْأَوَّلِيَّةِ في الإِلْقَاءِ، لِكِنَّهَا تُفْهَمُ ذَهْنًا مِنَ السَّبَاقِ وَالسِّيَاقِ، وَمِنْ كَوْنِهَا مِباراةً بَيْنَ فَرِيقَيْنِ حَوْلَ شَيْءٍ يُقَدِّمُهُ كُلُّ مِنْهُمَا.

ومع هذا فقد جاء التَّضْرِيحُ بِذِكْرِ الْأَوَّلِيَّةِ في سورة (طه) لثَلَا تكون العبارة مُكَرَّرَةً تَكَرُّراً تَطَابُقِيّاً، وَلِإِشْعَارِ أَهْلِ التَّدَبُّرِ أَنَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُفْهَمَ بِالْقِرَائِنِ، أَوْ بِاللَّوْازِمِ الذَّهْنِيَّةِ، مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ حَذْفُهُ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ الْمُبْنِيِّ عَلَى الْإِيجَازِ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ لَدَى تَدَبُّرِ النُّصُوصِ الرَّفِيعَةِ التَّوَقُّفُ عِنْدَ حُدُودِ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ الْمَنْطُوقَةِ، وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ حَذْفُهُ فِي نَصِّ سُورَةِ (الأعراف) الَّتِي نَزَلَتْ أَوَّلًا، وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَيْضًا التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ فِي نَصِّ سُورَةِ (طه) الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَهَا بِخَمْسِ سُورٍ.

فالمعنى بحسب عبارة سورة (طه): قَالَ السَّحَرَةُ بِلِسَانِ كَبِيرِهِمُ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُمْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُوسَى، اخْتَرْ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ:

• إِمَّا أَنْ تُلْقَى مَا عِنْدَكَ مِنْ عَمَلٍ لِلْمِباراةِ أَوَّلًا.

• وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عَمَلٍ.

وهذا تَخْيِيرٌ عَادِلٌ مِنْهُمْ، تَقْتَضِيهِ مِباراةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الْعَدْلِ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ.

والمعنى بحسب عبارة سورة (الأعراف) إِذَا صَرَّحْنَا بِالْمَطَوِيَّاتِ فِيهَا يَكُونُ مُشَابِهًا لِلْمَعْنَى الَّذِي فَهَمْنَاهُ مِنْ نَصِّ سُورَةِ (طه).



(١) قول الله عز وجل في سورة (طه):

• ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَخِزُّهُ إِلَى اللَّهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عز وجل:

• ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾:

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عز وجل فيها:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

النظرات التكاملية:

هذه العبارات الثلاث متكاملات الدالات:

• ففي عبارة سورة (الأعراف): ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾.

• وفي عبارة سورة (طه): ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾.

• وفي عبارة سورة (الشعراء): ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أما عبارة سورة (الأعراف) فقد جاءت موجزة جداً، ويفهم الذهن الدراك منها ما جاء في العبارتين الأخريتين.

وأما العبارة التي من سورة (طه) فقد جاء فيها التصريح بكلمة «بَلْ» مع الإيجاز في العبارة أيضاً.

وأما العبارة التي من سورة (الشعراء) فقد جاء فيها التصريح بما أفصله بأقواس كما يلي: قَالَ «لَهُمْ مُوسَى» أَلْقُوا «مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ».

هذه العبارة تَضْلُحُ مثلاً للمساواة، إذ هي مُساوية للمعاني المراد

التعبير عنها، لكنّ العبارتين الأولىين قد جاءتا مُوجَزَتَيْن، وإحداهما أكثر إيجازاً من الأخرى، وما جاء في سورة (الشعراء) يُمكنُ فَهْمُهُ بالتأمل الدقيق فيهما.

فعبارة [أَلْقُوا] يفهم منها بالتدبر الدقيق: بل ألقوا وأنا مستهين بما أنتم مُلْقُونَ. وكذلك عبارة [بَلْ أَلْقُوا].

[أَلْقُوا]: أي: اطرّحوا في ساحة المباراة ما عندكم من كَيْدٍ سِحْرِيٍّ أعددتُموهُ لها، فأنا متحديكم، وقابلُ تحديكم.

وقد طلب منهم أن يُلقُوا أولاً، لِيَتَسَنَّى له إبطال كيدهم كُلِّهِ بِسُرْعَةٍ مُذهِلَةٍ، واستغلَّ لهذا تخييرهم له.

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾﴾:

جاءت كلمة «مُوسَى» إظناً مُفيداً، لمراعاة رؤوس الآيات، ولتكميل الميزان اللَّفْظِي لِلآية.

وفي العبارة محذوف، تقديره: فَأَلْقُوا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ فإذا..

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَلْقُوا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

نظرات تكاملية:

التكامل في هذه العبارات الثلاث واضح، ويدلُّ التَّأْمُلُ على أنَّ

عبارة سُورَة (الشعراء) ذاتُ مَوْقعٍ أوَّل في الترتيب، ويأتي بعدها موقع عبارة سورة (الأعراف)، ويأتي بَعْدَهُمَا مَوْقع عبارة سورة (طه).

وجمعاً من هذه النصوص يكون المعنى كما يلي:

(من سورة الشعراء):

فطرح السَّحَرَة في ساحة المباراة أدواتهم السَّحَرِيَّة، حَبَّالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ، وَأَفْسَمُوا بقوةِ فرعون الإلهيَّة الغَالِيَّة لسائر القوى، قائلين بَعْدَ القسم جواباً له: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، وفي هذه العبارة تأكيدٌ بالمؤكِّدات: «إِنَّ - الجملة الإسميَّة - اللام المرحلة - ضمير الفصل».

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: بقوةِ فرعون الغالبة الماديَّة والمعنويَّة؛ إذ جعل فرعون نفسه إلهاً على شعبه. العِزَّة: هي القوة الغالبة.

(من سورة الأعراف)

فَلَمَّا أَلْقَوْا ما لَدَيْهِمْ من أَدْوَاتِ سِحْرِيَّةٍ وَأَجْرُوا أَعْمَالَهُمْ، سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ واستَرْهَبُوهُمْ بما أَرَوْهُمْ في خداعِ بَصَرِيٍّ، من ثَعَابِينَ تَتَحَرَّكُ وتَسْعَى في ساحةِ المباراة، بِسِحْرِ عَظِيمٍ جاءوا به.

﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: أَرَهَبُوهُمْ إِرْهَاباً قَوِيّاً، فالقُوَّةُ أَحَدُ معاني صيغة «اسْتَفْعَلَ»، والمعنى: أَوْقَعُوا الرَّهْبَةَ بقوة في نفوس المشاهدين

الرَّهْبَة: الخوف من مكروهٍ متوقَّع.

(من سورة طه):

فَلَمَّا أَلْقَوْا ما أَعْدَوْهُ للمباراة، إِذَا حَبَّالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ قَدْ أَثَرَتْ على عَيْنِي موسى الرسول حامل الآيَة الرِّبَّانِيَّة، بمقتضى بشريته، فَصَارَ يُحَيِّلُ إِلَيْهِ من سِحْرِهِمْ أَنَّهَا ثَعَابِينَ تَسْعَى.

فأَحَسَّ مُوسَى بخوفٍ ما في نَفْسِهِ أَنْ يَتَأَثَّرَ جمهور المشاهدين بهم،

فَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى مَا سَيَقْدَمُ مِنْ آيَةٍ رَبَّانِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، لِلتَّشَابَهِ فِي النَّظَرِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ خَطَرَ فِي بَالِهِ أَنْ عَصَاهُ الَّتِي سَتَحَوَّلُ حَيَّةً، سَتَبْتَلِعُ ابْتِلَاعاً حَقِيقِيّاً كُلَّ أَدْوَاتِ سِحْرِ السَّحَرَةِ، وَأَنَّهَا قَادِرَةٌ بِخَلْقِ اللَّهِ عَلَى ابْتِلَاعِ السَّحَرَةِ، وَابْتِلَاعِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِ، وَكُلِّ أَنْصَارِهِ، لَوْ شَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ.

﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ﴾: أي: يُضَنِّعُ فِي خَيَالِهِ صُورَ تَخْيِيلِيَّةٍ، وَطُيُوفٍ لَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْوَاقِعِ، بَلْ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى تَزْيِيفَاتِ السَّحَرَةِ بِخَدَاعٍ بَصَرِيٍّ، وَالشَّيْءِ الَّذِي صَنَعَهُ التَّخْيِيلُ هُوَ الْإِيهَامُ بِأَنَّ حَبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ نَعَابِينَ، وَأَنَّهَا تَسْعَى، مَعَ أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ مَا زَالَتْ حَبَالاً وَعِصِيّاً، لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ مِنْ حَقِيقَتِهَا.

«التَّخْيِيلُ»: هُوَ فِي اللُّغَةِ التَّلْيِيسُ، وَالتَّشْبِيهُ، وَالتَّأْثِيرُ عَلَى الْمَخَيَّلَةِ فِي الدِّمَاغِ، بِوَسَائِلِ خَدَاعِيَّةٍ، لَا تُغَيِّرُ مِنَ الْوَاقِعِ الْحَقِّ شَيْئاً، وَتَقْتَصِرُ عَلَى إِحْدَاثِ صُورٍ وَطُيُوفٍ كَوَاذِبٍ، لَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْوَاقِعِ، وَإِنَّمَا هِيَ تَأْثِيرَاتٌ سِحْرِيَّةٌ عَلَى الْأَعْيُنِ فِيمَا تُشَاهِدُ.

[تَسْعَى]: أي: تَمْشِي بِسُرْعَةٍ كَسُرْعَةٍ مِنْ يَعْذُو. السَّعْيُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ السَّرْعَةُ الزَّائِدَةُ فِي الْمَشْيِ بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ وَقُوَّةٍ، فَهُوَ بَيْنَ الْعَذْوِ، وَبَيْنَ الْمَشْيِ الْهَادِي الْمَتَرِّنَ مِنْ غَيْرِ إِسْرَاعٍ.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾: أي: فَأَحَسَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ، مِنْ أَنْ تَسَاوَى فِي نَظَرِ الْجَمَاهِيرِ الْمُحْتَشِدَةِ آيَتُهُ وَسِحْرُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ، أَحَسَّ بِهَذَا الْخَوْفِ بِسَبَبِ الْمَفَاجَأَةِ الَّتِي أَثَرَتْ عَلَى بَصَرِهِ، وَكَانَ عَارِضاً بِمَقْتَضَى طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بِالْعَوَارِضِ قَبْلَ الْمَحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ.

﴿خِيفَةً﴾: الْخِيفَةُ كَالْخَوْفِ، وَهِيَ مُصَدَّرٌ لِفِعْلِ «خَافَ، يَخَافُ»، خَوْفاً، وَمَخَافَةً، وَخِيفَةً.

الخوف: شعورٌ نفسيٌّ مؤلِّمٌ مُزعِجٌ، ويكون من توقُّعِ حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ، أو مرَّغوبٍ فيه.

﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾: وصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سِحْرَ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ بِأَنَّهُ سِحْرٌ عَظِيمٌ، لِدَقِّهِ وَسَائِلِهِمْ فِيهِ وَخَفَائِهَا، لَكِنَّ سِحْرَهُمْ لَمْ يَتَجَاوَزْ حُدُودَ خِدَاعِ الْأَبْصَارِ، وَلَمْ يَقْلِبْ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا أَدَوَاتٍ لِسِحْرِهِمْ، وَإِنَّمَا أَثَّرَ عَلَى النَفُوسِ، وَعَلَى إِذْرَاكَاتِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.



(١) قول الله عز وجل في سورة (طه):

﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ ﴿٦٨﴾ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يَفْلُحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ۖ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۖ ﴿٧٠﴾﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عز وجل فيها:

• ﴿وَأَرْجِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ ﴿١٧٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ﴿١٧٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ۖ ﴿١٧٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ۖ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿١٨١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۖ ﴿١٨٢﴾﴾:

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عز وجل فيها:

• ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ۖ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۖ ﴿٤٨﴾﴾.

نظرات تكاملية:

هذه نصوص ثلاثة متكاملات الدلالات فيما بينها، مع تكرار بعض العبارات التي لا بُدَّ من تكرارها، لإحكام الرِّبْطِ التَّكَامُلِيِّ بَيْنَ الْفَقَرَاتِ، بشأن الموضوع الوارد الحديث عنه في كلِّ سورة من السُّورِ الثلاثة.

وَيَذُلُّ التَّائِمُلُ مع إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي تَكَاثُلِهَا عَلَى مَا يَلِي:

(من سورة طه):

• ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٦٨): أي: قُلْنَا لَهُ بِوَسَايَةِ رَسُولِ الْوَحْيِ: لَا تَخَفْ مِنْ مُسَاوَاةِ أَعْمَالِهِم السُّحْرِيَّةِ فِي الْمَظْهَرِ، لَا يَتَنَا الْبُرْهَانِيَّةُ، فَإِتْنَانَا كُبْرَى سَتُبْطِلُ كُلَّ مَا صَنَعُوا، لِأَنَّ مَا صَنَعُوهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، إِذْ هُوَ إِيْهَامٌ وَخَدَاعٌ لِلْأَعْيُنِ.

من سورة (الأعراف):

• ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ...﴾ (١٧٧): أي: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَطْرَحْ عَصَاكَ فِي سَاحَةِ الْمُبَارَاةِ، وَدَلَّتْ عِبَارَةُ [أَوْحَيْنَا] هُنَا عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه): ﴿قُلْنَا﴾ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَدْ كَانَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ.

من سورة (طه):

• ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (٦٩).

جَاءَتْ فِكْرَةُ الْإِلْقَاءِ هُنَا تَكَرَّاراً لِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأعراف) لئَلَّا يَكُونَ فِي نَصِّ سُورَةِ (طه) فَجْوَةٌ فِكْرِيَّةً، وَلئَلَّا يَكُونَ تَكَرَّاراً تَطَابُقِيّاً اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ التَّغْيِيرَ فِي التَّعْبِيرِ، مَعَ تَكْمِيلِ فِي الْبَيَانِ.

من سورة (الشعراء):

• ﴿فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُونَ﴾ (١٥): أي: فَانْقَلَبَتْ عَصَاهُ حَيَّةً عَظِيمَةً، وَفَاجَأَتِ الْمُشَاهِدِينَ بِأَنَّهَا شَرَعَتْ تَبْتَلِعُ ابْتِلَاعاً حَقِيقِيّاً تُعَابِنُ السَّحْرَةَ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَا زَالَتْ جِبَالاً وَعِصِيّاً.

وَاجْتَهَدَ السَّحْرَةَ اجْتِهَاداً بَالِغاً لِلْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا مَوْجُودَةً فِي سَاحَةِ الْمُبَارَاةِ، وَمَنْعَ حَيَّةِ مُوسَى مِنْ ابْتِلَاعِهَا فَلَمْ يُفْلِحُوا، وَقَدْ كَانَ هَذَا

الاجتهاد مرافقاً لا بَتَلَاعِ حَيَّةِ مُوسَى الَّتِي كَانَتْ عَصاً حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ،
بدلالةِ الْفِعْلِ المضارع في عبارة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: وهم ما زَالُوا
يُجَدِّدُونَ أَعْمَالَهُمْ السَّحَرِيَّةَ الْكُذَابِ، الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى كَذِبِ خَدَاعِي
لِلْأَغْنِي، وليس لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْوَاقِعِ.

من سورة (الأعراف):

• ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾
فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٧٧﴾:

جاءت عبارة: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ هنا تكريراً لما جاء في
سورة (الشعراء) لتكميلها بما جاء في الأعراف بَعْدَهَا، ولولا هذا التكرير
لكان في نص سورة (الأعراف) فَجْوةٌ من الصَّغْبِ مَلْؤُهَا بهذه العبارة، ولا
سيما أن سورة (الأعراف) قد نزلت قبل سورة (الشعراء) بِسَبْعِ سُورٍ.

﴿فَغُلِبُوا هُنَاكَ﴾: أي: فَغُلِبُوا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي جَرَتْ فِيهِ
الْمُبَارَاةُ.

﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾: أي: وَانْقَلَبُوا انْقِلَاباً مَعْنَوِيّاً مِنْ مَكَانِهِم الْعَالِي
الَّذِي كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ فِيهِ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ أَذْلَاءَ، يَشْعُرُونَ بِصِغَرِ مَكَانَتِهِمْ،
وَضَّالَّةِ قِيَمَةِ نَفْسِهِمْ، وَبُظْلَانِ طَرِيقَتِهِمْ، أَمَامَ عِظَمَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي
أَجْرَاهُ اللَّهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا لا يقتصر على السَّحَرَةِ، بل يمتدُّ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَمَلَئِهِ، وَجُنُودِهِ،
وَأَنْصَارِهِ فِي الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ.

الصَّاعِرُ: هو فِي اللُّغَةِ الرَّاضِي بِالذُّلِّ وَالضَّعَةِ، يُقَالُ لُغَةً: «صَغُرَ،
يَصْغُرُ، صَغَاراً، فَهُوَ صَاغِرٌ» أَي: رَضِيَ بِالذُّلِّ وَالضَّعَةِ.

وَالصَّاعِرُ: الْوَضِيعُ الذَّلِيلُ الْحَقِيرُ، ذُو الْقِيَمَةِ الضَّئِيلَةِ، أَوِ الَّذِي لَا
قِيَمَةَ لَهُ.

من سورة (طه):

• ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿٧٠﴾ :

قُدِّمَ هَارُونُ هُنَا، مَعَ أَفْضَلِيَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ، لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ، فِي سَوَابِقِ هَذِهِ الْآيَةِ وَلِوَاجِحِهَا.

﴿فَأُلْقِيَ﴾: عِبَارَةٌ فِيهَا عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: فَأُلْقِيَ مُوسَى عَصَاهُ، فَانْقَلَبَتْ حَيَّةً حَقِيقِيَّةً عَظِيمَةً تَسْعَى بِسُرْعَةٍ مُخِيفَةٍ فِي سَاحَةِ الْمُبَارَاةِ، وَأَخَذَتْ تَبْتَلِعُ بِسُرْعَةٍ مَا صَنَعَ السَّحَرَةُ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا.

قُدِّمَتْ فِي التَّرْتِيبِ هُنَا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه) مُرَاعَاةً لِحَرْفِ الْعَطْفِ «الفاء» فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، إِذِ الْفَاءُ تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ.

من سورة (الشعراء):

• ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ .

فَإُضْأَفَ هَذَا النَّصَّ عَلَى نَصِّ سُورَةِ (طه) عِبَارَةً: [ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ].

من سورة (الأعراف):

• ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ :

تَرَجَّحَ لَدَيَّ تَأْخِيرُ هَذَا النَّصِّ فِي التَّرْتِيبِ، عَنِ النَّصِّينِ السَّابِقَيْنِ، لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ بِالْوَاوِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْجَمْعِ، لَا بِالْفَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ.

جَاءَ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ الثَّلَاثَةِ تَكَرُّرُ مَا كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ بَعْدَ انْتِصَارِ مُوسَى بِآيَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الْمُذْهِلَةِ، مَعَ بَعْضِ إِضَافَاتٍ فِي بَعْضِ الْعِبَارَاتِ، وَمَعَ تَغْيِيرٍ طَفِيفٍ فِيهَا، لِتَتَلَّامَ مَعَ سَوَابِقِهَا فِي سُورِهَا.

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا التَّكْرِيرِ تَوْكِيدُ انتصار الإيمان على الكُفْرِ، بِالْإِسْنَةِ وَأَعْمَالِ الْقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ فِي مِصْرَ، وَهُمْ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ، إِذْ أَقْنَعَتْهُمْ بِالْحَقِيقَةِ آيَةُ اللَّهِ الْبِرْهَانِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهَا مَعْجَزَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ خُدَاعاً لِلْأَعْيُنِ، بِخِلَافِ سِحْرِ السَّحَرَةِ، فَقَدْ كَانَ مَجْرَدَ تَخْيِيلٍ وَخُدَاعٍ لِلْأَعْيُنِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّحَرَةَ هُمْ أَغْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

تدبر مفردات وجمل هذه النصوص:

• [قُلْنَا لَا تَخَفْ]: هذا وحيّ جاء به أمين الوحي لموسى عليه السلام، وهو في موقف المباراة، تثبيتاً له وطمأننة عن النتيجة الظافرة الغالبة لسحر كل سحرة فرعون.

وجاء بنون المتكلم العظيم، إشعاراً له بأنّ الله يُطمئنُّه بعظمة ربوبيته.

[لَا تَخَفْ]: تكليف له بأن يتنّبّه، فيكفّ نفسه عن الخوف، ويصرف عن نفسه دواعيه، بالثقة التامة بربه الذي أعطاه آية العصا.

[إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى]: هذه الجملة تُعبّر عن قضاء الله وقدره في هذه القضية، خاطب الله عز وجل بها موسى عليه السلام.

أي: إِنَّكَ يَا مُوسَى سَتَكُونُ أَنْتَ الْأَكْثَرُ غُلُوباً فِي نَفُوسِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، الَّذِي حَضَرَ لِمَشَاهِدَةِ الْمُبَارَاةِ، وَفِي نَفُوسِ السَّحَرَةِ الَّذِينَ سَيَكُونُونَ صَاغِرِينَ مَغْلُوبِينَ، وَفِي نَفْسِ فِرْعَوْنَ الْمَعْتَزِّ بِمُلْكِهِ، وَالْمَدَّعِي أَنَّهُ إِلَهٌ لَشَعْبِهِ، وَجَاءَ تَوْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِـ (إِنَّ - وَالْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ - وَضَمِيرُ الْفَصْلِ) مِرَاعَاةً لِحَالَةِ مُوسَى النَّفْسِيَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ]: جاء في هذه العبارة التصريح بأنّ عصاه كانت في يمينه، فأمره الله بطرحها في ساحة المباراة، ليجري الله بها ما أجهز

بعد ذلك، بينما جاء الاكتفاء في النصّ الذي من سُورَةِ (الأعراف) بأمرِهِ بأنْ يُلقِي عصاه.

[تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا]: أي: تتحوَّل فوراً حيَّةً عظيمة، وتَبْلُغَ كُلَّ مَا صَنَعُوا مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيٍّ بحبالهم وعَصِيَّتِهِمْ.

فأذركَ مُوسَى عليه السَّلام التدبير الرَّبَّاني، وزال عَنْهُ كُلُّ أَثَرٍ للخوف.

[مَا صَنَعُوا]: أي: كُلُّ الأشياء المادِّيَّة الَّتِي صنعوها، وهي حبالُهُمْ وعَصِيَّتُهُمْ، وما طَلَوْها به من موادٍّ وعناصرٍ تجعلُها توهم بأنَّها ثعابين تَسْعَى.

[إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ]: وفي القراءة الأخرى: [كَيْدٌ سِحْرٍ]: «إِنَّمَا» أداة حصر وقصر، أي: ما صَنَعُوا بأعمالهم قلباً لحقائق الحبال والعصيِّ يجعلها ثعابينَ حقيقيَّة، ما صَنَعُوا فيها إِلَّا كَيْدًا سِحْرِيًّا تخيليًّا ضمن حُدُودِ إِرَاءَةِ الأعين، بإيهامها كذباً وافتراءً على الحقيقة أنَّها ثعابين حقيقيَّة، وهذا الكيد هو الَّذِي كَانَ يَصْنَعُهُ السَّحَرَةُ في الأشياء.

والقصر هنا قصر إضافي، وهو من قَصُر الموصوف على الصفة، أي: ما صَنَعُوا بالإضافة إلى أعمالِ مباراتهم إِلَّا عَمَلٌ سَاحِرٍ، وعملاً من نوع كَيْدِ السَّحَر.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾

الفَلَّاح: هو الظفر والنجاح والفوز بالمراد.

السَّاحِر: «ال» هنا للجنس، وتفيد التعميم على كُلِّ أفراد الجنس، أي: وَلَا يُفْلِحُ كُلُّ سَاحِرٍ.

حيث: هنا ظرف مكان، وهو مبنيٌّ على الضمِّ في محل نصب على أنه ظرف.

أي: ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ في مكانٍ ما يأتيه، وَيَعْمَلُ فيه أعماله السُّحْرِيَّةَ، إذ يجعله الله عزَّ وجلَّ في النتيجة خائباً خاسراً مُبْتَلًى بالمصائب والنكبات.

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَ سُجْدًا﴾: جاء فعلُ «أَلْقَى» مَبْنِيًّا لما لم يُسَمَّ فاعله، للدلالة على أنَّ سلطان آية الله بابتلاع كلِّ ما صنع السَّحرة، جعلَتْهُمْ بِتَلْقَائِهِ مَقْصُورِينَ على أن يَخْرُوا سُجْدًا لله ربِّ العالمين، مُجْرِي هذه الآية العظيمة لموسى عليه السلام.

والفاء في عبارة: [فَأَلْقَى] دليلٌ على أَنَّهُمْ خَرُّوا ساجدين، عَقِبَ ابتلاع عصا موسى الَّتِي انْقَلَبَتْ حَيَّةً كُلَّ ما صَنَعُوا، فلم يكن مِنْهُمْ تَلَكُّؤٌ ولا تَرْتِيثٌ، انْدِهَاشاً بِالْحَدَثِ، وَمُعْتَرِفِينَ بِالْخِيَةِ، وَأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ حَقًّا.

﴿سُجْدًا﴾: جمع «ساجدٍ» ويجمع هذا على «ساجدين» قياساً مطرِداً، وهو ما جاء في نَصِّي (الأعراف) و(الشعراء).

السُّجُود: هو في اللُّغَةِ يكون بإخْنَاءِ الظهر وتطائُمِهِ، وأقصاه يكون بوضع الجبهة على الأرض.

﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾: يحكي الله عزَّ وجلَّ بهذه العبارة إعلانهم إيمانهم بِرَبِّ موسى وهارون، وهو رَبِّ العالمين، لأنَّ موسى وهارونَ قد أبانا لفرعون وَلِمَلَكِهِ، ولكلِّ من دَعَوْهم من المصريين أَنَّ رَبَّهُما هو رَبُّ كلِّ العالمين، أي: رَبُّ كلِّ ما في الكون سوى الله عزَّ وجلَّ.

وجاء في نَصِّي: (الأعراف) و(الشعراء) التصريح بأنَّ السَّحرة أَعْلَنُوا إيمانهم بِرَبِّ العالمين، رَبِّ موسى وهارون.

وسبقَ بيان الحكمة في تقديم هارون على موسى في نصِّ سورة (طه)، وأنه قد كان مراعاةً للفاصلة، حتَّى تتلَّام مع فواصل الآيات قبلها وبعدها في السورة.



(١) قول الله عز وجل في سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأُزْجِلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَاصْلَيتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى
(٧٦) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ
إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٧) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٨)﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول)

بقول الله عز وجل فيها:

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُزْجِلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَاصْلَيتُكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ
رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُزْجِلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ
لَأَصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ
ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾:



هذه النصوص الثلاثة متكاملات الدلالات فيما بينها، فلننذكرها
لنكتشف التكامل الذي تشتمل عليه.

إن التأمل في هذه النصوص الثلاثة يكشف أنها تُعبر عن مواقف
ثلاثة، وقفها السحرة أمام فرعون، محاسباً ومؤنباً لهم على ما كان منهم
من إيمان بما جاء به موسى وهارون، ثم إسلام واستسلام لأوامر ونواهي

رَبِّهَما الَّتِي يُبَلِّغَانِها عَنْهُ، مع خُرُوجِهِم عن طاعته ومِلَّتِهِ والخضوع والخنوع
لِنِظامِ دولَّتِهِ الإداري، الَّذِي يُحَرِّمُ عَلَيْهِم اتِّخَاذَ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْمَلِكِ مِنْ كُلِّ
قِبْطِي.

وَيَذُلُّ التَّأْمُلُ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ الثَّلَاثَةِ عَلَى مَا يَلِي:

(أ) أَنَّ نَصَّ سُورَةِ (الأعراف) قَدْ جَاءَ مُعَبَّرًا عَنْ مَوْقِفِهِمِ الْأَوَّلِ أَمَامَ
فِرْعَوْنَ، مُحَاسِبًا وَمُؤَنِّبًا، وَمَتَوَعِّدًا بِشَرٍّ.

(ب) وَأَنَّ نَصَّ سُورَةِ (الشعراء) قَدْ جَاءَ مُعَبَّرًا عَنْ مَوْقِفِهِمِ الثَّانِي أَمَامَ
فِرْعَوْنَ، بَعْدَ أَنْ أَنْظَرَهُمْ، رَجَاءً أَنْ يَتُوبُوا، فَيَحْتَفِظَ بِهِمْ قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لِدِينِهِ،
وَلِنِظامِ دولَّتِهِ الإداري.

(ج) وَأَنَّ نَصَّ سُورَةِ (طه) قَدْ جَاءَ مُعَبَّرًا عَنْ مَوْقِفِهِمِ الثَّالِثِ الْآخِرِ
أَمَامَ فِرْعَوْنَ، بَعْدَ أَنْ أَنْظَرَهُمْ إِنْظَارًا ثَانِيًا، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا، وَيَرْجِعُوا
إِلَى الْخُضُوعِ وَالْخُنُوعِ لَهُ وَلِنِظامِ دولَّتِهِ.

التدبر التحليلي لهذه النصوص:

النص الذي من سورة (الأعراف):

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ﴾:

أي: قَدْ فَعَلْتُمْ كَبِيرَةً عَظِيمَةً فِي حَقِّ مَلِكِكُمْ وَدَوْلَتِكُمْ وَشَعْبِكُمْ الْقِبْطِي
عَلَيْكُمْ، إِذْ ءَمِنْتُمْ بِمُوسَى وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، قَبْلَ أَنْ أُمْنَحَكُمْ إِذْنًا
بِذَلِكَ، إِنَّهَا مِنْ كُبْرِيَّاتِ الْجَرَائِمِ فِي نِظامِ دَوْلَتِنَا لِشَعْبِنَا الْقِبْطِي، وَهَذِهِ
خِيَانَةٌ عَظْمَى لِلْمَلِكِ، وَلِلدُّسْتُورِ، وَلِلنِظامِ الْعَامِّ فِي الْبِلَادِ، وَهِيَ تَسْتَحِقُّ
أَشَدَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَنْتَهِي بِالمَوْتِ.

الإيمان: هو الاعتقاد الجازم في القلب، بقضية من القضايا القابلة
للتصديق وللتكذيب.

الإذن: هو الإعلام بإباحة العمل، والرخصة فيه.

وقد كان هذا قَبْلَ أَنْ يَثْبُتَ لَدَى فِرْعَوْنَ أَنَّ سَحَرَتَهُ أَسْلَمُوا لأوامر ونواهي رَبِّ موسى وهارون التي يُبَلِّغَانِها عنه، فاقصر على تأنيبهم ومحاسبتهم على إيمانهم الذي أَعْلَنُوهُ.

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْسَتْكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُورِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْصِيَنَّكُمْ أجمعين ﴿١٢٤﴾﴾:

لقد بَلَغَ فِرْعَوْنُ أَنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ قد مرَّ على السَّحرة في دار إقامتهم التي أقامهم فيها، إذ جَلَبَهُمْ من المدائن المصرية، وجمَعَهُمْ في دارٍ للتشاور والتعاون، استعداداً لإجراء المباراة بينهم وبين مُوسَى عليه السَّلام، إذ قام في ذَهِبِهِ أَنَّ ما جاء به مُوسَى هو نوعٌ من أنواع السحر.

وَبَلَغَ فِرْعَوْنُ أَنَّهُمْ ﴿أَسْرَوْا النَّجْوَى﴾ بَعْدَ مُرُورِ مُوسَى عليه السَّلام عليهم ومحدثهم صباح يوم المباراة.

فَتَوَهَّم أَنَّ مُوسَى أَقْنَعَهُمْ بِأَنَّهُمْ إذا انْحَاذُوا إِلَيْهِ في المباراة، فسيَجْعَلُهُمْ شُرَكَاءَهُ في مُلْكِ مصر، وُزَرَاءَهُ، وأَعوانَهُ، وَأَمْرِينَ نَاهِيَنَ بِسُلْطَانٍ نافذ، فقال لهم:

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُورِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.

وهذه هي الفكرة التي أَعْلَنَهَا؛ إذ قال لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ يومَ مجيء موسى الأول إليه، كما جاء في سورة (الشعراء):

﴿... إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ... ﴿٢٥﴾﴾.

المكر: هو في اللُّغة تَدْبِيرُ أَمْرٍ ما في خفاء، يَكُونُ في الشرِّ، ويَكُونُ في الخير، واللَّهُ خَيْرُ الماكِرِينَ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ السَّحَرَةُ قَدْ نَفَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ هَذِهِ التُّهْمَةَ، وَأَنَّهُمْ أَسْرَوْا النَجْوَى لِإِعْدَادِ خُطَطِهِمْ سِرًّا، حَتَّى لَا يَبْلُغَ مُوسَى شَيْءً مِنْ تَرْتِيبَاتِهِمْ، فَيُعِدُّ أَعْمَالاً سِحْرِيَّةً مُضَادَّةً لَهَا.

وكان فرعونُ حَرِيصاً على أَنْ يَسْتَبْقِيَ السَّحَرَةَ قُوَّةً مَعْنَوِيَّةً لِنِظَامِ حُكْمِهِ، وَقُوَّةً مَعْنَوِيَّةً لِمِلَّتِهِ، وَلَمَلَّةِ الْقِبْطِ السَّائِدَةِ فِي مِصْرَ حِينَئِذٍ، إِذْ اتَّخَذَ نَفْسَهُ فِيهَا إِلَهًا مُطَاعًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَبْعَدَ أَجَلَ مَا تَوَعَّدَهُمْ بِكَلَامِ دَلَّتْ عَلَيْهِ عِبَارَةٌ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: وَبَعْدَ إِمْهَالِكُمْ مُدَّةً يَكُونُ عِقَابِي فَوْرِيًّا إِذَا لَمْ تَتُوبُوا أَوْ لَمْ تَرْجِعُوا إِلَى مِلَّتِي وَطَاعَتِي.

كلمة «سوف» تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا لِلتَّأْجِيلِ الطَّوِيلِ، أَوْ لَمَّا هُوَ فِي حُكْمِهِ، بِخِلَافِ «السين» فَإِنَّهَا تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا لِلتَّأْجِيلِ الْقَصِيرِ، أَوْ لَمَّا هُوَ فِي حُكْمِهِ^(١).

وَعَرَضَهُ مِنْ هَذَا التَّأْجِيلِ الَّذِي فِيهِ فُسْحَةٌ مُطَوَّلَةٌ، أَنْ يَتَرَجَّعُوا وَيُغْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ، وَعَوَّدَتَهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، أَنْصَارًا وَقُوَّةً مَعْنَوِيَّةً لِفِرْعَوْنَ، وَلِدِينِهِ، وَلِنِظَامِ حُكْمِهِ الْإِدَارِيِّ.

وَجَاءَ تَوَعُّدُهُ بِعِبَارَةٍ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْصِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٧٤)، أَي: إِنْ لَمْ تَتُوبُوا وَتَرْجِعُوا إِلَى حَظِيرَتِي.

تَقْطِيعُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خَلْفٍ يَكُونُ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُمْنَى وَالرَّجْلِ الْيُسْرَى، أَوْ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُسْرَى وَالرَّجْلِ الْيُمْنَى، وَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّشْوِيهِ الْعِقَابِيِّ فِي الْأَعْضَاءِ أَخَفُّ ضَرَرًا مِنْ قَطْعِ الْيُمْنَى مِنْ كُلِّ مَنِهْمَا، أَوْ الْيُسْرَى مِنْ كُلِّ مَنِهْمَا، لِأَنَّ السَّالِمَةَ تُعِينُ الْمَقْطُوعَةَ مِنْ جِهَتِهَا.

وَزَادَ فِرْعَوْنَ فِي تَوَعُّدِهِ وَتَهْدِيدِهِ، فَأَعْلَنَ لِسَحَرَتِهِ أَنَّهُ سَيَتْرَكُهُمْ مُقْطَعِي الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خَلْفٍ زَمَنًا يُعَذَّبُونَ فِيهِ، ثُمَّ لَيُصَلِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ،

(١) هذا ما تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِقْرَاءِ النُّصُوصِ الْقَرَأَنِيَّةِ.

تَضْلِييًّا عَنِيفًا شَدِيدًا يَكُونُ بِهِ تَعْذِيبُهُمْ، وَمَوْتُهُمْ صَبْرًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ بِهِ التَّشْهِيرُ بِهِمْ، أَمَامَ الْغَادِيْنَ وَالرَّائِحِينَ مِنَ الشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ، لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِّكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ دِينِ الْمَلِكِ، وَنِظَامِ حُكْمِهِ.

الصَّلْبُ: شَدُّ أَطْرَافِ الْجِسْمِ، وَتَغْلِيْقُهُ عَلَى خَشَبَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِالصَّلِيبِ، وَتَكُونُ عَلَى شَكْلِ سَطَرٍ قَائِمٍ عَمُودِيٍّ، وَسَطَرٍ أَفْقِيٍّ يَوْضَعُ وَسْطُهُ عَلَى السَّطَرِ الْقَائِمِ، دُونَ رَأْسِهِ بِنَحْوِ الرُّبْعِ، فَيَكُونُ مِثْلَ رَأْسِ الْإِنْسَانِ وَذِرَاعَيْهِ فِي حَالَةِ كَوْنِهِمَا مَبْسُوطَتَيْنِ فِي امْتِدَادٍ أَفْقِيٍّ، وَكَوْنِ جِسْمِهِ مَتَدَلِّيًّا إِلَى الْأَسْفَلِ.

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الصَّلْبُ عَلَى سُوقِ شَجَرٍ ذَوَاتِ سُوقٍ مَرْتَفَعَةٍ عَالِيَةٍ، كَالنَّخْلِ وَالسَّرْوِ، وَنَحْوِهِمَا.

وَشَدُّ أَطْرَافِ جِسْمِ الْمَصْلُوبِ قَدْ يَكُونُ بِالْحِبَالِ، مُشْدُودَةً عَلَى الشَّيْءِ الْمَصْلُوبِ عَلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ بِضَرْبِ مَسَامِيرَ فِي أَطْرَافِ الْمَصْلُوبِ إِمْعَانًا فِي تَعْذِيبِهِ، وَإِذْخَالِهَا فِي الشَّيْءِ الْمَصْلُوبِ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يُمَكِّنُ حَمْلُ عِبَارَةٍ: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وَهُوَ مَا جَاءَ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (طه) أَي: مُثَبَّتِينَ بِمَسَامِيرَ دَاخِلَةٍ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ، أَي: فِي سُوقِهَا.

وَجَاءَ فِعْلُ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾ وَفِعْلُ: ﴿لَأَصْلِيَنَّكُمْ﴾ مُشَدَّدَيْنِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعَنْفِ فِي التَّعْذِيبِ. وَالْفِعْلَانِ جَوَابَانِ لِقِسْمِ مَنْوِيٍّ، وَاللَّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقِسْمِ.

• ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلَبُونَ﴾ (١٢٥): أَي: إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونَ.

يُقَالُ لُغَةً: «انْقَلَبَ»، أَي: رَجَعَ وَانْصَرَفَ.

وَفِي عِبَارَتِهِمْ هَذِهِ كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّ اللَّهَ سَيَشْمَلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ غَفْرَانًا وَإِسْعَادًا، إِذْ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، وَيُدْخِلُهُمْ فِي جَنَّتِهِ، فَيَمْنَحُهُمْ فِيهَا سَعَادَةً أَبَدِيَّةً خَالِدَةً.

• ﴿وَمَا نَقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ :

﴿وَمَا نَقِمُ مِنَّا﴾ : أي: وما تُنْكِرُ عَلَيْنَا وَمَا تَكْرَهُ مِنَّا. يقال لغة: «نَقَمَ الشَّيْءُ يَنْقِمُهُ، وَنَقِمَهُ يَنْقِمُهُ»، أي: أَنْكَرَهُ وَكَرِهَهُ.

والمعنى: أَنْتَ تَعْلَمُ يَا فِرْعَوْنَ أَنَّنَا لَمْ يَكُنْ مِنَّا مَكْرٌ فِي الْمَدِينَةِ مَعَ مُوسَى، وَإِنَّمَا أَنْكَرْتَ وَكَرِهْتَ مِنَّا أَنَّنَا آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، وَخَشِيتَ أَنْ يَكُونَ إِيمَانُنَا سَبَبًا فِي إِيمَانِ شَعْبِ مِصْرَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِسْلَامِهِمْ لَهُ، وَخُرُوجِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِمِلَّتِكَ، وَعَنْ نِظَامِ حُكْمِكَ.

وَبَعْدَ هَذَا أَعْلَنَ السَّحَرَةُ التَّجَاءَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ دَاعِينَ:

• ﴿... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ :

أَشْعَرُ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ فِي هَذَا الدُّعَاءِ بِأَنَّهُمْ مُصَمِّمُونَ عَلَى مَوْقِفِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَتَرَجَعُوا، وَأَنَّهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِتَحْمِلِ مَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ حَتَّى الْمَوْتِ، فَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ رَبَّهُمْ أَنْ يُصَبِّرَهُمْ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْ مَنَائِهِمْ تَوَفَّاهُمْ فِي آجَالِهِمْ مُسْلِمِينَ.

والمعنى: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تُفْرِغَ عَلَيْنَا إِنَاءً وَاسِعًا كَبِيرًا مَمْلُوءًا بِالصَّبْرِ، حَتَّى يُجَلِّلَنَا، فَتُصَبِّرَ عَلَيَّ عَذَابِ فِرْعَوْنَ.

وَرَبَّنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تَتَوَفَّانَا حَالَةَ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ لَكَ، مُسْتَسْلِمِينَ لِأَوَامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، وَمُطِيعِينَ لَكَ فِيهَا.

جاء في هذه العبارة استعاره «أَفْرِغْ عَلَيْنَا» للدلالة على معنى: أَنْزِلْ عَلَيْنَا. تشبيهاً لِلصَّبْرِ بِمَاءٍ بَارِدٍ يُطْفِئُ حَرَارَةَ التَّعْذِيبِ، فَلَا يَكُونُ مَعَهُ شُعُورٌ زَائِدٌ بِالْأَلَمِ، وَهَذَا الْمَاءُ الْبَارِدُ مَوْضُوعٌ فِي إِنَاءٍ وَاسِعٍ كَبِيرٍ مَالِيٍّ لَهُ، وَيَكُونُ أَنْزَالُهُ إِفْرَاقًا بِسُرْعَةٍ تَدْفَعُ حَرَارَةَ التَّعْذِيبِ بِسُرْعَةٍ، وَلَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقَةِ إِقْلَاقِ قَطَرَاتٍ فَقَطَرَاتٍ، أَوْ حَفْنَاتٍ فَحَفْنَاتٍ.

الإسلام: هو الاستسلامُ لله في أوامره ونواهيه، وطاعته فيها.

النص الذي من سورة (الشعراء):

• ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ لِّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَرِجْلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَنتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا صَبْرٌ لَّنَا إِلَىٰ رَيْبًا مُّقْلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾:

هذا النص يُعبّر عن الموقف الثاني الذي وقفه السحرة أمام فرعون بعد إيمانهم وإسلامهم.

وأذكرُ فرعونَ من كلامهم في اللقاء الأول، أنَّهم لم يكتفوا بالإيمان، بل أسلموا لما يُبلِّغهم موسى من أوامر ونواهي رب العالمين، وإسلامهم لها يستلزم عملهم بها، وتركهم للعمل بمقتضى دين فرعون، وبمقتضى نظام حكمه، فوضع في دماغه أنهم مؤمنون بموسى ومسلمون له.

وقد جاءت في هذا النص إضافة الأفكار التالية:

الفكرة الأولى: محاسبة وتأنيب فرعون للسحرة على إسلامهم لموسى بعد أن آمنوا به وبما جاء به عن ربه.

دلَّ على هذه الفكرة استخدام عبارة [لَهُ] بدلَ [بِهِ] التي جاءت في نص سورة (الأعراف) في عبارة: ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾، بينما جاءت في (الشعراء): ﴿ءَامَنْتُمْ لَمْ﴾.

وتحليل هذا أن فعل «آمنَ» يتعدى بحرف الجرّ «الباء» فيقال لغة: «آمنَ به» أي: اعتقده اعتقاداً قليلاً جازماً به.

أما ﴿ءَامَنْتُمْ لَمْ﴾ فهي على تضمين فعل: «آمنَ» معنى فعل: «أسلمَ»

فَعُدِّي تَعْدِيته، أي: آمَنْتُمْ به وَأَسْلَمْتُمْ له، والتقدير مع الإيجاز في التعبير يكون كما يلي: فَاْمَنْتُمْ بِهِ مُسْلِمِينَ له، فَأَعْنَتُ الجملة الواحدة بهذه التعدية عن جملتين، وهذا من روائع الإيجاز القرآني.

الفكرة الثانية: قول فرعون للسَّحَرَةِ عن موسى عليه السلام، ما دَلَّ عليه قولُ الله عزَّ وجلَّ حكايةً عنه: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرُكُمْ أَلَدَىٰ عَلَمِكُمْ التَّيْحَرُ﴾، أي: إِنَّ مُوسَىٰ هو كبير السَّحَرَةِ، وهو الذي علَّم جميع سَحَرَةَ مِصْرَ أَصُولَ السَّحْرِ وأعماله، لِيُعِدَّ نَفْسَهُ مُسْتَعِينًا بهم للاستيلاء على مُلْكِ مصر، ويجعل السَّحَرَةَ شركاءه في الحكم.

هذه مقالة افترائية قالها فرعون للسَّحَرَةِ على سبيل الاتِّهام الباطل، والتَّزْييف للواقع والحقيقة.

إِنَّ فرعون هو الذي أَمَرَ بجلب كلِّ السَّحَرَةِ من المدائن المصرية، ولم يَسْبِقْ لهم أَنْ التَّقُوا موسى عليه السَّلام، وفرعونُ يَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا بِأَنَّ مُوسَىٰ كان فارًّا من الحكم المصريّ، خوف أن يُقْتَلَ جزاء قَتْلِهِ الْقِبْطِيَّ خطأ، انتصاراً للإسرائيليين، وخطؤه كان بسبب أن قُوَّةً وَكَرْتَهُ أعظم من احتمال الإنسان العاديّ لها، وأنَّه كان أَيَّامَ فراره خارج حُدُود مصر كلّها، وفي أرض لا سلطان للحكم المصريّ عليها حينئذٍ، وَيَعْلَمُ فرعون أيضاً أن مُوسَىٰ عقب عودته إلى مصر مباشرةً، اسْتَأْذَنَ هو وأخوه هارون بأن يَدْخُلَا قصره لمقابلته، فأذن لَهُمَا، وجرى ما جرى، ومنذ ذلك الحين صار هو وأخوه محلًّا مراقبة عيون فرعون. وقد كان السَّحَرَةُ مُتَشَبِّهِينَ في المدائن المصرية قَبْلَ عَوْدَةِ مُوسَىٰ إِلَيْهَا، وكانوا هم القُوَّةُ المعنوية لِدِينِ فِرْعَوْنَ ونظام حُكْمِهِ الإداري.

فَعَلَىٰ آيَةٍ شُبْهَةِ بنى فرعونُ اتِّهامَ موسى واتِّهامَ سَحَرَتِهِ بأنَّه كبيرهم الَّذِي عَلَّمَهُمُ السَّحْرَ؟!.

هذا هو حال الحكّام والملوك الجبابرة الظلمة، يَـقْذِفُونَ الاتِّهَامَاتِ ضِدَّ خصومهم، أو مخالفين إراداتهم وأنظمتهم، وهم منها بُرءَاءُ بُرءَاءً واضحة جليّة، لِيُزَيِّنُوا لشُعوبهم أسباب التخلُّص منهم، وليُعَذِّبُوهم بناءً على تحقُّق اتِّهامهم بها كذباً وتزويراً.

ومن المعتاد أن جماهير عامّة الشعب يُصَدِّقُونَ مقالات جبابرة الحكّام بغباء، ويُرَدِّدُونَهَا تَرْدِيداً بَبْغَائِيّاً، ويُسَانِدُ جَبَابِرَةَ الحكّام في العادة مُنْتَفِعُونَ مِنْ قِبَلِهِمْ، ويكون لهؤلاء دعايات وأقوال مَقْبُولَةٌ لدى الجماهير الَّتِي لَا عِلْمَ لَهَا بِالْأَعْيَابِ السِّيَاسَةِ وأكاذيب السَّاسَةِ الجائرين الظالمين الجبّارين.

الفكرة الثالثة: توكيد عَزْمِهِ على تقطيع أيدي السَّحرة وأزْجُلهم من خلاف، وعلى تَضْلِيلِهِمْ أَجْمَعِينَ، بعبارة تفيد التوكيد في لغته.
وقد دَلَّتْ عليه لام الابتداء المؤكِّدة في عبارة: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بينما جاءت في نصّ الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفكرة الرابعة: قول السَّحرة لفرعون بَعْدَ أَنْ هَدَّدهم وَتَوَعَّدَهُمْ إذا لم يَعُودُوا إلى حظيرته كما كانوا، ما دَلَّتْ عليه العبارة القرآنيّة: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾، أي: لَا نَعْتَبِرُ ما سَتَنَزِلُهُ بنا بمقتضى تهديدك ضارّاً لنا، بل هو يزيدنا عِنْدَ رَبِّنا سعادة وأجرّاً عظيماً، وما نلقاه من جنودك وَزَبَانِيَّتِكَ لَا يزيد في اعتبارنا على كَوْنِهِ أَذَى. ومن هذا المعنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين عن الكافرين: ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ (آل عمران الآية ١١١).

يقال لغة: «ضَارُهُ أَمْرٌ كَذَا يَضِيرُهُ، وضارُهُ يَضُورُهُ»، أي: أَضَرَّ بِهِ.

إِنَّ السَّحَرَةَ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وإسلامهم، قد صارت لديهم بصيرة إيمانيّة نَفَّاذة، وتعلّق كاملٌ بِالْآخِرَةِ، واستِهَانَةٌ بالدُّنْيَا وما فيها، فقالوا لفرعون: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾، وقالوا لَهُ كَمَا جاء في سورة (طه) في اللّقاء الثالث:

﴿... فَأَقِصْ مَا أَنْتَ قَاصٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٦).

الفكرة الخامسة: قول السَّحَرَةِ لفرعون ما دَلَّت عليه العبارة القرآنية:

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١).

لم يكن هذا المعنى قائماً في أذهانهم في اللقاء الأول، فلم يُوردوه، لكنَّهم أذركوا بعد ذلك أنَّ لهم خطايا كثيرة، سبق أن ارتكبوها، فهم إذا صبروا على العذاب الذي يتوعدهم فرعون به، فإنَّهم يطمعون أن يغفر لهم به ربُّهم خطاياهم، بسبب أن كانوا أول من آمن من القبط بما جاء به موسى وهارون عن الله الرَّبِّ جلَّ جلاله.

[أَنْ كُنَّا] أي: بأن كُنَّا، والباء المقدرة سببية.

فالمعنى: لقد سبق أن كان مِنَّا خطايا كثيرة في جنبِ الله، ونطمع الآن أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا، بسبب أن كُنَّا أول المؤمنين من القبط.

ذكرتُ قَيْدَ: من القبط، إذ سبق إلى الإيمان بموسى وهارون وبما جاء به عن الله، رجالٌ كثيرون، ونساءٌ كثيرات من بني إسرائيل.

فالرأي الذي زعم أن السَّحَرَةَ قد كانوا من بني إسرائيل، وأنَّ فرعون أخذهم وأكرههم على تعلُّم السِّجَرِ ليكونوا قوَّةً لدينه، ولنظام حكمه الإداري، ليس له دليلٌ من الكتاب ولا من السُّنَّة، بل تدلُّ النصوص القرآنية على خلافه، كما أوضحتُ لدى تدبُّر نصوص سابقة، ولدى تدبُّر هذا النص.

«خطايا» جمع «خَطِيئَة» وهي الذَّنْبُ والمعصية.

النص الذي من سورة (طه):

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا

وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾ إِنَّا ءَمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٨﴾:

هذا النصُّ يُعَبِّرُ عن الموقف الثالث، وهو الموقف الأخير الذي وَقَّعَهُ السَّحَرَةُ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ، أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَمُحَاسَبَتِهِ وَتَوَعُّدِهِ وَتَهْدِيدِهِ لَهُمْ، بِأَنْ يُقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، وبأن يُصَلَّبَهُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ حَتَّى يَلْفِظُوا أَنْفُسَهُمْ الْآخِرَةَ.

وقد جاءت فيه إضافة الأفكار التالية على ما جاء في نصِّي سورتي (الأعراف) و(الشعراء)، وفيما يلي بيان هذا:

(١) الفكرة الأولى: قرارُ البتِّ بإنجاز ما كان قد تَوَعَّدَهُمْ وَهَدَّدَهُمْ به، بَعْدَ أَنْ رَأَى أَنْ تَأْجِيلَهُمْ وتأخيرهم وإِطْمَاعَهُمْ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْ مَوْقِفِهِمْ شَيْئاً، بل ازدادوا في إصرارهم على إيمانهم وإِسْلَامِهِمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فبينما قال فرعون لهم في الموقف الأول: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو ما جاء في نصِّ سورة (الأعراف) بعبارة تَسْوِيفِيَّةٍ لَا تَأْكِيدَ فِيهَا، وفيها إِطْمَاعٌ لَهُمْ بِأَنْ يُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَرْجِعُوا إِلَى الْخُضُوعِ وَالْخُنُوعِ لِأَمْرِ فِرْعَوْنَ، وَنَضْرٍ مِلَّتِهِ وَنِظَامِهِ الْإِدَارِيِّ.

وكذلك في الموقف الثاني مع مزيدِ تَأْكِيدٍ بِالْوَعِيدِ وَمُحَافَظَةٍ عَلَى التَّسْوِيفِ: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو ما جاء في نصِّ سورة (الشعراء)، ففي هذه العبارة مزيدُ تَأْكِيدٍ بِلَامِ الْإِبْتِدَاءِ الدَّخِلَةِ عَلَى «سَوْفَ».

إذا بفِرْعَوْنَ فِي الْمَوْقِفِ الثَّالِثِ يُعْلِنُ قَرَارَهُ دُونَ أَنْ يَقْرِنَهُ بِتَأْجِيلٍ أَوْ تَأْخِيرٍ أَوْ تَسْوِيفٍ، فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿فَلَا تُقِطِعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُوا﴾، فهذا التعبيرُ يَدُلُّ عَلَى الْفَوْرِيَّةِ، لِأَنَّ لَامَ الْإِبْتِدَاءِ مِنْ خِصَائِصِهَا تَخْلِيسَ الْمُضَارِعِ لِلْحَالِ، وَاسْتِبْعَادَ مَعْنَى الْإِسْتِقْبَالِ مِنْ صِيغَتِهِ.

(٢) الفكرة الثانية: بيان أن تَضْلِيْبَهُمْ سِيْكُونُ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ، إِذْ يَأْمُرُ بِتَسْمِيرِ أَطْرَافِهِمْ فِي هَذِهِ الْجَذْوَعِ، لِيَكُونَ هَذَا أَشَدَّ تَعْذِيبًا، وَأَكْثَرَ تَشْهِيرًا.

ويظهر أنه قد كان في طُرُق مَدِينَتِهِمْ حِينْئِذٍ نَخْلٌ مُتْقَارِبٌ، تَضْلُحُ لِتَشْيِيتِ أَطْرَافِهِمْ فِي جَذْوَعِهِ، بِمَسَامِيرِ حَدِيدِيَّةٍ تَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْجَذْوَعِ.

دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْفِكْرَةِ عِبَارَةٌ: ﴿وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ﴾: أَي: وَلَأَصْلَبْنَكُمْ وَلَأَثْبَتَنَّ أَطْرَافَ أَجْسَادِكُمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ، بِمَسَامِيرِ حَدِيدِيَّةٍ تَدْخُلُ نَافِذَةً مِنْهَا فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ، فَتَثْبُتُونَ عَلَيْهَا فَتَمُوتُونَ تَعْذِيبًا وَصَبْرًا، وَتَكُونُ مَوَاقِعُ تَضْلِيْبِكُمْ أَمَاكِنَ تَكُونُونَ فِيهَا غُرُصَةً لِمُشَاهَدَةِ الْغَادِيْنَ وَالرَّائِحِينَ، تَشْهِيرًا بِكُمْ، وَعِبْرَةً لِمَنْ تَحَدَّثُهُ نَفْسُهُ بِأَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَتَكُمْ مِنَ الْقَبْطِ.

(٣) الفكرة الثالثة: دَلَّ عَلَى مَعْنَاهَا التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ عَمَّا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِلْسَّحَرَةِ: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾:

الَّلَامُ فِي عِبَارَةٍ: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ﴾ هِيَ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ الَّتِي تَخْلُصُ الْفِعْلَ الْمَضَارِعَ لِلْحَالِ، وَتُؤَكِّدُ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ.

أَي: وَلَتَعْلَمَنَّ فِي الْعَاجِلِ الْحَاضِرِ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا فِي إِيلَامِهِ، وَأَبْقَى فِي دَوَامِهِ، عَذَابِي، أَمْ مَا خَوْفِكُمْ مِنْهُ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونَ.

ويظهر أنه بعد انتهاء هذا الموقف، أَمَرَ فِرْعَوْنُ بِتَنْفِيزِ قَرَارِهِ التَّنْجِيزِيِّ بِشَأْنِ السَّحَرَةِ، وَأَنَّهُمْ أُخِذُوا وَقُطِّعُوا وَصُلِّبُوا فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ، وَكَانُوا فِي الصِّفِّ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(٤) أَفْكَارُ خَمْسٍ: دَلَّ عَلَى مَعْنَاهَا التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ عَمَّا رَدَّ بِهِ السَّحَرَةُ عَلَى فِرْعَوْنَ، بِشَأْنِ تَوَعُّدِهِ الْمَشْدَّدِ، وَالْقَرِيبِ التَّنْفِيزِ:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ
إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٧٣):

(أ) ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾:

أي: لَنْ نُؤْثِرَ حُجَجَكَ الواهية الضعيفة للإقناع بدينك ونظام حُكْمِكَ
الظالم الغاشم المستبد، على ما جاءنا من البَيِّنَاتِ الحقِّ من ربِّنا.

وَلَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى الَّذِي فَطَرَنَا وَخَلَقَنَا، وجعل الحياة الدنيا مَرَحَلَةً
ابتلاء واختبار وجعل الآخرة غاية حساب وفصل قضاء وجزاء، وهي
الحياة الباقية الخالدة.

لَنْ نُؤْثِرَكَ: أي: نؤكد لك أننا لَنْ نختارك وَلَنْ نُفْضِّلَكَ يا فِرْعَوْنَ
مَهْمَا هَدَدْتَنَا، وَمَهْمَا أَظْمَعْتَنَا بما عندك من خير.

(ب) ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾: أي: فاقطع رجاءك
ونفذ وعيدك الذي توعَدْتَنَا به إذا شِئْتَ.

هذه العبارة تدلُّ على أمرين:

الأمر الأول: يتعلق بمَعْرِفَتِهِمُ الجليَّة، و يقينهم الكامل، بما جاءهم
من البَيِّنَات.

وهذه البَيِّنَات تَشْمَلُ البراهين العقلية، والآيات الإعجازية، وفي
مقدِّمتها عصا موسى، الَّتِي انْقَلَبَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ التكويني فصارت حَيَّةً عظيمة،
وابتَلَعَتْ ابتلاءً حقيقياً لَا صُورِيّاً، كلَّ أدواتهم السحرية، الَّتِي كانوا قد
أَعَدُّوها للمباراة، فلمْ تُبْقِ منها شيئاً، ثم عادت بِأَمْرِ اللَّهِ التكويني عصاً
كما كانت، بِمُجَرَّدِ أَنْ قَبِضَ عَلَيْهَا مُوسَى عليه السَّلام.

الأمر الثاني: يتعلق بإيمانهم الكامل الصَّحيح الصَّادِقِ بِاللَّهِ الَّذِي

خَلَقَهُمْ وَأَبْدَعَ إِيَّاجَدَهُمْ عَلَى نِظَامِ الْفَطْرِ، مِنَ الْعَمَقِ الْبَاطِنِ الَّذِي يَحْتَوِي خَرِيطَةَ وَجُودِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، إِلَى الظَّاهِرِ الْمَطَابِقِ تَمَاماً لِمَا فِي الْخَرِيطَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْعَمَقِ، فَهُوَ جَلٌّ جَلَالُهُ وَعَظَمُ سُلْطَانُهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً، وَجَعَلَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَرَحَلَةً قَصِيرَةً جَدّاً لِلَامْتِحَانِ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ الْحَيَاةَ الْخَالِدَةَ، الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْحِسَابُ وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقُ الْجَزَاءِ.

(ج) ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾:

أي: فَأَمْضِ بِأَمْرِكَ مَا أَنْتَ قَاضِيهِ عَلَيْنَا، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَلَى إِنْهَاءِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَأَنْ تَأْمُرَ بِتَعْدِينَا حَتَّى مَوْتِنَا.

[فَاقْضِ]: أي: فَأَمْضِ، الْقَضَاءُ: هُوَ فِي اللَّغَةِ إِمْضَاءُ الشَّيْءِ وَإِنْهَائُهُ وَإِتْمَامُهُ، إِرَادَةٌ، أَوْ قَوْلًا، أَوْ فِعْلاً، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

(د) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾:

أي: وَاعْلَمْ يَا فِرْعَوْنُ أَنَّ أَمَنَّا بِرَبِّنَا فَاطْرِنَا، لِيَغْفِرَ لَنَا بِإِيمَانِنَا مَا سَلَفَ مِنْ خَطَايَانَا، وَيُظْهِرَ أَنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الدِّينِيَّةَ قَدْ تَعَلَّمُوهَا مِنْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، بَعْدَ الْمَوْقِفَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ.

فَاعْلَمُوا فِرْعَوْنُ بَأَنَّ الْإِيمَانَ بَعْدَ كُفْرٍ يَجِبُ الْإِثَامَ السَّابِقَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي جَنْبِ اللَّهِ، فَهَمُ مُظْمَنُونَ بَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَغْفِرُ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ السَّابِقَةَ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا. وَمِنْ هَذِهِ الْخَطَايَا مَا أَكْرَهُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، إِذْ جَلَبَهُمْ بِالْقَسْرِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْمَدَائِنِ الْمِصْرِيَّةِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعِدُّوا وَسَائِلَهُمْ السِّحْرِيَّةَ لِمُبَارَاةِ آيَةِ مُوسَى الْمَعْجِزَةِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَمَارِسُوا كَفَرِيَّاتٍ وَشُرَكِيَّاتٍ لِاسْتِخْدَامِ كُفْرَةِ الْجِنِّ وَمَرَدَّتِهِمْ، لِمُسَاعَدَتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمُ السِّحْرِيَّةِ.

(هـ) ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقِي﴾: أي: وَإِذَا كُنْتَ تُظْمِعُنَا بِخَيْرَاتِكَ إِذَا عُدْنَا

إلى حظيرة دينك ونظام مُلْكِكَ الإداري، وتَتَوَعَّدُنَا بِعَذَابِكَ الشَّدِيدِ الباقي، إِذَا أَصْرَرْنَا عَلَى مَوْفِقِنَا، فَعَطَاءُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عَطَائِكَ وَأَبْقَى، وَعَذَابُ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ وَأَبْقَى.

وإِنَّا قَدْ اخْتَرْنَا مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، واختَرْنَا الخلاصَ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ وَأَبْقَى، بالإيمان بربِّنا والإسلام له.

وَإِذْ عَلِمَ السَّحَرَةُ أَنَّهُمْ مَقْتُولُونَ عَلَى أَيْدِي زبَانِيَةِ فِرْعَوْنَ لَا مُحَالَةَ، بَعْدَ التَّهْدِيدِ بِإِنْجَازِ مَا كَانَ قَدْ جَعَلَهُ وَعِيداً مُؤَجَّلاً، تَحَوَّلُوا إِلَى دُعَاةٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَوَجَّهُوا لِفِرْعَوْنَ بَيَاناً مُصْحَباً بِالنُّصْحِ، وَالْمَوْعِظَةِ بِالْتَرْهيبِ وَالتَّرْغِيبِ بِجُرْأَةٍ عَظِيمَةٍ نَادِرَةٍ، وَإِقْبَالٍ عَلَى الْآخِرَةِ، وَمَا دَلَّ عَلَى هَذَا الْبَيَانِ لَمْ يَأْتِ فِي نَصِّي سَوْرَتَيْنِ (الأعراف) و(الشعراء)، بَلْ جَاءَ فِي سُورَةِ (طه)، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

• ﴿إِنَّهُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ﴾ (٧٦)

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيَانُ مِمَّا تَعَلَّمَهُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ كَانُوا سَحَرَةً، مِنْ دَعْوَةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، إِذْ لَمْ يَضَعُهُمْ فِرْعَوْنَ فِي سِجْنٍ مُّغْلَقٍ، وَلَمْ يَحْجُرْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَلْتَقُوا مُوسَىٰ وَهَارُونَ، طَمَعاً فِي عَوْدَتِهِمْ إِلَى حَظِيرَةِ دِينِهِ وَنِظَامِ حُكْمِهِ الْإِسْتِبْدَادِيِّ، الَّذِي لَا يُسَمِّحُ لِشُعْبِهِ مِنَ الْقَبْطِ أَنْ يَرَوْا غَيْرَ مَا يَرَىٰ هُوَ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ فِيمَا يَرَىٰ إِلَّا سَبِيلَ الرِّشَادِ.

• ﴿إِنَّهُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (٧٦)

أي: إِنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ الْمُرْهَبَ الْمُخِيفَ هُوَ مَا يَلِي: مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ كَافِراً غَيْرَ مُؤْمِنٍ وَلَا مُسْلِمٍ، فَإِنَّ لَهُ بِالْإِسْتِحْقَاقِ الْمُؤَكَّدِ الَّذِي لَا مَفَرَ لَهُ

مِنْهُ، نَارَ جَهَنَّمَ، وهو فيها دائم البقاء، لا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ بِالْمَوْتِ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَحْيَا حَيَاةً مُرِيحَةً خَالِيَةً مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ يَكُونُ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ مُتَجَدِّدٍ مَهْمَا امْتَدَّ الزَّمَانُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لو أَبْقَاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِدًا مُخَلَّدًا، لَبَقِيَ كَافِرًا بِرَبِّهِ جَاحِدًا لَهُ مُجْرِمًا عَاصِيًا بِلا نِهَآيَةٍ، فَكَانَ عِقَابُ كُفْرِهِ الْأَبَدِيِّ فِيمَا لو أَبْقَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَبَدًا بِلا نِهَآيَةٍ، أَنْ يَخْلُدَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خُلُودًا أَبَدِيًّا بِلا نِهَآيَةٍ.

[مُجْرِمًا]: أي: كَافِرًا، غَيْرَ مُسْلِمٍ وَلَا مُؤْمِنٍ.

جاء في القرآن لفظ «المجرمين» عنواناً مُقَابِلًا لِلْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ، أي: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ. وجاء وصفاً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا إِهْلَاكًا عَامًّا مُسْتَأْصَلًا، كَقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وجاء وصفاً لِلَّذِينَ يُعَذَّبُونَ بِعَذَابِ الْحَرِيقِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وجاء لفظ «المجرم» مُقَابِلًا لِلْفِظِ «المسلم»، وَلَا يَكُونُ الْمَكْلَفُ مُسْلِمًا صَادِقًا، مَا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا حَقًّا وَصِدْقًا. فَدَلَّتْ هَذِهِ الِاسْتِعْمَالَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُجْرِمَ فِي الْمِصْطَلَحِ الْقُرْآنِيِّ هُوَ الْكَافِرُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ، إِذْ لَا هُوَ مُسْلِمٌ وَلَا هُوَ مُؤْمِنٌ.

فجاء في العبارة لفظ [مُجْرِمًا] إجمالاً لعبارة: غَيْرَ مُسْلِمٍ وَلَا مُؤْمِنٍ، وَهَذَا مِنَ الْإِيجَازِ فِي التَّعْبِيرِ.

«مَنْ» فِي عِبَارَةٍ: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ اسْمُ شَرْطٍ جَازِمٍ، وَجَوَابُ هَذَا الشَّرْطِ: ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾.

وَالضَّمِيرُ فِي [إِنَّهُ] هُوَ ضَمِيرُ الشَّأْنِ.

• ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۖ﴾ (٧٦)

أي: وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الدِّينِ مُسَجَّلًا فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ،

أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ، أَي: مُؤْمِنًا مُسْلِمًا عَمَلَ فِي إِسْلَامِهِ أَعْمَالًا صَالِحَاتٍ مُرْضِيَاتٍ لِلَّهِ رَبِّهِ، فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا.

جاءت عبارة ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ﴾ مفصلةً لصفات المُسْلِمِ الصادقِ في إِسْلَامِهِ مع مَزِيدٍ من العمل الصالح، في مقابل «المجرم»، فجاء التقابلُ بَيْنَ مُجْمَلٍ في العبارة ومُفَصَّلٍ.

وجاء لفظ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ مراعاةً لِلْمَعْنَى الجمعي في لفظ «مَنْ» الشرطيّة، وجاء بصيغَةِ اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

وجاء تفسير الدرجات العُلا، بأنها جَنَاتُ عَدْنٍ، أَي: جَنَاتُ إِقَامَةٍ دائمة، وثباتٍ واستقرار دائمين.

جَنَاتُ عَدْنٍ: هي في المصطلح القرآني، تَقَعُ في مَنْزِلَةٍ وَسْطَى بَيْنَ الفردوس الأعلى، وبَيْنَ المنازل الدنيا فيها^(١).

ومن أوصاف جَنَاتِ عَدْنٍ أَنَّهَا تجري من تحتها الأنهار، أَي: من تحت أشجارها وقصورها.

وجاء في وصف أهلها أَنَّهُمْ خَالِدُونَ فيها.

• ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾: أَي: وذلك الجزاء المقرّر لمن يأتِ رَبَّهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ، يكونُ أَيْضًا لِمَنْ تَزَكَّى، أَي: لِمَنْ تَطَهَّرَ بِالتَّوْبَةِ والإيمان بَعْدَ أَنْ كَانَ يَحْمِلُ أَرْجَاسَ الْكُفْرِ وارتكاب قبائح الذنوب، لأنَّ الإيمان الصحيح الصادق يجبُ ما قبله.

هذه الحقائق الدينيّة الّتي تعلّمها السّحرة من موسى وهارون،

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (مريم).

وَأَعْلَمُوهَا لِفِرْعَوْنَ فِي دَعْوَتِهِمْ لَهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، هِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ
الَّتِي تَنْزَلُ بِهَا الْقُرْآنُ، وَجَاءَتْ فِي كُلِّ رِسَالَةِ الرُّسُلِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، حَتَّى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

وهي من عناصرِ الدين الذي اصطفاه الله للناس جميعاً، لأنَّ الدينَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ.



تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السَّلام

الفقرة الرابعة

الآيات من (٧٧ - ٧٩)

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَاَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ
مِنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَيْهِمْ ۖ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ﴾ (٧٩)

القراءات:

(٧٧) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [أَنِ اسْرِ] بِكسْرِ النون
وهمزة وصلٍ بعدها. وَيَبْدُؤْنَ بِهمزة مكسورة إذا بَدَءُوا بَعْدَ وَقْفٍ بفعل
[اسْرِ] وهي من فعل «سَرَى».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بِإسكان النون، وهمزة قَطْعٍ
بعدها، من فَعَلَ: «أَسْرَى».

وهما وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ متكافئان.

(٧٧) • قرأ حمزة: [لَا تَخَفْ] عَلَى أَنْ «لا» حرف نهى يجزم الفعل

المضارع. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَا تَخَفْ﴾ على أن «لا» نافية، والفعل بعدها مرفوعٌ لخلّوه من الناصب والجازم.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد ببيانه، ففي «لا» الناهية كلّفه الله موسى أن لا يخاف، وفي «لا» النافية أبان له أنه لا يجد في عبوره ما يخاف منه على نفسه، ولا على مَنْ معه من بني إسرائيل، وما معهم من أحمالهم، وأثقالهم ودوابهم.

تمهيد:

طوى النص هنا الذي من سورة (طه) بيان أحداث كثيرة جرّت بين موسى عليه السلام من جهة، وبين فرعون وملئه وقومه من جهة أخرى، وقد جاء في متفرقات من النصوص في عدة سور بيانات موجزات لهذه الأحداث، ومنها أن الله عزّ وجلّ أجرى لموسى الآيات التسع كلها التي كذّب بها فرعون وملؤه وأنصارهم جحوداً، واعتبروها من أنواع السحر، مع أن نفوسهم قد استيقنتها، لكن جحدوها ظلماً وعُلوّاً.

ويظهر أن إجراء هذه المعجزات قد كان خلال عدة سنين، جرّت فيها مفاوضات متعدّات بين موسى عليه السلام، وبين فرعون، وكان فرعون يطلب من موسى عليه السلام رفع المصائب التي تأتي بها آيات الله، بدعاء منه لربه، ويعده بأنه إذا تحقّق رفع البلاء أذن له بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر، لكنّه كان ينكث كلّما رفع الله عنهم بلاء الآية ومصائبها.

وكان فرعون وملؤه يستكبرون أن يؤمنوا مسلمين لبشرين مثلهم، وقومهم لهم عابدون، يغنون موسى وهارون عليهما السلام.

وانتقل النصّ مفاجأة إلى بيان فضل خروج بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون من مصر، دون إذن من فرعون، وبيان قلق البحر لهم بآية عصا

مُوسَى، وبيان خروج جميع بني إسرائيل وما معهم ناجين، وبيان اتباع فرعون وجنوده لهم من مكان الغرق نفسه، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَمَّ مِيَاهَ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ فَأَغْرَقَهُمْ جَمِيعاً.

وقد جاء حول هذا الْفُضْل من قِصَّةِ مُوسَى وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِمَّا كَانَ تمهيداً له عدَّةُ نصوص قرآنية هي متكاملة الدَّلَالَاتِ فيما بَيْنَهَا، وَيُسْتَفَادُ مِنْ جَمْعِهَا إِذْرَاكَ كَامِلٌ لما تَحْسُنُ بِحَسَبِ حِكْمَةِ اللَّهِ مَعْرِفَتُهُ من أَعْدَادِ هذا الفصل.

وَأَقْدَمُ تَدَبُّراً لَهَا وَفَقَّ التَّرْتِيبَ الَّذِي يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ بِهِ، عن طَرِيقِ التَّأَمُّلِ فِيهَا، وَمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْأَحْدَاثِ.

نظرات تدبرية تكاملية:

أقدم فيما يلي نظرات تدبرية لمُخْتَلَفِ النصوص المتعلِّقة بِفَصْلِ رَحْلَةِ الْخُرُوجِ، وبعض ما يَتَّصِلُ بِهَا من مقدماتٍ كانت قُبَيْلَهَا.

والنصوص التي استخرجتها للدراسة التدبرية التكاملية هي كما يلي:

(١) مِنْ سُورَةِ (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) الآيات من (٣٦ - ٤٠).

(٢) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) الآيتان: (١٣ و ١٤).

(٣) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) الآيات من (٢٣ - ٤٥).

(٤) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) الآيات من (١٠١ - ١٠٣).

(٥) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (٥٢ - ٦٨).

ومن سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) الآيات من (٧٧ - ٧٩).

(٦) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآيات من (٩٠ - ٩٢).

(٧) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) الآية (١٣٦).

(٨) من سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) الآيات من (١٥ - ٢٦).

أولاً

نص سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول)
الآيات من (٣٦ - ٤٠)

قال الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا
 سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى
 مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ ﴿٣٧﴾ وَالْقَالُونَ ﴿٣٨﴾
 يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ
 فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَهَ إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾
 وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ
 ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ
 الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

القراءات:

(٣٧) • قرأ ابن كثير: [قَالَ مُوسَى] بحذف حرف العطف.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بإثبات حَرْفِ العطف الواو.
 وفي القراءتين إشارة إلى أَنَّهُ يَحْسُنُ الوصل بحرف العطف «الواو» باعتبار،
 ويحسُنُ الْفصل بترك حرف العطف باعتبار آخر.

فباعتبار أَنَّ الموضوع يتحدَّث عن الآيات البينات التي جاء بها
 موسى عليه السَّلام، في جملة: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ﴾ وجملة: ﴿وَقَالَ
 مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ كان الوصل مُسْتَحْسَنًا.

وباعتبار أَنَّ موسى عليه السَّلام كان يتحدَّث في أحوال مختلفة
 قائلاً: [رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ] دون أَن يكون جواباً
 لمقالتهم، كان الفصل مستحسناً.

(٣٧) • قرأ حَمَزَةً، والكَسَائِي، وخَلَفَ: [وَمَنْ يَكُونُ] بالياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَمَنْ تَكُونُ] بالتاء.

وهما وجهان عربيان جَائِزان ومتكافئان، لأنَّ عاقبة الدَّار مجازيَّة التَّأْنِيث.

(٣٧) • قرأ نَافِع، وَأَبْنُ كَثِير، وأبو جعفر، وأبو عَمْرٍو: [رَبِّي أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العَشْرَةَ [رَبِّي أَعْلَمُ] بإسكان ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

(٣٨) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [لَعَلِّي أَطْلُعُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَعَلِّي أَطْلُعُ] بإسكان ياء المتكلم.

(٣٩) • قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [لَا يَرْجِعُونَ] ببناء الفعل للمعلوم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَا يَرْجِعُونَ] ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد ببيانه، أي: لَا يُرْجَعُونَ بإرجاع الله لهم، فهم لا يَرْجِعُونَ، هذا ظَنُّهُمْ، لكنَّهُمْ يُرْجَعُونَ فَيَرْجِعُونَ مطاوعين قهراً.

تمهيد:

ما جاء في هذا النصِّ دلٌّ على أحداثٍ من المراحل الأخيرة، للنَّشاط الدَّعَوِي الَّذِي قام به موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَام، في سِيرَتَهُمَا

مع فرعون وملئه وعموم القبط طوال سنين، وهذه المراحل الأخيرة مسبوقة بإجراء الله عز وجل الآيات التسع كلها التي آتاها الله عز وجل لموسى عليه السلام خلال هذه المدة من سيرته معهم، لإقناع فرعون فمن دونه بأنّه هو وأخوه رسولان حقاً وصدقاً، من عند الله رب العالمين، وإقناعهم بأن الدين الذي جاء به وبلغاهم إيّاه هو من عند الله رب العالمين حقاً وصدقاً.

ولا بُدَّ أن تكون دعوتهما قد اقترنت بالإقناعات الفكرية بأن لهذا الكون رباً يتصرّف بالعالمين وحده، بصفات ربوبيّته العظيمة، وأنّه هو الإله الذي يجب أن يُعبَد وحده لا شريك له.

فما كان من الجمهور الأعظم من القبط، بدءاً من فرعون ونزولاً إلى سائر الشعب المصريّ إلّا التولّي والإدبار، وعدم الاستجابة لدعوة موسى وهارون، واعتبار أنّ الآيات البيّنات الإعجازيّة التسع التي جاء بها، هي من أنواع السّحر العظيم، خلافاً لما يدّعيان افتراءً، من أنّها آياتٌ حقيقيّةٌ يُجريها الله رب العالمين لهما، تصديقاً لهما بأنهما رسولان من قبل رب العالمين حقاً وصدقاً، وأنّهما يُبلّغان عنه قضايا الدين حقاً وصدقاً.

وفي هذا النصّ عرض أبرز مواقف فرعون في هذه المراحل الأخيرة.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل في معرض الحديث عن موسى عليه السلام وسيرته في مصر:

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ (٣٦) :

أي: فلما جاء موسى فرعون وملأه فمّن دونهم من سائر القبط،

باستثناء من كان يَكْتُمُ إيمانه، بآياتنا التَّسْعُ البَيِّنَات وهي: «آية العصا - وآية اليد - وآية السنين، وهي التي حصل فيها جَذْبٌ ونَقْصٌ من الثمرات في كلِّ مصر - وآية الطوفان - وآية الجراد، وآية القُمَّل - وآية الضَّفَادع، وآية الدَّم، وآية الرِّجْز وهو نوع من العذاب أنزله الله عليهم»^(١) قالوا: ما هذا إِلَّا سِحْرٌ، أي: أعمال سحرية كُبرى. أمَّا ادِّعَاءُ أَنَّهَا آيَاتٌ من آيات الله رَبِّ الْعَالَمِينَ فهو ادِّعَاءٌ مفترى على الله.

قول الله تعالى تَبَيَّنَ لِحِكَايَةِ مَقَالَتِهِمْ:

• ﴿... مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) :

أي: ما سمعنا بهذا الذي جاء به موسى وأخوه هارون، من توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لموجود أزليٍّ أبديٍّ واحد، في أخبار آبائنا الأولين السابقين، الذين كانوا على مثل ديننا، فموسى وهارون قد جاءا بدين لم يَسْبِقْ لَنَا بِهِ عِلْمٌ، أو خبر مُتَوَارَثٌ عن آبائنا، فهما مفتريان على الحقيقة، وليسا على هدى، ولم يأتيا كما يَزْعُمَانِ بِالْهُدَى من عِنْدِ خَالِقِ الْكَوْنِ، وادِّعَاءُ أَتَمَّاهُما عن البعث، والحياة الأخرى، وعن الجنة دار المؤمنين المتقين، وعن النار دار الكافرين المجرمين، ادِّعَاءَاتٌ باطلات مفتريات على الحقيقة، وما نَحْنُ عَلَيْهِ وما وَرِثْنَاهُ عن آبائنا هو الْهُدَى.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٧) :

هذا رَدُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وبيانه الذي كَانَ يُكْرِّرُهُ، وهو يَشْتَمِلُ على ثلاث قضايا:

(١) وانظر لواحق تدبر الآية (٢١) من سورة (طه) عند تدبر الآية (٣٢) من سورة (القصص).

القضية الأولى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿رَبِّ أَعْلَمَ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾: أي: وبما أنه كذلك، وهو الذي يجازي من أطاعَ وَمَنْ عَصَى، ومن التَزَمَ هُدَاهُ، ومن افترى عَلَيْهِ، فَلَيَرْتَقِبْ كُلَّ فَرِيقٍ مِّنَّا عَاقِبَةَ أَمْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ.

القضية الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

عاقبة الدار، وعُقْبَى الدار: قد جاء في القرآن للدلالة على دار النعيم يوم الدين، وقد جاء في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول) تفسير عُقْبَى الدَّارِ بِأَنَّهَا جَنَّاتُ عَدْنٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ أَهْلُ الدَّارِ ۝٢٢ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٤﴾:

العاقبة والعُقْبَى: مترادفان في المعنى، وهما بمعنى: آخر كل شيء وخاتمته، وبمعنى: جزاء الأمر.

و(ال) في: ﴿الدَّارِ﴾ هي للكمال، ومعلوم أنَّ الدار الكاملة في العاقبة الحسنى هي جَنَّاتُ عَدْنٍ فما فَوْقَهَا مِنْ دَرَجَاتٍ، وَأَنَّ الدار الكاملة في العاقبة السوأى هي دركات عذاب الحريق، في جهنم دار عذاب المجرمين.

والإضافة في عبارة: ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ وعبارة: ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ هي على معنى «في» أي: عاقبة حسنة جدًا في الدار العظيمة الكاملة في صفاتها، والتي هي جَنَّاتُ عَدْنٍ، ذَوَاتُ الدَّرَجَاتِ الرفيعات في عُمُومِ الْجَنَّةِ.

القضية الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: أي: إِنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، أَنَّ الظَّالِمِينَ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، أَوْ بِجُحُودِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَالتَّمَرُّدِ عَلَى طَاعَتِهِ، لَا يَكُونُ لَهُمْ فَلَاحٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

الفلاح: هو في اللغة الفوز، والنجاة، والظفر، والبقاء في السلطان.
قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

هَامَان: يظهر أنه الوزير الأول، واليَدُ اليُمْنَى لفرعون، وذو السلطان النافذ في مملكته.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الطِّينِ﴾: أي: فأتخذ وسائلك ليقود العُمَّال النار على اللِّين من الطين ليصير أجراً.

﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾: أي: فأمرُ البَنَائِينَ بِنَاءِ صَرْحٍ شاهقٍ لي، واتخذ كل ما يلزم لذلك.

الصَّرح: هو في اللغة القصر العالي، والبناء الشاهق الذاهب في السماء.

﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ﴾: أي: لِأُطْلِعَ، «لَعَلَّ» هنا بمعنى لام التعليل.

أُطْلِعَ: أي: أنظر وأشاهد، يقال لغة: «أَظْلَعَ إِلَى الشَّيْءِ» أي: تَطَلَّعَ ونظر ليَعْرِفه.

كان الإله في تصوُّرِهِمْ هو الإنسان الذي يجب على الناس طاعة أوامره ونواهيه، والذي يجب على الشعب أن يخضعوا له خضوعاً تاماً، ويكتسبُ هذا الإنسانُ إلهيَّتهُ بقوةٍ وراثيَّةٍ من آبائه وأجداده الإلهية، وتكون هذه القوة المعنوية في ذات الملك، وتمنحه هذا الحقُّ متى ملك، إذ تحلُّ فيه روح الإلهية التي كانت في آبائه وأجداده.

وبما أن فرعون قد كان هو ملكٌ مضرٌّ غيرٌ مُنازع، فإنه لا يعلم أن

لِلْمَلَأْ وَهَمْ أَغْيَانٌ مُّمْلِكْتَهُ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ، تَجِبْ طَاعَتُهُ، وَيَجِبُ الْخُضُوعُ لَهُ،
وَبِمَا أَنَّهُ هُوَ إِلَهُ الْأَعْيَانِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا لِكُلِّ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ شَعْبٍ
مَمْلُوكَتِهِ.

وبهذا أُعْلِنَ أَنَّهُ إِلَهُ كُلِّ شَعْبٍ مِنَ الْقَبْطِ.

وَإِذْ يَدْعِي مُوسَىٰ أَنْ إِلَهُهُ فِي السَّمَاءِ، فَأَبْنِ لِي يَا وَزِيرِي الْأَوَّلُ، وَيَا
سَاعِدِي الْأَيْمَنَ، يَا هَامَانَ، صَرِّحًا مِنْ أَجْرٍ، لَأَرْقِيَ فِي طَبَقَاتِ هَذَا
الصَّرْحِ لَعَلِّي أَشَاهِدُ فِي الْأَجْوَاءِ الْعَلِيَا إِلَهُ مُوسَىٰ، فَإِذَا لَمْ أَجِدْ لَهُ وُجُودًا
فَمُوسَىٰ كَاذِبٌ فِي ادِّعَاءِ أَنْ إِلَهُهُ فِي السَّمَاءِ.

إِنَّ فِرْعَوْنَ يَخْدَعُ شَعْبَهُ، إِذْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِذَا بَنَىٰ بَنَاءً عَالِيًا شَاهِقًا.
وَصَعَدَ إِلَىٰ أَغْلَاهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يُحِيطَ نَظْرُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ إِلَهَ
مُوسَىٰ، فَإِنَّ هَذَا الْإِلَهَ لَا وَجُودَ لَهُ، وَمُوسَىٰ كَاذِبٌ فِي ادِّعَائِهِ.

ويظهر أن جمهور شعبه كان يومئذٍ ساذج التفكير، أما الأذكياء فقد
أغرقهم بالمنافع، فَهُمْ يُؤَيِّدُونَ أَقْوَالَهُ، وَهَمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ سَاقِطَةٌ، لَا
قِيَمَةَ لَهَا، فَهُمْ يَشَارِكُونَهُ فِي خِدَاعِ جُمْهُورِ الشَّعْبِ السَّاذِجِ.

وَأَحْكَمَ خَدِيعَتُهُ الَّتِي أَرَادَ تَرْوِيجَهَا فِي شَعْبِهِ، إِذْ قَالَ قَبْلَ بِنَاءِ الصَّرْحِ
عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنْ الْكَذِبِينَ﴾ (٣٨) * فَأَظْهَرَ بِهِ هَذِهِ
الْعِبَارَةَ اهْتِمَامَهُ بِالْتَّعَرُّفِ عَلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ، فَلَمْ يَقُلْ: وَإِنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ، بَلْ
جَعَلَ ذَلِكَ احْتِمَالًا ظَنِيًّا، وَأَنَّ مَرَاقِبَةَ السَّمَاءِ مِنْ أَعْلَى الصَّرْحِ تَكْشِفُ
صَحَّةَ هَذَا الظَّنِّ أَوْ عَدَمَ صَحَّتِهِ.

قول الله عز وجل:

﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْخَفَىٰ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَا
يُرْجَمُونَ﴾ (٣٩) * فَأَحْذَرْتُهُ وَخُنُودُهُ فَسَبَّحْتُهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ
عَذَابُهُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) *.

﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾: أي: وامتنع عن قبول الحق معاندةً وتكبراً. وَتَكَبَّرَ تَكْبَرًا شديداً.

الاستكبار: يأتي في اللغة بمعنى الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً. ويأتي بمعنى التكبر بشدة، أخذاً من دلالة صيغة «استفعل».

أي: وتكبر فرعون هو وجنوده تكبراً شديداً، وامتنعوا عن قبول الحق الرباني، بغير دليل يُعْطِيهِمْ شيئاً قليلاً من العذر.

﴿وَوَظَنَّا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) - وفي القراءة الأخرى: [لَا يُرْجَعُونَ]:

أي: ولم يقبلوا الإيمان بنبأ البعث والجزاء في حياة أخرى، بعد هذه الحياة الدنيا، للحساب، وفضل القضاء، وتحقيق الجزاء، من قبل رب العالمين، مع أن هذا النبأ مقرون بحجج عقلية بيّنة، وآيات إعجازية باهرة، آتاه الله موسى وهارون عليهما السلام.

وكان ظنهم الذي اعتمدوا عليه لإنكار يوم الدين، ظناً توهّمياً باطلاً، يتخيل أن الحياة قاصرة على هذه الحياة الدنيا.

• ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ...﴾ (٤١): أي: فجعلنا في نفسه غيظاً يدفعه لاتباع موسى وقومه بجيش قوي لمقاتلتهم، وقتل كبرائهم، وإعادة سائر شعب بني إسرائيل عبيداً، وجعلنا في نفسه الخوف من عودة موسى بعد هذا الخروج بجيش مقاتل، وزيننا له تكوين جيش لملاحقتهم وقتالهم، واستدرجنّاهم حتى دخلوا ملاحقين الإسرائيليين من مكان الفلق.

فلما اكتمل دخولهم جميعاً في الطريق الذي عبر منه موسى وقومه وما معهم، وبعد أن تم عبور آخر عابر من بني إسرائيل وما معهم وخروجهم من اليم، ضمّمنا على فرعون وجنوده فلقّتي البحر فأغرقناهم أجمعين.

﴿فَبَدَّلْنَاهُمْ﴾: أي: فَطَرْنَا لَهُمْ وَأَبْعَدْنَاهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا يُطْرَحُ الشَّيْءُ الْمُخْتَفَرُ الْمَكْرُوهَ، وَمِنْهُ نَبَذُ النَّوَاةِ.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠): أي: فَتَفَكَّرْ أَيُّهَا الصَّالِحُ لِلنَّظَرِ التَّفَكُّرِيِّ أَيَّا كُنْتَ فِي مَجَارِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَجَزَاءَاتِهِ الْمَعَادِلَاتِ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، الظَّالِمِينَ ظُلْمًا مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً وَإِصْرَارًا عَلَى الْبَاطِلِ، اغْتِرَارًا بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.



ثَانِيًا

نص سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول)

الآيتان (١٣ - ١٤)

قال الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿ءَايَاتُنَا﴾: أي: آيَاتُنَا التَّسْعُ كُلُّهَا، وَالْفَاءُ فِي عِبَارَةِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ تَعْطِيفُ عَطْفٍ تَرْتِيبٍ مَعَ تَعْقِيبٍ عَلَى آخِرِ الْآيَاتِ، لَا عَلَى آيَتِي الْعَصَا وَالْيَدِ فَقَطْ.

﴿مُبْصِرَةً﴾: أي: وَاضِحَةٌ مُضِيئَةٌ بَيِّنَةٌ، يُقَالُ لُغَةً: «أَبْصَرَ الطَّرِيقَ فَهُوَ مُبْصِرٌ» أي: اسْتَبَانَ وَوَضَحَ.

قال أبو إسحاق: معنى «مُبْصِرَةً» تُبْصِرُهُمْ، أي: تُبَيِّنُ لَهُمْ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: إِنَّهَا تُبْصِرُهُمْ، أي: تَجْعَلُهُمْ بُصْرَاءَ^(١).

(١) انظر لسان العرب، مادة (بصر).

وعلى هذا ففعلُ: «أَبْصَرَهُ» مثل فعل: «بَصَّرَهُ» أي: جَعَلَهُ يُبْصِرُ.

فالمعنى على هذا: فلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصَّرَةً لَهُمْ بِأَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ رَسُولَانِ مِنْ رَبِّهِمَا صَادِقَانِ، وبِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ حَقٌّ وَصِدْقٌ يُبْلَغَانِهِ عَنْ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾، أي: مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ الْكَبِيرِ، الَّتِي لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَى مَعْرِفَتِهَا سَحَرَةُ مِصْرَ كُلُّهُمْ.

﴿ثُبُثٌ﴾: أي: وَاضِحٌ جَلِيٌّ، مِنْ فِعْلِ: «أَبَانَ الشَّيْءُ إِبَانَةً فَهُوَ مُبِينٌ» أي: ظَهَرَ وَوَضَحَ وَكَانَ جَلِيًّا.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾: أي: أَنْكَرُوهَا، مَعَ عِلْمِهِمْ عِلْمًا يَقِينًا بِأَنَّهَا حَقٌّ، أي: أَنْكَرُوا كَوْنَهَا آيَاتٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الجحود: هو إنكار كون الشيء حقًا، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقٌّ.

يُقَالُ لُغَةً: «جَحَدَ، يَجْحَدُ، جَحْدًا، وَجُحُودًا» أي: أَنْكَرَ الْحَقَّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَيُقَالُ: «جَحَدَهُ حَقَّهُ، وَجَحَدَهُ بِحَقِّهِ» فَالْبَاءُ فِي [وَجَحَدُوا بِهَا] اسْتِعْمَالٌ عَرَبِيٌّ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْغَرَضِ مِنْ ذِكْرِ الْبَاءِ فِي الْعِبَارَةِ، فَهِيَ لِلتَّعْدِيَةِ.

﴿وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسُهُمْ﴾: أي: وَعَلِمَتْ أَنْفُسُهُمْ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهَا آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقًّا.

«اليقين»: هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَذْنَى دَرَجَاتِهِ مَا اعْتَمَدَ عَلَى أَدَلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ. أَوْ خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا يَعْتَرِيهَا شَكٌّ.

وجاء استعمال لفظ «أَنْفُسُهُمْ» وهو من جموع القلة، إشارةً إِلَى أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْاِسْتِيقَانِ هُمُ فِرْعَوْنُ وَأَلُّهُ وَأَعْوَانُهُمُ الْمَخْلُصُونَ لَهُمْ، مِثْلُ: هَامَانَ، وَقَارُونَ، وَهَؤُلَاءِ قَلِيلُونَ يَنَاسِبُهُمْ جَمْعُ الْقَلَّةِ، وَهُمْ الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ ظُلْمًا وَعُلُوًّا.

﴿ظُلُمًا﴾: أي: تجاوزاً للحدود القصوى، التي لا يُحتملُ من العصاة تجاوزُها، أي: حالة كونهم ظالمين، استعمل المصدر على معنى اسم الفاعل. أو مفعول لأجله، أي: وجحدوا بها بسبب إصرارهم في نفوسهم على الظلم الذي لهم فيه سلطانٌ عظيمٌ ومنافع ومصالح.

﴿وُطُوًا﴾: أي: وحالة كونهم مستكبرين، أو بسبب إصرارهم في نفوسهم على العلوّ في الأرض، وعدم قبولهم اتباع رسولي ربهم، وعدم قبولهم الدين الذي جاء به.

فقد كانوا يرون أنّ إيمانهم يجعلهم يخسرون شيئاً من سلطانهم في الأرض على شعبهم، وعبيدهم بني إسرائيل.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: فانظر أيها الناظر المتفكر، كيف كانَ جزاء المفسدين في الأرض، إذ أغرقناهم وجنودهم أجمعين.

عاقبة عمل العامل: الجزاء الذي يكون بعده مباشرة، أو بعد فاصل زمني، والأصل فيه ما يأتي عقبه.

المفسدون: هم الذين ينشرون الفساد في الأرض، يقال لغة: «أفسد فلانُ الشيء» أي: حوله عن صلاحه، أو أثلفه، وتحويل الشيء عن صلاحه يجعله غير صالح ولا نافع، وربما يجعله ضاراً كريهاً مفسداً لغيره.

إضافات هذا النص على نص سورة (القصص):

بالمقارنة تبين لي أنّ هذا النص من سورة (النمل) قد أضاف إلى النص الذي سبق تدبره من سورة (القصص) فكرتين:

الفكرة الأولى: أنّ فرعون وملأه، ومن ورائهم شعب مصر، جحدوا

كون الآيات التسع آيات أجراها الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون، لإثبات صِدْقِهِمَا فِي ادِّعَاءِ أَنَّهُمَا رُسُلًا رَبَّهُمَا، وإثبات صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ عَنْ رَبِّهِمَا، وادَّعَوْا كَذِبًا وافتراءً على الحقيقة أن هذه الآيات العظيمة نوعٌ عظيمٌ من أنواع السَّحر، مع أن أنفُسَ فرعون ورهط ملئه معه كانت على يقينٍ كاملٍ بأنها آيات من عند الله ربِّ العالمين، وليست من السَّحر الذي زعموه.

الفكرة الثانية: أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا مُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، بينما جاء في نصِّ سورة (القصص) أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ.

فتكامل النَّصَّانِ فِي حُدُودِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَا عَلَيْهَا.

وقد أجمل نصُّ سورة (النمل) كلَّ سيرة موسى الدعوية المصحوبة بالآيات الإعجازية التي أجراها الله له في مصر، بعبارة غاية في الإيجاز والبطيِّ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٦﴾ فطَوَى النَّصُّ هُنَا كُلَّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي جَاءَ بَعْضُ تَفْصِيلِ لَهَا فِي النُّصُوصِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ سِيرَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي مِصْرَ، وَذَكَرَ النَّصُّ هُنَا الْفِقْرَةَ الْأَخِيرَةَ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ عَنْ كُلِّ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ لِمُوسَى وَيُلْحَقُ بِهِ وَزِيرُهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَي: كُلُّ هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَى يَدِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ طَوَالَ سِنِينَ سِحْرٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ، يَعْتَمِدُ عَلَى أَعْمَالِ سِحْرِيَّةٍ، تَصِلُ إِلَى حَدِّ تَغْيِيرِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ.

ومعنى النصِّ بعد هذا التحليل: فعقب أن جاءتهم كُلُّ آيَاتِنَا الواضحات المضيئات بقوة بيانها في أزمان متفرقة، حتَّى الآية الأخيرة منها وهي آية الرَّجْزِ.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج، في الحديث عن

آخر الآيات الربانية قبل خروج بني إسرائيل من مصر مباشرة، ما يلي:

«٢٩ فَحَدَّثَ فِي نَصْفِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَكْرٍ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكْرِ الْأَسِيرِ الَّذِي فِي السَّجْنِ وَكُلَّ بَكْرٍ بِهَيْمَةٍ ٢٠ فَقَامَ فِرْعَوْنُ لَيْلًا وَكُلُّ عَبِيدِهِ وَجَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ. وَكَانَ صَرَخُ عَظِيمٍ فِي مِصْرَ. لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيِّتٌ. ٢١ فَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلًا وَقَالَ: قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا...».

فقد يكون هذا هو الرَّجَرُ، وقد تكون هذه الآية آخر الآيات الربانية التي آتاها الله لموسى عليه السَّلام، ولكن كيف يأمر فرعون بني إسرائيل بالخروج من مصر ثم يلاحقهم ليقاتلهم لأنهم خرجوا.

وعلى الرغم من شدة وقعها، وما فيها من مصائب، جحدّها فرعون وكبراء دولته، حالة كونهم ظالمين بهذا الجحود، وظالمين في مختلف تصرّفاتهم، وحالة كونهم مُستَمْسِكِينَ بعُلُوّهم على شعب مصر القبطي، ومن يرونهم في مصر عبيداً لهم وهم بنو إسرائيل.

أو جحدوها بسبب حِرْصِهِمْ على أن يستمرّوا ظالمين، وذوي عُلُوّ في أرض مصر، مُستَمْتِعِينَ بمشاعر العظمة، ونفوذ أوامرهم ونواهيهم دون معارضة ولا معصية، وما يَحْصُلُونَ عليه بذلك من منافع ولذاتٍ وتحقيق مصالح خاصّة.

فأخذناهم واستدرجناهم، وزينّا لهم العبور في طريق البحر بين فِلَقَتَيْهِ الْجَامِدَتَيْنِ كَالْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، حتى أغرقناهم جميعاً.

فانظر أيّها المتفكّر أيّا كُنْتَ، في حُكْمَتِنَا وَعَذَلِنَا وَعِقُوبَاتِنَا الْعَادَلَاتِ الْقَاهِرَاتِ، وانظر كيف كانت عاقبة هؤلاء المفسدين في أرض مصر، فرعون وملّئهِ وجنودهم.



ثالثاً

نص سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)

الآيات من (٢٣ - ٤٦)

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَذْبِئِنَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْعُمُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ

عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
 ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ السَّبِيلُ
 الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا
 مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ
 وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي
 الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْنَا السُّرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
 ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
 ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ
 يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
 الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ :

تمهيد:

هذا نصٌّ طويلٌ من سورة (غافر) يتضمَّن الحديث عن المراحل
 الأخيرة، من سيرة موسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام، في مسيرتهما
 الدَّعْوِيَّة، لفرعون وسَاعِدِيهِ الأَيْمَنِ والأَيْسَرِ: هامان من القبط، وقارون من
 بني إسرائيل، ويُلْحَقُ بهم مَلَأُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ لَهُمْ نَفُوذٌ فِي قَصْرِهِ وَهُمْ أَعْيَانُ
 دَوْلَتِهِ، ثُمَّ سَائِرُ شَعْبِ مِصْرَ.

وفي هذا النصِّ تفصيل أحداثٍ لم يأتِ بيانٌ عنها في النصوص
 الأخرى، وبيانها بالتفصيل مع تدبُّر النصِّ يطول كثيراً.

ويَحْسُنُ هنا أَنْ أَقْتَصِرَ عَلَى الْمُقَدَّارِ المَوْفِيِّ ببيانٍ غير ذي طولٍ، وإذا
 يَسَّرَ الله عزَّ وجلَّ، وأَمَدًا بِالْعُمُرِ وقضى، فَسَأَسْتَوْفِي التدبُّر بالتفصيل
 الْمُسَهَّبَ عَلَى مقدار مشيئته، لدى تدبُّر سورة (غافر).

وجدير بالمتدبر الحصيف، أن يَقَعَ في تقديره باستمرار أنْ بَيَّنَ هذا النصَّ وبَيَّنَ سَائِرَ النُّصُوصِ الواردة في القرآن المجيد بشأن الحديث عن هذه المراحل الأخيرة من سيرة دعوة موسى ومعه أخوه هارون في مِضْرَ قَبْلَ الخروج ببني إسرائيل منها، تكاملاً في الدَّلَالَاتِ على المعاني المراد ببيانها، ضَمَّنَ منهج القرآن الكريم في توزيع عناصر الموضوع الواحد، على النُّصُوصِ المتفرقة الواردة في سُورٍ متعددة منه.

نظرات حول تدبّر تحليلي للفقرات :

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٣) :

لم يُذكر في هذه الآية هارون عليه السَّلام، لأنَّه وزيرُ أخيه موسى، والمساعد له، فهو مُلْحَقٌ به حُكْماً.

﴿بِآيَاتِنَا﴾ : أي: بِآيَاتِنَا التَّسْعِ الخارقَاتِ الَّتِي أجراها عزَّ وجلَّ لموسى وهارون، وقد سبق من قريب بيانها بالتفصيل.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ : أي: وبرهان عقلي واضح الدلالة، مُلْزِمٌ بالتَّسْلِيمِ، لِمَنْ كان ذا فِكْرٍ سليم، مُسْتَعِدٌّ لِلتَّنَازُلِ عن أهوائه، ونزغَاتِ شيطانه، ومُسْتَعِدٌّ لِلإيمان بالحق.

السُّلْطَانُ: يأتي في اللغة بمعنى: «الْحُجَّةُ والبرهان» وبمعنى: «الْقُوَّةُ والقَهْر» وبمعنى «الْمُلْكُ وَالْوِلَايَةُ على الناس» والمناسب هنا المعنى الأول.

• ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ﴾ :

خُصَّ هؤلاء الثلاثة بالذكر في هذا النص، للدلالة على أنْ فِرْعَوْنَ هو المَلِكُ الَّذِي جعلَ نَفْسَهُ إلهاً لشعبه، وأنْ هَامَانَ وَزِيرُهُ الأول، وساعده الأيمنُ المنفذ لرغباته، والمُشارِكُ لَهُ في السُّلْطَانِ على شعب مصر، ولأنَّ

قارونَ وزيرُهُ الثاني، وساعدهُ الأيسرُ في التَّسَلُّطِ على شَعْبِ بني إسرائيلَ،
إِذْ هو إِسْرَائِيلِيُّ مُنْتَفِعٌ من القصرِ الفرعوني، لِيُحَقِّقَ مَطَالِبَ فرعونَ في بني
إسرائيلَ، في البغي عليهم.
ذَكَرَ قَارُونُ هنا في هذا النَصِّ إضافةً على ما جاء في النِّصْنِ
السابقين.

• ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾:

أي: فقال هؤلاء الثلاثة عن موسى عليه السَّلام: هذا ساحرٌ كذابٌ
في ادِّعاء أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وكذلك قالوا عن هارونَ، لأنَّه وزيرُ
مُوسَى وساعدهُ الأيمنَ، فما يكونُ حَدِيثاً عن موسى يُنْسَحَبُ على هارونَ.
• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾:

هذا بيانٌ صادرٌ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، أي: فَلَمَّا جاءهم موسى باعتباره
الرَّسُولِ الأوَّلِ بالحقِّ، من الآياتِ البَيِّنَاتِ الخوارق، والحججِ البرهانيَّةِ
الدامغة.

• ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾:

أي: اقْتُلُوا من أولادِ الَّذِينَ آمَنُوا مع مُوسَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وبما
جاء به من عند ربِّه على ما يَزْعُمُ، الْمَوَالِدَ الذُّكُورَ، واستَبْقُوا المولوداتِ
الْإِنَاثِ أحياءَ، لِيَبْلُغُوا مَبْلَغَ النِّسَاءِ، فَتَنْتَفِعَ مِنْهُنَّ بِالاستعبادِ والتَّسْخِيرِ.

عبارة: ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾ ذَاتُ لَازِمٍ فِكْرِي يُفْهَمُ بِالتَّلْقَائِيَّةِ، أي: آمَنُوا
بِمُوسَى وَهَارُونَ رَسُولَيْنِ، وَآمَنُوا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَآمَنُوا بما جاء به من
عند الله، وكانوا مع موسى بهذا الإيمانِ مُصَاحِبِينَ له.

ومعنى: ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾: احرصوا على استبقاء مواليدهم من
الْإِنَاثِ، لِأَنَّ مصيرَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ نِسَاءً، وَعِنْدُ نِسَاءِ نِسَاءٍ، وَنُسْخَرُهُنَّ، وَلَا
يَسْتَطِيعْنَ أَنْ يَكُونَنَّ جِيشاً لِقِتَالِنَا.

• ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٢٥﴾ :

الكيد: التدبير، سواء أكان خفياً أم ظاهراً بحق أم بباطل، وفيه مكروه لمن دبر ضده.

وكيد الكافرين إنما يكون بالباطل، ضد الحق وأصحابه، وهو لا يكون إلا في ضلال، أي: لا يكون إلا منغمساً في ضلال، أي: في ضياع، فلا يحقق في آخر الأمر لهم إلا خيبة وخساراً، لأنهم يريدون بكيدهم إحاض الحق الرباني.

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۝٢٦﴾ :

أي: وقال فرعون لهامان وقارون وسائر ملئه من آله وأهل مشورته: دعوني أقتل موسى، ولا تُشيرُوا عليّ بَعْدَ قَتْلِهِ، وليدعُ رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ أُنْفَذَ فيه القتل بسُرعة وسريّة، دون أن يصل إليه علم بعزمنا على قتله، أو بإصدار قرارنا بقتله.

• ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝٢٧﴾ :

• [أَوْ أَنْ يُظْهِرَ] في قراءة حفص ويعقوب، من فعل «أظْهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «أو».

• [أَوْ أَنْ يُظْهِرَ] في قراءة شُعْبَةَ، وحمزة والكسائي وخلف من فعل: «ظَهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «أو».

• [وَأَنْ يُظْهِرَ] في قراءة نافع، وأبي عمرو، وأبي جعفر، من فعل: «أظْهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «الواو».

• [وَأَنْ يُظْهِرَ] في قراءة ابن كثير، وابن عامر، من فعل «ظَهَرَ يُظْهِرُ» وبحرف العطف «الواو».

مؤدى قراءتي [يُظْهِرَ] و[يُظْهِرَ] متقارب، وفي «يُظْهِرُ» معنى: وَيَعْمَلُ

مُوسَى عَلَى إِظْهَارِ الْفُسَادِ. وَفِي [يُظْهِرَ] مَعْنَى: وَتَكُونُ جُرْأَتُهُ عَلَيْنَا فِي دَعْوَتِهِ، وَإِجْرَائِهِ الْخَوَارِقَ سَبَبًا فِي جُرْأَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْنَا، وَرَبَّمَا فِي جُرْأَةِ الْقَبْطِ أَيْضًا.

وَفِي قِرَاءَتِي: «أَوْ» وَ«الْوَاوِ» دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ مَرَّةً: مَا يَدُلُّ عَلَى تَخَوُّفِهِ مِنْ حَدُوثِ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: تَبْدِيلِ الدِّينِ، أَوْ ظَهْوَرِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَمِرَادُهُ بظهور الفساد، خُرُوجِ الشَّعْبِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَالْخُضُوعِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ. وَأَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى تَخَوُّفِهِ مِنْ حَدُوثِ الْأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا.

وَتَبْدِيلِ الدِّينِ يَكُونُ بِأَن يَنْتَشِرَ الدِّينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فِي الشَّعْبِ الْقَبْطِيِّ، بِتَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ، وَتَأْثِيرِ خَوَارِقِهِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا.

وَإِظْهَارِ الْفُسَادِ يَكُونُ بِأَن يَتِمَرَّدَ الشَّعْبُ الْمِصْرِيُّ عَلَى أَوَامِرِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ وَنَوَاهِيهِ، وَالثَّوْرَةَ عَلَى التَّقَالِيدِ السُّلْطَانِيَّةِ الْمَتَّبَعَةِ.

• ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٧٧):

أَي: وَبَلَغَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا عَرَضَهُ فِرْعَوْنُ عَلَى أَهْلِ مَشُورَتِهِ، إِذْ قَالَ لَهُمْ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْلَغَ مُوسَى ذَلِكَ سِرًّا مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ مَشُورَةِ فِرْعَوْنَ، إِذْ كَانَ يَتَّصِلُ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سِرًّا، وَيَأْخُذُ عَنْهُ الْقَضَايَا الدِّينِيَّةَ وَأَدْلَتَهَا.

فَاسْتَعَاذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا: لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمِنَ الْقَبْطِ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَقَالَةُ الْعَلْنِيَّةُ قَدْ بَلَغَتْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ، فَخَافُوا مِنْ دُعَائِهِ، قَبْلَ أَنْ يُضْذِرُوا قَرَارًا بِالْأَمْرِ بِقَتْلِهِ، وَرَبَّمَا عَدَلُوا عَنْ ذَلِكَ بِسَبَبِ دُعَائِهِ.

﴿عَذْتُ﴾: أي: لُذْتُ، وَاغْتَصَمْتُ، وَالتَّجَأْتُ، إِلَى رَبِّي وَرَبِّكُمْ، لِيُخَمِّنِي مِنْ كَيْدِ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ، وَمِنْ كَيْدِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ بِقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ، جَبَّارٍ مُتَسَلِّطٍ يُكْرِهُ النَّاسَ بِالْقُوَّةِ وَالْعَنْفِ عَلَى مَا يَرِيدُ، وَلَا يُؤْمِنُ بِالْجِزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الْحِسَابِ.

• ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾... ﴿٢٨﴾:

أي: وقال مؤمنٌ مُسْلِمٌ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ، وَعَنْ كُلِّ مَنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَلَ الْعِلْمُ إِلَى الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، بِأَنَّهُ آمَنَ بِمُوسَى وَاتَّبَعَ دِينَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ مَشُورَةِ فِرْعَوْنَ فِي قَصْرِهِ، وَمِنْ الَّذِينَ يَخْضَرُونَ الْمَجَالِسَ الَّتِي تُعْرَضُ فِيهَا قَضَايَا الدَّوْلَةِ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّخَذَ مِنْ قَرَارَاتٍ وَأَوَامِرٍ حَيَالِهَا.

• ﴿أَفَقَتَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾... ﴿٢٨﴾؟!:

أي: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مُوسَى لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْقَتْلَ بِمُقْتَضَى أَنْظِمَةِ وَأَعْرَافِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، فَمَا هِيَ ذَرِيعَتُكُمْ لِقَتْلِهِ بِمُقْتَضَى أَنْظِمَتِكُمُ الْمَرْعِيَّةِ.

الأَجَلُ أَنَّهُ يَقُولُ: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وَلَيْسَ فِرْعَوْنُ مِصْرَ رَبِّي، تَقْتُلُونَهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْآيَاتِ الْخَوَارِقِ، وَهِيَ الْآيَاتُ التَّسْعُ، وَجَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحَجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ مِنْ رَبِّكُمْ؟!.

ويُظْهِرُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ قَدْ قَالَ قَوْلَهُ، هَذَا وَمَا بَعْدَهُ فِي إِحْدَى الْجُلُوسَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، لِمَجَالِسِ الْمَدَاوِلَاتِ الْإِسْتِثَارِيَّةِ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، إِذْ هُوَ أَحَدُ أَعْضَائِهِ.

• ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ...﴾ ﴿٢٨﴾ :

أي: وإن يكن (حُذِفَتْ النُّونُ تخفيفاً وإيجازاً في اللَّفْظ) كاذباً على ربه فيما ادّعاه، فإنَّ كَذِبَهُ سَيَجْنِي عَلَيْهِ، فَيُنْزِلُ الرَّبُّ عَلَيْهِ عَذَابَهُ، لَأَنَّهُ يَفْتَرِي عليه، والرَّبُّ لا يَتْرُكُ أحداً يَفْتَرِي عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُنْزَلَ بِهِ عِقَابُهُ.

• ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ...﴾ ﴿٢٨﴾ :

أي: وإن يكن صادقاً في أنه رسولُ رَبِّ العالمين، وصادقاً فيما يُبَلِّغُ عنه، فلا بُدَّ أَنْ يُصِيبَكُمْ نازالاً بِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يُنْذِرُكُمْ إِيَّاهُ من عذاب الله، في أخف الاحتمالات، إن لم يُصِيبْكُمْ كُلُّ ما أُنْذِرُكُمْ بِهِ.

﴿يَعِدُكُمْ﴾: أي: يَعِدُكُمْ بِهِ، الوعد: يكون في الخير، ويكون في الشرّ، يُقال لغة: وَعَدَهُ بِنَفْعٍ، وَعَدَهُ بِضَرٍّ.

لقد خَفَّفَ هذا المؤمنُ مِنْ أَسْلُوبِهِ الْإِنْذَارِيِّ، لِيَكُونَ كَلَامُهُ أَوْقَعَ فِي نفوس كُبراءِ الدَّولةِ الفرعونية، ذوي الكِبَرِ والبَّاسِ والكلمة السلطانية النافذة في ظلِّ تَمَكُّينِ فرعونَ لهم.

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿٢٨﴾ :

أي: إِنَّ اللَّهَ رَبَّ العالمين، لا يَتْرُكُ أحداً يَسِيرُ مَهْدِيّاً ناجحاً في حالة كونه مُسْرِفاً في ادّعائه على ربه، متجاوزاً حُدُودَ الْحَقِّ، كَذَّاباً في ادّعاءاته عليه.

لَكِنَّ الَّذِي رَأَيْنَاهُ، هو أن الله قَدْ أَمَدَّهُ بِالآيَاتِ التي أجراها لَهُ، فكان فيها مَهْدِيّاً على صراط الله المستقيم.

• ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ ﴿٢٩﴾ :

في هذا الخطاب تودّد من مُؤْمِنِ آلِ فرعونَ، لأعضاء المجلس الفرعوني، بعبارة: ﴿يَقَوْمِ﴾ أي: أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ،

حَالَةَ كَوْنِكُمْ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ الْمَصْرِیَّةِ، بِتَمْلِكِ اللَّهِ لَكُمْ هَذَا الْمُلْكَ، وَتَمَكِّنِكُمْ مِنَ الظُّهُورِ وَالتَّفَوُّقِ السُّلْطَانِيِّ، وَمِنْ وَاجِبِكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا حَبَاكُمْ مِنْ هَذَا الْمُلْكَ، لَا أَنْ تُقَاوِمُوا دَعْوَةَ رَسُولِهِ، وَتُحَارِبُوهَا.

• ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا...﴾ ﴿٢٩﴾؟!.

أي: فَمَنْ يَنْصُرُنَا، فَيُحْمِيْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟! . ضَمِينَ فَعَلَ «يَنْصُرُ» معنى فعل: «يُحْمِي، أَوْ يَقِي» فَعْدِي تَعْدِيَّتِهِ.

البأس: هو العذاب الشديد.

وَتَلَطَّفَ فِي عِبَارَتِهِ فَلَمْ يَقُلْ: إِذَا جَاءَنَا، مَبِينًا رُجْحَانَ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ مَبِينًا احْتِمَالَ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ وَلَوْ بِالظَّنِّ الضَّعِيفِ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَتِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿٣٠﴾:

دَلَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي صَدَرَ عَنْ فِرْعَوْنَ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ ضَاقَ صَدْرُهُ مِنْ أَقْوَالِ هَذَا الرَّجُلِ مِنْ آلِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيْهِ الْحَدِيثَ، خَشْيَةً أَنْ يُؤَثَّرَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كُتَبَاءِ دَوْلَتِهِ فِي مَجْلِسِهِ الْإِسْتِشَارِيِّ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا أُرِيكُمْ فِيمَا أَقْدَمَ لَكُمْ مِنْ رَأْيٍ، إِلَّا مَا أَرَاهُ أَنَا لِنَفْسِي، وَمَا أَهْدِيكُمْ فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ.

الرَّشَادُ، وَالرُّشْدُ، وَالرَّشْدُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، وَالنَّفْسِيُّ، وَالْخُلُقِيُّ، وَالْعَمَلِيُّ، الْمُوَافِقُ لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ، أَوْ لِمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ، وَالْأَكْثَرُ نَفْعًا، وَالْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

• ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَذَكَّرُ إِلَىٰ نَجَاتِ اللَّهِ أَحَافَ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٣١﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾ ﴿٣٢﴾:

أي: لَكِنَّ مُؤْمِنِينَ آلِ فِرْعَوْنَ لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ مُتَابَعَةِ كَلَامِهِ، فِي مَجْلَسِ

فرعون الاستشاري، وأغفل إشارة فرعون له بأن يكف عن مُتَابَعَةِ حديثه، إذ قَدَّم فرعون كلمته القاطعة، بل تابع كلامه، وربما تابع كلامه في جَلْسَةِ أُخْرَى لاحقة.

فأبان خوفه عليهم بعد أن تَلَطَّف بهم بقوله لهم: ﴿يَنْقُومِ﴾ من أن يُنْزَلَ الله بهم عذاباً وإهلاكاً شاملاً، مثل ما أنْزَلَ مِنْ عَذَابٍ وإهلاكٍ في يَوْمِ الْأَحْزَابِ، أي: في الأيام التي أنزل فيها عذابه وإهلاكه، وفي عبارة: ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ تنبيه على أن هذه الأيام هي بمثابة يوم واحد، لتشابه نتائجها في التعذيب والإهلاك، ولأنها خاضعة لِسُنَّةِ رَبَّانِيَّةِ جزائية واحدة.

والمراد بالأحزاب أحزاب الكفر والعناد التي سَلَفَتْ في التاريخ البشري. وقد جاء تفسير ذلك بعبارة: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾:

الدَّابُّ: العادة، والسُّنَّةُ الثابتة التي تَتَكَرَّرُ في أحداث الدهر. أي: مثل سُنَّةِ الله الجزائية التي تَكَرَّرَتْ في قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، والذين من بعدهم من أقوام أهلكهم الله عز وجل بسبب كفرهم، وعنادهم، وتمردهم على رُسُلِ رَبِّهِمْ.

• ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۖ﴾ (٢١):

أي: وتعذيب الله لهؤلاء الأقوام وإهلاكهم إهلاكاً جماعياً ماحقاً، قد كان بمقتضى حِكْمَةِ الله رَبِّ الْعَالَمِينَ وعذله، ولم يكن ظُلماً منه لهم، لأنَّ الله لَا يُرِيدُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ظُلْماً ما لعباده، فيما يجريه عليهم من تعذيب وإهلاك جماعيٍّ شامل.

• ﴿وَيَنْقُومِ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ۖ﴾ (٢٢):

﴿النَّادِ﴾: هو التنادي، حُذِفَت الياء إيجازاً في نطق اللفظ، وتخفيفاً، ونظيره في القرآن كثير، وهو من أساليب العرب في النطق.

يقال لغة: تَنَادَى القوم، أي: صار ينادي بعضهم بعضاً.

وأطلقت عبارة: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ على «يوم الدين» لما يحْصُل فيه من تنادٍ، إذ يُنادي فيه أهل الإيمان أهل الكفر نداءً عَنْ بُعْدٍ بين الفريقين، وينادي فيه أهل الكفر أهل الإيمان.

ومن التنادي يوم الدين، ما يلي:

(١) قول المنافقين للمؤمنين في المحشر عند السَّوْق، كما جاء في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا...﴾ (١٣).

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤).

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨).

(٤) وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠).

• ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَذْرِبِينَ...﴾ (٣٣):

أي: يَوْمَ تُحَاوِلُونَ أَنْ تَنَآوُوا وَتَبْتَغِدُوا عَنْ مَكَانِ دَارِ الْعَذَابِ، مُذْبِرِينَ عنها، تَجْعَلُونَهَا وراءَ ظهوركم رَغْبَةً فِي أَنْ تَفْرُوا مِنْهَا.

• ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ...﴾ (٣٣):

«مِنْ» معناه هنا «الْبَدَل». أي: ما لَكُمْ بَدَل الله من عَاصِمٍ يَعْصِمُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ، الذي قضى به عليكم بسبب كُفْرِكُمْ وإِجْرَامِكُمْ.

• ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ...﴾ (٣٣):

أي: وَمَنْ يَحْكُمُ الله يَوْمِئِذٍ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، بناءً على إِدَانَتِهِ بِأَنَّهُ كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضَالًّا كَافِرًا مُجْرِمًا بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ، فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهَدَايَةِ، إِنْ الْحَكْمُ يَوْمِئِذٍ إِلَّا اللهُ.

ولا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الدِّينِيَّةُ قَدْ تَعَلَّمَهَا مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ مُوسَى فِي لِقَاءَاتِهِ السَّرِيَّةِ لَهُ، بَعْدَ إِيمَانِهِ بِصِدْقِ آيَاتِ الْخَوَارِقِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ مِنْ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكِلَاهُمَا كَانَا رَسُولَيْنِ يَدْعُوَانِ فِي مِصْرَ إِلَى دِينِ اللهِ الْحَقِّ.

• ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ (٣٤):

أي: وَأُكِّدُ وَأُحَقِّقُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ يَوْسُفُ مِنْ قَبْلِ مُوسَى وَهَارُونَ، بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَاتِ، حَوْلَ الْإِيمَانِ بِالرَّبِّ الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ الْإِلَهُ فِي الْوُجُودِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَحَوْلَ وُجُوبِ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ لِعِبَادِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ.

• ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ...﴾ (٣٤):

﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ الزوال: التحوُّل والانتقال. يقالُ لغة: «زَالَ مِنْ مَكَانِهِ، وَزَالَ عَنْ مَكَانِهِ، يَزُولُ، زَوَالًا، وَزَوَلَانًا» أي: تَحَوَّلَ عَنْهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهِ.

أي: فَمَا تَحَوَّلْتُمْ عَنْ مَكَانِ انْغِمَاسِكُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّكُمْ.

• ﴿حَقَّقْ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا...﴾ (٣٤):

﴿هَلَكَ﴾: أي: ماتَ بعدَ أن توفَّاهُ اللهُ أجله في الحياة الدنيا.

أي: حتَّى إذا مات اعتَرَفْتُمْ بأنَّه كان رسولاَ من رَبِّكم، وزعمْتُمْ أنَّ الله لَنْ يَبْعَثَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا، يُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّكم ما يجب عليكم أن تُقْلِعُوا عنه، من كُفْرِيَّاتٍ وجرائم. فصرْتُمْ بعد موته منطلقين في رُكُوب الآثام التي لكم بها لذاتٌ وشهواتٌ وتحقيق أهواءٍ بإسراف، وَلَيْسَ بينكم ذو سلطانٍ يَرُدُّعُكُمْ عنها، ويخوِّفُكم من عَذَابِ رَبِّكم.

• ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٤):

أي: فضَلَلْتُمْ في أقوالِكم وسُلُوككم، فحكَمَ اللهُ عَلَيْكم بالضلال، وكذلك الذي كان منكم، وحكَمَ به عَلَيْكم بالضلال، إذ ارتَبْتُمْ شاكِّين في الحقِّ الرَّبَّاني، وإذ أَسْرَفْتُمْ في رُكُوب الآثام، يُضِلُّ اللهُ بِعَذْلِهِ وحكْمَتِهِ، كُلَّ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ في آثامه، مُرْتَابٌ شاكٌّ فيما جاء عن رَبِّ العالمين، مقرونًا بالبراهين اليَقِينِيَّة، فَسَنَّهُ اللهُ في عبادته واحدة.

• ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ...﴾ (٣٥):

أي: الَّذِينَ يجادِلُونَ في صِحَّةِ آيَاتِ الله البرهانية من الخوارق، وفي صحة آياته البيانيَّة المؤيِّدة بالبراهين العقلية، لِيَتَّخِذُوا المجادلةَ وسيلةً لإنكار الحقِّ الرَّبَّاني، وَلَيْسَ لديهم حجةٌ صَحِيحةٌ جَاءَتْهُمْ من رَبِّهم، من براهين عقلية، أو كتابٍ صحيحٍ مُنْزَلٍ من عند الله، يَكُونُونَ مَمْقُوتِينَ من الله ومن الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ مُقْتًا كبيراً.

• ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٣٥):

أي: كَبُرَ مَقْتٌ عَمَلُهُمْ، عند الله، وعند الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وبما أنزل الله لعباده.

المفت: أشد الكراهية.

• ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾:

الطَّبْعُ على القلب: جَعَلَهُ محجوباً عن إدراك شيءٍ مَا يتعلَّق بما هو محجوبٌ عنه.

الطَّبْعُ في المادِّيَّاتِ الْمُحَسَّسَةِ كالختم، وقد كان من عادة الملوك وغيرهم، إذا أُرْسِلُوا رَسَائِلَ وَأَرَادُوا المحافظة على سِرِّيَّةِ ما فيها، أَقْفَلُوهَا بإحكام، ووضَعُوا عند مكانِ إقفالها طِيناً خَاصّاً يطبعونَ عَلَيْهِ خَاتَمَهُم الخاصَّ بهم، فيجفُّ الطينُ ومِثَالُ الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يُمكنُ مَعْرِفَتُهُ مَا في داخلِ الرِّسالةِ إِلَّا بِكَسْرِ خاتمِ الطين.

وعلى سبيل التشبيه والتوسُّع في التعبير جاء في القرآن التعبير بالطَّبْعِ والختم على القلوب، للدلالة على أَنَّهَا صارتُ محجوبةً عن إدراك شيءٍ مَا يتعلَّقُ بما هي محجوبةٌ عنه.

وطبَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ على قَلْبِ الْعَبْدِ، يكونُ نتيجةً لما يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ بإرادته الحرَّة، من أَعْمَالٍ ظاهرة وباطنة، يتولَّدُ عَنْهَا بمقتضى سُنَّةِ اللَّهِ في قوانين الأسباب والمسبِّباتِ الثابتاتِ نتيجةُ الطَّبْعِ، وهذه القوانين إنَّما تتحقَّقُ نتائجها بخلق الله عَزَّ وَجَلَّ، كإماتَةِ الله مَنْ يَقْتُلُ نفسه بِحديدة، أو يَحْتَسِي شراباً فيه سُمٌّ قاتل.

فالمعنى: مثل ذلك الطبع الذي طبعه الله على كُلِّ قُلُوبِكُمْ، فَحَجَبَكُمْ عن إدراكِ الحقِّ الرَّبَّانِي، بسببِ كِبَرِكُمْ، وَحِرْصِكُمْ الشديد على العُلُوِّ في الأرض، وبسببِ جبروتِكُمْ وقَهْرِكُمْ الظالم لعباد الله، يطبَعُ اللَّهُ على كُلِّ جوانبِ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ، فلا يَكُونُ في جانبٍ منها مقدارٌ غيرُ محجوبٍ تَدْخُلُ مِنْهُ أنوار الهداية الرَّبَّانِيَّةِ إليه، وهذا من سُنَنِ الله في عباده المتكبرين الجبَّارين.

إِنَّ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الدِّينِيَّةُ مَا كَانَ لِمُؤْمِن آلِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَعْلَمَهَا وَيَنْطِقَ بِهَا فِي دَعْوَتِهِ، لَكُتَبَرَاءُ رِجَالِ الْقُصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَقَّاهَا مِنْ مُوسَى أَوْ مِنْ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَتَلَقَّى مَعَهَا وَجُوب الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِجُرْأَةٍ حَكِيمَةٍ.

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَنَنْتُنِي آتِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَنْبُلُ﴾ الْأَسْبَبُ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا: ﴿٣٧﴾

ما جاء في هذا البيان دلٌّ على حركة مُرَاوَعَةٍ اتَّخَذَهَا فِرْعَوْنُ، بَعْدَ الْبَيَانِ الْمُنطِقِيِّ الْحَكِيمِ الْمُؤَثِّرِ، الَّذِي قَدَّمَهُ الْمُؤْمِنُ مِنْ آلِهِ وَأَهْلٍ مَشُورَتِهِ، بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَوَقُوفِهِ فِي مَجْلِسِ مُسْتَشَارِيهِ مَوْقِفَ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ.

وَعَرَضَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُشْعِرَ الْمُؤْمِنَ مِنْ آلِهِ، وَمَنْ يَكُونُ قَدْ تَأَثَّرَ بِبَعْضِ أَقْوَالِهِ، بِأَنَّهُ سَيَبْحَثُ فِي قَضِيَّةِ صِدْقِ مُوسَى بَحْثًا جَادًّا، عَنْ طَرِيقِ بِنَاءِ صَرْحٍ رَفِيعِ الْبَنِيَانِ، يَحْتَاجُ إِتْمَامَهُ زَمَنًا طَوِيلًا، رَغْبَةً فِي أَنْ يَضَعَدَ إِلَى أَعْلَاهُ، فَيَصِلَ إِلَى أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ، فَيَتَّخِذَهَا مُرْتَقِيًّا إِلَيْهَا، لِيُشَاهِدَ فِيهَا إِلَهَ مُوسَى.

لَمْ يَكُنْ فِرْعَوْنُ مِنَ الْغَبَاءِ الَّذِي يَتَصَوَّرُ مَعَهُ أَنَّهُ قَادِرٌ بِوَسَائِلِهِ أَنْ يَرْتَقِيَ إِلَى السَّمَاوَاتِ، لَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخَادِعَ بِأَنَّهُ سَيَتَّخِذُ وَسَائِلَ يَصِلُ بِهَا إِلَى إِلَهِ مُوسَى فِي السَّمَاءِ، فَإِنْ شَاهَدَهُ آمَنَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَشَاهِدْهُ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ مُوسَى كَاذِبٌ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

وَقَدَّمَ فِرْعَوْنُ عِبَارَةً غَيْرَ مُقْطُوعٍ بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ لِيُخَفِّفَ بِهَا شِدَّةَ انْدِفَاعِ الْمُؤْمِنِ بِمُوسَى مِنْ آلِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُوسَى وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَلِيُؤَجِّلَ بَحْثَ الْمَوْضُوعِ، وَيَتَّخِذَ فِي السَّرِّ وَسَائِلَ يَتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ هَذَا الْمُؤْمِنِ مِنْ آلِهِ، فَيَمْكُرُ بِهِ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ قَتْلِهِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ.

أَلَا أَنَّ مَكْرَ اللَّهِ كَانَ أَسْرَعَ مِنْ مَكْرِهِ، وَكَيْدَ اللَّهِ كَانَ أَشَدَّ مِنْ كَيْدِهِ، فَأَخْبَطَ تَذْبِيرَاتِهِ، وَاسْتَدْرَجَهُ إِلَى مُتَابَعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ دُونَ أَنْ يُأْذَنَ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ، وَأَغْرَقَهُ اللَّهُ وَأَغْرَقَ جَيْشَهُ فِي الْبَحْرِ.

• ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ...﴾ (٢٧) :

هذا بيانٌ رَبَّانِيٌّ جاءَ تعليقاً على مُراوَعَةِ فرعون.

أي: ومثل ذلك التزيين الذي زَيَّنَهُ الشيطان لفرعون في مراوغته بأمره لهامان ببناء الصُّرْحِ للاطلاع إلى إله موسى، بغية قَطْعِ دَعْوَةِ الْمُؤْمِنِ مِنْ آلِهِ، فِي مَجْلِسِ وَزَرَاتِهِ وَأَهْلِ مَشُورَتِهِ، زَيْنٌ لَهُ أَيْضاً سُوءُ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُهُ دَوَاماً، لِتَحْقِيقِ أَهْوَاءِهِ وَشَهَوَاتِهِ، وَفَرْضِ سُلْطَانِهِ الْإِسْتِبْدَادِيِّ عَلَى شَعْبِهِ، وَسُلْطَانِهِ الْإِسْتِعْبَادِيِّ لِشَعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَسُوءِ عَمَلِهِ الَّذِي دَبَّرَهُ ضِدَّ الْمُؤْمِنِ مِنْ آلِهِ. ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾: أي: وَصُرِفَ بِضَوَاغِطِ نَزَعَاتِهِ وَأَهْوَائِهِ، وَبُوسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلَاتِهِ عَنِ السَّبِيلِ، الَّذِي هُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، عَقِيدَةٌ، وَقَوْلًا، وَعَمَلًا، وَخُلُقًا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

• ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٢٧) :

الكَيْدُ: التَّدْبِيرُ لِتَحْقِيقِ أَمْرِ مَا، بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ، بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ.

التَّبَابُ: الْإِنْقِطَاعُ، وَقَدْ يَعْقُبُ الْإِنْقِطَاعَ الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ. وَالْمُرَادُ هُنَا الْإِنْقِطَاعُ عَنْ تَحْقِيقِ مَا يَرْجُو فرعونُ مِنَ الْكَيْدِ الَّذِي كَادَهُ وَيَكِيدُهُ، لِأَنَّ كَيْدَهُ قَدْ كَانَ بِبَاطِلٍ وَشَرٍّ، إِذْ سَيَّخَبُ اللَّهُ أُمُورَهُ وَمَسَاعِيَهُ الظَّالِمَةِ الْآثِمَةِ، فَلَا يَتَحَقَّقُ لَهُ فِي النَتِيجَةِ مَا كَانَ يَرْوُمُ.

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بِاللَّوْازِمِ الذَّهْنِيَّةِ، وَدَلَائِلِ اقْتِرَانِ الْبَيَانِ بِالْبَيَانِ، عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ كَادَ الْمُؤْمِنَ مِنْ آلِهِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْهُ بِالْقَتْلِ، دُونَ أَنْ يُثِيرَ سَائِرَ آلِهِ عَلَيْهِ، لَكِنَّ كَيْدَهُ انْقَطَعَ فَلَمْ يَتَحَقَّقْ لَهُ مَا أَرَادَ.

• ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُوا أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ :
دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ كَشَفَ هُوِيَّتَهُ لَجَمِيعِ آلِهِ،
لِلْقَبْطِ مِنْ حَوْلِهِ، وَصَارَ دَاعِيَةً حَكِيمًا رَشِيدًا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ، وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ عَنْ اللَّهِ، بِبَلَاغَاتِ مُوسَى وَهَارُونَ، وَاتَّبَاعِ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ.

• ﴿يَتَقَوَّمُوا أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ :

أي: يَا قَوْمِ إِنِّي بَدَافِعُ حِرْصِي عَلَى نَجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ، أَقُولُ لَكُمْ:
اتَّبِعُونِي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، أُبَيِّنُ لَكُمْ سَبِيلَ السُّلُوكِ الْفَكْرِيِّ،
وَالنَّفْسِيِّ، وَالْخُلُقِيِّ، وَالْعَمَلِيِّ، الْمَوَافِقَ لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَالْمَوَافِقَ لِمَا هُوَ
الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ، وَالْأَكْثَرُ نَفْعًا، وَالْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ، وَالَّذِي يَحَقِّقُ لَكُمْ
خَيْرَ الدُّنْيَا، وَالنَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ فِي الْجَحِيمِ، وَالسَّعَادَةَ
الْخَالِدَةَ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

• ﴿يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ :

أي: يَا قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي وَأَبْنَاءُ بَلَدِي، أَخْبِرُكُمْ بِحَقِيقَةِ
أَنْتُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا، مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ سَرِيعُ الزَّوَالِ، فَعُمُرُ
الْإِنْسَانِ فِيهَا عُمُرٌ قَصِيرٌ مَشْحُونٌ بِالْأَكْذَارِ، بَيْنَهَا اسْتِمْتَاعَاتُ مُحَبَّبَاتٍ، إِلَّا
أَنَّهَا كَالرَّذَاذِ ضِمْنِ أَكْذَارٍ ذَوَاتِ حَرٍّ شَدِيدٍ، أَوْ غِبَارٍ غَيْرِ حَمِيدٍ.

المتاع: هُوَ فِي اللَّغَةِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مَقْدَارًا مَّا مِنَ الزَّمَنِ، لَكِنَّ مَصِيرَهُ
إِلَى الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ، وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا كَمَا يَبْقَى مِنَ الْأَحْلَامِ بَعْدَ الْيَقِظَةِ.

• ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ :

أي: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى بَعْدَ الْبَعْثِ، هِيَ دَارُ
الْإِقَامَةِ الدَّائِمَةِ، وَالسُّكُونِ وَالْإِطْمِنَانِ، وَالِاسْتِقْرَارِ.

يقال لغة: قَرَّ في المكان، أي: أقام متمكناً ساكناً مُطمَئناً مستقراً.

ودار القرار: هي دار الاستقرار، والإقامة الدائمة، بسكون واطمئنان، وهذا المعنى اصطلاح قرآني، مأخوذ من الوضع اللُّغوي، بإضافة معنى الدوام إليه، أي: الخلود بلا نهاية، والمرادُ بدار القرار الجنة.

• ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا...﴾ ﴿٤٥﴾:

أي: من عمل سيئة فإنه سوف يُجْزَى جزاءً مثلَ سَيِّئته يسوؤه، ولا يُجْزَى جزاءً يسره، وهذا الجزاء يكون مساوياً لسيئته، ولا يُظلم بمجازاته أكثر من سيئته، وتقدير المساواة يكون بميزان العدل الربّاني الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

• ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٤٦﴾:

أي: ومن عمل صالحاً كما شرع الله لعباده من صالحات، سواء أكان ذكراً أم أنثى، حالة كونه مؤمناً بالله وبكلِّ ما أمر الله بالإيمان به، فأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ يوم الدين الجنة، حالة كونهم يُرْزَقُونَ فيها أرزاقاً لا تنقطع، وهم يَنَالُونَ مِنْ فيضها بغير تقدير ولا حساب معدود عليهم، بل ينالون منها على ما يحبون، ويشتهون، ويلذُّ لهم.

هذه البيانات التي جعلها مؤمن آل فرعون جزءاً من عناصر دعوته لقومه، أخذاً من موسى وهارون عليهما السلام، مطابقة لما جاء في القرآن المجيد بياناً للناس أجمعين، وهذا يدلُّ على وحدة القاعدة الإيمانية في الرّسالتين الموسوية والمحمدية، إلا أن الذين دَوَّنوا دين موسى حَذُّوا وأضافوا وبدَّلوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ جهلاً، أو افتراءً على دين الله الحق، وهو الإسلام، أو أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به.

• ﴿وَيَقُولُوا مَا لِيَ آدَعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾

تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَرِيزِ
الْفَقْرِ ﴿٤٢﴾:

دَلَّ هذا البيان على أَنَّ جدالاً حاداً قَامَ بَيْنَ هذا المؤمنِ من آلِ
فِرْعَوْنَ، وَبَيْنَ عَلَيْهِ مِنْ آلِهِ وَرجالِ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ.

ويظهر أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ حاضراً مجلسِ المجادلة، لكنَّهُ كَانَ عَلَى
عِلْمٍ بما يجري فيه من دون أن يكونَ حاضراً فيه، وَيَسْهَلُ الأَمْرُ بالتَّسْمَعِ
من وراءِ حجابٍ لا يَحْجُبُ الأصوات.

﴿مَا لِي﴾؟! : في هذه العبارة محذوف، أي: مَالِي وَمَا لَكُمْ؟! وفي
هذه العبارة استفهام تعجُّبِيٍّ مِنْ أَمْرِهِ مع أَمْرِهِمْ، ومن الفارق الشاسع جداً
بين دَعْوَتِهِ لَهُمْ، ودَعْوَتِهِمْ لَهُ، ومن التناقض بينهما.

أي: أَيُّ شَيْءٍ هُوَ لِي تُنْكِرُونَهُ عَلَيَّ، من نقصٍ في الفكر، أو كراهيةٍ
لأُسْرَتِي وَأَلْيَّ، أو ولَاءٍ لغيرِ أهلي وعشيرتي وقومي، حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيَّ
نَظَرَاتِ ارْتِيَابٍ وَشَكٍّ، وَحَتَّى تُغْرِضُوا عن الإصغاء لما أَدْعُوكُمْ إليه.

وَأَيُّ شَيْءٍ هُوَ لَكُمْ تَتَمَيِّزُونَ بِهِ عَنِّي، وَأَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، وَأَيُّ
شَيْءٍ هُوَ لَكُمْ بَجَعَلْكُمْ تُلْعَوْنَ عُقُولَكُمْ، وَتَسْتَخْدِمُونَ ذَكَاءَكُمْ، في غير ما
يجب أن تَسْتَعْمِلُوهُ فيه، من إدراكِ الحقِّ، واستبصاره، والعمل بمقتضاه.

أنا أَدْعُوكُمْ بالبراهين القواطع إلى النجاة من عذاب الله في الدنيا،
وفي النار يوم الدين، وأَدْعُوكُمْ إلى تحقيق سعادتكم بالإيمان بربِّكُمْ
والإسلام له.

وَأَنْتُمْ تَدْعُونِي إِلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِهِ، وَإِلَى سُلُوكِ سُبُلٍ
تُؤَدِّي فِي نَتَائِجِهَا بَاقِينَ إِلَى عَذَابِ النَّارِ عَذَاباً أَبَدِيّاً خَالِداً.

﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ...﴾ ﴿٤٢﴾:

أَي: تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ رَبِّي وَرَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، الَّذِي قَامَتْ وَدَلَّتْ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ الْبَرَاهِينُ الْقَوَاطِعُ، الَّتِي تَفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِي الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَتَدْعُونِي لِأُشْرِكَ بِرُبُوبِيَّتِهِ أَوْ بِالْهَيْتَةِ كَائِنَاتٍ هِيَ مِنْ خَلْقِهِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِي بِرُبُوبِيَّتِهَا وَإِلَهِيَّتِهَا عِلْمٌ مُكْتَسَبٌ بِدَلِيلٍ تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ، أَوْ خَبَرٍ صَادِقٍ عَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي قَامَتْ بَرَاهِينُ الْعَقْلِ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ.

يَا عَجَباً مِنْ أَمْرِي مَعَ أَمْرِكُمْ، وَمِنْ دَعْوَتِي مَعَ دَعْوَتِكُمْ، مَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي تَرَوْنَهُ لِي، مِنْ نَقْصِ عَقْلٍ، أَوْ كَرَاهِيَةٍ لَكُمْ، أَوْ عَدَمِ حِرْصٍ عَلَى مَصَالِحِكُمْ، وَابْتِغَاءِ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ لَكُمْ؟!.

إِنَّهُ دَاعِيَةٌ إِلَى اللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، مِنْ مَسْتَوَى الْقِمَةِ فِي دَعْوَتِهِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْزِلُ بَيَاناً، مَشْعِراً بِأَنَّهَا حَقٌّ، وَبِأَنَّهَا بِمِثَابَةِ بَيَانٍ مُنْزَلٍ مِنْ لَدُنْهُ، وَمُضْمُونُهَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَأْخُودٌ مِنْ بَيَانٍ مُنْزَلٍ مِنْ لَدُنْهُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَيَانِ تَفْصِيلٌ مُوجِزٌ لِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ﴾:

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۖ﴾:

أَي: وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، وَإِلَى الْإِسْلَامِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

﴿الْعَزِيزِ﴾: أَي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ لِكُلِّ الْقَوَى، إِنَّهَا مَخْلُوقَاتٌ لَهُ، وَمُسَيَّرَاتٌ بِسُلْطَانِهِ، وَفِي ذِكْرِ هَذَا الْأَسْمِ تَخْوِيفٌ لَهُمْ.

﴿الْغَفَّارِ﴾: أَي: كَثِيرِ السَّتْرِ لِدُنُوبِ عِبَادِهِ وَأَثَامِهِمْ، وَمَعَاصِيهِمْ لَهُ، لِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِهِمْ، وَهَذَا السَّتْرُ يَسْتَلْزِمُ مَعَ مِلَاحَظَةِ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ، عَدَمَ

العقاب، وفي ذكر هذا الاسم من أسماء الله الحُسنى إطماع لهم بأن يستغفروه، بعد أن يؤمنوا به ويُسلموا له، ليغفر لهم، ولا يعاقبهم على ما سَلَفَ من كُفْرِهِمْ وجرائمهم.

• ﴿لَا جُرُوءَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ...﴾ (٤٣):

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارة تُسْتَعْمَلُ لتوكيد الكلام وتوثيقه، وقد تَحْمِلُ أحياناً معنى القسم، فهي مثل: «حَقًّا - لا بُدَّ - لا شك - لا مَحَالَةَ».

وأصلُ معنى الجرم القَطْعُ، وكأنَّ أَصْلَ العبارة قبل اختصارها والاكتفاء ببَعْضِ كلماتها: لَا جَرَمَ جَارِمٌ مِمَّا أَقُولُ شيئاً، أي: لا قطع قاطعٍ مِنْ كلامي شيئاً، وبكثرة التداوُلِ حصل الاكتفاء بعبارة: «لَا جَرَمَ».

فالمعنى: لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ، لَيْسَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ دَعْوَةٌ مَا، لَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَا يَزِيدُ عَلَى كَوْنِهِ أَقْوَالاً وَهَمِيَّةً أَنْتُمْ تَقُولُونَهَا بِأَفْوَاهِكُمْ، وَلَيْسَ لَهَا فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةٌ.

• ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ...﴾ (٤٣):

أي: وَلَا جَرَمَ أَنَّ مَرَجَعَنَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، إِلَى حِسَابِ اللَّهِ لَنَا، وَفَضْلَ قَضَائِهِ، وَتَحْقِيقِ جَزَائِهِ، فَالْيَوْمَ الْآخِرُ، وَالْحَيَاةُ الْآخِرَى مِنَ الْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ بَيِّنِينَ.

الْمَرَدُّ: الْمَرْجِعُ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى مَكَانِ الرَّجُوعِ وَزَمَانِهِ، وَمُضَدَّرٌ مِمِّيٌّ مِنْ فِعْلِ رَدَّ.

يقالُ لغة: «رَدَّه»، يَرُدُّه، رَدًّا، وَتَرَدَّدَا، وَرِدَّةٌ أي: أَرْجَعَهُ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى: مَنَعَهُ وَصَرَفَهُ.

• ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٤٣):

أي: ولا جَرَمَ أَنَّ المتجاوزين لحدود الحق والواجب، العَالِينَ في التجاوز، بالكفر، والشُّرْكِ بالله، وارتكاب الجرائم الكبرى، هُمُ الملازمون لعذاب النار.

﴿أَصْحَبُ النَّارِ﴾: أي: المصاحبون لها بملازمةٍ مُستَمِرَّة.

• ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ ...﴾ (٤٤):

أي: فَسَتَذْكُرُونَ مستقبلاً حينما يَنْزِلُ بِكُمْ عذابُ الله، مَا أَقُولُهُ الْآنَ لَكُمْ بصراحةٍ وجرأةٍ، حرصاً مِنِّي على نجاتكم وسعادتكم، ودُونَ خَوْفٍ مِمَّا سَتُدَّبُّونَهُ ضِدِّي، للتخلص مِنِّي ومن دَعَوَتِي.

• ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٤):

أي: فإذا دَبَّرْتُم مَكِيدَةَ ضِدِّي، مِنْ قَتْلِ فما دُونَهُ مِنْ عذاب، فَإِنِّي أَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ، لِيَحْمِيَنِي مِنْ كَيْدِكُمْ، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِكُلِّ عِبَادِهِ، وَأَنَا وَأَنْتُمْ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ خَافِيَةٌ مَا.

التَّفْوِيضُ: جَعَلَ التَّصَرُّفَ كُلَّهُ تَحْتَ إِرَادَةِ مَنْ حَصَلَ التَّفْوِيضُ إِلَيْهِ. يقال لغة: «فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى فُلَانٍ» أي: جَعَلَ لَهُ التَّصَرُّفَ فِيهِ.

• ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ...﴾ (٤٥):

دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيَّ، عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ، فِرْعَوْنَ وَرِجَالَ دَوْلَتِهِ، قَدْ مَكَرُوا فِي الْخِفَاءِ، ضِدَّ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ مَكْرًا بِسَيِّئَاتٍ يُسَكِّنُونَ بِهَا لِسَانَهُ، عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَإِلَى مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَنْ رَبِّهِ.

وعبارة: ﴿سَيِّئَاتٍ﴾ تُشْعِرُ بِأَنَّ مَا مَكَرُوهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى قَرَارِ الْحُكْمِ بِقَتْلِهِ، لِثَلَا يَغْضَبَ أَوْلِيَائُهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ.

• ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (٤٥):

أي: وأحاط بآل فرعون الذين ساءت لهم دعوة هذا المؤمن منهم، سوء العذاب.

سوء العذاب: أي: العذاب السوء، وهو شديد، وشاق، ومؤلم، فقد أغرقهم الله بعد مدة من الزمن غير طويلة.

وجاء تفسير العذاب السوء، بقول الله عز وجل في الآية التالية:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٦):

أي: إنهم بعد إهلاكهم بالإغراق، كان من أمرهم في البرزخ الفاصل بين الموت والبعث، استمرار عرض نفوسهم على النار، غدوًا وعشيًا تغذياً لها، ثم بعد بعثهم يوم تقوم ساعة الإحياء للحياة الأخرى، ويخرجون من الأجداث سراعاً، ويحاسبون ويفصل بشأنهم قضاء الله، يقول الله لملائكته المختصين بسوق المجرمين إلى جهنم: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ، واجعلوهم في داخلها ضمن محيط بهم، يذوقون فيه أشد العذاب.

فماذا يذكرون حينئذ من متاع الحياة الدنيا الذي كانوا فيه، وماذا يذكرون من زخرفها الذي كانوا يتعاضمون به ويستكبرون؟!.



رابعاً

نص سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥١ نزول)

الآيات من (١٠١ - ١٠٣)

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ (١٠١)

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنفِرْعَوْتُ مَثْبُورًا ﴿١٠١﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْسِفَهُمْ
مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٢﴾ :

القراءات:

(١٠١) • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلْ] من فعل «سأل»
بتخفيف الهمزة، وجعلها ألفاً. وكذلك قرأها حمزة في الوقف. وقرأها
باقي القراء العشرة: [فَاسْأَلْ] من فعل «سأل» بتحقيق الهمزة.
وهما وجهان عريان في النطق.

يقال لغة: «سأله عن كذا، وسأله بكذا، يسأله سؤالاً، وتسألاً،
ومسألاً» أي: طلب منه أن يعلمه بالشئ الذي سأله عنه، ذاتاً، أو صفة،
أو أن يعطيه إياه.

(١٠٢) • قرأ الكسائي: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المخاطب.

والقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى الذي خاطب به موسى عليه
السَّلام فرعون: أي: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَا، وَعَلِمْتُ أَنْتَ يَا فِرْعَوْنَ.

تمهيد:

من الظاهر في هذا النص من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥١
نزول) أنه يُعبّر عن بعض مواقف قد كانت في المراحل المتأخرة من سيرة
موسى الدَّعَوِيَّة في مصر لفرعونَ وَمَلَكُهُ وسائر قومه.

إذ جاء فيه أن موسى عليه السَّلام قد واجه فرعون بقوله له بشجاعة
وثبات وثقة بالله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنفِرْعَوْتُ مَثْبُورًا﴾: أي: مُعَاقِباً مِنْ رَبِّكَ
بالإهلاك، قال له هذا القول وهو مُتَمَكِّن من موقفه، على ثقة كاملة بأن الله

حاميه وناصره ومهلك عدوه، ولو لم يكن يعرف كيف يكون هذا الإهلاك، ولم يكن عنده خبر رباني به، لذلك وجه عبارته بأسلوب الظن، لا بأسلوب اليقين.

التدبر:

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ قِسْعَ آيَاتٍ يَبْتَغِ ...﴾ (١١)

يؤكد ويحقق ربنا عبارة «لقد» أنه جل جلاله، قد آتى بعظمة ربوبيته موسى عليه السلام الآيات التسع كلها، وأجراها له فعلاً، وقد سبق بيان هذه الآيات التسع في أكثر من موضع^(١).

• ﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ ...﴾ (١٢)

تدل هذه الجملة على أن الآيات التسع مسجلة ومدونة عند بني إسرائيل، وليست من تاريخ موسى المنسي عندهم، أو المهمل، أو دخل في أضل فكرة الآيات تحريف، وربما دخل التحريف والتغيير في بعض التفاصيل الجزئية، أو في بعض التفسيرات.

وليس المراد توجية الرسول ﷺ لأن يتوثق من خبر الله هذا من علماء بني إسرائيل بل المراد إعلام غيره من ذوي الشك، بأسلوب مخاطبته.

وربما يكون الخطاب في النص موجهاً لكل صالح للخطاب من الناس، وفيهم غير مؤمن بالله وبما أنزل في كتابه على رسوله محمد ﷺ، فقال الله له: فاسأل بني إسرائيل عن آياتنا التسع الكبرى، التي أجريناها لموسى في مصر، فهي بالنظر إلى فكرتها العامة، لا إلى تفصيلاتها، مدونة في كتبهم.

(١) انظر لواحق تدبر الآية (٢٣) من سورة (طه) لدى تدبر الآية (٣٢) من سورة (القصص).

ولَدَى مُرَاجِعَتِي لِأَسْفَارِهِمْ وَجَدْتُ الْحَدِيثَ عَنْهَا مُدَوَّنًا فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ، فِي الْإِصْحَاحَاتِ: «السَّابِع - الثَّامِن - والتاسع - والعاشر».

﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾: أي: إِذْ جَاءَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكُلِّ الْآيَاتِ التَّسْعِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ إِذْ جَاءَهُمْ أَوَّلَ قُدُومِهِ مِنْ مَدْيَنَ، بَعْدَ مَكَالِمَةِ اللَّهِ لَهُ عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ حَامِلًا رِسَالَةَ رَبِّهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿١١١﴾ إِذْ جَاءَ هَذَا الْقَوْلُ مَعْطُوفًا بِالْفَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ، وَهَذَا التَّعْقِيبُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ إِجْرَاءِ الْآيَاتِ التَّسْعِ كُلِّهَا فِي مِصْرَ، طَوَالَ عِدَّةِ سِنِينَ.

أي: إِنَّ جُرَأَتَكَ يَا مُوسَى عَلَيْنَا بِوَضْفِكَ رَجُلًا مِنْ رِعِيَّتِنَا، إِذْ تَقَابَلْنَا بِنَدِيَّةٍ، لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ إِنْسَانٍ فَاقِدٍ لَوَعِيهِ، غَيْرِ مُدْرِكٍ لِقُدْرَتِنَا عَلَى قَتْلِهِ فِي آيَةٍ لِحِظَةٍ، وَفَقْدُ الْوَعِيِّ هَذَا بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لَنَا أَنَّكَ غَيْرَ مَجْنُونٍ طَوَالَ قِيَامِكَ بِدَعْوَتِكَ فِي مِصْرَ، وَإِجْرَائِكَ السَّحَرِيَّاتِ الْكُبْرَى الَّتِي تُسَمِّيهَا آيَاتُ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهِيَ التَّسْعُ الَّتِي أُجْرِيَتْهَا، فَهَٰذِهِ الْجَزْأَةُ النَّدِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ إِنْسَانٍ مَسْحُورٍ، فَاقِدٍ لَوَعِيهِ الْإِرَادِيِّ، بِتَأْثِيرِ السَّحَرِ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ لِلْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ الَّتِي يُعْرَضُ نَفْسُهُ لَهَا، إِذْ يُوَاجِهُهُ مَلِكًا قَادِرًا عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ بِجُرْأَةٍ مُسْتَكْرَةٍ جَدًّا.

أقول: إِنَّ فِرْعَوْنَ لَوْ لَا خَوْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ آيَاتِ مُوسَى الْخَوَارِقِ، وَلَوْلَا يَقِينُهُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ مِنْ رَبِّهِ وَلَيْسَ سِحْرًا، لَمَا تَرَدَّدَ فِي قَتْلِ مُوسَى، وَلَمَا تَأَخَّرَ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ عَنْ تَنْفِيزِ ذَلِكَ.

● ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ...﴾ ﴿١١٢﴾:

أي: لَيْسَ صَبْرُكَ عَلَيَّ مَبْنِيًّا عَلَى اعْتِقَادِكَ بِأَنِّي مَسْحُورٌ، بَلْ لِأَنَّكَ مُوقِنٌ فِي قَرَارَةِ نَفْسِكَ بِأَنَّهُ مَا أَنْزَلَ هَٰذِهِ الْآيَاتِ التَّسْعُ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْقَدِيرُ عَلَى مَا يَشَاءُ بِأَمْرِ

التكوين، وهذه الآيات قَدْ أُنْزِلَتْهَا حَالَةً كَوْنُهَا بَصَائِرَ، فَأَنْتَ تَخَافُ مِنْ نِقْمَتِهِ إِذَا عَزَمْتَ عَلَى أَنْ تَمَسِّنِي بِسُوءٍ، وَأَنَا أَذْعُوكَ وَأَذْعُو قَوْمَكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِسْلَامَ لَهُ، هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ مَا يَمْنَعُكَ عَنِ الْفِتْكِ بِي.

﴿هَؤُلَاءِ﴾: «ها» لِلتَّنْيِيهِ، «أولاءٍ» اسم إشارة يُسْتَعْمَلُ غَالِباً لِلْمُشَارِ إِلَيْهِمْ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ. وَيُسْتَعْمَلُ لُغَةً أَيْضاً بِقِلَّةٍ لِلإِشَارَةِ إِلَى جَمْعٍ غَيْرِ ذَوِي الْعِلْمِ كَمَا هُنَا، وَالْعَرَضُ الْبَلَاغِيُّ تَنْزِيلُ الْآيَاتِ مَنْزِلَةً مُعَلِّمِينَ يَقْدُمُونَ بَرَاهِينَ تَدُلُّ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْعَظْمَى، وَتَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ الَّذِي أَجْرَاهَا اللَّهُ لَهُ، فَهِيَ بَصَائِرُ.

﴿بَصَائِرُ﴾: جَمْعُ «بَصِيرَةٍ» وَتَأْتِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي اللُّغَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِدَّةٍ مَعَانٍ، مِنْهَا مَعْنَى: «الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ» وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا. وَنَضُبُ [بَصَائِرُ] عَلَى أَنَّهَا حَالٌ، أَيْ: حَالَةٌ كَوْنُهَا بَصَائِرُ.

• ﴿وَلِيَّ لَأُظَنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١١٦):

أَي: وَإِنِّي لَأُظَنُّكَ يَا فِرْعَوْنَ مُهْلِكاً مِنْ قَبْلِ رَبِّكَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِسَبَبِ إِصْرَارِكَ عَلَى الْكُفْرِ بِهِ، وَإِصْرَارِكَ عَلَى اغْتِبَارِ آيَاتِهِ نَوْعاً مِنْ أَنْوَاعِ السُّخْرِ، وَإِصْرَارِكَ عَلَى تَكْذِيبِ رَسُولِي رَبِّكَ، وَالتَّكْذِيبُ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْهُ. إِنَّ أَعْمَالَكَ هَذِهِ تُقَدِّمُ ظَنًّا رَاجِحاً بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - سَيُهْلِكُكَ، جَزَاءً عَلَى سِتْنِهِ فِي عِبَادِهِ الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ.

هَذَا الْخِطَابُ الْعَنِيفُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ، جَاءَ بَعْدَ عِدَّةٍ سَنِينَ كَانَ يَتَلَطَّفُ مَعَهُ فِيهَا، وَيُخَاطِبُهُ بِخُطَابٍ لَيِّنٍ رَفِيقٍ، لَا غُنْفَ فِيهِ وَلَا شِدَّةَ، وَكَانَ يَكْتَفِي بِالْكُنَايَاتِ، وَبِالْإِشَارَاتِ الْمَغْلَقَاتِ بِأَدَبِ الْخُطَابِ.

﴿مَثْبُورًا﴾: أَيْ: مُهْلِكاً مِنْ قَبْلِ رَبِّكَ. الثُّبُورُ: الْهَلَاكُ. يَقَالُ لُغَةً: «ثَبَرَ فُلَانٌ، يَثْبُرُ، ثَبْرًا، وَثُبُورًا» أَيْ: هَلَكَ وَانْصَرَفَ مِنْ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ. وَيَقَالُ أَيْضاً: «ثَبَرَهُ اللَّهُ يَثْبُرُهُ» أَيْ: أَهْلَكَهُ.

• ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ...﴾ (١١٣) :

أي: فأراد فرعون أن يستفز بني إسرائيل من الأرض.

يقال لغة: «استفزه يستفزه» أي: استخرجه، وختله حتى ألقاه في مهلكة. وهذا المعنى هو المناسب هنا.

ويأتي فعل «استفزه» بمعنى استخفه بالمخيفات والمفزعات.

فما الذي أراده فرعون؟

نظرت في جملة النصوص فوجدت أن فرعون وملأه وسائر القبط، قد كانوا شديدي الحرص على إبقاء بني إسرائيل في مصر، لتسخيرهم في أحسن المهن والأعمال وأحقرها، وفي أكثرها مشقة وإغنائاً.

ووجدت أن موسى عليه السلام، قد ألح عدة مرات في مطالبته لفرعون بأن يسمح لبني إسرائيل ويأذن لهم بالخروج خروج جماعية من مصر، وعودتهم إلى الأرض التي قدم منها أجدادهم أيام يوسف عليه السلام قبل أكثر من أربعة قرون، كما ذكر الإسرائيليون^(١).

فلا يتلاءم مع هذا تفسير استفزاز فرعون لبني إسرائيل من الأرض بإخراجهم من كل أرض مصر، لأن هذا هو أحد مطالب موسى عليه السلام بشأن بني إسرائيل، وهو ما يرفضه فرعون وملأه وسائر القبط بشدة، فبنو إسرائيل قد كانوا مستعبدين حينئذ في مصر لهم، فكيف يسمحون لعيدهم بالخروج منها خروجاً نهائياً.

وهنا أرى أنه ليس من المقبول عقلاً أن تكون إرادة فرعون موجّهة لاستفزازهم، بمعنى إخراجهم وطردهم من كل أرض مصر.

(١) جاء في الإصحاح (١٢) من سفر الخروج عند الإسرائيليين، أن مدة إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر، قد كانت (٤٣٠) سنة.

فما المرادُ إِذْنٌ من استفزازهم من الأرض؟

أقول: كان بنو إسرائيل يَحْتَلُونَ في مصر أفضل أراضيها، وهي أَرْضُ «جَاسَانَ» التي هي جزءٌ من أرض «رَعْمَسِيس» التي مَنَحَهَا يوسف عليه السَّلام منذ أيامه لأبيه، وسائر أهل أبيه وذُرِّيَّاتهم، الذين قَدِمُوا مِنْ أَرْضِ «كُتْنَعَانَ» وكانت أرض «جَاسَانَ» خصيْبَةً في مصر، وهي واقعة في شرق الدَّلْتَا، كثيرة المرعى للقطعان والمواشي، وكان بنو إسرائيل رُعاةً للقطعان والمواشي.

جاء في الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين: «١١ وَأَسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ مُلْكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ، أَرْضِ رَعْمَسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ».

أقول: فالَّذِي يظهر أن فرعون موسى أراد أن يَسْتَفِزَّ بني إسرائيل من هذه الأرض المتوارثة من أجدادهم، مُنْذُ عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، وأراد أن يُوزِعَهُمْ فِي شَتَّى أَرْضِ مِصْرَ، حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُمْ تَجَمُّعٌ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلِيَكُونُوا مُشْتَتِينَ فِي مَخْتَلَفِ بُلْدَانِ مِصْرَ وَمَدَائِنِهَا وَقَرَاهَا الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ.

هذا مَا ظهر لي والله أعلم.

لَكِنَّ إِرَادَةَ فرعون هذه لم تَتَحَقَّقْ، إِذْ جَاءَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِي لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلام، بِأَنْ يَخْرُجَ بِنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، مُتَّجِهًا شَطْرَ سِينَاءَ.

وعلم فرعون بخروجهم بعد أن تَجَاوَزُوا حُدُودَ الْمَدِينَةِ، فَجَمَعَ جَيْشًا كَبِيرًا مِنْ جُنُودِهِ فِي مَخْتَلَفِ مَدَائِنِ مِصْرَ وَقَرَاهَا، وَأَتْبَعُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، لِمَقَاتَلَتِهِمْ وَقَتْلِ قَادَتِهِمْ، وَرَدَّ عَامَتِهِمْ إِلَى مِصْرَ، وَتَمَّ بِهَذَا الْإِثْبَاعِ إِغْرَاقُ فرعون وَكُلِّ مَنْ مَعَهُ وَمَا مَعَهُ، فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَ يُسَمَّى بَحْرَ «سُوف» كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ.

دَلَّ عَلَى إِغْرَاقِهِمْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

• ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (١١٣):

أي: فَأَغْرَقْنَا بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وَبِحُكْمَتِنَا وَعَدْلِنَا، فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ آلِهِ وَجُنْدِهِ جَمِيعًا، وَيُلْزَمُ مِنْ هَذَا إِغْرَاقُ وَاتِّلَافُ كُلِّ مَا مَعَهُ مِنْ خَيْلٍ، وَمَرْكَبَاتٍ، وَأَسْلِحَةٍ، وَعَتَادٍ، وَتَمَوِينٍ.

وانفلق عمود الصُّبْحِ، وفِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ غَارِقُونَ، وَقَذَفَ الْبَحْرُ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ عَلَى الشَّطِّ الْآخِرِ الْمَقَابِلِ لَشَطِّ الْعُبُورِ وشَاهَدَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَلَكَى، وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَنْجَى بَدَنَ فِرْعَوْنَ الْهَالِكِ فَرَمَاهُ عَلَى الشَّاطِئِ، لِيَرَاهُ قَوْمُهُ، وَلِيَكُونَ عِبْرَةً لِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.



خامساً

نصُّ سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول)

الآيات من (٥٢ - ٦٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اسْرِبْ بِعِبَادِي بِخَفَاةٍ وَأَنْتَ وَخَلْفَتَاكَ وَأَنْصِرْ الْبَاقِيَ﴾ (٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اسْرِبْ بِعِبَادِي بِخَفَاةٍ وَأَنْتَ وَخَلْفَتَاكَ وَأَنْصِرْ الْبَاقِيَ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَأَنْتُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٦) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٧) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانَ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) ﴿وَأَرْزَقْنَاهُ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٦٤) ﴿وَأَبْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٥) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٦٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعَزُّهُمُ الرَّحِيمُ﴾ (٦٨):

القراءات:

(٥٢) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [أَنْ أُسْرِيَ] بوصل الهمزة، وكسّر النون في الوصل، من فعل: «سَرَى» يقال لغة: «سَرَى بِفُلَانٍ لَيْلاً» أي: جعله يَسِيرُ فيه.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ أُسْرِيَ] بإسكان النون، وقطع همزة «أُسْرِيَ» من فعل «أُسْرَى» يقال لغة: «أُسْرَى اللَّيْلَ وَبِهِ يُسْرِي» أي: سَرَى. ويقال: «أُسْرَى فُلَاناً، وَأُسْرَى بِهِ» أي: سَرَى به.

فالقراءتان لغتان عَرَبِيَّتَانِ متكافئتان.

(٥٢) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [بِعِبَادِيْ إِنْكُمْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِعِبَادِيْ إِنْكُمْ]: بإسكان ياء المتكلم. وهما نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ متكافئان.

(٥٦) • قرأ نافع، وأبْنُ كثير، وأَبُو عَمْرٍو، وهشام، وأَبُو جعفر، ويعقوب: [حَاذِرُونَ] جَمْعُ «حَاذِرٍ» مبالغة اسم الفاعل «حَاذِرٌ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [حَاذِرُونَ] جمع «حَاذِرٍ» اسم فاعِلٍ مِنْ «حَاذِرٌ يَحْذِرُ حَاذِراً فَهُوَ حَاذِرٌ» وحَذِرَ في المبالغة.

يقال لغة: «حَاذِرَ الشَّيْءِ وَحَاذِرَ مِنْهُ» أي: خاف من شَرِّهِ واختَرَزَ منه، فهو حَاذِرٌ وَحَاذِرٌ.

(٥٧) • قرأ ابن كثير، وابنُ ذُكْوَان، وشُعْبَة، وحمزة، والكسائي: [وَعَيْنُونَ] بكسر العين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَعَيْنُونَ] بضم العين.

كَسُرُ الْعَيْنِ وَضَمُّهَا لُعْتَانٌ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَالْقَرَاءَتَانِ مُتَكَافِئَتَانِ.

(٦٢) • قرأ حفص: [مَعِي رَبِّي] بفتح ياء المتكلم من «مَعِي».

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء.

(٦٢) • قرأ يعقوب: [سَيَهْدِينِي] بإثبات ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [سَيَهْدِينِ] بحذف ياء المتكلم تخفيفاً، وهي مُقَدَّرَةٌ ذَهْنًا.

(٦٤) • وقف رُوَيْسٌ فقط بهاءِ السَّكْتِ فِي [ثُمَّ] فَإِذَا وَقَفَ قَالَ: [ثُمَّ] وهذا من لغة العرب في التَّنْقِطِ.

وهنا يأتي أيضاً نصُّ سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول) وهو قول الله عزَّ وجلَّ مع إيجاز واختزال وبعض إضافات:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَلَئِنَّهُمْ فَرَعَوْنَ يَجُودُونَ ۚ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ ۖ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۚ﴾ (٧٧) (٧٨)

وقد سبق بيان القراءات فيه، والتمهيد المتعلق به، وبقي تدبر فقراته، ويجده القارئ ضمن تدبر النصِّ الآتي من سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول).

تمهيد:

من الواضح في هذا النصِّ الذي من سورة (الشعراء) أَنَّهُ يُعَبَّرُ عن المراحل الأخيرة، لوجود مُوسَى عليه السَّلام وبني إسرائيل في مصر، وخروجهم منها ليلاً بتدبيرٍ وأمر من الله عزَّ وجلَّ، أَوْحَى به الله لموسى عليه السَّلام، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ الَّذِينَ جَمَعَهُمْ مِنْ كُلِّ مَدَائِنِ مِصْرَ وَأَرْضِهَا، أَتَّبَعُوا بني إسرائيل على الطريق الذي خَرَجُوا منه مُشْرِقِينَ، أي:

عند شروق الشمس في اليوم الذي استكمل فيه فرعون حشر جيشه وسوق فيالقه، من مختلف المدائن المصرية مُراعياً السُرعة القُصوى، لِلْحَاقِ بِهِمْ وإدراكهم، وَقِتَالِهِمْ، وإكراه عامَّتِهِمْ على الرُّجوع إلى الذَّلِّ والاستِعبادِ في مصر.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (٥١).

أي: وأبلغنا موسى عن طريق الوحي أمرنا بأن يخرج ليلاً مع بني إسرائيل من مصر، فخرج بهم في اتجاه سيناء.

﴿أَن أَسْرِ﴾: «أَن» تفسيريّة بمعنى: «أي» وما بعدها يُفسّر ما هو مُبهم في عبارة [وأوحينا]. ويجوز أن تكون «أَن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف وجوباً كما يقول النحويون، وتقديره: أَنَّ الشَّانَ العظيم الخطير هو أمرنا لك بأن تَسْرِيَ لَيْلاً بعبادي بني إسرائيل.

﴿بِعِبَادِي﴾: الباء الجارة هُنا للتّعديّة، لأنّه يقال لغة: «أَسْرَى فُلَانًا وَأَسْرَى بِهِ» أي: جعله يَسِيرُ لَيْلاً.

ووصف الله جمهور بني إسرائيل الخارجين مع موسى عليه السَّلام بأنهم عباده على معنيين:

الأول: العبودية الاختيارية والجبرية معاً بالنسبة إلى مَنْ كان منهم قَدْ آمَنَ فعلاً بموسى وبما جاء به عن ربه.

الثاني: العُبوديّة الجبريّة بالنسبة إلى الَّذِينَ لم يُؤْمِنْ بَعْدُ به وبما جاء به منهم، ولم يُسَلِّمْ لَهُ، وهو خارج مَعَهُ خروجاً قَوْمِيّاً، لا انتماءً دِينِيّاً.

دَلَّ على هذا المعنى الثاني قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣):

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: أن يُعَذِّبَهُمْ إذا آمَنُوا بِمُوسَىٰ وَأَسْلَمُوا لَهُ.

وكان اتباع هؤلاء لموسىٰ عند الخروج بهم من مصر اتباعاً قومياً قَبَلِيّاً.

ويُذَلُّ على هذا الفهم الاستئناس بما جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج، وهو قول الإسرائيليين في حكايتهم لحادثة الخروج والنجاة من فرعون وقومه، وما صنعه الرَّبُّ بهم من إغراق، وإهلاك:

«٣١ وَرَأَىٰ إِسْرَآئِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ. فَخَافَ الشَّعْبُ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعِبْدِهِ مُوسَىٰ».

هذا يَدُلُّ على أَنَّهُمْ لم يكونوا قَدْ آمَنُوا من قَبْلَ، وَأَنَّ خُرُوجَ كثير منهم مع موسىٰ قَدْ كان خروجاً قومياً قَبَلِيّاً، ولم يَكُنْ طاعةً لله ورسوله.

فتَصَوَّرُ أَنَّ كُلَّ بني إِسْرَآئِيلَ الَّذِينَ خَرَجُوا مع موسىٰ من مصر قد كانوا مؤمنين مُسْلِمِينَ، تَصَوَّرُ لَا يُؤَيِّدُهُ نَصُّ قُرْآنِي، وَلَا خَبَرُ تَارِيخِي.

﴿إِنكُم مُّتَّبِعُونَ﴾: أَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا الوحي أَنَّ فِرْعَوْنَ وَجِيشاً معه سَيَتَّبِعُونَهُمْ، لِقَاتِلِهِمْ، وَرَدَّ جَمْهُورَهُمْ إِلَى الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِذْلَالِ.

ولهذا الإِعْلَامُ لَوَازِمَ فِكْرِيَّةٍ، أَي: وَلِكُنِّي سَأَتَوَلَّىٰ إِنْقَادَكُمْ وَتَنْجِيَّتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بِمَا أَشَاءُ مِنْ وَسَائِلِي، فَلَا تَخَفْ مِنْ اتِّبَاعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ، وَكُنْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ مَطْمَئِنِّينَ لَتَدْبِيرِي، وَقَضَائِي وَقَدَرِي.

وجاء نظير هذا البيان في الموجز المختزل الذي جاء في النَصِّ الذي من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عَزَّ وَجَلَّ فيه:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾ (٧٧):

فجاء في هذا البيان إضافة عبارة التأكيد والتحقيق: ﴿وَلَقَدْ﴾.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٢):

أي: فلما علمَ فِرْعَوْنُ بخروج بني إسرائيل دون إذنٍ منه، أَرْسَلَ قُوَاداً من قبَلِه حَاشِرِينَ جُنُودَ قِتَالٍ في المداينِ المِصْرِيَّةِ، من كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ، لِتَكُونِ جَيْشٍ كَبِيرٍ، يُتَابِعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْفَارِّينَ، بقيادة مُوسَى عليه السَّلَام.

والمرادُ رَدُّ جماهيرهم إلى الذُّلِّ والعبوديَّةِ، بَعْدَ قَتْلِ رُعَمَائِهِمُ الَّذِينَ قَادُوا أَشْبَاطَهُمْ في الخروجِ، وَمَنْعُهُمْ من تَكْوِينِ جَيْشٍ خَارِجِ مِصْرَ، وَمِنْ عَوْدَتِهِمْ مُقَاتِلِينَ لِلْاِسْتِيلَاءِ على حُكْمِ مِصْرَ، بقيادة مُوسَى وأخيه هَارُونَ.

قول الله عز وجل حكاية لقول فرعون:

• ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤):

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾: المشارُ إِلَيْهِمْ هم بَنُو إِسْرَائِيلَ.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: أي: لَجَمَاعَةٌ ضَعِيفَةٌ من النَّاسِ قَلِيلُونَ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى الْقِتَالِ، فَالْسَّيْطَرَةُ عَلَيْهِمْ سَهْلَةٌ وَمَيْسُورَةٌ.

وَتُجْمَعُ «شِرْذِمَةٌ» عَلَى «شَرَاذِمٍ». وَيُطْلَقُ لَفْظُ «الشَّرْذِمَةُ» فِي اللُّغَةِ عَلَى الْقِطْعَةِ مِنَ الشَّيْءِ، وَيُقَالُ لُغَةً: «ثِيَابٌ شَرَاذِمٌ» أي: ثِيَابٌ مُمَزَّقَةٌ بِالْيَدِ خَلْقَةً.

وقد جاء تأكيد هذه العبارة بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة».

قول الله عز وجل حكاية لقول فرعون لقومه:

• ﴿وَلَيْتُمْ لَنَا لَفَاطُونَ﴾.

الغيظ: الغضب الشديد. يقال لغة: «غَاظَهُ، يَغِيظُهُ، غَيْظًا» أي أغضبَهُ أشدَّ الغضب. ويُقال أيضاً: «أَغَاظَهُ»

أي: وإنَّ هؤلاء الإسرائيليين قَدْ أَغْضَبُونَا أشدَّ الغضب، بتصرفاتهم، وبخروجهم من مصر دون إذنٍ مِنَّا، فلا بُدَّ من الانتقامِ مِنْ رُعْمَائِهِمْ وتَأْديب جماهيرهم.

يخاطبُ فرعون قومه بضمير المتكلم العظيم، إذ ادَّعى لِنَفْسِهِ الإلهية والربوبية. وجاء تأكيد العبارة بـ «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة» لتدلَّ على عبارته التوكيدية في لغته.

قول الله عزَّ وجلَّ حكاية لقول فرعون لقومه:

﴿وَلَا تَأْتِيهِمْ جِئِشٌ حَدِيثَةٌ﴾ وفي القراءة الأخرى: [حَذِرُونَ]: أي: خائفونَ على مُلْكِ مصر وعلى الشَّعبِ المصريِّ من خروجهم، إذ قَدْ يَكُونُونَ خارجَ مصر جيشاً قوياً، ثم يَرْجِعُونَ مقاتِلينَ، لانتزاع الحُكم، واستعباد الإسرائيليين للشَّعبِ المصريِّ كُلَّهُ بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ، انتقاماً من استعباد الشَّعبِ المصريِّ لهم بِسُلْطَانِنَا الفرعوني.

هذا ما دلَّت عَلَيْهِ عبارة: ﴿جَمِيعٌ﴾: أي: الْمَلِكُ ورجال دولته وسائر القبط في مصر.

وجاء تأكيد العبارة بـ: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة» لتدلَّ على عبارته التوكيدية في لغته.

وكان هذا البيان في الآيات من (٥٤ - ٥٦) من فرعون عن بني إسرائيل، لإغراء القادرين على القتال من الشعب المصري بالالتحاق بهذا السَّوقِ الجبريِّ للجنود النظاميين، وَلِيَتَطَوَّعَ غيرهم فيلتحقوا بالجيش

النظامي، طمعاً في المنافع والمغانم التي سيَنالونها بخروجهم الظافر، على الشردمة القليلين من الإسرائيليين.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

تحدث الله عز وجل في هاتين الآيتين عن حكمته في تدبيراته للانتقام من فرعون وجنوده.

أي: وكان في إغرائهم وتهيجهم منا لنفوسهم وقلوبهم، وإحداث الغضب الشديد فيها، والرغبة في متابعة بني إسرائيل الضعفاء، أن أخرجنا فرعون وآله، وعليّة قومه، مما يملكون من كنوز ذهبية وغيرها، جمعوها بقوة سُلطانهم في مصر، وأخرجناهم من مقام كريم، كانوا فيه مكرمين، مفضلين، أعزّاء، ذوي علو في أرض مصر، وهو مقام سُلطتهم التي هي لهم في عموم مصر.

﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع «جَنَّة» وهي الحديقة المكتظة بالأشجار، فهي سائر لما تحتها من أرض وأشياء وأحياء.

﴿وَمَقَامٍ﴾: المَقَام: يُراد به المكان المعنوي الرفيع، الذي كانوا فيه أهل ولاية وحكم وسُلطان.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: مفضل على ما سواه من الأمكنة المعنوية.

قول الله عز وجل:

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

تبادر لأذهان كثير من المفسرين، أن الله عز وجل ملك بني إسرائيل، ما كان لفرعون وآله وعليّة قومه في مصر، ففهموا هذه الآية على وفق هذا الذي تبادر لهم.

مع أَنَّ الثابت تَارِيخِيًّا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعُودُوا إِلَى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْهَا، بَلْ أَبْقَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَائِهِينَ فِي صَحْرَاءِ سِينَا وَمَا حَوْلَهَا مِمَّا يَتَّصِلُ بِهَا بَرًّا أَرْبَعِينَ سَنَةً، لِأَنَّ مُعْظَمَهُمْ قَدْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ مُقَاتِلِينَ، وَقَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا مَا دَامُوا فِيهَا، وَقَالُوا لَهُ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ.

وبعد أَنَّ تُوفِّيَ هَاوُنَ ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَضَتْ أَرْبَعُونَ سَنَةً تَائِهِينَ فِي الْأَرْضِ، غَيْرَ مُسْتَقَرِّينَ فِي مُدُنٍ وَلَا قُرَى، وَبَعْدَ أَنْ نَشَأَ جِيلٌ جَدِيدٌ قَادِرٌ عَلَى الْقِتَالِ، هَيَّأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَقُودُهُمْ، فَدَخَلُوا أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ بِقِتَالٍ، وَهِيَ أَرْضُ فِلَسْطِينَ، وَنَصَرَهُمُ اللَّهُ وَمَلَكَهُمْ مَا كَانَ لِمُلُوكِ هَذِهِ الْأَرْضِ الْجَبَابِرَةِ الْوُثْنِيِّينَ الْكَفَرَةِ، مِنْ جَنَآتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ.

وبالتأمل والتفكير الدقيق، ظهر لي أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ﴾ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ غَيْرِ الْمِصْرِيِّينَ، نَظِيرَ مَا حَصَلَ لِلْمِصْرِيِّينَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمْ، وَمَلَكَهُمْ مَا كَانَ لِمُلُوكِهِمْ وَأَثْرِيَائِهِمْ مِنْ جَنَآتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَهَذَا يَأْتِي مَوْجِعَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أَي: وَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ الْمَالِكِينَ لَهَا، بَعْدَ مَالِكِيهَا السَّابِقِينَ، عَنْ طَرِيقِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ.

وبهذا يَنْحَلُّ الْإِشْكَالُ، وَيَتِمُّ التَّوْفِيقُ بَيْنَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَبَيْنَ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ.

ونلاحظ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ (٥٩) قَدْ قَفَرَتْ بِعِبَارَةِ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً إِلَى جِهَةِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، بَعِيداً عَنْ حَدَثِ غُبُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرِ، وَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَكُلِّ جُنُودِهِ الَّذِينَ تَابَعُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ.

وقد جاءت هذه الآية كالمعتضة، ضِمنَ الكلام عن تَسْلُسُلِ الأحداث بتتابع، للإشعار بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد منَحَ بني إسرائيل ما كان وَعَدَ به أجدادهم المرسلين، وكان تأخير تحقيق وعده بسبب من بني إسرائيل أنفسهم، إذ رَفَضُوا أن يَدْخُلُوا أرض الكنعانيين مقاتلين بقيادة موسى عليه السَّلام، ليظفروا بالأرض المقدسة (= الْقُدْس وما حوله) وهي الأرض التي بارك الله فيها.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَاتَّبِعُوهُمْ مَّثَرَاتِ الْيَوْمِ﴾:

﴿فَاتَّبِعُوهُمْ﴾: أي: فَسَارَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته في أثرِ جمهور بني إسرائيل، على الطريق الذي ساروا فيه.

يقال لغة: «تَبِعَهُ، يَتَّبِعُهُ، تَبَعًا، وَتُبِعُوا، وَتَبَاعًا، وَتَبَاعَةً» أي: سار في أثره. وكذلك يُقَالُ: «أَتَّبَعَهُ، وَاتَّبَعَهُ» بمعنى: سار في أثره يَطْلُبُهُ.

﴿مَّثَرَاتِ الْيَوْمِ﴾: أي: حَالَةَ كونهم داخلين في وَفْتِ شروق الشمس. يقال لغة: «أَشْرَقَ الْقَوْمُ» أي: دَخَلُوا في وَفْتِ شروق الشمس، عند طُلُوعها، وَمَدَّ ضيائها على الأرض.

لم يُحَدِّدِ النصَّ اليوم الذي أَتَّبَعُوهم فيه، فلا بُدَّ أن نُقَدِّرَ زَمَنًا ما، يُسْتَطَاعُ فيه جمع الجيش وحشْرُهُ وسوقُهُ من المدائنِ المصريَّة، وإعدادُهُ بأقصى سُرْعَةٍ لملاحقة بني إسرائيل على الطريق الذي سَلَكَوه.

وجاء في النصِّ الموجز الذي من سورة (طه): ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ...﴾ (٧٨): أي: فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ مصحوباً بجنوده، الباء في: ﴿بِجُنُودِهِ﴾ للمصاحبة.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾:

أي: فَلَمَّا وَصَلَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته، إلى مكانٍ يُمكنُ أن يَرى فيه كُلُّ جَمْعٍ من الْجَمْعَيْنِ الآخر.

يُقَالُ لغة: «تراءى الفريقان، أو الجمعان، أو الشخصان المتباعدان» أي: رأى كُلُّ منهما الآخر، أو وصلاً إلى مكانٍ يُمكنُ فيه أن يَرى كُلُّ منهما الآخر.

﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى﴾: أي: قَالَ أصحابُ المؤمنين به والمسلمون له، والملازمون مرافقته، والمحيطون به كالهالة، وهُمُ الَّذِينَ اختارهم موسى عليه السَّلام واستخلصَهُم من قومه، لصُحبته في حِلِّهِ وتَرْحَالِهِ.

﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾: مُذْرَكُونَ: اسْمٌ مَفْعُولٌ من فَعَلَ: «أَذْرَكَ». يقال لغة: «أَذْرَكَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: لَحِقَهُ وَبَلَغَهُ وَنَالَهُ.

والمعنى: قال أصحاب موسى المقربون له: إِنَّ جَيْشَ فِرْعَوْنَ سَيُذْرِكُنَا، وسينالنا بأسلِحَتِهِ مقاتلين لنا، فقد وصلَ هذا الجيش إلى مكانٍ يَرَوْنَا فيه ونراهم، وأمامنا البَحْرُ، فماذا نَفْعَلُ لِلنَّجَاةِ من هذا الجيش الَّذي لَا قِبَلَ لَنَا بمقاتَلَتِهِ؟.

قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لِرَدِّ موسى على أصحابه:

• ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (١٢):

أي: أَجَابَ موسى عليه السَّلام أصحابه الذين هم صَفْوَةُ قومه، بعبارة زاجرة، هي: ﴿كَلَّا﴾.

وعَلَّلَ عليه السَّلام هذا الزجر بقوله لهم: إِنَّ مَعِيَ رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بِأَنْ أُسْرِى بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ، وَأَعْلَمَنِي بِأَنَّنَا مُتَّبِعُونَ، فَهُوَ حَتْمًا سَيَهْدِينِي إِلَى وَسِيلَةِ النِّجَاةِ مِنْ هَذَا الْجَيْشِ الَّذِي لَا قُدْرَةَ لِقَوْمِي بني إِسْرَائِيلَ عَلَى مَقَاتَلَتِهِ.

وكانوا قَدْ وَصَلُوا إِلَى بَحْرِ «سُوف» وهو «الْبَحْرُ الْأَحْمَر».

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾﴾:

وجاء في النصّ الموجز المختزل الذي جاء في سورة (طه):

• ﴿فَأَضْرِبْ لَهمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾﴾:

﴿يَبَسًا﴾: أي: يَابِسًا. يقال لغة: «أَرْضٌ يَبَسٌ» أي: صَلْبَةٌ شديدة،
ويُقال: «مَكَانٌ يَبَسٌ» أي: مَكَانٌ كَانَ فِيهِ مَاءٌ، فَذَهَبَ مَائُهُ وَجَفَّ وَيَبَسَ.

﴿لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾: دَرَكًا: أي: لَا تَخَافُ إِدْرَاكَ جَيْشِ
فِرْعَوْنَ لَكُمْ. ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ أي: وَلَا تَخْشَى غَرَقًا. حُذِفَتْ كَلِمَةُ «غَرَقًا»
على سبيل الاكتفاء، للعلم بها من القرينة، لأنَّ المطلوب سلوك طريق بَيْنَ
مَاءَيْنِ مُرْتَفِعَيْنِ جَامِدَيْنِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ.

فالمعنى المستفاد من النصّين مع ملاحظة التّكامل فيما بينهما:

فَعَقِبَ إعلَان أصحاب موسى تَخَوُّفَهُمْ مِنْ إِدْرَاكَ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ،
وتَخَوُّفَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ إِذَا فَرُّوا مِنْ مُوَاجَهَةِ الْجَيْشِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَبَعْدَ إجابة
موسى عليه السّلام بقوله لهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أَوْحَى اللهُ عزَّ
وجلَّ إلى موسى مُبَاشَرَةً أَنَّ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ لِيَنْشَقَّ وَيَكُونَ لَهُمْ فِي
قَاعِ الْبَحْرِ طَرِيقٌ يَابَسٌ جافٌّ، فَإِذَا عَبَرَ هُوَ وَقَوْمُهُ فِيهِ فَإِنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ أَنْ
يُذَرِكَهُمْ عَدُوُّهُمْ، وَلَا يَخْشَوْنَ فِيهِ غَرَقًا فَضَرَبَ موسى عليه السّلام مُبَاشَرَةً
بِعَصَاهُ الْبَحْرَ، تَفْهِيدًا لِلأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ، فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ.

﴿فَانْفَلَقَ﴾: أي: فَانْشَقَّ.

﴿كَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾﴾:

الْفِرْق: الْفِلْقُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا انْشَقَّ.

الطُّودُ: الْجَبَلُ الْعَظِيمُ الذَّاهِبُ صُعْدًا فِي الْجَوْ.

جاء في نصّ سورة (طه) ذِكْرُ لفظ «طريق» مُفْرَدًا غير مجموع، ولا نجد في القرآن أنّه كان مُقَسَّمًا إِلَى عِدَّةِ طُرُقٍ.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْبَحْرَ قَدْ انْفَلَقَ فِيهِ اثْنَا عَشَرَ طَرِيقًا، لِكُلِّ سَبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ طَرِيقٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والمعنى: فَكَانَ كُلُّ قِسْمٍ انْفَرَقَ مِنَ الْمَاءِ مُنْحَازًا لِإِحْدَاثِ طَرِيقٍ يَغْبُرُ مِنْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ، كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ قَائِمًا ثَابِتًا، لَا يَسِيلُ مِنْ مَائِهِ شَيْءٌ إِلَى الطَّرِيقِ الْيَبَسِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِي قَاعِ الْبَحْرِ.

قول الله عز وجل:

﴿وَأَرْزَلْنَا نَمَ الْأَخْرِينَ﴾

﴿وَأَرْزَلْنَا﴾: أَي: وَقَرَّبْنَا. يُقَالُ لُغَةً: «أَرْزَلَفَ الشَّيْءَ، وَرَزَفَهُ» أَي: قَرَّبَهُ، وَجَعَلَهُ يَدْنُو مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي قَرَّبَهُ إِلَيْهَا.

﴿نَمَ﴾: اسْمٌ يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ ظَرْفٌ لَا يَتَصَرَّفُ، وَقَدْ تَلَحُّقَهُ التَّاءُ، فَيُقَالُ: نَمَةً، وَيُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْهَاءِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، إِذْ يُجْرِي فِي كَوْنِهِ مَا يَشَاءُ، وَيَخْلُقُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

والمعنى: وَقَرَّبْنَا هُنَالِكَ مَنْ وَرَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ عَبَّرُوا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي شَقَّقْنَاهُ لَهُمْ فِي الْبَحْرِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جَيْشِهِ، وَطَمَسْنَا عَلَى بَصَائِرِهِمْ، فَدَخَلُوا فِي الطَّرِيقِ الْيَبَسِ مُتَابِعِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَلَقَ الْبَحْرَ لَهُمْ لِيُنْجِيَهُمْ، وَثَوْرَةُ الْغَضَبِ الْمَجْنُونَةِ مَعَ الطَّمَعِ بِالظَّفَرِ بَبْنِي إِسْرَائِيلَ طَمَسَتْ بَصَائِرَهُمْ جَمِيعًا، فَأَعْمَاهَا عَنْ إِدْرَاكِ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ.

وجاء في هذه الآية التعبير عن فرعون وجيشه بعبارة: ﴿الْآخِرِينَ﴾ استهانة بهم وتحقيراً لهم.

وجاء تَضْرِيحُ بأنَّ مِياهَ الْبَحْرِ قَدْ غَشِيَتْهُمْ في الموجز المختزل الذي جاء في سورة (طه) الَّتِي هي قاعدة التدبُّر هنا، وهو قول الله عزَّ وجلَّ فيها:

• ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (٧٨):

أي: فَعَلَّاهُمْ وَجَلَّلَهُمْ وَأَحَاطَ بِأَجْسَادِهِمْ غطاءً مائياً عظيم، مَا غَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ، الَّذِي أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ فيه مياه البحر التي عادت سائلة، كما كانت قبل فُلُقِ الْبَحْرِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

قول الله عزَّ وجلَّ في النصِّ الذي من سورة (الشعراء):

• ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾:

أي: وَأَخْرَجْنَا مُوسَى وَجَمِيعَ مَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَلَحَّقَ بِهِمْ ما كان معهم من مواشيهم، وأشْيائِهِمْ من أَرْزاقٍ وغيرها، من الطريق الْيَبَسِ في البحر، إِلَى الشَّاطِئِ الْمَقَابِلِ لَشَاطِئِ الْعُبُورِ.

وَتَرَكَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الْبَحَرَ عَلَى حاله المَفْرُوقِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّى يَكُونَ الْمَصْرِيُّونَ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ الْيَبَسِ فِي الْبَحْرِ، دَلٌّ عَلَى هَذَا حَرْفِ الْعُظْفِ: «ثُمَّ».

ولمَّا وَصَلَ الْجَيْشُ الْمَصْرِيُّ بِقِيَادَةِ فِرْعَوْنَ إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ الطَّرِيقِ الْيَبَسِ دَاخِلَ الْبَحْرِ، أَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ أَنْ يَنْضَمَّ مَأْوَهِ عَلَيْهِمْ، فَسَالَتِ الْجِبَالُ الْمَائِيَّةُ عَلَيْهِمْ مُتَدَفِّقَةً بِشِدَّةٍ وَعُنفٍ، فَعَذَّبَتْهُمْ وَأَعْرَفَتْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وجاء تكميل في الموجز الذي من سورة (طه) وهو قول الله عزَّ وجلَّ فيها:

• ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿٧٩﴾ :

أي: وأضلَّ فرعون قومه إذ قال لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ :
أي: فاتَّبِعُوهُمْ، تَغْلِبُوهُمْ، وَتَسْتَعْبِدُوهُمْ. وَأَضَلَّهُمْ بِقَوْلِهِ لِمَلَّتِهِ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وجاءت عبارة: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيداً بنفي النقيض، وهي من الإطناب ذي الفائدة التوكيدية، مع الفائدة اللفظية، لاستكمال نظم الآية بتعادل مع سوابقها ولواحقها في سورة (طه).

قول الله عزَّ وجلَّ في النص الذي من سورة (الشعراء):

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ :

أي: إنّ في ذلك الذي أجراه الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السَّلام ولقومه من بني إسرائيل من نجاة بخارقة عجيبة، ولِفِرْعَوْنَ وَجَيْشِهِ من تعذيب وإغراق بهذه الخارقة العجيبة، لآية عظيمة من آيات الله، دالة على عظيم سلطانه في كونه، وعلى سامي حكمته وعدله وفضله، في تصاريفه في عباده، وعلى سنّته الثابتة.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ أنّ هذه الآية تطبيقيّة من تطبيقات سنّته في عباده، وعلى الرُّغم من تذكير كُبراء مشركي مَكَّةَ بها فإنَّ أَكْثَرَهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى حالة ميؤوسٍ معها من أن يؤمنوا عن طريق إرادتهم الحرّة.

لفظ «مُؤْمِنِينَ» قائم هنا مقام الفعل المضارع الدالّ على الاستقبال.

وهذا المعنى الذي ذكرته هو المعنى الذي تَرَجَّحَ لَدَيَّ، نظراً إلى

دلالة الآية التالية:

• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٨٠﴾ :

جاءت القضية في هذه الآية مؤكّدة ب: «إِنَّ» - والجملة الاسميّة -

واللام المرحقة - وضمير الفصل».

﴿الْعَزِيزُ﴾: أي: القويّ الغالب لكلّ القوى، وهذا الاسم يلائم الذين مرّدوا على الكُفر، وصار إيمانُهُم ميثوساً منه.

﴿الرَّحِيمُ﴾: أي: ذو الرّحمة العظيمة، وهذا الاسم يلائم أحوال القلّة الذين يُرجى مستقبلهم إيمانهم.

مما جاء عند الإسرائيلين بشأن العبور خروجاً من مصر:

جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج:

«٢١» ومدّ موسى يده على البحر. فأجرى الربّ البحر بريح شرقية شديدة كلّ الليل، وجعل البحر يابسةً. وأنشقّ الماء ٢٢ فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ٢٣ وتبعهم المصريّون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ٢٤ وكان في هزيع الصّبح أنّ الربّ أشرف على عسكر المصريّين في عمود النّار والسّحاب، وأزعج عسكر المصريّين ٢٥ وخلع بكر مركباتهم حتّى ساقوها بثقله. فقال المصريّون نهرب من إسرائيل لأنّ الربّ يقاتل المصريّين عنهم.

٢٦ فقال الربّ لموسى: مدّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريّين على مركباتهم وفرسانهم. ٢٧ فمدّ موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصّبح إلى حاله الدّائمة والمصريّون، هاربون إلى لقاءه. ودفع الربّ المصريّين في وسط البحر ٢٨ فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد ٢٩ وأمّا بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.

٣٠ فخلّص الربّ في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريّين. ونظر إسرائيل المصريّين أمواتاً على شاطئ البحر ٣١ ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الربّ بالمصريّين. فخاف الشعب وآمنوا بالربّ وبعبيده موسى.

سادساً

نص سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول)

الآيات من (٩٠ - ٩٢)

قال الله عز وجل:

﴿وَجَنُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِنُكْوِتَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢):

القراءات:

(٩٠) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [آمَنْتُ إِنَّهُ] بكسر همزة «إِنَّ» على أَنَّ الجملة مُسْتَأْنَفَةٌ، والجملة السابقة «آمَنْتُ» انْتَهَتْ، إذ أعلن بها إيمانه. وقرأها باقي القراء العشرة: [آمَنْتُ أَنَّهُ] أي: آمنت بأنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

هاتان القراءتان دَلَّتَا على أَنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ أَوَّلًا: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ وَهُوَ يُعْرِغُ رُوحَهُ: ﴿ءَامَنْتُ﴾ - [إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بنو إسرائيل].

(٩٢) • قرأ يَعْقُوبُ، [نُنَجِّيكَ] مِنْ فِعْلٍ: «أُنَجِّى، يُنَجِّى». وقرأ باقي القراء العشرة: [نُنَجِّيكَ] مِنْ فِعْلٍ: «نَجِّى يُنَجِّى».

«أُنَجِّى» و«نَجِّى» متكافئان، لأنَّ الفعل المهموز أخو المضَعَّف بتكافؤٍ في المعنى، وهما لغتان عَرَبِيَّتَانِ.

تمهيد:

من الواضح في هذا النص أَنَّهُ دَلَّ عَلَى خَمْسٍ قَضَايَا لَمْ تَدُلَّ عَلَيْهَا النُّصُوصُ الأُخْرَى، فالتكامل بَيْنَهَا جَلْبِي:

القضية الأولى: أَنَّ دُخُولَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ الْمَصْرِيِّينَ طَرِيقَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ دَاخِلَ الْبَحْرِ، قَدْ كَانَ بَعْدَ مُجَاوِزَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ مَكَانِ الْبَحْرِ خُرُوجًا كُلِّيًّا مِنْ جِهَةِ الشَّاطِئِ الْآخَرِ.

وَأَنَّ الْفَلَقَ فِي الْبَحْرِ اسْتَمَرَ مُدَّةَ سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ، بَعْدَ خُرُوجِ آخَرِ خَارِجٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ مَوَاشِيهِمْ وَمَا مَعَهُمْ مِنْ أَشْيَاءَ.

وهذا هو الذي أُغْرِيَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِأَنَّ الْفَلَقَ قَدْ كَانَ حَادِثَةً طَبِيعِيَّةً جَرَتْ عَلَى سَبِيلِ الْمَصَادِفَةِ، فَعَبَّرَ عَلَى الْيَابَسَةِ فِي أَرْضِ الْبَحْرِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّ جُمُودَ جَبَلِي الْجَلِيدِ عَلَى جَانِبِي الطَّرِيقِ الْبَحْرِيِّ لَا يَذُوبُ بِسُرْعَةٍ، وَأَنَّهُمْ سَيَعْبُرُونَ كَمَا عَبَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ دُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ أَدَى.

وَسُكُونُ الْبَحْرِ هَكَذَا مَفْلُوقًا عِدَّةَ سَاعَاتٍ يُفَسَّرُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الدُّخَانِ/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) بَيَانًا لِمَا قَالَهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِيَّانَ الْحَدَثِ:

﴿وَاتْرِكْ الْبَحَرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: وَاِتْرِكْ يَا مُوسَى الْبَحَرَ سَاكِنًا مَفْلُوقًا عِدَّةَ سَاعَاتٍ، فَلَا تَضْرِبْهُ بِعَصَاكَ لِيَرْجِعَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي حَالَتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ قَبْلَ فَلْقِهِ، لِيَكُونَ بَقَاؤُهُ سَاكِنًا مَفْلُوقًا مُغْرِبًا لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ بِعُبُورِهِ، مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي عَبَّرْتَهُ أَنْتَ وَقَوْمُكَ، تَوَهُّمًا مِنْهُمْ أَنَّ الْفَلَقَ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ. فَإِذَا تَوَسَّطُوا الْبَحَرَ، وَقَارَبُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الشَّاطِئِ الْآخَرِ، فَاضْرِبْ الْبَحَرَ بِعَصَاكَ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَنْضَمَّ مَاؤُهُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، لِيَكُونَ بِهِ إِغْرَاقُهُمْ جَمِيعًا.

﴿رَهَوًّا﴾: أي: سَاكِنًا، مَفْلُوقًا، يُقَالُ لُغَةً: «رَهَا، يَرْهَو، رَهَوًّا» أي: سَكَنَ. وَيُقَالُ: «رَهَا الرَّجُلُ بَيْنَ رَجْلَيْهِ» أي: فَتَحَهُمَا. وَيُقَالُ: «رَهَا الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ» أي: نَشَرَهُمَا.

ومن هذه المعاني اللُّغَوِيَّةُ نَأْخُذُ مَعْنَى السُّكُونِ، وَمَعْنَى الْإِنْفِتَاحِ،

ومعنى امتداد جبلي الماء إلى الأعلى مع ميل أغلاهما ذات اليمين وذات الشمال كجناحي الطائر، وكلُّ هذا ظاهرٌ لمن يشهد انفلاق البحر.

القضية الثانية: أَنْ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، أَعْلَنَ بَيْنَهُ بَيْنَ رَبِّهِ إِيْمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ، قَائِلًا: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠).

القضية الثالثة: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِفِرْعَوْنَ عَنْ طَرِيقِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ حَضَرُوا لانتزاع روحه، أَوْ عِنْدَ انْتِزَاعِ رُوحِهِ:

﴿ءَاَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١):

أي: وَإِنَّ هَذَا الْإِيْمَانَ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ بِكَ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ غَرَقًا عُقُوبَةً لَكَ، لَا يَنْفَعُكَ، لِأَنَّهُ إِيْمَانٌ بَعْدَ شُهُودِكَ مَا شَهِدْتَ مِنْ عَالَمِ الْآخِرَةِ، الَّذِي كَانَ غَيْبًا عَنْكَ وَأَنْتَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فَالْإِيْمَانُ النَّافِعُ فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ هُوَ مَا كَانَ إِيْمَانًا بِالْغَيْبِ.

القضية الرابعة: هِيَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَنْ طَرِيقِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿تَالْيَوْمِ نَنْجِيكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً...﴾ (٩٢).

القضية الخامسة: بَيَانُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِ اللهِ الْكَثِيرَةِ فِي تَصَارِيفِهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ لَكُونَهُ لِعَافِلُونَ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا...﴾ (٩٠):

هذا البيان يتحدث عما كان بعد أن تراءى الجمعان، وكان بنو إسرائيل على شاطئ البحر، وكان فرعون وجنوده يعيدون عنهم مسافة صالحة لمشاهدة كل جمع لتحركات الجمع الآخر، ومحاصرين لبني

إِسْرَائِيلَ مُحَاصِرَةً تَامَّةً، إِذْ لَا خَلَاصَ لَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَيْدِي الْمَضْرِيِّينَ إِلَّا عُبُورُ الْبَحْرِ. وَهَذَا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضَاهُ.

﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾:

أي: وَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى مُجَاوِزِينَ الْبَحْرَ، وَخَارِجِينَ إِلَى الْبَرِّ مِنْ جِهَةِ الشَّطِّ الْمَقَابِلِ لَشَطِّ الْعُبُورِ.

يقال لغة: «جَاوَزَ الْمَكَانَ يُجَاوِزُهُ» أي: تَخَطَّاهُ، وَخَلَّفَهُ وَرَاءَهُ.

والباء في: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لِلتَّعْدِيدِ، أَوْ لِلْمَصَاحَبَةِ، أي: جَعَلْنَاهُمْ يَجَاوِزُونَ الْبَحْرَ بِمَصَاحِبَتِنَا لَهُمْ بِالْعَنَاءِ وَالرَّعَايَةِ وَالْحِمَايَةِ.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ...﴾ (٩٠):

أي: فَسَارَ فِي أَثَرِهِمْ وَعَلَى طَرِيقِ عُبُورِهِمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ.

يقال لغة: «اتَّبَعَهُ، وَتَبِعَهُ» أي: سَارَ عَلَى أَثَرِهِ، فَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي نَصِّ آخِرِ.

﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾:

الْبَغْيُ: الظُّلْمُ، وَتَجَاوُزُ حُدُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، بِإِسْرَافٍ كَرِيهِ شَنِيعٍ.

الْعَدُوُّ: مُضَدَّر «عَدَا عَلَيْهِ، يَعْدُو، عَدُوًّا، وَعَدُوًّا، وَعَدَاءً، وَعَدُوَانًا» أي: ظَلَمَهُ بِإِسْرَافٍ، وَتَجَاوُزَ لِحُدُودِ الظُّلْمِ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَيْهِ الْمَضْطَّهَدُونَ، وَلَا يَصِلُونَ مَعَهُ إِلَى الصَّبْرِ وَتَفْجُرِ الْعُصْبِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ

بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١):

أي: وَاسْتَمَرَّ فِرْعَوْنُ فِي كُفْرِهِ وَبَغْيِهِ وَظُلْمِهِ الْفَاجِسِ، حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ

الْغُرُقُ، وَوَجَدَ نَفْسَهُ هَالِكاً لَا مُحَالَةَ، حِينَئِذٍ أَعْلَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ إِيْمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ.

إِلَّا أَنْ إِيْمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ وَهُوَ يُعَالِجُ الْمَوْتَ وَانْتِزَاعَ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِهِ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْئاً، لِانْتِهَاءِ مُدَّةِ الْامْتِحَانِ، الَّذِي أُمِّهَلَ فِيهِ إِمْهَالاً كَثِيراً، وَقَدْ رَأَى خِلَالَ مُدَّةِ امْتِحَانِهِ مِنَ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَةِ مَا جَعَلَهُ يَسْتَيْقِنُ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قول الله عز وجل:

• ﴿أَلَمْ نَكُنْ وَفَدَ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٦﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

أَي: أُبَلِّغُهُ الْمَلِكُ أَوِ الْمَلَائِكَةُ الْمَكْلُفُونَ أَنْ يَنْزِعُوا رُوحَهُ، أَوْ يَحْضُرُوا نَزْعَ رُوحِهِ، مَعَ تَعْذِيهِ، عَنْ رَبِّهِ قَوْلَهُ لَهُ: أَلَا أَنْ أَمَنْتَ وَأَسْلَمْتَ، إِذْ لَا يَنْفَعُكَ إِيْمَانُكَ وَإِسْلَامُكَ، وَالْحَالُ أَنَّكَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اسْتِيقَانِكَ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، بَغِيّاً وَعَدُوّاً.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾: أَي: فَالْيَوْمَ نَجْعَلُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ تَحْمِلُكَ، وَتَقْذِفُكَ، وَتُلْقِيكَ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، لِيَرَاكَ النَّاسُ هَالِكاً، بِمِياهِ الْبَحْرِ الَّذِي غَرِقْتَ فِيهِ، وَلِيُصَدِّقُوا أَنَّكَ قَدْ غَرِقْتَ مَعَ الْغَارِقِينَ، فَلَمْ يَنْفَعَكَ ادِّعَاءُ إِلَهِيَّتِكَ، ثُمَّ رُبُوبِيَّتِكَ.

النَّجْوَةُ: الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ.

بِيَدِّكَ: أَي مَصْحُوباً بِكَامِلِ بَدْنِكَ، لَمْ تَأْكُلِ الْحَيْتَانُ مِنْكَ يَدّاً وَلَا رِجْلاً، وَلَا شَيْئاً آخَرَ مِنْ جَسَدِكَ.

وَيُطْلَقُ الْبَدَنُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الدَّرْعِ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا فَالْيَوْمَ نُلْقِيكَ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، مَصْحُوباً بِدِرْعِكَ الَّذِي لِبِسْتَهُ، لِحِمَايَةِ نَفْسِكَ مِنْ ضَرَبَاتِ مَنْ يَأْتِي لِمَقَاتَلَتِكَ.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: أي: لتكونَ لِمَنْ خَلَقَكَ مِنَ الْكَفَرَةِ الطغاة الجبابرة الباغين العادين، ولسائر الكفرة المجرمين، علامة جليّة تدلُّ عَلَى عَذْلِ رَبِّكَ فِي عِبَادِهِ، وَلِتَدُلَّ عَلَى عَظِيمِ نِقْمَتِهِ، مَتَى اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ إِنْزَالَ نِقْمَتِهِ بِالطَّاغِينَ مِنْهُمْ، بَعْدَ إِمْهَالٍ طَوِيلٍ، رَغْبَةً فِي أَنْ يُؤْمِنُوا، وَيُسَلِّمُوا، وَقَطْعاً لِأَعْذَارِهِمُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَذِرُوا بِهَا.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ (٩٢):

في هذه العبارة بيان من الله عزّ وجلّ يكشفُ فيه حَال كثير من الناس، تجاه الآيات الكثيرات الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ فِي عِبَادِهِ، وفي تصاريفه لكونه.

فحَال كثير من الناس أَنَّهُمْ يَكُونُونَ غَافِلِينَ عَنْهَا.

الغفلة: انْصِرَافُ الذَّهْنِ عَنْ مُلاحِظَةِ الشَّيْءِ وَمُرَاقَبَتِهِ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ وَجُودِهِ بِذَاتِهِ، أَوْ وَجُودِ أدِلَّتِهِ، وإمكان إدراكه لَوْلَا وَجُودُ الصَّارِفِ، أَوْ السَّهْوِ، الَّذِي هُوَ بِمِثَابَةِ إِطْبَاقِ الْجَفْنَيْنِ.

يُقَالُ لَعَةً: «عَفَلَ عَنِ الشَّيْءِ، يَغْفُلُ، غُفُولًا، وَعَفْلَةً».

أقول: والصَّارِفُ الْمُحْدِثُ لِلْعَفْلَةِ هُوَ انْشِغَالُ النَّفْسِ وَكُلِّ حَوَاسِّهَا بِلَذَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَزِينَاتِهَا، وَأَهْوَاءِ النَّفْسِ مِنْهَا، وَتَأَثُّرُ الْفِكْرِ بِوَسْوَاسِ الشَّيَاطِينِ، وَتَسْوِيَلَاتِهِمْ، وَإِطْمَاعَاتِهِمْ بِالْبَاطِلِ.



سَابِعاً

نص سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)

الآية (١٣٦)

قال الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن فرعون ومَلَكِهِ ويلحق بهم

جنودهم:

• ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

غَافِلِينَ﴾ (١٣٦).

فأوجز الله عز وجل المرحلة الأخيرة لقصة فرعون وملائه وجنودهم، مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل، في سورة (الأعراف) بهذه الآية، ومع هذا الإيجاز البالغ فيها، فقد جاء فيها إضافة ما يلي:

(١) التعبير بالانتقام منهم. الانتقام: المعاقبة على الذنب.

(٢) بيان أن الانتقام منهم كان بسبب تكذيبهم بآيات ربهم من الخوارق، وبآياته الكلامية البيانية التي بلغهم إياها موسى عليه السلام، وبسبب أنهم أعرضوا عنها بإراداتهم الحرة، فكانوا عن دالاتها غافلين، فلم يستفيدوا منها، ولم يعملوا بمقتضى دالاتها.

وقد سبق بيان معنى الغفلة في أواخر تدبر النص السابق.



ثامناً

نص سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول)

الآيات من (١٥ - ٢٦)

قال الله عز وجل:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ بِكَ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْكَ أَن تَرْتَكِيَ ﴿١٧﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٨﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾:

القراءات:

(١٦) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: (طوى) بغير تنوين، على أن اللفظ ممنوع من الصرف بتقدير أنه معرفة.

وقراها باقي القراء العشرة: (طوى) بالتنوين مع كسره في حالة الوصل، وإبداله ألفاً في حالة الوقف، والتنوين على أن اللَّفْظ مصروف بتقدير أنه نكرة.

(١٨) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، ويعقوب: [إِلَى أَنْ تَزْكَى]. بتشديد الزاي، أصل الكلمة: «تَزْكَى» أدغمت التاء بالزاي، فصارت «تَزْكَى».

وقراها باقي القراء العشرة: [إِلَى أَنْ تَزْكَى] بدون تشديد الزاي، وبحذف التاء الثانية من «تَزْكَى» الكلمة التي هي الأصل.

والقراءتان وجهان جائزان، وفي «تَزْكَى» تخفيف وإيجاز، ويظهر أن التعليم الرِّبَانِيَّ وَجَّهَ مُوسَى لتخفيف العبارة أولاً، فإذا أَحْجَمَ فِرْعَوْنُ كَرَّرَ موسى عليه العبارة مع شيء من التشديد، دلَّ عليه التعبير بعبارة: «تَزْكَى».

تمهيد:

هذا النص قد اشتمل على موجزٍ مُحْتَزَلٍ جداً، لكلِّ قِصَّةِ مُوسَى مع فرعون، منذ وقت تكليف الله موسى أن يذهبَ إليه، حتَّى التنكيل به، وتغذيته، وإغراقه.

وفي هذا الموجز النِّقَاطُ النُّقَاطُ البارزة العنوانية من قصَّة موسى مع فرعون.

والغرض من هذا النص توجيهُ الرسول ﷺ، وكلِّ داعٍ إلى الله من أمته، للصَّبْرِ الطويل مع الثقة بالله، في المسيرة الدَّعَوِيَّة إلى الله، كما صَبَرَ أولُو الْعَزْمِ من الرُّسُل في دعواتهم، ومنهم موسى عليه السَّلام، الذي جاء في هذا النص اختزالٌ قِصَّتِهِ.

وقد سبقَ هذا النص في ترتيب التُّزُولِ نصوصٌ مُتَعَدِّدَاتٌ تَدَبَّرْنَا طَائِفَةً

مِنْهَا فِيمَا سَبَقَ مِنْ تَدَبُّرٍ، وَقَدْ جَاءَ فِي النُّصُوصِ تَفْصِيلُ قِصَّةِ مُوسَى بِوُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَكَامِلَةٍ فِيمَا بَيَّنَّهَا.

وَجَاءَ هَذَا النَّصُّ لِلْفَتْ النَّظَرِ إِلَيْهَا، رَغْبَةً فِي اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ ذَاكَرَاتِ الْمَوْجَّهِ لَهُمُ الْخَطَابِ، لِسَاحَاتِ التَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ، لَتَكُونَ حَافِزاً عَلَى التَّأْسِّي بِالصَّبْرِ الَّذِي صَبَرَهُ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَعِنَادِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ، وَاضْطِهَادِهِمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبِالْمُتَابَعَةِ الدَّائِبَةِ الَّتِي تَابَعَ فِيهَا تَأْدِيَةَ رِسَالَةِ رَبِّهِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ طَوَالَ سِنِينَ فِي مِصْرَ، قَدْ تَصَلَّى إِلَى رُبْعِ قَرْنٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّهَا بَلَغَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَسِيرَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (النَّازِعَاتِ) لَمْ يَمُضْ عَلَيْهَا إِلَّا أَقَلُّ مِنْ عَشْرِ سِنَوَاتٍ، فَحَالَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، مَعَ عُتَاةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَجَبَابِرَتِهَا، أَخَفْتُ وَأَهْوَنَ مِنْ حَالِ مُوسَى وَهَارُونَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُمَا مَعَ جَبَابِرَةِ مِصْرَ، فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَآلِهِ وَجُنُودِهِمْ.

فَالْتَوَجُّهُ لِلتَّأْسِّي بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَبْرِهِ، وَصَبْرٍ مَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَاضْخٌ فِي النَّصِّ وَضُوحاً تَاماً.

وظَاهِرٌ أَنَّ الْغَرَضَ التَّوْجِيهِيَّ فِي سُورَةِ (النَّازِعَاتِ) بِالنَّظَرِ إِلَى السَّبَاقِ وَالسِّيَاقِ، لَا يَسْتَدْعِي أَكْثَرَ مِنْ اخْتِرَالِ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ فِرْعَوْنَ جَبَّارِ مِصْرَ فِي زَمَانِهِ، فِي فِقَرَاتٍ غَيْرِ طَوَالٍ.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ، وَيُلْحِقْ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿١٥﴾﴾:

الاستفهام في هذه الآية ليس المراد به طَلَبُ الْإِفْهَامِ، إِذْ مِنَ الْجَلِيِّ أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَعْمَلٍ فِيمَا وُضِعَ لَهُ، لِسَبْقِ الْإِخْبَارِ بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ

فرعون، في نصوص متعدّدات مطوّلات، ومتوسّطات الطول، وموجّزات، بحسب ما اقتضته المناسبات التي جاءت في سورها، والأغراض الحكيمة من الإتيان بالمقدار الذي جاء فيها، وبالملتقطات من القصّة التي اختيرت للبيان فيها.

والمراد بهذا الاستفهام على ما يظهر هنا، الإشعار بما يلي:

لَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَخْبَرْنَاكَ بِحَدِيثِ مُوسَى، فِي سُورِ مُنْزَلَاتٍ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ، فَهَلْ أَنْتَ ذَاكِرٌ مَا أَتَاكَ مِنْ حَدِيثِ عَنْهُ، وَكَيْفَ جَاهَدَ جِهَاداً شاقّاً بِعَزِيمَةٍ ثَابِتَةٍ، وَصَبْرٍ جَمِيلٍ، فِي زَمَنِ طَوِيلٍ.

أي: فَلَكَ بِهِ أُسْوَةٌ، فَاضْبِرْ كَمَا صَبَرَ، وَلَا يَضِقْ صَدْرُكَ، وَتَضَجِرْ وَلَا تَشْكُ مِنْ إِعْرَاضِ عَلَيْهِ قَوْمِكَ عَنْ دَعْوَتِكَ، أَوْ مِنْ إِذْبَارِهِمْ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَىٰ ۖ﴾ (٧)

لَقَدْ عَلِمْنَا مِمَّا سَبَقَ تَدْبِيرُهُ فِي السُّورَةِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَادَاهُ أَوَّلًا، ثُمَّ قَرَّبَهُ نَجِيًّا، فَسَارَهُ، وَالِاخْتِرَالِ هُنَا اقْتَصَرَ عَلَى مَا كَانَ أَوَّلًا، وَمَا جَاءَ بَعْدَهُ تَابِعٌ لَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِأَسْلُوبِ النَّدَاءِ.

وسبق بيان الوادي المقدّس «طوى» في النصّ الذي من سورة (طه)، وسبق فيه أيضاً أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِمُوسَى: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَىٰ ۖ﴾ (٢٤) وقد جاء هناك التدبّر التحليلي الكافي.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۖ﴾ (٨)

ما جاء في هاتين الآيتين مضافاً إلى ما جاء في النصوص الأخرى إضافةً تكميلية، فيها تعلّيم من الله كيف يكون القول اللين في مخاطبة مثل

فَرَعُونَ الْجَبَّارَ، الَّذِي اغْتَادَ عَلَى تَقْدِيمِ مُقَدِّمَاتِ رَفِيقَاتِ طَوِيلَاتٍ قَبْلَ عَرَضِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ.

وَيُذَكِّرُ الْمَتَدَبِّرَ الْمَتَّانِي، أَنَّ عِبَارَةَ: ﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى﴾ (١٨) التعليمية الموجهة من الله عز وجل لموسى عليه السلام، تُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ بِحَسَبِ مَعْتَادِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، مَخَاطَبَةُ فِرْعَوْنَ بِالْأَسْلُوبِ الَّذِي كَانَ يَخَاطِبُهُ بِهِ قَوْمُهُ، حِينَ طَلَبَ شَيْءٌ مَا مِنْهُ، أَوْ عَرَضَ شَيْءٌ مَا عَلَيْهِ.

إِنَّهُ أَسْلُوبُ إِطَالَةٍ مُقَدِّمَاتِ الْعَرَضِ التَّكْرِيمِيِّ التَّلَطُّفِيِّ قَبْلَ بَيَانِ الْمَطْلُوبِ.

فَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ ذَكَرَ خَمْسَ كَلِمَاتٍ تَمْهِيدِيَّةٍ تَلَطُّفِيَّةٍ، قَبْلَ ذِكْرِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ عَرَضَ الْمَطْلُوبِ، وَلَدَى إِبْرَازِ مَا هُوَ مَطْوِيٌّ مُقَدَّرُ ذَهْنًا تَصِيرُ سَبْعَ كَلِمَاتٍ، وَهِيَ كَمَا يَلِي:

«(١) ﴿هَلْ﴾ وَتَضَمَّنَ عَرْضاً عَلَى طَرِيقَةِ الْاسْتِفْهَامِ بِتَلَطُّفٍ (٢) اللَّامُ مِنْ: ﴿لَكَ﴾. (٣) كَافُ الْخَطَابِ. (٤) وَ(٥) وَهنا كلمتان مطويتان هما: «رَغْبَةٌ فِي». (٦) ﴿إِلَّا﴾ (٧) ﴿أَنْ﴾...».

وَبَعْدَهَا تَأْتِي الْكَلِمَةُ الَّتِي تَضَمَّنَتْ عَرَضَ الْمَطْلُوبِ، وَهِيَ ﴿تَزَكَّى﴾ وما جاء بَعْدَهَا فِي الْآيَةِ (١٩).

وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ حَذْفُ كُلِّ هَذِهِ الْمَقَدِّمَاتِ الْمَطْوِيَّةِ، وَالْاِكْتِفَاءُ بِعَرَضِ الْمَطْلُوبِ بِجَفَاءٍ وَخُشُوعَةٍ، أَوْ مَعَ بَعْضِ الْمَقَدِّمَاتِ دُونَ إِطَالَةٍ فِيهَا. ﴿تَزَكَّى﴾: أَي: تَتَطَهَّرُ مِنَ الْعُقَاثِ الْكُفْرِيَّةِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْمُفْسِدَةِ. وَتَنْمُو وَتَسْمُو بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبِالْإِسْلَامِ لَهُ، وَبِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِيهِ.

الزَّكَاةُ: فِي اللَّغَةِ تَدَوُّرٌ حَوْلَ مَعْنَيْنِ: الطَّهَارَةُ، وَالنَّمَاءُ.

﴿وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾: أي: وأدلك ببياناتي، وبما أبلغك من كلمات عن ربي، وأرشدك إلى صراط هدايتك، صراط الله العزيز الحميد، صراط الحق والخير والرشاد، والأعمال الصالحة.

وأهديك أيضاً إلى معرفة أن الحياة الدنيا دار امتحان، وأن بعد هذه الحياة مرحلة ثانية يكون فيها البعث إلى حياة أخرى، وفي تلك الحياة الأخرى داران: دار لنعيم المؤمنين المتقين، وهي الجنة، وفيها كل ما يشتهي ويتمنى أصحابها. ودار لعذاب الكافرين المجرمين، وهو عذاب شديد، وأشدّه عذاب الحريق بالنار، وهي أيضاً دار عذاب العصاة المسرفين على أنفسهم، دون كفر.

﴿فَتَحْشَى﴾: أي: فتخشى عذاب الله وعقابه، وترجو رحمته وثوابه العظيم في جنات النعيم، معظماً ومُجلاً لربك، وطامعاً بعظيم فضله عليك.

فما صدق فرعون موسى عليه السلام في دعوته، وطلب منه أن يأتي ببرهان على صدقه في أنه رسول رب العالمين.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٠): وهي آية العصا التي تتحول ثعباناً مخيفاً مُرهَباً، وأتبعها بآية اليد.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ (٢١): أي فكذب فرعون بأن ما جاء به موسى من آية مُعْجَزَةٍ، هي آية من عند الله. وعصى أوامر ربه التي بلغه إياها في آيات مُنْزَلَاتٍ من كلامه جلّ جلاله.

• ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ (٢٢): أي: وبعد أن ألح موسى عليه السلام على

فرعون في دَعْوَتِهِ إلى دين الله خلال مُدَّة طويلة من السنين، أمهله الله فيها إِمَهَالاً قَطَعَ فيه كُلَّ أعذاره، أَذْبَرَ عن الاستجابة لدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّه، فَأَعْطَى بِإِذْبَارِهِ غَايَةَ الرَّفْض لها، ولم يَكْتَفِ بالإعراض الذي هو وَسْطُ بَيْنِ الإِقْبَالِ والإِذْبَارِ.

ثُمَّ لم يَكْتَفِ بِمُجَرَّدِ الإِذْبَارِ، بَلْ أَذْبَرَ حَالَةً كَوْنَهُ يَسْعَى في تَذْيِيرِ معارضة آيَةِ مُوسَى الْكُبْرَى، بِمَفْتَرِيَّاتٍ سِحْرِيَّةٍ يَأْتِي بِهَا سَحَرَةَ مِصْرَ.

وَأَعْلَنَ بِوَقَاحَةٍ بِالْغَةِ أَنَّهُ هُوَ إِلَهَ شَعْبِ مِصْرَ، وَإِلَهَ الْإِسْرَائِيلِينَ أَيْضاً.

وَلَمَّا خَابَ سَعْيُهُ في معارضة معجزة موسى بِسِحْرِ سَحَرَةِ مِصْرَ، صَارَ يَسْعَى في اضْطهاد مَنْ آمَنَ بِمُوسَى، ولو كان من بني إسرائيل.

ثُمَّ عَرَضَ على مَجْلِسِ وزرائه ومستشاريه في قَصْرِه أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى بِسِرِّيَّةٍ ومفاجأة تَمْنَعُ مُوسَى مِنْ أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ، إِذْ كَانَ فِرْعَوْنُ مُسْتَيَقِناً في نفسه، مِنْ أَنَّ مُوسَى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُ إِذَا دَعَاهُ.

ثُمَّ نَفَخَ في رَأْسِهِ جُنُونَ الْعِظْمَةِ وَحُبَّ الْعُلُوِّ في الْأَرْضِ، فَادَّعَى أَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الْأَعْلَى في مِصْرَ، دَلَّ على هذا:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فَجَمَعَ الْجُمُوعَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ وَالْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَسَاقَهُمْ وَأَعَدَّ اخْتِفَالاً عَظِيماً حَاشِداً، جَرَتْ فِيهِ الْمَرَاسِيمُ الْمَلِكِيَّةُ الْفِرْعَوْنِيَّةُ، وَقَامَ فِي الْجَمْعِ مَلَقِيّاً خُطَابُ الْعَرْشِ، فَنَادَى بِالْعُلُوِّ صَوْتَهُ بَعْدَ الْمَقْدَمَاتِ الَّتِي أَبَانَ فِيهَا إِنْعَامَاتِهِ عَلَى شَعْبِهِ قَائِلاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ الَّذِي يُقَدِّمُ لَكُمْ الْأَرْزَاقَ، وَيُسِّرُ لَكُمْ مَصَالِحَ حَيَاتِكُمْ، وَيَفْعَلُ وَيَفْلُ مُعَدَّداً مَاثِرَهُ، وَلَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرِي، فَجَعَلَ نَفْسَهُ نِدَاءً لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾:

أي: فَدَبَّرَ الله له تدبيراً مُحْكَمًا، فَأَخَذَهُ بِهِ أَخَذَ عِقَابٍ بَعْدَ بَعْثٍ وَإِغْرَاقٍ لَهُ وَلِجُنُودِهِ أَجْمَعِينَ.

التكال: العقاب الشديد الرَّادِع.

أصل معنى الأخذ: الْقَبْضُ عَلَى الشَّيْءِ، وبالتوسُّعِ في المعنى صار يُطْلَقُ عَلَى مَا يُؤْخَذُ لَهُ. فإذا كان الأخذُ للعذاب والعقاب، كان المراد به العذاب والعقاب، وإذا كان الأخذُ لِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ المرادُ به ما أُخِذَ لَهُ، فَأَخَذُ المَأْكُولَ لِیُؤْكَلَ، وَأَخَذُ المَشْرُوبَ لِیُشْرَبَ، وَأَخَذُ القَادِرَ عَلَى الْعَمَلِ لِیُسَخَّرَ، وَأَخَذُ القَادِرِينَ عَلَى الْقِتَالِ مِنْ قَبْلِ قَائِدِ الْجِيشِ لِيُقَاتِلُوا. وهكذا.

﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾: أي: عَاقَبَهُ اللهُ بِالتَّعْذِيبِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الْبَحْرِ، بَغْضٍ عِقَابِ كَلِمَتِهِ الْآخِرَةِ الَّتِي ادَّعَى فِيهَا الرُّبُوبِيَّةَ، وَكَلِمَتِهِ الْأُولَى الَّتِي ادَّعَى فِيهَا الْإِلَهِيَّةَ.

تَرَجَّحَ عِنْدِي هَذَا الرَّأْيُ مِنْ أَقْوَالِ الْمَفْسِّرِينَ، بَعْدَ النِّظَرَةِ الشَّامِلَةِ فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِلَى مُخْتَلَفِ النُّصُوصِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْهَا، وَالتَّأَمُّلِ فِيهَا بِتَفْكِيرٍ عَمِيقٍ.

قول الله عز وجل:

• ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾:

أي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي جَرَى لِفِرْعَوْنَ وَلِمَنْ شَدَّ أَرْزُهُ مِنْ آلِهِ وَقَوْمِهِ، لَعِبْرَةٌ يَعْتَبَرُ بِهَا مَنْ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ مِنْ نَكَالٍ مِمَّاثِلٍ لِمَا عَاقَبَ اللهُ بِهِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ مَنْ آزَرَهُ، وَجَنَّدَ نَفْسَهُ لِدَعْمِ سُلْطَانِهِ الظَّالِمِ الْغَاشِمِ.

الْعِبْرَةُ: الْاِغْتِبَارُ وَالِاتِّعَاضُ بِمَا مَضَى، وَأَصْلُهَا مَعْنَى الْعِبْرَةِ مِنَ الْعُبُورِ،

وهو الانتقال من حادثة جَرَتْ إلى حادثة لَمْ تَجْرِ، بقياسيها عليها، والحكم عليها بأنها سَيُحْدِثُ فيها مِثْلَ مَا حَدَثَ في الماضيّة، إذا تَمَثَّلَتِ الحادثتان في الصفات وفي الأسباب.



تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطات من قصّة موسى عليه السّلام

الفقرة الخامسة الآيات من (٨٠ - ٨٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَيْتُكُمْ مِنْ عَذَابِكُمْ وَعَدْتُكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)﴾

القراءات:

(٨٠ و ٨١) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [أَنْجَيْنَاكُمْ - وَوَعَدْتُكُمْ - رَزَقْنَاكُمْ] بضمير المتكلم المفرد، وبفعل «واعد» المزيد.

وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَنْجَيْنَاكُمْ - وَوَعَدْنَاكُمْ - رَزَقْنَاكُمْ] بضمير المتكلم العظيم، وبفعل «وعد» غير المزيد على وزن: «فعل».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْجَيْنَاكُمْ - وَوَعَدْنَاكُمْ - رَزَقْنَاكُمْ] بضمير المتكلم العظيم، وبفعل «واعد» المزيد الدالّ على المشاركة، أو المبالغة بتأكيد الوعد.

(٨١) • قرأ الكِسَائِي: [فَيَحُلْ - وَمَنْ يَحْلُلْ] مِنْ فَعَلَ: «حَلَّ، يَحْلُلُ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَيَحِلْ - وَمَنْ يَحْلِلْ] من فَعَلَ «حَلَّ، يَحِلُّ».

«حَلَّ يَحِلُّ، وَحَلَّ يَحُلُّ» لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ مُتَكَافِئَتَانِ.

تمهيد:

جاء في هذه الفقرة خطابٌ لبني إسرائيل عُمُومًا المعاصرين لرسالة محمد ﷺ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ، بِمَنَّةِ اللَّهِ عَلَى أَجْدَادِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سِينَاءَ، وَهَذِهِ الْمَنَّةُ تَنْسَحِبُ عَلَى ذُرَارِيهِمْ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لِأَنَّ نَوِيَاتِهِمُ الصَّغَرَى كَانَتْ فِي ظُهُورِ أَجْدَادِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَافِظُوا عَلَى انْتِمَائِهِمْ إِلَى أَجْدَادِهِمْ وَاعْتِزَّازِهِمْ بِهِمْ، عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ شُرُورٍ، وَجَرَائِمٍ، وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى رُسُلِ رَبِّهِمْ.

وَفِي هَذَا النَّصِّ يَمْتَنُّ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِثَلَاثِ مَنَنِ:

الْمَنَّةُ الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - أَنْجَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، بِآيَةٍ خَارِقَةٍ، هِيَ فَلَقُ الْبَحْرِ لَهُمْ، حَتَّى عَبَرُوا إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ، وَخَرَجُوا مِنْهُ سَالِمِينَ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ أَجْمَعِينَ فِي الْبَحْرِ وَرَاءَهُمْ، وَقَذَفَ بِأَجْسَادِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى قُرْبٍ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

الْمَنَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ وَاعَدَ رَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَوَعَدَهُمْ مَعَهُ، أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَأَنْ يَشْهَدُوا الْحَدِيثَ التَّكْرِيمِيَّ الْعَظِيمَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُتَابِعُوا مُوسَى إِلَى جَانِبِ الطُّورِ، بَلْ تَخَلَّفُوا فِي مَحَلَّتِهِمُ الَّتِي هُمْ نَازِلُونَ فِيهَا.

ولما تأخَّرَ مُوسَى عن الثلاثين لَيْلَةً الَّتِي كَانَتْ فِي الْوَعْدِ الْأَوَّلِ، قَبْلَ زِيَادَتِهِ عَشْرَ لَيَالٍ أُخْرَى، لَامْتِحَانِ إِيمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، صَنَعَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عَجْلاً ذَهَبِيًّا مِنَ الْحُلِيِّ الَّتِي اسْتَعَارَهَا الْإِسْرَائِيلِيُّونَ مِنَ الْمَضْرِيِّينَ قُبَيْلَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَقَذَفَ فِي جَوْفِهِ الْقَبْضَةَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَارَ الْعَجَلُ يَخُورُ مِثْلَ خُورِ الْعُجُولِ، فَعَبَدُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فِي قِصَّةٍ سَبَقَ بَيَانُهَا فِي تَدْبِيرِ سُورَةِ (الأعراف).

الْمَنَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سَيْنَاءَ، لَمَّا تَضَجَّرُوا إِذْ لَمْ يَجِدُوا فِي صَحْرَائِهَا مَا يَصْنَعُونَ مِنْهُ خُبْزًا يَأْكُلُونَهُ، إِذْ كَانَ أَكْثَرُ طَعَامِهِمْ أَلْبَانُ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَعْضًا مِنْ لَحُومِهَا، وَخَافُوا عَلَى مَوَاشِيهِمْ مِنَ الْانْقِرَاضِ بِذُبْحِهَا وَالْأَكْلِ مِنْ لُحُومِهَا، دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ بَدَلِ الْخُبْزِ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَحَلَّتِهِمْ وَمَا حَوْلَهَا طُيُورَ السَّلْوَى، يَنَالُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ، فَيَذْبَحُونَهَا، وَيَأْكُلُونَ مِنْ لُحُومِهَا.

ولاختبارهم كَلَّفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَكْلِيفًا دِينِيًّا شَرْعِيًّا تَعَبُدِيًّا، أَنْ يَجْمَعُوا مِنَ الْمَنَّ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ حَاجَةً يَوْمَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِيَأْكُلَهُ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْخِرُوا إِلَى الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْهُ شَيْئًا بِاسْتِثْنَاءِ الْيَوْمِ السَّادِسِ الَّذِي هُوَ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَّ حَاجَةً يَوْمَيْنِ، لِأَنَّ السَّبْتَ يَوْمٌ انْقِطَاعٍ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ دُنْيَوِيٍّ، وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَالَ الْمَنَّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ^(١).

وحذَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مَخَالَفَةِ هَذَا التَّكْلِيفِ التَّعَبُدِيِّ، وَمَنْ تَجَاوَزَ حُدُودَ اللَّهِ فِيهِ، فَمَنْ خَالَفَ حُلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ.

لَكِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ قَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَفِيمَا نَهَى عَنْهُ، مَتَجَاوَزًا بَطْغِيَانِ حُدُودَ اللَّهِ، فَسَقَطَ فِي مَهْوَاةِ الْآثِمِينَ الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ.

(١) انظر الإصحاح (١٦) من سفر الخروج.

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَتَحَ أَبْوَابَ غُفْرَانِهِ، لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ، وَأَمَّنْ وَعَمِلَ صَالِحًا، ثُمَّ اهْتَدَى إِلَى الْإِسْقَامَةِ، وَالْإِلْتِزَامِ بِطَاعَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَيْتُكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ...﴾ وفي القراءة الأخرى: [قَدْ أَجْنَيْتُكُمْ]:

والغرض من القراءة تبيين مخاطبتهم بايناس مرة بأسلوب المتكلم المفرد، ومخاطبتهم بعد ذلك مرة أخرى، وهو يتجلى بعظمة الربوبية، إذ يستعمل ضمير المتكلم العظيم.

بهذه العبارة ينادي الله عز وجل بني إسرائيل المعاصرين لرسالة محمد ﷺ فمن بعدهم، ممتًا عليهم بما فعل مع أجدادهم أيام موسى عليه السلام من منن عظيمة، رغبة في أن يحفزهم ذلك إلى القيام بما يجب عليهم من الشكر له، والإيمان برسوله محمد ﷺ، وبما جاءهم به عن ربّه، فرسل الله جميعاً مبعوثون من مرسل واحد، هو رب العالمين جميعاً، فعلى عباد الله جميعاً أن يؤمنوا بهم جميعاً أنهم أنبياء الله ورسله، أما السلوك الديني فعليهم أن يتبعوا التالي فالتالي من التنزيل الرباني الذي يأمرهم الله فيه باتباعه، سواء أكان ذلك في الرسالة الواحدة، أم في الرسالات المتتاليات، حتى آخرها تنزيلاً.

فأتباع الرسل لا يعبدون الرسل، وإنما يعبدون من أرسلهم، وعليهم أن يتبعوا أوامر ونواهي المرسل لاحقاً فلاحقاً، دون تشبث بالسابق وتعضب له.

وَكُلُّ مُؤْمِنٍ بِاللّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَعْلَمُ أَنَّ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، فَمَا يَنْسَخُ مِنْ حُكْمٍ تَكْلِيفِيٍّ إِلَّا بِحُكْمٍ تَكْلِيفِيٍّ مِثْلِهِ، أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ.

• ﴿مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾: أي: من فرعونَ وجنوده، إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْإِذْلَالِ، وَشَقَّ لَكُمْ الْبَحْرَ، فَخَلَّصَكُمْ مِنْ مَتَابَعَةِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ لَكُمْ.

• ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ...﴾ (٨١): وفي القراءة الأخرى: [وَوَعَدْنَاكُمْ]: أي: وَوَعَدْنَاكُمْ وَغَدَاً مُّوَكَّدَاً يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: ﴿وَوَعَدْنَاكُمْ﴾ إِذْ صِيغَةُ «فَاعِلٍ» تُحْمَلُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَشِدَّةِ الْإِهْتِمَامِ وَالْعَنَايَةِ، إِذَا لَمْ تَدُلَّ عَلَى الْمَشَارَكَةِ.

أي: وَعَدْنَاكُمْ وَغَدَاً مُّوَكَّدَاً أَنْ نُكَلِّمَ رَسُولَنَا مُوسَى وَأَنْتُمْ حَاضِرُونَ فِي الْجِهَةِ الْيَمْنَى مِنَ الْوَادِي الْوَاقِعِ بِجَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ كَافٍ عَنْهُ، لَدَى الْحَدِيثِ عَنْ مَكَالِمَةِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى بِجَانِبِ الطُّورِ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مِصْرَ مِنْ مَدْيَنَ مَعَ أَهْلِهِ.

• ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ (٨١):

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: أي: وَأَعْطَيْنَاكُمْ وَوَهَبْنَا لَكُمْ وَأَنْعَمْنَا وَمَنَّنَا عَلَيْكُمْ، وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، كَانَتْ كُلُّ عَطَاءَاتِهِ وَإِنْعَامَاتِهِ عَلَى عِبَادِهِ تَنْزِيلًا، وَلَوْ كَانَتْ مَوَادُّهَا وَعَنَاصِرُهَا مُوجُودَةً فِي الْأَرْضِ، عَلَى وَجْهِهَا أَوْ فِي بَاطِنِهَا، فَالْمَعْطِيُّ وَالْوَاهِبُ عَلِيُّ الْأَعْلَى، وَعَطَاءَاتُهُ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهِ، بِأَمْرِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

الْمَنَّاءُ: طَعَامٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مُدَّةَ إِقَامَتِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ وَامْتِدَادًا إِلَى بَرِّيَّةِ فَارَانَ، فِي اتِّجَاهِ الْحِجَازِ، وَقَدْ قَامَ هَذَا الطَّعَامُ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ كَالنَّدَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَقَامَ الْخُبْزِ.

جاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج، الإصحاح (١٦): أَنَّهُ كَانَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كَالنَّدَى كُلَّ صَبَاحٍ، فَيَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلَ قُشُورٍ،

كَالْجَلِيدِ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَئِذٍ:
هُوَ الْخَبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمْ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا، اتَّقُوا مِنْهُ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى
مِقْدَارِ مَا يَكْفِيهِ لِيَوْمِهِ، وَنَهَايَهُمْ بِشِدَّةٍ عَنْ أَنْ يَأْخُذُوا زَائِدًا عَنْ كِفَايَتِهِمْ
الْيَوْمِيَّةِ، وَعَنْ أَنْ يَدْخِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ هَذَا تَكْلِيفًا تَعْبِيدِيًّا.

وَكَانَ هَذَا الطَّعَامُ يَنْزِلُ عَلَى مَحَلَّتِهِمْ وَعَلَى مَا حَوْلَهَا، لِيَجْمَعُوهُ كُلَّ
يَوْمٍ فِي الصَّبَاحِ إِلَّا يَوْمَ السَّبْتِ، فَهُوَ يَوْمٌ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلَ فِيهِ لِأُمُورِ
دُنْيَاهُمْ، وَحَاجَّتِهِمْ مِنَ الْمَنْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ كَانُوا يَجْمَعُونَهَا فِي الْيَوْمِ الَّذِي
قَبْلَهُ، وَهُوَ الْيَوْمُ السَّادِسُ مِنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ، وَكَانَ اللَّهُ يَحْفَظُهُ لَهُمْ، فَلَا
يُتَنَّنُ وَلَا يَظْهَرُ فِيهِ الدُّودُ، بِخِلَافِ الْأَيَّامِ الْأُخْرَى.

لَكِنْ مَنْ أَخَذَ فِي سَائِرِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ، وَأَبْقَى
مِنْهُ شَيْئًا لَصَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، أَتَنَّنَ وَظَهَرَ فِيهِ الدُّودُ الْكَثِيرُ، وَعَصَى رَبَّهُ،
وَخَالَفَ شَرِيعَتَهُ.

وَأَبْقَى بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَيْئًا مِنَ الْمَنْ إِلَى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي،
فَأَتَنَّنَ وَتَوَلَّدَ فِيهِ الدُّودُ، وَسَخِطَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِمَخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ
الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَقَدَّرَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاجَةَ الشَّخْصِ الْيَوْمِيَّةِ مِنَ الْمَنْ
بِمَكِّيَالٍ مَعْرُوفٍ عِنْدَهُمْ، يَتَسَعُ لِنَحْوِ لِثْرَيْنِ وَثَلَاثَةِ أَعْشَارِ اللَّتْرِ (كَمَا ذَكَرَ
كَاتِبُ قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ).

وَدَعَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ هَذَا الطَّعَامَ «مَّنَّا».

وَوَصَفَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ الْمَنْ بِأَنَّهُ كَبِيرُ الْكَزْبَرَةِ أَبْيَضُ، وَبِأَنَّهُ طَعْمُهُ
كَرِقَاقٍ بَعْسَلٍ.

وَجَاءَ فِي سَفَرِ «الْعَدَدِ» أَنَّهُمْ كَانُوا يَطْحَنُونَهُ أَوْ يَدُقُّونَهُ، وَيَخْبِزُونَهُ.

وذكروا أَنَّ ما يَبْقَى من المَنِّ على وَجْهِ الأرض كان يَذُوبُ، ويَخْتَلِطُ بتراب الأرض إذا اشْتَدَّتْ حرارة الشمس.

وثبت في صحيح البخاري وصحيح مسلم من حديث أبي سَعِيد بن زيد، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى».

ونظيره عن أبي هريرة عند أحمد والترمذي، وكذلك عند النسائي عن جابر، وأبي سعيد، وابن عباس.

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ المَنَّ أنواع، منه ما ذكره الإسرائيليون، ومنهُ الكَمَاءُ، والله أعلم.

السَّلَوَى: طيور تَرَحَّلُ في أسرابٍ كثيفة تُغْطِي كالسَّحاب، وكانت تَسْقُط على الأرض من تَعَبِها، فَيَسْهُلُ إمْسَاكُها بالأيدي.

وفي حال تَعَبِها كانت تطير عند الحاجة على ارتفاع نَحْوِ ذِرَاعَيْن فوق وَجْهِ الأرض.

فكان الإسرائيليون يَجْمَعُونَ من طيور السَّلَوَى في المَسَاءِ، وَيَذْبَحُونَهَا، وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا لَحْمًا شَهِيًّا طَيِّبًا، وكان هذا من فضل الله عليهم في سِيناء.

(انظر سفر العدد/١١/٣١).

• ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

أي: قَالَ اللهُ لَهُم، وَفَقَّ بِلَاغِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام لَهُم هذا القول. والمعنى: أَنَّ المَنَّ والسَّلَوَى قد كَانَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وقد أَباح اللهُ لَهُم بهذا الأمرِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا، ضِمْنَ تَشْرِيعِ تَعْبُدِيٍّ فِي المَنِّ سَبَقَ بَيَانُهُ آنفًا.

• ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾: أي: ولا تتجاوزوا فيما رَزَقْنَاكم حُدُودَنَا الَّتِي

بَيْنَاهَا لَكُمْ، فَلَا تَدْخِرُوا مِنَ الْمُنِّ إِلَى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي شَيْئاً، بِاسْتِثْنَاءِ الْيَوْمِ السَّادِسِ الَّذِي يَغُتْبُهُ السَّبْتُ وَهُوَ يَوْمٌ لَا عَمَلَ فِيهِ، فَإِنَّكُمْ تَجْمَعُونَ فِيهِ مَا يَكْفِي حَاجَتَكُمْ لِيَوْمَيْنِ فَقَطْ، وَسَاحِفُظُهُ لَكُمْ مِنَ الْفَسَادِ. فَقَدْ جَعَلْنَا رِزْقَكُمْ مِنَ الْمُنِّ عَلَى مِقْدَارِ حَاجَةٍ كُلِّ فَرْدٍ مِنْكُمْ، يَوْمًا فَيَوْمًا، فَمَنْ أَدْخَرَ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى خِلَافِ أَمْرِي فَقَدْ عَصَانِي، وَطَغَى، أَي: وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ الَّذِي حَدَدْتُهُ.

• ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾: أَي: وَمَنْ طَغَى بِتَجَاوُزِ الْحَدِّ الَّذِي حَدَدْتُهُ فَادْخَرَ مِنَ الْمُنِّ مَا لَمْ أَذَنْ بِادْخَارِهِ حَلًّا عَلَيْهِ غَضَبِي، أَي: نَزَلَ عَلَيْهِ حَالًا بِهِ غَضَبِي، لِأَنَّهُ عَصَانِي فِيمَا أَوْلَيْتُهُ مِنْ نِعْمَةٍ.

وَالْمَرَادُ بِحُلُولِ الْغَضَبِ حُلُولُ أَثَارِهِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ الْعِقَابِيِّ، وَمِنْهُ الْعِقَابُ النَّفْسِي الَّذِي يُحْدِثُ فِي النَّفْسِ الْقَلَقَ وَالْإِكْتِثَابَ وَالْكَدْرَ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

• ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (٨١): أَي: فَقَدْ سَقَطَ مَهْوَاةً سُقُوطًا مُخِيفًا جِدًّا، كَالسُّقُوطِ إِلَى وَادٍ سَحِيقٍ، أَوْ فِي بُئْرٍ شَدِيدَةِ الْعَمَقِ.

• ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٨٢):

هَذَا بَيَانٌ خَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِبَّانَ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ بِتَنْزِيلِ الْمُنِّ وَالسَّلَوى لِإِطْعَامِهِمْ، وَإِبَّانَ تَكْلِيفِهِمْ تَكْلِيفًا تَعَبْدِيًّا أَنْ لَا يَدْخِرُوا مِنَ الْمُنِّ شَيْئًا عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ آنَفًا.

وَيُظْهِرُ لِي مِنْ هَذَا الْبَيَانِ، أَنَّ الْغُفْرَانَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فِي الشَّرِيعَةِ الْمَنْزُلةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَئِذٍ، قَدْ كَانَ مِنْ شُرُوطِهِ مَا يَلِي:

(١) التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ.

(٢) تَجْدِيدُ الْإِيمَانِ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ عَقَائِدَ وَشَرَائِعَ ثَابِتَةٍ

التنزيل عن الله، فموسى قد كان معهم يُبَلِّغُهُمْ ما يُنَزِّلُ اللهُ عَلَيْهِ من أحكامٍ وتَشْرِيعَاتٍ أَنَا فَأَنَا، فَهِيَ يَقِينَةٌ حَتْمًا فِي عَصْرِهِ.

(٣) مُتَابَعَةُ الْإِيمَانِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمَنِ يَتَحَقَّقُ فِيهَا أَنَّهُ صَارَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ.

(٤) ثُمَّ اهْتَدَى فِي مَسِيرَتِهِ فِي حَيَاتِهِ إِلَى السَّيْرِ فِي صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، طَائِعًا لِرَبِّهِ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ، دُونَ انْحِرَافٍ وَخُرُوجٍ عَنْهُ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، أَوْ مِنْ ذَاتِ الشَّامِلِ.

هذه الشروط الثقيلة على بني إسرائيل، لِيُغْفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْعَاصِي مِنْهُمْ، الْمُتَجَاوِزِ حُدُودَ رَبِّهِ، هِيَ مِنَ الْإِضْرِ الَّذِي كَانَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. الْإِضْرُ: الْعَهْدُ الثَّقِيلُ. وَالتَّكْلِيفُ الشَّدِيدُ الثَّقِيلُ.

أَمَّا فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي حَمَلَ رِسَالَتَهُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّ الْمَعَاصِي مَعَ وَجُودِ الْإِيمَانِ الْمُسْتَقَرِّ تَكْفِي فِيهَا لِلظُّفْرِ بِغُفْرَانِ اللَّهِ، التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ، وَالْإِفْلَاحُ عَنِ الذَّنْبِ، وَالْعَزْمُ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدَةِ لِلذَّنْبِ. وَلَا يُشْتَرَطُ فِيهَا مُرُورُ زَمَنِ مُمْتَدٍّ يَعْمَلُ فِيهِ التَّائِبُ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى صِرَاطِ الْهُدَايَةِ، إِلَّا بِالنَّسْبَةِ إِلَى عِبَادِ الرَّحْمَنِ الْمُرْشِحِينَ لِأَنْ يَكُونُوا أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، إِذَا ارْتَكَبَ أَحَدُهُمْ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ كَبِيرَةَ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ، أَوْ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، أَوْ الزَّنا، فَمِنْ شُرُوطِ تَوْبَةِ أَحَدِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْكِبَائِرِ، أَنْ يُجَدِّدَ إِيْمَانَهُ وَيَعْمَلَ صَالِحًا، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْفِرْقَانِ/ ٢٥ مَصْحَفِ/ ٤٢ نَزُولِ).

لَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةَ لِلرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ عَنْ عِبَادِهِ، ذَلِكَ التَّكْلِيفُ الشَّدِيدُ الثَّقِيلُ الَّذِي كَانَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَتْ لَهُ ظُرُوفُهُ الزَّمَنِيَّةُ الْمُؤَقَّتَةُ.

هَذَا مَا فَهَمْتُهُ مِنْ ارْتِبَاطِ الْآيَةِ (٨٢) بِمَا جَاءَ قَبْلَهَا، بَدَأَ مِنْ

خِطَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، مَعَ مَقَارِنَتِهِ بِالنُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِشَأْنِ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ.

ما جاء في القرآن من بيانٍ عن المَنِّ والسَّلَوى غير الذي جاء في سورة (طه):

(١) أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلًا بَيَانًا خَبَرِيًّا عَنْ مِثِّي الْمَنِّ السَّلَوى اللَّتَيْنِ أَمَنَّ اللَّهُ بِهِمَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَمَّ فِي سِينَاءَ، بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَئَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ أَيْضًا، النَّصَّ الَّذِي تَدَبَّرْنَاهُ آنِفًا مِنْ سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يَخَاطِبُ اللَّهُ فِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَبْلَ أَنْ يَجْرِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ، احْتِكَاءُ دَعْوِيٍّ، أَوْ صِرَاعٌ جَدَلِيٍّ أَوْ عِدَائِيٍّ.

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، إِذْ بَدَأَ الْاِحْتِكَاءُ الدَّعْوِيَّ مِنَ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ لَهُمْ، قَوْلُهُ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أَوَّلِ سُورَةٍ مِنَ التَّنْزِيلِ الْمَدَنِيِّ خِطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ كَانَ لَهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ فِي الْمَدِينَةِ:

﴿... وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وَقُلْنَا لِأَجْدَادِكُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وَقُلْنَا لَهُمْ أَيْضًا مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (طه): ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾.

وأضاف البيانان اللذان من سورة (الأعراف) والذي من سورة (البقرة) أَنَّ فَرِيقًا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فِي الْحُكْمِ التَّعْبُودِيِّ الَّذِي كَلَّفَهُمْ أَنْ يَرْعَوْهُ بِشَأْنِ عَدَمِ الْإِدْخَارِ مِنَ الْمَنْ، فَطَعَنُوا مُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِحُلُولِ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ لَمْ يَظْلِمُوا اللَّهَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.



تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه)
المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السلام

الفقرة السادسة

الآيات من (٨٣ - ٩٩)

قال الله عز وجل:

﴿وَمَا أَصْبَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ۖ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۖ﴾ (٨٤) قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْرَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتُ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي

إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِعِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ . . . ﴿٩٩﴾

القراءات:

(٨٤) • قرأ رويس: [على إثري] بكسر الهمزة وإسكان الثاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [على أثري] بفتح الهمزة والفاء.

«إثري» و«أثري» لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ متكافئتان. يقال لغة: «جاء في إثره» و«جاء في أثره» أي: جاء عقبه.

(٨٧) • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: [بمَلِكِنَا] بفتح الميم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [بمِلِكِنَا] بضم الميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [بمِلِكِنَا] بكسر الميم.

فتح الميم، وضمُّها، وكسرها، لُغَات. يقال لغة: «مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مَلَكًا، وَمُلْكًا، وَمِلْكًا» أي: حازه وانفرد بالتصرف فيه.

(٨٧) • قرأ أبو عمرو، وشُعْبَةُ، وحمزة، والكسائي، وروح،

وخلف: [حَمَلْنَا] من فعل: «حَمَلَ» المبني للمعلوم.

وقرأ باقي القراء العشرة [حَمَلْنَا] مِنْ فعل: [حَمَلَ] المبني لِمَا لَمْ

يُسَمُّ فاعله، مشدّد الميم للتعدية.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، لأنّ الظاهر أنّ بعض

بني إسرائيل حَمَلَ من حُلِيِّ المصريين بإرادته واختياره، وأن بعضهم الآخر حُمِّلَ وهو كَارِهٌ لَمَّا حُمِّلَ، لما في حَمْلِ الحُلِيِّ من المصريين على سبيل الاستعارة، وهم خارجون من مَصْرَ خروجاً كلياً دون رغبة في العودة، مِنْ خيانة، وتغريبٍ وسلبٍ بغير حق.

(٨٩) • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهِمْ] بضمّ هاء الضمير. وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير. وهما لغتان عربيتان.

(٩٣) • قرأ نافع، وأبو عمرو، [تَتَّبِعْنِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وكذلك قرأها ابن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف، وكذلك قرأها أبو جعفر، ولكن بفتح ياء المتكلم وصلأ وإسكانها وقفاً. وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم وصلأ ووقفاً، مع تقديرها ذهنأ:

(٩٤) • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخَلَفَ: [يَبْنُوْهُمْ] بكسر الميم، وقرأها الباقر بفتح الميم، والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

(٩٤) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [بِرَأْسِيْ إِنْ] بفتح ياء المتكلم، مع إبدال الهمزة لأبي جعفر، وللشوسي، وقرأها الباقر بإسكان هذه الياء.

(٩٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفَ: [بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ] بتاء المُخَاطَبِينَ. وقرأها باقي القراء العشرة بياء الغائبين. وبين القراءتين تكاملٌ بياني.

(٩٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [لَنْ نُخْلِفَهُ] بكسر لام «نُخْلِفُهُ». وقرأ باقي القراء العشرة بفتح هذه اللام. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد بياؤه.

(٩٧) • قرأ ابنُ وردان: [لَنُخْرِقَنَّهُ] بفتح النون الأولى وكسر الراء. وقرأها ابنُ جَمَّاز: [لَنُخْرِقَنَّهُ] بضمّ النون الأولى وكسرِ الرَّاء. وقرأها باقي

القرء العشرة: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء المُشدَّدة. وهي وجوه عربيّة صحيحة متكافئة، وفي قراءة تشديد الراء دلالة على أن موسى عليه السّلام شدّد في بعض عباراته إشعاراً بأنّه سيُبَالِغُ في تحريقه بنار عظيمة.

تمهيد:

في هذه الآيات من (٨٣ - ٩٨) بيانٌ بعض أحداث مكالمة الله عزّ وجلّ لموسى عليه السّلام في الوادي المقدّس بجانب الطور، بعد الخروج من مصر مع بني إسرائيل، وعبور البحر.

وكان هذا مَبْنِيًّا على وعْدٍ من الله له بأنّ يحضُر إلى المكان الذي كلّمه فيه، وهو في طريق عَوْدَتِهِ بأَهْلِهِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مصر.

وتضمّن هذا الوعد أنّ يحضر مع قومه بني إسرائيل إلى الوادي المقدّس، وقد كانت مُدَّة الميعاد ثلاثين ليلةً، وبعد ذلك أتمّها الله بِعَشْرِ لَيَالٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

وتحرّك قلبُ موسى عليه السّلام بدافع الرّغبة في الحضور بسُرْعَةٍ ابتغاء مَرْضَاة رَبِّهِ، ورأى أنّ يَعْجَلَ ويأْمُرُ قَوْمَهُ أَنْ يُلْحَقُوا بِهِ مُتَّبِعِينَ أثرَهُ إلى الوادي المقدّس بجانب الطور.

وولّى أخاه هارونَ على قيادة قومه، وقال له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

لِكِنَّ جُمُهور بني إسرائيل لَمْ يُطِيعُوا هارونَ عليه السّلام في اللّحاق بموسى عليه السّلام، ذاهباً لمناجاة ربّه، وكان يُقدَّرُ في ذهنه أنّ جميع بني إسرائيل سائرون على أثره بقيادة أخيه هارون، كما وَجَّهَ لَهُمُ الأمر بذلك.

وخشي هارون عليه السلام أن يتبع أخاه مضطجبا الذين أطاعوا دون سائر بني إسرائيل، أن يحاسبه موسى عليه السلام ويقول له: فرقت بين بني إسرائيل، إذ جئت ببعضهم، وتركت سائرهم لا راعي يرعاهم، ولا قائد يسوس أمرهم.

فاجتهد، فرجح البقاء في بني إسرائيل، لئلا يحدث الفرقة بينهم.

وزاد الله عز وجل بحكمته ميعاد موسى عشر ليالٍ، ليمنتحن بني إسرائيل، فصارت الليالي أربعين ليلة.

أي: ليمنتحن إيمان بني إسرائيل، هل فهموا معنى الإيمان الصحيح، أم ما زالت أفكارهم متشبثة بآله وثنيي مشهود يعبدونه، كحال المصريين، وكحال الذين مروا عليهم بعد عبور البحر، فوجدوهم يعكفون على أضنام لهم، فقالوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال لهم كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

ولم يعلم بنو إسرائيل بزيادة الليالي العشر لموسى في ميعاده، فلعبت بهم وساوس الشيطان، وتوهموا أن موسى عليه السلام لم يهتد لإلهه الذي ذهب لمناجاته.

وظهر أن أذهانهم ونفوسهم ما زالت متشبثة بآله وثنيي، ولم تصل إلى مرحلة تجريد الرب جلّ جلاله من الجسديات الوثنية.

ولعبت بهم وساوس الشيطان مُزَيَّنة لهم فكرة التخلص من الحلّي الذهبي الذي استعاروه من المصريين، فبيل الخروج من مصر، إذ لا حق

لهم فيه، وربما كان لهَارُونَ عليه السَّلَام دورٌ في بَيَانِ أَنَّهُمْ عُصَاةُ اللَّهِ في مخَادَعَةِ المِصْرِيِّينَ، وأخذ حُلِيِّهِمْ على سَبِيلِ الاستعارة، والخروج بها مَعَهُمْ ظُلْمًا وَسَلْبًا بغيرِ حقٍّ.

وكان بينهم رجلٌ يقال له: السَّامِرِيُّ من قوم يقال لهم: السَّامِرِيُّونَ، وثَنِيَّون يعبدون العجل، دخل في دين موسى منافقًا، وفي قَلْبِهِ عبادة العجل، وقد بَصُرَ هذا السَّامِرِيُّ بِأَنَّ الرَّسُولَ جبريل عليه السَّلَام، كان إذا وَقَعَ حافرُ فَرَسِهِ على ترابٍ ظهرت فيه آثارٌ عَجِيْبَةٌ من ظواهرِ الحياة، على ما جاء عند المفسرين روايةً عن الحسن، فَقَبِضَ قَبْضَةً من ترابِ الأُمُكَةِ الَّتِي وقع عليها حافرُ فَرَسِ الرَّسُولِ، أو الَّتِي وَقَعَتْ عليها قَدَمُ الرَّسُولِ، فاحتفظ بها عنده.

وأشارَ على جُمُهورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَن يَأْتُوا بالحليِّ الَّذِي استعاروه من المِصْرِيِّينَ، وكان فيهم أصحاب مهنة صياغةِ الذَّهَبِ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ أَن يَصْنَعُوا مِنْ هذه الحليِّ عجلًا جسدًا، نظير العجول الَّتِي يَصْنَعُهَا المِصْرِيُّونَ آلِهَةً لهم.

وكانت صورة العجلِ من البقر صورة شائِعَةً في أصنام الوثنيين، ومنهم المِصْرِيُّونَ، والشَّامِيُّونَ الوثنيُّونَ، وعِجْلُ المِصْرِيِّينَ الَّذِي كانوا يَعْبدونه أَيَّامَ الفراعنة، يُدْعَى: «إيبس».

فلَمَّا صَنَعُوهُ أَدْخَلَهُ في خِباء، وَقَذَفَ في جَوْفِهِ الْقَبْضَةَ الَّتِي كان قَدْ احتفظ بها، فصار هذا العجلُ الذَّهَبِيُّ يَصْدُرُ عَنْهُ بِقَدَرِ اللَّهِ وقضائه وَخَلْقِهِ خَوَارٌ كخَوَارِ العُجُولِ، وأَخْرَجَهُ من الخِباءِ وَلَهُ خَوَارٌ.

وعَجِبَ جُمُهورُ بَنِي إِسْرَائِيلَ من هذه الظاهرة، وأوحى إليهم السَّامِرِيُّ أَنَّ هذا هو إِلَهُكُمْ وإِلَهُ موسى، حلَّ في العجل، وَأَنَّ موسى لَمَّا ذهبَ لمناجاته نَسِيَ مكانه، فهو تائه عنه.

وانطلقت بين جمهور الغوغائيين من بني إسرائيل شائعة راجت عند معظمهم قائلين: هذا هو إلهكم وإله موسى حلّ في العجل، وإنّ موسى لما ذهب لمناجاة نسي مكانه.

لقد سوّلت للسامريّ نفسه وأطمعته بأن يستفيد رئاسة دينية ومالاً، من كونه سادناً هذا الإله العجل، بدليل قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿... وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۖ﴾ (٨٥): أي: أغراهم، فأغواهم، فأوقعهم في الضلال، ضائعين عن الحق.

وجرى في هذا اللقاء ما جاء بيانه في الآيات من (١٤٣ - ١٤٧).

وفي هذه الآيات بيان أنّ موسى سأل ربّه أن ينظر إليه، فقال الله له: ﴿أَنْ تَرْنِي...﴾ (١٤٣) الآية.

وفيها أنّ الله عزّ وجلّ كتب له في الألواح وصايا الدّين وتعليماته، وأمره بأن يأخذها بقوة، إلى آخر ما جاء في الآيات حتى الآية (١٤٧).

واجتمع جمهور بني إسرائيل يعكفون على العجل، ويعبدونه ويدبحون له ويسجدون، ويرقصون حوله رقص عبادة وفرح بإله يرونه ويشهدون جسداً له.

فنهاهم هارون عليه السلام، وقال لهم: يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ، أَي: إِنَّمَا امْتَحِنْتُمْ بخواره، لكشف صدق إيمانكم بالله ربكم، وهل توصلتم إلى فهم معنى ربوبيّته للعالمين، أم ما زلتم جاهلين.

وقال لهم: يَا قَوْمِ، إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ الَّذِي يُؤَلِّكُمْ بِرَحْمَتِهِ النِّعَمَ الوافرة، الظاهرة والباطنة. فاتبعوني، وأطيعوا أمري.

فقالوا له: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى.

فشدد هارون عليهم، فلم يستجيبوا له، ودفعوه عنهم بالقوة، فأراد

أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ بِالْقُوَّةِ، فَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ، إِذْ كَانَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَظَرِهِمْ لَيْتًا ضَعِيفًا، بِخِلَافِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ كَانُوا يَرْهَبُونَ سَطَوَتَهُ رَهْبَةً شَدِيدَةً، إِذْ رَأَوْا مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ لَهُ فَلَقَى الْبَحْرَ، وَنَجَاتَهُمْ، وَإِغْرَاقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ مَعَهُ.

وَكَذَبَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي اتِّهَامِهِمْ هَارُونَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ (٣٢) مِنْ سَفَرِ الْخُرُوجِ.

وَأَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ وَعِبَادَتِهِ.

فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ نَهَايَةِ الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَضَبًا نَافِثًا، وَحِينَ رَأَى بِعَيْنِهِ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ وَعِبَادَةَ جَمْهُورِ قَوْمِهِ لَهُ، اسْتَشْطَا غَضَبًا وَحُزْنًا، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ مِنْ يَدَيْهِ. وَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أَمِنْ أَجْلِ عَشْرِ لَيَالٍ زَادَتْ فِي مِيقَاتِ رَبِّي، لَعَبْتُ بِكُمْ الْأَوْهَامَ، وَانْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ خَاسِرِينَ، وَاتَّخَذْتُمْ وَكُنَّا إِلَهًا؟!

وَأَخَذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحَاسِبُ أَخَاهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِغَيْفٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَوِيًّا حَازِمًا مَعَهُمْ، فَاعْتَذَرَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَعْذَارٍ صَحِيحَةٍ أَبَانَ فِيهَا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَمَّا فَعَلُوا وَأَنَّهُمْ كَادُوا يَقْتُلُونَهُ.

فَقَبِلَ مُوسَى عُذْرَ أَخِيهِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَنَاعَةٍ تَامَةٍ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلِأَخِيهِ، وَأَنْ يَدْخُلَهُمَا فِي رَحْمَتِهِ وَأَتْنِي عَلَى رَبِّهِ بِأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ: انْظُرِ الْآيَتَيْنِ «١٥٠» وَ«١٥١» مِنْ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ).

وَلَمَّا هَدَأَ غَضَبُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَلْقَاهُمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ، وَقَامَ بِتَخْرِيقِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ، وَأَمَرَ بِبَرْدِهِ بِالْمُبَارِدِ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، حَتَّى تَصِيرَ أَجْزَاؤُهُ نَاعِمَةً كَالدَّقِيقِ، ثُمَّ أَمَرَ بِنَسْفِ دَقِيقِهِ فِي الْيَمِّ.

وَوَطَّرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، السَّامِرِيَّ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ، وَدَعَا عَلَيْهِ بِمَرَضٍ جَلْدِيٍّ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَمْسَهُ أَحَدٌ، وَأَنْ يَقُولَ مَعَهُ لِمَنْ يُصَادِفُهُ مِنَ النَّاسِ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ: لَا مِسَاسَ. لَا مِسَاسَ.

وبدأ موسى بعد ذلك يُدَبِّرُ رَحْلَةَ الاعتذار والتوبة، مع سَبْعِينَ رَجُلًا اخْتَارَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَنْ يَذْهَبُوا مَعَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَاجَى فِيهِ رَبُّهُ فِي اللَّقَاءَيْنِ السَّابِقَيْنِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءَ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾﴾.

هذا البيان معطوف على كلام مطويٍّ بعدَ البيان السابقِ بدءاً من قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾ (٧٧):

وجاء بأسلوب الاقتطاع من الحدث الماضي الذي قال الله فيه لموسى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾؟﴾.

ودلَّ هذا البيان على أَنَّ هذا الميعادَ قَدْ كَانَ مِيعَاداً لموسى ولقومه أَنْ يَحْضُرُوا جميعاً إلى جانب الطور.

ودلَّ على أَنَّ موسى عليه السَّلَامُ قَدْ أَمَرَ قَوْمَهُ أَنْ يَسِيرُوا عَلَى أَثَرِهِ بقيادة أخيه هارون.

ودلَّ عدم حضور بني إسرائيل متبعين أثر موسى عليه السَّلَامُ، على أَنَّ جمهورهم رَفُضُوا أَنْ يَلْحَقُوا بِهِ، وَعَصَوْا هَارُونَ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ فِي السَّيْرِ عَلَى أَثَرِ مُوسَى إِلَى الْوَادِي الْمَقْدَسِ بِجَانِبِ الطُّورِ، وَاثَرُوا الْبَقَاءَ فِي مَحَلَّتِهِمْ، وَانْتَظَرُوا مُوسَى حَتَّى يَعُودَ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ، وَيُؤَكِّدُ هَذَا قَوْلُ هَارُونَ لِأَخِيهِ مُوسَى فِي النَّصْرِ: ﴿...إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤).

وبالتأمل نُذِرُكَ أَنَّ مَوْقِعَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي تَرْتِيبِ الْأَحْدَاثِ، يَأْتِي بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

وكذلك الآيات (١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧).

وقد سبقَ تدبر هذه الآيات خلال تدبر سورة (الأعراف).

وهذا الأسلوب هو منهج القرآن في توزيع أفكار الموضوع الواحد، على نصوص متعدّات موزّعات في عددٍ من السُّور، مع تكاملها فيما بينها، دُونَ اختلافٍ، وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وبعد هذه الآيات يأتي في تَسْلُسلِ الأحداثِ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿١٤٣﴾﴾؟:

أي: مَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَكَ تَعْجَلُ لِحُضُورِكَ إِلَى مِيقَاتِنَا، مُنْفَصِلاً عَنْ قَوْمِكَ؟.

يقال لغة: «أَعْجَلَهُ فَعَجَلَ». الْعَجَلَةُ، وَالْعَجَلُ: السَّرْعَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْبُطْءِ.

ضُمِّنَ الْفِعْلُ فِي: ﴿أَعْجَلَكَ﴾ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي «فَصَلَّكَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فَجَاءَتِ الْعِبَارَةُ: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾: أَي: وَمَا الَّذِي جَعَلَكَ تَعْجَلُ مُنْفَصِلاً عَنْ قَوْمِكَ، وَسَابِقاً لَهُمْ.

• ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾: أي: إِنِّي أَمَرْتُهُمْ بِأَنْ يَلْحَقُوا بِي، لَشُهُودٍ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْمِيعَادِ، وَلَمْ أَقْصُرْ فِي وَاجِبِ تَبْلِيغِهِمْ، وَقَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ أَخِي هَارُونَ، فَهُمْ فِي تَقْدِيرِي سَائِرُونَ عَلَى أَثَرِي.

يقال لغة: «سَارَ عَلَى أَثَرِهِ» أي: سَارَ مَتَّبِعاً لَهُ يَسِيرُ عَلَى مَوَاطِئِهِ. ويقال لغة: «سَارَ فِي أَثَرِهِ» أي: سَارَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ أَثَارُ سِيرِهِ.

• ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (٨٤): أي: وَأَسْرَعْتُ مُقْبِلاً إِلَى مَكَانِ مُنَاجَاةِكَ رَبِّ لِأُظْفَرَ بِرِضَاكَ، اجْتِهَاداً مِنِّي بِأَنْ هَذَا الِاسْتِعْجَالُ يُرْضِيكَ عَنِّي، وَلَمْ تَكُنْ لِي رَغْبَةً فِي الْإِنْفِرَادِ بِمُنَاجَاةِكَ، دُونَ حُضُورِ قَوْمِي هَذَا التَّكْرِيمِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَرَّمْتَنِي بِهِ، وَرَغِبْتُ أَنْ يَكُونَ لِقَوْمِي مِشَارَكَةٌ فِي هَذَا الْحَدَثِ التَّكْرِيمِيِّ، تَفَضُّلاً مِنكَ عَلَيْهِمْ.

• ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥):

أي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّا قَدْ امْتَحَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِ مِفَارِقَتِكَ لَهُمْ، وَغِيَابِكَ عَنْهُمْ، وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَدْ كَانَ أَثْنَاءَ الْمَدَّةِ الْمُضَافَةِ إِلَى اللَّيَالِي الثَّلَاثِينَ، وَالَّتِي دَخَلَتْ فِيهَا الطُّنُونُ التَّشْكُلِيَّةُ عَلَى جُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْغَوَاثِيِّينَ، وَالَّتِي صَنَعُوا فِيهَا الْعَجَلَ الذَّهَبِيَّ وَصَارُوا يَعْْبُدُونَهُ، وَالَّتِي أَضَلَّهُمْ فِيهَا السَّامِرِيُّ.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾: أي: وَأَغْرَاهُمْ، فَأَغْوَاهُمْ، فَأَوْقَعَهُمُ السَّامِرِيُّ فِي الضَّلَالِ.

الإِضْلَالُ: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عَدَّةٍ مَعَانٍ، مِنْهَا الْإِغْوَاءُ بِمُخْتَلَفِ وَسَائِلِ الْإِغْوَاءِ الْقَوْلِيَّةِ الزُّخْرَفِيَّةِ، وَالْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تُسْتَرْضَى بِهَا الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتِ، وَنَوَازِعِ النُّفُوسِ وَنَوَازِعُهَا وَدَوَافِعُهَا، لِمَجَافَاةِ الْحَقِّ، وَالتَّزَامِ الْبَاطِلِ، وَمَجَافَاةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْإِنْطِلَاقِ فِي مَتَاهَاتِ الظُّلْمِ وَالبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْفُجُورِ فِي الْأَرْضِ، لِلِاسْتِمْتَاعِ بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وبعض هذه المعاني ينطبق على إضلال السامري لجمهور بني إسرائيل الغوغائيين في التيه.

السامري: قالوا: كان السامري من قوم يعبدون البقر، فدخل في دين بني إسرائيل نفاقاً، وفي قلبه ما فيه من عباده البقر، وكان من قبيلة تُعرف بالسامرة.

وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وهنا يأتي بحسب تسلسل الأحداث قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَداً لَّهُمْ خُوارٌ أَلَدٌ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يراد بقوم موسى جمهورهم لا كلهم، إذ بقي فيهم مؤمنون مسلمون لم يشرکوا.

وقد سبق تدبر هذه الآية لدى تدبر سورة (الأعراف).

قول الله عز وجل في سورة (طه):

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَبًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿١٧﴾﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿١٨﴾﴾:

• ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾: أي: فلما انتهت مدة الميعاد، وهي أربعون ليلة، رجع موسى عليه السلام إلى قومه حالة كونه غَضْبَانٌ مِّمَّا فَعَلَ جمهور قومه في غِيْبَتِهِ، وَأَسْفًا خَزِينًا.

﴿غَضْبَنَ﴾: صِفَةٌ مشبهة باسم الفاعل، مؤنثه غَضْبَى.

الغضب: انفعال نَفْسِيٍّ مِنَ الكراهية والسَّخَط، مَضْحُوبٌ بإرادة الانتقام.

يقال لغة: «غَضِبَ عَلَيْهِ يَغْضَبُ غَضَباً فَهُوَ غَضِيبٌ، وَغَضْبَانٌ» أي: سَخِطَ عليه، وَأَرَادَ الانتقام منه.

﴿أَسِفًا﴾: صفة مشبهةٌ باسم الفاعل، أي: حزيناً. يُقَالُ لغة: «أَسَفَ عَلَيْهِ، يَأْسِفُ، أَسْفًا، فَهُوَ آسِفٌ، وَأَسِيفٌ، وَأَسِيفٌ» أي: حَزَنَ، يَحْزَنُ فَهُوَ حَزِينٌ.

وهنا يأتي بحسب تَسْلُسُلِ الأحداث، قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعِجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

أي: ولَمَّا رَأَى جمهور بني إسرائيل الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ الذَّهَبِيَّ وَعَبَدُوهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام قَادِمًا إِلَيْهِمْ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَوْفِ، وَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: .. ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وَلَمْ يَكُنْ حِينَ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَوْفِ قَدْ وَصَلَ مُوسَىٰ إِلَىٰ مَحَلَّتِهِمْ، بَلْ رَأَوْهُ مِنْ بَعِيدٍ يَحْمِلُ اللَّوْحَيْنِ الْحَجَرِيَّيْنِ. وَكَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَتَيْنِ: «١٥٠ و ١٥١».

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُ هَذِهِ الْآيَاتِ بِاسْتِفَاضَةٍ، خِلَالِ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الأعراف).

قول الله عز وجل في سورة (طه):

• ﴿... قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا...﴾ (٨٦)؟!

استفهام فيه معنى الإنكار عليهم، إذ لم يَسْتَجِيبُوا لما أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ اتِّبَاعِهِ سائرين على أثره بقيادة أخيه هارون.

أي: أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا لَكُمْ بِأَنْ تَشْهَدُوا مَعِيَ مِكَالَمَتَهُ لِي بِجَانِبِ الطُّورِ؟! فَلَمْ تَخْضُرُوا، وَعَصَيْتُمْ أَمْرِي لَكُمْ، بِأَنْ تَسِيرُوا عَلَى أَثَرِي، وَعَصَيْتُمْ أَمْرَ أَخِي هَارُونَ، وَتَمَرَّدْتُمْ عَلَيْهِ.

• ﴿... أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ؟!﴾. أي: أَنْتَظَرْتُمْ زَمَنًا طَوِيلًا عَزْدَتِي، فَطَالَ عَلَيْكُمُ الزَّمَنُ؟! . إِنَّهَا عَشْرُ لَيَالٍ فَقَطْ، مَدَّهَا رَبِّي لِامْتِحَانِ صِدْقِ إِيْمَانِكُمْ، وَوُضُوحِ مَعْرِفَتِكُمْ لِرَبِّكُمْ، الَّذِي هُوَ الْإِلَهُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَخَدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا.

إِنَّ زِيَادَةَ عَشْرِ لَيَالٍ فِي الْمِيعَادِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُفْسِدَ عَقِيدَةَ صَحِيحَةٍ رَاسِخَةٍ، لَوْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فَعَلًا فِي قُلُوبِكُمْ، وَوَاضِحَةً فِي أَذْهَانِكُمْ.

العَهْدُ: يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الزَّمَنِ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا بِحَسَبِ السَّبَاقِ وَالسِّيَاقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

• ﴿... أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾؟! . أي: بَلْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْصُوا رَبَّكُمْ، بِدَافِعٍ مِنْ أَهْوَائِكُمْ وَرَغَبَاتِكُمْ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا فِي أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ انْتِقَامُ اللَّهِ مِنْكُمْ بِسَبَبِ غَضَبِهِ عَلَيْكُمْ.

• ﴿... فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦) : أي: فَلَمْ تَلْحَقُوا بِي، وَلَمْ تَسِيرُوا عَلَى أَثَرِي إِلَى الْوَادِي الْمَقْدَسِ بِجَانِبِ الطُّورِ، بِقِيَادَةِ أَخِي هَارُونَ، وَتَمَرَّدْتُمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ تُطِيعُوا أَمْرَهُ لَكُمْ بِاتِّبَاعِي.

• ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا...﴾ وفي القراءتين الأخريين بضم الميم وبكسرهما، وهي لغات والمعنى فيها واحد.

إخلاف الموعد: عدم الوفاء به.

﴿مَوْعِدْكَ﴾ : مِنْ إِضَافَةِ الْمُضَدِّ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، أَي: مَوْعِدُنَا إِيَّاكَ.

أي: مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَنَا إِيَّاكَ الَّذِي وَعَدْنَاكَ فِيهِ أَنْ نَسِيرَ فِي أَثَرِكَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ، بِقِيَادَةِ أَخِيكَ هَارُونَ، وَنَحْنُ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا الْجُرْأَةَ عَلَى تَنْفِيزِ الْوَعْدِ الَّذِي كَانَ مِنَّا، وَهُوَ أَنْ نَسِيرَ عَلَى أَثَرِكَ.

• ﴿... وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ...﴾ وفي يالقرءاء الأخرى: ﴿حَمَلْنَا﴾. أي: مَا كُنَّا نَمْلِكُ جُرْأَةَ لِلحُضُورِ مَعَكَ وَرُبُّكَ يُكَلِّمُكَ، إِذْ كُنَّا خَائِفِينَ مِنْ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَّا رَبُّنَا، لِأَنَّا كُنَّا مُرْتَكِبِينَ لَذَنْبٍ كَبِيرٍ، حَمَلْنَا وَحُمَلْنَا بِهِ أَوزَارًا مِنَ الْإِثْمِ، إِذْ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا مِنَ الْمَضْرِبِينَ حُلِيًّا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ، وَنَحْنُ نَقْصِدُ سَلْبَهُمْ إِيَّاهَا، لِأَنَّا خَارِجُونَ مِنْ مِصْرَ خُرُوجًا نِهَائِيًّا، وَالْمِصْرِيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَلِيَّةُ مَعَنَا كَانَتْ شَاهِدَةً عَلَيْنَا بِإِثْمِنَا الْكَبِيرِ، فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهَا، وَحَرَضْنَا السَّامِرِيَّ عَلَى وَجُوبِ التَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَتَقْدِيمِهَا لِلْإِلَهِ فَجَمَعْنَاهَا لِهَذَا الْأَمْرِ.

أقول: هَذَا مِنْ مَزَالِقِ إِبْلِيسَ وَشَيْطَانِيهِ مِنَ الْجَنِّ، وَالْإِنْسِ، كَالَّذِي يُوسَّسُ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنْ لَا يُصَلِّيَ، وَلَا يَحْضُرَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ وَالْعِلْمِ الدِّينِيِّ، لِأَنَّهُ مُرْتَكِبٌ لِبَعْضِ كِبَائِرِ الْإِثْمِ، فَهُوَ يَخْجَلُ مِنْ رَبِّهِ فَيَبْتَغِدُ.

• ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾: أَي: فَتَخَلَّصْنَا مِنْهَا بِأَسْلُوبِ الْقَذْفِ، وَهُوَ الرَّمْيُ بِقُوَّةٍ.

• ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ...﴾:

هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَي: وَزَيَّنَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ أَنْ يَصْنَعُوا مِنْهَا عِجْلًا، شَبِيهًا بِعِجْلِ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِي يَعْبُدُونَهُ: «إِبِيس» إِذْ رَأَى فِي نَفْسِهِمْ

الرَّغْبَةَ الشديدة في أن يكون لهم إله وَثَنٌ، يتوجَّهون له في العبادة، ويُقَرَّبون له القرايين، ويعكفون عليه، واستعانَ بِصُنَاعِ الحُلِيِّ منهم، فصَنَعُوا العجل، وفق الصورة التي كانوا يألَفونها في مصر لمعبود المصريين «إيبس» فأخذه السامريُّ إلى خباء، فَقَذَف فيه القبضة التي كانت معه من أثر الرسول، فجعل الله من أثرها أن هذا العجل صار له خوارٌ كخوار العجول، لكنَّهُ جَسَدٌ لَا حياةَ له، لامتحان جمهور بني إسرائيل، هل تخلصوا من الوثنية، أم ما زالت أفكارهم ونفوسهم مُتَشَبِّهَةً بها، فخرج السامريُّ من الخباء فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، وأوحى إليهم أن هذا هو إلههم، وانطلقت حيلته الخبيثة على الرعاع من بني إسرائيل.

• ﴿... فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨): أي: فعجب جمهور بني إسرائيل من خواره، وانطلقت مقولة السامري فيهم، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى حلَّ في جسد العجل، ذهب موسى للقائه ومكالمته فنسي المكان الذي كان قد لقيه فيه وهو راجع من مدين إلى مضر، لِبُعْدِ العهد. وسجدوا له، وقربوا له القرايين، وصاروا يعكفون عليه.

• ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩).

هذا بيان من الله عز وجل، بشأن الذين عبدوا هذا العجل الذهبي الجسد، من بني إسرائيل.

أي: أفقدوا عقولهم، وفقدوا حواسهم، فهم لا يرون أنه جماد، لا يردُّ جواباً على خطاب، ولا يستطيع أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً.

أدهشوا من خواره على خلاف معتاد الأجساد التي لا حياة لها، فصَدَّقوا السامري في دعوى إلهيته، أفلا يرون بعد اندهاشهم من خواره، وهو مجرد صوتٍ قد يحدث نظيره بسبب مادي، كَبُوقٍ مصنوع بطريقتة

خَاصَّةً، إِذَا دَخَلْتَ فِيهِ رِيحٌ بِشَيْءٍ مِنَ الْقُوَّةِ أُعْطِيَ صَوْتًا. أَلَمْ يَرَوْا مُتَفَكِّرِينَ أَنَّ الشَّانَ الْأَعْظَمَ الدَّالَّ عَلَى أَنَّهُ جَامِدٌ كَسَائِرِ الْجَمَادَاتِ، أَنَّهُمْ إِذَا كَلَمُوهُ لَمْ يُجِبْهُمْ بِشَيْءٍ، فَهُوَ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا، جَوَابًا لَهُمْ عَلَى مَا يُخَاطَبُونَهُ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ ضَرًّا، أَوْ يَجْلِبَ لَهُمْ نَفْعًا.

والمعنى: هل انطمست بصائرهم، فهم لا يرون هذه الحقائق عن عجلهم الذهبي، فالمراد الرؤية العلمية الفكرية، ذات الأدلة من الحسيات.

﴿أَلَا﴾: أصلها: «أَنْ» و«لَا» أذْغَمَا فصارت العبارة: ﴿أَلَا﴾ «أَنْ» هذه هي المخففة من الثقيلة، وهي عاملة، واسمها ضمير الشأن واجب الحذف عند النحاة. وجُمْلَةُ: [لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا] هي الخبر. أي: لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ الْعِجْلُ قَوْلًا مَا، جَوَابًا عَلَى مَا يَسْأَلُونَهُ، أَوْ يَخَاطَبُونَهُ أَوْ يَخَاطَبُونَهُ بِهِ.

يقال لغة: «رَجَعَهُ» مُتَعَدِّيًا، مثل: «أَرْجَعَهُ» ولفظ «أَرْجَعَهُ» لغة هذيل.

• ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩): هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة لها، التي هي خبر «أَنْ» المخففة من الثقيلة.

• ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْوَمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠):

جاء تأكيد الكلام وتحقيقه بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ للدلالة على أَنَّ مَا قَالَه الإسرائيلون في سفر الخروج، من أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَام، هُوَ الَّذِي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجْلَ بِالْإِزْمِيلِ، كَذَبَ وافترأ عليه.

وذلك لأنَّ هَارُونَ لَمَّا رَأَاهُمْ قَدْ صَنَعُوا الْعِجْلَ، وَصَارَ لَهُ خُورٌ كَخُورِ الْعُجُولِ، قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي: أَاكُذُّ لَكُمْ بَأَنَّهُ لَيْسَ فِي خُورِ الْعِجْلِ إِلَّا امْتَحَانُكُمْ، لِكَشْفِ صِحَّةِ إِيْمَانِكُمْ بِرَبِّكُمْ، وَسَلَامَةِ فَهْمِكُمْ لِمَعْنَى رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ لَا تَكُونُ فِي شَيْءٍ، لِمَجَرَّدِ

ظُهُورِ شَيْءٍ غَرِيبٍ أَوْ عَجِيبٍ فِيهِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَتْ عَصَا
مُوسَىٰ أَحْرَىٰ بِهَذَا الْوَصْفِ.

«إِنَّمَا» أداة حَضَرٍ وَقَضَرٍ، والمراد قَضَرُ الْعَجَلِ عَلَى صِفَةٍ أَنَّهُ لِلْفِتْنَةِ
وهي الامتحان، وَهَذَا مِنْ قَضَرِ الْمُوصُوفِ عَلَى صِفَةٍ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ الْقَضَرِ
الإضافي، أَي: بِالإضافة إِلَى زَعْمِ إِلَهِيَّتِهِ فَلَيْسَ هُوَ إِلَّا فِتْنَةٌ.

﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠): أَي: فَاتَّبِعُونِي فِي عِبَادَتِي لِلَّهِ وَخُدَّهِ،
الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ مِثَالٌ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَاتَّبِعُونِي
مُتَأَسِّينَ بِي فَأَنَا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فَلَا يَخْذَعَنَّكُمْ فِي دِينِكُمْ أَحَدٌ، وَلَا
يَضُرِّفَنَّكُمْ عَنْ رَسُولِ رَبِّكُمْ أَحَدٌ.

وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بَأَنْ لَا تَعْبُدُوا الْعَجَلَ الَّذِي صَنَعْتُمْ، فَإِنَّ عِبَادَتَهُ شَرَكٌ بِاللَّهِ
الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِنِّي أُلْزِمُكُمْ. بِمَا أَنِّي وَلِيُّ أَمْرِكُمْ بِأَمْرِ صَادِرٍ عَنْ
أَخِي مُوسَىٰ بَأَنْ تُطِيعُوا أَمْرِي.

• ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ (٩١): أَي: لَنْ
نَزُولَ، وَلَنْ نَنْصَرِفَ عَنِ الْعَجَلِ، حَالَةً كَوْنُنَا عَلَيْهِ لَا عَلَى غَيْرِهِ عَاكِفِينَ،
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ.

﴿عَلَيْهِ﴾ معمول لـ ﴿عَاكِفِينَ﴾ لإفادة التَّخْصِصِ. وعِبَارَةٌ ﴿عَلَيْهِ
عَاكِفِينَ﴾ حال.

يُقَالُ لُغَةً: «عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ، يَعْكَفُ عَكَفًا وَعُكُوفًا» أَي: أَقْبَلَ
عَلَيْهِ مُلَازِمًا لَهُ، لَا يَضُرِفُ وَجْهَهُ عَنْهُ، كَأَنَّهُ حَاسِبٌ نَفْسَهُ عَلَيْهِ.

وَهَذَا الْعُكُوفُ بِسُكُونٍ وَمُلَازِمَةٌ وَصَفَتْ، وَتَوَجَّهَ قَلْبِي وَنَفْسِي
وَحَسِّي، هُوَ لَوْ أَنَّ مِنَ أَلْوَانِ عِبَادَةِ الْعَاكِفِ لِلْمُعْكَوفِ عَلَيْهِ.

فَالْمَعْنَى: لَنْ نَسْتَجِيبَ لَكَ يَا هَارُونَ، وَلَنْ نُطِيعَ أَمْرَكَ فِي تَرْكِ

العكوف على العجل، حتَّى يَرْجِعَ إلينا موسى، الَّذي تَأَهَّ عن إِلَهِه، ولا نَذْري ماذا حَدَّثَ لَهُ، ولا ماذا أَصابه.

وهنا يأتي موقع قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي تَشْخِيطِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقد سبقَ تَذَبُّرُ هذه الآيات في مَوْضِعِهَا من سورة (الأعراف).

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه):

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾:

لقد ذَهَبَتْ انْدِفَاعَةُ الْغَضَبِ الْأَوَّلِيِّ الَّتِي جَعَلْتَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَأْخُذُ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ، وَبَدَأَ دَوْرَ الْمَحَاسَبَةِ الَّتِي فِيهَا هُدُوءٌ مَا.

ولعل هذا قد كان وَهُمْ جُلُوسٌ، وَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن يَمِينِ مُوسَى، وَمُوسَى يَقْبِضُ عَلَى لَحْيَةِ أَخِيهِ يُسَائِلُهُ، وَقَدْ يَأْخُذُ بِرَأْسِهِ يَهْزُهُ أحياناً.

• ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾:

أي: مَا مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ وَتَتَّبِعَنِي، إِذْ رَأَيْتَ جَمَاهِيرَهُمْ ضَلُّوا وَمَعَكَ أَهْلُ الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ؟! وَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ لَا تَتَّبِعَنِي فِي هَذِهِ الْحَالَةِ?!.

لَقَدْ سَأَلَ مُوسَى أَخَاهُ هَارُونَ ، عَنْ الْمَانِعِ لَهُ مِنْ اتِّبَاعِهِ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ ، إِذَا كَانَ فِي الْوَاقِعِ أَمْرٌ مَانِعٌ . وَسَأَلَهُ أَيْضاً عَنْ الْحَامِلِ لَهُ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِهِ ، إِذَا كَانَ يَوْجَدُ فِي الْوَاقِعِ أَمْرٌ حَامِلٌ .

واختصاراً في التعبير ضُمِّنَ فِعْلُ: «مَنَعَ» معنى فعل: «حَمَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيَّتِهِ ، فَأُغْنَتْ الْجُمْلَةُ الْوَاحِدَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ ، وَالتَّقْدِيرُ: مَا مَنَعَكَ عَنْ اتِّبَاعِي ، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِي .

﴿تَتَّبِعَنِ﴾: أصلها: «تَتَّبَعْنِي» حُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ إِيْجَازاً فِي اللَّفْظِ ، وَهِيَ مَلَا حِظَةٌ ذَهْنًا ، وَنَظِيرُ هَذَا الْحَذْفِ كَثِيرٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَفِي الْقُرْآنِ مِنْهُ كَثِيرٌ .

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟: أَي: أَسْتَهْنَتْ بِي فَعَصَيْتَ أَمْرِي الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ إِذْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .

الفاء عطفٌ على محذوف ، والمناسبُ هذا: «اسْتَهْنَتْ بِي» أو نحو هذه العبارة .

• ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤):

﴿يَبْنَؤُمْ﴾: أَي: يَا ابْنَ أُمِّي ، وَهَذَا أَحَدُ وُجُوهِ جَائِزَةٍ فِي نِدَاءِ «أَبْنِ أُمٍّ» إِذْ يَجُوزُ إِثْبَاتُ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ ، وَيَجُوزُ حَذْفُهَا وَالْاجْتِزَاءُ بِالْكَسْرِ ، وَيَجُوزُ فَتْحُ الْمِيمِ عَلَى أَنْ لَفْظُ «أُمٍّ» مَرْكَبٌ مَعَ «أَبْنِ» تَرْكِيبًا مَرْجِيًّا . وَلَا يَكَادُونَ يَشْتَبُونَ يَاءَ الْمُتَكَلِّمِ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ ، وَلَا الْأَلْفَ بَعْدَ الْمِيمِ عَوْضًا عَنِ الْيَاءِ ، إِلَّا فِي الشَّعْرِ .

أَضَافَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَدَاةَ النِّدَاءِ «يَا» فِي هَذِهِ الْإِجَابَةِ عَلَى الْإِجَابَةِ الْأُولَى ، الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي نَصِّ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) لِلتَّشْدِيدِ عَلَى اسْتِعْطَافِ أَخِيهِ ، وَتَنْبِيهِهِ عَلَى أَنَّهُمَا أَبْنَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ .

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ دَلَّتْ هذه العبارة، على أَنَّ موسى عليه السَّلام في مَجْلِسِ الْمُسَاءَلَةِ اللَّاحِقِ، كَانَ يَقْبِضُ عَلَى لِحْيَةِ أَخِيهِ هَارُونَ، وَقَدْ يَأْخُذُ بِرَأْسِهِ فَيَهْزُهُ، ولهذا من حَدَّةِ موسى في مُسَاءَلَتِهِ.

• ﴿... إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (١٤٤):

اِفْتَصَرَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلام في هذه الإجابة على القضية التي سَأَلَهُ عنها في هذه المساءلة الثانية، ولم يُشِرْ إلى ما سَبَقَ أَنْ اعْتَذَرَ به في مُسَاءَلَتِهِ الْأُولَى.

أي: إِنِّي خَشِيتُ إِذَا اتَّبَعْتُكَ مَعَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنْ تَقُولَ لِي: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وَخَشِيتُ أَنْ تُحَاسِبَنِي وَتُؤَاخِذَنِي عَلَى هَذَا التَّفْرِيقِ، فَتَعَارِضَ لِدَيَّ أَمْرَانِ، وَقَدْ اجْتَهِدْتُ فَتَرَجَّحَ لَدَيَّ أَنْ أَبْقَى فِيهِمْ، مُنْتَظِرًا عَوْدَتَكَ، وَلَا أَتْرِكَ الظَّالِمِينَ وَحْدَهُمْ. وَكُنْتُ لَا أَرَى أَنَّ عَيْبَتَكَ سَتَطُولُ، وَخَشِيتُ أَيْضًا أَنْ تَقُولَ لِي: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أَي: لِمَ تَجْعَلُ قَوْلِي تَحْتَ مُرَاقَبَتِكَ الدَّائِمَةِ، لِتَحَافِظَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَلِتُرَاعِيَ الْإِلْتِمَامَ بِهِ.

وهو قوله لَهُ حِينَ اسْتَحْلَفَهُ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿... وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢):

فَقَدْ اجْتَهِدْتُ أَنْ أَصْلِحَ بِقَدْرِ اسْتَطَاعَتِي، وَلَمْ أَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ.

فَقَدَّمَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلام بِمَا أَبَانَهُ عُذْرُهُ كَامِلًا، وَأَوْضَحَ لِأَخِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَأَلْ جَهْدًا وَاجْتِهَادًا فِي رِعَايَةِ الْأَصْلَحِ الَّذِي رَأَاهُ.

مُحَاسَبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام لِلسَّامِرِيِّ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾

تمهيد:

تضمنت هذه الآيات بيان مُحَاكَمَةِ مُوسَى عليه السَّلام لِلسَّامِرِيِّ، صاحبِ فِتْنَةِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ الَّذِي لَهُ خَوَار، وَالْحُكْمَ عَلَيْهِ بِالطَّرْدِ مِنْ جُمْهُورِ أَتْبَاعِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، والدُّعَاءَ عَلَيْهِ بِدَاءٍ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَمْسَهُ أَحَدٌ، وقد استجاب الله دُعَاءَهُ، فصار السَّامِرِيُّ مِنْ بَعْدُ كَذَلِكَ، وتضمنت إغلامَهُ بِمَا سَيَلْقَاهُ مِنْ جَزَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، وهو الموعد الحقُّ الَّذِي لَنْ يُخْلَفَهُ، وإخباره بِمَا سَيَفْعَلُ بِالْعِجْلِ مِنْ تَحْرِيقٍ، وَتَجْزِئَةٍ بِالْمَبَارِدِ حَتَّى يَكُونَ ذَرَاتٍ صُغْرَى كَالدَّقِيقِ، وَنَسْفٍ لَهُ نَاعِمًا فِي الْيَمِّ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ فِي مُتَنَاقِلِ أَحَدٍ.

وَاتَّبَعَ مُوسَى عليه السَّلامِ قَرَارَتَهُ الَّتِي أَصْدَرَهَا، بِبَيَانِ إِيْمَانِي حَوْلَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، وليس مجردَ كائِنٍ ذِي ظَاهِرَةٍ عَجَبِيَّةٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ فِي الْكَوْنِ.

التدبر التحليلي:

• ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ﴾ (٩٥)؟: أي: قال موسى عليه السَّلام للسَّامِرِيِّ: مَا شَأْنُكَ وَمَا حَالُكَ يَا سَامِرِيُّ؟.

والمعنى: مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُومَ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ الَّتِي أَفْسَدَتْ بِهَا جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَتَّى جَعَلْتَهُمْ يَعْبُدُونَ وَثَنًا ذَهَبِيًّا، عَلَى صُورَةِ عِجْلِ مُشَابِهٍ لِلْعُجُولِ الَّتِي يَعْبُدُهَا الْوَثْنِيُّونَ؟.

وما الَّذِي جَعَلَكَ تَقْتَرِي هَذِهِ الْفِرْيَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى اللَّهِ؟

الْخَطْبُ: هو في اللّغة الأمر، والشَّأْنُ، والحال، الذي تقع فيه المخاطبة.

وجاء العطف بالفاء لبيان ترتيب محاكمة السامريّ، عقب محاكمة موسى لهارون عليه السّلام.

• ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ...﴾ (٩٦) وفي قراءة أخرى لحمزة، والكسائي، وخلف: [بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ] بقاء المخاطبين.

والمعنى: أدركتُ أمراً عَجَباً إدراكاً جليّاً صار عندي علماً ثابتاً، وهذا الأمر الَّذِي علمته لم تَعْلَمُوا به، ولم يَعْلَمْ به سائر بني إسرائيل.

يقال لغة: بَصُرَ بالشيء، أي: صار ذا بَصِيرَةٍ فيه. البصيرة: قوّة الإدراك والفتنة، والعلم والخبرة.

ذكر المفسّرون أنّه رأى جبريلُ عليه السّلام على فرس الحياة، فوقَعَ في نفسه أن الأثر الَّذِي يَبْقَى في الأرض من حافرِ فرسِ جبريل، لا يُلْقَى على شيء غَيْرِ ذِي حَيَاةٍ إِلَّا صار حيّاً.

أقول: ولعلّ السّامريّ أجْرَى تَجْرِبَةً مُصَغَّرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ نفسه، قَبْلَ أَنْ يَدْعُو بني إسرائيل لصنْع العجل من الذهب.

• ﴿...فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ...﴾ (٩٦) : ظاهر هذه العبارة يدلُّ على أنّه قبضَ قَبْضَةً ترابٍ مِنْ مَوْطِئِ قَدَمِ جِبْرِيلَ رَسُولِ الوحي إلى موسى، لكن المفسّرين ذكروا أنّها قبضة من أثر حافر فرسه.

الْقَبْضَةُ: ما أَخَذْتَ بِجُمُعِ كَفِّكَ كُلَّهُ.

وعلى ما ذكر المفسّرون تحتاج العبارة إلى تقدير مُضَافٍ محذوف، أي: مِنْ أَثَرِ فرسِ الرسول، أو مِنْ أَثَرِ حافرِ فرسِ الرّسُول. والله أعلم.

• ﴿...فَبَذَلَتْهَا...﴾: أي: فَطَرَحْتُ هَذِهِ الْقَبْضَةَ كَمَا تُبْذَلُ النَوَاةُ، بِسُرْعَةٍ وَخِفَّةٍ، فِي جَوْفِ الذَّهَبِ الْمَسْبُوكِ عَلَى صُورَةِ عَجَلٍ، فَصَارَ لَهُ خَوَارِ كَخَوَارِ الْعُجُولِ مِنَ الْبَقَرِ.

• ﴿...وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦): أي: وَكَذَلِكَ الَّذِي فَعَلْتُهُ كَانَتْ نَفْسِي قَدْ زَيَّنَتْ لِي، وَحَسَّنَتْ لِي صُنْعَهُ.

التَّسْوِيلُ: هو فِي اللَّغَةِ التَّحْسِينُ، وَالتَّزْيِينُ، وَالتَّحْيِيبُ بِالشَّيْءِ.

يُقَالُ لُغَةً: «سَوَّلَ لَهُ، يُسَوِّلُ، تَسْوِيلًا» أي: حَسَّنَ لَهُ وَزَيَّنَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ الَّذِي دَعَاهُ إِلَيْهِ، وَأَغْرَاهُ بِهِ، وَسَهَّلَهُ لَهُ.

فَالْمَعْنَى: وَكَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلْتُهُ فِي جَسَدِ الْعِجْلِ، مِمَّا ثَلَا لِلَّذِي سَوَّلْتُهُ لِي نَفْسٍ.

فَاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ عَلَى نَفْسِهِ بِجَرِيمَتِهِ، وَرُبَّمَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَكُونَ مُقَدِّمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، ذَا مَكَانَةٍ وَرِيَاسَةٍ دِينِيَّةٍ، بِاعْتِبَارِهِ صَاحِبَ فِكْرَةِ الْعِجْلِ، وَالَّذِي عَمِلَ عَمَلًا جَعَلَهُ يَخُورُ خَوَارِ الْعُجُولِ، فَهُوَ سَيَكُونُ سَادِنُهُ، وَالْمَنْتَفِعُ مِنْ عِبَادَةِ الْقَوْمِ لَهُ.

• ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ...﴾ (٩٧):

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ حُكْمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى السَّامِرِيِّ بِالظَّرْدِ مِنْ مَجْتَمَعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِعْلَامَهُ بَنُوْعٍ عَذَابٍ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَمْسَرَ أَحَدًا أَوْ يَمْسَهُ أَحَدٌ، وَهُوَ عِقَابٌ بِعُزْلَةٍ جَبَرِيَّةٍ عَنْ كُلِّ النَّاسِ، فَإِذَا اقْتَرَبَ مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ اشْتَدَّتْ بِهِ أَوْجَاعُ وَآلَامُ لَا يُطِيقُهَا.

• ﴿...وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ...﴾ (٩٧) وفي القراءة الأخرى: [تُخْلَفُهُ]: إِنَّهُ مَوْعِدُ يَوْمِ الدِّينِ «أي: الْحَدَثُ، وَزَمَانُهُ، وَمَكَانُهُ» لِلْحِسَابِ،

وفَضِّلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، لفظ مَوْعِد يدلُّ على المصدر، وعلى زمانه، وعلى مكانه.

وبعد إصدار موسى عليه السَّلام، حُكْمُهُ عَلَى السَّامِرِيِّ، وبيان عقوبته في الدنيا، أراد أن يُرِيَ السَّامِرِيَّ، وَيُرِيَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعَجَلَ من قومه بني إسرائيل، وسائر قومه، مَهَانَةً إِلَهُهُمْ الْعَجَلِ، وَضَعْفُهُ، وَأَنَّهُ جَمَادٍ مِثْلَ سَائِرِ الْجَمَادَاتِ فَقَالَ لِلْسَّامِرِيِّ:

• ﴿...وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧):

أي: وانظر إلى عَجَلِكَ الذَّهَبِيِّ الَّذِي اتَّخَذْتَهُ إِلَهًا، وَأَقَمْتَ عِنْدَهُ مِلَازِمًا عِبَادَتِهِ، وَدَعَوْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى عِبَادَتِهِ، أَنْظُرْ بَعَيْنُكَ مَاذَا سَنَفَعُ بِهِ.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: أي: بَقِيتَ مِلَازِمًا لِعِبَادَتِهِ كُلَّ نَهَارٍ مَضَى عَلَيْكَ مِنْ يَوْمِ صُنْعِهِ، أَنْتَ وَمَنْ عَبَدَهُ مَعَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وجاء التعبير بعبارة: ﴿ظَلْتَ﴾ لأنَّهم كانوا يفارقونه ليلاً إلى خيامهم.

يقال لغة: «ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ كَذَا، وَظَلَّلْتُ، وَظَلْتُ، وَظَلْتُ» لا يقال ذلك إلَّا في حال الملازمة في النهار.

﴿عَاكِفًا﴾: أي: مُقِيمًا مُلَازِمًا مُلَازِمَةً عِبَادَةً لَهُ.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾: أي: لَنُوقِدَنَّ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى يَنْصَهَرَ، وَيَرَى بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّ هَذَا إِلَاهَ الَّذِي عَبَدَهُ مَنْ عَبَدَهُ مِنْهُمْ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ التَّحْرِيقَ وَالصَّهْرَ، وَأَنَّهُ جَمَادٍ كَأَيِّ جَمَادٍ آخَرَ.

• ﴿...ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧): أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُجَزَّئَهُ

إِلَى أَجْزَاءِ صُغْرَى كَذَرَاتِ الرَّمْلِ، لِنَسْفِنَهُ مُتَفَرِّقَ الذَّرَاتِ فِي الْبَحْرِ.

يقال لغة: «نَسَفَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أَي: فَرَّقَهُ وَأَذْرَاهُ. وَيُقَالُ: «نَسَفَتِ الرِّيحُ التُّرَابَ» أَي: حَمَلَتْ أَجْزَاءَهُ الصُّغْرَى، وَفَرَّقَتْهُ حَيْثُ اتَّجَهَتْ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمَرَ بِإِيقَادِ نَارٍ شَدِيدَةٍ، أَمَامَ السَّامِرِيِّ، وَأَمَامَ جَمَاهِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَوْلَ هَذَا الْإِلَهِ الْمَصْنُوعِ الْمُفْتَرَى بِهِ عَلَى اللَّهِ، فَلَمَّا حَرَّقَهُ وَانْطَفَأَتِ النَّارُ حَوْلَهُ، وَبَرَدَ مَا انْصَهَرَ مِنْهُ، أَمَرَ بِتَفْتِيهِهِ إِلَى أَجْزَاءِ صُغْرَى دَقِيقَةٍ، كَحَبَاتِ الرَّمْلِ الصُّغْرَى، لِيَقِيمَ بَرَهَانًا عَمَلِيًّا عَلَى أَنَّ زَعْمَ إِلَهِيَّتِهِ قَضِيَّةٌ مَكْذُوبَةٌ مُفْتَرَاةٌ عَلَى اللَّهِ الرَّبِّ، الَّذِي لَهُ وَخْدَهُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ، بِالْغَا مَا بَلَغَ، إِذْ كُلُّ مَا عَدَاهُ فِي الْوُجُودِ كُلُّهُ خُلِقَ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِبْدَاعُ مِنْ إِبْدَاعِهِ.

جاء في الإصحاح (٣٢) من سفر الخروج ما يلي:

«٢٠ ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَأَخْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ».

لَكِنَّ الْقُرْآنَ أَبَانَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَعَّدَ عُبَادَ الْعِجْلِ بِأَنْ يَنْسِفَهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا، أَي: فِي الْبَحْرِ، وَذَكَرَ الْيَمَّ يُبْعَدُ أَنْ يَكُونَ ذَرَاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَاهُ مَعَ الْمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَلَعَلَّ كِتَابَ سِفْرِ الْخُرُوجِ وَجَدُوا فِي الْأَصْلِ، أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ حُبَّ الْعِجْلِ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَفَسَّرُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِمْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَرَاتِ الْعِجْلِ مَعَ الْمَاءِ.

• ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٩٨﴾ •

بَعْدَ أَنْ أَبَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ، أَنَّ الْعِجْلَ الَّذِي

أَحْبُوهُ وَعَبَدُوهُ، لَيْسَ لَهُ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ صُورَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنْ مَادَّةٍ مِنْ مَوَادِّ الْأَرْضِ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنَّ خُوارَهُ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ ظَاهِرَةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ تَأْثِيرَاتِ الْأَشْيَاءِ فِي الْأَشْيَاءِ، كَتَأْثِيرِ مُرُورِ الرِّيحِ فِي بُوقٍ، إِذْ يُحْدِثُ صَوْتًا مَاءً، نَاعِمًا رَقِيقًا، أَوْ غَلِيظًا خَشِنًا.

بَعْدَ ذَلِكَ أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ الرَّبُّ، الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهَذِهِ إِحْدَى صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، الَّتِي لَا وَجُودَ لِنَظِيرِهَا عِنْدَ كَائِنٍ مَّا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ هُوَ مَا كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ عِلْمَهُ، وَهُوَ بِذَاتِهِ لَيْسَ بِعَلِيمٍ، وَإِنَّمَا هُوَ آلَهُ تَسْجِيلٍ عَظُمَى خَلَقَهَا اللَّهُ.

• ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، تَدُلُّ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّفْيُ وَالِاسْتِثْنَاءُ.

• ﴿... إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾: أَي: لَيْسَ لَكُمْ مَنْ يُعْبَدُ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، إِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ.

• ﴿... وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨): أَي: لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِ الْمَعْبُودِ أَنْ يَكُونَ رَبًّا، وَمِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ الْمَتَصَرِّفِ فِي الْكُونِ كُلِّهِ، أَنَّهُ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا.

وفى هذا البيان عن علم الله عز وجل إلماخ لهم إلى أنه مُطَّلِعٌ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ شُرْكَ، وَمَعْرِفَةٍ بِالرَّبِّ مُسْتَحَقٌّ الْإِلَهِيَّةَ وَخَدَهُ، أَوْ جَهْلِهِمْ بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيْمَانِ، وَإِذْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَعَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمْ وَخَوَاطِرِ نَفْسِهِمْ، فَهُوَ الَّذِي سَوْفَ يَجَازِيهِمْ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

وبهذا قَطَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ دَابِرَ التَّطَلُّعِ لِاتِّخَاذِ إِلَهٍ وَثَنٍ مِنْ نَفْسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ مِنْ تَارِيخِهِمْ.

قول الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ:

• ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾ (٩٩):

أي: مثلَ ذَلِكَ الْقِصَصِ الَّذِي قَصَصْنَاهُ بِشَأْنِ مُوسَى وَهَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، نَقُصُّ عَلَيْكَ بَعْضَ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ.

الخطابُ مُوجَّهٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوَّلًا، فَلِكُلِّ مُتَلَقٍّ لِلخِطَابِ، عَلَى سَبِيلِ الْخِطَابِ الْإِفْرَادِيِّ.

ومعلوم أنَّ الْهَدَفَ مِنْ ذِكْرِ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ الْإِتْعَاطُ وَالْإِعْتِبَارُ، وَقِيَاسُ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، نَظْرًا إِلَى أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ لَا تَبْدِيلَ لَهَا.

وبهذا انْتَهَى بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ وَمُدَدِهِ تَدْبِيرُ الدَّرْسِ الثَّانِي مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (طه) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا فَتَحَ بِهِ وَأَوَّلَى.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (طه) وهو الآيات من (بعض الآية ٩٩ - ١٠٤)

قال الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿...وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩) ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) ﴿خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جِزَاءٌ﴾ (١٠١) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢) ﴿يَخْلَفْتُونَ يَتَنَبَّهُونَ يَنْتَهُمُ إِنَّ لِيُنْتَمِ إِلَّا عَشْرًا﴾ (١٠٣) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِيُنْتَمِ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١٠٤):

القراءات:

(١٠٢) • قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: [يَوْمَ نَنْفُخُ] بِضْمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، أَيْ: نَأْمُرُ بِهِ وَقَرَأَ بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ [يَوْمَ يُنْفَخُ] بِالْفِعْلِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ،

أي: يحصل نفخ من قِبَل المَلَكِ المأمور بنفخ الصور، وهو إسرافيل عليه السَّلام.

تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السّورة موصولٌ بالدَّرْسِ الأوّل، ففي الدرس الأول بيانٌ عَنِ القرآنِ المجيد، ووظيفته التَّعليميّة والتَّذكيريّة، وبيانٌ عن وظيفة الرسول مُحَمَّد ﷺ الْمُتَعَلِّقَة بِالقرآن، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى الله مِنْ أُمَّتِهِ، وَكُلُّ نَاصِحٍ وَمُرْشِدٍ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ نَآءٍ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وجاء في هذا الدرس تحذيرٌ شَدِيدٌ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ يَوْمَ الدِّينِ، لِمَنْ يُعْرِضُ عَنِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ لِيَكُونَ ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ جَمِيعًا، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ كَانَ مِنَ الْمَجْرَمِينَ.

وجاء فيه عَرَضٌ لِقِطْعَةٍ مِنْ لَفْظَاتِ أَحْوَالِ الْمَجْرَمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَهُمْ الْكَافِرُونَ أَهْلُ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ الْخَالِدِ فِي الْحَرِيقِ بِنَارِ جَهَنَّمَ.

ومعلومٌ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنْ كِتَابِ اللهِ الْمَجِيدِ، وَمَا فِيهِ بَيَانَاتٌ لِلنَّاسِ، وَمَوْعِظَةٌ حَسَنَةٌ بِالترغيب والترهيب، مِنْ جَزَاءَاتِ اللهِ الْعَاجِلَاتِ وَالْآجَلَاتِ، اسْتِهَانَةٌ بِهِ وَعَدَمٌ مُبَالَآةٍ بِمَا جَاءَ فِيهِ، يَكُونُ سَبَبًا فِي اسْتِدْرَاجِ الشَّيَاطِينِ لِلْمُعْرِضِ عَنْهُ إِلَى مَزَالِقِ الْكُفْرِ، الْمَوْصِلَةِ إِلَى دَرَكَاتِ الْمَجْرَمِينَ، مُسْتَحَقِّيِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿...وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾: هَذَا الْخِطَابُ مَوْجَّهٌ

لِلرَّسُولِ ﷺ، مَعَ غَرَضِ إِسْمَاعِ كُلِّ مُؤَهَّلٍ لِاسْتِمَاعِ هَذَا الْبَيَانِ، مَضمُونٌ مَا جَاءَ فِيهِ، وَمَضمُونٌ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ بَعْدَهُ، لِأَنَّ اللهَ عزّ وجلّ قَدْ أَنْزَلَ

القرآن الكريم ذكراً للعالمين جميعاً، فهو تَذَكُّرَةٌ نَافِعَةٌ لِمَنْ يَخْشَى عِقَابَ اللَّهِ وعذابه، كما جاء في الآية (٣) من صَدْرِ السورة.

﴿وَقَدْ﴾: جاء التحقيق بحَرْفِ «قَدْ» مراعاةً لِأَحْوَالِ الشَّاكِّينَ مِنَ النَّاسِ بِأَنَّهُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، والمعرضين عن بياناته ووصاياه وتعليماته وترغيباته وترهيباته.

إِنَّهُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً، لِكِنَّ الْمُتَنَفِّعِينَ بِهِ هُمُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ عَذَابَ رَبِّهِمْ وعقابه.

﴿أَيُّنَا﴾: أي: أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ، وفي التعبير بالإيتاء لما أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَحَهُ شَرْفاً عَظِيماً، وتكريماً جَسِيماً، إِذْ اصْطَفَاهُ بِأَنْ أُنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْخَاتِمُ لِكُتُبِهِ لِعِبَادِهِ، والمعجز الجامع لميزاتِ كُلِّ كُتُبِهِ وَصُحُفِهِ السَّابِقَةِ لَهُ، وَالْمُنْزَلَةِ عَلَى رُسُلِهِ السَّابِقِينَ، فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ.

﴿مِنْ لَدُنَّا﴾: لَدُنْ: ظَرَفُ زَمَانِيٍّ وَمَكَانِيٍّ، بِمَنْزِلَةِ «عِنْدَ» إِلَّا أَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ «عِنْدَ» وَأَخْصُ مِنْهُ. وَكَلِمَةُ «لَدُنْ» مُلَازِمَةٌ لِلإِضَافَةِ، فَهِيَ تَجْرُ مَا بَعْدَهَا بِالإِضَافَةِ، وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ هُنَا ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ: «نَا» وَظَاهِرٌ أَنَّ نُونَ: «لَدُنْ» مُدْغَمَةٌ بِنُونِ الضَّمِيرِ «نَا» فَصَارَتْ نُوناً مُشَدَّدَةً.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: كِتَاباً رَبَّانِيّاً، يَطْلُبُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمَكْلُفِينَ مِنْ عِبَادِهِ جَمِيعاً، أَنْ يَتَبَلَّغُوهُ بوعِي، وَأَنْ يَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ وَدَلَالَاتِ كَلِمَاتِهِ وَجُمْلَهُ وَآيَاتِهِ، وَأَنْ يَضَعُوهَا فِي مُسْتَوْدَعَاتِ جِهَازِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فِيهِمْ، وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا مِنْهَا مَا تَتَطَلَّبُهُ الْمُنَاسَبَاتُ الدَّاعِيَاتُ، بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ مُسْتَوْدَعَاتِ الْحِفْظِ، إِلَى سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ، لِيَكُونَ مَا تَذَكَّرُوهُ دَافِعاً لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ، أَوْ الْإِنْتِفَاعِ بِهِدِيهِ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ عِلْمٍ رَبَّانِيٍّ حَقٍّ.

وَقَدْ أُظْلِقَ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ «ذِكْرٌ» نَظْراً إِلَى الْمَطْلُوبِ الْخَتَامِيِّ

بشأنه، في آخِرِ حَلَقَةٍ من حلقات سِلْسِلَةِ التَّبْلُغِ، فَالتَّفْهَمِ بوُغْيٍ، فالحفظ في خزائن المعرفة داخل النفس، فترديده في الذاكرة أَنَا فَأَنَا، لتثبيت حفظه، ثُمَّ اسْتِدْعَاءِ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِالْحَدِيثِ الدَّاعِي، أو المناسبة الداعية، إِلَى سَاحَةِ الذِّكْرِ، وَالتَّصَوُّرِ الحاضر، لِيَكُونَ حافِزاً إِلَى الانتفاع به في عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ.

هذا الفَهْمُ لكلمة «ذِكْرٌ» هو من تَدَبُّرِ كلماتِ القرآن، الدَّاعِي إِلَى النظرِ في لوازم الكلمة ومقتضياتها، من أوائل السُّلْسِلَةِ الفكرية فيها، حتَّى دُبِّرَها وَآخِرَها، وهذا عَمَلٌ فكريٌّ يقتضيه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (محمَّد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤).

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٣):

أي: مَنْ أَعْرَضَ عَنْ هذا الكتاب الَّذِي هو ذِكْرٌ للعالمين، فَلَمْ يُوجِّهْ سمعه لِتَبْلُغِهِ، أو لم يوجِّهْ ذهنه لتفهِّمه، غيَّرَ عابِئاً بِأَنَّهُ كَتَابُ رَبِّ العالمين، لِيَكُونَ هَذَا لَهُمْ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَامِلاً وَزْراً ثَقِيلاً عَلَى ظَهْرِهِ.

الإعراض: هو وَسْطٌ بين الإقبالِ والإدبار، وجاء الاكتفاء بِذِكْرِ الإعراضِ عن ذكر الإدبار والتولِّي، لِأَنَّ الْأَخْفَّ يَدُلُّ عَلَى الْأَشَدِّ مِنْ بَابِ «أَوَّلَى».

الْوِزْرُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، وَلَمَّا كَانَ ارْتِكَابُ الذَّنْبِ وَفِعْلُ الْإِثْمِ مِمَّا يَتَحَمَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ مَا يُشَبِّهُ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ، أُطْلِقَ لَفْظُ «الْوِزْرِ» عَلَى الذَّنْبِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ الْمَكْلُوفُ الْمُخْتَارُ الْمَسْئُولُ عَنْ أَعْمَالِهِ الْإِرَادِيَّةِ.

«وَزِرْ» جَمْعُهُ «أَوْزَارٌ» مثل «حِمْلٍ وَأَحْمَالٍ». يقالُ لغة: «وَزَرْتُ، يَزِرُّ، وَزَرًا، وَوَزَرًا، وَزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلًا ثَقِيلًا، أو ارْتَكَبَ ذَنْبًا كَبِيرًا، فَهُوَ «وَازِرٌ» وهي «وَازِرَةٌ».

وَحَمْلُ الْوِزْرِ يَوْمَ الدِّينِ، يَفْتَضِي الْمَحَاسَبَةَ عَلَيْهِ، فَفَضَّلَ الْقَضَاءُ، فَتَحْقِيقَ الْجَزَاءِ، بِالْعَدْلِ، أَوْ بِالْفَضْلِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾: أي: حالة كونهم خَالِدِينَ فِي الْوِزْرِ، الذي هو جَرِيمَةُ الْكُفْرِ.

وَالْخُلُودُ فِي الْوِزْرِ كِنَايَةٌ عَنِ الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الَّذِي قَضَى اللَّهُ بِهِ عَلَى الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ، يَنْزِلُ بِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، فِي جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

﴿...وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾: أي: وَسَاءَ الْوِزْرُ الَّذِي يَحْمِلُهُ مَنْ يُعْرَضُ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الْقُرْآنِ غَيْرَ عَابِيٍّ بِهِ، حِمْلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ هُوَ حِمْلٌ يَنْتَهِي بِهِ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ.

«سَاءَ» فَعْلٌ يَقَالُ فِي إِنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، مِثْلُ: «بِئْسَ» وَفَاعِلُهُ هُنَا ضَمِيرٌ مُسْتَتَرٌ وَجُوبًا، مُمَيِّزٌ بِكَلِمَةٍ: «حِمْلًا».

وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ إِذْ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّابِقُ عَنِ الْمَعْرُوضِ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: «يَوْمٌ» ظَرْفُ زَمَانٍ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ فَعْلٌ: «سَاءَ». «الْقِيَامَةُ» مَضَافٌ إِلَيْهِ مَجْرُورٌ بِالْحَرَكَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى التَّاءِ.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ: هُوَ يَوْمُ قِيَامِ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، فِي الْجَنَّةِ، أَوْ فِي النَّارِ، بِحَسَبِ حَالِ الشَّخْصِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قول الله عز وجل:

• ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠٧﴾ :

«الصُّورُ» مخلوق عظيم من مخلوقات الله، وهو على هيئة القرن، إحدَى جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَةٌ، تُقَابِلُهَا فُتْحَةٌ وَاسِعَةٌ، وباطنه فراغ، يُنفَخُ فيه فَيُصْدِرُ صَوْتًا بِحَسَبِ قُوَّةِ النَّفْخِ.

والنفخ في الصُّور يكون أولاً لإِمَاتَةِ الْأَحْيَاءِ، وَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِبَعْثِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي قَضَى اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ الرَّبَّانِيِّينَ.

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾: الحَشَرُ: في اللغة هو الْجَمْعُ وَالسَّوْقُ، يقال لغة: «حَشَرَ يَحْشُرُ، وَيَحْشِرُ، حَشْرًا» أي: جَمَعَ مَنْ حَشَرَهُمْ وَسَاقَهُمْ.

الْمَحْشَرُ، وَالْمَحْشِرُ: المَجْمَعُ الَّذِي يُحْشَرُ فِيهِ الْقَوْمُ.

الْمُجْرِمُونَ: هُمُ الْمُسْتَحَقُّونَ لِلْخُلُودِ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

جاء لفظ «المُجْرِمِينَ» في القرآن عُنواناً مُقَابِلاً لِلْمُسْلِمِينَ، وجاء وصفاً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِهْلَاكاً جَمَاعِيّاً، كَعَادِ وَثُمُودَ وَفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ. وجاء وصفاً لِلْمُعَذِّبِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَمْ يَأْتِ وَصفاً لِلْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ. فَذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي الْمَصْطَلَحِ الْقُرْآنِيِّ هُمُ مَرْتَكِبُو الْآثَامِ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ.

﴿زُرْقًا﴾: أي: حَالَةً كَوْنِهِمْ زُرْقًا، يَتَمَيَّزُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّوْنِ الْأَزْرَقِ.

إِنَّ اللَّوْنَ الْأَزْرَقَ فِي أَجْسَادِ النَّاسِ، يَكُونُ فِي الْعَادَةِ مِنَ الضَّرْبَاتِ الَّتِي تَقَعُ عَلَيْهَا، فَيَحْتَقِنُ الدَّمُ تَحْتَ الْجِلْدِ، فَيَتَحَوَّلُ لَوْنُ الْجِلْدِ إِلَى الزُّرْقَةِ.

فإذا كان هذا هو المراد، فالعبارة كِنَايَةً عَمَّا أَصَابَهُمْ مِنْ قِبَلِ
الملائكة، من ضَرْبٍ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَأَذْبَارِهِمْ، فَازْرَقْتُ بِهِ مَوَاضِعُ
الضَرْبِ، فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ.

وقد جاء بيان ضَرْبِ الملائكة لهم في نَصِّين:

(١) في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٩ نزول)
بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾﴾.

(٢) وفي قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مُحَمَّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥
نزول) بِشَأْنِ الْمَنَافِقِينَ الْمُرْتَدِّينَ عَنِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِيهِ:

﴿فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وجاء عند المفسرين أَنَّ الْمَجْرِمِينَ يُخْشَرُونَ زُرْقَ الْعُيُونِ، وَالْعَرَبُ
تَتَشَاءُمُ بِزُرْقَةِ الْعَيْنِ، وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، وَلَمْ أَجِدْ لَأَقْوَالِ الْمَفْسِّرِينَ هَذِهِ
مُسْتَنْدَاً مِنَ الْكِتَابِ أَوْ مِنَ السُّنَّةِ، فَهِيَ مِنْ قَبِيلِ الْآرَاءِ الْمَطْرُوحَةِ.

وما ظهر لي أَخْذاً مِنْ نَصِّي سَوْرَتِي (الأنفال) و(مُحَمَّد) هُوَ الْأَحَقُّ
بِالتَدَبُّرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: أَي: يَتَسَارُونَ بَيْنَهُمْ، وَيَتَكَلَّفُونَ خَفَضَ أَصْوَاتِهِمْ
وَأَخْفَاءَهَا.

يُقَالُ لغة: «خَفَتَ صَوْتُهُ، يَخْفُتُ، وَيَخْفِتُ، خَفْتًا، وَخُفُوتًا، وَخُفَاةً». أي: انخفض.

ويقال لغة: «خَفَتِ بِصَوْتِهِ» و«خَافَتِ بِصَوْتِهِ» أي: خَفَضَهُ، وَأَسْرَهُ، وَأَخْفَاهُ. ويقال: «تَخَافَتَا» أي: تَسَارَا.

﴿... إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ﴾ (١١٣): أي: مَا لَبِثْتُمْ فِي رَقَدَتِكُمْ الَّتِي رَقَدْتُمُوهَا إِلَّا عَشْرًا مِنَ اللَّيَالِي.

ذَكَرْتُ الرُّقَادَ هُنَا، لِأَنَّهُ جَاءَ فِي سُورَةِ (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عِنْدَ الْبَعْثِ، مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعَثِنَا مِنْ مَرْقَدًا...﴾ (٥٢).

﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾: أي: مَا أَقَمْتُمْ فِي قُبُورِكُمْ، يُقَالُ لُغَةً: «لَبِثَ بِالْمَكَانِ، يَلْبِثُ، لَبِثًا، وَلَبِثًا، فَهُوَ لَا يَبِثُ، وَلَبِثٌ» أي: أَقَامَ فِيهِ. «إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَى «مَا».

دَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْمَيِّتَ يُلْغَى مِنْ نَفْسِهِ الْحِسُّ بِمُرُورِ الزَّمَنِ، فَالسَّاعَةُ وَمِثْلَيَاتُ السَّنِينَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى إِحْسَاسِهِ سَوَاءً، وَحِينَ الْبَعْثِ لَا يَكُونُ لَدَى الْمَوْتَى إِدْرَاكٌ مَا لِمَقْدَارِ الزَّمَنِ الَّذِي مَرَّ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ، وَعِنْدَ الْبَعْثِ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي حَالَةٍ تُشَبِّهُ النَّوْمَ، فَهُمْ فِيهَا فِي رُقَادٍ.

وعندئذٍ لَيْسَ لَدَيْهِمْ وَسِيلَةٌ لِمَعْرِفَةِ الزَّمَنِ الَّذِي لَبِثُوهُ فِي مَدَّةِ الْبَرْزَخِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ، إِلَّا الرَّجْمُ بِالظَّنِّ التَّوَهُّمِيِّ، إِذْ إِحْسَاسُ نَفُوسِهِمْ بِمُرُورِ الزَّمَنِ قَدْ كَانَ مُنْعَدِمًا.

فيقول بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سِرًّا، مَا لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرَ لَيَالٍ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَقَدْ يَقُولُونَ أَقْوَالًا أُخْرَى غَيْرَ ذَلِكَ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ...﴾ (١١٢): هذا كلام صادر عن الله عز وجل، جاء باستخدام ضمير المتكلم العظيم. أي: نحن أعلم بما سوف يتداولونه من أقوال فيما بينهم، بشأن المدة الزمنية التي لبثوا في قبورهم، لأننا أعلم بما في نفوسهم وتنطق به ألسنتهم منهم.

عندئذ يظهر فيهم من يعتبرونه ذكياً في تقدير الأزمان بفكره على سبيل الحدس والتخمين، لا بأدوات الحس لديه، وهو في تصوّرهم أمثلهم طريقة في فهم مثل هذه الأمور الغامضة، كما كانوا يعلمون ذلك من تصرفاته في الحياة الدنيا، فيقول لهم ما جاء بيانه في قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١١٤): أي: هو ينظر إلى شعوره الذاتي، فيرى أن شعوره لا يزيد في تقدير الزمن، على أنه لبث نومة في العشي، أو نومة في الضحى، كما قال الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّجُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (١١٤).

فهو يزيد بإعمال فكره حدساً وتخميناً وخرصاً، فيقول: ﴿...إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١١٤).

وهكذا يكون حال الذين ماتوا في أول التاريخ البشري على الأرض، أو في قرون عاد، وشمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، ومن بعدهم، حتى آخر هالك على وجه الأرض، فالإحساس بمرور الزمن بالنسبة إليهم جميعاً سواء، ولو كانوا في مدّة البرزخ من أهل النعيم، أو من أهل العذاب، إذا النائم قد يرى أحلاماً لا تتحقّق في واقع الحياة إلا بزمن طويل، بينما يكون قد رآها في حلمه بئانية أو بأقل أو بأكثر قليلاً.

فلا سبيل أمام الذي كان أمثلهم طريقة في الحياة إلا أن يحكم بالاستناد إلى الحدس، والتخمين، والخرص.

﴿أَمَثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي: أَفْضَلُهُمْ طَرِيقَةً فَهَمَّ وَاسْتَنْبَاطٍ وَحَدْسٍ، عَلَى مَا عَرَفُوا مِنْ أَمْرِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّ الْأَمْثَلَ طَرِيقَةً وَغَيْرُهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ سَوَاءً، كُلُّ مِنْهُم لَا يَعْتَمِدُ فِي تَقْدِيرِ الزَّمَنِ إِلَّا عَلَى الرَّجْمِ بِالْغَيْبِ دُونَ دَلِيلٍ مَا، أَوْ أَمَارَةٍ مَا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

بخلاف أهل الإيمان بالله عزّ وجلّ، فإنّهم يقولون: إِنَّ عِلْمَ لُبِّنَا مَوْتِي فِي مُدَّةِ الْبَرْزَخِ عِنْدَ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ ذَلِكَ غَيْرُهُ، حَتَّى الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ أَيْضاً فَلَا يَعْلَمُونَ الْمُدَّةَ بَيْنَ مَوْتِهِمْ وَبَيْنَ حَيَاتِهِمْ الثَّانِيَةِ.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الثالث من دروس سورة (طه)

والحمد لله على فتحه ومدّته ومعونته وتوفيقه



(٨)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (طه)

وهو الآيات من (١٠٥ - ١١٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَسْتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ (١١٠) عِلْمًا ۚ (١١١) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۚ (١١٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۚ (١١٣)﴾.

القراءات:

(١١٠) • قرأ يعقوب: [أَيْدِيَهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقراها باقي القراء العشرة: [أَيْدِيَهُمْ] بكسر هاء الضمير. وهما وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ، جاءت بهما القراءتان.

(١١٢) • قرأ ابن كثير: [فَلَا يَخْفَ] على أَنَّ «لا» ناهية، والفعل بعدها مجزومٌ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَلَا يَخَافُ] على أَنَّ «لا» نافية، فالفعل بَعْدَهَا مرفوع.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد بياؤه، أي: فَلَا يَخْفَ، وهو في الواقع يوم الدين لَا يَخَافُ.

تمهيد:

آيات هذا الدرس موصولةٌ في مضمونها البياني بما جاء في الدرس الثالث السابق، فموضوع الدرسين يَدُورُ حَوْلَ يوم القيامةِ وَيَكَادَانِ يكونان درساً واحداً، إِلَّا أَنِّي آثَرْتُ أَنَّ أَفْصَلَ هُمَا لِأَنَّ هذا الدرس الرابع قَدْ جَاءَ مَبْنِيًّا عَلَى سُؤَالِ كُبْرَاءِ كَفَّارٍ مَكَّةَ عَنِ الْجِبَالِ، وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ عَظِيمَاتٌ ثَابِتَاتٌ رَاسِخَاتٌ؟.

وفي هذه الآياتِ بَيَانُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ قِيَامِ السَّاعَةِ، مَبْنِيٌّ عَلَى سُؤَالٍ مُوجَّهِ مِنْ كُبْرَاءِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، لِلرَّسُولِ ﷺ: مَاذَا يَفْعَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْجِبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وقد جاء في الآيتين: (١٠٥ و ١٠٦) مِنْهَا بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُفَتِّتُهَا إِلَى ذَرَاتٍ رَمَلٍ، وَيَنْسِفُهَا مِنْ مَوَاقِعِهَا، وَيَجْعَلُ الْأَرْضَ بَعْدَ نَسْفِ الْجِبَالِ الْمَرْتَفِعَةِ عَلَى ظَهْرِهَا، أَرْضًا مَلَسَاءَ مُسْتَوِيَةً السَّطْحِ، لَا يَخْتَاجُ مَنْ

يَسِيرُ عَلَى سَطْحِهَا إِلَى تَصَوُّرِ اِحْتِمَالَاتٍ عَوِجٍ إِلَى وَادٍ، أَوْ ارْتِفَاعٍ إِلَى هَضْبَاتٍ، أَوْ انْخِفَاضٍ مِنْهَا إِلَى مَنْخَفِضَاتٍ.

وفي هذا المشهدِ بيانٌ أَنَّ المَبْعُوثِينَ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ مُلَجَّيْنِ إِلَى اتِّبَاعِ الدَّاعِي لَهُمْ مِنَ المَلَائِكَةِ، وَالسَّيْرِ إِلَى جِهَتِهِ، لِيَحْشُرَهُمْ سَوْقًا وَجَمْعًا إِلَى مَوْقِفِ حِسَابِ رَبِّهِمْ لَهُمْ.

وجاء في بيانٍ آخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ المَجِيدِ، أَنَّ الكَافِرِينَ يُحْشَرُونَ إِلَى الجَهَةِ الَّتِي تُقَرَّبُ النَّارُ إِلَيْهَا، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحْشَرُونَ إِلَى الجَهَةِ الَّتِي تُزَلَّفُ الْجَنَّةُ إِلَيْهَا. وَأَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا يُعَرَّفُ بِعَلَامَاتٍ فَارِقَاتٍ، فَالكَافِرُونَ يَكُونُونَ سُودَ الْوُجُوهِ، إِذْ تَشْتَدُّ الرُّزْقَةُ فِيهَا، حَتَّى تَكُونَ سَوَادًا. وَالْمُؤْمِنُونَ يَكُونُونَ بَيَضَ الْوُجُوهِ، وَلَوْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ ذَوِي الْجُلُودِ السَّوْدَاءِ.

وجاء في هَذَا المَشْهَدِ، بَيَانٌ أَنَّ الدَّاعِيَّ مِنَ المَلَائِكَةِ يَسُوقُ مَنْ يَحْشُرُهُمْ سَوْقًا مُسْتَقِيمًا، لَا عَوِجَ لَهُ فِي سَوْقِهِ، لِأَنَّهُ يَسُوقُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَيَسِيرُ عَلَى أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ مَلْسَاءٍ فِي كُلِّ جِهَاتِهَا.

وَمِنْ لِقَطَاتِ هَذَا المَشْهَدِ الرَّهيبِ، أَنَّ كُلَّ الْأَصْوَاتِ تَكُونُ سَاكِئَةً سُكُونًا تَامًا، إِلَّا مَا يَهْمِسُ بِهِ الْمَسُوقُونَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ فِي أَحَادِيثِ سَرِيَّةٍ يَخْفَضُونَ فِيهَا أَصْوَاتَهُمْ إِلَى دَرَكَةِ الِهْمْسِ الَّذِي يَكَادُ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ كَلَامٌ.

وَمِنْ لِقَطَاتِ هَذَا المَشْهَدِ يَوْمَئِذٍ، بَيَانٌ أَنَّ الشَّفَاعَةَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ عُلْتُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، لِأَحَدٍ مِنَ الْعَاصِينَ، لَا تَنْفَعُ الشَّفُوعَ لَهُ، إِلَّا شَفَاعَةُ مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الشُّفَعَاءِ، وَرَضِيَ لَهُ فِي شَفَاعَتِهِ قَوْلًا يَقُولُهُ بِشَأْنِهَا، وَالْقَوْلُ فِي الشَّفَاعَةِ يَتَنَاوَلُ الشَّفُوعَ لَهُ، وَالْمَشْفُوعَ فِيهِ، فَمَنْ يَأْذَنُ اللَّهُ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الشُّفَعَاءِ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ قَوْلًا بِأَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ مَاتَ كَافِرًا.

وجاء في آيات هذا الدرس بيان أن الله يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِي كُلِّ أَهْلِ
المحشر، وهو ما سَبَقَ أَنْ قَدَّمُوهُ مِنْ اعتقادات ونيات وأعمالٍ في رِحْلَةِ
امتحانهم في الحياة الدُّنْيَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ خَلْفَهُمْ، وهو ما سَيَصِيرُ إِلَيْهِ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَهُ، وَيُفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِ، وَيَأْمُرَ بِتَنْفِيزِ
جزائه.

أما العباد فَلَا يُحِيطُونَ بِذَاتِ اللَّهِ وَلَا بِصِفَاتِهِ عِلْمًا، ولو رآه مَنْ يَرَاهُ
مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، إِذْ رُؤِيتُهُمْ لَهُ يَوْمَئِذٍ تَكُونُ مِثْلَ مُشَاهَدَتِنَا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلْقَمَرِ، لَا تَقْتَرِنُ بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ، وَلَا بِمَعْرِفَةِ عَظِيمِ
صِفَاتِهِ.

ومن لَقَطَاتِ هَذَا الْمَشْهَدِ يَوْمَئِذٍ، أَنَّ وُجُوهَ الْعِبَادِ تَكُونُ خَاضِعَةً ذَلِيلَةً
مُنْخَفِضَةً، لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، الْقَائِمِ بِأُمُورِ كُلِّ شَيْءٍ فِي كَوْنِهِ قِيَامًا عَلَى أَكْمَلِ
وَجْهِهِ، وَأَتْقَنِهِ، وَأَحْكَمِهِ.

ومن لَقَطَاتِ هَذَا الْمَشْهَدِ يَوْمَئِذٍ، ظُهُورُ خَيْبَةٍ مَن حَمَلَ مِنَ الْأَوْزَارِ
ظُلْمًا هُوَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، إِذْ يَخْسِرُ نَفْسَهُ فَلَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ، بَلْ يَجْعَلُهُ اللَّهُ
خَالِدًا فِي الْعَذَابِ.

وَأَيَّةُ خَيْبَةٍ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الْخَيْبَةِ.

ومن لَقَطَاتِ هَذَا الْمَشْهَدِ يَوْمَئِذٍ، ظُهُورُ فَلَاحٍ مَن آمَنَ إِيمَانًا صَحِيحًا
صَادِقًا، وَعَمِلَ شَيْئًا مِمَّا مِنَ الصَّالِحَاتِ، بِدَافِعِ إِيمَانِيٍّ، إِذْ يَجِدُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ قَدْ حَقَّقَ لَهُ بِإِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ فَوْقَ مَا كَانَ يَرْجُوهُ وَيَطْمَعُ فِيهِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ
لَا يَخَافُ ظُلْمًا بِعِقَابٍ عَلَى عَمَلٍ سَيِّئٍ لَمْ يَعْمَلْهُ، وَلَا هَضْمًا بِنَقْصٍ مِنْ
ثَوَابٍ مُضَاعَفٍ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ عَمِلَهُ، كَمَا وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ، أَوْ فِي بَلَاغَاتِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

التدبر التحليلي:

بناءً على سؤال كُبراء مُشركي قُرَيْش رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْجِبَالِ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جاء في هذا الدرس بَيَانُ الْمَسْئُولِ عَنْهُ فِي قَضِيَّةٍ، وَأُتْبِعَتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ، بَيَانِ ثَمَانِي قَضَايَا تَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ حَشْرِ النَّاسِ جَمْعاً وَسَوْقاً، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ وَمَشَاهِدَ.

قول الله عز وجل:

﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ...﴾ (١٠٥): الواو في مَطْلَعِ هَذَا الدَّرْسِ تَعْطِفُ مَا جَاءَ فِيهِ عَلَى مَا جَاءَ فِي الدرس السابق، إذ مَوْضُوعُ الدَّرْسَيْنِ يَدُورُ حَوْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَكَادَانِ يَكُونَانِ دَرْساً وَاحِداً.

وقَدْ اسْتَدْعَى الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بَيَانَ تِسْعِ قَضَايَا، أَوَّلَاهَا قَضِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِمَا سَوْفَ يَكُونُ عَلَيْهِ حَالُ الْجِبَالِ، وَمَا بَعْدَهَا مِنْ قَضَايَا يَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ نَفْسِهِ، وَكَانَ سُؤَالُهُمْ مَنَاسِبَةً مَلَائِمَةً لِبَيَانِهَا، وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْحَكِيمَةِ فِي الْأَسْتِفَادَةِ مِنَ الْمَنَاسِبَاتِ لِعَرْضِ الْقَضَايَا الَّتِي لَهَا عِلَاقَةٌ بِهَا.

وفيما يلي بيان القضايا التسع التي اشتمل عليها هذا الدرس.

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ:

﴿قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٥) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠٦) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٠٧):

﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾: أي: يَفْتَلِعُهَا مِنْ أَصُولِهَا، وَيَسْحَقُهَا، وَيُذَرِّبُهَا.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠٦): أي: فَيَتْرُكُ مَوَاقِعَهَا بَعْدَ نَسْفِهَا:

﴿قَاعًا﴾: أي أَرْضًا مُسْتَوِيَةً. القاع: فِي اللُّغَةِ: الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ.

﴿صَفْصَفًا﴾: أي: أَرْضًا مُسْتَوِيَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا.

﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾: الْعِوَجُ: هو في اللغة الانحناء والالتواء وَعَدَمُ الاستواء في المعنويات، كَسُوءِ الْخُلُقِ، والانحراف عن الدين الحق. ويقال: «قَوْلٌ بِهِ عِوَجٌ» أي: مُنْحَرِفٌ عَنِ الْقَصْدِ.

وَالْعِوَجُ: بَفَتْحِ الْعَيْنِ، يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْمِيلِ والانحراف في المادّيات، كالطريق الأعوج، والرُمح الأعوج.

وَظَاهِرُ الْعِبَارَةِ الْقَرَأَنِيَّةِ هُنَا اسْتِعْمَالُ ﴿عِوَجًا﴾ بِكَسْرِ الْعَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عَدَمِ وُجُودِ مِيلٍ أَوْ انحرافٍ فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ مِنَ الْمَادِّيَّاتِ، عَلَى خِلَافِ أَصْلِ الاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ، فَالْعِوَجُ فِي الْمَادِّيَّاتِ، وَالْعِوَجُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ.

أقول: الذي أَرَاهُ أَنَّ اسْتِخْدَامَ ﴿عِوَجًا﴾ هُنَا بِكَسْرِ الْعَيْنِ، بَدَلُ «عِوَجًا» بِفَتْحِ الْعَيْنِ، يُرَادُ بِهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ أَرْضَ الْمَحْشَرِ، كَمَا تَكُونُ مُسْتَوِيَةً بِمُقْتَضَى صَيْرُورَتِهَا قَاعًا صَفْصَفًا، فِي كُلِّ جِهَاتِهَا، فَإِنَّكَ يَا أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي لِهَذَا الْبَيَانِ إِذَا كُنْتَ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ، فَإِنَّكَ لَا تَرَىٰ فِيهَا أَيْضًا مِنْ سُلُوكِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنْ أَحْدَاثِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا فِيهِ عِوَجٌ مَعْنَوِيٌّ، وَلَا مُرْتَفَعَاتٌ وَمُنْخَفِضَاتٌ مَعْنَوِيَّةٌ، مُخَالَفَاتٌ لِلْاِسْتِوَاءِ الْمَطْلُوبِ بِمُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَعَدْلِهِ.

﴿وَلَا أَمْتًا﴾: أي: وَلَا تَرَىٰ فِيهَا انخفاضاتٍ وَلَا اِرْتِفاعاتٍ مَعْنَوِيَّةً أَيْضًا. الْأَمْتُ: هو في اللغة: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً، وَرِقَّةٌ وَصَلَابَةٌ.

إِنَّ نَسْفَ الْجِبَالِ وَتَذْرِيبَهَا مُتَنَائِرَةً الْأَجْزَاءِ كَالرَّمَالِ، وَدَقِيقِ التَّرَابِ، حَدَثٌ مِنْ أَحَدِ عَشَرَ حَدَثًا يَجْرِي فِي الْجِبَالِ، قُبَيْلَ السَّاعَةِ وَعِنْدَ قِيَامِهَا.

وقد جاء تفصيل هذه الأحداث مع ما يَدُلُّ عَلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ لَدَى تَذَكُّرِ الْآيَةِ (٣) مِنْ سُورَةِ (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول)^(١).

(١) انظر الصفحة (٤٠٤) وما بعدها من المجلد الأول.

وهذه الأحداث تأتي على مراحل، وهي بإيجاز.
(١) مرحلة الدَّك، للتكسير.

(٢) مرحلة جَعَلَ الجبال لَيِّنَةً كَالْعِهْنِ، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً.

(٣) مرحلة جَعَلَ الجبال كَالْعِهْنِ المنفوش، أي كالصوف المندوف الذي انتفخ بالفراغات الكثيرات التي تخللته.

(٤) مَرَحَلَةٌ بَسَّ الْجِبَالِ، وهو ما يكونُ بِهِ تَفْتِيْتُهَا إلى أجزاء صغيرة، كناعم التراب، أو ناعم الرَّمَلِ.

(٥) مَرَحَلَةٌ جَعَلَ الجبال بَالْبَسِّ كَالْكُثِيبِ الْمَهِيلِ، أي: كالرَّمَلِ الذي يَتَسَاقُطُ بِتَدَاوُعٍ من الأعلى إلى الأسفلِ بِأَذْنَى حَرَكَةٍ.

(٦) مَرَحَلَةٌ سَيَّرَ الجبال سَيْرًا غَيْرَ شَدِيدٍ.

(٧) مَرَحَلَةٌ مُرَوَّرَ الجبال كَمَرِّ السَّحَابِ.

(٨) مَرَحَلَةٌ تَسَيَّرَ الجبال بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ.

(٩) مَرَحَلَةٌ نَسَفَ الْجِبَالِ وَتَذَرِيَّتُهَا مُتَنَائِرَةً.

(١٠) مَرَحَلَةٌ تَسَيَّرَ الجبالِ تَسَيَّرًا كُلِّيًّا، حَتَّى لَا يُرَى مِنْ آثَارِهَا إِلَّا مِثْلُ السَّرَابِ، أي: كَبَقَايَا غُبَارٍ.

(١١) المَرَحَلَةُ الْآخِرَةُ مَرَحَلَةٌ لَا يَبْقَى فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ أَثَرٌ مَا، وَلَا مِثْلُ السَّرَابِ.

هذه المراحل قد جاءت بَيَانَهَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ، إِلَّا أَنَّ تَرْتِيْبَهَا كَمَا ذَكَرْتُ اجْتِهَادٌ مِنِّي، قد يوافق الواقع الذي سوف يكون، وَقَدْ يَكُونُ الْوَاقِعُ مُخَالَفًا لَهَا مُخَالَفَةً مَا. وَالْعِلْمُ الْحَقُّ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ.

القضية الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس: ﴿يَوْمَذِ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ...﴾ (١٠٨):

أي: يكونُ بَعْدَ البَعْثِ وانْطِلَاقَ النَّاسِ يَنْسِلُونَ مُسْرِعِينَ فِي اتِّجَاهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، أَنْ يَدْعُوهُمْ الدَّاعِي مِنَ المَلَائِكَةِ، إِذْ يَصِيحُ فِيهِمْ لِاتِّبَاعِهِ، بُغْيَةً المَثُولِ فِي مُحْكَمَةِ العَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَئِذٍ.

فالمؤمنون يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ إِلَى مَوْقِفٍ مُحَاكَمَتِهِمْ قَرِيباً مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي تُزْلَفُ إِلَيْهَا الْجَنَّةُ.

والكافرون يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ إِلَى مَوْقِفٍ مُحَاكَمَتِهِمْ قَرِيباً مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي تُقَرَّبُ إِلَيْهَا النَّارُ.

الدَّاعِي: اسْمُ «فاعل» و«أل» للجنس، فهو يَصْلُحُ لِأَنْ يُرَادَ بِهِ وَاحِدٌ شَائِعٌ، أَوْ أَكْثَرُ عَلَى التَّوْزِيعِ.

وَنُصُوصُ جَمْعِ الكَافِرِينَ وَسَوْقِهِمْ زُمْراً إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي تُقَرَّبُ إِلَيْهَا النَّارُ، وَجَمْعِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْقِهِمْ زُمْراً إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي تُزْلَفُ إِلَيْهَا الْجَنَّةُ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدَّاعِينَ مُتَعَدِّدُونَ، وَأَنَّ لِكُلِّ فَرِيقٍ أَوْ زُمْرَةٍ دَاعِياً مِنَ المَلَائِكَةِ.

وقد سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ﴾ (١) خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾.

﴿نَكْرٍ﴾: أي: شَدِيدٍ صَعْبٍ.

﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾: أي: يَرْمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ نَحْوَ الْأَرْضِ مُنْكَسِرَةً.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾: أي: إِذَا سَمِعُوا صَوْتَ الدَّاعِي تَوَجَّهُوا لَهُ

مُسْرِعِينَ إِلَىٰ جِهَتِهِ، بِذُلٍّ وَخُضُوعٍ، يَمْدُونُ أَعْنَاقَهُمْ وَيَخْفِضُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَيَنْظُرُونَ بِذُلٍّ وَاِنْكِسَارٍ نَحْوِ الْأَرْضِ، وَيَغْضُونَ مِنْ أَجْفَانِهِمْ.

وَدَلَّ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه): ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ...﴾ (١١٨) على أَنَّ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ فِي تَصَرُّفَاتِهِ، وَعَلَى أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ لَهُ لَا عِوَجَ لَهُ، أَي: فَهْمٌ لَا يَزِغُونَ عَنْ خَطِّ اتِّبَاعِهِمْ لِلدَّاعِيَ كَمَا يَأْمُرُهُمْ، فَتَكَامَلَ النَّصَانِ فِي بَيَانِ الصُّورَةِ الْمُرَادِ بَيَانَهَا، وَالْمَعْنَى الْمُرَادِ الدَّلَالَةُ عَلَيْهَا.

القَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ: ﴿...وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١١٨):

الْخُشُوعُ: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى: «الْخُضُوعِ» وبمعنى: «الخوف» وبمعنى: «السُّكُونِ».

وَعَدَمُ ظُهُورِ أَصْوَاتِ النَّاسِ لِأَزْمٍ مِنْ لَوَازِمِ خُشُوعِ قُلُوبِ أَصْحَابِهَا، فَالْخَاضِعُ، الْخَائِفُ، السَّاكِنُ، يَكُونُ صَامِتًا بَطْنِيَّةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَ جَارٍ لَهُ فِي مَوْقِفِهِ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُ هَمْسًا، أَي: بِكَلَامٍ خَفِيِّ وَصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَكَادُ يُسْمَعُ، أَوْ لَا يَكَادُ يُفْهَمُ الْمُرَادُ بِهِ.

الْهَمْسُ فِي الْكَلَامِ: التَّنَطُّقُ بِهِ بِصَوْتٍ خَفِيِّ لَا يَكَادُ يُفْهَمُ. وَيُقَالُ: هَمَسَ الشَّيْطَانُ، أَي: وَسَّوسَ.

فَالْهَمْسُ يَكُونُ بِأَخْفَى صَوْتٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرِكَ بِهِ الْمَهْمُوسُ إِلَيْهِ السَّمِيعُ مُرَادَ الْمُتَحَدِّثِ بِكَلَامِهِ.

فَدَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ النَّاسَ إِذَا دَعَاهُمُ الدَّاعِيَ إِلَى مَوْقِفٍ حَسَابِيهِمْ، يَسِيرُونَ صَامِتِينَ، وَإِذَا اشْتَدَّ عِنْدَ أَحَدِهِمُ الدَّافِعُ إِلَى مُحَادَثَةِ جَارِهِ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُ هَمْسًا فِي أُذُنِهِ.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عز وجل في هذا الدرس:

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَىٰ لَهُ قَوْلًا ۖ﴾ (١٠٩)

أي: إِنَّ شَفَاعَةَ الشُّفَعَاءِ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ شَفَاعَةً عِنْدَهُ بِرَوْحِهِ عَامٌ، لَا تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُمْ لَهُ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ:

الشرط الأول: أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ بِأَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ أَرَادُوا أَنْ يَشْفَعُوا له، فرداً أو جماعةً، وهذا يَسْتَلْزِمُ الاستئْذَانَ بِالشَّفَاعَةِ لِلْمَشْفُوعِ له، والمَشْفُوع به.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَرْضَىٰ اللَّهُ عز وجل قَوْلَ الشَّافِعِ، صِغَةً وَأَسْلُوباً، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ شَفَاعَتُهُ.

فَصِغَةُ طَلَبِ الشَّفَاعَةِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ دُعَاءً مَصْحُوباً بِتَعْظِيمِ اللَّهِ وإِجْلَالِهِ، وَاسْتِعْطَافِ رَحْمَتِهِ، وَأَسْلُوبُهَا يُطَلَّبُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ بِذِلٍّ وَخُضُوعٍ وَتَضَرُّعٍ. وَمَضْمُونُهَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِمَّا لَمْ يَمْنَعْ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ فِيهِ، كَالشَّفَاعَةِ فِي أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِمُشْرِكٍ فَمَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ كُفْرًا، كَجَاحِدِ وَجُودِ اللَّهِ عز وجل، وَكَمُنَافِقٍ مَعْلُومِ النِّفَاقِ، يُظْهِرُ الْإِيمَانَ وَيُخْفِي الْكُفْرَ.

وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ لِلَّهِ عز وجل وَخَدَهُ، كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ فِي سُورَةِ (الزُّمَرِ/ ٣٩) مَصْحُف/ ٥٩ نزول):

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ﴾ (١١٢)

القضية الخامسة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عز وجل في هذا الدرس:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾ (١١١): أي: يَعْلَمُ كُلَّ مَا قَدَّمَ

عِبَادَهُ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ مِنْ اعْتِقَادَاتٍ، وَنِيَّاتٍ، وَأَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَقَعُ أَمَامَ إِحْسَاسَاتِهِمْ، إِذْ عَاشُوهُ، وَاخْتَزَنَ فِي ذَاكِرَتِهِمْ.

وَيَعْلَمُ أَيْضاً سُبْحَانَهُ كُلَّ مَا سَيَأْتِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، فَهُوَ
الَّذِي يَكُونُ خَلْفَهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَهُ، وَلَا يَعْلَمُونَ مِنْهُ إِلَّا مَا يُخْبِرُهُمْ رَبُّهُمْ
بِهِ.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس:
﴿...وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١١٠): أي: وَلَا يُحِيطُونَ عِلْمًا بِذَاتِهِ وَلَا
بِكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ.

لأنَّ رُؤْيَتَهُمْ لِرَبِّهِمْ لَا تُعْطِيهِمْ أَكْثَرَ مِنْ رُؤْيَتِنَا لِلْقَمَرِ وَنَحْنُ فِي
الْأَرْضِ، فَلَا نُحِيطُ عِلْمًا بِذَاتِ الْقَمَرِ وَجَوْهَرِهِ، وَلَا بِكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ، إِذِ
الرُّؤْيَةُ مِنْ بُعْدٍ لَا تَسْمَحُ بِأَكْثَرٍ مِنْ إِذْرَاكِ بَعْضِ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تَشْهَدُهَا
الْأَبْصَارُ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الظَّوَاهِرُ مِنْ صِفَاتٍ.

القضية السابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ...﴾ (١١١):

أي: وَخَضَعَتِ الْوُجُوهُ وَذَلَّتْ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ الْحَيِّ الْقَيُّومِ.

«الْحَيِّ»: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ، أَي: الَّذِي لَهُ
الْحَيَاةُ بِلَا أَوَّلٍ، وَبِلَا آخِرٍ، إِذْ حَيَاتُهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الزَّمَانِ
وَالْمَكَانِ.

«الْقَيُّومِ»: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، وَهُوَ الْقَائِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ،
وَالْحَافِظُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَتَصَرِّفُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَأَرَى أَنَّ لَفْظَ «الْقَيُّومِ» مِنْ صِيَغِ الْمَبَالِغَةِ السَّمَاعِيَّةِ لِاسْمِ الْفَاعِلِ
«قَائِمٍ» أَي: الْبَالِغُ بِقِيَامِهِ بِتَدْبِيرِ كَوْنِهِ، وَتَصْرِيفِ أَحْدَاثِهِ بِحِكْمَتِهِ الْغَايَةِ
الْقُضْوَى.

القضية الثامنة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس:

﴿...وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾: أي: وقد خسر كل شيء من جاء يوم الدين حاملاً أوزار ظلم من دركة الكفر. إذ يكون قد خسر نفسه، وتسبب لها بالعذاب الأبدي بسبب كفره.

وأي خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه؟!

الغيبية: هي اللغة الخسران، وعدم تحقيق الساعي مطلوب نفسه من سعيه.

أما ظلم الإنسان نفسه من دون الكفر، فلا ينطبق عليه أنه قد خاب خيبة كاملة أبدية، بل يكون قد عرض نفسه لعذاب على مقدار معاصيه، ولخسارة من درجات الجنة التي استحقها من هم أكثر منه ارتقاء في درجات مرتبة التقوى، أو درجات مرتبة البر، أو درجات مرتبة الإحسان.

القضية التاسعة: دلّ عليها قول الله عز وجل في هذا الدرس: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾:

أي: ومن يكن مؤمناً صحيح الإيمان وصادقه، ويعمل بعض الصالحات، والحال أنه مؤمن فإنه يوم الدين لا يخاف ظُلماً ولا هضمًا.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾: أي: لا يخاف أن يحكم عليه بذنب لم يرتكبه، ولا يخاف أن يعذب على ذنب لم يرتكبه، لأن الله جلّ جلاله وعظم سلطانه - لا يظلم أحداً مثقال ذرة ولا أصغر منها.

﴿وَلَا هَضْمًا﴾: أي: ولا يخاف أن يقلل الله عز وجل من ثوابه الذي وعد به الساعين الذين يعملون الصالحات ابتغاء مرضاته، والقاضي بأن تكون الحسنة بعشر أمثالها، وقد يصل الثواب إلى سبعين ضعفاً، وإلى سبعمائة ضعف، فإلى أضعاف كثيرة.

يقال لغة: «هضم فلان حق فلان» أي: نقصه حقاً.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الرابع من دروس السورة، والحمد لله على منحه ومعونته وتوفيقه، سائلاً من فضله المزيد من فيض عطائه.



(٩)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (طه) وهو الآيتان (١١٣ و ١١٤)

قال الله عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝﴾

القراءات:

(١١٤) • قرأ يعقوب: [مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ] بضمير المتكلم العظيم. باعتبار أنه هو الأمر جلّ جلاله بالوحي إليه.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ] بالفعل الذي لم يُسمَّ فاعله. أي: على لسان جبريل عليه السلام المأمور بأن يُوجيَ إِلَيْكَ بالقرآن.

تمهيد:

لدى التفكير في ارتباط هذا الدرس بموضوع السورة نلاحظ ما يلي:

(١) بدأت السورة في الدرس الأول منها بالحديث عن القرآن في

قول الله عز وجل لرسوله:

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَّيَ ۖ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ۝﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝﴾

(٢) واشتَمَلَ الدَّرْسُ الثاني على مختاراتٍ من قصَّةِ مُوسَى عليه السَّلام، وفيها أحاديثٌ عن الآياتِ الكلاميةِ البيانيةِ الَّتِي أنزلها الله عليه، ممَّا اشتمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الله التَّوراة.

(٣) وجاء في بداية الدرس الثالث من دُرُوس السُّورة الحديث عن القرآن بوصفه ذِكْرًا، أي: لكلِّ العالمين، في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾.

وسبق أن عرفنا أنَّ الدَّرْسَ الرابع يكاد يكون مع الدرس الثالث درساً واحداً.

(٤) وجاء في هذا الدرس الخامس الحديث عن القرآن بوصفه عَرَبِيًّا، مشتملاً على أنواعٍ من بيانات الوعيد، رغبةً في أن يتَّقِيَ الْعَرَبُ عَذَابَ رَبِّهِم العادل، العاجِلَ مِنْهُ والآجل، أو يُحَدِّثَ لَهُمْ ذِكْرًا ما، ولو لم يَصِلُوا فِيهِ إلى درجات التقوى المطلوبة منهم.

وجاء فيه تعليم الرُّسُول مُحَمَّد ﷺ بأنَّ لَا يَعْجَلْ بِتَرْيِيدِ ما يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ أثناء الوحي، قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ جبريل عليه السَّلام من تلاوة كامل النِّجْمِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي يُوْحِي بِهِ إِلَيْهِ.

(٥) وجاء في الدرس السَّادِسِ الآتي بعدَ هذا الدَّرْسِ بيانُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ حَذَّرَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْذُ بَدْءِ التَّارِيخِ الأوَّلِ لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ، من الإغْرَاضِ عن ذكره، أي: عَمَّا يُنْزِلُ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيَهْتَدُوا بِهَا، وَيَعْمَلُوا بما جاء فيها من أوامره ونواهيه.

(٦) وجاء في الدرس الأخير من دروس السورة الحديث عن آيات الله الْبَيَانِيَّةِ الْمَنْزَلَةِ، في مَغْرِضِ مَعَالِجَةِ الْمُشْرِكِينَ، بِشَأْنِ ما طرَّحوه من مطالب.

فحُطِّ الحديث عن القرآن كتابِ الله الخاتم، وما أنزله الله من آياتٍ بيانيةٍ على رُسُلِهِ قَبْلَ القرآن، لتكون ذكراً للناسِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ، حُطُّ مُتَّصِلٌ من ابتداء السورة، فمُروراً بِدُرُوسِهَا، وَحَتَّى الدرس الأخير منها.

وهذا يُكْشِفُ للمتدبر غُضْرًا مِنْ عناصرٍ وَحْدَةً مَوْضُوعَ السورة.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ﴾ (١١٣)

في هذه الآية بيان ثلاث قضايا:

القضية الأولى: دلّ عليها قولُ الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذه الجملة معطوفة على قول الله عز وجل في الآية (٩٩): ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾ (٩٩).

أي: ومثل ذلك الذي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ في القرآن من أنباء ما قَدْ سَبَقَ في التاريخ الإنساني، وهي قِصَّةُ مُوسَى التي جاءت في السورة، أنزلنا القرآنَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا معجزاً، بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَلَمْ نُنْزِلْهُ بِلِسَانٍ أَعْجَمِي.

ولما في القرآن من حقٍّ وهدايةٍ وإعجاز، جاء التعبيرُ في الجُمْلَةِ بِضَمِيرِ المتكلمِ العظيم، ذي البيان العظيم.

القضية الثانية: دلّ عليها قولُ الله عز وجل: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾:

التصريف: يأتي في اللَّغَةِ بِمعْنَى التَّنَوُّعِ والتَّغْيِيرِ، واتَّخَذَ مُخْتَلِفٍ الوجوه المتاحة، للوصول إلى الغاية.

﴿فِيهِ﴾: أي: في آيات القرآن المجيد وبياناته.

﴿مِنْ﴾ بيانية، أي: وصَرَّفْنَا في القرآن تَصْرِيْفًا مِنْ نَوْعِ الوعيد.

﴿الْوَعِيدِ﴾: هو الإنذار بالعاقبة السيئة المؤلمة، جزاء عَلَى فعل الْعَمَلِ

السَّيِّءِ الذي نهى الله عنه، أو عَلَى تَرْكِ العمل الصالح الذي أَمَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ به أَمْرًا إيجاباً.

وجاءت العبارة بضمير المتكلم العظيم لتربية المهابة من وعيده جلَّ جلالُهُ.

أي: ونَوَعَّنَا في القرآن عبارات الوعيد، وأسَالِبَ الإنذار بالعذاب

الآليم، العاجل والآجل، عَلَى الْكُفْرِ بالله وبما جاء مِنْ عند الله، وَعَلَى مَعْصِيَةِ الله فيما أَمَرَ به، أو نهى عنه.

هذا التصريف في الوعيد الموجود في القرآن الكريم، يُدْرِكُهُ من يَتْلُو

أو يقرأ آياته وسُورَه، مع قليلٍ من التدبُّر، إذ معظم سُور القرآن مشتملة على صُورَةٍ أو أَكْثَرَ مِنْ صُورِ الوعيدِ المخيف بعذابٍ أليم.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قولَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ

لَهُمْ ذِكْرًا﴾: أي: لَعَلَّ الْعَرَبَ يَتَّقُونَ عذاب الله الذي جاء به الوعيد،

بِالإيمان وَالْعَمَلِ الصالح، إِذْ أُنْزِلَ اللهُ الْقُرْآنَ بِلِسَانِهِمْ، فهو وَاضِحُ الدَّلَالَةِ

بِالنَّسَبَةِ إِلَيْهِمْ، وَوَاضِحُ الإعجاز لإقناعهم بَأَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ

العالمين، مَعَ ما فِيهِ مِنْ تَشْرِيفٍ وَذِكْرِ حَسَنِ لَهُمْ إِذْ أُنْزِلَهُ بِلِسَانِهِمْ.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾: كلمة «لَعَلَّ» حَرْفٌ يَعْمَلُ عَمَلٌ: «إِنَّ» وَمَعْنَاهَا التَّوَقُّعُ بوجه

عام.

فإذا كان المتوقعُ أَمْرًا مَرْغُوبًا فِيهِ، أو مَرْضِيًّا عَنْهُ، كانت للتَّرَجِّي.

وإذا كان المتوقعُ أَمْرًا غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أو غَيْرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ، كانت

لِلإشْفَاق.

وقد تأتي كلمة «لَعَلَّ» للتعليل كما يقول النحاة، فتكون مثل «لَامِ» التعليل، نحو: آتينا غداً لنا لعلنا نُسكتُ به جوعنا ونُقوي به قُدرتنا على السفر.

أقول: وحينما تكون «لَعَلَّ» للتوقع، وجاء هذا التوقع منسوباً إلى الله عز وجل في النص، فإن المراد به لازمه، أي:

- فإذا كان المتوقع مرغوباً فيه أو مرصياً عنه، فإن المراد الدلالة على أن الله عز وجل يرغب في تحقق الأمر، أو يرضى عنه، لكنه سبحانه لا يجبر، بمعنى أنه لا يسلب المخيرين لامتحانهم اختيارهم الحر، الذي هو شرط عقلي لوضعهم في الحياة الدنيا مُمتَحِنين مُبْتَلِينَ.

- وإذا كان المتوقع أمراً غير مرغوب فيه، أو غير مرصى عنه، فإن المراد أن الله عز وجل يشفق على من اكتسبه، لكنه سبحانه لا يجبر أيضاً.

وهذا من إطلاق الملزوم وإرادة لازمه، وهو كثير في الاستعمالات العربية، والاستعمالات القرآنية، وهو من المجاز المرسل.

وبهذا ينحل الإشكال الذي شغل المفسرين في تأويل معنى «لَعَلَّ» التي هي للتوقع، أو للترجي كما يقولون، إذ ليس من شأن الله سبحانه أن يتوقع أو يترجى، وهو العليم بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون في المستقبل القريب، أو المستقبل البعيد.

فالمعنى الذي تدل عليه العبارة القرآنية ﴿لَعَلَّهُمْ يَقْنُونَ﴾ مع سابقتها: وصرفنا في القرآن من الوعيد، راغبين أو راضين لهم أن يتقوا ليحُموا أنفسهم من عذابنا الذي تقتضيه صفة العدل.

ومعلوم من النصوص القرآنية أن الله عز وجل يرضى لعباده أن يؤمنوا ويعملوا صالحاً، ولا يرضى لهم أن يكفروا ويعملوا أعمالاً تُسخطه، فيجازيهم بَعْدَله.

﴿... أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: أي: فإذا لم يَتَّقُوا مُبَاشَرَةَ تَأْثُرٍ بما صَرَّفْنَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْوَعِيدِ، فَإِنَّهُ يُرْضِينَا أَنْ يُحْدِثَ لَهُمْ ذِكْرًا، بِتِلَاوَتِهِ عَلَيْهِمْ، أَوْ بِإِسْمَاعِهِمْ آيَاتِهِ.

والمعنى: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ مَعْرِفَةً تَسْرِبُ إِلَى أَجْهَزَةِ تَخْزِينِ الْمَعَارِفِ دَاخِلِ نَفُوسِهِمْ، ثُمَّ قَدْ تُسْتَدْعَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ عِنْدَ مَنَاسِبَةٍ دَاعِيَةٍ، أَوْ مُثِيرٍ مَا، مِنْ خِزَانَتِهَا إِلَى سَاحَةِ الذِّكْرِ لَهَا، فِي جِهَازِ التَّذَكُّرِ الْحَاضِرِ، فَيَكُونُ لِهَذَا الذِّكْرِ أَثَرٌ حَسَنٌ فِي نَفُوسِهِمْ، إِذَا خَلَّتْ نَفُوسُهُمْ مِنَ الرَّفْضِ الَّذِي كَانَ عِنْدَ أَوَّلِ تَلْقَى الْمَعْرِفَةِ، وَمِنْ مُعَارِضٍ قَوِيٍّ يَمْنَعُ مِنَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، كَهَوَىِّ غَالِبٍ، وَكِبَرِ حَاجِبٍ، وَشَهْوَةِ عَارِمَةٍ، وَتَقْلِيدِ أَعْمَى، وَعَصِيَّةٍ ضَارِبَةٍ جَذُورَهَا فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ.

فَذَكَرَ هُدَى الدِّيَانِ، عِنْدَ خُلُوءِ النَّفْسِ مِنَ الْمُعَارِضِ أَوْ ضَعْفِهِ، يَدْفَعُ الْإِرَادَةَ إِلَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يُرْضِي الرَّحْمَنَ.

هَذَا أَثَرُ الْبَيَانِ الَّذِي قَدْ يُحْدِثُ ذِكْرًا فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي، فَلْيَنْتَفِعْ مِنْ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ عُلَمَاءُ النَّفْسِ.

أُطْلِقَ فِي الْعِبَارَةِ لَفْظَ «ذِكْرًا» وَطُوي فِي دَاخِلِهِ حَلَقَاتُ السَّلْسِلَةِ السَّبَبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَهُ، وَقَدْ تُؤَدِّي إِلَيْهِ، مَا لَمْ يُوجَدَ لَهَا صَارْفٌ أَوْ مُعَارِضٌ.

قول الله عز وجل:

﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ...﴾: ﴿١١٤﴾

الداعي لهذا البيان عن الله عز وجل ما في سوابقه من بيانات عن عظيم قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي كَوْنِهِ، وَجَلِيلِ حِكْمَتِهِ فِي تَرَاتِيْبِ جَزْءَاتِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَدْرِ هَذَا الْبَيَانِ الْعُطْفُ بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّرْتِيبِ التَّفْرِيعِيِّ.

﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾: أي: فَتَسَامَى اللهُ في اتجاه العُلُوِّ عَنْ كُلِّ الْأَكْوَانِ، تسامياً لَا حُدُودَ لَهُ، وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، فَهُوَ مُتَرَفِّعٌ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَمُنَزَّهٌ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى شَيْءٍ مَا، لِذَاتِهِ أَوْ لَصِفَاتِهِ.

﴿الْمَلِكُ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، مَعْنَاهُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ، وَالْمَتَصَرِّفُ فِي عِبَادِهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْخَلْقُ، وَالْإِبْتِلَاءُ وَالْجَزَاءُ، وَكُلُّ شَيْءٍ.

﴿الْحَقُّ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، أي: ذُو الْوُجُودِ الثَّابِتِ الْحَقِّ، أَزْلًا بِلَا بَدَايَةٍ، وَأَبْدًا بِلَا نِهَايَةٍ.

الْحَقُّ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْأَمْرُ الثَّابِتُ الْوَاجِبُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَهُوَ ضِدُّ الْبَاطِلِ.

ومعنى كَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْحَقُّ، أَنَّهُ هُوَ الْمَتَحَقِّقُ الثَّابِتُ وَجُودُهُ أَزْلًا بِلَا بَدَايَةٍ، وَأَبْدًا بِلَا نِهَايَةٍ، الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ، وَلَا يَتَنَاقَصُ، وَلَا يَعْزِضُ لِذَاتِهِ شَيْءٌ، وَكُلُّ مَا عَدَاهُ مِنْ مَوْجُودَاتٍ فَهِيَ قَدْ وُجِدَتْ بِإِيجَادِهِ لَهَا، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ عَدَمٌ وَبَاطِلٌ، لَيْسَ لَهَا فِي الْوَاقِعِ وَجُودٌ، لَوْلَا أَنَّ قَدَرَ اللَّهُ وَقَضَى إِيْجَادَهَا، وَأَوْجَدَهَا خَلْقًا بِأَوَامِرِ التَّكْوِينِ.

وذكرُ أسماءِ اللَّهِ وصفاته في الْمَوَاقِعِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا، هُوَ مِنْ رَبِّطِ الْفُرُوعِ بِالْأَصُولِ، وَالْجُزْئِيَّاتِ الْكُونِيَّةِ بِعُنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، إِذْ هِيَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِهَا، وَمَظَاهِرُ كُونِيَّةٍ لَصِفَاتِ اللَّهِ الْمُؤَثَّرَةِ فِي إِيْجَادِهَا، وَفِي التَّصَارِيفِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا.

قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي

هذه الآية مُلَحَقَةٌ بهذا الدرس، وقد استدعى إلحاقها به أمران:

الأمر الأول: الحديث عن القرآن في الآية السابقة (١١٣).

الأمر الثاني: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عند تنزيل النجم الذي كَانَ يُوحى به إِلَيْهِ جبريلُ عليه السَّلام، وهو سوابق هذه الآية، صَارَ يَعَجَلُ بِتِلَاوَةِ مَا تَلَقَّاهُ مِنَ الْآيَاتِ لِيَحْفَظَهَا، قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ جبريلُ النجمَ الذي كَانَ يُوحى به إِلَيْهِ. فاقترضى الحال أَن يُعَلِّمَ اللهَ رَسُوْلَهُ أَدَبَ التَّلَقِّيِّ والاستِماعِ مِنَ الْوَحْيِ، وَهُوَ أَن يَنْتَظِرَ فَرَاغَ جبريلَ مِنْ إِمْلَاءِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ لِيُكْمِلِيَهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا انْتَهَى مِنْ إِمْلَاءِ النَّجْمِ كَانَ لِلرَّسُولِ أَنْ يَشْرَعَ بِتِلَاوَةِ مَا تَلَقَّاهُ مِنَ الْوَحْيِ.

وقد سَبَقَ أَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ التَّعْلِيمُ بِأَنْ لَا يُحَرِّكَ بِالْقُرْآنِ لِسَانَهُ لِيَعَجَلَ بِهِ، فِي الْآيَاتِ مِنْ (١٦ - ١٩) مِنْ سُورَةِ (الْقِيَامَةِ/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِيهَا:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ (١٦) (١٧) (١٨) (١٩)

فالتزم الرسول ﷺ بهذا التعليم امتثالاً لما جَاءَ فِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا صَارَتْ نَجُومُ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ تَنْزِلُ عَلَيْهِ أَطْوَلَ مِمَّا كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى مَا يَظْهَرُ، انْدَفَعَتْ نَفْسُهُ بِحَرَكَةٍ تَلْقَائِيَّةٍ دُونَ مِلَاحِظَةٍ لِلتَّعْلِيمِ السَّابِقِ، فَصَارَ يَتَعَجَّلُ بِتِلَاوَةِ مَا يُوحى إِلَيْهِ بِهِ جبريلُ عليه السَّلام، وَرَبَّمَا ظَنَّ أَنَّ النجمَ قَدْ تَمَّ إِمْلَاؤُهُ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ عِقَبَ التَّعَجُّلِ قَوْلَهُ:

﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤)

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُوْلَهُ فِي هَذَا الْبَيَانِ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ جبريلَ قَدْ أَنْهَى كَامِلَ النَّجْمِ الَّذِي يُوحى بِهِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ فَرَّغَ مِنْ تَلْقِينِهِ إِيَّاهُ تَمَامًا.

وفي إثبات هذا في القرآن دَلِيلٌ على أَنَّ القرآنَ لَيْسَ من كلام محمد، بل هو تنزيل من عند الله، فلو كان من عنده لما وَجَّهَ لنفسه النَّهْيَ عَنِ التَّعَجُّلِ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى إِلَيْهِ وَحْيُهُ.

﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾: أي: وَلَا تُسْرِعْ بتلاوة الآيات التي تَتَلَقَّاهَا مِنْ جِبْرِيلَ، وهو يُوحي إِلَيْكَ بالنَّجْمِ القرآني الَّذي أَمَرْنَاهُ بِأَنْ يُبَلِّغَكَ إِيَّاهُ. يقال لغة: «عَجَلَ، يَعْجَلُ، عَجَلاً، وَعَجَلَةً» أي: أَسْرَعَ، وفَعَلَ الشيءَ قَبْلَ الوَقْتِ الملائم لِفِعْلهِ.

﴿بِالْقُرْآنِ﴾: أي: بتلاوة آيات القرآن التي يُوحِي بها إِلَيْكَ رَسُولُ رَبِّكَ جبريل.

لفظ «القرآن» هو في الأصل مُضَدَّرٌ لِفِعْلٍ «قَرَأَ». يقال لغة: «قَرَأَ الكتابَ، يَقْرُؤُهُ، قِرَاءَةً، وَقُرْآنًا» أي: تَتَبَعَ كلماته نظراً، ونَطَقَ بها. وأُطْلِقَ في الاصطلاح الديني على الكلام المنزَّل من عند الله عزَّ وجلَّ، على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

وبعد الانتهاء من تنزيله، وَجِّعَهُ في عهد أبي بكر، وكتابه في المصاحف في عهد عثمان، وتوزيعها على الأقاليم الإسلامية الكبرى حينئذٍ، صار يُطْلَقُ لفظ القرآن على الآيات والسُور المكتوبة في هذه المصاحف، وعلى ما كان مطابقاً لها مَكْتُوباً أو مَتْلُوً، بالإضافة إلى التواتر في النَّقْلِ عن الحُفَظ.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْهَى إِلَيْكَ وَحْيُ النجم على لِسَانِ أمينِ الوحي جبريل عليه السَّلام. يقال لغة: «قَضَى إِلَيْهِ أَمْرُهُ» أي: أَنْهَاهُ إِلَيْهِ.

الْوَحْي: يَدُلُّ في اللُّغة على «الإشارة السريعة - والإلهام - والكلام السَّريع الخفي - وإلقاء المعنى في القلب - والكتاب».

والوحي للأنبياء والرسل: ظاهرة معروفة في تاريخ النبوات والرسالات، وهو الإعلام السريع الخفي، الذي يقوم به رسول الوحي من الملائكة بلاغاً عن رب العالمين.

وقد سبق أن طمأن الله عز وجل رسوله بأنه سيفرغه، ويجعله بقضائه وقدره لا ينسى، فقال له في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سُقِرْتُكَ فَلَا تَنسَ ۚ ۝١٦١ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝١٦٢﴾

ومن شأن هذا البيان أن يستسلم الرسول ﷺ لربه استسلاماً كاملاً، إلا أن بشريته قد تنزع في داخله أن يكون حريصاً على تلقي العلم الرباني، فيعجل بتلاوة ما يوحي به إليه، حرصاً على اكتساب العلم. فنهاه الله عن التعجل، وأمره بأن يطلب من ربه أن يزيده علماً، لئلا يتوهم من نهيه عن التعجل، أن المراد كفه عن الاندفاع بحرص للاستزادة من العلم، ولما كانت الاستزادة من العلم فضيلة عظيمة، كان من الواجب عليه أن يسأل ربه دواماً، أن يزيده علماً فجاء في ختام الآية قول الله عز وجل له:

﴿... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١٦٣﴾

وبهذا انتهى تدبر الدرس الخامس على ما فتح الله به، والحمد لله على منته، ومعونته، وفضله.



(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (طه)
وهو الآيات من (١١٥ - ١٢٧)

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَنقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ

لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءُ تُهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْنَبْتُهُ رَبُّهُ فَأَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ .

القراءات:

(١١٦) • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بضّم التاء مراعاة لضّم جيم «اسجدوا».

وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بكسر التاء على الأصل.

(١١٩) • قرأ نافع، وشعبة: [وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ] بكسر همزة «إنّ» عطفاً على: [إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ] عطفاً على «أن» من [أَلَّا تَجُوعَ] ألا: هي «أن لا» أَدْغَمَتِ النون باللام فصارتَ لاماً مُشَدَّدةً، ورُسِمَتْ في الكتابة «ألاً» مراعاةً للنطق.

(١٢٥) • قرأ نافع، وأبْنُ كثير، وأبو جعفر: [حَشَرْتَنِي أَعْمَى] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [حَشَرْتَنِي أَعْمَى] بإسكان الياء مع مدّ الياء مدّاً منفصلاً في الوصل.

تمهيد:

سَبَقَ فِي الْمَلْحَقِ الرَّابِعِ لَتَدْبُرُ سُورَةَ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تَدْبُرُ النُّصُوصَ الْقِرَائِيَّةَ الَّتِي جَاءَ فِيهَا لِقَطَاتٌ مُتَفَرِّقَاتٌ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ آدَمَ وَمَا رَافَقَهُ مِنْ أَحْدَاثٍ، ضَمَّنَ تَدْبِيرَ تَكَامُلِيٍّ. وَظَهَرَ لَنَا أَنَّ النُّصُوصَ الْمَتَفَرِّقَةَ تَتَدَاخَلُ فِيمَا بَيْنَهَا تَدَاخُلًا تَكَامُلِيًّا، كَتَشْيِيقِ أَصَابِعِ عَدَدٍ مِنَ الْأَيْدِي بِمَقْدَارِ عَدَدِ النُّصُوصِ، تَشَابُكًا تَكَامُلِيًّا، وَبِتَشَابُكِهَا جَمِيعًا تَكْتَمِلُ الْقِصَّةُ الْمَرَادُ بَيَانُهَا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَهَذَا النَّصُّ الْوَاردُ فِي هَذَا الدَّرْسِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (طه) وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ، وَلِهَذَا فَإِنِّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى تَدْبِيرِ فِقَرَاتِ هَذَا الدَّرْسِ، دُونَ بَسْطِ النَّظَرَةِ التَّكَامُلِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النُّصُوصِ الْآخَرَى الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَا جَاءَ فِيهِ، وَأَقْتَصِرُ عَلَى مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ.

وَصِلَةُ هَذَا الدَّرْسِ بِمَا سَبَقَهُ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ بَيَانِ وَجُوبِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا يُنْزَلُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ ذِكْرٍ، لِيَعْمَلُوا بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِذْ يَحْمِلُ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَرَأً، مَعَ بَيَانِ أُمُثْلَةِ تَارِيخِيَّةٍ تَتَضَمَّنُ أَنَّ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَهُمْ، عَوْقَبُوا عِقَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدَّ وَأَبْقَى.

وَمِنَ الْأُمُثْلَةِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا فِي السُّورَةِ، مَا نَزَلَ بِفِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ وَجُنُودِهِمْ، بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَا نَزَلَ بِجُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ، إِذْ أَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَهُمْ، بِاتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ، وَمَا نَزَلَ بِالسَّامِرِيِّ، مِنْ عِقَابِ رَبَّانِيٍّ.

وَفِي هَذَا الدَّرْسِ السَّادِسِ إِلِمَاحٌ إِلَى عِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ إِذْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْمَتَضَمَّنِ أَمْرَهُ لَهُ بِأَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ، وَإِلِمَاحٌ إِلَى

إخراج الله آدم وزوجه من الجنة وإهباطهما إلى الأرض، إذ أَعْرَضَا عن ذكرِ الله لَهُمَا، المتضمّن نهيهُما عن أَنْ يَأْكُلَا من الشجرة المعيّنة لامتحانهما في الجنة. وتَضَرِيحٌ بِشِدَّةِ سَبَقِ أَنْ وَجَّهَ لَذُرِّيَّةِ آدَمَ، وفيه تحذيرٌ شَدِيدٌ لَهُم من الإِعْرَاضِ عَنِ ذِكْرِ الله.

فَخُطُّ وَجُوبِ المَحَافَظَةِ عَلَى مَا يُنْزِلُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنْ ذِكْرٍ، وَلَوْ كَانَ آيَةً وَاحِدَةً قَصِيرَةً، وَعَدَمِ الإِعْرَاضِ عَنْهُ، خُطُّ مُمْتَدٍّ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ، وَمَارٌّ عَبْرَ دُرُوسِهَا حَتَّى الدَّرْسِ الْأَخِيرِ مِنْهَا.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً ۝١١٥﴾ :

هذه الآية من قصة آدم عليه السلام في هذا الدرس معطوفة على اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ فِي الدَّرْسِ الثَّانِي مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ.

وفي هذا العطف أيضاً معنى اشتراك بعض ما تَضَمَّنَتْهُ قِصَّةُ آدَمَ هُنَا، وَبَعْضُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدُّرُوسُ السَّابِقَةُ فِي السُّورَةِ، مِنْ التَّنْهِيِ عَنِ الإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ.

وجاء في آخر هذه اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ بَيَانُ جَزَاءِ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ لَذُرِّيَّةِ آدَمَ الْأَوَّلِينَ.
فَاكْتَمَلَتْ وَشَائِعُ الرِّبْطِ بَيْنَ دُرُوسِ السُّورَةِ.

وجاء التوكيد هنا بحرف التحقيق «قَدْ» وبالألف التي يُعْرَبُهَا بَعْضُ الْمُعَرِّبِينَ بِأَنَّهَا مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، كَالْألفِ فِي «لَيْنٍ» والغرض من هذا التوكيد مراعاة أحوالِ المَرَادِ تَحْذِيرُهُمْ مِنَ الإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، إِذْ أَحْوَالُ

معظم هؤلاء تحتاج إلى مؤكّدات، فَهُمْ مُعْرِضُونَ فِعْلًا، وَغَيْرُ مُسْلِمِينَ بَأْنَ
عقاب الله سينزل بهم إذا اسْتَمَرُّوا على إعراضهم، فَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى أُمْتِلَةِ
تاريخية مُؤكّدة، تَتَضَمَّنُ عِقَابَ الله الشَّدِيدَ للمعرضين عن ذكر رَبِّهِمْ.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾:

العَهْدُ: «الوصية، ورعاية الحُرمة، وكلُّ ما أمر الله به أو نهى عنه».

والعَهْدُ بَيْنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَ عباده المكلفين الموضوعين في الحياة
الدنيا موضع الابتلاء، هو أَنْ يَعْْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا، وَأَنْ
يجازيَهُمْ بالفضل إذا آمنوا وَعَمِلُوا الصالحات خالدين في جنّات النعيم،
وَأَنْ يجازيَهُم بِالْعَدْلِ إذا أَعْرَضُوا عن الذِّكْرِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ،
فالكافرون يُعَذَّبُونَ في النار يوم الدين خالدين فيها أَبَدًا، وَالْعَصَاةُ مَعَ إِيْمَانٍ
صَحِيحٍ يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْعَذَابِ على مقادير مَعَاصِيهِمْ، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ بِإِيْمَانِهِمْ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ كُلِّ مَنْ عَهِدَ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَشَرِ.

ولدى التفكّر في الْعَهْدِ الَّذِي أُبْلَغَهُ اللهُ إِلَى آدَمَ عَقِبَ خَلْقِهِ لَا نَجِدُ

غير مَجَالَيْنِ:

المَجَالُ الْأَوَّلُ: مَجَالُ الْعِلْمِ، وَالْعَهْدُ فِي هَذَا الْمَجَالِ يَكُونُ بِتَكْلِيفِهِ
أَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ، إِذْ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ مَا عَرَضَهُمْ عَلَى
الملائكة، أَي: عَلَّمَهُ صِفَاتِهِمْ وَالْأَلْفَاظَ الْكَلَامِيَّةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ.

وَلَمَّا ظَهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْهِمْ فِي مَبَارَاةِ الْمَعْرِفَةِ، أَمَرَهُمُ بِالسُّجُودِ لَهُ سُجُودَ
احترامٍ وَتَكْرِيمٍ، تَنْفِيذًا لِمَا كَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهِ بِقَوْلِهِ لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي
سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾

فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَاجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣١﴾.

ومحافظته على ما عَلَّمَهُ رَبُّهُ تَكُونُ باستذكارِهِ أَنَا فَنَآ حَتَّى لَا يُمَسَّحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ، لَكِنَّ آدَمَ تَرَكَ اسْتِذْكَارَ مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذَا التَّرْكِ بُمُقْتَضَى سُنَّةِ اللهِ فِي النَّاسِ أَنْ يُمَسَّحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ كَثِيرٌ مِنْهُ.

أصل معنى «النَّسْيَان» التَّرْكَ، ويتولَّدُ عَنْهُ فِي سُنَّةِ اللهِ «النَّسْيَانُ» بِمَعْنَى الْمَسْحِ مِنَ الذَّاكِرَةِ.

هذا الأَمْرُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فَتَرَكَ المحافظةَ عَلَى مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَمُسَّحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهُ، وبهذا نُذِرُكَ أَنَّ عِبَارَةَ «فَنَسِيَ» اسْتُعْمِلَتْ بِمَعْنَى التَّرْكِ وبمعنى الْمَسْحِ مِنَ الذَّاكِرَةِ، لِلْعِلْمِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ.

المَجَالُ الثَّانِي: مَجَالُ السُّلُوكِ، وَعَهْدُ اللهِ لِآدَمَ فِي هَذَا الْمَجَالِ قَدْ كَانَ بِتَكْلِيفِهِ أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي ابْتَلَاهُ اللهُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا، إِذْ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ وَأَدْخَلَ زَوْجَهُ إِدْخَالَ امْتِحَانٍ لَا إِدْخَالَ جَزَاءٍ.

لَكِنَّ آدَمَ سَقَطَ فِي الْامْتِحَانِ، إِذْ اسْتَجَابَ لَوْسَاوَسِ إبْلِيسَ الشَّيْطَانِ، وَانْخَدَعَ بِإِغْرَاءَاتِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ.

وَذَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ إبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ، قَدْ اتَّخَذَ مُخْتَلَفَ الْوَسَائِلِ الْإِغْرَائِيَّةِ، حَتَّى دَلَّاهُ وَزَوَّجَهُ فِي بَثْرِ الْمَعْصِيَةِ شَيْئاً فَشِئاً، إِلَى أَنْ أَوْصَلَهُمَا إِلَى التَّجَرُّؤِ عَلَى الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمَا فِي امْتِحَانِهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا، فَلَمَّا ذَاقَاهَا بَدَتْ لَهُمَا سَوَاءُ اثْنُهُمَا الْجَسَدِيَّةِ، وَانْكَشَفَتْ سَوَاءُ اثْنُهُمَا النَّفْسِيَّةِ، فَغَوَى آدَمُ وَغَوَتْ زَوْجُهُ، بِالْمَعْصِيَةِ لِقَاءَ عَزِّ وَجَلِّ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ (١٢١) مِنْ هَذَا النَّصِّ، الَّذِي نَتَدَبَّرُهُ: ﴿... وَصَعَى آدَمُ رَبُّهُ فَعَوَّى ﴿١٢١﴾﴾.

وَذَلَّتِ مَعْصِيَةُ آدَمَ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَحْرَمَةِ تَأْثِراً بِوَسَاوَسِ إبْلِيسَ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَا عَزْمٍ.

العزم: الإرادة القويّة التي لا تستجيب لمؤثرات أشدّ المغريات، ولا تضعف مع المصائب الكبرى، التي تحتاج إلى صبرٍ عظيم.

ولم يكن آدم حين معصيته نبياً مغضوماً، لكنّه هو وزوجه اعترفاً بمعصيتهما، واستغفرا من ذنبيهما، وتابا إلى بارئهما.

وبعد حين اجتبى الله آدم فجعله نبياً ورسولاً إلى ذريّته.

والتكليف في هذا المجال هو ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي: لم نجد له إرادة قويّة لا تستجيب للمغريات، ولا تضعف أمام المصائب الشديدة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

أي: وضع في ذاكرتك أيّها المتلقّي لبياننا هذا الحدث الذي جرى في وقت قولنا للملائكة اسجدوا لآدم.

وقد علمنا من جمع النصوص، ومن النظر إلى التكامل فيما بينها أنّ هذا الحدث جرى بعد المباراة بالعلم، التي أجراها الله عزّ وجلّ بين الملائكة وبين آدم، وتفوق فيها آدم إذ سبق أن علّمه الله الأسماء كلّها، أي: الصفات، والألفاظ الدالة على المعروضات على الملائكة.

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: السجود: هو في اللغة إخناء الظهر، والتطامن، وغايته تكون بوضع الجبهة على الأرض. وهو في الاصطلاح الشرعي، يكون بوضع الجبهة على الأرض مع الكفين والركبتين والقدمين.

وهذا السجود الذي أمرت به الملائكة، وأمر به إبليس المندس فيهم نفاقاً، هو سجود احترام وتكريم، لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾: أي: فسجد الملائكة كلّهم أجمعون ما

جاء في نصّ سورة (ص). أمّا إبليس فلم يكن من الملائكة، لكنّ الأمر بالسُّجود لآدم قد كان مُوجَّهاً له أيضاً، إذ كان مُندساً فيهم كواحد منهم، وشاءت حِكْمَةُ الله أَنْ يَكْشِفَ نفاقَهُ، فلمْ يَسْجُدْ مع الملائكة كما سجدوا، بل أبى أَنْ يَسْجُدَ بعنادٍ وإصرارٍ واستكبار.

«أَبَى»: أي: «رَفَضَ، وَكَرِهَ، وَلَمْ يَرْضَ، وَاسْتَعْصَى». يقال لغة: «أَبَى عَلَيَّ، يَأْبَى، إِبَاءً، وَإِبَاءَةً». وكلُّ معاني «أَبَى» مُنْطَبِقَةٌ عَلَى إبليس، وَدَلَّتْ مُحَاكَمَةُ الله لَهُ عَلَى إِصراره، وعناده، وَشِدَّةِ رَفْضِهِ، وَكُفْرِهِ بِالْهِيَةِ الله مع إيمانه بِرُبُوبِيَّتِهِ.

قول الله عز وجل:

﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۖ﴾

دَلَّتْ الفاء الَّتِي هِيَ فِي اللُّغَةِ لِلتَّرْتِيبِ مع التعقيب، عَلَى أَنَّ قول الله عز وجل: ﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ﴾ قد كان عَقِبَ إِبَاءِ إبليس وإصراره بعنادٍ شديد، أَنَّ يُطِيعَ الله فِي السُّجود لآدم، أَوْ يَسْتَغْفِرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

ولا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ هَذَا الإِبَاءَ يُرَادُ بِهِ الإِبَاءُ الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ إبليس، بَعْدَ آخِرِ جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسَاتِ مُحَاكَمَةِ الله لَهُ، وَالَّذِي اسْتَقَرَّ بِنَاءً عَلَيْهِ حُكْمُ الله عَلَيْهِ بِالْإِخْرَاجِ وَالْإِهْبَاطِ وَالْقَرْدِ، وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ بِاللَّعْنَةِ الدَّائِمَةِ، وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ بِأَنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُهُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً، عَلَى مَقْدَارِ وَفَرَةٍ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ وَأَنْوَاعِ طُغْيَانِهِمْ.

لَقَدْ حَذَّرَ الله عز وجل آدم وزوجَهُ الَّتِي اسْتَقَرَّ مِنْ ضَلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ، مِنْ مَكَايِدِ إبليس، وَأَبَانَ لآدَمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُ وَلِزَوْجِهِ، لِأَنَّهَا فِي تَكْوِينِهَا جِزْءٌ مُسْتَخْرِجٌ مِنْهُ، فَعَدَاوَةُ إبليس لَهُ تَسْرِي إِلَى زَوْجِهِ، وَفِي بَعْضِ النُّصُوصِ الْآخَرَى، أَبَانَ اللهُ عز وجل عَدَاوَةَ إبليس لآدم وَلِكُلِّ ذُرِّيَّتِهِ.

وظَاهِرٌ أَنَّ الْعَدُوَّ الَّذِي كَانَتْ عَدَاوَتُهُ بِسَبَبِ أُمُورٍ أَفْضَتْ بِهِ إِلَى

الْعَذَابِ الْخَالِدِ فِي الْجَحِيمِ، لَا يُرِيدُ بِعَذْوِهِ إِلَّا السُّوءَ وَالشَّرَّ، والمصير الأبدي في العذاب، لينال مثل عذابه، أو أشد من عذابه.

﴿... فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَى﴾ (١١٧):

يَدُلُّ هذا البيان على وجود مطويٍّ مَحْذُوفٍ، وهو أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَ آدَمَ أَنْ يُدْخِلَهُ وَزَوْجَهُ الْجَنَّةَ دُخُولَ ابْتِلَاءٍ، لا دخول جزاءٍ وبقاء، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرَ المحذوف بنحو ما يلي:

وَقُلْنَا: يَا آدَمُ سَنُدْخِلُكَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ دُخُولَ امْتِحَانٍ وَابْتِلَاءٍ، فَإِذَا دَخَلْتُمَا فِيهَا فَلَا تُمَكِّنَا إِبْلِيسَ مِنْ إِغْوَائِكُمَا، وَإِقَاعِكُمَا فِي مَعْصِيَةِ رَبِّكُمَا، فَيَتَسَبَّبَ فِي إِخْرَاجِكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ عُقُوبَةً لَكُمَا، وَعِنْدَئِذٍ تَتَعَرَّضُ يَا آدَمَ لِتَحْمُلِ الشَّقَاءِ وَمَتَاعِهِ فِي الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، أَي: وَتَتَحَمَّلُ زَوْجَكَ وَذُرِّيَّتَكُمَا فِيهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

وفي هذا إعلَامٌ ضَمْنِيٌّ: بِأَنَّ مَعْصِيَتَهُمَا لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ مُمْتَحَنَانِ، عِقَابُهُ الْإِخْرَاجُ مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ.

الشَّقَاءُ: يُظَلَّقُ عَلَى كُلِّ مَا لَا يَسُرُّ الْإِنْسَانَ مِنْ أُمُورٍ، وَعَلَى مَا يُخَالِفُ رَغْبَتَهُ وَمَطْلُوبَهُ، مِنْ أَدْنَى الْمَكَارِهِ إِلَى أَشَدِّ الْمُؤَلِمَاتِ.

والمَرَادُ بالشَّقَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ، مَا فِيهَا مِنْ مَتَاعٍ الْكَدِّ وَالْكَذْحِ فِي الْعَمَلِ لَاكِتِسَابِ الرِّزْقِ، وَمَا فِيهَا مِنْ مَتَاعٍ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ، وَتَحْمُلِ مَكَارِهِ الْقَلْقِ وَالْخَوْفِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا كَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْمَسْئُولُ الْأَوَّلُ عَنْ كَسْبِ رِزْقِهِ وَرِزْقِ أُسْرَتِهِ عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خُطَاباً لِآدَمَ: ﴿فَتَشَقَى﴾ وَلَمْ يَقُلْ لَهُ فَتَشَقَّى، أَي: فَتُسْطَظَرُ لِأَنَّ تَكُونَ الْأَكْثَرَ تَحْمُلاً لِعَنَاءِ الْكَدِّ وَالْكَذْحِ فِي الْعَمَلِ، لَاكِتِسَابِ رِزْقِكَ، وَرِزْقِ أُسْرَتِكَ.

وأبان الله عز وجلّ لأدم ميزة بقاءه في الجنة إذا حافظ على طاعة الله فيها، وتلحقُ به زوجته، فلم يعصيا ربهما بالأكل من الشجرة المحرّمة، فقال له ما جاء بيانه في الآيتين التاليتين:

قول الله عز وجلّ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا نَصْحَىٰ ۖ﴾:

﴿وَلَا نَصْحَىٰ﴾: أي: وَلَا يَمَسُّكَ فِيهَا حَرُّ الشَّمْسِ. يقال لغة: «ضَحِيّ، يَضْحَى، ضَحْوًا، وَضْحَوًا، وَضْحِيًّا، وَضْحًا» أي: أصابه حرُّ الشمس.

إنّه بعد أن يسكن الجنة الخالية من عوامل الأوجاع والأسقام، مع زوجته التي يسكن إليها، ويأنس بها وتأنس به، لا يكون له من مطالب العيش السعيد الرغيد، إلّا المطالب الأساسية الأربعة، التي ذكرها الله له:

المطلب الأول: أن لا يجوع، وهذا متحقّق في الجنة، فالطعام فيها وفير لا يتنفد، مع ما فيها من فاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة.

المطلب الثاني: لا يعرى، ولا يتعرّض لمكروه العري وأذاه، وهذا متحقّق في الجنة، فاللباس الفاخر الفاره في الجنة كثير، من سندس وإستبرق.

المطلب الثالث: أن لا يظمأ، وهذا المطلب متحقّق في الجنة، فالماء وأنواع الشراب اللذيذ الأخرى أنهر عظيمة جارية لا تنقطع، ولا تنفد.

المطلب الرابع: أن لا يضْحَى، فلا تمسه فيها حرارة أشعة الشمس، إذ الجنة ظلّ ظليل دائم.

ونفي التأذي بحرارة الشمس يدلّ على نفي التأذي بالبرد عن طريق

اللُّزوم الذَّهْنِي، وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ التَّضْرِيحُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ زَمْهَرِيرٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْإِنْسَانِ/ ٧٦ مَصْحَفِ/ ٩٨ نَزُولِ) بِشَأْنِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ:

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢٧﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا يَجِدُونَ فِيهَا زَمْهَرِيرًا.

الْأَرَائِكُ: الْمَقَاعِدُ الْمُنْجَدَّةُ الْوُثِيرَةُ، مَفْرَدُهَا: «أَرِيكَةٌ».

هذه المطالب الأربعة هي فُضُوءُ مطالب الجسدِ الأساسية مع الزوجة في حياة الامتحان، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ دُخُولَ آدَمَ وَحَوَاءَ الْجَنَّةِ، قَدْ كَانَ دُخُولَ ابْتِلَاءٍ لَا دُخُولَ جَزَاءٍ وَبَقَاءٍ.

قول الله عز وجل:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢٩﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الْوَسْوَسَةُ: هِيَ فِي اللُّغَةِ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ. وَالْوَسْوَسَةُ وَالْوَسْوَاسُ: حَدِيثُ النَّفْسِ.

ووساوسُ الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، تأتي على صورة خواطر تُزَيِّنُ فِعْلَ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ، لِحَمْلِ الْإِرَادَةِ عَلَى التَّنْفِيزِ.

وَلَا نَذِيرِي كَيْفَ وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ إِلَى آدَمَ، وَقَدْ يَكُونُ قَدْ ظَهَرَ لَهُ بِصُورَةِ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ بِصُورَةِ جَنِّيٍّ مِنَ الصَّالِحِينَ، أَوْ غَيْرَ مِنْ شَكْلِهِ تَتَكَرَّرُ.

ويظهر أَنَّ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا النَّصُّ هُوَ بَدَايَةُ الْحَرَكَةِ الْكَيْدِيَّةِ الْإِغْرَائِيَّةِ، مِنْ إِبْلِيسَ الشَّيْطَانِ بِالْوَسْوَسَةِ، الَّتِي اتَّخَذَتْ أَسْلُوبًا غَيْرَ مُبَاشِرٍ، حَتَّى تَصِلَ

إلى مراكز التأثير في نَفْسِ آدَمَ، بدليل استخدام حرف الجرّ: «إِلَى» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾. حُرْفُ الجرّ: «إِلَى» يَدُلُّ عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ بَدْءِ الْحَرَكَةِ وَالْوُضُولِ.

لَكِنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا رَأَى أَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنْ نَفْسِ آدَمَ وَزَوْجِهِ، بَدَأَ يُوسَّسُ لَهُمَا، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ :

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ صَارَ يُوسَّسُ لآدَمَ وَزَوْجِهِ بِأَسْلُوبٍ مُبَاشِرٍ، إِذْ جَاءَ فِيهَا اسْتِعْمَالُ حُرْفِ اللَّامِ فِي: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا﴾ وَجَاءَ فِيهَا أَنَّهُ صَارَ يُوسَّسُ لَهُ وَلَزَوْجِهِ مَعًا.

وَأُطْلِقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى إِبْلِيسَ وَصْفَهُ الْجَدِيدَ «الشَّيْطَانُ» الْمَأْخُوذَ مِنْ فِعْلِ «شَطَنَ» بِمَعْنَى: «بُعْدَ» وَالْمَأْخُوذَ مِنَ الشَّدِّ بِالشَّطْنِ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُدَلَّى بِهِ الدَّلْوُ إِلَى أَسْفَلِ الْبُئْرِ. وَقَدْ اسْتَحَقَّ إِبْلِيسَ هَذَا الْاسْمَ الْوُضْعِيَّ الْجَدِيدَ، إِذْ قَدْ هَيَّأَ نَفْسَهُ لِلإِغْرَاءِ وَالإِغْوَاءِ، وَالإِضْلَالِ عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ إِبْلِيسَ قَدْ صَارَ بِذَلِكَ بَعِيداً بُعْداً سَحِيقاً عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، مَطْرُوداً مِنْ دَائِرَةِ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ الْوَاسِعَةِ، وَصَارَ مُبْعِداً عِبَادَ اللَّهِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، بَوْسَاوَسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، وَهُوَ يَتَّخِذُ حَبَائِلَ كَثِيرَةً يُدَلِّي بِهَا عِبَادَ اللَّهِ إِلَى جَحِيمِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، حَتَّى خَضِيعُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَحِينَ تَكُونُ الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِثْمِ وَالْعَصْيَانِ وَسُوسَةً فِي الصَّدْرِ مِنْ مُحَدَّثٍ غَيْرِ مَرْتَبِيٍّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ بِأَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ حَدِيثِ نَفْسِهِ لِدَاتِهِ، وَهَذَا أَدْعَى إِلَى الِاسْتِجَابَةِ وَالْإِنْدِفَاعِ إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْوَسْوسَةُ.

• ﴿... قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ۖ﴾:

دلّت هذه الآية على أنّ إبليسَ الشيطان بدأ يتّخذ أسلوب الاستدراج بحُبث، فتجاهل أنّه يعلم أنّ الله عزّ وجلّ نهى آدم وزوجّه عن أن يأكلَا مِن شجرة خاصّة عرّفها إبليس لامتحان طاعتهما، فقدّم إغراءه لآدم بأسلوب العرض عن طريق الاستفهام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ؟﴾ وأوهمه أنّه لا يعلم شيئاً عن قضيّة الشجرة المحرّمة عليه وعلى زوجته، وأنّه خالي الذهن تماماً، وأنّه حريصٌ على نصّحه، فهو أسبقُ منه وجوداً، وأعلمُ بحقائق كثير من الأمور، وبصفات بعض الأشياء وخصائصها، وأغراه بالخُلْد في الجنّة، بحياةٍ أبديةٍ دائمة لا تنقطع، مع نعيم عظيم ومُلْكٍ لا يبلى ولا يفنى.

أمّا الخُلْدُ فتأثيرُ عُنْصُرٍ أو مجموعةٍ عناصر تشتمل عليها شجرة الخُلْد، وسَمّاها إبليسُ شَجَرَةَ الْخُلْدِ قَبْلَ أنْ يَدُلَّ آدَمَ عليها، لإشعاره بأنّ هذا الاسم الوصفيّ هو اسمُها المعروف عند أهل الملأ الأعلى، وهي شجرةٌ من أشجار الجنّة.

ومعلومٌ أنّ النَّفْسَ الإنسانيّةَ متى تعلّقت بمجهولٍ فيه مطلبٌ عظيمٌ من مطالب النفس، أخذت تغليّ مراجعها للتعرف عليه، والوصول إليه، واستعماله لتحقيق مطلوبها العظيم.

وهذا هو أسلوب التشويق للرّبط والإزلاق.

وأما المُلْكُ الَّذي لا يبلى، أي: لا يفنى ولا يهتريء كما تبلى الثياب، فهو فيما يظهر إغراؤه بِسُلْطَانٍ دائمٍ على دُرِّيَّاته الذين يتناسلون منه فيها، بعد أن يأكلَ مِن شَجَرَةِ الْخُلْدِ فيكونَ مِنَ الخالدين، وإغراؤه بِسُلْطَانٍ دائمٍ على أهل الجنّة وسكّانها من غير دُرِّيَّاته.

بعد هذا التشويق والتعليق للرّبط والإزلاق، لا بُدَّ أن يكون آدم قد

قال لإبليس: نَعَمْ، دُلْنِي عَلَيْهَا. وَلَكِنَّ النَّصَّ سَكَتَ عَنْ هَذَا إِيجَازًا.

وهنا جاء دَوْرُ إبليسَ في إلهَابِ أَشْوَاقِ آدَمَ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ، ومع لهيب الشَّوْقِ يَخْضُلُ فِي البصيرة غشاوةً وسُلْطَانِ هَوًى، لَكِنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ قَدْ طَوَّاهَا الْقُرْآنُ، لِإِمْكَانِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّيرِ الْعَمِيقِ.

وَنُذِرُكَ أَنَّ إبليسَ اللَّعِينِ، لَمَّا وَجَدَ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لَدَى آدَمَ مُلَائِمَةً لِتَعْرِيفِهِ بِالشَّجَرَةِ الَّتِي سَمَّاها لَهُ «شَجَرَةُ الْخُلْدِ» مع أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَجَرَةُ الطَّرْدِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ.

وَلَمَّا عَرَفَهُ بِهَا وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْهُ، قَالَ آدَمَ لِإِبْلِيسَ: لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا عَنْ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا، فَإِذَا أَكَلْنَا مِنْهَا كُنَّا مِنَ الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ بِمَعْصِيَتِهِ، وَتَعَرَّضْنَا لِلْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ.

عندئذِ اسْتَعْلَى إبليسُ حَالَةَ التَّوَثُّرِ النَّفْسِيِّ لَدَى آدَمَ وَزَوْجِهِ، وَحَالَةَ الْقَلْقِ النَّاتِجِ عَنْ جِرْصِهِمَا عَلَى الْخُلُودِ، وَعَلَى الْمَلِكِ الَّذِي لَا يَبْلَى، وَخَوْفِهِمَا مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ، عَلَى اخْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّاصِحُ الْمُوسَّوسُ لَهُمَا كَاذِبًا عَلَيْهِمَا، فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهَا شَجَرَةُ الْخُلْدِ، فَاسْتَطَاعَ إبليسُ أَنْ يَخْتَصِرَ الطَّرِيقَ عَلَى نَفْسِهِ، فَيَصِلَ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ لَهُمَا مَعًا وَبِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ، حَتَّى أَرْزَقَهُمَا، وَجَعَلَهُمَا يَأْكُلَانِ مِنَ الشَّجَرَةِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢٠):

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾: أَي: فَمَا زَالَ إِبْلِيسُ الشَّيْطَانُ يَسْتَدْرِجُهُمَا وَيَسْتَنْزِلُهُمَا فِي بَيْتِ الرَّغْبَةِ فِي الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، حَتَّى أَوْقَعَهُمَا بِإِرَادَتَيْهِمَا فِي الْمَعْصِيَةِ، فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَحْرَمِ عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا.

﴿فَدَتَ لَهَا سَوَاءُ تَهُمَا﴾: أي: فأنكشفت لهما سواتهما اللاتي كانت مستورة عنهما بشعر أو نحوه، عقب أن ذاقا من الشجرة مباشرة، كما جاء في النص الذي في سورة (الأعراف) في الآية (٢٢).
السَّوَاءُ: هي العورة: «الْقُبْلُ والدُّبُرُ». والسَّوَاءُ: كلُّ عَمَلٍ وأمرٍ قَبِيحٍ شائن، والخَلَّةُ القبيحة.

﴿وَطَفَقَا﴾: وشرعا عند بُدُو سواتهما يحاولان أن يجدا وسيلةً لسترها بشيء ما حولهما، فلم يجدا غير ورق أشجار الجنة.
• ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: أي: يُلصِقَانِ على سَوَاتِهِمَا لسترها، من ورق أشجار الجنة، وقد كانت قَبْلَ أن يذوقا الشجرة مكسوة بخلق الله بما يسترها.

وَدَلَّ ما جاء في سورة (الأعراف) في الآية (٢٢) أنهما ابْتَعَدَا عَنْ مَسْرَحِ الْمَعْصِيَةِ فَارَيْنِ إِلَى أَمَاكِنَ أُخْرَى فِي الْجَنَّةِ، لَيْسَ فِيهَا صِنْفُ الشَّجَرَةِ الْمَحْرَمَةِ، إِذْ جَاءَ فِيهَا حِكَايَةُ قَوْلِ اللَّهِ لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ بَعْدَ أَنْ كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ الشَّجَرَةِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الَّذِي يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْقَرِيبِ فِي الْآيَةِ (١٩) مِنْ سُورَةِ (الأعراف) أَيْضاً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

• ﴿... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾: أي: وخالف آدم نهْيَ رَبِّهِ لَهُ عَنْ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، يقال لغة: «عَصَاهُ، يَعْصِيهِ، مَعْصِيَةٌ، وَعِصْيَانًا» أي: خَرَجَ مِنْ طَاعَتِهِ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ أَوْ نَهْيَهُ، فَهُوَ «عَاصٍ، وَعَصَاءٌ، وَعَصِيٌّ».

﴿فَغَوَى﴾: أي: ضلَّ، وخاب، وَتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَنْ قَضْدٍ وَتَعَمُّدٍ، اتِّبَاعاً لما تَعَلَّقَتْ بِهِ نَفْسُهُ ممَّا ظَنَّهُ خيراً له.

الغِي: الضلال، والخيبة، والفساد، يقال لغة: «غَوَى، يَغْوِي، غِيًّا» ويقال أيضاً: «غَوِي، يَغْوِي، غَوَايَةً» أي: ضلَّ، وخاب، وفسد، وَتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عامداً.

قول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١٢٢): أي: وبعد مُدَّةٍ من الزمن تَلَقَّى فيها آدم كلماتٍ من ربه كما جاء في الآية (٣٧) من سورة (البقرة) فَأَتَمَّهَا، فَتَابَ عَلَيْهِ، واصطفاه للنبوَّة والرَّسَالَةِ وَهَدَاهُ.

﴿أَجْنَبَهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره، جاء فعل «اجْتَبَى» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوَّة والرَّسَالَةِ، إذا كان اجْتِبَاءً للأفراد.

وجاء مرَّةً واحدة، بمعنى اصطفاه أُمَّةً محمَّد بمجموعها لحمل رسالته من بعده، والمراد أنهم مسؤولون عند الله عَنْ تبليغ رسالته للناس، وأنهم بهذا الاجتباء معصومون عن أَنْ يَجْتَمِعُوا على ضلالة.

وَنَسْتَدِلُّ من مَعْنَى الاجتباء الوارد في القرآن، على أَنَّ آدم عَلَيْهِ السلام قد اجْتَبَاهُ الله نبيًا ورسولاً، لأوَّلِ مَجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣):

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: أي: قال الله عز وجل لآدم وزوجه: اهبطا من الجنة إلى الأرض.

﴿أَهْبِطَا﴾: أي: انزلا من مكان الجنة العالي، إلى الأرض. الهبوط: ضدُّ الصُّعود، يقال لغة: «هَبَطَ، يَهْبِطُ، هُبُوطًا» أي: نزل من مكان مرتفعٍ إلى مكانٍ مُنْخَفِضٍ. يُسْتَعْمَلُ الهبوط في الماديات وفي المعنويات.

ولُوحِظ في آدم وزوجه ذُرِّيَّاتُهُما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما جاء في الآية (٣٨) من سورة (البقرة) وهو قول الله

عز وجل: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ بضمير المتكلم العظيم، والفاعل في ﴿أَهْبِطُوا﴾ ضمير جماعة المخاطبين، وهم آدم وزوجه، وذريتهما في ظهر آدم.

أما عداوة ذريّات آدم بعضهم لبعض فالواقع التاريخي للأجيال البشرية يشهد بذلك، على مستوى الأفراد، والأسر، والقبائل، والشعوب، وأشدّ مظاهر العداوة بين ذريّات آدم وزوجه الحروب العظمى.

﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾: أي: فأما يأتيَنَّكم مني تعليمات منزلات تبين لكم ديني الذي اضطفيتكم لكم، وفيها هدايتكم فاتبعوها، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي وإرشادات ونصائح.

﴿... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾: ﴿١١٣﴾

فعل «اتَّبَعَ» بوزن «افتعل»، يدلّ على الالتزام بقوة وعناية، لأنّ هذا الوزن يدلّ على التكلف وبذل قوة زائدة على المعتاد، للارتقاء في درجات البرّ والإحسان.

﴿فَلَا يَضِلُّ﴾: أي: فلا يضيّع في شتى المسالك والمتاهات، بعيداً عما هو سبب سعادته.

﴿وَلَا يَشْقَى﴾: أي: ولا يُعرض نفسه للمتاعب والمشقّات المشقيات، لأنّ الله جلّت قدرته وعظمت حكمته يهوّن عليه، ويدافع عنه، ويمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والسعادة في حياته، ولو تعرّض للمكاره.

ويلزم من عدم ضلاله أن يكون من الفائزين الناجين يوم الدين، من عذاب جهنّم وما فيها من شقاء أبديّ أو مؤقت، ومن أهل السعادة الخالدة في جنّات النعيم.

والمعنى: فمن كلّ نفسه أن يتّبع هداي، فإنّه يحمي نفسه من

الضلال في الحياة الدنيا، وَمِنَ الضَّيَاعِ في متاهات العقائد والأعمال
الفاسدة الباطلة، وَمِنَ الشَّقَاءِ في الحياة الدنيا والآخرة.

وجاء في الآية (٣٨) من سُورَةِ (البقرة) قولُ الله تعالى حول
الموضوع نفسه:

﴿... فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)

أي: فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ بُدُونِ تَكْلُفٍ وَزِيَادَةٍ جَهْدٍ وَاجْتِهَادٍ، للارتقاء في
درجات البرّ والإحسان، فهو لاء لا خوفٌ عليهم من عذابِ يَوْمِ الدين،
ولا يَحْزَنُونَ على شيءٍ فَاتَهُمْ أو يَفُوتُهُمْ في الدنيا والآخرة، لأنَّ الجزاء
بالثواب العظيم الذي يُمْنَحُهُمُ اللهُ إِيَّاهُ، والحماية مِنْ دُخُولِ النار، سوف
يجدُون فيهما تعويضاً كريماً عَنْ كُلِّ ما فاتهم في الحياة الدنيا، ممَّا كانوا
يَتَمَنَّونَ الحصولَ عليه.

فتكامل النصان في تأدية المعنى المراد بيانه^(١):

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ
ءَايَلَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾

هذا البيان من توابع ما أبانه الله عزّ وجلّ لآدمَ، بعد إهباطه مع
زوجته مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الأرض.

وهو يتعلّق بمؤمنٍ أَعْرَضَ عن الذِّكْرِ الرَّبَّانِيِّ المنزل، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا
جاء في هُداه، فَكَانَ سُلُوكُهُ مُشَابِهاً سُلُوكَ الْكَافِرِينَ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ

(١) وفي الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨ نزول) تَبَيَّنَتْ تَدْبِيرِيَّةُ
يمكن الرجوع إليها.

عِقَابَيْنِ مُرْتَبَيْنِ عَلَى إِعْرَاضِهِ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ عَالِماً بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ هُدًى.

العقاب الأول: أَنْ يَجْعَلَ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الضَّنْكَ: الضيقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ (يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ) تقول لغة: «عَيْشٌ ضَنْكٌ، وَمَعِيشَةٌ ضَنْكٌ» أي: ضَيِّقَةٌ لَأَسْعَةٍ فِيهَا، وَقَدْ يَكُونُ ضَيْقاً نَفْسِيّاً، وَلَوْ كَانَ الْمَضِيقُ عَلَيْهِ ذَا سَعَةٍ مِنَ الْمَالِ.

وَقَدْ يَأْتِي هَذَا الضَّنْكَ مِنْ أَهْلِهِ وَأُسْرَتِهِ وَأَوْلَادِهِ، أَوْ مِنْ وَسَائِلِ كَسْبِ رِزْقِهِ، أَوْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ تَتْرَاكِبُ عَلَيْهِ، أَوْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ.

العقاب الثاني: أَنْ يَحْشُرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ أَعْمَى، نَظِيرَ حَشْرِ الْكَافِرِينَ عُمِيّاً، لِمَشَابَهَتِهِ لَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ مع أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى، أَي: كَافِراً.

وهُنَا فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ، يَسْأَلُ رَبَّهُ:

• ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ (١٢٥)؟.

جاء في هذه العبارة اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ الْمَاضِي ﴿قَالَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ يَوْمَ الدِّينِ.

أي: يَقُولُ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى كَالْكَافِرِينَ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، أَي: مُؤْمِناً غَيْرَ كَافِرٍ.

• ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾:

أي: فَعَلْنَا بِكَ مِثْلَ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مِنْكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ إِنَّكَ مَعَ كَوْنِكَ مُؤْمِناً بِي، وَمُؤْمِناً بِالْهُدَى الَّذِي أَنْزَلْتُهُ، لَمْ تَتَّبِعْ هُدَايَ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِأَنْ تَتَّبِعَهُ، وَلَمْ تَعْمَلْ بِمَا أَمَرْتُكَ أَنْ تَعْمَلَهُ، وَلَمْ تَتَّبِعْ عَمَّا نَهَيْتُكَ عَنْ

عَمَلِهِ، وَتَرَكْتَ الْعَمَلَ بِآيَاتِي الْمُنْزَلَاتِ، فَصِرْتَ فِي حَيَاتِكَ مِثْلَ الْكَافِرِينَ فِي السُّلُوكِ.

﴿فَنَسِينَا﴾: أي: فتركتها، وتركت العمل بها، أضل معنَى النسيان في اللُّغَةِ: التَّركُ، ومعلومٌ أنَّ ترك الشيء زمناً طويلاً، يجعله مَمْحُوراً مِنَ الذَّاكِرَةِ، فَلَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ.

• ﴿... وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾ (١٢٦): أي: ومثل تركك في الدُّنْيَا الْعَمَلَ بِآيَاتِنَا الْمُنْزَلَاتِ الْمُشْتَمِلَاتِ عَلَى هِدَانَا، تُتْرَكُ الْيَوْمَ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ فَلَا يُعْتَنَى بِكَ، وَتُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عُمِيًّا.

لَقَدْ أَغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ عَمَّا قَدَّمْنَا مِنْ بَيِّنَاتٍ هِدَايَةٍ لِعِبَادِنَا، فَجَزَاؤُكَ الْيَوْمَ يَكُونُ مِنْ جَنْسِ عَمَلِكَ.

وَلَا يُفِيدُ تَرْكَ الْعَنَاءِ بِهِ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ، أَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ كَالْكَافِرِينَ، بَلْ سَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ بَعْدَ تَطْهِيرِهِ مِنْ مَعَاصِيهِ، بِسَبَبِ صِحَّةِ إِيْمَانِهِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧):

أي: ومثل ذلك الجزاء الذي نُعَاقِبُ بِهِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِنَا، مَنْ أَنَّنَا نَجْعَلُ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، نَجْزِي أَيْضاً الَّذِي أَسْرَفَ إِسْرَافاً بِالْغَا، فَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِنَا.

وَلَكِنَّ هَذَا الَّذِي أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِنَا، نُعَذِّبُهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، عَذَاباً أَشَدَّ وَأَبْقَى مِنْ عَذَابِ الضَّنْكِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمِنْ عَذَابِ الْعَمَى فِي الْمَحْشَرِ، إِنَّهُ عَذَابٌ بِالْحَرِيقِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا مُخَلِّداً، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى هَذَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ.

وبِهَذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ السَّادِسِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (طه) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَدَدِهِ وَفِيَوْضِ عَطَائِهِ، وَفَتْحِهِ وَتَوْفِيقِهِ.



(١١)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (طه) وهو الآيات (١٢٨ و ١٢٩)

قال الله عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) وَلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾:

تمهيد:

هاتان الآيتان يتعلّق البيان فيهما بالكافرين ببعثة محمد وبالقرآن المجيد، إبان التنزيل، وهو ينسحب على كل الكافرين من بعدهم إلى آخر كافر مكذّب للرسول، ومكذّب بالقرآن، في الأخقاب الآتية من تاريخ الناس، والسياق في الآيتين يدلّ على أن ضمائر الغائبين يراد بها هؤلاء، ولو لم يسبق لهم ذكر قريب في دروس السورة، لكن أوائل السورة تدلّ على أنهم هم المعنيون.

التدبر التحليلي:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: استفهام تعجيب من أمر المشركين وسائر الكافرين إبان التنزيل، وفيه معنى الإنكار عليهم والتوبيخ لهم بالحديث عن الغائبين.

والمعنى: أما زالوا على جهلهم، وبُعدهم عن العلم بأحوال الأمم السابقة، وما جرى لكفارهم من إهلاك جماعي بسبب كفرهم وتكذيبهم

رُسِّلَ اللهُ رَبَّهُمْ، وَتَكْذِيبُهُمْ بِالذِّكْرِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ لَهْدَايَتِهِمْ، فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ تَارِيخَ الْأُمَمِ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الَّتِي كَذَّبَتْ وَكَفَرَتْ.

ضُمِّنَ فِعْلُ «يَهْدِي» مَعْنَى فِعْلِ «يُبَيِّنُ» فَعْدِي تَعْدِيَتُهُ، فَأَغْنَتْ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ. وَالتَّقْدِيرُ: أَوْ مَا هَدَى تَارِيخُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَبِينًا لَهُمْ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْكُفْرَةِ الْمَكْذُوبِينَ بِالْإِهْلَاكِ الْعَامِّ الشَّامِلِ، إِذَا وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، وَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا. أَوْ أَوْ مَا هَدَى اللَّهُ مَبِينًا لَهُمْ سُنَّتَهُ فِي الْإِنْتِقَامِ، وَالْفَاعِلُ اللَّهُ دَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَرَأَنُ.

إِنَّ تَكَرُّرَ إِجْرَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، مَعَ التَّذْكِيرِ بِهَا فِيمَا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، ثُمَّ فِيمَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَمَعَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ فِي مَنَاسِبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَحْصُلَ بِهِ قَنَاعَةٌ تَامَّةٌ بِثَبَاتِ هَذِهِ السُّنَّةِ لَدَى الْأُمَمِ الْحَاضِرَةِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ، وَالْأُمَمِ الَّتِي سَتَاتِي بَعْدَهَا، قِيَاسًا عَلَيْهِمْ.

• ﴿... كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِهِمْ...﴾ (١٢٨) •

«كَمْ» اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الْعَدَدِ بِمَعْنَى «كَثِيرٌ» وَتَسْمَى: «كَمِ الْخَبَرِيَّةِ». وَلِإِبْهَامِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى مَجْهُولِ الْجَنْسِ وَالْمَقْدَارِ، كَانَتْ مَفْتَقَرَةً إِلَى التَّمْيِيزِ، وَالْمُمَيِّزُ هُنَا: ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾. وَ«كَمْ» فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِفِعْلِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أَي: أَهْلَكْنَا كَثِيرًا مِنَ الْقُرُونِ.

﴿الْقُرُونُ﴾: جَمْعُ «الْقُرْنِ» وَالْقُرْنُ مِنَ النَّاسِ أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِهِمْ﴾: أَي: يَمْشِي هَؤُلَاءِ الْمَعْنِيُّونَ بِالْبَيَانِ فِي مَسَاكِنِ الْمَهْلِكِينَ السَّابِقِينَ، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) •: أَي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ لِمَكْذِبِي الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، لَعَلَّامَاتٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ وَاعِظَاتٍ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ الْوَاعِيَةِ الْمُسْتَتِيرِ الدَّرَآكَةِ لَدَلَالَاتِ آيَاتِ اللَّهِ.

﴿الْتَهَى﴾: أي: العقول الواعية الدَّرَاكَةُ للآيات ذوات الدَّلالات، مفردها «نَهْيَةٌ».

• ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩):

أي: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ (يُرَادُ بِهَا كَلَامٌ تَمَّ بِهِ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ) سَبَقَتْ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ، وَجَعَلَ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ مَخَيَّرِينَ مُمْتَحِنِينَ، وَجَعَلَ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى مُؤَجَّلًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى مُعَيَّنٌ عِنْدَ اللَّهِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، يَوْمَ الدِّينِ، لَكَانَ تَعْجِيلُ تَنْفِيزِ مَجَازَاتِهِمُ الْجَزَاءِ الْأَوْفَى أَمْرًا مُلَازِمًا لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ قَدْ اسْتَحَقُّوهُ بِتَكْذِيبِهِمُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَبُكْفُرِهِمْ، وَظُلْمِهِمُ الشَّيْعَ، وَجَرَائِمِهِمُ الْكَثِيرَةَ.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾: أي: لَكَانَ إِنْزَالُ الْجَزَاءِ الْأَوْفَى بِهِمْ أَمْرًا مُلَازِمًا لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا مُسْتَحِقِّينَ لَهُ حَثْمًا، وَلَا مُقْتَضِيَيْنَ لِلتَّأْجِيلِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الَّتِي سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ. فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمَصْدَرُ فِي مَوْجِعِ اسْمِ الْفَاعِلِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، وَالْمَصْدَرُ هُنَا مُؤَوَّلٌ بِاسْمِ الْفَاعِلِ.

الزَّامُ: مُصْدَرٌ كَالْمُلَازِمَةِ، تَقُولُ لُغَةً: «لَازِمُهُ، يُلَازِمُهُ، مُلَازِمَةٌ، وَلِزَامًا» أَي: تَعَلَّقَ بِهِ، وَصَارَ مُحِيطًا بِعُنُقِهِ، كَمَا يَتَعَلَّقُ الْغَرِيمُ بِغَرِيمِهِ، وَكَمَا يُعَانِقُ الْعَاشِقُ حَبِيبَهُ.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي: وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى مُعَيَّنٌ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، سَابِقٌ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ، قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ، وَوَضْعِهِمْ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ.

لفظ «أَجَلٌ» معطوفٌ بالواو على لفظ «كَلِمَةٌ» والأصل في العبارة: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى لَكَانَ لِزَامًا، إِلَّا أَنَّ التَّنَاطُرَ فِي رُؤُوسِ الْآيَاتِ يَحْتَثُّ، فَاقْتَضَتْ مُرَاعَاةَ الْجَمَالِ اللَّفْظِيِّ فِي النِّظْمِ تَأْخِيرَ عِبَارَةٍ: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

وجعل الكلمة في عبارة: [ولا كلمة سبقت من ربك] خاصة

وَمُنْحَصَرَةً بِأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ غَيْرُ صَحِيحٍ، إِذْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ نَظِيرُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، فِي أَرْبَعَةِ نصوصٍ غَيْرِ هَذَا النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (طه).

(١) فجاء في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) قول الله عز وجلّ فيها:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩):

أي: وما كان الناس إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْقُرُونِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمُ الشُّرْكُ، فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلِمَةُ اللَّهِ بِتَأْجِيلِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عَقِبَ التَّحَقُّقِ مِنْ إِيْمَانِ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَكُفْرِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ.

(٢) وجاء في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) قول الله عز وجلّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١١٠):

﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾: أي: فَأَمَّنَ فَرِيقٌ بِالْكِتَابِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى، وَكَفَرَ بِهِ فَرِيقٌ آخَرُ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَأْجِيلِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عَقِبَ التَّحَقُّقِ مِنْ إِيْمَانِ مَنْ آمَنَ، وَكُفْرِ مَنْ كَفَرَ.

(٣) ولفظ هذه الآية جاء في سورة (فُصِّلَتْ) فِي الْآيَةِ (٤٥) مِنْهَا، بِمُنَاسَبَةٍ أُخْرَى، غَيْرِ الْمُنَاسَبَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي مَعْرِضِهَا فِي سُورَةِ (هُود).

(٤) وجاء في سورة (الشورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول) قول الله عز وجلّ:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾

فجاء في هذا النص بيان عام يشمل الاختلاف فيما وصَّى الله به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وأنه لولا كلمة سبقت من الله بتأجيل الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، إلى يوم الدين، لفضي بين كل المختلفين السابقين، عقب التحقق من إيمان من آمن منهم، وكفر من كفر.

وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ هُمْ أُمَّةٌ دَعَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

فتخصيص العبارة التي جاءت في سورة (طه) بأمة محمد، معارضٌ بهذه النصوص القرآنية الأربعة.

وبهذا تم تدبر الدرس السابع من دروس سورة (طه) والحمد لله على فتحه ومدّه وتوفيقه.

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (طه)
الآيات من (١٣٥ - ١٣٠) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٥﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا

مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍّ فَفَرَصُوا فَسْتَغْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾ .

القراءات:

(١٣٠) • قرأ شُعْبَةُ، والكِسَائِي: [لَعَلَّكَ تُرْضَى] ببناء فعل «تُرْضَى» لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، أي: لِيُرْضِيَكَ رَبُّكَ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَعَلَّكَ تُرْضَى] ببناء فعل «تُرْضَى» للمعلوم.
وبين القراءَتَيْنِ تكاملٌ في الأداء البياني، أي: يُرْضِيكَ رَبُّكَ بِفِيُوض عطاءاته وإنعاماته، فأنت تُرْضَى.

(١٣١) • قرأ يَعْقُوبُ: [زَهْرَةَ] بفتح الهاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [زَهْرَةَ] بإسكان الهاء.

والقراءتان وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ.

(١٣٢) • قرأ وَرَشٌ، والسُّوسِي: [وَأَمْرٌ] بِقَلْبِ الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في حالة الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَأَمْرٌ] بتحقيق الهمزة ساكنة. والقراءتان وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ.

(١٣٣) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وابنُ جَمَّاز، وروح: [أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ] بِكسْرِ هاء الضمير، وبتاء المضارعة.

وقرأ رُويس: [أَوْ لَمْ يَأْتِيَهُمْ] بضم هاء الضمير، وبتاء المضارعة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَوْ لَمْ يَأْتِيَهُمْ] بكسر هاء الضمير، وبياء المضارعة. والقراءات هذه وجوهٌ عربيةٌ جائزةٌ متكافئة.

(١٣٥) • قرأ قُنبُل، ورُويس: [السُّرَاطِ] بالسّين.

وقرأها خَلَفٌ عن حمزة، بإشمام الصّاد زايًا.

وقرأها باقي القراء العشرة: [الصُّرَاطِ] بالصاد.

وهذه القراءات وجوه عربية في نطق الكلمة.

تمهيد:

جاء هذا الدرس الثامن وهو الأخير من دروس السّورة، مُرتَبِطاً بالدّرس الأوّل من دُروسها، وهو بِمَثَابَةِ آخر العقد المناظر لأوّلِهِ، وطرفاهُما يُشَبِّكَانِ بِقُفْلِهِمَا، لِيَسْتَكْمِلَ عِقْدُ السُّورَةِ دائِرَتَهُ الجميلة المنضّدة.

فَصَدْرُ السُّورَةِ في درسها الأوّل جاء فيه الحديث عن الرّسول، وَعَنِ القرآن، وعن المدعوّين المكذّبين.

وآخر السّورة في درسها الثامن جاء فيه الحديث عن الرّسول، وَعَنِ القرآن، وَعَنِ المدعوّين المكذّبين.

• وفي أثناء هذا الدرس الأخير جاء بيان أمر الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بما يلي:

(١) أَنْ يَضْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُ أعداءُ دعوته من قومه، بشأنه، أو بشأن الرسالة الرّبّانية التي جاء بها.

(٢) أَنْ يُسَبِّحَ رَبَّهُ تَسْبِيحاً مُلْتَبِساً وَمُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، كعبارة: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» في الأوقات التاليات:

(أ) قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ .

(ب) قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ .

(ج) آتَاءَ اللَّيْلِ، أي: في ساعاتٍ وأوقاتٍ من اللَّيْلِ .

(د) أطراف النهار، وهي فيما أرى: عند طُلُوعِ الْفَجْرِ طَرَفٍ، وَقُبَيْلَ الْغُرُوبِ طَرَفٍ، وحين تكون الشمس في كَبَدِ السَّمَاءِ قُبَيْلَ الزَّوَالِ طَرَفٍ .

(٣) أَنْ لَا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَى زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الَّتِي مَتَعَ اللَّهُ بِهَا أَصْنَافًا مِنَ الْكَافِرِينَ، وَهُمْ الْأَثْرِيَاءُ الْمُتَرْفُونَ الْمَمْتَعُونَ بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْهُمْ، وَأَنْ يَقْنَعَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا، إِثَارًا لِمَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْقَى .

(٤) أَنْ يَأْمُرَ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ (الأهل: الأقارب، والعشيرة، والزوجة، والأصحاب، وأهل الدَّارِ وَسُكَّانُهَا) أي: بالصَّلَاةِ الْوَاجِبَةِ، وبالاسْتِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ، وَمَنْ أَشْرَفَهَا الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ .

(٥) أَنْ يَضْطَبِّرَ عَلَى الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ كَمَا وَكَيْفًا، وَقَدْ كَانَ يَجْتَهِدُ الرَّسُولُ ﷺ اجْتِهَادًا مُتَعَبًا، فَقَدْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ .

● وجاء في هذا الدرس إغفاء الرسول ﷺ من المشي في مناكب الأرض لكسب رِزْقِهِ، لِيُؤَدِّي رِسَالَةَ رَبِّهِ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ وَهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ، مُسْتَمِرًّا مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَثْمِرَهُ مِنْ وَقْتِهِ، وَوَعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَرْزُقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .

وَأَبَانَ لَهُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَةَ ذَاتَ الْمَجْدِ وَالرَّفْعَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هِيَ لِلتَّقْوَى، أي: لِلْمُتَّقِينَ، مَعَ مَا ادَّخَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ، وَنَعِيمٍ بَازِخٍ، وَمُلْكٍ فَوْقَ مَا يَتَمَنَّوْنَ يَوْمَ الدِّينِ .

● وجاء في هذا الدرس معالِجَةٌ لِبَعْضِ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ

طَلَبُوا مِنَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ آيَاتِ ذَوَاتِ مَظَاهِرٍ مَادِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ بِالْأَبْصَارِ
مِثْلَ عَصَا مُوسَى، وَنَاقَةِ صَالِحٍ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَرَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ آيَةَ الْقُرْآنِ الْمَعْجَزَةَ أَعْظَمُ مِنَ الْآيَاتِ
الَّتَوَاتِي طَلَبُوا أَمْثَالَهَا، بِاعْتِبَارِهِ مَعْجَزَةٌ بَاقِيَةٌ مَعَ كُلِّ الْعُصُورِ، غَيْرَ زَمَنِيَّةٍ
تَنْتَهِي فِي أَوْقَاتٍ إِجْرَائِيَّهَا، وَبِاعْتِبَارِهِ مَعْجَزَةٌ عَقْلِيَّةٌ وَعِلْمِيَّةٌ، وَفِيهَا مَضْمُونُ
الرَّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ بِلَاغًا عَنْ رَبِّهِ، وَإِعْجَازُهَا الْعِلْمِيُّ يَظْهَرُ
بِتَجَدُّدِهَا فِي تَتَابُعِ الْعُصُورِ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ، إِذْ اشْتَمَلَ عَلَى أَنْبَاءِ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ،
لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَاضِعَ خُطَّةِ التَّكُونِي لِأَحْدَاثِ كَوْنِهِ
قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ.

وَلَوْحَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بَعْضُ الْإِهْلَاكِ الَّتِي أَهْلَكَ بِهَا الْكَافِرِينَ
مَكْذِبِي الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّهُ يُمְهِلُهُمْ حَتَّى يَسْتَقِرَّ فِي قُلُوبِهِمْ
الْإِسْتِيقَانُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِمْ حَقًّا وَصِدْقًا، وَحَتَّى يَصِلُوا فِي
غَالِبِيَّتِهِمُ الْعِظَمَى إِلَى حَالَةِ مَيُوسٍ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ مَعَهَا عَلَى طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ
الْحَرَّةِ، وَذَلِكَ لِيَقْطَعَ أَعْذَارَهُمْ، وَلِتَلَّا يَقُولُوا إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْإِهْلَاكِ الْجَمَاعِيُّ
الشَّامِلُ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَا مُحَالَهَ: يَا رَبَّنَا هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتَنْجِي آيَاتِكَ.

• وَجَاءَتْ فِي هَذَا الدَّرْسِ إِجَابَةٌ عَلَى قَوْلِ مَطْوِيٍّ قَالُوهُ إِبَّانَ نَزُولِ
سُورَةِ (طه) هَمْسًا وَلَمْ يُشَيِّعُوهُ، كَنَحْوِ قَوْلِهِمُ الَّذِي جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ فِي
سُورَةِ (الطُّورِ/ ٥٢ مَصْحَف/ ٧٦ نَزُول):

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّهِمْ أَلْمُنُونِ ﴿٢٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿نَتَرَبَّصُ﴾: أَي: نَنْتَظِرُ، يُقَالُ لُغَةً: «تَرَبَّصَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ تَرَبُّصًا» أَي: انْتَظَرَ
خَيْرًا أَوْ شَرًّا. وَيُقَالُ أَيْضًا: «رَبَّصَ فُلَانٌ، يَرَبُّصُ، رَبُّصًا» بِمَعْنَى: انْتَظَرَهُ.

﴿رَبِّ الْمُنُونِ﴾: يراد بهذه العبارة حوادث الدهر المُمِيتة.

فالمعنى: ننتظر أن تأتيه حادثة من حوادث الدهر، يموت بها، فتخلص منه ومن دعوته.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (٣١): أي: قل لهم يا مُحَمَّدُ انتظروا موتي، فإنني معكم في الانتظار، إلا أنني أنتظر نصر الله لي، وخذلكم، وإذلالكم. وخيبتكم في مساعيكم.

في هذا التعليم الرباني لرسوله تلويح بالوعيد، وبالعاقبة السيئة التي ستأتيهم، وبالعاقبة الحسنة التي ستكون في الدنيا للرسول ﷺ، وللذين آمنوا به واتبعوه، وقد تحقق الأمران بعد نحو سنة أو سنتين من نزول سورة (الطور) فترتيب نزول هذه السورة يُشعر بأنها نزلت في أواخر العهد المكي، قبيل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

أما ترتيب نزول سورة (طه) فيُشعر بأنها نزلت في أواسط العهد المكي، وقد جاء فيها قول الله عز وجل لرسوله:

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٣٥):

أي: فسَتَعْلَمُونَ في بضع سنين أننا أصحاب الصراط السوي المستقيم، وأننا نحن المهتدين، وفي المقابل ستَعْلَمُونَ أنكم بعيدون جداً عن الصراط السوي، وأنكم كنتم في ضلال بعيد.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل لرسوله ﷺ:

• ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (١٣٠):

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ خُطَاباً لِلرَّسُولِ ﷺ، أَنَّ كُتُبَاءَ مُشْرِكِي مَكَّةَ صَارُوا يَقْذِفُونَ أَقْوَالاً دَعَائِيَّةً إِعْلَامِيَّةً، ضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ، وَضِدَّ رِسَالَتِهِ، وَضِدَّ الْقُرْآنِ الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ كَانَتْ تُحْزِنُ الرَّسُولَ، وَيَضِيقُ بِهَا صَدْرَهُ، وَتُحَرِّكُ نَفْسَهُ بِرَغَبَاتِ التَّشْفِي مِنْ مَطْلَقِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُؤْذِيَةِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهَا، وَلَا يَشْغَلَ نَفْسَهُ وَقَلْبُهُ وَفِكْرُهُ بِاتِّخَاذِ وَسَائِلَ مُضَادَّةٍ لَهَا، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُتَابَعَ مَسِيرَتُهُ فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَةِ رَبِّهِ، غَيْرَ مُبَالٍ وَلَا مُكْتَرِثٍ وَلَا عَابِيٍّ بِهَا.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾:

تَسْبِيحُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

وَحَمْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا هُوَ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ جَلِيلَاتٍ عَظِيمَاتٍ، لَيْسَ لِكَمَالِهَا نِهَايَاتٌ وَلَا غَايَاتٌ.

وَالْمَطْلُوبُ أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ مَقْتَرِناً وَمُلْتَصِقاً وَمُشْتَبِكاً بِالْحَمْدِ، لِأَنَّ مِنَ التَّنْزِيهِ أَنْ لَا تَنْقُصَ مَحَامِدُهُ عَمَّا هِيَ لَهُ شَيْئاً، وَمِنْ الْحَمْدِ نَفْيُ كُلِّ مَا هُوَ مُنْزَعٌ عَنْهُ، مِمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَي: وَسَبِّحْ رَبَّكَ تَسْبِيحاً مَقْتَرِناً وَمُلْتَصِقاً وَمُشْتَبِكاً بِحَمْدِهِ، وَالْعِبَارَةُ الْمُخْتَارَةُ فِي الْبَيَانَاتِ النَّبَوِيَّةِ لِلتَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللَّهِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» و«سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ» و«سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ».

وَالْأَوْقَاتُ الْمَبِينَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلتَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللَّهِ سِتَّةُ أَوقَاتٍ،

وهي:

الأول: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ حَتَّى طُلُوعِ

الشَّمْسِ.

الثاني: قَبْلَ غروب الشمس، وهو ما بين دخول وقت صلاة العصر حتى غروب الشمس.

الثالث: من آناء الليل، أي: من ساعات الليل وأوقاته، من أوله، أو وسطه، أو آخره.

الرابع: عِنْدَ طُلُوعِ الفجر فهذا طَرَفٌ أَوَّلٌ لِلنَّهَارِ، ولتخصيص هذا الوقتِ مزية.

الخامس: قُبَيْلَ غروب الشمس، فهذا طَرَفٌ آخِرٌ لِلنَّهَارِ، ولتخصيص هذا الوقتِ مزية.

السادس: قُبَيْلَ زَوَالِ الشَّمْسِ، أي: حينما تكونُ الشمسُ في كِبِدِ السَّمَاءِ تماماً، فهذا طرف وسطٌ للنَّهَارِ، ولتخصيص هذا الوقتِ مزية، فالغرضُ أنْ لَا يَخْلُوا هذا الوقتُ من ذكر الله، إذ تَحْرُمُ فيه الصلاة، كَحُرْمَةِ الصلاة عند غروب الشمس، وقُبَيْلِهِ.

ودرج أكثر المفسرين على أن هذه الأوقات المبيَّنة في هذه الآية تشيرُ إلى أوقات الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، مع أن الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الَّتِي فُرِضَتْ لَيْلَةَ إِسْرَاءِ الرَّسُولِ وَمِعْرَاجِهِ، لم تُكُنْ قَدْ فُرِضَتْ إِبَّانَ نزول سورة (طه).

ودليلهم ما جاء في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ:

«إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَثَائِ الْإِيلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٥﴾﴾.

لكن هذا الحديث لا يدلُّ على أكثر من فضلِ هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ، اللَّذَيْنِ تُكُونُ فِيهِمَا صَلَاةُ الْفَجْرِ، وصلَاةُ الْعَصْرِ.

والآية وارِدَةٌ لمعالجة حالة الرُّسُولِ النَّفْسِيَّةِ، بدواءٍ من ذِكْرِ اللهِ في الأوقات السَّتَّةِ التي سَبَقَ بيانُها، لتفريغ شُخْنَاتِ انزعاجِهِ من أقوال كُبراءٍ مشركي قومه المؤذِيَةِ له، والتي كانوا يقولونها بأساليبٍ دُعائيةٍ إعلاميَّةٍ، قُبِيلَ نزول سورة (طه) ضِدَّهُ، وضِدَّ رسالته وضِدَّ القرآن المجيد، وضِدَّ الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ، والتَّسْبِيحُ المتكرِّرُ في الأوقات المبيَّنة في الآية، دواءٌ ناجِعٌ لَصَرْفِ كُلِّ ما في النفس من مُؤْلِمَاتٍ، ومُزْعِجَاتٍ، ومُثْقَلَاتٍ، ومُخْزَنَاتٍ، تضيق بها الصُّدُورُ، وتتكدَّرُ بها المشاعر.

والتَّسْبِيحُ بِحَمْدِ اللهِ يُذَكِّرُ الْمَسْبُوحَ الْحَامِدَ اللهُ، بأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ الْقَدِيرُ على أن يفعلَ ما يُريدُ في عبادِهِ، وفي الكَوْنِ كُلِّهِ، يَضْبِرُ بِحِلْمِهِ الْعَظِيمِ على عِبَادِهِ الْجَا حِدِينَ إِلَهِيَّتَهُ، وَالْجَا حِدِينَ رُبُوبِيَّتَهُ، وَالْجَا حِدِينَ آيَاتِهِ، وَالْمَكْذِبِينَ بِكِتَابِهِ الْمَعْجَزِ، فَيُمَهِّلُهُمْ، وَلَا يَعْجَلُ بِمُعَاقَبَتِهِمْ وَالْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ، لِيَتْرَكَ لَهُمْ زَمَنًا وَاسِعًا يُرَاجِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ، رِضًا مِنْهُ فِي أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرُوهُ، ويكونوا من الناجين من عذابه، والفائزين بِجَنَّتِهِ.

فعلى الرُّسُولِ، وعلى حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَتَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ، وَيُعَامِلُوا عِبَادَهُ بِما يُعَامِلُهُمْ هُوَ بِهِ، فَيَضْبِرُوا عَلَيْهِمْ، وَيُعَامِلُوهُمْ بِالْإِغْضَاءِ وَالصَّفْحِ الْجَمِيلِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخُلُقِ سَبَبًا فِي إِيمَانِهِمْ، وَإِسْلَامِهِمْ، لِإِنْقَادِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ، وَسَبَبًا لِإِدْخَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

﴿لَعَلَّكَ تَرْفُقُ﴾: أي: لِتَرْضَى، على أَنَّ «لَعَلَّ» تَعْلِيلِيَّةٌ، أَوْ رَاجِعِيَّةٌ وَمُتَرَقِّبَةٌ أَنْ يَأْتِيَ زَمَنٌ قَرِيبٌ تَكُونُ فِيهِ رَاضِيًا عَنْ صَبْرِكَ الَّذِي صَبَرْتَهُ عَلَى أَقْوَالِ كُبراءٍ كُفَّارٍ قَوْمِكَ، وَراضِيًا بِاسْتِعْمَالِكَ دَوَاءِ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ رَبِّكَ، إِذْ تَنْزَاحُ عَنْ نَفْسِكَ مِشَاعِرَ الْكَذْرِ وَالضَّيْقِ وَالْأَلَمِ وَالْقَلَقِ وَالْانْزِعَاجِ الَّتِي سَبَّبَتْهَا أَقْوَالُ كِبَرَاءٍ كُفَّارٍ قَوْمِكَ الَّتِي أَشَاعَوْهَا وَأَذَوَّكَ بِهَا ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَبَغْيًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ.

الرُّضَا: الشُّعُور بالارتياح، والاكتفاء، والقَبُول، وتحقيق المطلوب.
يقال لغة: «رَضِيَ بِهِ، وَرَضِيَهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَرَضِيَ عَلَيْهِ، يَرْضَى، رِضًا، وَرِضَاءً، وَرِضْوَانًا، وَمَرْضَاةً» أي: قَبِلَهُ، واختاره، وارتاحت إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَاكْتَفَى بِهِ.

قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ، وَيُلْحَقْ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ:
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَابْقَى﴾ (١٣١):

لقد اقتضت حكمة الله عزَّ وجلَّ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كَفَّارَهُمْ وَمُؤْمِنِيهِمْ، عَلَى مُدَرَجٍ ذِي مُسْتَوِيَّاتٍ مُرْتَبِعَاتٍ وَمُتَنَازِلَاتٍ فِي وَسَائِلِ اسْتِمَاعَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ الْأَغْنِيَاءُ عَلَى مُسْتَوِيَّاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ ارْتِقَاءً، وَمِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ عَلَى مُسْتَوِيَّاتٍ مُتَنَازِلَاتٍ انْحِطَاطًا، وَمِنْهُمْ الْأَقْوِيَاءُ وَذَوُو السُّلْطَانِ عَلَى مُسْتَوِيَّاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ ارْتِقَاءً، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ عَلَى مُسْتَوِيَّاتٍ لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، وَلِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا.

وقد تَخَفَى عَلَى بَعْضِ النَّاسِ وَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، حُكْمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي هَذَا التَّفَاضُلِ وَالتَّنَازُلِ فِي مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِهَا.

وَرُبَّمَا تَتَطَلَّعُ نَفُوسُ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِاسْتِعْرَابٍ أَوْ بِشَّهٍ، إِلَى مَا مَتَّعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهِ أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّما الْكَافِرُونَ وَالْعُصَاةُ، مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا، أَمْوَالًا، وَقُصُورًا فَخْمَةً، وَمَزَارِعَ، وَمَطَاعِمَ، وَمَشَارِبَ، وَمَنَاجِحَ نَفِيسَةٍ، بَيْنَمَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ مَخْرُومِينَ مِنْهَا، وَقَدْ تَتَحَدَّثُ نَفُوسُ بَعْضِهِمْ قَائِلَةً: لِمَاذَا لَا يَكُونُ لَنَا مِثْلُ هَذَا الَّذِي مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ الْكَافِرِينَ، أَوِ الْعُصَاةَ الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ، وَلَهُ عَابِدُونَ وَمُطِيعُونَ.

وقد جاء في القرآن والسَّنة علاج هذا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِهِ

نفوسُ بَعْضِ المؤمنين، بأنواعٍ من البيانات العلاجية الكاشفات لجوانب من حكمة الله عز وجل في تدبيراته لابتلاء عباده.

منها أن ظروف الحياة الدنيا ظروف امتحان، والامتحان الأمثل للناس على اختلاف خصائص نفوسهم لا بُدَّ أن يكون فيه هذا التفاضل.

ومنها أن المستميتين مِنَ الكافرين بمستويات رفيعاتٍ من متاعات الحياة الدنيا، قَدْ عَجَلَ الله لهم فيها طيباتهم وما تَهْوَى نفوسهم، وابتلاهم بما آتاهم، وَلَمْ يُسْعِدْهُمْ سَعَادَةً حَقِيقَةً بِالْوَفَرَةِ الَّتِي أُغْدَقَ بِهَا عليهم.

ومنها أن زمن الحياة الدنيا زمنٌ قليلٌ ضئيلٌ مَعْدُودٌ مَعْدُودٌ بسنين، يعقُبه عذابٌ أليم خالِدٌ في الجحيم على كفرهم وجحودهم آياتِ رَبِّهم، بجانب زمنٍ لا حُدُودَ له، ولا نهايةَ له، ينالُ فيه المؤمنون خلوداً أبدياً في جنَّاتِ النعيم يوم الدين.

واقتضى علاج المؤمنين، ولا سيما حَمَلَةُ رسالةِ الرَّسُول من أمته، أن يوصيهم الله بأسلوب خطاب رسوله، أن لا يَتَطَلَّعُوا إِلَى ما مَتَعَ الله عز وجل به أصنافاً من النَّاسِ مِنْ زِيناتِ الحياة الدنيا، وأن يَقْنَعُوا بما آتاهم من فضله.

أما الرَّسُول مُحَمَّدٌ ﷺ فلا يُظَنُّ فيه أن تَتَطَلَّعَ نَفْسُهُ إلى شيءٍ مِنْ ذلك، وَقَدْ عُرِضَتْ عليه من قِبَلِ رَبِّه جبالُ الذهبِ، على أن يَتَعَرَّضَ لابتلاءٍ شبيهٍ بما تَعَرَّضَ له دَاوُدُ وسَلِيمَانُ وأَيُّوبُ عليهم السَّلَام، فأبَاها، وارتضى لنفسه من الدنيا أن يَكُونَ عَبْدًا مِسْكِينًا من عباد الله المساكين، دُونَ فَقْرٍ يُحَوِّجُهُ إلى ضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِهِ وَحَاجَاتِهَا المَلَحَّاتِ.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ما مَتَّعنا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ذَهَرَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ...﴾:

أي: وَلَا تَنْظُرَنَّ نَظَرَ تَشَهٍّ إِلَى ما أَمَدَدْنَا به مِنْ مَتَاعِ الحياة الدنيا،

أَصْنَافاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَسَائِرِ الْكَافِرِينَ، وَأَصْنَافاً مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، لَامِتْحَانَهُمْ وَابْتِحَارَهُمْ بِمَا أَمَدُّنَاهُمْ بِهِ.

جاء التعبير بمدّ العين بدل النظر، للدلالة على أن نظر التشهّي والطلب يختلِف عن النظر العاديّ العابر. فنظر التشهّي يقتَرِن بدوافع تمتدُّ آثارها من داخل النفس، سائرة على خطوط أشعة النظر، لتتناول المشتَهَى وتمتلكه، حتّى كأنّ العينين يدان مُمتدَّتَانِ تَبْغِيَانِ ما اشتَهَتْهُ النَّفْسُ، لِتَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ وَتَمْتَلِكَهُ.

وفي هذا معنى الاعتراض على حكمه الله في عطائه ومنعه، وفي التوسعة على بعض عبادته، والتضييق على آخرين منهم، لِيَبْلُوَ كُلَّاهُمْ بما يلائم فطرة نفسه التي فطره عليها.

﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾: أي: إلى ما ملّكناهم من متاع لِيَسْتَمْتَعُوا به في الحياة الدنيا. المتاع: كلُّ شيء يُتَمَتَّعُ بِهِ، وَيُتَبَلَّغُ بِهِ، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: أي: أصنافاً من الناس ولو كانوا كافرين، يُطْلَقُ لفظ: «الزَّوْج» في اللغة على الصنف من كلِّ شيء.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: شبه الله عز وجل كلَّ ما في الحياة الدنيا ممَّا تتعلّق به نفوس الناس، من متاعها وزيناتها، وما تهوى النفوس منها، بالزّهرة، ذات المنظر الجميل الأخاذ بألوانها، وقد تكون ذات رائحة عطريّة زكيّة، وعبير جميل تستمتع به حاسة الشم، وقد تكون ذات طعم لذيذ طيب، تستمتع به حاسة الذوق، إلّا أنّها سريعة الدُّبُول، سريعة الموت، سريعة المصير إلى الفناء.

وقد استُعيِر في الآية لفظ «زهرة» للدلالة على لذات الحياة الدنيا، وزيناتها، وما تهوى النفوس منها، للتشابه بينهما في سرعة الزوال والفناء،

مع ما فيهما مِنْ مَتَاعٍ مَرْغُوبٍ فِيهِ، وَأُضِيفَ لَفْظُ «زَهْرَةٌ» إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَتَكُونَ هَذِهِ الْإِضَافَةُ قَرِينَةً صَارِفَةً عَنِ إِرَادَةِ الزَّهْرَةِ الَّتِي تَنْبُتُ فِي الْأَشْجَارِ، أَوْ فِي غَيْرِهَا مِنْ نَبَاتَاتِ الْأَرْضِ، وَيَسْتَمْتِعُ بِهَا النَّاسُ اسْتِمْتَاعًا مُوقَّتًا بِزَمَنِ قَصِيرٍ، إِذْ عُمُرُ الزَّهْرِ قَصِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ مَا يَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أَي: لِنَبْتَلِيَهُمْ، وَنَمْتَحِنَهُمْ، وَنَخْتَبِرَ إِرَادَاتِهِمْ وَسُلُوكَهُمْ فِيهِ، خِلَالَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أَضَلَّ الْفِتْنَةَ، الصَّهْرَ بِالنَّارِ لِلْمَعْدِنِ، كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، لَتَمَيِّزَ الرَّدِيءَ مِنَ الْجَيِّدِ، وَلاَخْتِبَارِهِ، ثُمَّ أَطْلَقَ بِالتَّوَسُّعِ اللَّغَوِيِّ عَلَى كُلِّ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ وَاخْتِبَارٍ.

﴿...وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٣١): أَي: وَرِزْقُ رَبِّكَ الَّذِي يَهْبُهُ لَكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَسَوْفَ يُفِيضُهُ عَلَيْكَ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، أَعْظَمُ خَيْرِيَّةً، وَأَكْثَرُ بَقَاءً.

أَمَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَالرِّزْقُ الْقَلِيلُ الْكَافِي، الْمَقْرُونُ بِطُمَأْنِينَةِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، وَاسْتِمْتَاعِهِ، بِمَا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، خَالِيًا مِنَ الْأَكْدَارِ وَالْمَنْغَصَّاتِ، أَوْ رَاضِيًا طَامِعًا بِمَا آدَخَرَ اللَّهُ لَهُ، وَجَعَلَهُ مُوجَّلاً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَكْثَرُ وَأَفْضَلُ هَنَاءً وَلَذَّةً وَاسْتِطَابَةً مِنَ الرِّزْقِ الْوَفِيرِ الْفَائِضِ عَنِ الْحَاجَاتِ، الْمَقْرُونِ بِالْقَلْقِ، وَالْأَكْدَارِ، وَالْمَنْغَصَّاتِ، وَالْمَزْعَجَاتِ، وَالْآلَامِ، وَالْمَتَاعِبِ الْمَضْنِيَّاتِ لِلنَّفْسِ.

وَأَمَّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ، فَلَا وَجْهَ لِلْمُقَارَنَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِ، فَالسَّعَادَةُ كُلُّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَالشَّقَاءُ وَالْعَذَابُ وَكُلُّ مَا يُؤْلَمُ وَيَسُوءُ لِلْكَافِرَةِ وَالْمَجْرِمِينَ، وَعَذَابٌ دُونَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ

يكون ذا مالٍ وفير، وذا رفاهيّة عظيمة، وقد عُرِضَتْ عليه جبال الذهب فأبأها .

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢):

في هذه الآية بيانُ أربعِ قَضَايَا مُوجَّهَةٍ للرَّسُولِ فَلِكُلِّ حَامِلٍ رِسَالَتِهِ من أُمَّتِهِ، بأسلوبِ الخطابِ الإفرادي:

القضية الأولى: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾:

الأهل: «الأقارب، والعشيرة، والزَّوجَةُ، والأصحاب، وأهلُ الدَّارِ وسُكَّانها».

الواجب على حامل رسالة ربّه، أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَيُبَشِّرُهُمْ وَيُنذِرُهُمْ، فَإِذَا آمَنُوا وَأَسْلَمُوا، فالواجب عَلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالصَّلَاةِ، لِأَنَّهَا ثَانِي أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، إِذِ الرُّكْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِسْلَامِ، يَكُونُ بِإِعْلَانِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَبَعْدَهُ رُكْنُ الصَّلَاةِ، وَهِيَ عِبَادَةٌ وَاجِبٌ تَكَرُّرُهَا يَوْمِيًّا طَوَالَ عُمُرِ الْمُسْلِمِ، وَعَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بَدْءًا مِنَ الرَّسُولِ، فَكُلُّ حَامِلٍ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَأْمُرَ أَهْلَهُ وَهُمْ الْأَقْرَبُونَ مِنْ عَشِيرَتِهِ بِالمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا، فَهِيَ الْعَمَلُ الْيَوْمِيُّ لِلظَّاهِرِ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّزَامِهِ بِإِسْلَامِهِ، وَأَمْرُهُ أَهْلَهُ أَوَّلًا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِي تَأْدِيَةِ الرِّسَالَةِ.

وَيَشْمَلُ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ الْأَمْرَ بِالصَّلَاةِ الْوَاجِبَةِ، وَالْأَمْرَ بِالنَّوَافِلِ غَيْرِ الْوَاجِبَةِ، وَأَهْمُّهَا الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَلَكِنْ يَأْمُرُ بِالنَّوَافِلِ عَلَى سَبِيلِ النَّذْبِ وَالْحَثِّ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجَابِ وَالْإِلْزَامِ.

ولا يخفى ما في الاهتمام بالصلاة من مكانة عظيمة للصلاة في الدين، إذ هي الصلّة المتكرّرة بالله في أعمال اليوم والليّلة من الأعمال الإسلامية.

القضية الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: واضبر صبراً كثيراً على الاستكثار من الصلوات النوافل، ولا سيما الصلاة في جوف الليل، وهي المعروفة بقيام الليل، فهي التي تحتاج إلى اصطبار.

[اصطبر] أمرٌ من فعل «اضطبر» أضله: «اضتبر» قُلبت التاء طاء على وفق القاعدة العربية، وصيغته «افتعل» تدلّ على التكلف وبذل طاقة إضافية، وتحمل مشقة زائدة على المعتاد. وهذا إنما يكون بالإكثار من النوافل، ولا سيما في جوف الليل.

هذه الصلاة تُساعد حامل الرسالة على المجاهدة في تبليغ رسالة ربّه، إذ هي تُشعره بأنّه موصولٌ بسلك طاقة يُمدّه الله عن طريقه بالعون والقوة والقدرة على تحمل المشقات، والصبر على الأذيان اللّاتي يلقاها من الذين يدعّوهم، إذا كانوا من المعرضين عن دعوته، أو من المدبرين والمتولين، أو من المجاهرين بعداوتهم، ومقاومتهم بوسائل القوة الماديّة المختلفة.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا سَأَلَكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: لا نطلب منك أن تمشي في اكتساب رزقك ورزق من تعولهم، فنحن نهى لك رزقك الذي يكفيك ويكفي أسرّتك، لتفرغ للقيام بوظائف رسالة ربك.

هذا خطابٌ للرّسول ﷺ، وهو يدلّ على أنّ الأمة الإسلامية مسؤولة عن أرزاق من يحملون رسالة الرّسول من أمته، ليتفرّغوا لأداء وظائف

رِسَالَتِهِمْ بِعَفَّةٍ ومجاهدة صَادِقَةٍ، وإِخْلَاصٍ لله عزّ وجلّ، ولهؤلاء حَظٌّ في صنف «في سبيل الله» من أصناف مُسْتَحَقِّي الزَّكَاةِ، إِذِ الْمَطْلُوبُ إِعْفَاؤُهُمْ مِنَ الْعَمَلِ لاكتساب أرزاقهم، لِيُجَاهِدُوا في تَأْدِيَةِ وظائفِ الرِّسَالَةِ التي اضطلعوا بأعبائها، دَعْوَةً إِلَى الله، أو نُصْحاً وَإِرشاداً، أو أمراً بالمعروف ونَهياً عن المنكر، أو تَعْلِيماً وَتَفْقِيهاً بِدِينِ الله.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾: أي: والعاقبةُ الحسنةُ تأييداً من الله ونصراً، وَتَوْفِيقاً، وَثَوَاباً عَظِيماً، لِلْمُتَّقِينَ بالتَّقْوَى، من أَجْلِ تَقْوَاهُمْ لِرَبِّهِمْ.

أُطْلِقَ لفظ التقوى وأُرِيدُ الْمُتَّقُونَ بها، لأنها هي السَّبَبُ في إكرام الله لهم بأنْ يَجْعَلَ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَةَ مِنْ نَصِيبِهِمْ، ثَوَاباً لَهُمْ عَلَى تَقْوَاهُمْ، وهذا من إطلاق السَّبَبِ وإِرَادَةِ الْمَسَبِّ إيجازاً في العبارة، وأُضِلُّ العبارة: والعاقبة الحسنة للمتقين بسبب تقواهم.

وَيُفْهَمُ بالمقابل أَنَّ الْعَاقِبَةَ السَّيِّئَةَ لِلْعُصَاةِ وَلِلْمُجْرِمِينَ.

التَّقْوَى: اسْمٌ لِلاتِّقَاءِ، وهو أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا فِيهِ ضُرٌّ أو أذى لَهُ ما يَحْفَظُهُ وَيَقِيهِ.

وتقوى الله، تتحققُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَمْرَ إيجاب، وَتَرْكِ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

وفوق مَرْتَبَةِ التقوى مَرْتَبَةُ الْبِرِّ، وفوقهما مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ.

والعاقبة الحسنة للمتقين في الدُّنْيَا تكون بالنصر والتأييد من الله، أو باكتساب الشهادة، أو بالثواب العظيم. وفي الآخرة تكون بالمنازل الرَّفِيعَةِ في جنات النعيم، التي ينالون فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

قول الله عز وجل:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۖ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ عَيْنَيْنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنُخْزِي ۖ﴾ (١٣٢)

﴿لَوْلَا﴾: هنا حَرْفٌ تحضيضٌ مثل: «هَلَّا».

﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا﴾: أي: هَلَّا يَأْتِينَا مُحَمَّدٌ بِآيَةٍ خارقةٍ مشهودَةٍ الآثارِ مِنْ رَبِّهِ الْقَدِيرِ، كَعَصَا مُوسَى، وَكَنَاقَةِ صَالِحٍ، وَكَإِحْيَاءِ عِيسَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ.

والمعنى: فَإِذَا جَاءَ مُحَمَّدٌ بِمِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ آمَنَّا بِهِ.

﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾: جاء تفسير البيّنة في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول) بأنّها: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ. والبيّنةُ في اللّغة: هي الواضحة الظاهرة التي لا شكَّ فيها، ولا غَبَشَ عليها: يقال لغة: «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَانًا، فَهُوَ بَيِّنٌ وَهِيَ بَيِّنَةٌ» أي: اتَّضَحَ وظهر بجلاء. وتُطلق البيّنةُ على الحجّة الواضحة.

ولفظ «بيّنة» أو «البيّنة» كثيراً ما يأتي صفة لموصوف محذوف، ويُقدَّرُ في كلِّ نَصٍّ بما يُناسبه.

وقد نظرْتُ في لفظ «البيّنة» في القرآن فوجدْتُ أنّها أُطلقت على الرسالة الرّبّانية الواضحة، وعلى الرسول، وعلى الصحف والكتب المنزلة من عند الله. وعلى الآيات الخوارق المعجزات الواضحات الجليّات، وعلى البراهين الواضحة القاطعة.

والقرائن في هذا النص الذي تَدَبَّرُهُ من سورة (طه) تُشيرُ إلى معجزة القرآن المجيد، وتُشيرُ أيضاً إلى الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ الَّذِي جَاءَتْ الْبَشَارَاتُ بِهِ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى.

فَالْقُرْآنُ اشْتَمَلَ عَلَى زُبْدَةٍ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى، وَزِيَادَاتٍ عَظِيمَاتٍ لَمْ تَأْتِ فِيهَا، وَهُوَ آيَةٌ عَقْلِيَّةٌ مُعْجَزَةٌ، وَعُنَاصِرُ إِعْجَازِهِ: بَيَانِيَّةٌ بَلَاغِيَّةٌ، وَمُطَابَقَةٌ مَا جَاءَ فِيهِ لِلْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَشْهَدُ بِهَا الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَثُبُهَا التَّجَرِبَاتُ الْمُتَكَرِّرَاتُ، وَلِلْحَقَائِقِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي شَهِدَتْ الْعُلُومُ الصَّحِيحَةُ بَعْدَ دِرَاسَاتٍ مُسْتَفِيضَاتٍ مُضْنِيَّاتٍ مِنْ قَبْلِ عُلَمَاءِ الْكُونِيَّاتِ بِأَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَمُطَابَقَةٌ أَنْبَاءِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ لَمَّا تَحَقَّقَ مِنْهَا فِي الْوَاقِعِ، وَظَاهِرٌ أَنَّ تَحَقُّقَ الْبَعْضِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يَأْتِ وَقْتُ تَحَقُّقِهِ، سَيَتَحَقَّقُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَوْ سَوْفَ يَتَحَقَّقُ فِي يَوْمِ الْحَيَاةِ الْآخِرَى.

وَمُحَمَّدٌ ﷺ بِمَثَابَةِ بَيِّنَةٍ جَلِيَّةٍ، فِي صِفَاتِهِ الْمُمْتَازَةِ، وَخُلُقِهِ الْعَظِيمِ، وَبِمَا جَاءَ بِشَأْنِهِ مِنْ بَشَائِرٍ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى.

فَلَوْ أَنْصَفَ كُفْرَاءَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَلَمْ يَسْتَكْبِرُوا، وَلَمْ يَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَتَقَلِيدَهُمُ الْأَعْمَى لِمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ، لَعَلِمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ وَحْدَهُ بَيِّنَةٌ كَافِيَةٌ لِمَنْ يُرِيدُ الْاِقْتِنَاعَ بِالْحَقِّ، وَلَعَلِمُوا أَنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، بِصِفَاتِهِ الْمُمْتَازَةِ، وَخُلُقِهِ الْعَظِيمِ، وَبِمَا جَاءَ فِي صُحُفِ الْأَوَّلِينَ بِشَأْنِهِ مِنْ بَشَائِرٍ، وَبِتَلَاوَتِهِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ الْمَعْجَزَاتِ، بِبَلَاغَتِهَا، وَبِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ وَصِدْقٍ وَهُدَايَةٍ إِلَى كُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ وَفَضِيلَةٌ وَرُشْدٌ.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (١٣٤):

أَي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْبَيِّنَةَ، الَّتِي هِيَ رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ، هِيَ زُبْدَةُ مَا فِي صُحُفِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ وَكُتِبَتْهُمْ، وَبِهَذَا الْإِرْسَالِ قَطَعْنَا أَعْذَارَهُمُ الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَعْتَذِرُوا بِهَا.

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ بِعَذَابٍ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَهُمْ

بِالْبَيِّنَةِ، لَقَالُوا: يَا رَبَّنَا هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا، يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِكَ فَتَتَّبِعَهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ بِإِنزَالِكَ الْعَذَابِ عَلَيْنَا، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْزَىٰ بِهِ.

أي: لقالوا هذا القول عند مشاهدتهم وسائل التعذيب التي تنزل عليهم، أو يوم الدين حين إحصارهم لمحكمة الحساب وفضل القضاء، إلا أن إرسال الرسول الذي تلا عليهم كتاب ربهم قطع أعذارهم، فجعلهم لا يستطيعون أن يقولوا هذا القول أو نظيره.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾: أي: من قبل أن نضعف وينزل بنا الهوان، يقال لغة: «ذلٌّ، يذلُّ، ذُلًّا، وذِلَّةً، ومَذَلَّةً» أي: ضعف وهان، والمراد هنا الهوان، لأن ضعف الإنسان ملازم له.

﴿وَنَخْزَىٰ﴾: أي: وأن نقع في الشر والعذاب الأليم، وأن نفتضح بالقبايح والسيئات المورثات للحجل الشديد منها، وأن نستحيي مما نزل بنا من ذل وهوان. الخزي: يذلُّ على كل هذه المعاني.

قول الله عز وجل:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ (١٢٥):

﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾: أي: كلٌّ مِنَّا وَمِنْكُمْ مُّتَنظِّرٌ، فانتظروا فنحن مُّتَنظِّرونَ.

﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾: أي: الطريق الواسع المعتدل، الذي لا اغوجاج فيه ولا انحراف، ولا ارفاع فيه ولا انخفاض.

﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾: أي: ومن اهتدى في مسيرته في حياته لسلك الصراط السوي.

دلَّت هذه الآية على أن كبراء كفار مكة، قد بدؤوا يتهامون فيما

بَيْنَهُمْ، دُونَ إِعْلَانٍ بِمَجْهُورِ الْقَوْلِ، وَدُونَ إِشَاعَةِ إِعْلَامِيَّةٍ فِي جَمَاهِيرِهِمْ،
إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (طه) قَائِلِينَ: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ وَحَوَادِثِ الدَّهْرِ الَّتِي
يَمُوتُ فِيهَا، وَعِنْدَئِذٍ نَتَخَلَّصُ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، وَنَضْطَهُدُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَاتَّبَعُوهُ، وَنَمَرِّقُهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ.

فَفَضَّحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَا كَانَ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ مِنْ تَهَاؤُسٍ، وَعَلَّمَ
رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ بِعِبَارَةٍ مُجَمَّلَةٍ عَامَّةٍ، يَفْهَمُ دِلَالَتَهَا أَذْكِيَاؤُهُمْ
وَفُطَنَاءُؤُهُمْ: كُلُّ مِنَّا وَمِنْكُمْ مُتَرَبِّصٌ، أَنْتُمْ مُتَرَبِّصُونَ، وَنَحْنُ مُتَرَبِّصُونَ.
وَالذِّكْرُ الْفِطْنُ يُذَكِّرُ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الْمُجَمَّلِ الَّذِي يُوَجِّهُهُ
الرَّسُولُ ﷺ لَهُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ مَوْتِي بِحَادِثٍ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ، وَنَحْنُ
نَنْتَظِرُ أَنْ يُعَزَّنَا رَبُّنَا وَيُؤَيِّدَنَا وَيَنْصُرَنَا عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يُذَلِّكُمْ وَيُخْزِيَكُمْ.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٣٥):

أَي: فَسَتَعْلَمُونَ بَعْدَ زَمَنِ غَيْرِ بَعِيدٍ، مَنْ هُمْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ، الَّذِينَ اهْتَدَوْا فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ لِسُلُوكِهِ، وَالظَّفَرِ بِالنَّجَاحِ
وَالنَّتَاجِ الْحَسَنَةِ الَّتِي يَرْضَوْنَهَا.

وَسَتَعْلَمُونَ حِينَئِذٍ مَنْ هُمُ الَّذِينَ تَنَكَّبُوا الصِّرَاطَ السَّوِيَّ، وَسَارُوا فِي
سُبُلِ الضَّلَالَةِ وَمَتَاهَاتِهَا، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى مَا يُسْعِدُهُمْ أَوْ يُرْضِيهِمْ، بَلْ
تَخَبَّطُوا فِي الظُّلُمَاتِ وَالضَّلَالَاتِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، فَخَابُوا وَخَسِرُوا.

وَالْمَعْنَى: فَسَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَحْنُ النَّاجِحُونَ، وَأَنْتُمْ الْخَائِبُونَ.

وبهذا انتهى تدبر سورة (طه) على ما فتح الله به علي
والحمد لله على معونته، ومدِّه، وتوفيقه، وفضله العظيم

ملاحق تدبر سورة (طه)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية وفنية من السورة.

الملحق الثاني: حَوْلَ الشَّفَاعَةِ يوم الدين وأنواعها.

(١٣)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية وفنية من سورة (طه)

في سورة (طه) بلاغيات وفنيات كثيرات، استخرجت منها بتوفيق الله ما يلي:

أولاً: الإيجاز

في هذه السورة أمثلة كثيرة من الإيجاز، منها ما يلي:

• الإيجاز بالحذف اكتفاءً بدلالة القرائن الفكرية، ونجد هذا في:

(١) قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾

أي: مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ وَحْمَلْنَاكَ مَسْئُولِيَّةَ تَبْلِيغِهِ لِتَشْقَىٰ، بأن تُضَيِّعَ نَفْسَكَ حُزْناً عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ مِنْ كِبَرَاءِ قَوْمِكَ، الَّذِينَ تَحْرِصُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ يوم الدين.

وما أُنزِلْنَاكَ عَلَيْكَ لِتَشْقَىٰ بِتَحْمُلِ آلَامِ أَنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَوِّلَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيْمَانِ، كَأَنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ تَحْوِيلِهِمْ، مع أَنَّكَ لَسْتَ مَسْئُولاً إِلَّا عَنْ تَبْلِيغِهِمْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، وَتَذْكِيرِهِمْ بِهَا، إِذَا وَجَدْتَ أَنَّ تَذْكِيرَكَ قَدْ يَنْفَعُهُمْ.

(٢) وقول الله عز وجل في بيان خطابه لموسى عليه السلام:

﴿... فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ۖ﴾
 أي: لا تخاف دركاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً بمياه البحر.

(٣) قول الله عز وجل حكاية لقول فرعون للسحرة بعد أن أعلنوا إيمانهم وإسلامهم:

﴿... وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ...﴾
 أي: ولأصلبنكم مثبّتاً إياكم في جُدُوع النخل. والإيجاز هنا يدخل فيما يُسمّى بالتضمن.

(٤) قول الله عز وجل في حكاية خطابه لموسى بجانب الطور:

﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾
 أي وما أعجلك مُنفصلاً عن قومك. ضَمَّنَ فعل «أعجل» معنى فعل «فصل» فعُدِّي تَعْدِيَّتَهُ، فأغْنَتِ الجملة عن جملتين إيجازاً.

ثانياً: تأخير ما حَقُّهُ التقديم مراعاة لداعِ فَنِّي

قُدِّمَتِ الأرض على السَّمَاوَاتِ العُلَا في قول الله عز وجل:

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾

والداعي الفني هنا هو الجمالُ التناظريُّ بينَ رؤوس الآيات، مع مُسَايَرَةِ سَلَاسَةِ نَظْمِ كَلِمَاتِ الآيَةِ.

ثالثاً: الاختيارُ الحكيم بين البدائل البيانية

ومن الاختيار الحكيم بَيِّنُ البدائل البيانية في السورة ما يلي:

(١) اختيار مكالمة الله عز وجل لموسى عليه السَّلام بضمير المتكلم المفرد، إذ كانت المكالمة تقتضي الإيناس، ومنه ما يلي:

• ﴿... يَمْوَسَّىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ وَإِنَّا أَخْرَجْنَاكَ فَأَسْمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۚ﴾ (١١) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ﴾ (١٢)

• ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمِعْ وَارَىٰ ۚ﴾ (١٣) • ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۚ﴾ (١٤) • ﴿... فَأَمَّا يَا لَيْئَلِكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۚ﴾ (١٥)

(٢) اختيار الحديث بضمير المتكلم العظيم في البيان المتعلق بعظمة ربوبية الرب جلّ جلاله وعظم سلطانه، أو حين تقتضي الحكمة تربية المهابة، وهذا كثير في السورة. ومنه ما يلي:

• ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ﴾ (١٦) ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ ۚ﴾ (١٧) ﴿لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ۚ﴾ (١٨) • ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۚ﴾ (١٩) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۚ﴾ (٢٠) • ﴿... فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفُتْنَاكَ فُتُونًا ۚ﴾ (٢١)

• ﴿... فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۚ﴾ (٢٢)

• ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ﴾ (٢٣)

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ۚ﴾ (٢٤)

• ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُمْ عَزْمًا ۚ﴾ (٢٥)

• ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ۖ﴾ (٢٦) ﴿وَحَتَّىٰ الْآيَةِ ۚ﴾ (٢٧) ﴿فَقُلْنَا

يَعَادُمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۚ﴾ (٢٨)

• ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ ۚ﴾ (٢٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن

أَشْرَفَ ۚ﴾ (٣٠)

• وانظر الآيات: «١٣١ - ١٣٢ - ١٣٤».

رابعاً: فنية مُراعاة رؤوس الآيات وطريقة بنائها

من فنية مُراعاة رؤوس آيات السورة، اختيار كلمات لها ذات وقع على السمع خفيف متناظر، لا ثقل فيه، ولا نشاز ولا خشونة، وأكثر هذه الكلمات تنتهي بألف مقصورة، أو بياء مدية، أو بألف تنوين حرف منصوب يوقف عليه بالمد، أو نحو ذلك.

ومنه ما سبق في: ثانياً: تأخير ما حقه التقديم.

واختير لمعظم آيات السورة أن تكون قصاراً سهلة في النطق، تجري على السمع جريان السمات الحائيات على ناعم الشجر.

خامساً: الاستفادة من المناسبة لبيان ما يشابهها

ومن أمثلة هذا الفن من فنون الدخول في كلام ما، ما جاء في قول الله عز وجل وهو يكلم موسى عليه السلام:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ... ﴿٣٩﴾﴾.

لقد كان إتيان موسى سؤاله منه من ربه امتن بها عليه، وكان بيان هذا مناسبة لبيان ما امتن الله به عليه، إذ كان طفلاً محكوماً عليه وعلى كل مواليد بني إسرائيل الذكور حينئذ من قبل فرعون بالقتل، لكن الله أنجاه بالطفاه الخفية.

وتبع هذا امتنانه عليه بالرسالة. وظاهر أن بدء الحديث قد كان امتناناً من الله عز وجل عليه بالمكالمة.

سادساً: الإطناب المفيد النافع

جاء الإطناب المفيد النافع، في إجابة موسى عليه السلام ربه عن عصاه، وكان يكفيه أن يقول: هي عصاي.

لَكِنَّهُ أَطَالَ فِي الْإِجَابَةِ، لِيُطِيلَ أُنْسَهُ بِمَكَالِمَةِ رَبِّهِ، وَلِيُظْهِرَ شَجَاعَتَهُ فِي مُحَادَثَتِهِ، فَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ أَغْرَاضِهِ مِنْ اتِّخَاذِهِ الْعَصَا. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتُمُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

إنَّ الزيادة على: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ في مَقَامِ مَكَالِمَةِ الرَّبِّ مِنَ الْإِطْنَابِ الْجَمِيلِ النَّافِعِ الْمَفِيدِ، بِشَرَطِ أَنْ تَكُونَ لَهَا صِلَةٌ بِالْمَوْضُوعِ.

سابعاً: إلحاق الكلام الصادر عن الله بالكلام المحكي عن غيره لتصديقه

من الإبداعات القرآنية إلحاق الكلام الصادر عن الله عزَّ وجلَّ، بالكلام المحكي عن غيره، وَعُظِفُهُ عَلَيْهِ لِلإشْعَارِ بِأَنَّ الْكَلَامَ الْمَحْكِيَّ عَنْ غَيْرِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ كَلَامِ صَادِرٍ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ومن أُمْلِيَّتِهِ فِي السُّورَةِ مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ بَيَانِ حَوَارِ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَقَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ وهكذا حتى آخر الآية (٥٥).

لَقَدْ أُلْحِقَ الْكَلَامَ الصَّادِرُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِدَءاً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ وَحَتَّى آخِرِ الْآيَةِ (٥٥) بِالْكَلَامِ الَّذِي كَانَ يَجِيبُ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَدُوَّ اللَّهِ فِرْعَوْنَ، وَعُظِفَ عَلَيْهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَا أَجَابَ بِهِ مُوسَىٰ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَيُضَافُ إِلَيْهِ الْكَلَامُ الصَّادِرُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثامناً: استخدام اسم الإشارة في غير ما وُضِعَ له لداعٍ بلاغي

ومن هذا الفنّ استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدلالة على بُعد مكانته ارتقاءً، أو انحطاطها البعيد تسفلاً. ومنه:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۖ﴾ (٧٥)

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۖ﴾ (٧٦)

تاسعاً: الاستعارة البديعة

ونجد هذه الاستعارة البديعة في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ﴾ (١٢١)

استُعيِرَ في هذه الآية المدّ الذي يكون للأيدي عادةً، لتعلّق هوى النفس بالمحبوب من الدنيا، الذي تُشاهدُه العيون، وأُطلِقَ على نظير العينين له بِشَيْءٍ وَطَلَبَ من النفس.

وشُبِّهَتْ لذات الحياة الدنيا وزيناتها بالزّهرة الجميلة المنظر والحسنة الرائحة، السريعة الزوال والفناء، بجامع كون كل منهما متاعاً قليلاً، وحذِفَ المشبّه، واستُعيِرَ لفظ المشبّه به وهو لفظ «زهرّة» للدلالة به على المشبّه، حتّى كأنّ الحياة الدنيا كلّها زهرّة سريعة الزوال والفناء بجانب الآخرة الخالدة.

عاشراً: الحضر والقصر لداعٍ فكري تقتضيه البلاغة

ونجد هذا الحضر والقصر في نصوص من السورة، منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في الآية (٦٩) خطاباً لموسى عليه السّلام:

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ﴾.

أي: مَا صَنَعُوا بِأَعْمَالِهِم الَّتِي رَأَيْتَ آثَارَهَا، إِلَّا كَيْدٌ سَاحِرٍ يُخِيلُ
لِلْعُيُونِ مَا لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، إِذْ لَمْ يَغَيِّرْ مِنْ وَاقِعِ أَدْوَاتِهِمْ شَيْئاً.

أداة القصر هنا «إنما». وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ إِذَا أُضِيفَتْ الْقِيُودُ الْمَظْلُوبَةُ
الَّتِي أَوْضَحْتُهَا.

(٢) قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لقول هارون عليه السّلام لِلَّذِينَ اتَّخَذُوا
العجل من بني إسرائيل:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقَرُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠).

أداة القصر هنا «إنما» أي مَا حَالُكُمْ مَعَ الْعِجْلِ إِلَّا حَالٌ مِّنْ فُتْنٍ
بَشِيءٍ افْتِنَاناً خِدَاعِيّاً مُزَيِّفاً فَتَعَلَّقَ بِهِ، وَهَذَا أَحَدُ مَعَانِي الْفِتْنَةِ، إِذْ لَيْسَ
لِلْعِجْلِ الَّذِي لَهُ خَوَارٌ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ.

والمعنى: أَأَكْذُ لَكُمْ أَنْكُمْ مَفْتُونُونَ بِهِ وَمَخْدُوعُونَ بِهِ، وَهُوَ زَيْفٌ،
فَمَا فِي الْعِجْلِ إِلَّا الزَّيْفُ وَالْبَاطِلُ بِالِإِضَافَةِ إِلَى صِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

والقصر هنا قصر إضافي، وهو من قصر الموصوف على صفة.

حادي عشر: خروج الاستفهام عن أصل دلالاته إلى أغراض أخرى

من خروج الاستفهام عن أصل دلالاته إلى أغراض أخرى قد تكون
من لوازم الاستفهام، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩١).

الغرض من الاستفهام هنا استثارة المتلقي لمعرفة المستفهم عنه، كي يوجه عنايته وكامل انتباهه للتلقي.

(٢) قول الله عز وجل:

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٧) ؟.

والغرض من الاستفهام هنا إيناس موسى عليه السلام، ومنحه الجرأة على أن يحدث ربه.

واختار الله عز وجل سؤال موسى عن عصاه لأن في سؤاله عنها توطئة لجعلها آية من آيات ربه له.

(٣) قول الله عز وجل حكاية لقول موسى لجمهور بني إسرائيل الذين اتخذوا العجل:

﴿... قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسًّا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوَدِّي﴾ (٨٦) ؟.

الغرض من الاستفهامات الواردة في هذا البيان، توبيخ موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل.

فالاستفهام هنا استفهام توبيخي.

(٤) قول الله عز وجل بشأن العجل الذي اتخذهُ جمهور بني

إسرائيل:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩) ؟.

الغرض من الاستفهام الوارد في هذه الآية توبيخ متخذي العجل من بني إسرائيل، وبيان سفاهة عقولهم، وضعف مداركهم الفكرية، إذ افتتنوا واتخذوا بظاهرة لا قيمة لها عند ذوي العقل السديد، والرأي الرشيد.

(٥) قول الله عز وجل بشأن المشركين إبان تنزيل سورة (طه) فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ...﴾ (١٢٨) ؟ .
الغرض من الاستفهام هنا التوبيخ، إذ لم ينتفع الكافرون من هداية وبيان.

(٦) قول الله عز وجل بشأنهم أيضاً:
﴿... أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٢٣) .
الغرض من الاستفهام هنا التوبيخ أيضاً، إذ لم يستجيبوا لما تحقق في الرسول وفي القرآن من بَيِّنَةٍ كَافِيَةٍ لمن أراد أن يقتنع بالحق.

ثاني عشر: التوكيد لوجود دواع بلاغية تستدعيه

ونجد هذا التوكيد في نصوص متعدّدة من السورة، واقتصر في هذا الملحق على ذكر طائفة منها مع الإشارة إلى مواطن التوكيد بخط تحت الجملة المؤكدة، راجياً أن يستفيد القارئ مما شرحته في المستخرجات البلاغية من السور السابقة.

- (١) ﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّا نَحَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنَ﴾ (٤٥) .
- (٢) ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) .
- (٣) ﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ...﴾ (٤٧) .
- (٤) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٤٨) .
- (٥) ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٦٨) .
- (٦) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا...﴾ (٧٣) .
- (٧) ﴿إِنَّمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) .
- (٨) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾ (٧٧) .
- (٩) ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَبْعَيْنَاكَ...﴾ (٨٠) .
- (١٠) ﴿وَلِإِي لَفْقَارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٧) .

(١١) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ...﴾ (٨٥).

(١٢) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥).

(١٣) ﴿فَقُلْنَا يَتَّادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (١١٩).

(١٤) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٢٧).

(١٥) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (١٢٨).

وأقتصر على هذه المستخرجات مع يقيني بأن في السورة بلاغاتٍ وفتياتٍ أخرى، أترك استخراجها لأهل التدبر من بعدي، والحمد لله على فتحه ومعونته ومدده.



(١٤)

المعلق الثاني

حول الشفاعة يوم الدين وأنواعها

أولاً: الشفاعة أثرٌ من آثار رحمة الله بعباده المؤمنين المذنبين

بالتفكير السليم المتأنّي يُدرك المتدبر، أن شفاعة الشافعين، عند الله رب العالمين، الرحمن الرحيم، لعباده المؤمنين العاصين المذنبين، هي أثرٌ من آثار رحمة الله العظمى، التي وسعت كل داخل تحت سمائها، ومستظل بظلها، ومُتعرّض لما تُفيض من غيثٍ عيم.

فهو - جلّ جلاله، وعُظُم سُلْطَانُهُ، وَشَمَلَتْ رَحْمَتُهُ - الَّذِي يَمْنَحُ بَعْضَ عِبَادِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، تَكْرِيماً يُمَيِّزُهُمْ بِهِ، فِي أَنْ يَشْفَعُوا لِبَعْضِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَاصِينَ، الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ، وَهُوَ الَّذِي يَأْذُنُ لَهُمْ بِأَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ رَغِبُوا فِي اسْتِخْدَامِ شَفَاعَتِهِمُ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَرِداً كَانَ أَوْ أَكْثَرَ، وَهُوَ الَّذِي يَشْمَلُ بِرَحْمَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَاصِينَ، فَيَأْذُنُ لِلشَّافِعِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمَكْرُمِينَ وَالصَّالِحِينَ، بِأَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُمْ إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَرْحَمَهُمْ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، فَيُخَفِّفَ عَنْهُمْ مِمَّا اسْتَحَقُّوا مِنْ عَذَابٍ بِالْعَدْلِ، أَوْ يَغْفِرُ لَهُمْ، أَوْ يَقْبَلُ عَنْهُمْ، أَوْ يَرْفَعُ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

إِذَنْ: فَالْشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لَهُ، جَلَّ جَلَالُهُ، وَعُظُمَتْ حِكْمَتُهُ، وَشَمَلَتْ رَحْمَتُهُ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزمر/ ٣٩) مَصْحُفٍ / ٥٩ (نزول) بِشَأْنِ الْمُشْرِكِينَ وَاتِّخَاذِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً شُفَعَاءَ:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أَي: بَلْ اتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَعْْبُدُونَهُمْ لِيَكُونُوا لَهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ؟!

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ: اتَّعْبُدُونَ شُرَكَاءَكُمْ، وَتَظْمَعُونَ فِي أَنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَمْرِ الْكَوْنِ وَلَا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ شَيْئاً؟!

اتَّعْبُدُونَهُمْ وَتَظْمَعُونَ فِي أَنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ عَقولاً يَفْهَمُونَ بِهَا شَيْئاً؟!

وَقُلْ لَهُمْ: لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً، إِذْ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الشُّفَعَاءَ التَّكْرِيمَ
بَأَنْ يَشْفَعُوا ضِمْنَ حُدُودٍ لَا يَتَعَدُّونَهَا، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا لِلْمَشْرِكِينَ،
فَمَنْ هُمْ أَحْسَنُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ كُفْراً وَجَرَاءً، وَهُمْ لَا يَشْفَعُونَ ضِمْنَ الْحُدُودِ
الَّتِي أَبَانَهَا اللَّهُ لَهُمْ، مَا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ بِأَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ رَغِبُوا فِي أَنْ يَشْفَعُوا
لَهُ، وَبَشَرْتُ أَنْ يَرْضَى الْقَوْلَ الَّذِي يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّفَاعَةِ.

ثانياً: المعالجة المباشرة من الله عز وجل للمشركين بشأن معتقدهم
الباطل في الشفاعة

وَقَدْ جَاءَتْ مَعَالِجَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُبَاشَرَةَ لِلْمَشْرِكِينَ بِشَأْنِ مَعْتَقَدِهِمْ
الْبَاطِلَ، فِي أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
فِي الْبَيِّنَاتِ الْتَالِيَاتِ:

(١) لَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الشَّرْكَ فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ وَأَخْسَنُ فِي
الدَّرَكَاتِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ فِيهِ شَفَاعَةَ أَحَدٍ، مَهْمَا كَانَ ذَا قُرْبٍ مِنَ اللَّهِ جَلَّ
جَلَالُهُ، كَمَلَكٍ مَقْرَّبٍ، أَوْ نَبِيِّ أَوْ رَسُولٍ، أَوْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ،
مَهْمَا كَانَ رَبُّهُ بِهِ حَفِيًّا.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْمَدَّثِرِ/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بِشَأْنِ
الْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ، الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ مُكْذِبُونَ:

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

أَي: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ لَوْ وُجِدَ لَهُمْ شَافِعُونَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ،
لَكِنْ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَشْفَعُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَدْعُونَ لَهُمْ مِنْ
مُحِبِّيهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ وَلَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ، إِذْ سَبَقَتْ
كَلِمَةُ اللَّهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

(٢) وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَشْرِكِينَ أَنَّهُ يُؤَبِّخُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ،

وَيُحَسِّرُهُمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ شُرَكَاءَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ، وَأَنََّّهُمْ شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَهُ، لَا وُجُودَ لَهُمْ مُنَاصِرِينَ لَهُمْ، وَلَا مُدَافِعِينَ عَنْهُمْ، وَلَا شَافِعِينَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (الْأَنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مَبِينًا لَهُمْ مَا سَوْفَ يُخَاطِبُهُمْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾: أي: مَا أُعْطَيْنَاكُمْ مُتَفَضِّلِينَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. يقال لغة: «خَوَّلَهُ الشَّيْءُ» أي: أَعْطَاهُ إِيَّاهُ مُتَفَضِّلًا بِهِ عَلَيْهِ.

﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تَقَطَّعَ مَا كَانَ يَصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شُرَكَائِكُمْ وَمُضَلِّلِيكُمْ، مِنْ عِلَاقَاتِ مُزَيَّفَاتٍ خَادِعَاتٍ كَانَتِ السَّبَبَ فِي إِضْلَالِكُمْ وَغَوَايَتِكُمْ.

والعبارة هنا مِنْ أَمْثِلَةٍ حَذَفَ الْفَاعِلَ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ الْقِرَائِنِ.

وهذه قراءة نافع، وحفص، والكسائي، وأبي جعفر.

وقرأها باقي القراء العشرة: [لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ] بَرَفَعِ [بَيْنَكُمْ] عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ، وَالْبَيِّنُ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ هُوَ بِمَعْنَى: الصَّلَةِ وَالْمُودَّةِ.

كلمة «بَيْنَ» تَأْتِي ظَرْفًا مَبْهَمًا، لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِإِضَافَتِهِ إِلَى اثْنَيْنِ فَصَاعِدًا، كَقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ».

وتَأْتِي بِمَعْنَى: مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَوْ الْقَوْمِ مِنْ صِلَةٍ وَمُودَّةٍ، أَوْ قَرَابَةٍ، وَبِمَعْنَى: مَا بَيْنَهُمْ مِنْ عَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءٍ.

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: أي: وَضَاعَ عَنْكُمْ فَفَقَدْتُمْ مَا كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ مِنْ مَزَاغٍ بِشَأْنِ آلِهَتِكُمْ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بُرْهَانٌ عَلَىٰ أَنَّهُا حَقٌّ، وَلَا حُجَّةٌ ذَاتُ إِقْنَاعٍ، بَلْ كَانَتْ أَوْهَامًا فِي أَدْمَغَتِكُمْ، وَأَكَاذِيبٍ مِنْ سَدَنَتِهَا مَعَ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ، لَا حَقِيقَةَ لَهَا. وَقَدْ زَيَّنَّهَا فِي نَفُوسِكُمْ تَحْقِيقُهَا لِأَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، وَمَسَايِرَتِهَا لِتَقَالِيدِكُمُ الْعَمِيَاءِ.

وَالْعِلَاجُ هُنَا يَعْتَمِدُ عَلَى تَقْدِيمِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الذَّهْنِيِّ عَلَى مَخَاطَبَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمُضْمُونِهِ، أَيْ: إِنَّ الْآلِهَةَ الشُّرَكَاءَ، الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَفَعَاءُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، سَوْفَ لَا تَجِدُونَهُمْ أَثَرًا عِنْدَ حَاجَتِكُمْ إِلَى شَفَاعَتِهِمْ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّكُمْ اعْتَقَدْتُمْ فِيهِمْ عَقَائِدَ بَاطِلَةً، لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ عَقْلِ سَلِيمٍ، أَوْ خَبَرَ صَحِيحٍ صَادِقٍ عَنِ اللَّهِ رَبِّكُمْ.

(٣) وَخَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ وَسَائِرَ الْكَافِرِينَ، مُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ، وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (السَّجْدَةِ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ﴾: أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَحْقَابَ زَمْنِيَّةٍ، سَمَّى اللَّهُ كُلَّ حَقْبَةٍ مِنْهَا يَوْمًا، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَقْدَارِ كُلِّ حَقْبَةٍ مِنْهَا.

﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾: أَيْ: مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ نَصِيرٍ، يَنْصُرُكُمْ وَيَخَيِّمُكُمْ مِنْ الْعَذَابِ الَّذِي تَسْتَحِقُّونَهُ بِالْعَدْلِ عَلَى كُفْرِكُمْ، وَاتِّخَاذِكُمْ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ تَعْبُدُونَهُمْ. مِنْ: حَرْفُ جَرٍّ زَيْدٌ لِتَأْكِيدِ عُمُومِ النِّفْيِ وَالتَّنْصِصِ عَلَيْهِ.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: أَيْ: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَفِيعٍ يَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَهُ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أَيْ: أَلَا تَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، فَتَضَعُونَهَا فِي خَزَائِنِ

المعرفة عندكم، وتذكرونها عند المناسبات الداعيات، لتصحيح مسيرتكم في الحياة على مقتضاها.

(٤) وخاطب الله عز وجل بني إسرائيل المعاندين، المصرين على الكفر برسالة محمد ﷺ، وبما أنزل عليه من ربه، بقوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أي: واذكروا أنني فضلتكم في عصور أنبيائكم ورُسلكم الصالحين على الناس حينئذ، قبل أن تفسدوا في أنفسكم، وقبل أن تفسدوا في الأرض.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: أي: واتقوا عذاب الله في يوم عظيم شديد الهول، وهو يوم القيامة، يوم الدين.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: أي: لا تقضي نفس عن نفس شيئاً من الجزاء العقابي الذي استحقته.

والمعنى: فلا تظمئوا بأن يقضي عنكم أصولكم الصالحون من الحق الرباني الذي يثبت عليكم شيئاً، بمنحكم بعض أعمالهم الصالحات.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: أي: ولا يقبل منها فدية، لو كانت تملك ما تقتدي به من عذاب الله، لكنها في الواقع لا تملك شيئاً حتى تقتدي به.

العَدْلُ: بفتح العين من معانيه الفداء، وهو المراد هنا.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي: ولا يوجد يومئذ من ينصر أصحاب النفوس الكافرة، فيدفع عنها عذاب الله الذي يقضي به بعذله.

(٥) وَأَكَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطابَهُ لِكُفَّارِ بني إِسْرَائِيلَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ، لَأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، وَلَأَنَّهُمْ أَجْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَالْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللهِ الْخَاتَمِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أَيْضاً:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٢٣٣)

تَحْلِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ مُنَاطِرٌ لِسَابِقَتِهَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْإِعَادَةِ.

(٦) وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَاثًّا لَهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ، وَمُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّ تَقْصِيرَاتِهِمْ وَمَعَاصِيَهُمْ مَحْشُوبَةٌ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ لَا يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَمْوَالٌ يُنْفِقُونَ مِنْهَا، وَلَا تَنْفَعُهُمْ حُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ فِي أَنْ يُكْتَبَ لَهُمْ أَجْرُ إِنْفَاقٍ بَخِلُوا بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَقَدْ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةٌ فِي غَيْرِ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُمْ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةٍ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٢)

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ﴾: أَي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكْسِبُوا فِيهِ مَا لَا تُنْفِقُونَ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا أَنْ تَجِدُوا فِيهِ مَجَالًا لِلْإِنْفَاقِ يَوْمَئِذٍ، فَتَظْلُمُونَ فِيهِ مَخْرُومِينَ مِنْ أَجْرِ الْإِنْفَاقِ الْمُنْدُوبِ إِلَيْهِ، وَمُسْتَحْقِينَ لِعُقُوبَةِ إِمْسَاكِ الْإِنْفَاقِ الْوَاجِبِ عَلَيْكُمْ.

﴿وَلَا حُلَّةٌ﴾: أَي: وَلَا يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ حُلَّةٌ تَنْفَعُ عِنْدَ اللهِ، وَلَوْ كَانَ أَحَدُ الْخَلِيلَيْنِ صَدِيقًا.

الْخُلَّةُ: خَالِصُ الْمَوَدَّةِ الَّتِي تَحَلَّلَتْ الْقَلْبَ. وَتُطْلَقُ عَلَى الصَّدِيقِ، يُقَالُ: خُلَّةُ الْإِنْسَانِ، أَي: أَهْلُ مَوَدَّتِهِ. وَيُطْلَقُ لَفْظُ «الْخُلَّةُ» عَلَى الزَّوْجَةِ فِي اللُّغَةِ.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أَي: وَالْكَافِرُونَ بِاللَّهِ وَبِیَوْمِ الدِّينِ هُمُ الظَّالِمُونَ الْبَالِغُونَ فِي ظُلْمِهِمْ دَرَكَاتِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الشَّنِيعِ.

وَكَأَنِّي بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ تَغِطُّ عَلَى مَحذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: وَالْمُؤْمِسِكُونَ مَحْرُومُونَ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَاتٍ شَدِيدَاتِ الْإِنْحِطَاطِ وَالتَّسْفُلِ.

ثالثاً: المعالجة بتقديم مشاهد من أحوال المشركين يوم القيامة

إِنَّ الْمَعَالَجَةَ بِتَقْدِيمِ مَشَاهِدَ بَيَانِيَّةٍ عَمَّا سَيَحْدُثُ مُسْتَقْبَلًا مِنْ قَبْلِ عَلِيمٍ خَبِيرٍ، هُوَ وَاضِعُ خُطَّةِ الْوُجُودِ الْحَادِثِ كُلِّهِ، مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ، تُشْبِهُ الْمَعَالَجَةَ بِتَقْدِيمِ مَشَاهِدَ بَيَانِيَّةٍ عَمَّا سَبَقَ أَنْ حَدَّثَ فِي الْمَاضِي، فَفِي كُلِّهِمَا تَأْثِيرٌ بَالِغٌ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَلَقَّى النَّبَأَ، رَغَبًا أَوْ رَهَبًا، إِذَا حَصَلَ لَدَيْهِ يَقِينٌ أَوْ ظَنٌّ قَوِيٌّ بِصِدْقِ النَّبَأِ.

ولهذا كَثُرَ الْعِلَاجُ بِهِذَيْنِ الْأُمْرَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَفِي الْمَعَالَجَةِ بِتَقْدِيمِ الْمَشَاهِدِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، الَّتِي تَكْشِفُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ وَسَائِرَ الْكَافِرِينَ، لَا شَفِيعَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ، نَجِدُ عِدَّةَ نصوص قرآنية، أَسْتَعْرِضُهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّدْبِيرِ فِيمَا يَلِي:

(١) جَاءَ فِي وَصْفِ حَالِ الْمَشْرِكِينَ بَعْدَ أَنْ يُكَبِّكُوا فِي الْجَحِيمِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَبُذِرَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُنُودٌ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّبُ الْمَلَكِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَرِّقُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ :

﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وأظهرت دار العذاب للضالين الفاسدين الخائبيين، بعد خفاء.

يقال لغة: «بَرَزَ يَبْرُزُ بُرُوزًا» أي: ظهر بعد خفاء.

الجحيم: اسم من أسماء النار دار العذاب يوم الدين، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم.

الغَاوُونَ: أي: الضَّالُّونَ، الفاسدون، الخائبون، التاركون سَبِيلَ الرُّشْدِ.

﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ؟﴾: أي: هل يدفعون عنكم عذاب ربكم، أو يدفعون عن أنفسهم عذابه، إذا كانوا ذوي اختيارٍ وراضين بتأليهمكم لهم.

﴿فَنُكَبِّكُمَا فِيهَا﴾: أي: فألقوا في الجحيم على وجوههم ورؤوسهم مُثْقَلَيْنِ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ.

يقال لغة: «كَبَّبَ الشَّيْءُ» أي: قَلَبَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَرَمَاهُ فِي مَهْوَاةٍ.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾: أي: بَحَثْنَا فَمَا وَجَدْنَا مِنْ شَافِعِينَ يَشْفَعُونَ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا. «مِنْ» حرف جرّ زيد لتأكيد العموم والتنقيص عليه.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَرِّقُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: «لَوْ» هنا للتمني. أي: فَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ لَنَا رَجْعَةٌ إِلَى حَيَاةِ الْامْتِحَانِ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ، وَمُؤْمِنِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ.

(٢) وفي وصف حال الكافرين، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا،

وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

المعنى: ولقد جئنا الكافرين بكتابٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِنَا، فَصَّلْنَا فِيهِ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ، عَلَى عِلْمٍ مَّا بِالْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الْاِسْتِعْدَادُ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُوا.

هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا الْمَصِيرَ الَّذِي تَوَوَّلُوا إِلَيْهِ نُذِرُ الْعَذَابَ الْخَبِيرَةَ، وَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانٌ وَلَا عَمَلٌ!.

يَوْمَ يَأْتِي تَحَقُّقُ نُذْرِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ فِي الْوَاقِعِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، وَيَحِلُّ بِهِمْ مَا كَانُوا قَدْ كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ تَرَكُوا الْإِيْمَانَ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ لَهُمْ، وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِأَحْكَامِهِ وَوَصَايَاهُ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ جُحُوداً أَوْ إِهْمَالاً: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ.

ويقولون أيضاً متمنين: هل يوجد لنا شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَنَا عِنْدَ رَبَّنَا، فَيُخْرِجَنَا مِنَ النَّارِ، أَوْ يَخَفِّفَ عَنَّا شَيْئاً مِنْ عَذَابِهَا؟. أَوْ هَلْ نُرَدُّ إِلَى حَيَاةِ الْاِبْتِلَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، فَنَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا نَرْضِي بِهِ رَبَّنَا، غَيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ الَّذِي كُنَّا عَمَلْنَاهُ فِي رِحْلَةِ الْاِمْتِحَانِ الْأُولَى؟؟.

لَكِنَّهَا أَمَانِي ضَائِعَاتٌ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا.

(٣) وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْمَجْرِمِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ سَاكِتِينَ، يَأِيسِينَ، نَادِمِينَ، وَأَنَّهُمْ يَوْمئِذٍ لَا يَكُونُ شُرَكَاءُؤُهُمْ شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَوْمئِذٍ يَكُونُونَ كَافِرِينَ بِشُرَكَائِهِمْ، إِذْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، وَلَمْ يَجِدُوا لَدَيْهِمْ وَلَا مِنْهُمْ دَفْعَ ضَرٍّ وَلَا جَلْبَ نَفْعٍ.

فقال الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾:
﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾: أي: يكونون ساكتين يائسين، نادمين. يُقال لغة:
«أَبْلَسَ يُبْلِسُ» أي: قُطِعَ بِهِ وَسَكَتَ. ويقال: «أَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» أي:
يُس. ويقال: «أَبْلَسَ» أي: نَدِم.

رابعاً: أدرك هذه الحقيقة مؤمن أصحاب القرية الذين جاءهم
المرسلون الثلاثة

لقد أدرك مؤمن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون الثلاثة أنَّ
الآلهة التي يتخذها المشركون من دون الله، لا تُغني شفاعتهم عن عابديها
شيئاً.

إنَّ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمُ الثَّلَاثَةَ، وَهَدَّوهُمْ بِالرَّجْمِ أَوْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، فجاء هذا المؤمن من أَفْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، وَاَنْتَصَرَ لِلرُّسُلِ
الثَّلَاثَةِ مُوَاجِهًا مَلَأَ قَوْمِهِ وَجُمْهُورَهُمُ الْأَعْظَمَ، وَقَالَ لَهُمْ دَفَاعًا عَنْ إِيْمَانِهِ،
مَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعْنَاهُ فِي سُورَةِ (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بقوله
جَلَّ جَلَالُهُ حِكَايَةً عَنْهُ:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴿٢٢﴾ ۖ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ۖ آلِهَةً
إِنْ يُرِيدَنَّ الْوَرِثَنُ يُضَرِّ لَا تَعْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقْدُونَ ﴿٢٣﴾ ۖ إِنْ إِذَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ ۖ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

خامساً: البيانات التعليمية للرَّسُول ﷺ كيف يُعالج المشركين بشأن
عقيدتهم في شفاعَةِ آلِهَتِهِمْ لَهُمْ عند رَبِّهِمْ

جاء في القرآن عدّة نصوص تعليمية، يُعلِّم الله عز وجل بها رُسُوله
وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، كيف يُعالج الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ

يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَيَكْفُرُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِشَفَاعَتِهِمْ خَطَايَاهُمْ، وفيما يلي استعراضها مع بعض تدبر لها:

(١) قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: يا أيها المشركون، أخبرونا كيف دخلت إلى قلوبكم عقيدة أن آلهتكم التي تعبدونها من دُونِ الله تشفع لكم عند الله، وهو أمر لا يمكن أن يُعلم إلا بإعلام من الله عز وجل.

لكن الله عز وجل قد أبان لكم فيما أنزل على رسوله أن هؤلاء الشركاء لا يضرُّونكم ولا ينفعونكم بشيء.

أفتنبئون الله نبياً لا يمكن أن يُعلم إلا بإعلام منه، وهذا أمر لا يُعلم الله له وجوداً في السماوات، ولا يعلم له وجوداً في الأرض.

أي: لا وجود له قطعاً، إذ لو كان له وجود لعلمه تبارك وتعالى، لأنه محيط بكل شيء علماً، فنفي علم الله بوجود شيء ما، هو نفي لوجوده بصورة قطعية لا شك فيها.

وقد أكمل الله عز وجل الآية بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تنزه الله وتعالى علواً كبيراً عن أن يكون له شركاء في إلهيته، ولو كان ذلك في حدود أن يشفعوا لعابديهم عند ربهم.

(٢) قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول)

خطاباً لرسوله ﷺ، فليكل دأع إلى الله من أمته بخطابٍ إفرادي:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ

وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وأنذِرْ بِمَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، الذين تَظُنُّ بِأَنَّ لديهم استِعْدَاداً لَأَن يَخَافُوا أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَأَن يُحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِمْ، وَيَجَازِيَهُمْ عَلَى مَا يَكْسِبُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ بِعَدْلِهِ، حَالَةً كَوْنُهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَهُ، وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا لَا تُقْبَلُ شَفَاعَةُ أَحَدٍ فِيهِمْ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: وَنَحْنُ نَرْضَى لَهُمْ أَن يَتَّقُوا فَيُؤْمِنُوا وَيَنْبِذُوا الشَّرْكَ، وَكُنْ أَنْتِ أَيُّهَا الدَّاعِي رَاجِياً أَن يَتَّقُوا لَتَضَاعَفَ وَسَائِلُكَ الْحَكِيمَةَ فِي دَعْوَتِهِمْ، مَتَى وَجَدْتَ لَدَيْ مَنْ تَدْعُوهُمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ الْإِسْتِعْدَادَ لَأَن يَخْشَوْا أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ الظَّنِّ.

(٣) قول الله عز وجل أيضاً في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، وَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾﴾:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾:

أي: وَدَعْ هَؤُلَاءِ فَلَا تُتَابِعِ مُجَاهَدَتَكَ لَهُمْ، فَقَدْ دَلَّتْ أَحْوَالُهُمْ وَأَوْضَاعُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ مَيُوسُّونَ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، إِذِ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ، فَلَمْ تَكُنْ نَظَرْتُهُمْ إِلَى الدِّينِ إِلَّا كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى أَلْعَابٍ يَلْعَبُونَهَا، وَأَشْيَاءَ يَتَلَهَّوْنَ بِهَا لَا جِدَّ فِيهَا، وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ شَهَوَاتٍ وَمُرْضِيَّاتٍ أَهْوَاءٍ وَمُسْكِنَاتٍ غَرَائِزٍ.

﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾: أي: وَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ كُنْتَ أْبَلَّغْتُهُمْ إِيَّاهُ، إِنْ شَعَرْتَ بِأَن الدُّكْرَى تَنْفَعُهُمْ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُوسٍ مِنْهَا.

﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: مُحَذَّرًا أَنْ تُرْتَهَنَ نَفْسٌ وَتُحْتَبَسَ تَوَاطُئًا لِتَنْفِيزِ مُعَاقِبَتِهَا بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ مِنْ كُفْرٍ وَإِثْمٍ عَظِيمٍ، فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: أي: حَالَةً كَوْنِهَا لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ نَصِيرٌ يَنْصُرُهَا أَوْ يَدْفَعُ عَنْهَا عَذَابَ رَبِّهَا، وَلَيْسَ لَهَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَهُ، لِيَرْفَعَ الْعَذَابَ عَنْهَا.

﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾: أي: وَإِنْ تَبَذَّلَ النَّفْسُ الْمُرْتَهَنَةُ لِلْعَذَابِ كُلِّ فِدْيَةٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا.

على أَنَّ أَيْ نَفْسٍ كَافِرَةٍ لَا تَمْلِكُ يَوْمَ الدِّينِ شَيْئًا تَبْذُلُهُ فِدْيَةً تُسْقِطُ عَنْهَا عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي تَسْتَحِقُّهُ بِالْعَدْلِ.

ويظهر أَنَّ طَرَحَ هَذَا الْاِحْتِمَالِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ اسْتِقْصَاءِ الْاِحْتِمَالَاتِ لِإِسْقَاطِهَا، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْكَافِرِينَ يَمْلِكُ شَيْئًا فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَفْتَدِي بِهِ.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُقْتَصَّصُ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾: أي: أُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ الَّذِينَ انْحَطُّوا فِي اتِّجَاهِ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ، هُمُ الَّذِينَ ارْتَهَنُوا وَحُسِبُوا بِمَا كَسَبُوا مِنْ كُفْرٍ. ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَيْمٍ﴾: أي: أُعِدَّ لَهُمْ شَرَابٌ فِي الْجَحِيمِ يَضْطَرُونَ أَنْ يَشْرَبُوهُ، هُوَ مِنْ مَاءٍ حَارٍّ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، فِيهِ تَغْذِيبٌ لَهُمْ.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: وَأُعِدَّ لَهُمْ فِي الْجَحِيمِ أَيْضًا عَذَابٌ شَدِيدٌ الْإِيلَامِ.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْ اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، فلكلّ داعٍ إلى الله من أمته:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ (١٨):

أي: وأنذرهم عذاب الله يوم القيامة، مخبراً ومحدّراً لهم منه.

سمّى الله عزّ وجلّ يوم القيامة: «يَوْمَ الْآزِفَةِ» إشعاراً بقربها بالنسبة إلى عُمرِ النَّاسِ في الأرض.

﴿الْآزِفَةُ﴾: أي: القريبة، يقال لغة: «أَزَفَ الْوَقْتُ، يَأْزِفُ، أَزَفًا، وَأُزُوفًا» أي: دَنَا وَقَرُبَ. ومنه قولهم: أَزَفَ التَّرحُلُ، أي: دَنَا وَقُتُّهُ وَقَرُبَ.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾: أي: إِذِ الْقُلُوبُ خَائِفَةٌ مُنْشِمِرَةٌ، يَشْعُرُ أَصْحَابُهَا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ بِأَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى حَنَاجِرِهِمْ مِنْ انْشِمَارِهَا، خَوْفًا وَهَلَعًا، وَيَدْخُلُ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ الْمَبَالِغِ فِيهِ فِيمَا يُسَمَّى عِنْدَ الْأَدْبَاءِ الْمَعَاصِرِينَ: «الصدق الفني».

﴿كَظِيمٍ﴾: أي: حَالَةٌ كَوْنِهِمْ ضَاغِطِينَ عَلَى نُفُوسِهِمُ الَّتِي امْتَلَأَتْ خَوْفًا.

﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾: أي: مَا لِلظَّالِمِينَ ظُلْمًا هُوَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، مِنْ صَدِيقٍ حَمِيمٍ يَرْحَمُهُمْ وَيَشْفِقُ عَلَيْهِمْ، وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ، عَلَى اخْتِمَالِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ.

سادساً: الشفاعة لعصاة المؤمنين

لَقَدْ أَعْلَقَ اللهُ عزّ وجلّ أبواب الشفاعةِ إغْلَاقًا تامًّا في وجهِ الكافرين المشركين، فَمَنْ هُمْ أَحْسَنُ مِنْهُمْ فِي الْكُفْرِ وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ الْعَظْمَى.

وَأَحْطَ مِنْهُمْ فِي الدَّرَكَاتِ، فِي أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ شَافِعٌ مَا لِنَجَاتِهِمْ، وَقَدْ تَنَفَّعَ الشَّفَاعَةُ بِالتَّخْفِيفِ مِنْ عَذَابِهِمْ.

لَكِنَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعَظُمَتْ رَحْمَتُهُ، قَدْ فَتَحَ بَعْضُهَا بِالنَّسَبَةِ إِلَى عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، مُرْتَكِبِي كِبَاثِرِ الذُّنُوبِ، فَمَنْ دُونَهُمْ فِي الْإِثْمِ.

وَجَعَلَ جَلَّ جَلَالُهُ لِهَذِهِ الشَّفَاعَةِ شَرْطَيْنِ:

الشرط الأول: أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلشَّافِعِ بِأَنْ يَشْفَعَ لِلْمَشْفُوعِ لَهُ.

الشرط الثاني: أَنْ يَرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَ الشَّافِعِ فِي الْمَشْفُوعِ لَهُ.

وفيما يلي استعراض النصوص مع بعض التدبر لها:

(١) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩):

أي: لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا شَفَاعَةَ شَافِعٍ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ بِأَنْ يَشْفَعَ، وَرَضِيَ قَوْلَهُ فِي شَفَاعَتِهِ لِمَنْ يَشْفَعُ لَهُ قَرْدًا أَمْ أَكْثَر.

(٢) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾ (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ

الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧):

﴿وَرَدًا﴾: أي: مُشَاءَةً عِطَاشًا، الْوَرْدُ: الْوَرَادُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَرِدُونَ

الْمَاءَ. الْمَجْرُمُونَ: هُمُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فِي دَارِ الْعَذَابِ.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾: أي: لَمْ يَمْنَحْهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يُمْلِكْهُمْ

أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ أَحَدٌ، مَلَكٌ أَوْ نَبِيٌّ أَوْ رَسُولٌ أَوْ شَافِعٌ مِنَ الصَّالِحِينَ.

﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: أي: لِكِنْ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ

عَهْدًا بِإِعْلَانِهِ إِيمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ وَمُبَايَعَتِهِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَمْنَحُهُ

أَنْ يَشْفَعَ لَهُ شَافِعُونَ، لتخفيف العذاب عنه، أو إنقاذه منه، أو تَرْقِيَةٍ دَرَجَاتِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

(٣) قول الله عز وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً للكافرين منكري رسالة محمد ﷺ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: في ستّ أحقابٍ زمنيّةٍ لا نعلمُ مقدار كلِّ منها.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: الاستواءُ في اللّغة: الاعتدال والاستقامة، واستوى على كذا: أي: اعتدل واستقام عليه.

واستواء الله على العرش، نقول فيه ما قال الإمام مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي: يتصرّف بكلّ شيءٍ في الكونِ مِنْ بَدَائَتِهِ حَتَّى آخِرِهِ وَنَهَائَتِهِ، بحكمته البالغة أسمى مُستوياتها.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: أي: مَا يُوجَدُ شَفِيعٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ بِأَنْ يَشْفَعَ.

وقد عَلِمْنَا مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي سَبَقَ تَدَبُّرُهَا فِي الشَّفَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَأْذَنُ لَشَافِعٍ مَا، بِأَنْ يَشْفَعَ لِمُشْرِكٍ فَمَنْ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، فَإِذْنٌ بِالشَّفَاعَةِ خَاصٌّ فِي أَنْ يَكُونَ الْمَشْفُوعُ لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَصَاةِ، أَوِ الْمُقْصِرِينَ فِي نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾: أي: ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى هُوَ رَبُّكُمْ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: أي: فَاغْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِهِ أَحَدًا. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥): اسْتَفْهَامٌ يَرَادُ بِهِ الْحِصُّ وَالْحَثُّ عَلَى الْعِلْمِ بِهِذِهِ الْحَقَائِقِ الَّتِي جَاءَتْ فِي هَذَا النَّصِّ، وَوَضْعُهَا فِي خَزَائِنِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَذَكُّرُهَا عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، لِتَصْحِيحِ الْمَسِيرَةِ فِي الْحَيَاةِ عَلَى وَفْقِهَا.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول): ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٣): ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾: أي: إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ بِأَنْ يَشْفَعَ، وَلِمَنْ أَذِنَ بِأَنْ يُشْفَعَ لَهُ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْمَشْفُوعَ لَهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: حَتَّىٰ إِذَا أُزِيلَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِ بَعْضِ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ تَسْتَدْعِي مَعَاصِيهِمْ أَنْ يُجَازَوْا بِالْعَدْلِ، لَكِنْ سَمِلَتْهُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ، فَأَذِنَ لِلشَّفَعَاءِ بِأَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ.

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: أي: قَالَ الْعُصَاةُ الَّذِينَ يَرْجُونَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمُ الشَّافِعُونَ لِلْمَلَائِكَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ هَلْ أَذِنَ لَكُمْ بِأَنْ تَشْفَعُوا لَنَا؟

﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾: أي: قَالَ الْمَلَائِكَةُ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا: قَالَ رَبُّنَا الْحَقُّ الثَّابِتُ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ أَنْ يَأْذَنَ لَنَا بِأَنْ تَشْفَعَ لَكُمْ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ خَيْرٍ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: وَأَتَيْنَا عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ.

الْعَلِيِّ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، أَي: الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ،
فَلَا يُدَانِيهِ وَلَا يَغْلُو عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَهُوَ مِنْ مَقَامٍ غُلُوهُ يَمْنَحُ مَنْ يَشَاءُ،
وَيَحْجُبُ عَمَّنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وَكُلُّ مَقَادِيرِهِ حَكِيمَةٌ.

الكبير: اسم من أسماء الله الحسنَى، أَي: الْكَامِلُ فِي كِبَرِهِ، الَّذِي
لَا شَيْءَ فِي الْوُجُودِ لَهُ مِثْلٌ وَصْفُهُ بِالْكِبَرِ.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أَي: وَلَا يَمْلِكُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً، أَنْ يَشْفَعَ
لَهُمْ شَافِعٌ مَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَانَ مَأْذُونًا لَهُ بِأَنْ يَشْفَعَ.

لَكِنْ مَنْ اسْتَدْرَكَ أَمْرَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَشَهِدَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ
الْمُرْسَلُونَ بِلَاغًا عَنْ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَانَتْ شَهَادَتُهُ صَادِرَةً عَنْ عِلْمٍ
وَإِيمَانٍ بِمَا شَهِدَ بِهِ، وَلَمْ تَكُنْ قَوْلًا قَلْدَ بِهِ غَيْرُهُ تَقْلِيدًا، وَهُوَ غَيْرُ مُدْرِكٍ
لِدَلَالَاتِهِ وَلَا مُؤْمِنٍ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ قَوْلًا صَادِرًا عَنْ خَوْفٍ أَوْ نِفَاقٍ، فَإِنَّ اللَّهَ
يَمْنَحُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْإِذْنَ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُ الشَّافِعُونَ الْمَأْذُونُ لَهُمْ بِأَنْ يَشْفَعُوا لَهُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) في
فِرْقَةٍ مِنْ فِرْقَاتِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ:

﴿... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ... ﴿٢٥٥﴾﴾؟:

استفهام يُرَادُ بِهِ النَفْيُ، أَي: لَا أَحَدٌ يَوْمَ الدِّينِ يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا، أَوْ مَلَكًا
مُقَرَّبًا.

سابعاً: شفاعَةُ الملائكة لعصاة المؤمنين

جاء في القرآن المجيد بشأن شفاعَةِ الملائكة لعصاة المؤمنين نَصَان:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٢٦)

أي: وملائكةٌ كثيرونَ جدّاً في السَّمَاوَاتِ، لَا تُكْفِي شَفَاعَتُهُمْ أحداً شيئاً من أُمُورِهِ التي يَرْجُوها من شفاعتهم، إِلَّا ضِمنَ شَرْطَيْنِ:

الشرط الأول: أَنْ يَأْذَنَ اللهُ عزّ وجلّ للشافِعِ بأنْ يَشْفَعَ لِمَنْ يَشْفَعُ له، فزداً أم أكثر.

وسبقَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ اللهَ لَا يَأْذَنُ لِلشَّافِعِينَ بأنْ يَشْفَعُوا للمُشْرِكِينَ فمن هم أَحْسَنُ مِنْهُمْ كُفْراً، وأَحْظُّ مِنْهُمْ في الدَّرَكَاتِ، فقد سبقَ أَنْ قَضَى اللهُ عزّ وجلّ قِضَاءَ مُبْرَماً بأنْ لَا يَغْفِرَ لِمَنْ يُشْرِكُ بِهِ، ولا لِمَنْ كَانَ أَكْفَرَ مِنْهُ وأكثرَ جُزْماً من بابِ أوَّلَى.

الشرط الثاني: أَنْ يَرْضَى اللهُ عزّ وجلّ القولَ الذي يَقُولُهُ الشَّافِعُ فِي شَفَاعَتِهِ لِلْمُشْفُوعِ له، ولو كان الشافعُ مَلَكاً مُقَرَّباً، أو نَبِيّاً رُسُولاً.

وقولُ الشافعِ يَشْمَلُ مضمونَ مَا يَشْفَعُ فيه، وأسلوبُ تعبيرِهِ في الشفاعة.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول)

بِسُأْنِ الملائكةِ المُكْرَمِينَ، واعتقادِ بعضِ المُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ بناتُ اللهِ:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾: أي: بل الملائكة عبادٌ من عباد الله مُنَزَّهُونَ بما فَطَرَهُمُ الله عليه عَنِ المعاصي وَعَنْ مخالفة أوامر الله ونواهيه في شيء. وَلَهُمْ مَرَاتِبٌ وَمَنَازِلٌ رَّفِيعَةٌ عِنْدَ الله فهم بها معظمون.

﴿لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ﴾: أي: لَا يَقُولُونَ قَوْلًا ما في تَبْلِيغَاتِهِمْ عن الله، أو في عباداتهم إِلَّا بِأَمْرِ من الله أن يقولوه، وهذا يَدُلُّ على أنهم لا يملكون صفة الاجتهاد الجزئي ضِمْنَ الكليات العامة التي لهم علم بها.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾: أي: وهم لا يَعْمَلُونَ عملاً ما إِلَّا بِأَمْرِهِ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ سَبَقَ أن عَمِلُوهُ، وهو الذي بين أيديهم، وَيَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ سَيَعْمَلُونَهُ، وهو الذي خَلْفَهُمْ لَا يَعْلَمُونَهُ، وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَالْإِنْسِ لَا يَعْلَمُونَ المستقبل إذ هو غَيْبٌ عَنْهُمْ ما لم يُخْبِرَهُمُ الله بشيءٍ منه.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾: أي: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى الله أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ، فشفاعتهم له مُرْتَبِطَةٌ بِإِذْنِهِ.

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: أي: وهم مِنْ شِدَّةِ شُعُورِهِمْ بِعَظَمَتِهِ، وَجَلَالَتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَشُمُولِ سُلْطَانِهِ كُلِّ شيءٍ، يَخْشَوْنَهُ خَشْيَةً الْمُجَلِّ الْمَعْظَمِ الْمُحِبِّ الْخَاضِعِ الدَّلِيلِ، وهم مُشْفِقُونَ مِنْ سَطَوْتِهِ وَبَطْشِهِ، فَلَا يَحِيدُونَ عَنْ طَاعَتِهِ مَقْدَارَ شُعْرَةٍ.

هذا ما جاء في القرآن المجيد بشأن الشفاعة يوم الدين، وتأتي بعده خلاصته ما جاء في السنة بشأن هذه الشفاعة، وبالله الاستعانة وعليه وحده أتوكل، فهو الله العزيز الرحيم، الحي الذي لا يموت، وسُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، هو حسبي ونعم الوكيل.



خلاصة ما جاء في السُّنَّة المطهرة بشأن الشفاعة يوم الدين :

قَسَمَ علماء أهل السُّنَّة والجماعة أخذاً من الأحاديث الصحيحة، وما يُقْبَلُ للاستشهاد به مِنْهَا، الشفاعة يوم الدين الَّتِي يَشْفَعُ بها الشافعون من الملائكة، والنبين، والمؤمنين، الَّذِينَ يَأْذُنُ اللهُ لهم بأنْ يَشْفَعُوا إلى تِسْعَةِ أنواع:

النوع الأول:

الشفاعة في أنْ يَقْضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ الخلائق، بَعْدَ انْتِظَارٍ طويل جداً، تَنْقَطِعُ فيه دُمُوعُهُمْ من كَثْرَةِ البكاء.

هذا النوع من الشفاعة جاء في حديثٍ طويل أوردَهُ الطبراني في المطوَّلَاتِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وهو يَقَعُ في نحو عشر صفحات من صفحاتِ كتابي هذا، وذكرُوا أَنَّهُ حَدِيثٌ غَرِيبٌ ضعيف، تفرَّد به إسماعيلُ بْنُ رَافِعٍ، قَاصٌّ أهل المدينة، إِلَّا أَنَّ الْفِقْرَةَ المتعلِّقة بالشفاعة في أنْ يَقْضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ الخلائق، تقتضيها عقلاً أحاديثٌ صحيحة.

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بطوله عند تفسير الآية (٧٣) من سورة (الأنعام) وجاء فيه خطاباً لمن سمعه من الرسول ﷺ من أصحابه، والمراد جميع المؤمنين:

«وَتَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَقْضِيَ بَيْنَنَا، فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَيْكُمْ آدَمَ، خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَكَلَّمَهُ قُبُلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيُظْلَبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَأْبَى، وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَسْتَقْرِئُونَ الْأَنْبِيَاءَ نَبِيًّا نَبِيًّا، كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا أْبَى عَلَيْهِمْ».

قال رسول الله ﷺ: «حَتَّى يَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ إِلَى الْفَحْصِ، فَأَجِرُ سَاجِداً».

قال أبو هريرة: يا رسول الله، ما الفحص؟.

قال: «قُدَّامَ الْعَرْشِ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ إِلَيَّ مَلَكًا، فَيَأْخُذُ بِعَضْدي، وَيَرْفَعُنِي، فيقول لي: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: نعم، يَا رَبِّ، فيقول الله عز وجل: مَا شَأْنُكَ - وَهُوَ أَعْلَمُ - فَأَقُولُ: وَعَدَتْنِي الشَّفَاعَةُ، فَشَفَّعْنِي فِي خَلْقِكَ فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ، قَالَ اللَّهُ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَكُمْ».

قال رسول الله ﷺ: «فَارْجِعْ فَأَقِفْ مَعَ النَّاسِ».

وجاء بعد هذا في الحديث وصف نُزُولِ ملائكة السَّمَاوَاتِ، فَوَجَأَ بعدَ فوجٍ، ثُمَّ يَنْزِلُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يَهْتِفُ اللَّهُ بصوته فيقول: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، إِنِّي قَدْ أَنْصَتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا، أَسْمِعْ قَوْلَكُمْ، وَأُبْصِرْ أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» اقرأ الحديث عند ابن كثير.

النوع الثاني:

شفاعة الرسول محمد ﷺ لأُمَّتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وقد طال عليهم الانتظار.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً^(١) ثُمَّ قَالَ:

«أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِنِّي ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ، فَيُلْغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ:

أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟.

(١) فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً: أي: أخذ منها قطعةً بأطراف أسنانه.

فَيَقُولُ بَغْضُ النَّاسِ لِبَغْضِ: عَلَيْكُمْ بَادَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟. أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟. فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ^(١)، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟. فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

(١) أي: أول الرُّسُلِ مِنْ أَهْلِ الْعَزَمِ، جَمْعاً بَيْنَ هَذَا الْبَيَانِ وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: رَسُولٌ بَلَّغَهَا وَبَشَّرَهَا وَأَنْذَرَهَا، وَالْقُرُونُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ نُوحٍ أُمَّمٌ، وَلَهَا رُسُلٌ، لَمْ يَبْلُغُوا أَنْ يَكُونُوا مِنْ أُولَى الْعَزَمِ.

إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمَتِ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، أَسْفَعُ لَنَا، أَلَا تَرَىٰ
إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟. فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ
قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلُهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي،
أَذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّد، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ،
وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، أَسْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ
مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ
يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ
يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَرْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَأَسْفَعُ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ:
أُمِّتِي يَا رَبِّ، أُمِّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ
عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ
مِنَ الْأَبْوَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ^(١)
الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمَيْرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ.
والذي عند مُسْلِمٍ: «كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ».

النوع الثالث:

شفاعة الرسول محمد ﷺ لِأَقْوَامٍ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ فِي أَنْ
يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

واستشهد ابنُ كثير في النهاية لهذا النوع بما أخرجه الحافظ أبو بكر بن
أبي الدنيا، في كتاب الأحوال عن عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ:
«يُنْصَبُ لِلْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا، وَيَبْقَى
مُنْبَرِي لَا أَجْلِسُ عَلَيْهِ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَّصِبًا لِأُمِّتِي، مَخَافَةَ
أَنْ يُبْعَثَ بِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَبَقِيَ أُمِّتِي بَعْدِي».

(١) المصراع: أحدُ جزأي الباب، وهما مِصْرَاعَانِ أَحَدُهُمَا إِلَى الْيَمِينِ، وَالْآخَرُ إِلَى الْيَسَارِ.

فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمِّتِي، فَيُدْعَى بِهِمْ فَيَحَاسِبُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي، وَمَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى صِكَاكًا بِرِجَالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، حَتَّى إِنَّ مَالِكًا خَازِنَ جَهَنَّمَ لَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ مَا تَرَكْتَ لِغَضَبِ رَبِّكَ لِأُمَّتِكَ مِنْ نِقْمَةٍ.

النوع الرابع:

شفاعة الرسول ﷺ لِأَقْوَامٍ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فِي أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا. واستشهد ابن كثير في النهاية لهذا النوع من الشفاعة بِحَدِيثِ رواه بِسَنَدِهِ عَنِ الْمُنْهَالِ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُمِرُ بِقَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، نَشْطُكَ الشَّفَاعَةَ، قَالَ: فَأُمِرُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ يَقِفُوا، قَالَ: فَأَنْطَلِقُ، وَأَسْتَأْذِنُ عَلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَأْذَنُ لِي، فَأَسْجُدُ وَأَقُولُ: يَا رَبِّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أَمَرْتَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ لِي: انْطَلِقْ، فَأُخْرِجُ مِنْهُمْ، فَأَنْطَلِقُ فَأُخْرِجُ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أُخْرِجَ.

ثُمَّ يُنَادِي الْبَاقُونَ: يَا مُحَمَّدُ نَشْطُكَ الشَّفَاعَةَ، فَأَرْجِعُ إِلَى الرَّبِّ فَأَسْتَأْذِنُ، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَسْجُدُ، فَيَقَالُ لِي: أَرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تَعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأُثْنِي عَلَى اللَّهِ بِثَنَاءٍ لَمْ يُثْنِ عَلَيْهِ بِهِ أَحَدٌ، أَقُولُ: ثُمَّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأُخْرِجُ مِنْهُمْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَخْرِجْ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ لَيْسَتْ تِلْكَ لَكَ، تِلْكَ لِي. فَأَنْطَلِقُ فَأُخْرِجُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أُخْرِجَ، وَيَبْقَى قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ النَّارَ فَيُعَيِّرُهُمْ أَهْلُ النَّارِ. فَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُونَ بِهِ أَذْخَلَكُمْ النَّارَ، فَيَحْزَنُونَ لِذَلِكَ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا بِكَفٍّ مِنْ مَاءٍ، فَيَنْضَحُ بِهَا فِي النَّارِ، ثُمَّ يُخْرِجُونَ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ: انْطَلِقُوا فَتَضَيَّقُوا النَّاسَ، فَلَوْ أَنَّهُمْ جَمِيعُهُمْ نَزَلُوا بِرَجُلٍ وَاحِدٍ، كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُ سَعَةٌ، وَيُسَمَّوْنَ الْمُحَرَّرِينَ».

النوع الخامس :

شفاعة الرسول ﷺ لبعض مستحقّي دخول الجنة في رفع درجاتهم فيها .
واستدلّ لهذا النوع بما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، من رواية أبي
موسى الأشعري ، أنّه لما أُصيب عمّه أبو عامر في غزوة أوطاس ، أخبر
أبو موسى رسول الله ﷺ بذلك ، فتوضّأ ﷺ فرفع يديه وقال :

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدِ أَبِي عَامِرٍ ، وَأَجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ» .

وجاء في صحيح مسلم ، أنّ رسول الله ﷺ دعا لأبي سلمة بعد وفاته فقال :
«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، وأخلفه في عقبه في
الغابرين ، وأغفر لنا وله يا رب العالمين ، وأفسح له في قبره ، ونور له فيه» .

النوع السادس :

شفاعة الرسول ﷺ لأقوام في أن يدخلوا الجنة بغير حساب
واستدلّ لهذا النوع بحديث عُكاشة بن محصن ، وهو في الصحيحين .
وجاء فيهما التصريح بأنّ عُكاشة قال للرسول ﷺ : أدع الله أن يجعلني
منهم ، أي : من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، فقال له
الرسول ﷺ : «أنت منهم» فقام رجلٌ فقال : يا نبي الله ، أدع الله أن
يجعلني منهم ، قال : «سبقك بها عُكاشة»^(١) . رواه مسلم عن عمران .
وجاء عند البخاري أنّ أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ
رسول الله ﷺ يقول :

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي رُمَّةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إضاءةَ
القمرِ ، فقام عُكاشة بن محصن الأسديّ يرفع نمرة^(٢) عليه ، قال : أدع الله
لي يا رسول الله أن يجعلني منهم ، فقال : اللهم اجعله منهم . ثم قام رجلٌ

(١) انظر الجامع بين الصحيحين ، جمع وترتيب «صالح أحمد الشامي» رقم الحديث (٢٣٦) مكرر .

(٢) نمرة : أي : شملة فيها خطوط ملونة كجلد النمر .

مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»^(١).

النوع السابع:

شفاعة الرسول في تخفيف العذاب عمن يستحق الخلود في النار. واستشهد لهذا بالحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ذَكَرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: لَعَلَّهَا تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلَ فِي ضَحْضَاحٍ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاعِهِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ حَبِيبٍ.

في ضَحْضَاحٍ: أي: في مكان حرارته قليلة، يقال لغة: ماء ضَحْضَاحٍ، أي: قليل لا عمق فيه. وهذه الحرارة القليلة بالنسبة إلى ما في الجحيم من حرارة عظيمة، كافية لأن يغلي منها دماغ المعذب بها من أهل الكفر.

النوع الثامن:

شفاعة الرسول في أن يؤذن لجميع المؤمنين بدخول الجنة. واستشهد لهذا النوع بما جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ».

وجاء في بعض روايات حديث الصور، ما يلي كما أورد ابن كثير في النهاية، قول الرسول ﷺ:

«فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي الْجَنَّةَ فَأَخْذُ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ، فَيُفْتَحُ لِي، فَأَحْيِي وَيُرْحَبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ وَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَأْذُنُ اللَّهُ مِنْ حَمْدِهِ وَتَمَجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لِي: أَرْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، وَأَشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلْ تُعْطَى، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي،

قَالَ اللهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مَا شَأْنُكَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَأَذْنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ. فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، مِمَّا يُنْشِئُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَثِنْتَيْنِ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ، لَهُمَا فَضْلٌ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ اللهُ بِعِبَادَتِهِمَا اللهُ فِي الدُّنْيَا.

النوع العاشر:

شفاعة الرسول في أهل الكبائر من أمته الذين دخلوا النار لإخراجهم منها.

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ الْمَثْبُتَةُ لِهَذَا النَّوعِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّفَاعَةِ، وَمِنْهَا حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

وجاء تفصيل هذه الشفاعة في عدة روايات في الصحيحين البخاري ومسلم، ومنها رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَعْدَ وَضْفِ السُّجُودِ لِلَّهِ وَسْوَالِهِ أَنْ يَقْبَلَ شَفَاعَتَهُ، فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ:

«فَأَخْرِجُ فَأَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» أي: وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ فِيهَا.

قَالَ: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

أقول: هو المقام المحمود الذي جاء ذكره في الآية (٧٩) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

وبهذا تمّ هذا الملحق والحمد لله على معونته ومدّته وتوفيقه

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

٥٦ مَصْحَف - ٤٦ نزول

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَتَيْنِ (٨١ و ٨٢) فَهُمَا مَدَنِيَّتَانِ
وَأَيَّتُهَا (٩٦) آيَةٌ

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾
 إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَبُ
 الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَبُ الْمَشْأَةِ مَا أَصْحَبُ
 الْمَشْأَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي
 جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾
 عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾
 يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
 ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهِنَّ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ

٩ - • قرأ حمزة في الوقف: [الْمَشْأَةِ] في الموضعين بنقل حركة الهمزة إلى الشين وحذف الهمزة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [المشأمة].

١٦ - • قرأ أبو جعفر: [مُتَّكِئِينَ] بحذف الهمزة، وقفًا ووصلًا. وقرأها كذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بتسهيل الهمزة أيضًا.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مُتَّكِئِينَ].

١٨ - • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [وَكَأْسٍ] بإبدال الهمزة ألفًا.

وقرأها حمزة كذلك أيضًا في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَكَأْسٍ].

١٩ - • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَلَا يُزْفُونَ] من فعل: «أَنْزَفَ» اللّازم، بمعنى «سَكَّرَ، أو دَهَبَ عقله».

(٢٠) وَلَحِمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَخَوْرٍ عَيْنٍ (٢٢) كَأَمْثَلِ
 اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
 لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ
 مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ
 (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَنَكْهَةٍ كَثِيرَةٍ
 (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُشٍّ مَّرْقُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا
 أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)
 لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ
 الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [يُنزِفُونَ] من فعل «نَزَفَهُ» المتعدّي، أي: أذهب عقله، أو من فعل «نَزَفَ» أي: دَهَبَ عقله بِسُكْرِ أو نحوه.

٢٢ - • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر: [وَحَوْرٍ عَيْنٍ] بالجرّ عطفاً على [وَلَحِمٍ طَيْرٍ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَحَوْرٍ عَيْنٍ] بالرفع، على الاستئناف والابتداء، والخبر محذوف تقديره «لَهُمْ» ويُحَسَّنُ هذا الاستئناف، أَنَّ الحور العين لَسُنَّ من صنف ما يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ حَتَّى يُجْمَعْنَ مع المشروبات والمأكولات بالعطف.

٢٣ - • قرأ السّوسي، وشعبة، وأبو جعفر: [اللّؤلؤِ] بإبدال الهمزة الأولى واواً. وكذلك قرأ حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [اللّؤلؤِ].

أمّا الهمزة الثانية فيقرؤها بإبدالها واواً في الوقف هشام وحمزة فقط، ولَهُمَا أيضاً تَسْهِيلُهَا مع الرّؤم، وإبدالها واواً خالصة مع السكون والإشمام والرّوم.

٣٧ - • قرأ شعبة، وحمزة، وخلف: [عُرُبًا] بإسكان الرّاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [عُرُبًا] بضّم الرّاء.

عُرْبٌ، وَعُرْبٌ، لغتان في جمع «عُرُوبٍ» وهي المتجنّبة العاشقة لزوجها.

وَحَمِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ
﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ
﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْضَّالُّونَ
الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كَلْبُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ
﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرْبَ أَلْهِيمٍ ﴿٥٥﴾
هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

٤٧ - • قرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [إِنَّا] بحذف همزة الاستفهام، وتقديرها ذهناً.

وقراها باقي القراء العشرة: [أَءِنَّا] بإثبات همزة الاستفهام.

٤٧ - • قرأ نافع، وحفص، والكسائي، وخلف: [مِثْنًا] بكسر الميم.

وقراها باقي القراء العشرة بضم الميم: [مِثْنًا] ، .

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٤٨ - • قرأ قالون، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [أَوْ آبَاؤُنَا] بإسكان الواو من «أو» على أن «أو» حرف عطف.

وقراها باقي القراء العشرة: [أَوْ آبَاؤُنَا] بفتح الواو من «أو» على أن الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد بياؤه، أي: يَقُولُ المشركون: أَتُبْعَثُ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَيُبْعَثُ أَيْضاً آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ، وَيَقُولُونَ أَيْضاً: أَتُبْعَثُ نَحْنُ، أَوْ يُبْعَثُ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ أَيْضاً، وَلَمْ يَأْتِيهِمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِمْ (هذا بِحَسَبِ زَعْمِهِمْ) إِذْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلِمُوا بِرِسَالَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

٥٥ - • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [شُرْبَ] بضم الشين، وقرأها باقي القراء بفتح الشين، وهما وجهان عربيان للكلمة.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾
 نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ
 أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
 الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ
 تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ
 تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ
 الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ
 ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمْ
 النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ

٦٠ - • قرأ ابن كثير: [قَدَرْنَا] بفتح الدال دون تشديد، وقرأ باقي القراء: [قَدَرْنَا] بتشديد الدال.

«قَدَرٌ، وَقَدَرٌ»: لغتان والمعنى واحد.

٦٢ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [النَّشْأَةَ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّشْأَةُ] «النَّشْأُ والنَّشْأَةُ» لغتان عربيتان، بمعنى: الحدوث المصحوب بالتكامل المتدرج غالباً.

٦٢ - • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [تَذَكَّرُونَ] بتشديد الدال المفتوحة، أضلُّها «تَذَكَّرُونَ» أذْغَمَتِ التاء بالذال فَصَارَتْ «تَذَكَّرُونَ».

أما قراءة «تَذَكَّرُونَ» فقد حُذِفَتْ منها إِخْدَى التاءين تخفيفاً. فالقراءتان متكافئتان.

٦٦ - • قرأ شعبة: [إِنَّا لَمُعْرِضُونَ] بإثبات هَمْزَة الاستفهام.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّا لَمُعْرِضُونَ] دون همزة استفهام.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

٧٢ - • قرأ أبْن وردان بخُلفٍ عنه: [الْمُنْشِئُونَ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [الْمُنْشِئُونَ]. وهما وجهان في النطق.

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٩﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٨٠﴾ تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٤﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرُونَ ﴿٨٦﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٧﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٩﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٢﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٣﴾ فَتَزُلُّ مِنْ حِمِيمٍ ﴿٩٤﴾ وَنَصْلِيَّةٌ حَجِيمٍ ﴿٩٥﴾ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٦﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٧﴾ .

٧٥ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [بِمَوْقِعٍ] بالافراد.

وقراها باقي القراء العشرة: [بِمَوَاقِعٍ] بالجمع.

ومؤدئ القراءتين واحد.

٧٧ - • قرأ ابن كثير: [لَقُرْآنٍ]. وقرأها الباقون: [لَقُرْآنٍ] وهما وجهان عربيان نطقاً.

٨٩ - • قرأ رؤيس: [فَرَوْحٌ]. وقرأها الباقون: [فَرَوْحٌ] بفتح الراء. الرُّوح: الراحة والفرح، والرَّحْمَةُ، وطيب الرائحة. والرُّوح: هو فيما أرى الإمداد بما يؤنسُه ويُسعدُه بعد الموت.

٩٥ - • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهُوَ] بإسكان هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَهُوَ] بضم هاء الضمير. والقراءتان لغتان عربيان.

(٢)

مما جاء في السُّنة بشأن سورة (الواقعة)

وَرَدَ بشأن سورة (الواقعة) عدّة أحاديث، منها ما يلي:

(١) روى الترمذي عن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ شُبِّتَ، قال:

«شَبَّيْتَنِي هُودَ، والواقعة، والمرسلات، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» حديث حسن غريب.

(٢) روى البيهقي في شعب الإيمان، وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«مَنْ قَرَأَ سورة الواقعة كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا».

(٣) وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن الرسول ﷺ قال: «سُورَةُ الْوَاقِعَةِ سُورَةُ الْغِنَى، فَافْرُؤُوهَا وَعَلِّمُوهَا أَوْلَادَكُمْ».

(٤) وَأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فَإِنَّهَا سُورَةُ الْغِنَى».

(٥) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَنَحْوِ مَنْ صَلَاتِكُمْ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلَاتُهُ أَحَفَّ مِنْ صَلَاتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ الْوَاقِعَةَ وَنَحْوَهَا مِنَ السُّورِ.

(٦) وَرَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ، فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: مَرِضَ عَبْدُ اللَّهِ مَرَضُهُ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ، فَعَادَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقَالَ: مَا تَشْتَكِي؟. قَالَ: ذُنُوبِي. قَالَ: فَمَا تَشْتَهِي؟. قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي. قَالَ: أَلَا أَمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ. قَالَ: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلَا أَمُرُ لَكَ بِعِطَاءٍ؟. قَالَ: لَا حَاجَةَ

لِي فِيهِ . قَالَ : يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ . قَالَ : أَتَخْشَى عَلَيَّ بَنَاتِي الْفُقَرَى ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَاتِي يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا» .

الفاقة : الفقر والحاجة .

(٣)

موضوع سُورَةِ (الواقعة)

يدور موضوع سورة (الواقعة) حَوْلَ تقسيم الناس يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لمجازاة العباد الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان ، إلى ثلاثة أصناف : مع عَرْضٍ لقطائٍ مِنْ جِزَاءِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ :

الصنف الأول : المؤمنون المسلمون أصحاب اليمين ، وهم أهل الجنة بَوَجْهِ عامٍّ ، على دَرَجَاتِهِمُ الْمُنْفَضَةِ والمتوسطة .

الصنف الثاني : الكافرون المجرمون أصحاب الشمال ، وهم أهل النار بَوَجْهِ عامٍّ ، على دَرَكَاتِهِمُ الْأُولَى ، فالمتوسطة .

الصنف الثالث : السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ من المحسنين والأبرار ، وهم أصحاب الدرجات الرفيعات السَّامِيَّاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

ويفهم من التقابل والتناظر «صِنْفٌ رَابِعٌ» وهم المَوَغِلُونَ فِي الْكُفْرِ وازتكاب الجرائم الكبرى ، ونَشْرِ شُرُورِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، ودَعْوَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ .

وهم أصحاب الدركات السُّفْلَى السَّحِيقَةِ من النار ، ومنهم المنافقون الَّذِينَ هُمْ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ من النار .

واستدعى هذا الموضوع تقديم بيانات إقناعية ، وأدلة بُرْهَانِيَّةٍ ،

للمكذِّبِينَ بِالْبَعْثِ وَيَوْمَ الدِّينِ، على صدق الأخبار القرآنية المتعلقة بيوم الدين، وتوجيه العقول الحصيفة الدِّراكة لاستبصار المَجْدِ الكبير الذي يَتَحَلَّى بِهِ الْقُرْآنُ، الْمُشْتَمِلُ عَلَى أَخْبَارِ يَوْمِ الدِّينِ وَمَا فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ بِالثَّوَابِ، أَوْ بِالْعِقَابِ، عَلَى حَسَبِ أَحْوَالِ أَصْنَافِ النَّاسِ، مَعَ مُتَابَعَةِ مُعَالَجَةِ الْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ وَبِالْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، بِالْإِقْنَاعَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، ثُمَّ بِالترغيب والترهيب، بتقديم بَعْضِ بَيِّنَاتٍ عَمَّا فِي يَوْمِ الدِّينِ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ، وَهَذِهِ الْإِقْنَاعَاتُ وَالتَّرغِييَاتُ تُثَبِّتُ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أَنَّ أَنْبَاءَ الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ الْوَاردَةُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، هِيَ حَقٌّ يَقِينٌ.

ويختتم اللهُ السُّورَةَ بِأَمْرِ كُلِّ مُتَلَقٍّ لَدَيْهِ الْاسْتِعْدَادُ لِأَنَّ يَوْمَ مَنْ يُسَلِّمَ، لِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ خَيْرٍ، بِأَنْ يُسَبِّحَ بِاسْمِ رَبِّهِ الْعَظِيمِ الْمَهْمُومِ عَلَيْهِ دَوَاماً بِصِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ.



(٤)

دروس سورة (الواقعة)

بالتأمل ظهر لي تقسيم سورة (الواقعة) إلى أربعة دُرُوس:

الدرس الأول:

يَتَضَمَّنُ التَّذْكِيرَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَقْرُوناً بِذِكْرِ بَعْضِ مَا يَجْرِي قُبَيْلَهُ وَعِنْدَ خُدُوثِهِ، وَبُعَيْدِهِ، وَيَتَضَمَّنُ بَيَانَ تَقْسِيمِ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْأَصْنَافِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا ضَمَّنَ بَيَانَ مَوْضُوعِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَيَتَضَمَّنُ بَيَانَ لِقَطَاتٍ مِنْ جَزَاءِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ. وَهُوَ الْآيَاتُ مِنْ (١ - ٥٦).

الدرس الثاني:

يَتَضَمَّنُ مُعَالَجَةَ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ بِبَعْضِ الْإِقْنَاعَاتِ وَالْحُجَجِ الْبِرْهَانِيَّةِ، مِنَ الظَّاهِرَاتِ الْكُونِيَّةِ. وَهُوَ الْآيَاتُ مِنْ (٥٧ - ٧٤).

الدرس الثالث :

يتضمَّن بيانَ مَجْدِ القرآنِ الذي يَشْهَدُ ما فيه من إعجازٍ على صِدْقِ ما
اشتمل عليه من أخبارٍ عَنِ البَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وما يجري فيه .
ويتضمَّن معالِجَةَ المَكْذِبِينَ يَوْمَ الدِّينِ بَيِّنَاتٍ وَحُجَجٍ فيها إقناعٌ
كافٍ، لطالبي الحقِّ، مع الترغيب والترهيب، بعَرَضٍ بَعْضٍ ما يجري فيه
من جزاءٍ بالثواب، أو جزاءٍ بالعقاب .
وهو الآيات من (٧٥ - ٩٤) .

الدرس الرابع :

يُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الخطابَ لِمَنْ يَتَلَقَّى القرآنَ وهو مؤمن به، أو
مُسْتَعِدٌّ لَأَنْ يُؤْمِنَ به وبكلِّ ما جاء فيه، وهذا الخطاب يتضمَّن بياناً أنَّ ما
جاء في أنباء القرآن لَهُوَ حَقٌّ اليقين، ويتضمَّن تَوْجِيهَهُ لَأَنْ يُسَبِّحَ بِاسْمِ رَبِّهِ
العظيم، المَهْمِينِ عليه دواماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ .
وهو الآيتان: (٩٥) و(٩٦) .



(٥)

السُّورُ الَّتِي سَبَقَ الْحَدِيثُ فِيهَا عَنِ الْجَزَاءِ وَالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وَبَعْضُ مَا يَجْرِي فِيهِ

إذا استثنينا سُورَ «الشَّرْحِ - والكوثر - والكافرون - والفلق - والناس -
والإخلاص - وفُريش) وَجَدْنَا سائرَ السُّورِ الَّتِي سَبَقَ تَدَبُّرُهَا بِحَسَبِ تَرْتِيبِ
النزول، وهي (٣٨) سورة قد جاء فيها بيانٌ ما مُوسَّعٌ أو مُتَوَسِّطٌ، أو
مُقْتَضَبٌ، أو إلماحيٌّ في السُّورِ الصَّغِيرَةِ، وفي بَعْضِهَا تَفْصِيلَاتٌ، عن
الجزاء يَوْمَ الدِّينِ، وما فيه من حسابٍ وجزاءٍ وَإِدَانَةٍ لِلْعِبَادِ بِحَسَبِ
أَعْمَالِهِمْ، وفيها لَقَطَاتٌ بَيَانِيَّةٌ من مشاهدِ يَوْمِ الدِّينِ، ومشاهدٍ مِمَّا يَجْرِي

في الجنة مِنْ ثَوَابٍ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ، وَمَشَاهِدًا مِمَّا يَجْرِي فِي دَارِ الْعَذَابِ مِنْ عِقَابٍ لِلْكَافِرِينَ، بِحَسَبِ دَرَكَاتِهِمْ.

وهذا يَدُلُّ عَلَى الْقِيَمَةِ الْعُظْمَى لِلْإِيمَانِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي دَفْعِ الْإِنْسَانِ لِلاتِّزَامِ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ عَقِيدَةً وَعَمَلًا، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْجِزَاءِ الرَّبَّانِيِّ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى، يَقَعُ فِي الْمُرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، فِي أَسْوَاسِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لِأَنَّهُ هُوَ الرُّكْنُ الْعَظِيمُ الَّذِي يُحَرِّكُ فِي النُّفُوسِ مِخْوَرِي الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ، الْمَوْجَّهَيْنِ لِسُلُوكِ الْإِنْسَانِ، مَتَى اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ الْإِيمَانُ بِهِ، اسْتِقْرَارًا رَاسَخًا.

وهذه القيمة العظيمة، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ مِنَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ تَنْوِيعَ الْبَيَانِ عَنْ هَذَا الرُّكْنِ، فِي مُعْظَمِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ، لِتَعْمِيقِ جَذْوَرِهِ فِي الْقُلُوبِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِهِ، وَلِلتَّذْكِيرِ بِهِ فِي كُلِّ الْمُنَاسَبَاتِ الَّتِي فِيهَا أَمْرٌ بِفِعْلِ خَيْرٍ وَطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ نَهْيٍ عَنْ فِعْلِ شَرٍّ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِتَحْذِيرِ الْكَافِرِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ بِهِ، مِنْ عَاقِبَةِ مَا اخْتَارُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ بِإِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَلِقَطْعِ كُلِّ أَغْذَارِهِمُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَدِرُوا بِهَا، إِذَا وَقَفُوا يَوْمَ الدِّينِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، لِمَحَاسَبَتِهِمْ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَالْأَمْرِ بِسَوْقِهِمْ إِلَى دَارِ الْعَذَابِ، لِيَلْقَوْا جِزَاءَهُمْ بِالْعَدْلِ، عَلَى مَا قَدَّمُوهُ أَوْ أَخَّرُوهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يَوْمَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِيهَا مِمْتَحِنِينَ ذَوِي إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَمُمْكِنِينَ مِنْ تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِمَّا يَخْتَارُونَهُ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ.



(٦)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الواقعة)

وهو الآيات من (١ - ٥٦)

قال الله عز وجل:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَنُصِيبَنَّكَ كَذِبًا ۙ أَوْ لَنُقَعِّنَاكَ ذَبَابًا ۚ خَافِضَةً رَافِعَةً ۚ﴾ (١) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ﴾ (٢):

تمهيد:

تَحَدَّثَ هَذِهِ الْآيَاتُ عَنِ الْحَادِثَةِ الْعَظْمَى الْمُنْتَظَرَةِ، وَهِيَ قِيَامُ سَاعَةِ
الْبَعْثِ، بِقِيَامِ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَجْدَاثِ لِمَلَاقَاةِ وَعْدِ رَبِّهِمْ، يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي
يَكُونُ فِيهِ الْحِسَابُ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، وَتَجْرِي قُبَيْلَهُ وَمَعَهُ
تَغْيِيرَاتٌ كَوْنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ وَمُهَوَّلَةٌ، وَيُخْشَرُ فِيهِ الْخَلَائِقُ وَيُقْرَزُونَ، لِيَقْفُوا فِي
مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ خَاضِعِينَ خَاشِعِينَ أَذِلَّاءَ، لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا
قُوَّةَ.

وَمِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُمَهَّدَةِ لِذَلِكَ الْيَوْمِ، رَجَّ الْأَرْضَ بِعُنْفٍ شَدِيدٍ،
وَتَفْرِيقُ الْجِبَالِ وَتَجْزِئَتُهَا حَتَّى تَكُونَ ذَرَاتُهَا هَبَائِيَّةً مُتَطَايِرَةً فِي مُخْتَلِفِ
الْآتِجَاهَاتِ، وَمُنْبَثَّةً مَعَ الرِّيحِ لَيْسَ لَهَا اسْتِقْرَارٌ وَلَا ثَبَاتٌ.

وَالْخِطَابُ فِي هَذَا الدَّرْسِ مُوجَّهٌ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ : أي: إِذَا حَدَّثَتِ الْحَادِثَةُ، وَسَقَطَتِ
السَّاقِطَةُ الْعُظْمَى، الْمَعْلَقَةُ بِالْقَضَاءِ الرَّبَّانِيِّ عَلَى الزَّمَنِ الْمَقَرَّرِ أَنْ تَحْدُثَ
فِيهِ، فَهِيَ تَتَرَقَّبُ أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الزَّمَنُ الْمَعْلُومُ الْمَسْمِيُّ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ،
حَتَّى إِذَا حَانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ وَسَقَطَ عَنْ مَجْرَاهُ الْعَيْبِيُّ، سَقَطَتْ مَعَهُ وَاقِعَةٌ
بِاسْقَاطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا، إِذْ تَقَعُ بِأَهْوَالِهَا الْعِظَامَ عَلَى مَوَاقِعِ سُقُوطِ
أَحْدَاثِهَا فِي الْكَوْنِ، فَتَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْوَاقِعِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَضَاءً رَبَّانِيًّا
مُعْلَقًا عَلَى زَمَنِ وَقُوعِهَا فِي حَيِّزِ الْوُجُودِ.

يقال لغة: «وَقَعَ الشَّيْءُ» أي: سَقَطَ، وَحَدَّثَ.

والمراد بالواقعة أحداث يوم القيامة، وقد دلّ على هذا المراد ما في الآيات التالية لهذه الآية من قرائن، ودلّ التعريف بـ (ال) على عظمتها.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾: أي: لا يوجد بعد وقعت أحداث الواقعة العظمى نفس كاذبة، فلفظ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: «نفس» وهذا نظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾.

إنّ النفوس تكون يوم القيامة في حياة الحقّ الرهيبة مسلوبة الاختيار، إذ انتهى زمن ابتلائها، فلا تملك نفس فيها أن تكذب أو تحال أو تقول عن شيء ما إلا الحقّ والصّدق وما هو واقع، المؤمنون، والكافرون، والمنافقون الذين كانوا كذابين في الحياة الدنيا، لا يملك أحد منهم أن يقول يومئذٍ إلا الحقّ، وقد يُعطى الكافر عند محاسبته فقط حُرّيّة الدّفاع عن نفسه، فيجحد فتشهد عليه جوارحه فيخصمها قائلاً لها: عنك كنّ أدافع.

وبناءً على هذا الفهم الذي ترجّح لديّ فاللّام في عبارة ﴿لَوْعِنَهَا﴾ هي بمعنى: «بعد» مثل اللّام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السُّمُسِ﴾: أي: بعد زوال السُّمس عن كبد السماء، وهذا تحديد لأوّل وقت صلاة الظهر، ويمتد إلى وقت صلاة العصر حتى آخر وقتها، وبعد غروب الشمس، ويمتد إلى طلوع الفجر.

ومما لا تستطيع أن تكذب فيه نفس ما يومئذٍ، كلّ أحداث يوم الدين، لأنّها تكون أحداثاً مشهودة لجميع الخلائق، وواقعاً يذركه الحسّ، فما كان خبراً في الحياة الدنيا، قابلاً لأنّ يكذب به الكافر، بدافع من أهواء نفسه وشهواتها وكبرها ورغباتها في الفجور يصيرُ أمراً واقعاً

مشهوداً، ولأن كل نفس ظالمة تكون يومئذ في حالة دُغْرٍ شديدٍ مِنَ العذاب الذي تُساقُ إِلَيْهِ بِأَمْرِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْعَلِيمِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شيءٌ، فَهِيَ لَا تَمْلِكُ جُرْأَةً لَأَنْ تَكْذِبَ فِي شَيْءٍ خَوْفاً مِنْ زِيَادَةِ عَذَابِهَا، عَلَى احْتِمَالِ أَنَّهَا تَمْلِكُ حُرْيَةً أَنْ تَكْذِبَ.

إِنَّ الْمَلِكَ يَوْمَئِذٍ كُلُّهُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْقَهَّارِ.

وجملة: ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ ﴿٢﴾ يَتَرَجَّحُ لَدَيَّ أَنَّهَا اغْتِرَاضِيَّةٌ، بَيْنَ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ الْمُخْذُوفِ الْمُقَدَّرِ ذَهْنًا، فَهِيَ لَا مَحَلَّ مِنَ الْإِعْرَابِ كَسَائِرِ الْجُمَلِ الْإِغْتِرَاضِيَّةِ.

وتقدير جواب الشرط في: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿١﴾ أقول فيه مَعَ بَسِطٍ وَإِطْنَابٍ شَارِحَيْنِ مَا يَلِي: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ جَرَتْ أَحْدَاثٌ عَظَامٌ مَهُولَةٌ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، وَأَحْدَاثٌ عَظَامٌ مُرْهِبَةٌ لِلْعِبَادِ الَّذِينَ بُعِثُوا مِنْ أَجْدَانِهِمْ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ إِيْمَانًا وَعَمَلًا صَالِحًا يَمْنَحُهُمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ بِهِ أَمْنًا مِنْ عَذَابِهِ، بَلْ يَلْقَوْنَ يَوْمًا عَسِيرًا جِدًّا غَيْرَ يَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.

ويصلحُ بوضوح أن يكون جوابُ الشرط قولَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصْحَبُ أَلَمِيْنَةٍ﴾... وحتى آخر البيان الذي يَتَعَلَّقُ بِتَقْسِيمِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ يَوْمَ الدِّينِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ مُصَرَّحٍ بِهِمْ، وَصَنَّفَ رَابِعٍ مَطْوِيٍّ.

فَمِمَّا يَجْرِي يَوْمَئِذٍ لِلْعِبَادِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ مِنْ جَنٍّ وَإِنْسٍ، أَنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ بِحَوَادِثِهَا تَكُونُ خَافِضَةً لِفَرِيقٍ مِنْهُمْ فِي الدَّرَكَاتِ الْمُنْحَطَّاتِ النَّازِلَاتِ فِي اتِّجَاهِ أَسْفَلِ الْجَحِيمِ، بِحَسَبِ كُفْرٍ كُلِّ مِنْهُمْ، وَجَرَائِمِهِ وَكُثْرَةِ مَعَاصِيهِ. وَتَكُونُ رَافِعَةً لِفَرِيقٍ آخَرَ مِنْهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الصَّاعِدَاتِ فِي اتِّجَاهِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنْ جَنَّاتِ النِّعَمِ، بِحَسَبِ إِيْمَانِ كُلِّ مِنْهُمْ وَكُثْرَةِ مَا قَدَّمَ مِنْ أَعْمَالٍ دَرَجَاتٍ مَرْتَبَةٍ

«التقوى» ودرجات مرتبة «البر» ودرجات مرتبة «الإحسان» فقال الله عز وجل:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ (٢): أي: هي خافضة رافعة، وفي القراءة الأخرى ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ (٢) بالنصب على الحالية، أي: حالة كونها خافضة رافعة.

﴿خَافِضَةٌ﴾: اسم فاعل من فعل: «خَفَضَهُ» بمعنى أنزل مكانه المادي، أو مكانته المعنوية في الدرجات أو في الدركات، وحط منها في اتجاه الأسفل.

يقال لغة: «خَفَضَ الْخَافِضُ الشَّيْءَ» أي: حطه من علو، وأنزل درجته أو درجته نحو الأسفل.

﴿رَّافِعَةٌ﴾: اسم فاعل من فعل: «رَفَعَهُ» بمعنى أغلاه في الدرجات صعوداً.

جاءت نسبة الخفض والرفع في هذه الآية، لأحداث يوم الدين، الواقعة مستقبلاً لا محالة، نظراً إلى أنها أدوات وأسباب الخفض والرفع بحسب الظاهر، مع العلم بأن الفاعل الحقيقي هو الله عز وجل، لأنه هو القاضي بالجزاء، وهو الأمر بتنفيذه، وهو الخالق للأدوات والأسباب والمسببات.

وهنا يقع في الأذهان تساؤل مفاده: هل لنا أن نتلقى بياناً عن بعض الظواهر الكونية العظمى التي تحدث في هذه الواقعة؟.

فجاء الجواب الرباني في قول الله عز وجل:

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿١﴾ وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٢﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٣﴾﴾.

أي: تكون هذه الواقعة، ذات الأحداث العظمى، إذا رجَّت الأرض

رَجًا عَنِيفًا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا شَدِيدًا، فَكَانَتْ بِالْبَسِّ الشَّدِيدِ نَاعِمَةً
الذَّرَاتِ كَالْهَبَاءِ الَّذِي يَتَطَايَرُ فِي الْجَوِّ، إِذْ لَا وَزْنَ لَهُ يَنْحَطُّ بِهِ إِلَى
الْأَرْضِ.

﴿رُجِعَ الْأَرْضُ﴾ أي: هُزَّتْ، وَحُرِّكَتْ بِشِدَّةٍ، يُقَالُ لُغَةً: «رَجَّ الْحَدَثُ
الشَّيْءَ يَرْجُهُ رَجًّا» أي: هَزَّهُ، وَحَرَّكَهُ بِشِدَّةٍ، فَارْتَجَّ، أي: فَاهْتَزَّ وَتَحَرَّكَ
وَاضْطَرَبَ.

﴿رَجًّا﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الرَّجِّ وَعُنْفِهِ.

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ﴾: أي: وَفُتَّتِ الْجِبَالُ إِلَى أَجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ جَدًّا، يُقَالُ
لُغَةً: «بَسَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ بَسًّا، وَبَسَّتِ الرَّحَا الْحَبَّ بَسًّا» أي: فَتَّتَهُ، وَفَرَّقَتْهُ،
فَالْبَسُّ التَّفْثِيثُ إِلَى أَجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ وَالتَّفْرِيقُ.

﴿بَسًّا﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ التَّجْزِئَةِ وَالتَّفْرِيقِ.

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾: أي: فَكَانَتْ الْجِبَالُ بِالْبَسِّ الَّذِي حَدَثَ
فِيهَا هَبَاءً مُتَفَرِّقًا فِي الْجَوِّ، لَا وَزْنَ لَهُ يَجْعَلُهُ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ.

الْهَبَاءُ: التُّرَابُ النَّاعِمُ الدَّقِيقُ أَوْ نَحْوَهُ، مِنْ كُلِّ مَا يَطِيرُ مَعَ الْهَوَاءِ،
وَقَدْ يَغْلُقُ بِالْأَشْيَاءِ، أَوْ لَا يَغْلُقُ، فَيَنْبَثُّ فِي الْجَوِّ مُتَفَرِّقًا، فَلَا يَبْدُو مِنْهُ إِلَّا
ذَرَاتٌ تَتَحَرَّكُ فِي الْجَوِّ تُرَى فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ الدَاخِلِ مِنْ كَوَّةٍ مَا إِلَى مَكَانٍ
مُظْلِمٍ.

﴿مُنْبَثًّا﴾ أي: مُتَفَرِّقًا مُتَشِيرًا يَتَطَايَرُ فِي الْجَوِّ، يُقَالُ لُغَةً: «بَثَّ، يَبُثُّ،
بَثًّا» أي: فَرَّقَهُ، وَنَشَرَهُ، فِي مُخْتَلَفِ الْجِهَاتِ. وَيُقَالُ: «بَثَّتِ الرِّيحُ التُّرَابَ
وَنَحْوَهُ» أي: أَثَارَتْهُ، وَهَيَّجَتْهُ، وَفَرَّقَتْهُ فِي الْجِهَاتِ.

فَالْمَعْنَى: تَكُونُ الْوَاقِعَةُ الْكُبْرَى الْمُنْتَظَرَةُ، إِذَا هُزَّتِ الْأَرْضُ وَحُرِّكَتْ
تَحْرِيكًا شَدِيدًا عَنِيفًا، وَفُتَّتِ الْجِبَالُ إِلَى أَجْزَاءٍ صَغِيرٍ جَدًّا، حَتَّى صَارَتْ

مِثْلَ الْهَبَاءِ الَّذِي يَنْبُثُ وَيَنْتَشِرُ فِي الْفُضَاءِ مِثْلَ مِثْلِ الدَّرَاتِ الصَّغِيرَاتِ
الْمِثْلَ فِي الْجَوِّ لِحِفَّتِهَا، وَلَا تُرَى بِالْأَبْصَارِ إِلَّا فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ
الِدَاخِلِ مِنَ الْكَوَّةِ إِلَى مَكَانٍ مَظْلَمٍ.

وهذه الظاهرة التي سَوْفَ تَحْدُثُ، هي إِحْدَى الظواهر التي جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ أَرْزَاقَ حُدُوثِهَا قُبِيلَ الْوَاقِعَةِ الْكُبْرَى، أَوْ مَعَهَا، وَعِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ^(١).

قول الله عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِكُلِّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعِ
الْإِبْتِلَاءِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ:

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَبُ الِّمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِّمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَبُ
الِّشِّمَةِ مَا أَصْحَبُ الِّشِّمَةِ ۚ وَالسَّيِّفُونَ السَّيِّفُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمَقَرُّونَ ۚ فِي
جَنَّتِ الْعِيعِ ۚ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ
ۚ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۚ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۚ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَّاسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ۚ لَا يَصْغَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَزِفُونَ ۚ وَفَلَكَهَمٌ مِّمَّا يَتَخَبَّزُونَ ۚ
وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ۚ وَحُورٌ عِينٌ ۚ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ۚ جَزَاءُ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيماً ۚ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۚ﴾.

تمهيد:

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، بَيَانٌ تَقْسِيمِ
النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ إِلَى أَصْنَافٍ ثَلَاثَةٍ، وَيُفْهَمُ الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ التَّقَابُلِ
وَالْتَنَاطُرِ بَيْنَ الْأَصْنَافِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ تَحْتَ عِنْوَانِ «مَوْضُوعِ السُّورَةِ».

(١) انظر استعراض ما جاء في القرآن بشأن الأطوار التي تتعرض لها الجبال في
المستقبل، فيما سبق بيانه لدى تدبر الآية (٣) من سورة (التكوير) ٨١ مصحف/ ٧
نزول).

وفيها بيانٌ لَقَطَاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ مِنْ جَزَاءِ السَّابِقِينَ فِي الْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ صِنْفًا ثَالثًا، لاسْتِكْمَالِ بَيَانِ لَقَطَاتٍ مِنْ ثَوَابِهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَوَّلًا، عَقِبَ ذِكْرِ كَوْنِهِمْ صِنْفًا ثَالثًا مُتَنَازِلًا، دَلَّ عَلَى تَمَيُّزِهِمْ تَكَرُّرُ وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمُ السَّابِقُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) وَقَدْ اسْتَفَادَ الشَّاعِرُ أَبُو النَّجْمِ مِنْ هَذَا الْأَسْلُوبِ الْبَيَانِيِّ، فَقَالَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى شِعْرِهِ الْمَتَمِّيزِ: أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧): أي: وصِرْتُمْ بِالْكَيْنُونَةِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ بَعْدَ فَرَزِكُمْ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ يَوْمَ الدِّينِ، أَصْنَافًا ثَلَاثَةً.

﴿أَزْوَاجًا﴾: أي: أَصْنَافًا: «يُطْلَقُ الزَّوْجُ فِي اللَّغَةِ عَلَى الصَّنَفِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» وَجَمْعُهُ «أَزْوَاجٌ» وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ هُنَا.

وَيُطْلَقُ الزَّوْجُ فِي اللَّغَةِ وَيَرَادُ بِهِ خِلَافَ الْمَفْرَدِ. وَكُلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ هُمَا زَوْجَانِ، وَلَوْ كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ غَيْرَ مُشَاكِلَيْنِ. وَالتَّزْوِيجُ فِي اللَّغَةِ: قَرْنُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، وَمِنْهُ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧): أي: قُرِنَتْ بِهَا الْأَرْوَاحُ الَّتِي كَانَتْ مُتَفَصِّلَةً عَنْهَا بِالمَوْتِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨): فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ لِلصَّنَفِ الْأَوَّلِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مِنْ جُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاءُ جَاءَتْ تَفْرِيعًا عَلَى عِبَارَةِ: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧) وَتَضَلُّحُ أَنَّ تَكُونَ وَاقِعَةً فِي جَوَابِ شَرْطٍ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١١): أي: فَالْمَحْشُورُونَ لِلْجَزَاءِ: أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ.

«الْمِيمَنَّة»: تأتي في اللُّغَةِ بمعنى اليُمْنِ الذي هو ضِدُّ الشُّؤْمِ، وتأتي بمعنى جِهَةِ الْيَمِينِ.

«أَصْحَاب»: جمع «صَحْب» وهذا جمع «صَاحِب» وتجمع لفظة «أَصْحَاب» على «أَصْحَابِ» من صَيَغِ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ، فالمراد بأصحاب المِيمَنَةِ أصحاب اليمين، كما جاء في الآية (٢٧) الآتية لدى التفصيل في بيان لمَحَاتٍ من الجزاء المعدُّ لَهُمْ.

والصَّاحِبُ في اللُّغَةِ: هو المعاشِر المخالط المرافق، وقد حصل تَوَسُّعٌ في استعمال كَلِمَةِ «صاحب» وكلمة «أصحاب» فَتُسْتَعْمَلَانِ للدلالة عَلَى مُطْلَقِ الْمِلَازِمَةِ أو الاقتران، أو الحُلُولِ في المكان، أو الانتماء إليه، أو الانتماء إِلَى أَيِّ شَيْءٍ، أو لِمَلْكِ الشَّيْءِ، أو لِحِيَازَتِهِ، وتُطْلَقَانِ عَلَى كُلِّ عِلَاقَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ.

وجاء عند المفسرين في تفسير «أصحاب المِيمَنَةِ» أَنَّهُمُ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، أَوِ الَّذِينَ يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ إِلَى جِهَةِ الْجَنَّةِ، أَوِ الَّذِينَ يُوَضَّعُونَ عَنِ يَمِينِ الْعَرْشِ.

أقول: كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي صَالِحَةٌ لِتَفْسِيرِ أَصْحَابِ الْمِيمَنَةِ، فَهُمْ يَأْخُذُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ إِلَى جِهَةِ الْجَنَّةِ، وَيُوَضَّعُونَ عَنِ يَمِينِ الْعَرْشِ، فَالْأَوَّلَى حَمْلُ الْعِبَارَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا، دُونَ تَرْدِيدِ بَيْنَهَا.

وعبارة: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾؟ استفهام تَعْجِيبِيٌّ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، وَالثَّوَابِ الدَّائِمِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، الَّذِي يَمْنَحُهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ الثَّنَاءِ عَلَى مَنَزَلَتِهِمُ الرِّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

أي: أَعْظَمُ مُعْجَبٍ أَثَمًا الْمُتَلَقِّي، بِمَا سَوْفَ يَلْقَى أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ لَا تَسْتَطِيعُ تَصَوُّرُهُ وَلَا التَّكَهُنُ بِهِ، ففِي

أنواع نعيمهم وإكرام الله جلَّ جلالهَ لَهُمْ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ.

وهذا أسلوبٌ تعجيبى من أساليب القرآن التي جاءت في نصوصٍ عَدِيدَةٍ منه مثل: «القارعةُ مَا الْقَارَعَةُ؟ - الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ؟ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ؟ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْقُضْلِ؟ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ» ونحوها.

وهو من الأساليب التعجيبية التي لم تكن معروفةً عند البلغاء فيما أعلم.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ﴾: في هذه الآية بيانٌ للصنف الثاني من عباد الله يَوْمَ الدين، وهُمْ أَصْحَابُ الشمال.

والجملة معطوفة على الجملة السابقة لها، فهي مُفَرَّعة على عبارة ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾.

«الْمَشْأَمَةُ»: تأتي في اللُّغَةِ بمعنيين: بمعنى الشُّؤْم الذي هُوَ ضِدُّ اليُمْن، وبمعنى جِهَةِ الشمال.

وقد جاء عند المفسرين في تفسير «أصحاب الْمَشْأَمَةِ» أنهم الَّذِينَ يأخذون صُحُف أعمالهم بشمائلهم، أو الَّذِينَ يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَات الشمال إلى جهة النار، أو الَّذِينَ يُوضَعُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ.

أقول: كلُّ هَذِهِ المعاني صالحةٌ لتفسير أصحاب المشأمة، فهمُ يأخذون كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلِهِمْ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَات الشمال إلى جِهَةِ النار، وَيُوضَعُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، فالأولى حَمْلُ العبارة على هذه المعاني كُلِّهَا، دون تَرْديدِ بَيْنَهَا.

وتدبر بقية الآية يُقَاسُ على نظيرتها السابقة لها.
قول الله عز وجل:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾: في هاتين الآيتين بيان للصنف الثالث من عباد الله يوم الدين، وهم السابقون المتقدمون المتفوقون من أصحاب اليمين، يفرزهم الله عز وجل منهم، ويميزهم ويجعلهم سابقين في الصفوف الأولى من المؤمنين المسلمين المتقين، وسبقهم يكون باستكثارهم من فعل الخيرات والصالحات والقربات من أعمال مرتبة «البر» وأعمال مرتبة «الإحسان» ابتغاء مرضاة الله عز وجل، والتقرب إليه جل جلاله وعظم سلطانه، وهذه الأعمال الظاهرة أو الباطنة ليست من فعل الواجبات وترك المحرمات، بل هي من نوافل العبادات والقربات، بفعل المندوب إلى فعله دون إلزام، وترك المندوب إلى تركه دون إلزام.

يقال لغة: «سبق الفارس القافلة» أي: تقدّمها فصار قبلها في المسير. «وسبق الفرس» أي: جاء قبل الأفراس في الحلبة. ويقال: «سبق فلان على قومه بالعلم أو بالجود والكرم» أي: تفوّق عليهم بذلك.

فالسابقون: هم المتفوقون المتقدمون على سائر المؤمنين المتقين.
وجاء تكرير وصفهم بالسابقين فقال الله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ للإشعار بالثناء عليهم بالتفوق والتقدم إلى الصفوف الأولى.

وبما أن أعمالهم التسابقيّة كانت في اتجاه التقرب إلى الله بفعل الصالحات التي ترضيه جل جلاله، كان من مكافأتهم عند ربهم أن يُنْزِلَ عليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: أولئك رفيعو المنازل هم المقربون عند ربهم، ثواباً لهم على سبقهم بصالحات أعمالهم.

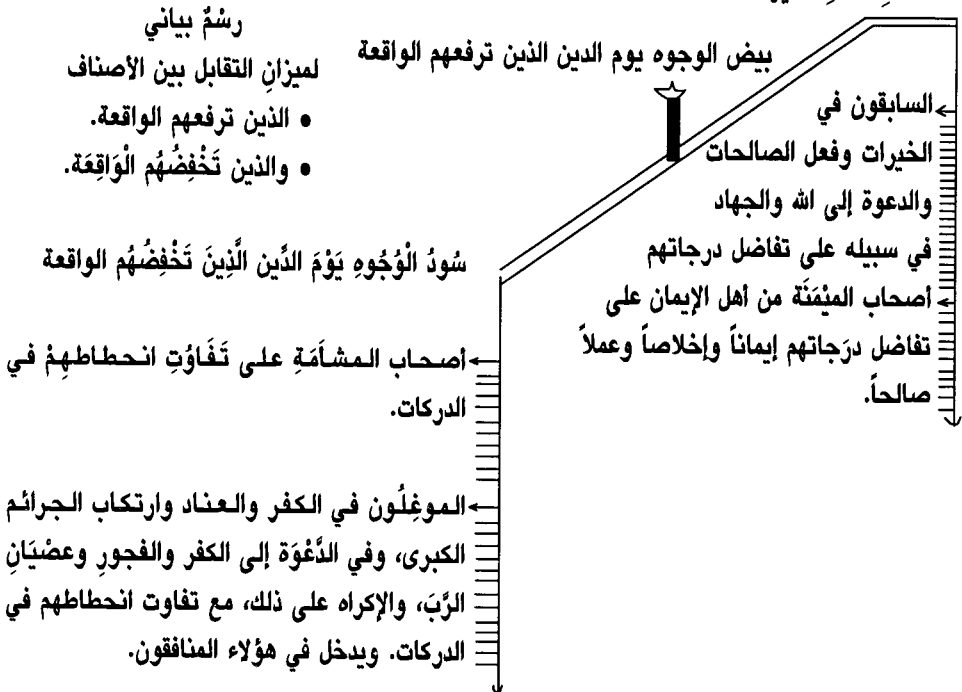
وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح:

«إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

رواه البخاري عن أنس بن مالك (انظر الحديث (٧٥٣٦) في «فتح الباري».

والمراد التقربُ إلى الله بما يُحبُّ من عبده من الأعمال الصالحة، من الفرائض فالنوافل، ومن ترك المحرمات فالمكروهات. ولا يزال العبدُ يتقربُ إلى الله بالنوافلِ حتى يُحبَّه، وحينئذٍ يتقربُ الله منه بفيوضِ رَحْمَاتِهِ وَعَطَائِهِ. ويقابلُ هذا الصَّنْفَ السَّابِقَ الْمُتَفَوِّقَ، صِنْفٌ رَابِعٌ طَوَاهِ النَّصِّ الْقِرَائِي لِإمكانِ استخراجِه بالتَّدْبِيرِ، وهم صِنْفٌ غُلَاةُ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ الْمُتَجَبِّرِينَ، الدُّعَاةُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْفَجْرِ، وهم فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فِي مَقَابِلِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ هم من أهل الفردوس الأعلى ذِي الدَّرَجَاتِ الْمُتَفَاضِلَاتِ.

وَالسَّابِقُونَ هُمُ الْمُرْسَلُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ، وَالصُّدِّيْقُونَ، وَالشَّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ ذَوِي الْمُرْتَبَةِ السَّامِيَةِ، وَالدَّرَجَاتِ الْمُتَفَاضِلَاتِ فِيهَا.



قول الله عز وجل:

• ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات بيان عن حال «السَّابِقِينَ السَّابِقِينَ» المتميزين بالسَّبقِ والتَّفوقِ، والقُرْبِ من الله ربِّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وبعْدَهَا يأتي عَرْضَ لقطاتٍ من نعيمهم الَّذِي يَكْفِيهِمْ رَبُّهُمْ بِهِ.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: جنّات: جَمْعُ «جَنَّةٍ» وهي في اللُّغة مَا يَحْتَوِي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوعٍ وأنهارٍ وقُصُورٍ، وعلى كلِّ ما يَلَذُّ وَيَطِيبُ للنفوس والحواسِّ. ودارُ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ فيها جنّاتٌ كَثِيرَاتٌ باعتبار أَقْسَامِهَا، وَيَجْمَعُهَا جميعاً اسْمُ «جَنَّةٍ» باعتبار أَنَّهَا كُلُّهَا دارُ للنَّعيمِ، كشأن دَارِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا بَكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ أَرْضٍ وسماواتٍ وما بينهما.

النَّعيم: مَصْدَرُ: «نَعِمَ الرَّجُلُ، يَنْعَمُ، نَعْمًا، وَنَعْمَةً، وَنَعِيمًا» أي: طَابَ، وَرَفُهُ، وَهَدَأَ بَالُهُ، وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ، وَاسْتَرَاحَ، وَتَأْتِي مَادَّةُ «نَعِمَ» بِمَعْنَى: «نَضَرَ» وبمعنى: «لَانَ مَلَمَسُهُ»، وكلُّ هذه المعاني يَصِحُّ وَصْفُ نَعِيمِ الْجَنَّةِ بِهَا.

وللتفريق بَيْنَ لَذَاتِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ رَفَاهِيَّةٍ وَطَيِّبَاتٍ، وَبَيْنَ مَا فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ ذَلِكَ، وَصَفَ اللهُ مَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ «مَتَاعٌ» لِسُرْعَةِ زَوَالِهِ، وَقَلَّةِ قِيَمَتِهِ، وَوَصَفَ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ «نَعِيمٌ» لتخصيص هذا اللَّفْظِ بما هو باقٍ خَالِدٌ مُتَجَدِّدٌ، وبما هُوَ عَظِيمُ الْقِيَمَةِ لِدَوَّةِ وَسَعَادَةِ وَرَفَاهِيَّةٍ.

• ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

«الثُّلَّةُ»: في اللُّغة الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وَيُرَادُّ بِهَا هُنَا الْجَمَاعَةُ الَّتِي لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ، لِمُقَابَلَةِ «الثُّلَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ» فِي النَّصِّ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الْأَوَّلُونَ: هم الأنبياء والمرسلون من عهد آدم، والسابقون المتفوقون من الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهُمْ بإحسان، وكان هؤلاء ثلَّةً بالنسبة إلى أعداد البشر الأولين.

الْآخِرُونَ: هم الرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وأصحابه الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، والتَّابِعُونَ لَهُمْ بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ، وهؤلاء قَلِيلُونَ، نظرًا إلى كَثْرَةِ أَعْدَادِ النَّاسِ فِي الْآخِرِينَ.

لَكِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنَ الْآخِرِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ السَّابِقِينَ، قَدْ يَصِلُونَ إِلَى مَقْدَارِ نِصْفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ جَمِيعًا، كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدري (مِنْ حَدِيثِ ذِي طُولٍ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«... وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ:

«أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا.

قول الله عز وجلَّ:

• ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَكِينِينَ عَلَيْهِا مُتَقَابِلِينَ ۚ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۖ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۚ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ۚ (١٩) وَفَكَهَمُوا مِمَّا انتَحَرْتُمْ ۖ (٢٠) وَلَعَمْرَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ۚ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ ۖ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْتُونِ ۖ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۚ﴾

في هذه الآيات وَصِفَ لِبَعْضِ نَعِيمِ السَّابِقِينَ الْمُتَمَيِّزِينَ بِسَبْقِهِمْ، فِي

جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ كَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا، سَابِقِينَ فِي الْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، مِمَّا فِيهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ مِنْ مَحَابِّهِ.

• ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ (١٥): الْجُمْلَةُ هَذِهِ حَالِيَّةٌ: أَيْ: حَالَةُ كَوْنِهِمْ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ سَعْدَاءَ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ. «السُّرُرُ»: جَمْعُ «السَّرِيرِ» هُوَ الْمُضْجَعُ ذُو الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الْأَرْضِ، وَمَا يُشَبِّهُهُ، وَيُبَسِّطُ الْفِرَاشُ اللَّيْنُ عَلَى قَدْرِ الْمَسْطَحِ مِنْهُ، وَيُجْمَعُ أَيْضاً عَلَى: «أَسِرَّةٍ».

«الْمَوْضُونَةُ»: أَيْ: الْمَنْسُوجَةُ، الْوَضْنُ: النَّسْجُ الْمَضَاعَفُ، وَيُقَالُ: وَضَنَ السَّرِيرَ وَأَشْبَاهَهُ بِالْجَوْهَرِ فَهُوَ «وَاضِنٌ» وَهِيَ «وَاضِنَةٌ» وَالْمَفْعُولُ: «مَوْضُونٌ».

أَيْ: مُسَطَّحَاتُ هَذِهِ السُّرُرِ مَنْسُوجَةٌ نَسْجاً مُضَاعِفاً، وَمُطَعَّمَةٌ بِالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ، وَخُيُوطُ الذَّهَبِ وَأَسْلَاقِهِ.

وجاء في القرآن وصف هذه السُّرُرِ بِأَنَّهَا مَصْفُوفَةٌ، وبأنَّهَا مَرْفُوعَةٌ:

• فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) في وصف الجنة:

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ (١٣).

• وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في وصف نعيم المتقين في جَنَّاتِ النِّعَمِ:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٢٠).

قول الله تعالى:

• ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ﴾ (١١): «الْمُتَّكِئُ»: مَنْ يَسْتَوِي قَاعِداً عَلَى وَطْءٍ مُتَمَكِّناً. و«الْإِتْكَاءُ»: هُوَ الْجُلُوسُ بِتَمَكُّنٍ عَلَى مَجْلِسٍ وَثِيرٍ، وَيُصَاحِبُهُ

غالباً وضع اليَدِ أو اليَدَيْنِ عَلَى مَا يَحْمِلُهُمَا لِلرَّاحَةِ، أي: فهم يتكئون عَلَى الشُّرُرِ.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: أي: يُقَابِلُ هؤلاء السَّابِقُونَ من أهل جنات النعيم بَعْضُهُمْ بَعْضاً بوجوههم، فَيُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيُحَادِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مُحَادَثَاتٍ إِنْسَانٍ وَتَنْعَمُ بِنَفْسِ الْأَحَادِيثِ، لَأَنَّ هَذِهِ من لوازم التقابل في مجالسِ الْأَنْسِ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ الْمُتَصَافِينَ، الَّذِينَ لَا يُضْمِرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَيْلاً، مِنْ حِقْدٍ أَوْ حَسَدٍ أَوْ تَنَافُسٍ، وَلَوْ تَفَاوَضَتْ دَرَجَاتُهُمْ. وهذه الجملة حالية أيضاً، فالعبارات من الجملة الحالية المتتابعة، كالجمل الوصفية.

قول الله تعالى:

• ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٨﴾﴾:

وهذه جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ أيضاً، مناظرة لسابقتها.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾: أي: يَدُورُ عليهم، وَلَا يَلْزُمُ أَنْ يَكُونَ الطَّوْفُ عَلَى شكل دائرة مُتَسَاوِيَةِ الْأَبْعَادِ عن المحور، أو متقاربة الأبعاد، بَلْ كُلُّ عَوْدٍ عَلَى بَدْءٍ فِي الْحَرَكَةِ يُسَمَّى طَوْافاً، وَمِنْهُ الطَّوْفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ.

يُقَالُ لُغَةً: «طَافَ حَوْلَهُ، وَبِهِ، وَعَلَيْهِ، وَفِيهِ، يَطُوفُ طَوْفاً، وَطَوَافاً» أي: دَارَ، وَحَامَ، وَعَادَ فِي حَرَكَتِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِينَ بَدَأَ مِنْهُ، أَوْ مَرَّ عَلَيْهِ أَوْ بِهِ.

﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾: «الْوِلْدَانُ»: جَمْعُ «الْوَلِيدِ» والمرادُ بِهِ هُنَا الْعُلَامُ الخادم.

﴿مُخَلَّدُونَ﴾: أي: يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ بَاقِينَ أَبَدًا فِي خِدْمَتِهِمْ، وَهُمْ يَتَنَعَّمُونَ بهذه الخدمة، والمرجَّحُ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ فِي الْجَنَّةِ لخدمة أصحابها، كَالْحُورِ الْعِينِ.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) وَضَفُّهُمْ بَأْنَهُمْ غِلْمَانٌ، كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكْنُونٌ جَمَالاً وَحُسْنًا وَأَنَاقَةً، «اللُّلُؤُ الْمَكْنُونُ»: هُوَ المحفوظ المستور، الَّذِي لَا تَعْبَثُ بِهِ الْأَيْدِي، حِمَايَةً لَهُ مِنْ إِفْسَادِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا يَغَيِّرُ صَفَاءَهُ وَنَقَاءَهُ، وَدَرَجَةَ جَمَالِهِ مِنْ عَوَارِضٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكْنُونٌ﴾ (١٤).

﴿غِلْمَانٌ﴾: جمع «غلام» وَهُوَ الْخَادِمُ الَّذِي طَرَّ شَارِبُهُ، وَبَدَأَ الدُّخُولَ فِي مَرَحَلَةِ الشَّبَابِ.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَضْفِ نَعِيمِ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوًا مَشْرُوعًا﴾ (١٩).

فَدَلَّ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ مَا جَاءَ فِي آيَةِ سُورَةِ (الطور) عَلَى أَنَّ جَمَالَهُمْ كَجَمَالِ اللَّوْلُو الْمَكْنُونِ الَّذِي لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدِي الْعَابِثِينَ، وَأَنَّ انْتِشَارَهُمْ فِي مَجَالِسِ الْمُنْعَمِينَ فِي الْجَنَّةِ كَاللُّلُؤِ الْمَكْنُونِ نَشْرًا بَدِيعًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَاكُوبَ وَأَبْرِيْقَ وَكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (١٨).

أَي: يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ بِهَذِهِ الْأَدْوَاتِ النَّفِيسَةِ، وَذَكَرَ هَذِهِ الْأَدْوَاتِ يُشْعِرُ عَنْ طَرِيقِ الْكِنَايَةِ بِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعٍ أَشْرَبَةِ نَفِيسَةٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ.

﴿يَاكُوبَ﴾: «الْأَكُوبُ»: جَمْعُ «الْكُوبِ» وَهُوَ الْقَدَحُ مِنَ الرُّجَاجِ وَنَحْوِهِ، الْمُسْتَدِيرُ الرَّأْسَ، الَّذِي لَا آذَانَ لَهُ، وَلَا عُزْوَةَ، وَهُوَ مِنْ آنِيَةِ الشَّرَابِ، وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى أَكُوبٍ.

﴿وَأَبْرِيْقَ﴾: «الْأَبَارِيقُ» جمع «الْإِبْرِيقِ» وَهُوَ إِنَاءٌ ذُو أُذُنٍ وَخُرْطُومٍ

يَنْصَبُ مِنْهُ السَّائِلُ . وَسُمِّيَ إِبْرِيْقًا لِأَنَّ مَعْدِنَهُ يَبْرُقُ مِنْ صَفَائِهِ وَنَفَاسَتِهِ .

﴿وَكُلْسٍ﴾ : «الْكَأْسُ» الْقَدَحُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَمْرُ، وَيُجْمَعُ عَلَى «أَكْوُسٍ» وَ«كُؤُوسٍ» فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَمْرٌ فَهُوَ كُؤُبٌ .

﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ : أي : من نَهْرٍ خَمْرٍ يَجْرِي فِي الْجَنَّةِ ظَاهِرًا يَسْهُلُ التَّنَاولُ مِنْهُ .

وَإِذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بَيَانُ أَنَّ الْجَنَّةَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مَصْفًى، وَلَمَّا كَانَتْ الْكَأْسُ هِيَ الْقَدَحُ الْمَمْلُوءُ بِالْخَمْرِ فِي اللَّغَةِ، فَالَّذِي أَرَاهُ أَنْ تَكُونَ عِبَارَةً : ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ وَضْفًا عَامًّا لِلْأَكْوَابِ، وَالْأَبَارِقِ، وَالْكَأْسِ، بِاِغْتِبَارِ مَا فِيهَا، أَيْ : مَمْلُوءَةٍ مِنْ أَنْهَرٍ تَجْرِي فِي الْجَنَّةِ، مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ : وَلَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَخَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَعَسَلٍ مَصْفًى، وَإِذْ كَانَتْ الْكَأْسُ الْقَدَحُ الْمَمْلُوءُ خَمْرًا، فَلَا قُدَاحَ وَالْأَبَارِقَ تَبْقَى لِلْمَاءِ، وَاللَّبَنِ، وَالْعَسَلِ الْمَصْفًى .

وَفِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَنْهَارِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (مُحَمَّد/٤٧ مَصْحَف/٩٥ نَزُول) :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ (١٥) .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ : أَيْ : وَضْفُ الْجَنَّةِ .

﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ : أَيْ : لَا يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ بِالْمَتْنَتَاتِ .

﴿لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ : أَيْ : لَمْ يَتَأَثَّرْ بِالْمَتْنِنَاتِ عَلَى طُولِ الْمَدَى، فَكُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْمُنْعَمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَجَدُوهُ كَأَنَّهُ قَدْ خُلِقَ لِسَاعَتِهِ .

﴿مَنْ حَمَرَ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ﴾: أي: مَعَ سَلْبِ صِفَةِ الإِسْكَارِ مِنْهَا، إِذْ لَا غَوْلَ فِيهَا، كَمَا جَاءَ فِي نصوصٍ أُخْرَى.

قول الله تعالى:

﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَلَا يُنْزِفُونَ].

﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾: أي: لَا تُصَابُ رُؤُسُهُمْ بِالصُّدَاعِ بِسَبَبِ شُرْبِهِمْ خَمَرَ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، بخلاف خُمُور الدُّنْيَا.

حَرْفُ «عَنْ» يَأْتِي بِمَعْنَى التَّجَاوُزِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى التَّعْلِيلِ، وَمِنْ هَذَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّهِنَّ لَا يُصَابُونَ بِالصُّدَاعِ بَعْدَ شُرْبِهَا بِسَبَبِ شُرْبِهِمْ لَهَا.

الصُّدَاعُ: أَلَمٌ فِي الرَّأْسِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ عَرَضٌ فِيهِ تُسَبِّبُهُ وَتُحْدِثُهُ مَوْثِرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا ارْتِفَاعُ ضَغْطِ الدَّمِ، وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُهُ الْخَمَرُ فِي بَعْضِ أَجْزَاءِ الْجِسْمِ.

وَجُمْلَةُ: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ.

﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾: [وَلَا يُنْزِفُونَ] فِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى، وَقَدْ سَبَقَ فِي الْقِرَاءَاتِ تَوْجِيهُهُمَا اللَّغَوِيَّ.

وَالْمَعْنَى: لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ بِالسُّكْرِ الَّذِي تُحْدِثُهُ خَمَرُ الدُّنْيَا، السُّكْرُ: غَيْبُوبَةُ الْعَقْلِ وَاخْتِلَاطُهُ مِنَ الشَّرَابِ الْمُسْكِرِ.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْعَلْ خَمَرَ الْجَنَّةِ مُسْكِرَةً لِشَارِبِيهَا الْمُتَعَمِّينَ بِلَذَّةِ شُرْبِهَا، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ، لَصِفَةِ الْإِسْكَارِ الَّتِي فِيهَا، وَالْأَضْرَارُ الْجَسْمِيَّةُ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا، أَوْ تَتَوَلَّدُ مِنْ تَأْثِيرَاتِهَا.

قول الله تعالى:

• ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (٢٠): أي: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوِلْدَانُ الْمَخْلُودُونَ بِفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ مِنْ ثَمَرَاتِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ. الْفَاكِهَةُ: الثَّمَارُ اللَّذِيذَةُ، وَتُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى الْحُلُوءِ. وَتَجْمَعُ عَلَى «فَوَاكِه».

﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾: أي: مِمَّا يُفَضِّلُونَ لِنَعِيمِهِمْ. تَخِيرُ الشَّيْءَ مِنْ أَشْيَاءَ، أَيْ: انْتَقَاهُ وَفَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ «اخْتَارَهُ».

وَتَخَيَّرُهُمْ مِنْ أَصْنَافِ الْفَاكِهَةِ وَأَنْوَاعِهَا يَدُلُّ عَلَى كَثَرَةِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ الَّتِي تَقْدِّمُ لَهُمْ، فَهُمْ يَخْتَارُونَ مِنْهَا مَا يَحْسُنُ فِي نَظَرِهِمْ، وَتَوِيلُ نَفْسُهُمْ إِلَيْهِ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ يُحَقِّقُ لَهُمُ الْأَوْفَرَ لَذَةً وَالْأَكْثَرَ تَنَعُّماً.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

• ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢١): إِنَّ اللَّحْمَ الْمَشْوِيَّ مِنَ الْمَشِيرَاتِ الْقَوِيَّةِ لَشَهْوَةٌ الْأَكْلِ مِنْهَا، وَلَحْمُ الطَّيْرِ مِنْ أَكْثَرِ اللَّحُومِ إِثَارَةً لَشَهْوَةِ الْأَكْلِ مِنْهَا.

فَالْمَنْعَمُونَ فِي الْجَنَّةِ، يُقَدِّمُ لَهُمُ الْوِلْدَانُ الْمَخْلُودُونَ فِيهَا لَحْمَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ مِنْ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، بَعْدَ أَنْ يَطُوفُوا عَلَيْهِمْ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ فَيَتَخَيَّرُونَ مِنْهَا مَا يَرَوْنَهُ الْأَحْسَنَ وَالْأَفْضَلَ وَالْأَكْثَرَ لَذَّةً.

وَتَقْدِيمُ الْفَاكِهَةِ عَلَى لَحْمِ الطَّيْرِ فِي تَرْتِيبِ الْجَمَلِ، يُشْعِرُ بِأَنَّ تَقْدِيمَ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَى أَكْلِ اللَّحُومِ هُوَ الْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ لِلصَّحَّةِ وَلِلْهَضْمِ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ (٢٣): وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى: [وَحُورٍ عَيْنٍ] بِالْجَرِّ.

قراءة الرفع هي على تقدير: وَلَهُمْ حُورٌ عِينٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَا دَاعِيَ لِإِيرَادِ الْوُجُوهِ الْإِعْرَابِيَّةِ الْآخَرَى، فَهِيَ مِنَ الصَّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ.

وقراءة الجرّ، هي على أَنَّ كَلِمَةَ «حُورٍ» مَعْطُوفَةٌ عَلَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ لَطِيفَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٢١﴾ على تقدير: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ مَصْحُوبِينَ بِخَادِمَاتٍ، حُورٍ عَيْنٍ، هُنَّ غَيْرُ الْحُورِ الْعَيْنِ الزَّوْجَاتِ الْخَاصَّاتِ لِلْأَسْرَةِ وَالْمَعَاشَرَةِ، أَوْ مَعْطُوفَةٌ عَلَى: ﴿... جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وَالْمَعْنَى يَكُونُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الدِّينِ سَعْدَاءَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَفِي خِدْمَةِ وَلَدَانِ مُخَلَّدِينَ، وَفِي حُورٍ عَيْنٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ.

وهذا أَحَدُ تَوْجِيهَاتِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وَهُوَ تَوْجِيهِه أَرَاهُ حَسَنًا وَمَقْبُولًا، وَلَوْ طَالَ الْفَضْلُ، إِذْ لِلْقُرْآنِ أَسْلُوبُهُ الْخَاصُّ فِي الرَّبْطِ وَفِي الْعَطْفِ. وَتَشْنِيعُ صَاحِبِ الْبَحْرِ عَلَى الزَّمَخْشَرِيِّ فِي هَذَا التَّوْجِيهِ وَاعْتِبَارُهُ فَهْمًا أَعْجَمِيًّا، سَبَبُهُ التَّسْرُّعُ وَعَدَمُ الْأَنَاقَةِ فِي تَدَبُّرِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَكَمْ نَلَاظُ فِي الْقُرْآنِ رَبْطًا بَيْنَ دُرُوسِ السُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، مَعَ طُولِ الْفَضْلِ بَيْنَهَا، وَرَبْطًا بَيْنَ آخِرِ السُّورَةِ وَالْدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِهَا. إِنَّ تَحْكِيمَ الصَّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ قَدْ يُوقِعُ الْمَفْسِّرَ فِي أَخْطَاءٍ فِكْرِيَّةٍ، لَا يَقْبَلُ بِهَا الْمَتَدَبِّرُ الْحَصِيفُ لِكِتَابِ اللَّهِ الْمَجِيدِ.

«حُورٌ»: جَمْعُ «حَوْرَاءَ» وَهِيَ مِنَ النِّسَاءِ الْبَيْضَاءِ. وَالْحَوْرُ: فِي الْعَيْنِ شِدَّةُ بَيَاضٍ بَيَاضِهَا، مَعَ شِدَّةِ سَوَادِ سَوَادِهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ مُرَادٍ هُنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

«عَيْنٌ»: جَمْعُ «عَيْنَاءَ» وَهِيَ ذَاتُ الْعَيْنِ الْحَسَنَةِ الْوَاسِعَةِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بِشَأْنِ الْحُورِ الْعَيْنِ.

(١) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الدُّخَانِ/٤٤ مَصْحَفٍ/٦٤ نَزُولٍ)

فِي وَصْفِ نَعِيمِ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي الْجَنَّةِ:

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ .

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في وصف نعيم المتقين أيضاً.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٧٠﴾ .

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (الرَّحْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) في وصف نعيم المتقين غير السابقين في جنتين هما دُونَ الْجَنَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ لِلْمُحْسِنِينَ، خطاباً للإنس والجن:

﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ۝٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ .

﴿فِي الْخِيَامِ﴾: جاء عند البخاري ومسلم وصف خيمة المؤمن في الجنة بأنها خيمة من لؤلؤة مُجَوَّفَةٍ، طولها سِتُّونَ مِيلًا.

﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾: أي: هُنَّ في دَاخِلِ خِيَامِهِنَّ مُلَازِمَاتٌ، لَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا، فَلَا يَتَطَلَّعْنَ لِغَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، عِفَّةً، وَعِشْقًا لَهُمْ، وَتَعَلُّقًا بِهِمْ.

﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ﴾: أي: لَمْ يَمَسَّهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا إِنْسٌ وَلَا جَنٌّ.

قول الله تعالى:

• ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٧٣﴾: أي: وَصَفُ بَشَرَاتِ الْحُورِ الْعِينِ فِي جَمَالِ الْأَلْوَانِ يَشْبَهُ أَوْصَافَ أَلْوَانِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ بِيَاضًا وَلَمَعَانًا وَحُسْنًا.

«أَمْثَالُ» جَمْعُ «مَثَلٍ» وَيَأْتِي الْمَثَلُ فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى «الْوَصْفِ» فَالْتَشْبِيهُ بِالْكَافِ مُوجَّهٌ لِأَوْصَافِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ، وَاللُّوْلُؤُ لَهُ أَوْصَافٌ جَمَالِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ الْأَلْوَانِ.

«المَكْنُون»: أي: المحفوظ المستور، الذي لَمْ تَغْبِثْ بِهِ أَيْدِي العابِثِينَ، ولم يَتَعَرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ صَفَاءَهُ ونَقَاءَهُ، وَدَرَجَةَ جَمَالِهِ، من عوارض مختلفة.

قول الله تعالى:

• ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: «الْجَزَاءُ» المكافأة عَلَى الْعَمَلِ، وَيُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى الثَّوَابِ والعقاب، والمراد هُنَا فِي الْآيَةِ «الثَّوَابُ» عَلَى الْإِيمَانِ وَالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ.

• ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ يَعْمَلُونَ، مِنْ أَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ كَالْإِيمَانِ، وَالنِّيَّاتِ، وَالْإِرَادَاتِ الصَّالِحَاتِ، وَأَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ، كَأَدَاءِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ، وَالْخُلُقِ الْحَسَنِ.

والجزاء الرَّبَّانِي للعباد الْمُؤْمِنِينَ هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، اسْتَحَقُّوه بِوَعْدِهِ الْكَرِيمِ، إِذْ كُلُّ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ لَا تُكَافِئُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ نِعَمٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ.

قول الله تعالى:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۖ ﴿٢٦﴾﴾:

«الْغَوُّ»: كُلُّ مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ، إِذْ لَا فَايِدَةَ مِنْهُ. وَكُلُّ كَلَامٍ لَا يُرَادُّ بِهِ مَعْنَاهُ.

إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَكُونُونَ فِيهَا جَادِّينَ، غَيْرِ هَازِلِينَ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ فِيهَا، وَالْوِلْدَانُ الْمَخْلُودُونَ، وَالْحُورُ الْعِينُ، فَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَغَوٍ، وَلَا يَعْمَلُ عَمَلًا لَا فَايِدَةَ مِنْهُ.

فَأَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لَا يَسْمَعُونَ لَغَوًا مَا.

﴿وَلَا تَأْتِيَا﴾: التَّائِيْمُ الاتِّهَامُ بَارْتِكَابِ الْإِثْمِ، إِذْ لَا أَحَدَ يَرْتَكِبُ فِي الْجَنَّةِ إِثْمًا حَتَّى يُتَّهَمَ أَحَدٌ بِهِ، مِنْ قَبْلِ أَحَدٍ مَا فِي الْجَنَّةِ، لَا مِنْ قَبْلِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَلَا مِنْ قَبْلِ الْحُورِ الْعِينِ، وَلَا مِنْ قَبْلِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا مِنْ قَبْلِ الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ.

وبما أَنَّ اللهَ يَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ غِلٍّ قَبْلَ إِدْخَالِهِمْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَشَاتُّمٌ، بَلْ هُمْ جَمِيعًا إِخْوَانٌ مُتَوَادُّونَ مُتَصَافُونَ، يَخْتَرِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَا يَحْسُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالشَّتَاتُ تَدْخُلُ فِي عُمُومِ التَّائِيْمِ.

﴿إِلَّا قِيَلَا سَلَمًا سَلَمًا﴾: «الْقِيلُ»: الْقَوْلُ، أَي: لَكِنْ يَسْمَعُونَ فِيهَا تَحِيَّةً يُقَالُ لَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَعِبَارَةُ «سَلَامٌ» هِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ.

قال الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِسْمِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَهُمْ﴾: أَي: دَعَاؤُهُمُ الَّذِي يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِهِ: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أَي: نُسَبِّحُكَ مُنْزِهِينَ تَنْزِيهَكَ لِنَفْسِكَ.

قَوْلُ الله عز وجل بشأن عُمُومِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ هُمْ دُونَ

السَّابِقِينَ:

• ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَحْضُورٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَبْضُورٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُورٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفَرْشٍ مَرْفُوعٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّاتُهُمْ أَتْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات بيانٌ عَظَمُ منازل أصحاب اليمين، في جنَّاتِ رَبِّ العالمين، بأسلوب الاستفهام التَّعْجِيبِي مِنْ أنواع سَعَادَاتِهِمْ فيها، بعبارة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٧٧): أي: وأعظم بأنواع السعادات التي يكونُ فيها أَصْحَابُ الْيَمِينِ يوم الدين، إذ يكونون في سعاداتٍ عَظِيمَاتٍ، لَا تَسْتَطِيعُ الْخَلَائِقُ وَصْفَهَا، أَوْ تَخَيُّلَهَا، وَحِينَ يَشَاهِدُونَهَا يَقِفُونَ فِي سَاحَاتِهَا مُتَعَجِّبِينَ مَذْهُولِينَ، ويقولون بأسلوب الاستفهام: مَا هَذَا الشَّيْءُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَفُوقُ قُدْرَاتِ التَّخَيُّلِ وَالتَّوَهُّمِ الَّتِي أُوتِينَاهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وجاء في هذه الآيات بيانٌ لِقَطَاطٍ مِنْ نعيم أصحاب اليمين يوم الدين، مِنْ أَشْبَاهِ مَا يَعْرِفُ النَّاسُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مَعَ التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ بَيْنَ مَا يَعْرِفُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، فَهِيَ تَشْتَرِكُ مَعَهَا فِي الْجِنْسِ فَقَطْ، وَتَخْتَلِفُ مَعَهَا فِي الْأَنْوَاعِ، نَظِيرَ اشْتِرَاكِ الْبُعُوضَةِ مَعَ إِنْسَانٍ كَامِلٍ فِي الْجِنْسِ، الَّذِي هُوَ الْحَيَوَانُ، فَالْبُعُوضَةُ كَائِنٌ حَيٌّ، وَالْإِنْسَانُ الْكَامِلُ كَائِنٌ حَيٌّ، هَذَا هُوَ الْإِشْتِرَاكُ فِي الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ وَصِفٌ كُلِّيٌّ، لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ نَوْعِ الْبُعُوضَةِ وَنَوْعِ الْإِنْسَانِ، كَالْفَرْقَ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ السَّابِعَةِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٧٧)؟ هذه العبارة معطوفة بالواو على عبارة: ﴿وَالسَّائِقُونَ السَّائِقُونَ﴾ (٧٦): أي: وَصِنْتُ أَصْحَابَ الْيَمِينِ يَكُونُ مِنْ ثَوَابِهِمْ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ مَا يَلِي بَيَانَهُ.

وَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ هُمُ الَّذِينَ عَبَّرَتْ عَنْهُمْ الْآيَةُ (٨) بِقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ﴾ (٨).

وَسَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا الْمَرَادَ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي نَحْوِ عِبَارَتِي: ﴿مَا أَصْحَبُ الْمُيْمَنَةِ؟﴾! - ﴿مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ؟﴾! مِنْ أَنَّهُ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِييٌّ مِمَّا سَوْفَ يَكُونُونَ فِيهِ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَمْرِ عَظِيمٍ يُفُوقُ التَّصَوُّرَ وَالتَّخِيلَ وَالتَّوَهُّمَ، حَتَّى يَذْهَلَ مَنْ يُشَاهِدُهُ دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعَ وَصْفَهُ، فَيَقُولُ مُتَعَجِّبًا مَذْهُولًا: مَا هَذَا الَّذِي أَشَاهِدُهُ!!؟.

وسبق أن عرفنا أن هَذَا الأسلوبَ التّعجِييَّ، هو من الأساليبِ التي جاءت في نصوصٍ عَدِيدَةٍ من القرآن المجيد.

قول الله تعالى:

• ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝١٨﴾: أي: يكون أصحابُ اليمين، في جنّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، في مُحِيطٍ بِهِمْ من أشجارِ السِّدْرِ المَخْضُودِ.

السِّدْرُ: صِنْفٌ من أَصْنَافِ الشَّجَرِ المعروفة عندَ الْعَرَبِ، والتي تَنْبُثُ في بلادهم، وهو شَجَرُ النَّيْقِ. وَوَاحِدَةُ أَشْجَارِ السِّدْرِ «سِدْرَةٌ» وَلَهُ ثَمَرٌ يَخْرُجُ فِي قُرُونٍ ضَمْنَهَا حُبُوبٌ اسْفَنْجِيَّةٌ لَيِّنَةٌ ذَاتُ حَلَاوَةٍ، وَذَاتُ نَوَى، وَفِي أَغْصَانِهَا شَوْكٌ، وَلِهَذَا الشَّجَرَةُ عندَ الْعَرَبِ خِصَائِصٌ عِلَاجِيَّةٌ، وَعَسَلُ النَّحْلِ الَّتِي تَرَعَى شَجَرَ السِّدْرِ ذُو قِيَمَةٍ عَالِيَةٍ عِنْدَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعَسَلِ، وَهُوَ مِنَ الْأَشْجَارِ المَعْمَرَةِ الَّتِي تَمْتَدُّ أَعْمَارُهَا إِلَى مِائَةِ عَامٍ.

وَيُذَكَّرُ مِنْ خِصَائِصِ هَذَا الشَّجَرِ الْعِلَاجِيَّةِ الْعِلَاجُ بِهِ مِنْ مَسِّ الْجَنِّ، وَأَوْرَاقُهُ بِالْمَاءِ تَقْلَعُ الْأَوْسَاحَ، وَتُنْقِي الْبَشَرَةَ وَتَجْعَلُهَا نَاعِمَةً.

ولا بدّ أن نلاحظ الفرق العظيم بين أشجار الجنة وأشجار الدنيا، كما جاء بيانه في التمهيد.

مَخْضُودٌ: أي: منزوع الشَّوْكِ مِنْ أَغْصَانِهِ، يُقَالُ لُغَةً: «خَضَدَ الْغُصْنَ يَخْضِدُهُ» أي: نزع الشَّوْكَ عَنْهُ.

ويقال على التشبيه: «خَضَدَ فلانٌ شَوْكَهَ نِدَه» أي: كَسَرَ حَدَّتَه، وَأَبْعَدَ عَنْهُ مَا كَانَ يَحْتَمِي بِهِ مِنْ قُوَّةٍ، فَالشَّوْكَةُ تُسْتَعْمَلُ بِمعنى القوة.

ويفهم من القرائن أنَّ شَجَرَ جَنَّاتِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، دُونَ شَجَرِ جَنَّاتِ السَّابِقِينَ، ذَاتِ الْمِيزَةِ الْأَرْفَعِ، وَالْقِيَمَةِ الْأَعْظَمِ.

وَلَمْ يَأْتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَيَانٌ عَنْ أَصْنَافِ أَشْجَارِ جَنَّاتِ السَّابِقِينَ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَطَلَحَ مَنُصُّورٍ﴾ (٢٩): أي: وَيَكُونُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ أَشْجَارِ الطَّلَحِ ذِي الثَّمَرِ الَّذِي انْضَمَّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ بِاتِّسَاقٍ بَدِيعٍ، وَتَرَاصُفٍ مُنْتَظَمٍ.

الطَّلَحُ: الْمَوْزُ، وَنَوْعٌ مِنَ الْأَشْجَارِ الْعَظِيمَةِ أَيْضاً كَمَا قِيلَ.

وُصِفَ الْمَوْزُ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ بِأَنَّهُ «طَعَامُ الْفَلَّاسِفَةِ» وبأنه «فَاكِهَةٌ الْحُكَمَاءِ».

وَفِي الطَّبِّ الْحَدِيثُ: وَُصِفَ الْمَوْزُ بِأَنَّهُ ذُو خِصَائِصٍ غِذَائِيَّةٍ نَفِيسَةٍ جَدًّا، قَلَّمَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ.

مَنْضُودٌ: أَي: مَجْمُوعٌ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ بِاتِّسَاقٍ بَدِيعٍ، وَتَرَاصُفٍ مُنْتَظَمٍ.

وَمَا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَشْجَارِ الْمَوْزِ مِثَالُ مَصْعَرٍّ كَثِيراً مِنْ أَشْجَارِ الطَّلَحِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَوَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ (٣٠): أَي: وَيَكُونُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ ظِلٍّ مَمْدُودٍ، لَا تُعْرَفُ لَهُ حُدُودٌ، وَدَائِمٌ لَا انْقِطَاعَ فِيهِ وَلَا انْتِهَاءَ لَهُ.

الظلّ: مَا يَبْقَى مِنْ انْكَشَافٍ فِي المرئي، بَعْدَ سِتْرِ أَشِعَّةٍ مَنَعَ الضُّوءُ عَنْهُ بَسَاتِرٍ مَا، وَالظَّلُّ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ كَثَافَةِ السَّاتِرِ، وَمَقْدَارِ سَمَاحَةِ لِلنُّورِ بِأَنْ يَمُرَّ مِنْهُ.

وَيَكُونُ الظِّلُّ فِي الصَّبَاحِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّمْسِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ، فَإِذَا تَحَوَّلَ فِي الْمَسَاءِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ سُمِّيَ «فَيْئًا» مِنْ فِعْلٍ: «فَاءٌ» بِمَعْنَى: «رَجَعَ».

وَجَاءَ فِي عِدَّةِ نصوص من القرآن المجيد بيان أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، يَكُونُونَ فِي ظِلَالٍ، وَأَنَّهُمْ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ، أَي: لَا تَمَسُّهُمْ أَشْعَةُ شَمْسٍ بِحَرَارَتِهَا، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا، وَوَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ بِأَنَّهَا ذَاتُ ظِلٍّ دَائِمٍ، وَبِأَنَّهَا ذَاتُ أَكْلٍ دَائِمٍ.

مَمْدُود: أَي: دَائِمٍ وَشَامِلٍ لِكُلِّ مَوْقِعٍ فِي الْجَنَّةِ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ ۖ﴾: أَي: وَيَكُونُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَشْهَدٍ بَدِيعٍ مِنْ مَاءٍ مَضْبُوبٍ يُشَاهِدُونَ انْصِبَابَهُ، كَأَنَّهُمْ وَأَجْمَلُ شَلَالَاتٍ تَنْصَبُ مِنَ الْمَرْتَفَعَاتِ إِلَى مَجَارِيهَا الْمُنخَفِضَاتِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْهَارًا.

يقال لغة: «سَكَبَ الْمَاءَ وَنَحَوَهُ يَسْكُبُهُ سَكْبًا وَتَسْكَابًا، فَهُوَ مَسْكُوبٌ»
أَي: صَبَّهُ فَهُوَ مُتَّبَاعًا سَرِيعَ الْهُوِيِّ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۖ﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿ۙ﴾: أَي: وَيَكُونُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي تَنْعِيمٍ دَائِمٍ بِفَاكِهَةٍ نَفِيسَةٍ ذَاتِ أَنْوَاعٍ تَفُوقُ الْحَضَرَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ الْخَلَائِقِ، وَقَدْ اسْتَفِيدَ هَذَا مِنْ

تنكير لفظ فاكهة، مع القرائن. وتأتيهم هذه الفاكهة المتنوعة كثيرة جداً، فَلَا هِيَ مَقْطُوعَةٌ فِي وَفْتٍ مَا مِنْ الْأَوْقَاتِ بِحَسَبِ الْفُصُولِ، وَلَا هِيَ مَمْنُوعَةٌ عَنْ رَاغِبِيهَا لِلتَّنْعَمِ بِهَا فِي وَفْتٍ مَا مِنْ الْأَوْقَاتِ. بَلْ هِيَ مَبْدُولَةٌ لَهُمْ دَوَامًا، وَفِي مُتَنَاولٍ أَيْدِيهِمْ، وَعَلَى مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ، مِنْ تَقْدِيمِهَا فِي أَطْبَاقٍ، أَوْ قَطْفِهَا مِنْ أَغْصَانٍ شَجَرِهَا، أَوْ تَنَاوُلِهَا بِأَفْوَاهِهِمْ، مِنْ أَغْصَانِهَا، أَوْ مِنْ أَيْدِي الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ، أَوْ مِنْ أَيْدِي الْحُورِ الْعِينِ.

واختير في عبارة ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ﴾ (٣٣) أسلوبٌ نفي التقيض، لتعليمنا أَنَّ نَفْيَ أَحَدِ التَّقْيِضَيْنِ يَسْتَلْزِمُ عَقْلًا لِإِبْثَاتِ النَّقِيضِ الْآخَرِ. وهذا منسجمٌ مع الأدلة التي يُقَدِّمُهَا الْقُرْآنُ لِإِبْثَاتِ أَصُولِ الدِّينِ الرَّبَّانِيِّ، وَإِبْطَالِ كُلِّ مَا يُنَاقِضُهُ، إِذْ هِيَ تَعْتَمِدُ عَلَى الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْحَقَائِقِ الَّتِي تَشْهَدُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةَ بِأَنَّهَا حَقٌّ، ثُمَّ عَلَى الْمَذَرَكَاتِ الْحَسِيَّةِ، وَمَا تُقَدِّمُهُ مِنْ لَوَازِمِ عَقْلِيَّةٍ.

وَأَمَّا الْخَبَرِيَّاتُ فَبُرْهَانُ صِدْقِهَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الدَّالِّ عَلَى صِدْقِ الْمَخْبِرِ بِهَا، كَكَوْنِ الْمَخْبِرِ بِهَا رَسُولًا مُؤَيَّدًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمُعْجَزَةِ، وَبُرْهَانُ الْعَقْلِ يَقْضِي بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُؤَيِّدُ بِالْمُعْجَزَةِ مَنْ يَكْذِبُ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ.

قول الله تعالى:

﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ لَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرًى أَرْبَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْإِيمَانِ ﴿٣٨﴾:

«فُرُش»: جمع «فِرَاش» وهو ما يُفَرَش (أي: يُسَطُّ) مِنْ مَتَاعِ الْبَيْتِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفُرُشِ هُنَا الْحَشَايَا، الَّتِي تُسَطُّ عَلَى الْأَسِرَّةِ، فَهِيَ لِيَنَّةٍ مُهَيَّاةٌ لِلضُّجُوعِ عَلَيْهَا كَأَحْسَنِ وَأَكْمَلَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْحَشَايَا.

«مَرْفُوعَةٌ» أي: مَرْفُوعَةٌ عَلَى مَوَاضِعِهَا مِنَ الْأَسِرَّةِ النَّفِيسَةِ.

وَذَكَرَ الْفُرْشَ الْمَرْفُوعَةَ عَلَى الْأَسِرَّةِ، يَسْتَدْعِي فِي أَذْهَانِ الْمَوْعُودِينَ
بِالنَّعِيمِ، أَصْحَابِ الْيَمِينِ، تَصَوُّرَ مَنْ يَكُنَّ عَلَيْهَا مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،
الْمُخَصَّاتِ لَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، بِحَسَبِ دَرَجَةِ كُلِّ مِنْهُمْ.

وبناءً على حَدُوثِ هَذَا التَّصَوُّرِ فِي أَذْهَانِهِمْ، جَاءَ وَصْفُهُنَّ هُنَا فِي
النِّصِّ دُونَ سَابِقِ ذِكْرِ لَهُنَّ إِلَّا بِرَمْزٍ عِبَارَةٍ: ﴿وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ ۝٢٤﴾ وَهَذَا مِنَ
الْأَدَبِ الرَّفِيعِ جَدًّا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ إِعْظَامًا
لِسَائِبِهِنَّ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنْشَاءً ۝٢٥﴾.

الإِنْشَاءُ: هُوَ الْإِبْجَادُ الْمُتَدَرِّجُ لِلشَّيْءِ وَفْقَ نِظَامِ التَّرْبِيَةِ الْمُتَنَامِيَةِ.
﴿إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ﴾: أَعِيدَ الضَّمِيرُ «هُنَّ» عَلَى مُتَّصِرَاتِ ذَهْنًا غَيْرِ
مَذْكُورَاتٍ لَفْظًا، بِإِبْدَاعِ أَدَبِي رَفِيعٍ.

﴿إِنْشَاءً﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، يُدَلُّ عَدَمُ وَضْفِهِ بِإِبْقَائِهِ مُنْكَرًا عَلَى:

(١) عَظْمَةُ الْخَلْقِ الْإِبْدَاعِيِّ الْإِنْشَائِيِّ.

(٢) وَكَمَالِ الْمُنْشَأِ لِلْوُظُفَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَلِيَتَأَكَّدَ الْمُنْعَمُونَ بِهِنَّ مِنْ أَنَّهُنَّ خُلِقْنَ لَهُنَّ وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُنَّ مُعَاشَرَةُ زَوْجِيَّةٍ،
جَعَلَهُنَّ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَبْكَارًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۝٢٦﴾.

﴿أَبْكَارًا﴾: جَمْعُ «بِكْرٍ» وَهِيَ الْعَذْرَاءُ الَّتِي لَمْ تُفْتَضَّ بِكَارَتِهَا، وَهِيَ
غِشَاءٌ جَلْدِيٌّ يُمَزَّقُ عِنْدَ مُجَامَعَةِ الْأُنْثَى الْبِكْرِ مِنَ التَّسَاءِ، وَوُجُودُ هَذَا
الْغِشَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَمْ يَسْبِقْ أَنْ جَامَعَهَا ذَكَرٌ.

وَوَصَفَهُنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٢٧﴾ وَفِي الْقِرَاءِ الْأُخْرَى: [عُرْبًا] بِإِسْكَانِ الرَّاءِ،
وَالْقِرَاءَتَانِ لَغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ مُتَكَافِئَتَانِ.

«عُرُبٌ، وَعُرْبٌ» جَمْعُ «عُرُوبٍ» وَهِيَ الْمُتَحَبِّبَةُ لَزَوْجِهَا الْعَاشِقَةُ لَهُ،

الحريصة على إسعاده، فَهِنَّ بهذا الوصف من أَنْعَمَ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ لَذَاتِ نَعِيمِهَا.

﴿أَتْرَابًا﴾: جَمْعُ «تَرَبٍّ» وهو المماثل في السِّنِّ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْمُؤَنَّثِ، وَقَدْ تَدُلُّ عِبَارَةُ «أَتْرَابًا» مَعَ التَّمَاثُلِ فِي السِّنِّ عَلَى التَّوَادُّ بَيْنَهُنَّ وَعَدَمِ التَّحَاسُدِ.

فَالْحُورُ الْعَيْنِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ ذَوَاتُ أَعْمَارٍ مُتَمَاثِلَةٍ، إِذْ يَكُنَّ فِتْيَاتٍ فِي رِيعَانٍ شَبَابِيَّهِنَّ، وَنُضْجِ أُنُوثَتِهِنَّ دَوَامًا، وَلَا تَتَغَيَّرُ أَحْوَالُهُنَّ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ، إِذْ هُوَ خَالِدٌ مَعَ خُلُودِهِنَّ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْمُنْعَمُونَ فِي الْجَنَّةِ، هُمْ شَبَابٌ دَوَامًا، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِكُهُولَةٍ تَزِيدُ عَلَى (٣٣) سَنَةٍ، وَلَا لَشَيْخُوخَةٍ فَمَا فَوْقَهَا، بِخِلَافِ أَحْوَالِ الْأَحْيَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُنَّ قَدْ أُنْشِئْنَ خِصِيصَى لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَقَالَ تَبَارَكَ مَجْدُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَعَظُمَ جُودُهُ:

﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٣٨): أَي: أُنْشَأْنَاهُنَّ، وَأَعَدَدْنَاهُنَّ، وَهَيَأْنَاهُنَّ، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، إِكْرَامًا مِنَّا لَهُمْ، وَإِنْعَامًا مِنَّا عَلَيْهِمْ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نِسْبَةَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ التَّقَرُّبِيَّةَ لَنَا، وَالْمَبْنِيَّةَ عَلَى عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ عَلَيْهِ عِبَادُهُ الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ، فَقَالَ تَعَالَى:

• ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾:

«الثُّلَّةُ»: هِيَ فِي اللُّغَةِ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ. وَيُشِيرُ ذِكْرُ «ثُلَّةٍ» بِمَعْنَى جَمَاعَةٍ، أَنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ مِنْ مَجْمُوعِ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَا يَبْلُغُونَ أَنْ يَكُونُوا النُّصَفَ وَلَا قَرِيبًا مِنَ النُّصَفِ، فَهُمْ لَا يُوصَفُونَ بِأَكْثَرٍ مِنْ كَوْنِهِمْ جَمَاعَةً.

الْأَوَّلُونَ: هم من آدَمَ إِلَى عَهْدِ التَّكْلِيفِ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَاتَّبَاعِ رِسَالَتِهِ.

الْآخِرُونَ: هم مَنْ كُفِّلُوا بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَاتَّبَاعِ رِسَالَتِهِ، مِنْ بَعْدِ بَعْثِهِ، وَحَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَهُمْ كُلُّ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ، اعْتِبَاراً مَنْ تَبَلَّغَهُمْ هَذَا التَّكْلِيفِ.

وسبق بيان أن الآيات من (١٠ - ١٤) قد دَلَّتْ عَلَى أَنَّ السَّابِقِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، أَيْ: هُمْ جَمَاعَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَوَّلِينَ وَأَعْدَادِهِمْ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى أَعْدَادِهِمْ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي لَيْسَ لِمَلْيَارَاتِهَا الْكَافِرَةُ حِطٌّ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ.

قول الله عز وجل بِشَأْنِ عُمُومِ أَصْحَابِ الشَّمَالِ (= المشأمة):

﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَبَ الشَّمَالِ ۖ فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ ۖ﴾ (٤١) ﴿وَضَلَّ مِنْ يَمِينِهِمْ ۖ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ۖ﴾ (٤٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ﴾ (٤٣) ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنِثِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ (٤٤) ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظْمًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۖ﴾ (٤٥) ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۖ﴾ (٤٦) ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ﴾ (٤٧) ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۖ﴾ (٤٨) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۖ﴾ (٤٩) ﴿لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ۖ﴾ (٥٠) ﴿فَالِئُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ ۖ﴾ (٥١) ﴿فَشَرِبُونَ مِنْ لَعِيمٍ ۖ﴾ (٥٢) ﴿فَشَرِبُونَ شُرَبَ أَلِيمٍ ۖ﴾ (٥٣) ﴿هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ اللَّيْلِ ۖ﴾ (٥٤).

تمهيد:

في هذه الآيات بَيَانٌ لِقَطَاطٍ مِنْ جَزَاءِ عُمُومِ أَصْحَابِ الشَّمَالِ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ بَيَانِ السَّبَبِ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ الْخُلُودَ فِي دَارِ الْعَذَابِ، إِذْ كَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَاتِّخَاذِ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَكَانُوا يُكْذِّبُونَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَبِمَا جَاءَ فِي كُتُبِهِ الْمَنْزِلَةِ عَلَيْهِمْ، مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، وَالْجَزَاءِ فِي دَارِ النَّعِيمِ، أَوْ فِي دَارِ

العذاب، بحَسَبِ ما يَكْسِبُ العباد في مَرَحَلَة امتحانهم في الحياة الدنيا.

وفيها أيضاً بيانُ جانبٍ من معالجتهم بشأن تَكْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وهم في الحياة، بِأَسْلُوبِ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ ﷺ، فَكُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَا يَقُولُهُ لَهُمْ مُؤَكِّدًا أَنَّهُمْ مَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ وَلَمَسْوُوقُونَ إِلَى مُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وَتَنْفِيزِ مُجَازَاتِهِمْ، فِي مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، مُحَدَّدِ الزَّمَنِ مِنْ قَبْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي خُطَّةِ الْخَلْقِ الَّتِي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا، وَحَدَّدَ أَزْمَانَ كُلِّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَجْرِي لَدَى تَنْفِيزِ مَا سَبَقَ أَنْ حَدَّدَ مَقَادِيرَهُ وَقَضَاهُ بِحُكْمَتِهِ. وَمَا يَقُولُهُ لَهُمْ بَعْنِفٍ وَجَفَاءٍ إِبَّانَ تَنْزِيلِ سُورَةِ (الواقعة) إِذْ جَاءَتْ مُعَالَجَاتُهُمْ فِي نَحْوِ أَرْبَعِينَ سُورَةً نَزَلَتْ قَبْلُهَا، بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الْإِقْنَاعِ الْفِكْرِيِّ الْهَادِيءِ الْحَكِيمِ، وَوَسَائِلِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ فَأَصْرُوا عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَعَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِقَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، فَالْمُنَاسِبُ بَعْدَ هَذَا الصَّبْرِ الطَّوِيلِ عَلَيْهِمْ، أَنْ يُقَالَ لَهُمْ بِإِصْرَارٍ عَلَى الْحَقِّ، مُنَاسِبٍ لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ أَصَّالُونَ الْمُكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونَنَّ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفُورٍ ﴿٥٢﴾ فَالْأَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونُ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

لَقَدْ انْتَهَى بِالنَّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ وَقْتُ الْمَلَائِنَةِ وَالْمَلَاطِفَةِ وَالرَّفْقِ، وَجَاءَ دَوْرُ الْمَخَاشَنَةِ فِي الْقَوْلِ، وَهَزَّ نَفُوسَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَنْفِ.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَاصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾!!؟ هذه العبارة معطوفة بالواو على عبارة: ﴿وَاصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ﴿٧٧﴾﴾!!؟. أي: وَصِنْفُ أَصْحَابِ الشِّمَالِ (= المشأمة) نُبَيِّنُ شَيْئاً مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ فِيمَا يَلِي، وَسَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا الْمَرَادَ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي نَحْوِ عِبْرَةِ: ﴿مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ ﴿١٩﴾﴾!!؟ مِنْ

أَنَّهُ اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِّمَّا سَوْفَ يَكُونُونَ فِيهِ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَمْرِ فَظْطِيعٍ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَصْحَابِ الشَّمَالِ تَغْذِيبٌ أَبَدِيٌّ، وَخِزْيٌ وَإِذْلَالٌ وَإِهَانَةٌ وَصَغَارٌ، حَتَّى يَذْهَلَ مَنْ يُشَاهِدُهُ دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعَ وَضْفَهُ، فَيَقُولُ مُتَعَجِّبًا مَذْهُولًا: مَا هَذَا الَّذِي أَشَاهِدُهُ؟!..

قول الله تعالى:

• ﴿فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾: أي: يكون أصحابُ الشَّمَالِ فِي جَهَنَّمَ دارِ عَذَابِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ سُمُومٍ وَحَمِيمٍ. السُّمُومُ: الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَنْفُذُ فِي مَسَامِ الْأَجْسَامِ. الْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ الشَّدِيدُ الْحَرَارَةِ.

فَهُمْ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ تَلْفُحُ وَجُوهَهُمْ وَسَائِرَ أَعْضَانِهِمْ رِيحٌ سَمُومٌ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ، وَيَسْتَدُّ ظَمَؤُهُمْ فَلَا يَجِدُونَ إِلَّا مَاءً حَارًّا شَدِيدَ الْحَرَارَةِ يَشْرَبُونَ مِنْهُ.

قول الله تعالى:

﴿وَطَلٍّ مِّنْ يَّخْمُومٍ ۝٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾: أي: ويكون أصحابُ الشَّمَالِ يَوْمَ الدِّينِ فِي دارِ عَذَابِهِمْ، فِي أَمْكِتَةٍ ظِلٌّ مِنْ دُخَانٍ أَسْوَدَ، يَبُثُّ حَرَارَةً، وَيَنْذَرُ عَلَيْهِمْ قَتَامًا، فَيَزْدَادُونَ بِهِ قُبْحًا.

الْيَخْمُومُ: هُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ، وَهُوَ الْمَرَادُ هُنَا، وَيُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى الْأَسْوَدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

﴿لَا بَارِدٍ﴾: أي: إِنَّ هَذَا الظِّلَّ مِنَ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ الَّذِي يَسْتُرُ سَمَاءَ إِقَامَتِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، يَكُونُ ظِلًّا حَارًّا لَا بَارِدًا، لِيَزِيدَ مِنْ عَذَابِهِمْ.

جاءَ هَذَا الْبَيَانُ بِأَسْلُوبِ نَفْيِ أَحَدِ النَّقِیْضَيْنِ، لِإثْبَاتِ نَقِیْضِهِ.

﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾: أي: وَلَيْسَ لِهَذَا الظِّلِّ صِفَةُ مَا تُذْكَرُ فِي ثَنَاءٍ مَا عَلَيْهِ، بَلْ كُلُّ صِفَاتِهِ ذَمِيمَةٌ.

وجاء هذا البيان أيضاً بأسلوب نفى أحد النقيضين، لإثبات نقيضه.
الكريم: هو المحمود بصفات حسنة فيه. فالذي ليس كريماً لا تكون له صفات حسنة يُثنى عليه بها.
قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾!؟:

جاءت هذه الآيات لبيان سبب تعذيبهم في جهنم يوم الدين، وهو يرجع إلى ثلاثة أمور:

(١) أنهم لم يشكروا نعم الله عليهم في الحياة الدنيا بأدنى شكر، إذ جعلهم الله فيها مترفين، فلم يشكروه بالإيمان به رباً واحداً، وإلهاً لا شريك له في إلهيته.

(٢) أنهم كانوا يصرون على الحنث العظيم، أي: الإثم العظيم، وهو الكفر الذي يعتبر الشرك أخف دركاته، وأشد منه جحود الرب الخالق جلّ جلاله، وأخس من الجحود حمل الناس عليه بالإكراه، مع ارتكاب الظلم والعدوان والفجور، أو مع النفاق وابتغاء الشر بالمؤمنين المسلمين من داخل صفوفهم.

(٣) أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، معاندين كل الحجج البرهانية والبيانات الإقناعية التي كانت تقدم لهم، دون أن تكون لهم حجة يقدمونها إلا مجرد الاستغراب، والاستبعاد، وعبارات التعجب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنهم كانوا في مرحلة ابتلائهم في الحياة الدنيا مترفين، يستمتعون بكثير من متاعات الحياة الدنيا التي أنعم الله عز وجل عليهم بها، فلم يشكروا نعم الله عليهم بأدنى درجات الشكر، وهي درجة الإيمان الصحيح برؤية الله وإلهيته.

﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾: أي: قَبْلَ ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي يُعَذَّبُونَهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، والمراد ما كانوا فيه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

الْمُتَرَفُّ: أي: الْكَثِيرُ الاستمتاع بما أنعم الله به عليه من متاع الحياة الدنيا، ويأتي لفظ «الْمُتَرَفِّ» في اللَّغَةِ بِمَعْنَى: الْبَطَرِ الْمُسْتَكْبِرِ، يقال: أَتَرَفْتُ النِّعْمَةَ فُلَانًا أَي: أَبْطَرْتَهُ.

فالمعنى: كانوا كثيري الاستمتاع بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مع بَطَرِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ، وفيما آتاهم من متاع الحياة الدنيا.

﴿وَكَاؤُنَا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾: أي: وكانوا في مرحلة امتحانهم في الحياة الدنيا يُصِرُّونَ بِعِنَادٍ عَلَى ارْتِكَابِ الْإِثْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَعْصُونَ بِهِ رَبَّهُمْ.

﴿يُصِرُّونَ﴾: أي: يُلَازِمُونَ بِمَكَابَرَةٍ وَعِنَادٍ عَلَى ارْتِكَابِ الْإِثْمِ الْعَظِيمِ.

﴿الْحِنثُ﴾: هو في كلام الْعَرَبِ الْعِدْلُ الثَّقِيلُ، وَسُمِّيَ بِهِ الذَّنْبُ وَالْإِثْمُ لِثِقَلِهِمَا، باعتبار ما يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنْ عِقَابٍ شَدِيدٍ، وَعَذَابٍ أَلِيمٍ.

والْحِنثُ الْعَظِيمُ: هو الْإِثْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَيَتَحَقَّقُ بِالشُّرْكِ الَّذِي هُوَ أَخَفُّ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، فَبِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ انْحِطَاطًا فِي دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ، حَتَّى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْهَا، الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْمُنْحَطُّ إِلَيْهِ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وتفسير «الْحِنثِ الْعَظِيمِ» بِالشُّرْكِ تَفْسِيرٌ لَهُ بِأَوَّلِ دَرَكَاتِهِ، إِذْ تَأْتِي بَعْدَهُ دَرَكَاتٌ هِيَ أَشَدُّ انْحِطَاطًا وَخِسَّةٌ مِنْ دَرَكَةِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، أَوْ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

قول الله تعالى:

﴿وَكَاؤُنَا يَقُولُونَ أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظْلًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَاؤُنَا ﴿٤٨﴾ وَقُرَىء: [إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ] وَقُرَىء: [أَوْ أَبَاؤُنَا] وَقُرَىء [مُثْنًا].

دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْجَزَاءَ الرَّبَّانِيَّ، وَيُنْكِرُونَ
الْبَعْثَ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى، وَيُنْكِرُونَ كُلَّ مَا جَاءَ مِنْ أَنْبَاءِ عَنِ يَوْمِ الدِّينِ.
دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً مَا عَلَى إِنْكَارِهِمْ غَيْرِ الْإِسْتِبْعَادِ وَالِاسْتِغْرَابِ،
بِأَسْلُوبِ الْإِسْتِفْهَامِ التَّعْجِبِيِّ.

فَيَوْمَ الدِّينِ يُلَاقُونَ، مَا كَانُوا لَهُ مُنْكَرِينَ، وَمَا كَانُوا بِهِ يُكَذِّبُونَ.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ أي: وَصِرْنَا بَعْدَ الْمَوْتِ تُرَابًا مُتَفَرِّقًا
فِي تَرَابِ الْأَرْضِ ﴿وَعِظْمًا﴾: أي: وَصِرْنَا بَعْدَ الْمَوْتِ عِظَامًا بِأَلِيَّةٍ نَخْرَةً
﴿أَوَّانَا لِمَبْعُوثُونَ﴾ أَوْ [إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ]: عِبَارَاتٌ تَعْجِبُ بِأَسْلُوبِ الْإِسْتِفْهَامِ
التَّعْجِبِيِّ الَّتِي لَا يَقْتَرِنُ بِهِ دَلِيلٌ مَا. ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

- ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾: يُبْعَثُونَ، وَيَحْسَبُونَ، وَيُجَاوِزُونَ، وَقَدْ
كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَقَدْ عَاشُوا قَبْلَ مُحَمَّدٍ، وَقَبْلَ الْكِتَابِ الَّذِي يَدْعِي
أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ. «أَوْ» بِإِسْكَانِ الْوَاوِ أَوْ فَتَحَهَا عَلَى الْقَرَاءَتَيْنِ هِيَ فِيمَا
أَرَى بِمَعْنَى الْوَاوِ. تَأْتِي وَاو «أَوْ» مَفْتُوحَةً عِنْدَ النِّحَاةِ إِذَا كَانَتْ لِلْإِسْتِفْهَامِ،
أَوْ الْإِنْكَارِ، أَوْ الرَّدِّ. وَتَأْتِي سَاكِنَةً إِذَا كَانَتْ لِلشَّكِّ، أَوْ التَّقْسِيمِ، أَوْ
التَّفْصِيلِ، أَوْ الْإِبْهَامِ، أَوْ التَّسْوِيَةِ، أَوْ التَّخْيِيرِ، أَوْ بِمَعْنَى بَلْ، أَوْ إِلَى أَوْ
إِلَّا أَوْ بِمَعْنَى الْوَاوِ.

وَجَاءَتِ الْعِبَارَةُ هُنَا مُلْحَقَةً بِإِسْتِفْهَامِ تَعْجِبِيٍّ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ دَلِيلٌ مَا، وَلَمْ
يَقْتَرِنْ بِهِ نَقْضٌ لِأَدَلَّةِ إِثْبَاتِ يَوْمِ الدِّينِ الْبِرْهَانِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ
بَيَانُهَا.

وَلَيْسَ لِعِبَارَاتِ التَّعْجِبِ قِيَمَةٌ مَا فِيهِ مَيَادِينِ الْمَنَاطِرَاتِ وَالْمَجَادَلَاتِ
الْفِكْرِيَّةِ، الَّتِي تُطْلَبُ فِيهَا الْبَرَاهِينُ، أَوْ الْحُجَجُ الْمُنْطَقِيَّةُ الْمَقْبُولَةُ فِي
الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، فَهِيَ لَا تَسْتَدْعِي رَدًّا عَقْلِيًّا، بَلْ تَسْتَدْعِي تَأْكِيدًا إِبْخَارِيًّا،
وَعُنفًا بَيَانِيًّا، وَضَغْطًا عَلَى مَحَوِّرِ الْخَوْفِ فِي النَّفْسِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُولِهِ فَلْيُكَلِّمْ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ :

﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ
أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالِئِنَّ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّعِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَبِ ﴿٥٥﴾﴾ :

قُرئ: «شرب، وشرب» بضم الشين وفتحها، وهما وجهان عربيان
لنطق الكلمة.

أي: قل لهؤلاء المكابرين المعاندين، الذين لا يُقَدِّمُونَ لتكذيبهم بيوم
الدين، نقضاً لأدلة الإثبات، ولا حُجَّةَ تَسْنُدُ تكذيبهم، وليسَ لديهم قولٌ غيرُ
الاستفهام التعجبي، ما يلي أخذاً من هذا النص، ومن نصي سورة
الصافات، الآيات من (٦٢ - ٦٨) وسورة الدخان، الآيات من (٤٣ - ٤٩):

إِنَّ الْأَوَّلِينَ مِنْ عَهْدِ آدَمَ حَتَّى عَصَرْنَا الْحَاضِرَ، وَالْآخِرِينَ مِنْ عَصَرْنَا
الْحَاضِرَ حَتَّى آخِرِ إِنْسَانٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يُوجَدُ مُسْتَقْبَلًا، لِمَبْعُوثُونَ
لِلْحَيَاةِ الْآخِرَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَفَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ، وَلِمَجْمُوعُونَ فِي الْمَحْشَرِ
مُسَوِّقِينَ إِلَى مِيقَاتٍ حِسَابِهِمْ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، مُقَدَّمَةً لِنَفْذِ الْجَزَاءِ
الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بِعَذْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ بِفَضْلِهِ، فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قَدْ حَدَّدَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ زَمَانَهُ وَكُلَّ مَا يَجْرِي فِيهِ، فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ الْعَامَّةِ، الَّتِي تُعْتَبَرُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَرَحَلَةً مِنْ مَرَاحِلِهَا.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ التَّائِهُونَ فِي ظُلُمَاتِ الْغَوَايَةِ، الْمَكْذِبُونَ بِيَوْمِ
الدين، لَسَوْفَ تَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابٍ الْمُجْرِمِينَ، عِقَابًا لَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ
وَتَكْذِيبِكُمْ بِرُسُولِ رَبِّكُمْ وَكِتَابِهِ، بَعْدَ بَغْيِكُمْ وَحِسَابِكُمْ وَالْحُكْمِ عَلَيْكُمْ
بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَلِتَلْجِزُونَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ إِلَى أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ شَجَرٍ فِي
دَارِ عَذَابِكُمْ، مَرُّ كَرِيهِ الْمَنْظَرِ كَرِيهِ الطَّعْمِ، نَكِدِ الْمَأْكَلِ، يُسَمَّى «الزَّقُومَ»
هُوَ فِي جَهَنَّمَ طَعَامُ الْأَثِيمِ، لَهُ ثَمَرٌ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ،

وَمَهْمَا أَكَلْتُمْ مِنْهُ لَا يَسُدُّ جُوعَكُمْ، فَتَجِدُونَ أَنْفُسَكُمْ مضطرين أن تملؤوا ممّا تأكلون من ثمر هذا الشجر بظونكم، لَكِنَّهُ يَكُونُ فِي بُطُونِكُمْ كَالْمُهْلِ، يَغْلِي فِيهَا كَمَا يَغْلِي الْمَاءُ الْحَارُّ ذُو الْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ، فَيَشْتَدُّ ظَمُّكُمْ، فَتَضْطَرُّونَ أَنْ تَشْرَبُوا عَلَى مَا أَكَلْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَمِيمِ أَي: مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يَغْلِي مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ، فَتَشْرَبُونَ حِينَئِذٍ شَرْبَ الْإِبِلِ الْمَصَابَةِ بِدَاءِ الْهَيَامِ، الَّتِي تَبِيمُ فِي الْأَرْضِ ظَامِئَةً لَا يُرْوِيهَا مَاءٌ مَهْمَا شَرِبَتْ.

قول الله تعالى:

• ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٥١):

﴿إِلَى مِيقَاتِ﴾: الميقات: يأتي للدلالة على معانٍ ثلاثة:

١ - الوقت المعين لفعل ما.

٢ - الموعد الذي جعل له وقتٌ مُحدّد.

٣ - المكان الذي جعل لشيء ما يُفعل عنده.

وهذه المعاني الثلاثة صالحة كلّها هنا، فَمَحْكَمَةُ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، ذَاتُ وَقْتٍ مَعِيّنٍ مُّحَدَّدٍ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ. وَهِيَ مَوْعِدٌ جُعِلَ لَهُ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيَّةِ وَقْتُ مَعْلُومٌ مُّحَدَّدٌ. وَلَهَا مَكَانٌ مُّعَيّنٌ مُّحَدَّدٌ يَوْمَ الدِّينِ، يُجْرِي اللَّهُ فِيهِ الْحِسَابَ وَفَضْلَ الْقَضَاءِ.

وَضُمِّنَ اسْمُ الْمَفْعُولِ فِي عِبَارَةِ: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ مَعْنَى «مَسْوِقِينَ» فَعُدِّي تَعْدِيته بِحَرْفِ «إِلَى» وَحُذِفَ الْمَصَافُ وَهُوَ «شُهُودٌ» قَبْلَ: ﴿مِيقَاتِ﴾ لِسُهُولَةِ إِدْرَاكِهِ. وَالْيَوْمُ الْمَعْلُومُ هُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَمِيقَاتُهُ هُوَ مَوْعِدٌ وَزَمَانٌ وَمَكَانٌ الْحِسَابِ وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، مُقَدِّمَةٌ لَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

فيكون معنى الآية كما يلي:

لَمَجْمُوعُونَ مَسْوِقِينَ إِلَى شُهُودِ مِيقَاتِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، تَمْهيداً لَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

قول الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١):

دَلَّ حَرْفُ الْعُطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ عَلَى فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ بَعْدَ شُهُودِ مِيقَاتِ الْيَوْمِ الْمَعْلُومِ، يَكُونُ فِيهِ انْتِظَارُ تَنْفِيزِ الْجَزَاءِ بِإِذْخَالِهِمْ جَهَنَّمَ، وَانْتِظَارُ تَهْيِيجِ بُطُونِهِمْ مِنَ الْجُوعِ فِيهَا، وَحَاجَتِهِمْ الشَّدِيدَةَ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهَا، لِأَكْلِ شَيْءٍ مَا فِيهَا، فَيَرْحَلُونَ بَاحِثِينَ عَمَّا يَأْكُلُونَهُ لَسَدٌ جُوعِهِمْ.

وَجَاءَ فِي هَذَا التَّعْلِيمِ التَّوْجِيهُ لِمَخَاطَبَتِهِمْ بِعُغْفٍ وَجَفَاءٍ وَمُخَاشَنَةٍ، إِذْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، فَقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ فِي نَحْوِ أَرْبَعِينَ سُورَةً قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ مَخَاطَبَتُهُمْ وَالتَّوْجِيهُ لِمَخَاطَبَتِهِمْ بِمُخْتَلِفِ أَسَالِيبِ الْإِقْنَاعِ الْفِكْرِيِّ الْحَكِيمَةِ الرَّفِيقَةِ، وَمُخْتَلِفِ أَسَالِيبِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا الْعِنَادُ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى بَاطِلِهِمْ، اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَرَغْبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَمَسُّكَاً بِتَقَالِيدِهِمُ الْعَمِيَاءِ، فَأَمْسَى مِنَ الْحِكْمَةِ فِي مَخَاطَبَتِهِمْ اتِّخَاذُ أُسْلُوبِ الْعُفْرِ وَالْجَفَاءِ وَالْمُخَاشَنَةِ.

﴿الضَّآلُّونَ﴾: أَي: الْمَجَافُونَ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْمُبْتَغِدُونَ عَنْهُ، مُعَانِدَةٌ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، بَعْدَ بَيَانِ كُلِّ ذَلِكَ لَكُمْ.

وهذا أحد معنى الضلال، وهو المناسب هنا.

﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾: أَي: الْمَكْذِبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ، وَالْمَكْذِبُونَ بِكِتَابِهِ، وَالْمَكْذِبُونَ بِأَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ.

قول الله تعالى:

• ﴿لَاكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُؤْمٍ﴾ (٥٢):

اسم الفاعل: «آكِلُونَ» يُرَادُ بِهِ هُنَا الْمُسْتَقْبَلُ الْبَعِيدُ، وَذَلِكَ إِذْ يَكُونُونَ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، فَهُوَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الزَّمَنِ بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ.

وحرف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِنْ شَجَرٍ﴾ للتبعيض، لَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي جَهَنَّمَ بَعْضَ ثَمَرِ هَذَا الشَّجَرِ الْكَرِيمِ، وأرى أَنَّ هَذَا الْوَجْهَ أَوْلَى الْوُجُوهِ بِالاعتبار.

وَحَرْفُ الْجَرِّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مَنْ زَقُومٍ﴾ للبيان، أي: من نَوْعِ شَجَرِ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: «زَقُوم».

وجاء في وَصْفِ شَجَرَةِ الزَّقُومِ ما يلي:

(١) لَهَا ثَمَرٌ كَرِيمٌ الْمَنْظَرُ كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، وفي هذا إِحَالَةٌ عَلَى مُتَخَيِّلٍ فِي أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ لِرُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ، إِذْ يَتَخَيَّلُونَهَا بِأَقْبَحِ صُورَةٍ لشيءٍ مَا فِي الْخَيَالِ التَّوْهَمِي، وبِأَشْنَعِ مَنْظَرٍ.

وقال الزَّجَاجُ والفَرَّاءُ: الشَّيَاطِينُ حَيَاتٌ لَهَا رُؤُوسٌ وَأَعْرَافٌ، وَهِيَ مِنْ أَقْبَحِ الْحَيَاتِ وَأَخْبَثُهَا وَأَخْفَى جِسْمًا.

وقيل غير ذلك:

(٢) شَجَرَةٌ لَهَا ثَمَرٌ مُرٌّ كَرِيمٌ الرَّائِحَةُ، يُلْجَأُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهُ، لِلْجُوعِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِمْ، فَلَا يَأْكُلُونَهُ مَضْغًا، وَإِنَّمَا يَتَرَقَّمُونَهُ تَرَقُّمًا، لِأَنَّهُ مُكْرُوهٌ نَتْنٌ، أَي: يَتَتَلَعُونَهُ ابْتِلَاعًا بِجَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ.

التَّرَقُّمُ: الْبَلْعُ عَنْ جَهْدٍ، لِشِدَّةِ الضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى سَدِّ الْجُوعِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ إِيلَامًا مِنْ بَلْعِ الْمَرِّ الْكَرِيمِ التَّنِينِ بِجَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ.

(٣) تَنَبَّتُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، أَي: فِي الْقَاعِ مِنْ وَدْيَانِهَا.

(٤) ثَمَرُهَا كَالْمُهْلِ (أي: كَالْقَطِرَانِ، أَوْ كُدُرْدِيّ الزَّيْتِ وَهُوَ عَكْرُهُ).

(٥) ثَمَرُهَا يَغْلِي فِي بَطُونِ أَكْلِيهِ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (أي: كَغَلْيِ الْمَاءِ الشَّدِيدِ الْحَرَارَةِ).

قول الله تعالى:

• ﴿فَالْتَوَيْنَاهَا الْبُطُونُ﴾ (٥٣): أي: فمالئوا من الأكل من ثمرها بطونهم. جاءت (ال) في لفظ ﴿الْبُطُونُ﴾ عوضاً عن الضمير الذي يعود على المخاطبين: أي: فمالئوا من الأكل من ثمرها بطونكم، لأن الأكل منه لا يسد جوعكم مهما أكلتم، فلا تقفون عن الأكل منه إلا إذا امتلأ بطونكم، وصرتكم غير قادرين على أن تضيفوا شيئاً إلى بطونكم بعد امتلائها بالزقوم، إلا شرباً يتسرب تسرباً.

واسم الفاعل في هذه الآية كاسم الفاعل في الآية التي قبلها.

قول الله تعالى:

﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ﴾ (٥٤) ﴿فَشَرِبُوا شَرَبَ الْهِيمِ﴾ (٥٥):

أي: فسوف يُلجئكم الظم الشديد بعد الأكل من ثمر شجرة الزقوم التي تملأونها البُطون، إلى شرب ماء كثير، لكنكم لا تجدون في الحميم دار عذابكم إلا ماءً حاراً شديد الحرارة، فتشربون منه مثل شرب الهيم فلا يزوي ظمأكم، فتهمون.

الحميم: الماء الحار ذو الحرارة الشديدة. و(ال) تشير إلى ما جاء في الآية (٤٢): ﴿فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ﴾ (٤٢).

الهيم: الإبل المصابة بداء الهيم، فهي تشرب فلا تروى، فتنتلق هائمة لا راحة لها ولا استفرار. يقال: بعير أهيم، وناقّة هيّماء.

الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على المأكول المفهوم ذهنياً من عبارة: ﴿لَاكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ﴾ (٥١).

وجاء تكرير ﴿فَشَرِبُوا﴾ في الآية (٥٥) للدلالة على تكرير شربهم مرةً فمرةً ليظفروا ظمأهم، لكنه لا ينطفئ، وفيه مع هذا إيجاد توازن بين هذه الآية وبين التي قبلها (٥٤).

وفي ختام هذه الفقرة التي علّم الله عزّ وجلّ فيها رسوله فكلّ داع إلى الله من أمته، كيف يُخاطبُ المعاندين المكابرين، الكافرين، المكذّبين بيوم الدين، والذين وصلّوا إلى دركة إجراميّة، مَيُؤَسِّسٍ مَعَهَا مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، قال الله عزّ وجلّ مُخَاطَباً كُلَّ مُتَلَقٍّ لِهَذَا الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ:

﴿هَذَا نُزْلُكُمْ يَوْمَ الْآلِينِ﴾ (٥٦): أي: هذا الطعام من شَجَرٍ هو مِنْ صِنْفِ شَجَرِ الرَّقُومِ، هو الطعام الَّذِي يُقَدَّمُ لَهُمْ إِذْ يُسْتَضَافُونَ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ.

«النُّزْلُ - والنُّزْلُ» بضمّ الزاي وإسكانها، هو في اللَّغَةِ ما يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لَضَيْفِهِ مِنْ طَعَامٍ وَنَحْوِهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ.

يُقَالُ لَعَةً: «فُلَانٌ حَسَنُ النَّزْلِ» أي: حَسَنُ الضِّيَافَةِ.

وَأَنْزَالَ الْقَوْمَ: أَرْزَأَهُمْ.

وَعَنِ الزَّجَّاجِ: أَنَّهُ يُطْلَقُ «النُّزْلُ» عَلَى الْمَنْزِلِ، فَالنُّزْلُ عَلَى هَذَا يَشْمَلُ الْمَكَانَ وَالضِّيَافَةَ فِيهِ.

وَذِكْرُ النَّزْلِ هُنَا، الَّذِي هُوَ مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لَضَيْفِهِ النَّازِلِ بِهِ، عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ بِالْمُجْرِمِينَ الْمَعَانِدِينَ، مُقَابِلَ اسْتِهْزَائِهِم بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا.

أي: إِذَا أَدْخَلْنَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ، فَإِنَّا لَا نَتْرُكُهُمْ يَجُوعُونَ دُونَ أَنْ نُقَدِّمَ لَهُمْ طَعَاماً، بَلْ نُقَدِّمُ لَهُمْ ثَمَرَ شَجَرِ الرَّقُومِ، الَّذِي يَغْلِي فِي بُطُونِهِمْ كَغَلِي الْحَمِيمِ.

وَأَمَّا الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي سُورَةِ (الواقعة) بَيَانٌ صَرِيحٌ عَنْهُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ التَّقَابِلُ وَالتَّنَازُلُ بَيْنَ الْأَقْسَامِ، كَمَا سَبَقَ فِي الرَّسْمِ الْبَيَانِيِّ، وَهُوَ صِنْفٌ غُلَاةُ الْكُفْرِ الْمُجْرِمِينَ، وَالْأُيْمَةُ الدُّعَاةُ

إِلَى الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ جَاءَ بَيَانٌ مَّا، عَنْ بَعْضِ أَحْوَالِ أَفْرَادِهِ مُوزَّعاً فِي سُورِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَمِنْ النُّصُوصِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لِحَدِيثِ مَا عَنْهُمْ، النُّصُوصُ التَّالِيَةُ:

(١) قول الله عز وجل في سورة (المذثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشأن الوليد بن المغيرة أحد أئمة الشرك والعناد والكفر في مكة إبان التنزيل:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لَإِيتِنَا عِينًا ﴿١١﴾ سَاهِقُمُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

أي: سَاحَمَلِه عَذَاباً شاقاً في جهنم فوق طاقته، إذ أَجْعَلُهُ صَاعِداً فيها على عقبة كَوُودٍ.

الصَّعُودُ: الْعَقَبَةُ الشَّاقَّةُ، وَالْمَشَقَّةُ، وَالطَّرِيقُ الصَّاعِدَةُ، وَرُوي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يُصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كَذَلِكَ مِنْهُ أَبَدًا».

وظاهرُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْعَذَابِ، خَاصٌّ يَوْمَ الدِّينِ بِأئمةِ الْكُفْرِ، الدَّاعِينَ إِلَيْهِ، وَالْمَحْرُضِينَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ كُلُّ الْكَافِرِينَ يُعَذَّبُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْعَذَابِ.

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿هَذَا وَإِلَى الطَّلَافِينِ لَشَرٌّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ أَشْرٌ قَدْ مَثُوهُ لَنَا فَنَسَّ الْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

سَبَقَ تَدَبُّرُ هَذَا النَّصِّ لَدَى تَدَبُّرِ سُورَةِ (ص) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ. وَالشَّاهِدُ هُنَا هُوَ مَا فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ عَذَابَ أئمةِ الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الصَّنَفِ الرَّابِعِ أَخْبَثُ صَنْفِي الْكَافِرِينَ الْمَجْرَمِينَ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِينَ،

إِذْ كَانُوا الْفُوجَ السَّابِقَ فِي إِدْخَالِهِمْ جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ، وجاء في مقال أتباعهم الفُوج الذي أُفْحِمَ جَهَنَّمَ بَعْدَهُمْ، قولُهُمْ لَهُمْ: ﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ فَدَلَّ هذا عَلَى أَنَّ الْأُيُمَّةَ الَّذِينَ كَانُوا دُعَاءَ إِلَى الْكُفْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هُمْ فِي الْقَرَارِ مِنْ جَهَنَّمَ، وهو القاع منها، وجاء في دُعَائِهِمْ رَبَّهُمْ قولُهُمْ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ وَعَدَمُ الرَّدِّ عَلَى دُعَائِهِمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ فِي الْوَاقِعِ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا أَشَدَّ، معادلًا لوضفهم إذ كانوا كافرين في أنفسهم، وداعين إلى الكفر وحاملين الناس عليه.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

بشأن المكذبين بآيات الله وما يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عِنْدَ إِدْخَالِهِمْ جَهَنَّمَ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾:

• ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي: حَتَّى إِذَا انْتَهَى تَلَاخُفُهُمْ وَتَتَابُعُهُمْ وَاسْتَقَرُّوا فِي مَوَاضِعِهِمْ مِنَ النَّارِ جَمِيعًا.

• ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾: أي: قَالَ: لِكُلِّ مِنْكُمْ مِثْلُ عَمَلِهِ مِقْدَارًا وَصِفَةً، فائمة الكفر الدُّعَاءُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ إِجْرَامًا فَجَزَاؤُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ يُعَادِلُ مَا اكْتَسَبُوا مِنَ الْآثَامِ وَالْجَرَائِمِ.

وقد سبق تدبّر هذا النَّصِّ لدى تدبّر سورة (الأعراف) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ. والشاهدُ هُنَا هُوَ مَا فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ بَيَانٍ أَنَّ عَذَابَ الْغُلَاةِ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، الدَّاعِينَ إِلَى الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، أَشَدَّ مِنْ عَذَابِ الضَّالِّينَ بِأَنفُسِهِمُ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ إِلَى الضَّلَالِ، وَلَا يَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

ومن هذا نفهم بعض واقع حال الصنف الرابع من أصناف الناس يوم

الدين.

(٤) وقول الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)
بَشَأَنِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ:

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ۖ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ (٤٦)﴾:

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: أَمْرٌ يُوجَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
لِلْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِسَوْقِ آلِ فِرْعَوْنَ إِلَى جَهَنَّمَ، بِأَنْ يَدْخُلُوهُمْ أَشَدَّ
الْعَذَابِ، وَظَاهِرٌ أَنَّ أَشَدَّ الْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ إِنَّمَا يَكُونُ لِأُتَمَةِ الْكُفْرِ وَغُلَاةِ
الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا طَاغِينَ، وَيَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى
الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَهُمْ أَهْلُ الصَّنْفِ الرَّابِعِ مِنَ النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ.

(٥) وَلَمَّا جَمَعَ الْمُنَافِقُونَ بَيْنَ الْكُفْرِ بَاطِنًا، وَإِعْلَانِ الْإِسْلَامِ فِي
الظَّاهِرِ، لِيُخَادِعُوا بِهِ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، كَانَ جُزْمُهُمْ مِنْ دَرَكَةِ أَحْسَرِ
الْمُجْرِمِينَ، فَكَانَ عِقَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ،
إِذْ يُجْمَعُونَ مَعَ أَهْلِ الصَّنْفِ الرَّابِعِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۖ (١٠٥)﴾.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الأول من دروسِ سُورَةِ (الواقعة) والحمد لله
على مَعُونَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (الواقعة)

وهو الآيات من (٥٧ - ٧٤)

قال الله عز وجل:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۖ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۖ (٥٨) مَا أَنتُمْ بَخِلَافُوهُمْ ۖ أَمْ
نَحْنُ الْخَالِفُونَ ۖ (٥٩) نَحْنُ قَدْ زَانَا بَيْنَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ بِمَسْبُوقِينَ ۖ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ

أَمَثَلَكُمُّ وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

تمهيد:

اشتمل هذا الدرس الثاني من دروس سورة (الواقعة) على عرض طائفة من الظواهر الكونية الدالة على طائفة جليلة من صفات ربوبية الله لكونه، منها عظيم قدرته وإتقانه لصنع كل شيء خلقه، وحكمته السامية، وأنه لم يخلق عباده في هذه الحياة الدنيا عبثاً، دون أن يتابع حياة امتحانهم بحياة أخرى، يجري فيها حسابه لهم، وفضل قضائه بينهم، ومجازاتهم على ما أسلفوا في رحلة امتحانهم، من عقائد ونيات وأعمال باطنة وظاهرة.

والظواهر الكونية التي عرَضها ونَبَّهَ عَلَيْهَا هذا الدرس، والتي تدلُّ على أن الله هو الذي خلق الناس، هي ست ظواهر:

الظاهرة الأولى: النطفة المنوية.

الظاهرة الثانية: الموت الذي لا مفرَّ لحَيٍّ منه.

الظاهرة الثالثة: نشأة الحياة الأولى.

الظاهرة الرابعة: النبات في الأرض، وإبداع الربِّ في تَنْشِئِهِ.

الظاهرة الخامسة: الماء وإنزاله نَقِيًّا طَهُوراً سائِغاً شَرَابُهُ مِنَ الْمُزْنِ.

الظاهرة السادسة: النار، وتُخزِنُها في الأشجار للانتفاع بها عند

الحاجة.

ودَلَّ هذا الدَّرْسُ، على أَنَّ إِذْرَاكَ هَذِهِ الظواهر، يَدْفَعُ مَنْ كَانَ مِنْ
أُولِي الْأَلْبَابِ الْمُنْصِفِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، إِلَى أَنْ يُسَبِّحَ بِاسْمِ رَبِّهِ
العظيم.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾:

أواخرُ الدَّرْسِ الأولِ من دُرُوسِ السُّورَةِ، تتعلَّقُ بِأَصْحَابِ الشَّمَالِ
(= أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ) وَعَرَضَ لَقَطَاتٍ مِنْ عَذَابِهِمْ فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ،
لأنَّهُمْ كَانُوا يُصِرُّونَ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ الْعَظِيمِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْبُعْثِ
وَيَوْمِ الدِّينِ.

فهم المخاطَّبُونَ الأولونَ بما جاء في الدَّرْسِ الثاني من دُرُوسِ
السُّورَةِ، وَسِيلَةً لِإِقْنَاعِ مَنْ يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ
الرَّبَّانِيَّةِ، فِي هَذَا الدِّينِ الْخَاتَمِ، وَبِتَنْوِيعِ الْأَدِلَّةِ وَتَضْرِيْفِهَا لَا يَبْقَى عُذْرٌ
لِمُعْتَذِرٍ حِينَما يَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ.

على أَنَّ الْخَطَابَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَوْضِعٍ فِي الْحَيَاةِ مَوْضِعِ الْامْتِحَانِ مِنَ
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

جاء البيان في هذه الآية بضمير المتكلم العظيم، لأنَّ الْكَلَامَ يَتَعَلَّقُ
بِخَلْقِهِ الْعَظِيمِ لِعِبَادِهِ، فَقَالَ تَعَالَى لِلْمَخَاطِبِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ: ﴿نَحْنُ
خَلَقْنَكُمْ﴾ أَي: وَخَدَنَّا، وَقَبْلَ خَلْقِنَا لَكُمْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً. فَإِنْ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ خَلَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، فَأَثْبِتُوا دَعْوَاكُمْ بِحُجَّةٍ مَا، أَوْ

امْنَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ الَّذِي قَدَرْنَاهُ بَيْنَكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ خَالِقًا غَيْرَنَا هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَادْكُرُوهُ، وَأَثْبِتُوا بِحُجَّةٍ مَقْبُولَةٍ مَاذَا خَلَقَ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ اسْأَلُوهُ أَنْ يَمْنَعَ عَنْكُمُ الْمَوْتَ إِذَا نَزَلَ بِكُمْ لِيُثَبِّتَ أَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ.

لَكِنَّ أَحَدًا مَا فِي الوجودِ غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ.

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾: «لَوْلَا» هُنَا بِمَعْنَى «هَلَا» الَّتِي فِيهَا مَعْنَى الْحَضُّ وَالْحَثُّ، أَيُّ: فَهَلَا تُصَدِّقُونَ بِأَنْبَاءِنَا عَنْ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ حِسَابٍ، وَفَضْلٍ قِضَاءٍ، وَتَنْفِيدٍ جِزَاءٍ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، أَوْ فِي دَارِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَفِي هَذَا الْحَضِّ مَعْنَى تَلْوِيمِ الْمَكْذِبِينَ، وَبَيَانِ سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ، وَنَقْصَانِ عُقُولِهِمْ، إِذْ يُنْكِرُونَ الْحَقَّ الْمُؤَيَّدَ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْحُجَجِ الدَّامِغَةِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ عِبَارَةَ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ مُوجَّهَةٌ لِلدَّهْرِيِّينَ وَكُلِّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالرَّبِّ الْخَالِقِ، كَالْمَلَا حِدَةِ وَالْجُودِيِّينَ، أَوْ يَجْعَلُونَ لَهُ شَرِيكَاً فِي خَلْقِهِ لِلنَّاسِ، كَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِخَالِقِينَ أَوْ أَكْثَرَ.

بَعْدَ هَذَا جَاءَ عَرَضُ الظَّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ الْمُخْتَارَةِ لِلْعَرَضِ فِي هَذَا الدَّرْسِ، مِنْ ظَوَاهِرِ خَلْقِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّةِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ:

الظَّاهِرَةُ الْأُولَى: النُّظْفَةُ الْمُنَوِيَّةُ، وَقَدْ جَاءَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ مَا أَنتُمْ بَخِلْفُونَهُ أََمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾!؟.

استفهامٌ يُرادُ بِهِ لَفَتْ أَنْظَارَ الْمُخَاطَبِينَ إِلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الْعَجِيبَةِ مِنْ ظَوَاهِرِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ، الَّتِي فِيهَا جُرُثُومَةُ الْأَحْيَاءِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِي الْخَلِيَّةِ بَعْدَ انْعِقَادِهَا كُلِّ صِفَاتِ الْكَائِنِ الَّتِي تَظْهَرُ جَلِيَّةً حِينَما يَكْبُرُ، وَتَبْرُزُ صِفَاتِهِ.

﴿مَا تُنَوِّنُ﴾: أَي: النُّطْفَةُ الْمُنَوِّيَّةُ الَّتِي تُخْرِجُوهَا مِنَ الْعَضْوِ التَّنَاسُلِيِّ. وَتُسَمَّى: «الْمَنِي» وَهُوَ سَائِلٌ أَبْيَضٌ غَلِيظٌ تَسْبَحُ فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ الْمُنَوِّيَّةُ، يَخْرُجُ مِنَ الْقَضِيبِ إِثْرَ جَمَاعٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَمَنْشُؤُهُ إِفْرَازَاتُ الْخَصِيَّتَيْنِ، وَيَخْتَلِطُ بِهِ إِفْرَازُ الْحَوِصَلَتَيْنِ الْمُنَوِّيَّتَيْنِ، وَالْبَرُوسَتَاتِ، وَغَدُّ الْمَبَالِ (مَجْرَى الْبَوْلِ).

المني عند الأطباء

يُظَلَّقُ عَلَى الْإِفْرَازَاتِ التَّنَاسُلِيَّةِ لِلرَّجُلِ، تُفَرِّزُهَا الْخُصْيَةُ، وَالْبَرُوسَتَاتُ، وَالْحَوِصَلَةُ الْمُنَوِّيَّةُ، وَهُوَ مَكُونٌ مِنْ عَنصرين:

(١) الْحَيَوَانَاتُ الْمُنَوِّيَّةُ، الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنَ الْقَنَوَاتِ الْمُنَوِّيَّةِ فِي الْخُصْيَةِ.

(٢) السَّائِلُ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَيَوَانَاتَ الْمُنَوِّيَّةَ، وَيُعْذِّبُهَا، وَهِيَ تَسْبَحُ فِيهِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى الرَّحِمِ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الْإِفْرَازِ الْحَامِضِيِّ الْقَاتِلِ لَهَا فِي الْمِهْبَلِ.

وَالدَّفْقَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْمَنِيِّ تَحْمِلُ مَائَتَيْ مَلْيُونِ حَيَوَانٍ مُنَوِيٍّ فَأَكْثَرُ، وَالَّذِي يُلْقِحُ الْبُويْضَةَ حَيَوَانٌ مُنَوِيٌّ وَاحِدٌ لِلْجَنِينِ الْوَاحِدِ بِسَبَبِ الْعَادَةِ.

وَفِي الرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تَسْعَى الْحَيَوَانَاتُ الْمُنَوِّيَّةُ لِاجْتِيَازِ مَسَافَتِهَا، مِنَ الْمِهْبَلِ، فَعُنْتُ الرَّحِمِ، فَالرَّحِمِ، فَفَنَاءَ الرَّحِمِ لَتَلْتَقِيَ بِالْبَيْضَةِ، تَهْلِكُ الْأَعْدَادُ الْكَثِيرَةُ مِنْهَا، وَلَا تَصِلُ مِنْهَا إِلَى قُرْبِ جِدَارِ الْبَيْضَةِ إِلَّا مِائَتٌ مِنْهَا، وَبِالْمَشِيئَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يُخْتَارُ بِحَسَبِ الْعَادَةِ وَاحِدٌ مِنْهَا، لِاخْتِرَاقِ جِدَارِ الْبَيْضَةِ، وَتُحْجَزُ الْبَقِيَّةُ عَنِ الْاخْتِرَاقِ فَتَهْلِكُ.

والذكورة والأنوثة في الجنين تأتيا من الحيوان المنوي الملقح،
الآتي من الزوج الذكر، فإذا كان ذكراً تكوّن الجنين ذكراً، وإذا كان أنثى
تكوّن الجنين أنثى بقضاء الله وقدره، ومحض مشيئته واختياره.

وقد اكتشف مُتَابِعُو البَحْثِ من عُلَمَاءِ الأَجَنَّةِ، في أواخر القرن
التاسع عشر الميلادي، وفي القرن العشرين، عجائب مُذهلة في مَنِيّ
الرَّجُلِ، وبُيُوضِ المرأة، وفي التراتيب والتدابير الربّانية، التي يَتَحَقَّقُ بها
إنشاء الجنين، حتّى ولادته طفلاً، وتناميه إلى أن يكون إنساناً كاملاً، ما
يَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً على أَنَّ مُنْزَلَ القرآنِ هُوَ خَالِقُ الأكوان، وهو العليم بما
خَلَقَ وَبَرَأَ وَأَنشَأَ.

﴿أَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩)؟!.

هل يدعي مَنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلِ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَنِيَّه؟!.

هل يدعي الأطباء وخبراء المخابر والمعامل الكيميائية، أنهم قادرون
على تَصْنِيعِ نُظْفَةٍ مَنَوِيَّةٍ، أو حَيَوَانٍ مَنَوِيٍّ واحد؟!.

إنّ الإنس والجنّ جميعاً عاجزون عَنْ ذلك، ولا يمكن لهم أن
يَدَّعَوْهُ إِلَّا كاذبين مفترين على الله.

إنّ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هو خَالِقُ النُّطْفَةِ المَنَوِيَّةِ كُلِّهَا بِقُدْرَتِهِ
العظيمة، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ، فَهُوَ وَحْدَهُ مُبْدِعُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ
نَبَأَهُ العَظِيمَ، بأنه سَيُعِيدُكُمْ إلى الحياة مَرَّةً أُخْرَى، بَعْدَ مَوْتِكُمْ، لِيُحَاسِبَكُمْ،
وَيُفْصَلَ القضاء بينكم، وَيُثَبِّتَكُمْ أو يُعَاقِبَكُمْ على ما سَلَفَ مِنْكُمْ في رِحْلَةِ
امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدنيا!!.

الظاهرة الثانية: ظاهرة مَوْتِ الأحياء، الذي لا مَفَرَّ لِحَيٍّ مِنْهُ، وَقَدْ
جاء التنبيه عَلَيْهَا في قول الله عَزَّ وَجَلَّ في هَذَا الدَّرْسِ، مع تنويع في
الأسلوب البياني، من الاستفهام إلى الخبر، ومع استعمال ضمير المتكلم
العظيم، لأنَّ الموضوعَ يَتَطَلَّبُ إظهارَ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿١٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

● ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [قَدَرْنَا] والمعنى فيهما واحد، يقال لغة: «قَدَرَ الشَّيْءُ، وَقَدَرَهُ» أي: حَدَدَ مقادير كلِّ وصفٍ فيه لَهُ وَحَدَاتٌ صُغْرَى، تُقَدَّرُ جُمْلَتُهُ بمقدار أعدادها، كأعداد ذرَّاته، وأعداد نقاط طوله وعرضه، وأعداد وحدات طاقته.

فالمعنى: نَحْنُ جَعَلْنَا مَوْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مُقَدَّرًا بالزمان، والمكان، والأسباب، فلا يتأخَّرُ مَوْتُ كُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ زَمَانًا مَا، مَهْمَا قَلَّ، ولا يَتَقَدَّمُ مَوْتُهُ زَمَانًا مَا، مَهْمَا قَلَّ، والمكان الذي حَدَدْنَاهُ أَنْ يموت فيه لا بُدَّ أَنْ يموت فيه، وكذلك السَّبَب.

فمعنى: «قَدَرْنَا» و«قَدَرْنَا» في هذا النِّصِّ، حَدَدْنَا الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةَ، الَّتِي تَسْتَمِرُّ فِيهَا حَيَاةُ كُلِّ مِنْكُمْ، وَالْوَحْدَةَ الزَّمَنِيَّةَ الصُّغْرَى الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا بانفصال الرُّوحِ عَنْ نَفْسِهِ الَّتِي تَذُوقُ بِهِ الْمَوْتَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي يَكُونُ مَوْتُهُ فيه، وَالسَّبَبَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ لِأَنْ يَكُونَ مَوْتُهُ بِهِ.

والموتُ يَكُونُ بِنَزْعِ رُوحِ الْحَيِّ مِنْ نَفْسِهِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى برنامج وجوده وحياته، وفي نواة كُلِّ خَلِيَّةٍ مِنْ خَلَايَا جَسَدِهِ «برنامجه الوراثي» أي: الخُطَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ الشَّامِلَةُ لِكُلِّ صِفَاتِهِ الْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَعَلَى وَفْقِهَا تَظْهَرُ صِفَاتُهُ، فَمَا هُوَ مِنْهَا جَبْرِيٌّ، لَا يَخْضَعُ لاختيارات إِرَادَتِهِ، كصِفَاتِهِ الْجَسَدِيَّةِ، وَمَا هُوَ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ نِظَامِ الْجَبْرِ، يَكُونُ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِلاستجابة لمطالب إِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ، كَحَرَكَةِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَأَجْفَانِ عَيْنَيْهِ، وَلِسَانِهِ وَشَفَتَيْهِ.

وَدَلَّنَا عَلَى أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الَّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ بِمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ مَا

يلي:

(١) قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

الروح: ما به تكون الحياة، وهي سرٌّ من أسرار الله في كونه، وهي من أمره جلّ جلاله وعظم سلطانه.

والنفس: شيء في داخل الجسد يشتمل على برنامج وجود الحي وحياته، فإذا نفخت الروح فيها، صار الجسد حيًا، وإذا نزع الروح منها ذابت النفس الموت، وفقد الجسد الحياة، فصار ميتًا.

وكل الناس يعرفون ظاهرة الموت، وكل الناس يجهلون حقيقة.

• ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾: جاء السبق في القرآن للدلالة على السبق الزمني، وللدلالة على السبق المكاني، وللدلالة على السبق المعنوي بالصفات ومنها المكتسبات الإرادية، وللدلالة على التفوق في القوة والقدرة على الغلبة، وهذا المعنى الأخير هو المناسب هنا.

أي: وما توجد في الوجود قدرة ما، تُغيّر ما قدرناه وقضيناه في قضية الموت، زمانًا، ومكانًا، وسببًا، سابقة لقدّرنا وقضينا وخلقنا في شيء من ذلك، ولا في غير قضية الموت من عظام المقادير وصغائرها،

وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ فِي شَيْءٍ مَّا نُرِيدُهُ، بَلْ نَحْنُ السَّابِقُونَ النَّافِذَةُ مَشِيتُنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ جَبْرًا أَوْ تَخِيرًا.

وَلَا يَخْفَى مَا فِي اسْتِعْمَالِ ضَمِيرِ المتكلم العظيم، من دَلَالَةٍ عَلَى عَظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ، وَقَهْرِهِ وَجَبْرُوتِهِ وَسُلْطَانِهِ.

• ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾: دَلَّتْ عبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ على عبارة مَظْهَرِيَّةٍ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ فِي أَلْفَاظِ النَّصِّ، وَهِيَ: «بَلْ نَحْنُ قَادِرُونَ» وَجَاءَتْ عبارة ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ مَبْنِيَّةً عَلَيْهَا، أَي: بَلْ نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ بِكُمْ أَمْثَالَكُمْ، فَنَخْلُقَ بَشَرًا آخَرِينَ أَمْثَالَكُمْ، وَنَجْعَلَهُمْ أَبْدَالًا لَكُمْ، فَمَا أَنْتُمْ إِلَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، نُحْيِيكُمْ بِحَسَبِ مَشِيتِنَا، وَنَمِيتُكُمْ بِحَسَبِ مَشِيتِنَا، وَنَأْتِي بِأَمْثَالِكُمْ أَبْدَالًا عَنْكُمْ بِحَسَبِ مَشِيتِنَا الَّتِي نُفْعِدُهَا إِذَا اقْتَضَتْ ذَلِكَ حُكْمُنَا.

• ﴿... وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١١): أَي: وَنَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُنْشِئَكُمْ النِّشَاءَ الْآخَرِيَّ، الَّتِي يَكُونُ بِهَا بَعْثُكُمْ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ. وَتَكُونُ هَذِهِ النِّشَاءُ الْآخَرِيَّ فِي طُرُوفِ وَأَسْبَابِ وَأَزْمَانِ وَأَحْدَاثٍ لَا تَعْلَمُونَهَا، كَمَا كُنْتُمْ عِنْدَ النِّشَاءِ الْأُولَى الَّتِي كُنَّا نُنْشِئُكُمْ إِيَّاهَا لَا تَعْلَمُونَ عَنْهَا شَيْئًا، وَأَنْتُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ، ثُمَّ فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِكُمْ، ثُمَّ فِي طُفُولَتِكُمُ الْأُولَى، وَبَعْدَ أَنْ عَقَلْتُمْ وَعَلِمْتُمْ نَشَاءَ أَشْبَاهِكُمْ، صِرْتُمْ تَقْيِسُونَ نَشَأَتَكُمْ عَلَيْهَا، فَعَلِمْتُمُوهَا عَنْ طَرِيقِ قِيَاسِ الْأَشْبَاهِ وَالنِّظَائِرِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

الظاهرة الثالثة: ظاهرة نشأة الحياة الأولى، وقد جاء التنبيه عليها في قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾: أَي: عَنْ طَرِيقِ مُلَاحَظَةِ نَشَاءِ أَشْبَاهِكُمْ وَنِظَائِرِكُمْ، وَأَنَّهَا كَانَتْ سُلَالَةً فِي أَطْوَارٍ بَدَأَتْ مِنَ الطِّينِ، إِذْ

اسْتُلْتُ مِنَ الطِّينِ الْأَغْذِيَّةَ، وَاسْتُلْتُ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ عُنَاصِرُ بِنَاءِ الْأَجْسَادِ،
وَاسْتُلْتُ مِنَ الْجَسَدِ عُنَاصِرُ النُّطْفَةِ الْمُنَوَّيَّةِ فِي الذُّكُورِ، وَبِنَاءِ الْبَيِّنَاتِ فِي
الْإِنَاثِ، ثُمَّ انْعَقَدَ الْجَنِينُ وَنَمَا وَتَخَلَّقَ، وَنُفِخَتْ فِيهِ رُوحُ الْحَيَاةِ، ثُمَّ لَمَّا
حَانَ وَقْتُ خُرُوجِهِ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَلِيدًا.

أَفَلَيْسَ لَدَيْكُمْ مَنْطِقٌ قِيَاسِيٌّ، تَقْيِسُونَ بِهِ أَحْدَاثَ النَّشْأَةِ الْأُخْرَى، الَّتِي
أَخْبَرَكُم بِهَا خَالِقُ النَّشْأَةِ الْأُولَى!؟.

وَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الْأُولَى عَنْ طَرِيقِ هَذَا الْقِيَاسِ نَفْسِهِ، وَظَاهِرٌ أَنَّهُ
لَا يُشْتَرَطُ فِي صَحَةِ الْقِيَاسِ تَطَابُقُ الْأَحْدَاثِ بِتَفْصِيلَاتِهَا، بَلْ يَكْفِي لَصَحَّتِهِ
مَا يُثْبِتُ الْقُدْرَةَ عَلَى إِعَادَةِ النَّشْأَةِ، الْمُمَاثِلَةِ فِي النَّتِيجَةِ لِلنَّشْأَةِ الْأُولَى.

«النَّشْأَةُ»: وَ «النَّشْأَةُ» قِرَاءَتَانِ، وَالْمَعْنَى فِيهِمَا التَّكْوِينُ الْمَتَدَرِّجُ ضِمْنَ
نِظَامِ التَّرْبِيَةِ، حَتَّى إِبْلَاغِ الشَّيْءِ دَرَجَةِ كَمَالِهِ.

وهما لغتان عَرَبِيَّتَانِ، كَالرَّافَةِ وَالرَّافَةِ، بِالْقَصْرِ وَالْمَدِّ.

• ﴿... فَالَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٧): أَي: فَهَلَّا تَضَعُونَ النَّشْأَةَ الْأُولَى الَّتِي
عَلِمْتُمُوهَا فِي سَاحَةِ تَذَكُّرِكُم الْحَاضِرِ، لَتَقْيِسُوا النَّشْأَةَ الْأُخْرَى عَلَيْهَا،
بِالْمَقَاسِ الْمُنَطْقِيَّةِ الَّتِي تُقَاسُ بِهَا الْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ، بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ مِنَ
الْمَاضِيِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَاضِرِ، فَإِذَا وَضَعْتُمُوهَا فِي سَاحَةِ تَصَوُّرِكُم الْآنَبِيِّ،
فَرُبَّمَا دَفَعْتَكُمْ إِذَا كُنْتُمْ نَاشِدِينَ الْحَقَّ، قَادِرِينَ عَلَى التَّجَرُّدِ مِنْ أَهْوَائِكُمْ
وَتَقَالِيدِكُم الْعَمِيَاءِ، إِلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ مِنْ
حِسَابٍ، وَفَضْلِ قِضَاءٍ، وَتَنْفِيذِ جَزَاءٍ، وَهَذَا الْإِيمَانُ يَدْفَعُكُمْ إِلَى اخْتِيَارِ
السَّيْرِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ آسِرَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ
وَالْتَقَالِيدِ الْعَمِيَاءِ، وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أَضْلُهَا «تَتَذَكَّرُونَ» حُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا فِي

النُّطْقِ.

الظاهرة الرابعة: النَّبَاتُ في الأرض، وإِبْدَاعُ الرَّبِّ في تَنْشِئَتِهِ، وقد جاء التنبيه عليها في قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدُّرس:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿١٧﴾﴾ تَزْرَعُونَهُۥٓ: أي: تَنْبِثُونَهُ، وَتُثْمُونَهُ، حَتَّى يَبْلُغَ غَايَتَهُ.

﴿حُطَامًا﴾: أي: أَشْيَاءَ مُحْطَمَةً مُكْسَرَةً، أَضْلُ الْحُطَمِ في اللُّغَةِ الْكَسْرُ على أيِّ وَجْهِ، دُونَ عِنَايَةٍ بِالْمُكْسُورِ، وَلَا اكْتِرَاثٍ بِهِ، وَلَا بِأَيِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِ، أَوْ مَعَ قَصْدِ التَّخْلُصِ مِنْ هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ، وَإِتْلَافِ كُلِّ نَفْعٍ فِيهِ.

يقال لغة: «حَطَمَ الشَّيْءَ يَحْطِمُهُ حَطْمًا» أي: كَسَرَهُ على أيِّ وَجْهِ. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: أي: فَذُمْتُمْ تَتَذَمُّونَ. «فَظَلْتُمْ» أَضْلُهَا «فَظَلِلْتُمْ» حُذِفَتِ اللَّامُ الْأُولَى تَخْفِيفًا فِي التُّطْقِ، وَالْمَاضِي «ظَلَّ» مِنْ بَابِ «حَسَبَ يَحْسَبُ» وَأَضْلُ مَعْنَى كَلِمَةِ «ظَلَّ» الْاسْتِمْرَارُ بِالْأَمْرِ نَهَارًا، وَمِنْ التَّوَسُّعِ دَلَالَتِهَا عَلَى الدَّوَامِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

«تَفَكَّهُونَ» يَأْتِي فِعْلُ «تَفَكَّهَ» بِمَعْنَى:

(١) أَكَلَ الْفَاكِهَةَ، وَتَمَتَّعَ بِالشَّيْءِ مُتَلَذِّذًا بِهِ.

(٢) تَعَجَّبَ.

(٣) اغْتَابَ.

(٤) تَنَدَّمَ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا.

﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: إِنَّا لَخَاسِرُونَ، يَقَالُ لُغَةً: «عَرِمَ فِي تِجَارَتِهِ» أي: خَسِرَ، فَهُوَ «غَارِمٌ». وَيَقَالُ: «أَغْرَمَهُ» أي: جَعَلَهُ غَارِمًا خَاسِرًا.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (١٧): الْمَحْرُومُ: الشَّقِيُّ الذي لا يُصِيبُ خيراً من وجهٍ يتوجَّهُ له، ويُطلقُ على الفقير. وفي هذه العبارة إضرابٌ عن الخسارة وإثباتٌ للحرمان.

فالمعنى: أفرأيتُمْ أيُّها المَعْنِيُّونَ بالخطاب، مَا تَحْرُثُونَ (أي: مَا تَسْقُونَهُ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ بالمحاريث) وَتَبْدُرُونَ فِيهِ الْبُزُورَ رَجَاءَ نَبَاتِهَا، وَتَسْقُونَهُ مَاءً، أَوْ تَنْتَظِرُونَ نُزُولَ غَيْثِ السَّمَاءِ عَلَيْهِ. أَخْبِرُونِي أَنْتُمْ تُنْبِتُونَهُ، أَمْ رَبٌّ عَظِيمٌ هُوَ الَّذِي يُنْبِتُهُ وَيُنْمِيهِ، مَعَ أَزْمَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، قَدَرًا فَقَدَرًا حَتَّى يَبْلُغَ دَرَجَةً كَمَالِهِ، فَيَكُونَ لَكُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَأَنْتُمْ نَائِمُونَ، أَوْ غَافِلُونَ، أَوْ لَاهُونَ لَاعِبُونَ.

إِنَّ مَلَائِينَ الْأَعْمَالِ الْإِنْشَائِيَّةِ تَجْرِي فِي النَّبَاتِ لَيْلًا نَهَارًا، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ عَنْهَا شَيْئًا، وَتُكْشِفُ بَعْضُهَا كِمَرَاتِ التَّصْوِيرِ التَّابِعِيِّ فِي وَحْدَاتِ زَمَنِيةٍ صُغْرَى.

إِنَّا نَحْنُ ذَلِكَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الَّذِي يُنْبِتُ لَكُمْ وَيُنْمِي لَكُمْ زُرُوعَكُمْ وَثِمَارَكُمْ، الَّتِي هِيَ مَوَادُّ غِذَائِكُمْ وَغِذَاءُ أَنْعَامِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ.

وَكَمَا نَحْنُ نُنْبِتُ زُرُوعَكُمْ رَحْمَةً وَعِنَايَةً بِكُمْ، نَحْنُ الْقَادِرُونَ عَلَى جَعْلِهِ حُطَامًا فِي لَحْظَاتٍ، كَأَنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِ رِيحًا بَارِدَاتٍ، أَوْ رِيحًا سَمُومًا، فَتُهْلِكُهُ وَتَجْعَلُهُ مُحْطَمًا.

وَجِئْنِيذٍ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا مُوَاصَلَةَ النَّدَمِ قَائِلِينَ: إِنَّا لَخَاسِرُونَ، بَلْ نَحْنُ أَشْقِيَاءُ مَحْرُومُونَ مِنَ الْخَيْرِ، أَيْنَمَا تَوَجَّهْنَا، وَمَهْمَا اجْتَهَدْنَا.

إِتْقَانُ صِنْعِ النَّبَاتِ وَقِيَمَتُهُ فِي الْحَيَاةِ:

دَرَسَ عُلَمَاءُ النَّبَاتِ الْكُونِيَّونَ فِي الْقَرْنَيْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ

التاريخ الميلادي، ظاهرة النباتات في الأرض، فاكتشفوا حقائق مذهلة عجيبة، من إتقان صنّع الله في كونه، ودونوها علماً واسعاً يغوص في بحوثه المتخصصون.

وفيما يلي فقرات موجزات جداً من مقرراتهم في علم النبات.

(١) إنّ الناس لا يستطيعون الحياة في الأرض بدون النبات، فالأكسجين الذي نتنفسه ينتج عن النباتات. وهي مصدر الغذاء للإنسان ولسائر الحيوانات، وغذاء الإنسان من الحيوان يرجع في الحقيقة إلى الغذاء من النبات.

(٢) النباتات مصدر الكساء وسائر ما ينسج من خيوط، وسائر ما يقتل جبالاً، فمن النباتات الأقطان، والكتان، وألحية كثير من النباتات، ومنها الأصواف، والأشعار، والأوبار، لأنها تثبت بالغذاء النباتي.

(٣) الأخشاب التي تنتجها النباتات إحدى المواد الأساسية التي اعتمدت عليها الحضارة الإنسانية.

(٤) أحصى علماء النبات ما يزيد على (٣٥٠) ألف من أنواع النباتات في الأرض، ولم يستطيعوا أن يخصوا كل أنواعها.

(٥) من أنواع النباتات ما هو صغير دون المليمتر، ومنها ما هو عملاق يصل ارتفاعه إلى خمسين متراً، ومنها ما هو بين ذلك.

(٦) النباتات مصدر معظم النيران التي يستخدمها الناس، فالفحم الحجري من أشجار نباتات قديمة، والنفط يتكوّن من تراكم نباتات وأجساد أحياء قديمة، عطاها الطين والرمل، وطال عليها الزمن مع عوامل ضغوط وحرارة، فتحوّلت نفطاً بتقدير الله وقضائه.

(٧) معظم الأدوية ذات مصدر نباتي، أو مصنعة تقليداً لما في النباتات من خصائص دوائية.

(٨) تَرْتَبُطُ النِّبَاتَاتُ بِجَمِيعِ الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَالنَّائِمَةِ فِي الْأَرْضِ .

(٩) تُسَاعِدُ النِّبَاتَاتُ فِي الْحِفَاطِ عَلَى الثَّرْبَةِ، حَتَّى لَا تَذُرُوهَا الرِّيحُ، وَلَا تَجْرِفَهَا الْمِيَاهُ .

(١٠) الورقة الخضراء في النباتات معملٌ كيميائيٌّ مُعَقَّدٌ مُدْهِشٌ، لصناعة غذاء الإنسان، والكائنات الحيَّة التي تتغذى على النباتات، على الرغم من صِغَرِ حَجْمِهَا، وَعَدَمِ مَلاحَظَةِ التعقيد في مظهرها، واستِهانَةِ الناظر العاديِّ بِشَأْنِهَا . وبقيمتها .

إنَّ ورقة النَّبَاتِ نوع من الآلات الدقيقة الصُّنْعِ، الَّتِي تَعْمَلُ وَهِيَ مَكْشُوفَةٌ فِي الْعَرَاءِ، وَفِي مُخْتَلَفِ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْجَوِّ .

إنَّهَا الْعَضْوُ النَّبَاتِي الَّذِي يُوَدِّي وَظِيفَتَيْنِ حَيَوِيَّتَيْنِ لِلنَّبَاتِ، هُمَا: التَّنَفُّسُ، وَصِنَاعَةُ الْغِذَاءِ .

وَقَدْ أُعِدَّتْ إَعْدَادًا مُلَائِمًا لَاسْتِقْبَالِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ الْحَارَّةِ طَوَالَ سَاعَاتِ النَّهَارِ، وَتَحْمُلِ وَابِلِ الْمَطَرِ الَّذِي قَدْ يَتَسَاقَطُ عَلَيْهَا أَيَّامًا عَدِيدَةً، وَبِهَذَا الْإِعْدَادِ الْعَجِيبِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَكَيَّفَ لِلظُّرُوفِ الْمُخْتَلِفَةِ بِالْكِفَيَّاتِ الْمُلَائِمَاتِ، فَلَا تَسْمَحُ بِالتَّبَخُّرِ الرَّائِدِ عَلَى الْمَطْلُوبِ حِينَمَا تَشْتَدُّ عَلَيْهَا وَظَاءُ الشَّمْسِ، وَلَا تَسْمَحُ لِلْأَمْطَارِ الرَّائِدَةِ بِأَنْ تَنْفُذَ إِلَى دَاخِلِهَا، فَتُفْسِدَ مَضْنُوعَاتِهَا السُّكَّرِيَّةَ .

ومع أنَّ الورقة الخضراء في النباتات بالغة الرِّقَّةِ وَالنَّعْلَاطِ، إِلَّا أَنَّهَا فِي وَاقِعِ حَالِهَا تَرْكِيبٌ مُعَقَّدٌ مِنَ الْخَلَايَا وَالْأَنْسِجَةِ، يُغْلَفُهُ جِلْدٌ عُلوِيٌّ، وَجِلْدٌ آخَرُ سُفْلِيٌّ، وَفِي هَذَيْنِ السَّطْحَيْنِ وَلَا سِوَا السُّفْلِيِّ مِنْهُمَا تُوجَدُ نُغُورٌ كَثِيرَةٌ صَغِيرَةٌ، تَقُومُ بِعَمَلِ آلِي عَجِيبٍ، إِذْ تَنْفَتِحُ وَتَنْغَلِقُ تَبَعًا لِلْحَاجَةِ، فَإِذَا زَادَتْ نِسْبَةُ الْمَاءِ فِي الْوَرَقَةِ انْفَتَحَتِ الثُّغُورُ لِطَرَحِ الرَّائِدِ، وَلِتَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يَتَبَخَّرَ، وَإِذَا نَقَصَتْ نِسْبَةُ الْمَاءِ فِيهَا انْغَلَقَتْ هَذِهِ الثُّغُورُ .

وفي الورقة الخضراء خُطَّةٌ هَنْدَسِيَّةٌ رائعة، قائِمةٌ على شرايينٍ وعُرُوقٍ وأليافٍ، ومادَّةٍ خَضْرَاءٍ تُؤَدِّي وظيفةً أَسَاسِيَّةً في صِنَاعَةِ الغِذاءِ النباتي.

وعُنُقُ الورقةِ الخضراءِ هو السَّاقُ الَّذِي يَصِلُهَا بِأَصْلِهَا، وَعَنْ طَرِيقِهِ تَتَبَادَلُ الْأَخْذُ وَالْعِطَاءُ، فَتَأْخُذُ الْمَاءَ وَمَحَالِيلَ الْأَمْلَاحِ مِنْ أَصْلِهَا الَّذِي يَصِلُهَا بِالْجُذُورِ الْمَاصَّةِ، وَتُعْطِي مُنْتَجَاتَهَا السُّكْرِيَّةَ لِأَصْلِهَا الَّذِي يُوزَعُهُ عَلَى سَائِرِ جَسَدِهِ، وَعَلَى مُنْتَجَاتِهِ مِنَ الثَّمَرِ، بِحَسَبِ حَاجَةِ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وحين نَضَعُ هَذِهِ الْوَرَقَةَ الْخَضْرَاءَ الْنبَاتِيَّةَ تَحْتَ الْمِجْهَرِ الضَّخْمِ، نَلَاظُ حُطُوطَ هَذَا الْمَعْمَلِ الدَّقِيقِ الْعَجِيبِ، الْقَائِمِ بِوُظَائِفِهِ الْحَيَاتِيَّةِ بِإِتْقَانٍ تَامٍّ.

وَالنَّشَاطُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْوَرَقَةُ الْخَضْرَاءُ الْنبَاتِيَّةُ، يَبْرُزُ فِي الْمَادَّةِ الْخَضْرَاءِ نَفْسِهَا، فَعِنْدَهَا مِفْتَاحُ سِرِّ هَذَا النَّشَاطِ الصَّنَاعِيِّ الْكِيمِيائِيِّ الْعَجِيبِ.

إِنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْ مِلَايِينَ الْخَلَائِيَا الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْوَرَقَةُ الْنبَاتِيَّةُ الْخَضْرَاءُ، تُشَبِّهُ - لَوْ كَبَّرْنَاهَا لِلنَّظَرِ - غُرْفَةً مُتَقَنَةً مُحَاطَةً بِجِدَارٍ مِنْ السَّلْيُولُوزِ، وَفِي دَاخِلِهَا مَادَّةٌ عَلَى شَكْلِ حُبَيْبَاتٍ تُسَمَّى «سَيْتُو پِلَازِم» وَفِي هَذِهِ الْمَادَّةِ عَدَدٌ مِنْ حُبَيْبَاتٍ مُسْتَدِيرَةٍ، ذَاتُ لَوْنٍ أَخْضَرَ بَرَّاقٍ، وَهَذَا اللَّوْنُ الْمُسَمَّى «كُلُورُ وَفِيل» هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْأَصْبَاغِ، فَهُوَ مَادَّةٌ كِيمِيَائِيَّةٌ مُلَوَّنةٌ، كَالْأَصْبَاغِ الَّتِي تُعْطِي الشَّعَرَ، وَالرِّيشَ، وَالْجُلْدَ، وَالْعَيْنَ أَلْوَانَهَا، وَكَالْصَّبْغِ الْأَحْمَرِ الَّذِي يُعْطِي الدَّمَ لَوْنَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوْنَهُ «هِيْمُو جُلُوبِين».

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِتْقَانٍ رَبَّانِيٍّ عَجِيبٍ^(١).

(١) انظر «الفصل الرابع»: «آيات في النَّبَات» من كتاب: «براهين وأدلة إيمانية» للمؤلف.

الظاهرة الخامسة: الماء وإنزاله من المزنِ نقيًا طهوراً سائغاً شرباً للشاربين .

وقد جاء التنبيه على هذه الظاهرة في قول الله عز وجل في هذا الدرس:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنِزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿الْمُزْنُ﴾: جمع «المزنة» وهي السحابة الحاملة للماء .

﴿أَجَاجًا﴾: «الأجاج» ما يُلْدَعُ الفم بمرارته ومُلَوَّحَتِهِ، فهو المِلْحُ المرُّ .

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾: أي: لو شئنا جَعَلْنَاهُ مرّاً مالِحاً. لَمْ تَأْتِ هُنَا اللَّامُ فِي جَوَابِ «لَوْ» وَسَبَقَ أَنْ جَاءَتْ فِي جَوَابِ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ .

قال النحاة: مجيء اللام في جواب «لَوْ» وَعَدَمُ مجيئها إذا كان الجواب ماضياً مُثَبَّتاً جَائِزاً، إِلَّا أَنْ اقترانَ الجوابِ بِاللَّامِ أَكْثَرُ فِي الاستعمال، فجاء النص هنا بالجائزين، وقُدِّمَ الأكثر استعمالاً فِي لِسَانِ الْعَرَبِ .

فالمعنى: أَفَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الْمَعْنِيُّونَ بِالخِطَابِ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَهُ حُلُوءاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ، لَا مُلَوِّحَةً فِيهِ وَلَا مَرَّارَةً، بِسَبَبِ نِظَامِ التَّضْعِيدِ وَالتَّقْطِيرِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ رَحْمَةً لَكُمْ، وَعِنَايَةً بِكُمْ .

أَخْبِرُونِي، أَأَنْتُمْ دَبَّرْتُمْ نِظَامَ تَضْعِيدِهِ مِنَ الْمَحِيطَاتِ الْمَرَّةِ الْمَالِحَةِ، مُجَرِّدًا مِنَ الْمَوَادِّ الْمَرَّةِ وَالْمَالِحَةِ، وَتَكْوِينِهِ سُحْبًا فِي الْأَجْوَاءِ، وَإِنْزَالِهِ طَهُورًا نَقِيًّا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ دَبَّرْنَا ذَلِكَ، وَنُجْرِيهِ بِقُدْرَتِنَا، وَإِتْقَانِ صُنْعِنَا عِنَايَةً بِكُمْ وَرَحْمَةً لَكُمْ؟! .

مَنْ مِنْكُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ مُدَبِّرُ هَذَا التَّدْبِيرِ، وَمُقَدَّرُ هَذَا التَّقْدِيرِ؟! .
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَفْعَلُ هَذَا فَهَلْ يَفْعَلُهُ أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ
غَيْرُنَا؟! .

أَمَّا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ عَقْلاً أَنْ نَجْعَلَ الْمَوَادَّ الْمُخْتَلِطَةَ بِهِ تَبَخَّرُ مَعَهُ
فَيَرْجِعَ مِنَ السَّحَابِ أَجَاجاً كَمَا صَعَدَ، فَلَا تَجْدُونَ فِي الْأَرْضِ مَاءً حُلُواً
نَقِيّاً تَشْرَبُونَهُ؟؟ .

أَفَلَا تَدْفَعُكُمْ عِنَايَتُنَا بِكُمْ إِلَى أَنْ تُؤَدُّوا وَاجِبَ شُكْرِنَا بِالْإِيمَانِ السَّلِيمِ
الْكَامِلِ، وَبِالْعَمَلِ بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ تَكَالِيفٍ عَلَى مَقَادِيرِ اسْتَطَاعَاتِكُمْ؟؟ .
﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾: أَي: فَهَلَّا تَشْكُرُونَ «لَوْلَا» هُنَا تَخْصِيصِيَّةٌ بِمَعْنَى
«هَلَّا» وَتَخْتَصُّ بِالْجُمْلَةِ الْفَعْلِيَّةِ.

«الشكر»: مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ الْمُنْعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ تَرْكٍ، أَوْ أَيِّ
شَيْءٍ مَادِّيٍّ يَسْرُهُ، وَقَدْ يَشْمَلُ الْقَوْلَ الَّذِي فِيهِ مَا يُرْضِي الْمُنْعِمَ، إِلَّا أَنْ
بَعْضَ الْقَوْلِ يَخْتَصُّ بِعِبَارَتِي الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ.

آيات الله وآلاؤه في الماء:

فِي الْمَاءِ آيَاتٌ جَلِيلَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَى الْخَالِقِ الْقَدِيرِ، الْحَكِيمِ الرَّحِيمِ
الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، الْمُنْعِمِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وَلِعَظَمَ مَا فِي الْمَاءِ بِخُصُوصِهِ مِنْ آيَاتٍ وَآلَاءٍ، امْتَنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ
بِهِ، مُشِيراً إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ تَهَيُّئِهِ وَإِعْدَادِهِ لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخَالِقَ الْعَظِيمَ الْحَكِيمَ الْمَاءَ مَادَّةَ حَيَاةٍ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ،
وَلَوْلَاهُ مَا نَبَتِ نَبَاتٌ، وَلَا نَمَا شَجَرٌ، وَلَا تَهَيَّأَ غِذَاءٌ لِحَيَوَانٍ أَوْ بَشَرٍ.

وَقَدْ أَمَدَّ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ إِمْدَاداً كَبِيراً، فَجَعَلَ الْبَحَارَ مُسْتَوْدِعَاتٍ
عَظِيمَاتٍ جَدّاً، تُمِدُّ سُكَّانَ الْأَرْضِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَاءٍ، وَلَوْ أَنَّ
الْبَحَارَ كَانَتْ حُلُوءَةً لَأَسْرَعَ إِلَيْهَا الْفَسَادُ، فَأَنْتَنَ مَاؤُهَا وَصَارَ آسَناً.

ولَكِنَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَمَتْ مِياهَ الْبَحْرِ مِنْ
الْفَسَادِ بِالْمَعْقَمِ الْمَخَالِطِ لَهَا.

وبالعناية الفائقة وإتقان الصنعة، جعل الله عز وجل نظام التبخر لآ
يُضْعَدُ إِلَّا الماء الخالص من العناصر المخالطة له في البحار.

ويتجمع بخار الماء الذي يتصاعد من المحيطات العظيمة ومن
غيرها على شكل سُحُب تَسْبَحُ في الفضاء، ويتراكم بَعْضُهَا على بَعْضٍ،
وتسوقها الرياح، وتركُم بَعْضُهَا على بَعْضٍ بأمرِ الله، وتُرْجِيها إلى أرضٍ
قَضَى اللهُ أَنْ يَسْقِيَهَا وَيُرْوِيهَا وَيُرْوِيَ الْأَحْيَاءَ فِيهَا، وَيُنْبِتَ زَرْعَهَا.

ويُرْسِلُ اللهُ عز وجل رِيحاً باردة ذوات لقاح، فَتَتَكَثَّفُ الْأَبْخِرَةُ،
وَتَتَجَمَّعُ عَلَى نَوِيَاتِ اللَّقَاحِ ماءً، فَتَتَسَاقَطُ قطرات، تكبرُ وتَصْغُرُ بقوانين
قَدَرِيَّةٍ، وتكون مطراً يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عِنْدَ أَمْكِنَةٍ تَجْمَعُ السَّحَابُ، إلى
الأرض التي قَضَى اللهُ أَنْ يَسْقِيَهَا أو أَذِنَ بِهِ، فَيُحْيِي بِهِ اللهُ الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا، وَيَسْقِي الظَّمَاءَ مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّاسِ.

ويتجمع الماء، فيَجْرِي في الوديان والشعاب، وتمتلئ منه الأحواض
والمستودعات، وَيَسْلُكُ سُبُلَهُ إِلَى الْعُيُونِ وَالْآبَارِ، لتكون مَوَارِدَ لِلوَارِدِينَ،
ومشاربٍ لِلظَّامِينَ.

ويخالط الماء التراب الطيب، فَتَتَفَتَّحُ البُزُورُ بِأَذْنِ رَبِّهَا، وتنفلقُ،
وتمتدُّ الجُذُورُ، ويسقُّ النباتُ الأرضَ، ويتصاعدُ الزَّرْعُ وَيَتَفَرَّغُ شَطْوُهُ،
ويَقْوَى جِذْعُهُ، وتنامى فروعهُ، وَيُزْهِرُ زَهْرُهُ، وَيُثْمِرُ ثَمَرُهُ.

فإذا البزرة التي كانت صغيرة كالخردلة أو العدسة أو الحمصة أو
النواة، قد صارت شجرة عظيمة وارفة الظلال، ثقيلة الأحمال، عظيمة
النفع، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِأَذْنِ رَبِّهَا، فَيَفِدُ إِلَيْهَا الْآكِلُونَ، وَيَعْتَذُونَ مِمَّا
فِيهَا مِنْ غِذَاءٍ لَهُمْ، وَيَنْتَفِعُونَ مِنْ وَرَقِهَا وَخَشَبِهَا وَكُلِّ شَيْءٍ فِيهَا.

إِنَّهَا لَأَنْظُمَةٌ عَجِيبَةٌ، وَسَلْسِلٌ مُتْرَابَةٌ غَرِيبَةٌ، وَهِيَ جَمِيعُهَا تَخْدُمُ غَايَةً مَرْسُومَةً مَعْلُومَةً، قَدْ أُحْكِمَتْ مِنْ أَجْلِهَا حَلَقَاتُ السَّلْسِلِ أَيْمًا إِحْكَامًا، وَرُتِبَتْ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ مَا فَوْقَهَا لَدَى النِّظَرَةِ الْكَلِيَّةِ الشَّامِلَةِ مِنْ مَزِيدٍ، ضَمَّنَ مَقَادِيرَ الْغَايَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَهَلْ وَجَدْتُمْ هَذِهِ السَّلْسِلَ الْمُحْكَمَةَ الْبَدِيعَةَ الْهَادِفَةَ لْغَايَةٍ مَقْصُودَةٍ عَلَى سَبِيلِ الْمَصَادِفَةِ مِنْ طَبِيعَةٍ عَمِّيَاءَ، لَا عَقْلَ لَهَا وَلَا إِرَادَةَ؟!!

الظاهرة السادسة: ظاهرة النار، وتخزينها في الأشجار وما تتحوَّلُ إليه الأشجار، للانتفاع بها عِنْدَ الْحَاجَةِ.

وقد جاء التنبيه على هذه الظاهرة في قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَتًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿تُورُونَ﴾: أي: تُوقِدُونَ، يُقَالُ لُغَةً: «أَوْرَى فُلَانٌ النَّارَ» أي: أَوْقَدَهَا.

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ﴾: أي: أَنْتُمْ خَلَقْتُمْ وَأَوْجَدْتُمْ ضِمْنَ نِظَامِ الْإِحْدَاتِ الْمُضْحُوبِ بِالتَّكَامُلِ الْمَتَدَرِّجِ غَالِبًا، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى «الْإِنْشَاء».

﴿شَجَرَتَهَا﴾: هي واحدة «الشَّجَر» وهو كُلُّ نَبَاتٍ يَقُومُ عَلَى سَاقٍ صُلْبَةٍ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ نَبَاتٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَائِمًا عَلَى سَاقٍ.

ويقال: «اشْتَجَرَ الشَّيْءُ» أي: تَدَاخَلَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، وَلَعَلَّ الشَّجَرِ سُمِّيَتْ مِنْ مَعْنَى تَدَاخُلِ بَعْضِ النَّبَاتِ فِي بَعْضٍ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَشْمَلُ كُلُّ نَبَاتٍ.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً﴾: «التَّذْكَرَةُ» مَا يُسْتَذَكَّرُ بِهِ الشَّيْءُ الْمَطْلُوبُ

تَذَكُّرُهُ، كَالرَّيْتِمَةِ، وَالْبَطَاقَةِ الَّتِي تُذَكَّرُ بِمَوْعِدِ اللَّقَاءِ، أَوِ الْاجْتِمَاعِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَفِي جَعْلِ النَّارِ تَذَكُّرَةً مَعْنَى التَّذْكِيرِ بِعَظَمَةِ خَالِقِهَا، وَخَازِنِهَا فِيمَا خَلَقَ مِنْ أَشْجَارٍ، وَفِيمَا تَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ الْأَشْجَارُ، وَفِي حِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ إِذْ لَمْ يَجْعَلْهَا مُتَدَفِّقَةً كَالْأَنْهَارِ وَالْيَنَابِيعِ، وَمَعْنَى التَّذْكِيرِ بِنَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي أَعْتَدَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ، يُعَذِّبُهُمْ بِهَا وَفِي دَارِهَا يَوْمَ الدِّينِ.

﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾: «المتاع»: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ وَالْفَنَاءِ يَأْتِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

الْمُقَوُّونَ: هم المسافرون ونحوهم النازلون فِي «الْقَوَاءِ» أَي: فِي الْقَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ تَكُونُ النَّارُ الَّتِي يُورُونَهَا مِنْ أَشْجَارِهِ مَتَاعاً لَهُمْ، لِذِفْنِهِمْ، وَظُهُوِ طَعَامِهِمْ.

يَقَالُ لُغَةً: «أَقْوَى الرَّجُلُ» أَي: حَلَّ فِي الْأَرْضِ الْقَوَاءِ، مِثْلَ «أَصْحَر» أَي: دَخَلَ فِي الصَّحْرَاءِ.

وَهِيَ أَيْضاً مَتَاعٌ لَغَيْرِ النَّازِلِينَ بِالْقَوَاءِ (= بِالْقَفْرِ) وَجَاءَ ذِكْرُ «الْمُقَوِّينَ» لِبَيَانِ الْعِنَايَةِ بِهِمْ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ تَشْتَدُّ حَاجَتُهُمْ وَهُمْ مُسَافِرُونَ لِلْحَصُولِ عَلَى حَطَبٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ يَابِسِ نَبَاتِ الْأَرْضِ يُوقِدُونَهُ نَاراً، أَمَّا الْمُقِيمُونَ فِي الْقُرَى فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي الْعَادَةِ مُعِدِّينَ مَا يَلْزِمُهُمْ وَقُوداً لِلنَّارِ الَّتِي يَخْتَاجُونَهَا لِذِفْنِهِمْ، وَظُهُوِهِمْ، وَسَائِرِ مَنَافِعِهِمْ، فَذَكَرُ الْعِنَايَةَ بِذَوِي الْحَاجَاتِ الطَّارِئَةِ، يَدُلُّ عَلَى الْعِنَايَةِ بِذَوِي الْحَاجَاتِ الْمُتَكَرِّرَاتِ دَوَاماً مِنْ بَابِ أَوَّلَى، وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ الْإِيجَازِ فِي الْبَيَانِ.

النار في العلوم الطبيعية:

تَقُولُ مَقَرَّرَاتُ الْعُلُومِ الْكُونِيَّةِ: إِنَّ النَّارَ تَحْدُثُ مِنَ الْاتِّحَادِ السَّرِيعِ

للأكسجين مع المواد الأخرى، وتختلف أنواع النار باختلاف أنواع المواد التي تتحد مع الأكسجين.

ولتولد النار ثلاثة شروط:

الشرط الأول: وجود المادة التي يُراد إشعالها.

الشرط الثاني: تسخين الوقود إلى درجة الحرارة التي يشتعل بها نوعه.

الشرط الثالث: توافر الأكسجين بقدر كافٍ لاشتعال المادة المراد إيقادها.

والنار مع خطرهما العظيم، ذات نفع عظيم، فلا بُدَّ من التعامل معها بغاية الدقة والحذر من مخاطرها.

ومن فوائد النار صهرها للمعادن، وتعقيمها، وقد تصهر الحجارة، إذا ارتفعت درجة حرارتها، وهي الشرط اللازم لمعظم الصناعات الثقيلة الكبرى.

وبالنار يتحجر الطين فيصير آجرًا، ويصير خزفًا، وتصير الحجارة اسمنتًا، إلى منافع كثيرة يصعب حصرها^(١).

وبعد التنبيه على الظواهر الكونية الست، التي هي إحدَى آيات الله في كونه، والتي سبقَ بعضُ شرح تفصيلي عنها، خاطب الله عز وجل المتلقي الذي آمن بربه، وخضع له مُذعنًا، بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٧٤﴾: أي: فإذا عرفت أيها المتلقي أيًا كُنْتَ عظمة ربك، من تأملك في آياته في كونه، والتي منها الظواهر الست التي نبهناك عليها، فسبح باسمه قائلًا: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ.

(١) اقرأ قصيدة (النار) في ديوان «أمنت بالله» للمؤلف.

التسبيح باسم الرب: تنزيه وتقديس كل اسم من أسمائه عن كل ما لا يليق به، مما يتنافى مع أزليته، وأبديته، ووحدانيته، وكمال صفاته الوجودية، والمعنى: سُبِّحَ قارناً تسبيحك باسم من أسماء ربك العظيم، لتجمع بين التنزيه والحمد.

وجاء ذِكْرُ «اسْمِهِ» الشامل لكل أسمائه وصفاته الحسنَى، لأنَّ عِلْمَ الْخَلَائِقِ لَا يَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِ شَيْءٍ مِنْ ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، أَمَّا أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ فَيُذَكِّرُونَ مِنْهَا عَلَى مَقَادِيرِ اسْتِعْدَادَاتِ الْإِدْرَاكِ عَنْدهُمْ، وَيُظَلِّقُونَ مَدَاهَا الْكِمَالِيَّ الَّذِي لَا نِهَآيَةَ لَهُ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلَوْ عَجَزُوا عَنْ مُسَايَرَتِهِ فِي الْإِدْرَاكِ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثاني من دروس سورة الواقعة، والحمد لله على منّته، ومعونته، وتوفيقه، وفتحه.



(٨)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (٧٥ - ٩٤)

قول الله عز وجل:

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُومِ ۖ (٧٥) وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُمْ لَفُزَّانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَسْهُو إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفِيْهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّظَرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا

إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٢﴾ فَزُلْ مِنْ حِمِيرٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلِيَّةٍ حَمِيرٍ ﴿٩٤﴾ .

تمهيد:

(١) اشتمل هذا الدرس على قَسَمٍ بمواقع النُّجُومِ فِي الْكَوْنِ الْفَسِيحِ الذي لَا يُدْرِكُ مِنْهُ إِلَّا النَّزْرُ الْيُسِيرُ، مع المجاهر المكبرة والمقربة.

والمُقَسَّمُ عَلَيْهِ كَوْنُ الْقُرْآنِ كَرِيماً، أي: مُسْتَجْمِعاً فضائل الحق والخير والشرف، والبراءة من كلِّ النقائص، ومستجمعاً لكلِّ صفات الكمال القولي، ذي الدَّلالاتِ على الحقِّ، وعلى الخير، وعلى الهداية إِلَى التي هي أَقْوَمُ في كلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْلَاقِ أو بِالسُّلُوكِ، وعلى كونه مُدَوَّناً فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ هو اللَّوْحُ الْمُحْفُوظُ، وهذا الكتاب لا يَمُسُّهُ إِلَّا الْمُظْهَرُونَ، وهم من الملائكة الذين لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وعلى كونه تنزيلاً من رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(٢) واشتمل على خطاب المغنَّيينِ الْأَوَّلِينَ بالخطاب في السورة، وَهُمْ الْمَكَذِبُونَ بِنَبَأِ الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ، وبما سَوْفَ يَجْرِي فِيهِ مِمَّا أَنْبَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، خَالِقُ النُّجُومِ ووَاضِعُهَا فِي مَوَاقِعِهَا السَّحِيقَةِ فِي أَبْعَادِ الْكَوْنِ، وَمُنْزِلُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الْكَرِيمِ، فَيَضَعُهُمْ فِي الْمَنَاطِرَةِ أَمَامَ أَرْبَعِ قَضَايَا:

القضية الأولى: تَتَضَمَّنُ تَوَجِيهَ التَّشْرِيبِ لَهُمْ، بِسَبَبِ عَدَمِ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ. وَإِذْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُنْكِرُوا عَظَمَةَ بَيَانِهِ الْبَلِيغِ، وَلَمْ تُطَاوِعْهُمْ نَفُوسُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِأَنَّهُ كِتَابٌ مُنْزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَدْ لَجَّوْا إِلَى الْإِذْهَانِ، بِأَنْ قَالُوا عَنِ الْقُرْآنِ: «سِحْرٌ» وَقَالُوا: «شِعْرٌ» وَقَالُوا: «مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ» وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَاتِ اعْتِرَافٌ بِتَمْجِيدِ الْقُرْآنِ مَعَ الْإِذْهَانِ وَالْمَصَانَعَةِ، وَالْمَلَائِكَةِ فِي الْقَوْلِ الْمَقْرُونَةِ بِصَرْفِهِ عَنْ كَوْنِهِ مُنْزَلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

القضية الثانية: تَتَضَمَّنُ تَقْرِيعَهُمْ وَتَلْوِيمَهُمْ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِمَا جَاءَ

في القرآن كلام الله من أنباء عن البعث ويوم الدين، في مقابل إنعام الله عليهم بالرزق الذي يحتاجون إليه دواماً، ولا رازق في الوجود غيره، مع أن واجب شكر الله يفرض عليهم أن يصدقوا بما جاء في كتابه المعجز من أنباء البعث، ويوم الدين، وما يجري فيه من أحداث.

القضية الثالثة: تتضمن وضعهم أمام ثلاثة احتمالات، اثنان منها احتمالان مقبولان عقلاً، والاحتمال الثالث مرفوض عقلاً:

الاحتمال الأول (المقبول عقلاً):

أن تكون الحياة غير مستتبعة إدانة ولا جزاء، وهذه الحياة تستدعي من حكمه الرب الحكيم أن لا يمنح من يحييه إرادة حرة، وإدراكاً واعياً للخير والشر ومجالاتهما، وتمكيناً من فعل الخير والشر وهو يعلم، لكن الواقع خلاف ذلك.

الاحتمال الثاني (المقبول عقلاً):

أن يهب لمن يمنحه الحياة إرادة حرة، وإدراكاً واعياً للخير والشر، وتمكيناً من فعل الخير والشر، وهذا النوع من الحياة يستدعي من حكمه الرب الحكيم، ليكون خلقه بريئاً من العبث والظلم، أن يجعلها حياة امتحان واختبار، وأن يتبعها بالحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ومن تمام الحكمة في منح هذا النوع من الحياة، أن يجعل الخالق فاصلاً زمنياً بين زمنها وبين زمن الحساب والجزاء، وأفضل فاصل بينهما هو الموت، ليجمع الخالق بعده كل الذين وضعوا موضع الامتحان، في صعيد واحد، ويحاسبهم، ثم يجازيهم، وهذا يستدعي إحياءهم مرة أخرى، وهذا هو الذي تم اختياره للإنس والجن.

الاحتمال الثالث (احتمال غير مقبول عقلاً):

وهذا الاحتمال هو ما يرومه جاحدو يوم الدين، وهو أن تكون لهم

حياة فيها إرادة حُرَّة، وإدراكٌ واعٍ للخير والشرِّ، وتمكينٌ لهم من فعلِ الخير والشرِّ، ويتمنَّون مع ذلك دَوَامَها، وعَدَمَ انقطاعها بالموت الفاصل بينَ الحياة الأولى والحياة الأخرى.

والرَّاغبون في تحقُّق هذا الاحتمال المرفوض عقلاً هم الَّذِينَ يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم:

﴿قُلُوبًا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فَهَلَّا إِنْ كُنْتُمْ - كما نَزَعُمُونَ - سَوْفَ لَا تُحَاسِبُونَ وَلَا تُجَازُونَ على أَعْمَالِكُمْ لأن وجودكم ظاهرة طبيعية، تَرْجِعُونَ بكلِّ وسائلِكُمْ الحياة إلى أجسادِكُمْ مستفيدين من الظواهر الطبيعية السببية، وذلك عند مفارقتها لها، أو عقب مفارقتها لها، في حالة أَنَّهُ لم يَخْتَلْ في أجسادكم شيء، بل انتهت بقضائنا رِحْلَةً امتحانِكُمْ، وجاء وقت نَزْعِ رُوحِ الحياة منها، بانتظار إعادة الحياة إليكم للحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وتحقيق الجزاء.

ولكن لَنْ تَسْتَطِيعُوا، وبهذا يَثْبُتُ ما أنبأناكُمْ بِهِ، من أَنَّكُمْ مَدِينُونَ حتماً.

القضية الرابعة: تتضمن تأكيد قضية الجزاء يوم الدين، ببيان فيه إضافة بعض تفصيل، لثواب المقربين، وثواب أصحاب اليمين، وعقاب المكذِبين الضَّالِّين.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿فَلَا أَقْسِدُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَقَسَرُّ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

سبق لدى تدبر أول سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان ما ظهر لي من المراد بالقسم المنفي في القرآن المجيد، بعد أن ذكرت آراء المفسرين بشأنه، فقول: «لا» زائدة. وقيل: «لا» تنفي كلاماً مطوياً. وقيل غير ذلك.

وأقول:

«إِنَّ عبارة: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ ونظائرها أسلوبٌ بيانيٌّ قرآنيٌّ مُبتَكِرٌ، للدَّلالةِ على أَنَّ الموضوع مع حال المخاطب يفتضي اقتضائيْن متعارضين: (١) أحدهما يستدعي البَيانُ فيه الْقَسَمَ المؤكِّدَ للخبر الذي يُؤتى بالقسم لتأكيدِه.

(٢) والآخرُ يستدعي البَيانُ فيه عَدَمَ الْقَسَمِ.

فكان الحلُّ المبتَكِرُ في أساليب البيان القرآنيَّة اختيار أسلوب ذِكرِ لفظ الْقَسَمِ والمقسَمِ به تنبيهاً عليه، مع سَبْقِه بأداة النفي «لَا».

فالجانبُ الذي اقتضى الْقَسَمَ رُوعي حاله بِذِكرِ الْقَسَمِ والمقسَمِ به، تنبيهاً على ما في المقسَمِ به مِنْ تأكيدٍ أو حُجَّةٍ هادِيَةٍ إلى أَنَّ الموضوع الَّذي يُرادُ تأكُّدُه حقٌّ وصدق.

والجانبُ الَّذي اقتضى عَدَمَ حُصولِ الفائدة المرجوَّة من الْقَسَمِ، رُوعي حاله بِنفي الْقَسَمِ بأداة النَّفي «لَا».

فقولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) مع ملاحظة أَنَّ الموضوع المرادُ تأكُّدُه كَوْنُ القرآنِ كريماً ومُنزَلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يكشفان الاقتضائيْن المتعارضين:

فالمخاطبونَ يَجْحَدُونَ كَوْنَ القرآنِ مُنَزَلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، خالقي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وما فيهما وَمَنْ فيهما.

ومواقعِ النُّجُومِ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ آيَاتِ الله العظيِّماتِ، وهي أَهْلٌ لِأَنَّ يُقْسَمَ اللهُ بها.

لِكنَّ المعنيينَ الأولينَ بالخطابِ لم تَصِلْ بَعْدَ مَدَارِكِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ إلى مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ، حتَّى يَكُونَ الْقَسَمُ بها يُفيدُ بالنسبةِ إِلَيْهِمْ توكيداً.

بَيِّدَ أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي الْقُرُونِ اللَّاحِقَةِ لِرَمَنِ التَّنْزِيلِ، بَاحِثُونَ عِلْمِيُونَ
يَكْتَشِفُونَ عَظَمَةَ مَوَاقِعِ النُّجُومِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، وَهَؤُلَاءِ يُلَايِمُ حَالَهُمْ
أَنْ يُقَسِّمَ اللَّهُ لَهُمْ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهِ، وَأَنَّ كُلَّ
مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَنْبَاءٍ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلَا سِيَمَا أَنْبَاءَ الْجَزَاءِ، وَيَوْمَ الدِّينِ،
وَمَا سَوْفَ يَجْرِي فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ.

وَإِذْ اجْتَمَعَ الْاِقْتِضَاءُ أَنْ الْمُتَعَارِضَانِ، كَانَ الْحُلُّ الْمُنَاسِبُ مَعَ الْحَرَصِ
عَلَى الْإِيجَازِ فِي التَّعْبِيرِ، ذَكَرَ الْقَسَمَ وَالْمُقَسِّمَ بِهِ، وَالْمُقَسِّمَ عَلَيْهِ، مَعَ سَبْقِ
كُلِّ ذَلِكَ بِأَدَاةِ النِّفْيِ «لَا».

فَالَّذِينَ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِمُ الْقَسَمُ، وَلَا يَقَعُ فِي نَفْسِهِمْ مَوْقِعَ الْمُؤَكِّدِ
يُخَاطَبُونَ بِالنِّفْيِ.

وَالَّذِينَ يُؤَثِّرُ فِيهِمْ هَذَا النُّوعُ مِنَ الْقَسَمِ يَجِدُونَ فِي ذِكْرِهِ مَنَفِيًّا تَنْبِيهًا
لَهُمْ عَلَى عَظَمَةِ الْمُقَسِّمِ بِهِ، وَيُذَكِّرُونَ أَنَّ الْمُقْصُودِينَ بِنِفْيِ الْقَسَمِ الْجَاهِلُونَ
بِعَظَمَةِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ، الَّذِينَ لَا يَتَأَثَّرُونَ بِالتَّوَكُّيدِ بِهِ.

وَهَذَا الْحُلُّ الْمَوْجَزُ الْبَدِيعُ، قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْقَسَمِ لِمَنْ يُؤَثِّرُ فِيهِ، وَعَدَمِ
الْقَسَمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ.

وَنُمِثِلُ لِهَذَا الْأَسْلُوبِ - وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - بِقَوْلِ الْمُحِبِّ لِمُحِبُّوهِ
الْهَاجِرِ لَهُ: أَنَا لَا أَخْلِفُ لَكَ بِأَنِّي أَحْبَبْتُكَ كَثِيرًا، وَمُشْتَقٌّ إِلَى لُفْيَاكَ،
وَأَسْهَرُ اللَّيَالِي الطَّوَالَ أَنْظِمُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ حُبِّي وَشَوْقِي رَوَائِعَ الْقَصَائِدِ،
لِأَنَّكَ غَيْرُ عَابِيٍّ بِكُلِّ مَا أَجِدُ نَحْوَكَ.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥): جَاءَتْ الْفَاءُ تَفْرِيعًا عَلَى مَا
جَاءَ فِي الدَّرْسَيْنِ: (الْأَوَّلِ وَالثَّانِي) مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، وَمَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ
بَيَانِ قُرْآنِيٍّ عَنِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، وَعَنْ يَوْمِ الدِّينِ، ضِمْنَ خُطَّةِ التَّكْوِينِ الَّتِي
قَدَّرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضَاهَا، وَأَبَانَ لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَقَطَاتٍ
ذَوَاتِ شَأْنٍ.

وَالْقُسْمُ أَسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ مِنْ أَسَالِيْبِ تَوْكِيدِ الْخَبَرِ، وَيَكُونُ الْمَقْسَمُ بِهِ عَادَةً شَيْئاً عَظِيماً، وَمِنْ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنْ يُقْسِمَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ بِغَيْرِهَا مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، أَوْ بِبَعْضِ آيَاتِهِ الْعَظِيمَاتِ فِي كَوْنِهِ.

وفي القراءة الأخرى: [بِمَوْقِعِ النُّجُومِ] على إفراد «مَوْقِع» ومؤدَى القراءتين واحد، لأنَّ إضافة المفرد إلى الجمع يجعل المفرد بقوة الجمع.

النجوم: هي الأجرام المضيئة في السماوات، وَشَمْسُنَا نَجْمٌ لَيْسَ كبيراً بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَمَالِقَةِ النُّجُومِ.

مَوَاقِعُ النُّجُومِ: مواقع: جمع: «مَوْقِع» وهو مكان وقوع شيء ما، وَمَوَاقِعُ الْقَطَرِ: مَسَاقِطُهُ.

وَلَا نَعْرِفُ بِصُورَةٍ تَقْرِيبِيَّةٍ مَوَاقِعَ النُّجُومِ، حَتَّى نُذْرِكَ عَجْزَنَا عَنْ تَصَوُّرِ الْأَبْعَادِ السَّحِيقَةِ فِي السَّمَاوَاتِ الَّتِي فِيهَا نَجُومٌ هِيَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَاضِعَةٌ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمُسَيَّرَةٌ وَمُسَخَّرَةٌ بِأَمْرِهِ، وَحَتَّى نُذْرِكَ أَنَّ الْكَوْنَ فِي اتِّسَاعٍ مُسْتَمِرٍّ.

يقول علماء الفلك^(١):

(١) إِنَّهُ يُوجَدُ مَا يَزِيدُ عَلَى (٢٠٠) بِلْيُونِ بِلْيُونِ مِنَ النُّجُومِ.

(٢) الشَّمْسُ لَيْسَتْ إِلَّا نَجْماً مُتَوَسِّطِ الْحَجْمِ، وَقُطْرُهَا أَكْبَرُ مِنْ قُطْرِ الْأَرْضِ بِمِقْدَارِ «١٠٩» مَرَّةً.

(٣) بَعْضُ النُّجُومِ الْعَمَلَاقَةِ قُطْرُهُ أَكْبَرُ مِنْ قُطْرِ الشَّمْسِ بِمِقْدَارِ أَلْفِ مَرَّةٍ، وَهِيَ لِبُعْدِهَا السَّحِيقِ فِي أَبْعَادِ الْكَوْنِ تُظْهَرُ لِأَعْيُنِنَا فِي الْأَرْضِ مِثْلَ نَقْطَةٍ مِنْ ضَوْءٍ بِمِقْدَارِ الْعَدَسَةِ.

(١) اقتباساً من «الموسوعة العربية العالمية».

(٤) أقرب نجم إلينا غير الشمس يَبْعُدُ عن الأرض بمقدار أربعين مليون مليون كيلومتر.

(٥) النجوم التي نراها في اللَّيْلِ خليط من نجومٍ قَرِيبَةٍ مُعْتَمَةٍ، ونجومٍ بَعِيدَةٍ مُضِيئَةٍ جَدًّا.

(٦) النجوم في السماوات لها حركات في مداراتٍ لها.

(٧) النجوم في السماوات تَتَجَمَّعُ في وحداتٍ، وَكُلُّ تَجَمُّعٍ مِنْهَا خاضع لنظامٍ واحدٍ، يُدْعَى «مَجَرَّةً».

وفي السَّمَاوَاتِ ما يَزِيدُ على «بِلْيُون» مجرّة.

وفي مجرّتنا التي فيها أَرْضُنَا وَشَمْسُنَا والكواكب التسعة التابعة لها، والتي تُدْعَى «دَرْبُ اللَّبَّانَةِ» ما يزيد على مئة بليون نجم. وَقَطْرُ مجرّتنا هذه يُقَدَّرُ بمئة ألفِ سَنَةِ ضَوْئِيَّةٍ، علماً بأنَّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلومتر.

إلى غير ذلك من عجائب لم يَصِلْ علماء الكونيَّات حتَّى عصرنا الحاضر، إِلَّا إلى معرفة القَلِيلِ الْيَسِيرِ منها، بالنسبة إلى سائرها.

من هذه الْفِقَرَاتِ التي التَّقَطَّتْها من بحوث مستفيضة عن النجوم نُذَرِكُ أَنَّ المراد بمواقع النجوم أَمْران:

الأمر الأول: مواقع بُعْدِها السَّحِيقِ في السماوات، وإدراكُ هذا يفوقُ قُدْرَاتِ التَّصَوُّرِ البشري.

الأمر الثاني: المواقع التي يَسْقُطُ فيها كُلُّ نجمٍ ضِمْنَ حَرَكَتهِ المنتظمةِ في مداره من مجرّته التي هو فيها، والتي لا يَخْرِمُ فيها كُلُّ نجمٍ مَوْقِعَهُ المَحْدَدَ لَهُ، على ما قَدَّرَ اللهُ له وقضى، فبالنظر، إلى سُرْعَةِ حركة النجوم يعتبر كُلُّ موقعٍ يَصِلُ إليه مَسْقُطاً من مساقطه.

إِنَّهُ مِنَ الْمَذْهَبِ وَالْمَذْهَلِ حَقًّا، مَوَاقِعَ النُّجُومِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يُتَابَعُ قِسْمًا مِنْهَا بِالْمَجَاهِرِ وَالْمَكْبُرَاتِ.

ولهذا قال الله عز وجل في الآية التالية:

• ﴿وَإِنَّكُمْ لَقَسِمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦): أي: وَإِنَّ الْقَسَمَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ جَدًّا، دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، الَّذِي أَعْظَمَ وَأَثَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعًا كَبِيرًا أَمْ صَغِيرًا.

ولو أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمَعْنِيُّونَ بِالْخُطَابِ عَظَمَةَ مَوَاقِعِ النُّجُومِ، لَأَذْرَكْتُمْ عَظَمَةَ الْقَسَمِ بِهَا، وَعَظَمَةَ صِفَاتِ خَالِقِهَا، وَهَذَا يَهْدِيكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَنْبَاءٍ، وَلَا سِيَمَا مِنْهَا أَنْبَاءُ يَوْمِ الدِّينِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ.

وهذه الجملة: ﴿وَإِنَّكُمْ لَقَسِمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) جملة معترضةٌ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ. وعِبَارَةٌ ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضةٌ أَيْضًا بَيْنَ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ الْمُعْطَرِضَةِ، فَهُوَ اعْتِرَاضٌ فِي مُعْطَرِضَةٍ.

والضمير فِي ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى الْقَسَمِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ: «أُقْسِمُ».

قول الله عز وجل:

• ﴿إِنَّكُمْ لَقَرَأَآنَ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾:

• ﴿إِنَّكُمْ لَقَرَأَآنَ كَرِيمٌ﴾ (٧٧): الضمير فِي ﴿إِنَّكُمْ﴾ لَا يَحْتَاجُ عَائِدًا يَعُودُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ مُبَيَّنٌّ بِالْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْجُمْلَةِ، وَهُوَ ﴿لَقَرَأَآنَ﴾ فَهُوَ هُنَا كَضَمِيرِ الشَّأْنِ فِي عَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَى عَائِدٍ سَابِقٍ يَعُودُ إِلَيْهِ.

وَاللَّامُ فِي «لَقَرَأَآنَ» هِيَ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ الْمَزْحَلِقَةِ إِلَى الْخَبَرِ، وَيُجَاءُ بِهَا لِلتَّوَكِيدِ. وَلَفْظُ «الْقُرْآنَ» هُوَ فِي الْأَصْلِ مُصَدَّرٌ لِفِعْلِ «قَرَأَ» يَقَالُ لُغَةً: «قَرَأَ»

الكِتَابَ، يَفْرُوهُ، قِرَاءَةً، وَفَرَانًا^(١) أي: تتبّع كلماته نظراً، ونطق بها. وأُطلق في الاصطلاح الديني على الكتاب المنزل من لدن رب العالمين، على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعون.

﴿كَرِيمٌ﴾: أي: بالغ غاية الشرف، وجامع كل صفات المجد والكمال البياني، ومبرراً من كل النقائص، إذ فيه بيان الحق والخير ومكارم الأخلاق ومحاسن السلوك، وهو يهدي للتي هي أقوم.

• ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾^(٧٨): أي: مكتوب أضله في كتاب مستور مضمون، وهو اللوح المحفوظ^(١)، والله هو العليم بالكتابة التي تكون في اللوح المحفوظ.

«المكنون»: هو المستور المخفي المبعّد عن الوصول إليه. «الكن»: هو المكان المحفوظ المحجوب ببناء أو غيره، ولهذا وصف الله عز وجل اللوح المحفوظ بأنه مكنون، وبأنه لا يمسّه إلا المطهرون، وهم من الملائكة.

• ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٧٩): «المس»: اللمس باليد، ويطلق على وصول سطح الشيء إلى سطح الشيء الآخر، دون الدخول إلى شيء موجود تحت السطح. يقال لغة: «مس الشيء يمسّه مساً» أي: لمسّه.

«المطهرون»: هم من المخلوقات الحيّة ذوات العلم الملائكة، لأن الله عز وجل بالتكوين الذي فطرهم عليه قد جعلهم مطهّرين من كلّ رجس فكريّ، واعتقاديّ، ونفسيّ، وسلوكي، فهم لا يعصون الله عز وجل في جهاز المعرفة لديهم، ولا في اعتقاداتهم القلبيّة، ولا في حركات نفوسهم، ولا في شيء من سلوكهم الظاهر والباطن، وهم مطيعون بالفطرة، يفعلون ما يأمرهم الله به.

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول)، «اللوح المحفوظ في القرآن وبعض السّنة».

فالملائكة أو قِسْمٌ منهم هم المأذونون بأن يَصِلُوا إِلَى اللَّوْحِ المحفوظ ويمسّوه، ويَقْرَؤُوا مِنْهُ ما أَدْنَى اللهُ لَهُمْ بأن يَقْرَؤوه فيه، أو يَسْتَنْسِخُوهُ منه.

ولم يَمَسَّ وَلَنْ يَمَسَّ اللَّوْحَ المحفوظَ غَيْرُ الْمُطَهَّرِينَ، أما الجنُّ فلا يمسّونه، لأنَّهُمْ مُعَرَّضُونَ للمعاصي والمخالفات حتّى دَرَكَةِ الكُفْرِ، وهذه أَرْجَاسٌ تَجْعَلُهُمْ مَمْنُوعِينَ بِالْقَهْرِ الرَّبَّانِيِّ من الوصولِ إِلَى اللَّوْحِ المحفوظ، وكذلك الإنس مهما اتخذوا مِنْ وسائل.

• ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠): أي: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، فلفظ «تنزيل» صفةٌ أخرى للفظ «قرآن» ويجوز نحويّاً أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هو تنزيل.

«التنزيل والإنزال»: يراؤ بهما في الاستعمالات القرآنيّة إيصال الأشياء من مَقَامِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ إِلَى خَلْقِهِ، لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وكلّ الكائنات دونهُ مُنزَلَةٌ ومكانةٌ، ولو كان هو جل جلاله أَقْرَبَ إِلَى عبادِهِ من جِبَالٍ أَوْ رِدَتِهِمْ، ولا يُلْزَمُ من التعبيرِ بِالْإِنْزَالِ أو بالتنزيل إهباط الشيء من مَكَانٍ عَالٍ إِلَى مَكَانٍ مُنْخَفَضٍ، بل كثيراً ما يكون المراد الدَّلالةُ عَلَى عُلُوِّ المَقَامِ الرَّفِيعِ لِلْمَنْزِلِ الخالق، أو الواهب، أو المتفضل بعباءاته.

﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: من المتصرّف بصفات رُبُوبِيَّتِهِ بكلِّ العالمين، والمراد بِالْعَالَمِينَ هُنَا كُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَكْوَانِ، إذ هو جلّ جلالهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للكافرين بالرَّسُولِ وبالقرآنِ وبيوم الدين، وفي الصَّفِّ الأولِ منهم مُشْرِكُو مَكَّةَ وما حولها إِبَّانَ التَّنْزِيلِ وهم المعنيون الأولون في السورة:

• ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ﴾ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾؟.

هَاتَانِ آيَتَانِ مَدَنِيَّتَانِ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةَ الْحَرَكِيَّةَ تَأْخِيرَ إِنْزَالِهِمَا إِلَى مَا بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، لثَلَا يَكُونَ فِي بَيَانِ مُدَاهَنَةِ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ بِمَا يَشْعُرُ بِإِعْظَامِهِمْ لِبَلَاجَتِهِ السَّاحِرَةِ الْإِسْرَةِ، مَا يَدْفَعُهُمْ إِلَى تَوَجُّهِهِ الشَّتَائِمَ لَهُ وَلَا سَالِيَهُ الْبَيَانِيَّةِ ظِلْمًا وَعُدْوَانًا.

﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ (٨١):

هذا الحديث: هو القرآن الكريم، والاستفهام في العبارة هنا يراد به التثريب، والتلويح، إلى حدّ التوبيخ، والفاء حرف عطف على جملة: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وفيها معنى التفریع، أي: أفصح في أذهانكم أن تُذهِنُوا بالقرآن الكريم، ذي المجد العظيم، والذي هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين، فتُعْطُوهُ من ألسنتكم إذهاناً دون أن تُؤْمِنُوا بأنه مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟!.

«بِهَذَا الْحَدِيثِ» معمولٌ لاسم الفاعل ﴿مُذْهِبُونَ﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ لْغَرَضِ التَّخْصِيصِ، أي: اتَّخَصُّوْنَ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِإِذْهَانِكُمْ مَعَ عَدَمِ تَصْديقِكُمْ بأنه مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ؟! إِنَّ هَذَا مِنْكُمْ لَجُودٌ عَظِيمٌ.

﴿مُذْهِبُونَ﴾: اسم فاعل من «أَذْهَنَ يُذْهِنُ»: أي: لَا يَنْ فِي الْقَوْلِ، مَخَادَعَةً، وَمُرَاءَاةً، بُغْيَةَ التَّهَرُّبِ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِالْحَقِّ.

والمعنى: تُعْطُونَ الْقُرْآنَ أَوْصَافاً فِيهَا إِعْتِرَافٌ بِعَظَمَتِهِ وَتَفَوُّقِهِ، عَلَى سَبِيلِ الْمُدَاهَنَةِ، وَلَكِنْ فِيهَا صَرْفٌ عَنِ الْإِعْتِرَافِ بِكَوْنِهِ مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَنْ كَوْنِهِ مُعْجِزاً يَقْتَضِي إِعْجَازَهُ الْإِيمَانَ بِكَوْنِهِ مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الْحَمِيدِ.

وَمِنْ إِذْهَانِهِمْ قَوْلُهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ: «إِنَّهُ سِحْرٌ» أي: إِنَّ تَفَوُّقَهُ بِسَبَبِ كَوْنِهِ سِحْراً. وَقَوْلُهُمْ عَنْهُ «هُوَ شِعْرٌ» أي: هُوَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشَّعْرِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ، الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ بِنَظِيرِهِ فَحَوْلُ الشَّعْرَاءِ. وَقَوْلُهُمْ عَنْهُ: «هُوَ مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ» أي: إِنَّ تَفَوُّقَهُ بِسَبَبِ كَوْنِهِ مَنْقُولاً عَنْ كُتُبِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ.

وهذا من أئمة مشركي مَكَّة إِبَّانُ التنزيل اعترافٌ منهم بعظمة القرآن وَتَفَوُّقِهِ الْبَيَانِيَّ، إِلَّا أَنَّهُ إِذْهَانٌ مِنْهُمْ وَمَصَانَعَةٌ وَمُخَادَعَةٌ، إِذْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَقُولُوا بِشَأْنِهِ كَلَاماً فِيهِ طَعْنٌ أَوْ تَجْرِيحٌ أَوْ نَقْدٌ بَعِيْبٌ، نَظْراً إِلَى أَنَّ جَمَاهِيرَهُمْ لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

وغيرهم من الأوصاف الَّتِي أَطْلَقُوهَا، صَرَفُ جَمَاهِيرِهِمُ التَّابِعِينَ لَهُمْ، عَنِ الْإِيمَانِ بِكَوْنِ الْقُرْآنِ تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَمِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْإِيمَانِ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ نَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، وَاتِّبَاعُ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

• ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٢): أَي: وَتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالرِّزْقِ الَّذِي بِهِ اسْتِمْرَارُ حَيَاتِكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ الْمَعْجَزِ، وَبِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، وَتُكَذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ الَّذِي يُبَلِّغُكُمْ عَنْهُ مَا يُوحِي بِهِ إِلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا رَبَّكُمْ الرَّازِقَ لَكُمْ بِالتَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِتِّبَاعِ، وَالطَّاعَةِ بِالْعَمَلِ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَبِاجْتِنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

ففي هذه الآية محذوفاتٌ يمكن استخراجها بالتأمل: أَي: وَتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ رِزْقِ اللَّهِ لَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بكتابه ورسوله، بَدَلُ أَنْ تَشْكُرُوهُ بِالْإِيمَانِ وَبِالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ.

قول الله عز وجل:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٢) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾:

﴿فَلَوْلَا﴾ في الموضعين بمعنى: «فَهَلَّا» للحض.

﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾: أَي: إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلُقُومَ عِنْدَ نَزْعِهَا مِنْ

الحيِّ لِإِمَاتَتِهِ. حُذِفَتْ «الرُّوحُ» هنا وهي فاعلٌ لِسُهولةِ إدراكه محذوفاً، من القرائن. والعامل في «إذا» الظرفية هنا فعل: [تَرْجِعُونَهَا].

الحُلُقُوم: تجويفٌ خلف تجويف الفم، وفيه ستُّ فتحات، فُتِحَتِ الفم الخلفية، وفتحتا المنخزين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحَنَجَرَة، وهي مجرَى الطعام والشراب والنفس، ويجمع على حَلَاقِم وحَلَاقِم.

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: «مَدِينِينَ» جمعُ «مَدِينٍ» اسم فاعل من فعل: «دَانَهُ، يَدِينُهُ» أي: حَاسَبُهُ وَجَازَاهُ، وهذا المعنى أكثر معاني هذا الفعل ملاءمةً لهذا النصِّ، لأنَّ المعنيين بالبيان هم الَّذِينَ جَحَدُوا يَوْمَ الدِّينِ، وهو يوم الحساب والجزاء بَعْدَ البعث إلى الحياة الأخرى.

فالسورة بدأت بالحديث عن يوم القيامة، وتابعت الحديث عن أحداث تجري يَوْمَ الدِّينِ للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وعرضت بَعْدَ ذَلِكَ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ في كَوْنِهِ، لبيان قُدْرَتِهِ على بَعْثِ الأموات إلى الحياة مَرَّةً أُخْرَى، لمحاسبتهم، وفَضْلِ القضاء بينهم، ومجازاتهم على ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امتحانهم، وأَنَّهُ هو الَّذِي قَدَّرَ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ الْمَوْتِ، فَمَا أَحَدٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَمْنَعَ نُزُولَ الْمَوْتِ بِالْحَيِّ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَعَرَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، أَنزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، أي: فَمَا جَاءَ فِيهِ من بيانات عن يوم الحساب والجزاء حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ تَلَقَّاهُ من الموضوعين في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامتحان أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ.

فإِضْرَارُ الْكَافِرِينَ عَلَى إِنْكَارِ نَبِيِّ يَوْمِ الدِّينِ مُكَابَرَةٌ وَعِنَادٌ بِالْبَاطِلِ، فَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي تَحْدِيثَهُمْ بِأَنْ يَمْنَعُوا نُزُولَ الْمَوْتِ بِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ، وَبُلُوغِ رُوحِهِ إِلَى حُلُقُومِهِ، وَالَّذِي قَدَّرَهُ الرَّبُّ بَيْنَ عِبَادِهِ، لِيَكُونَ فَاصِلًا بَيْنَ حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ وَحَيَاةِ الْجَزَاءِ.

﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٨٧): ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ من فعل: «رَجَعَهُ، يَرْجِعُهُ، رَجَعًا، وَمَرْجَعًا، وَمَرْجِعَةً، وَرَجُوعًا، وَرُجْعَانًا» بمعنى أَرْجَعُهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ «أَرْجَعُهُ» لغة هُذِيل من قبائل العرب.

والمعنى: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ الرَّبَّ لَمْ يُقَدِّرْ بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، لِيَبْعَثَكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، وَقُلْتُمْ: مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، فَاتَّخِذُوا كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ وَسَائِلَ لِإِرْجَاعِ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ عِنْدَ نَزْعِهَا وَبُلُوغِهَا الْحَلْقُومِ، وَمِيتَكُمْ الَّذِي تَحِبُّونَهُ سَلِيمٌ كُلُّ الْأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ عِلَّةٍ تَقْتَضِي الْمَوْتَ، غَيْرَ انْتِهَاءِ أَجَلِ حَيَاتِهِ الَّتِي قَدَرْنَاهَا لَهُ، وَلَيُجْتَمِعَ كُلُّ أَطْبَاءِ الدُّنْيَا لِيَرُدُّوا لَهُ حَيَاتَهُ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا، فَمَا قَضَاهُ اللَّهُ لَا رَادَّ لَهُ.

هذه الآيات من (٨٣ - ٨٧) مُتِمَّات لما جاء في الآيات من (٦٠ - ٦٢): ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ (٦١) عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٣).

الموت والحياة ظاهرتان من ظواهر الخلق الرباني:

لدى التأمل التفكري العميق نكتشف أَنَّ الحياة والموت ظاهرتان مِمَّا ثَلَّتَانِ فِي عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ.

(١) فالحياة تكون بِنَفْخِ الرُّوحِ الَّذِي يُخْلَقُ بِأَمْرِ اللَّهِ التَّكْوِينِيِّ، وَهُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ فِي الْوُجُودِ، وَبِإِدْخَالِهِ فِي الْجَسَدِ الَّذِي لَمْ تَكُنْ فِيهِ حَيَاةً، فَيَصِيرُ حَيًّا.

وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِلْأَجْسَادِ الَّتِي قَضَى بِأَنْ تَكُونَ ذَوَاتَ حَيَاةٍ، نِظَامًا تَرْكِيبِيًّا ذَا بِنَاءٍ مِنْ خَلَايَا وَأَعْضَاءٍ وَمُؤَهَّلًا لِأَنْ تَظْهَرَ فِيهِ حَرَكَاتٌ تَدُلُّ عَلَى حَيَاتِهِ، وَهَذَا النِّظَامُ التَّرْكِيبِيُّ

العجيب في غاية الإتقان والترابط، ليكون دالاً على طائفة جليلة من صفات خالقه ومُتَقِنِ صُنْعِهِ.

على أن هذا البناء التركيبي، ليس بشرط عقلي لظهور الحياة في جسد ما، إذا نفخ الله عز وجل فيه روح الحياة، فلو نفخ الله روح الحياة في حجر صلد متماثل الذرات، لظهرت فيه الحياة، على مراد الله الخالق الرب فيه.

(٢) والموت يكون بنزع الروح من الجسد الحي، وبنزعها يكون الجسد ميتاً لا حياة فيه.

فإذخال الروح في الجسد، وإخراجها من الجسد أمران متماثلان، وكلاهما من خلق الله وأفعاله في كونه، فالإحياء بمثابة إدخال بطارية كهربائية في موضع توصيل طاقتها، من آلة تعمل بالطاقة الكهربائية المحفوظة بالبطارية، وهي سليمة الأجهزة في بنائها التركيبي. والإماتة بمثابة نزع هذه البطارية من الآلة.

فما الداعي لإنكار كون الله عز وجل قدر بين عباده الموت، تقديرًا مبنيًا على أن ينشئهم النشأة الأخرى في أحوال وأسباب لا يعلمونها.

فمن زعم خلاف هذا، فليرد الروح إلى جسم سليم كل الأجهزة فيه، إذا قضى الله موته، وبلغت روحه إلى خلقومه.

نفهم هذا من قول الله عز وجل ومن لوازمه:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُرْهَانَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

جاء في هذا النص تكرير عبارة: ﴿فَلَوْلَا﴾ بمعنى «فهلَّا» الدالة على

التخضيض، لإفادَةِ أَنَّ التَّحْدِيَّ بِإِرْجَاعِ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ، بَعْدَ بُلُوغِهَا فِي الْإِحْتِضَارِ إِلَى حُلُقُومِهِ، مُوجَّهٌ ضِدَّ زَعْمَيْنِ مِنْ مَزَايِمِ الْكَافِرِينَ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَهُمْ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الرَّبِّ خَالِقًا، وَهُمْ الَّذِينَ وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ قَوْلَهُ فِي السُّورَةِ: ﴿تَخُنْ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) * وَهَؤُلَاءِ هُمُ الدَّهْرِيُّونَ. وَفَرِيقٌ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الرَّبِّ خَالِقًا لَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَبِالْحَيَاةِ الْآخِرَى وَبِيَوْمِ الدِّينِ، وَهُمْ الَّذِينَ وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ قَوْلَهُ فِي السُّورَةِ: ﴿تَخُنْ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا تَخُنْ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٦٠) * عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ أَمْتَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) * .

وَقَدْ تَحَدَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا بِأَنْ يُرْجِعُوا الرُّوحَ إِلَى جَسَدٍ مَنْ يُحْيُونَ، إِذَا بَلَغَتْ عِنْدَ إِحْتِضَارِهِ حُلُقُومَهُ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ حَشَرَجَتَهُ، وَيَتَرَقَّبُونَ أَنْ يَلْفِظَ نَفْسُهُ الْآخِرَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا لَهُ شَيْئًا لِاسْتِرْجَاعِ رُوحِهِ، أَوْ اسْتِيقَاءِ حَيَاتِهِ، مَعَ كَوْنِ كُلِّ أَجْهَزَتِهِ سَلِيمَةً لَمْ يَتَعَرَّضْ شَيْءٌ مِنْهَا لِخَلَلٍ لَا تَبْقَى الْحَيَاةُ مَعَهُ بِحَسَبِ الْعَادَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَخُنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٨٥) * دَلٌّ عَلَى قَضِيَّتَيْنِ :

القضية الأولى: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، أَقْرَبُ إِلَى الْمُحْتَضِرِ الْمُقْضِيِّ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ، مِنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلَى بَقَاءِ حَيَاتِهِ، بِعِلْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَهَيْمَتِهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٦٦) * .

«حَبْلُ الْوَرِيدِ»: يُطْلَقُ الْعَرَبُ عَلَى الْوَتَيْنِ «وَهُوَ الشَّرْيَانِ الرَّئِيسِ الَّذِي يُغْذِي الْجِسْمَ بِالْدَّمِ النَّقِيِّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ» .

القضية الثانية: أَنَّ الْمَكْلَفَ بِقَبْضِ رُوحِهِ وَنَزْعِهَا مِنْ جَسَدِهِ مِنْ

الملائكة، أو المكلّفين منهم بحضور نزع رُوحِهِ، يكونون أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ الَّذِينَ يَخْرُصُونَ عَلَى بقاء حياته، فأجسادهم النورانية تكون أَقْرَبَ إِلَى جَسَدِهِ وَأَجْهَرَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنْ مُجِبِّهِ وَأَطْبَائِهِ مِنَ النَّاسِ.

وعبارة: [نَحْنُ أَقْرَبُ] اسْتُعْمِلَ فِيهَا ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ يَتَعَلَّقُ بِقَهْرِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ بِالْمَوْتِ، وَبِكُلِّ أَمْرٍ جَبَرِيٍّ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ فِيهِ اخْتِيَاراً، وَهِيَ عَلَى تَقْدِيرٍ: نَحْنُ وَالْمُكَلَّفُونَ مِنْ مَلَائِكَتِنَا بِأُمُورِ نَزْعِ رُوحِهِ مِنْ جَسَدِهِ، أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ مَا يُبْصَرُ، وَلَا تُدْرِكُونَ مَا لَا يُبْصَرُ.

قول الله عز وجل:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾:

رَبَطًا بِحَدَثِ الْمَوْتِ الْفَاصِلِ بَيْنَ حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ وَحَيَاةِ الْجَزَاءِ، وَيَكُونُ الْمَوْضُوعَيْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ مَدِينَيْنِ (= مُحَاسِبَيْنِ وَمُجَازَيْنِ) فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٨٣ - ٨٧).

وَرَبَطًا بِمَا جَاءَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ مِنْ تَقْسِيمِ النَّاسِ إِلَى أَزْوَاجٍ (= أَصْنَافٍ) ثَلَاثَةٍ: أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ (= الْيَمِينِ) وَأَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ (= الشَّامِلِ) وَالسَّابِقِينَ، وَهُمْ الْمُقَرَّبُونَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

جاء هذا التفصيلُ في خواتيم السُّورَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا﴾: الْفَاءُ عَاطِفَةٌ. وَ«أَمَّا» حَزَفٌ فِيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ وَالتَّوَكِيدِ دَائِمًا، وَالتَّفْصِيلُ غَالِبًا، وَيَدُلُّ عَلَى شَرْطِيَّتِهَا لَزُومُ الْفَاءِ الرَّابِطَةِ.

﴿... إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: أَي: فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنْ صِنْفِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، وَهُوَ الصِّنْفُ الْأَعْلَى.

﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ وقرأ رُؤيس: ﴿فَرُوحٌ﴾: أي: فمن ثوابه عند ربه استقبله بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ مَوْصُولَاتٍ بِجَنَّةِ نَعِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ. لفظ «رُوحٌ» مُبتدأ خبره محذوف، والتقدير فَلَهُ رُوحٌ.

وجواب الشرط هذا هو جوابُ «أَمَّا» الشرطية، والفاء وما بعدها سداً مَسَدَ جواب الشرط «إِنْ».

«الرُّوحُ»: الرَّاخَةُ، وَالْفَرَحُ، وَالرَّحْمَةُ، وَطِيبُ الرَّاخَةِ، وَهَذِهِ يَجِدُهَا فِي الْبَرزَخِ عَقِبَ الْمَوْتِ، وَتَسْتَمِرُّ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الدِّينِ.

الرُّوحُ: هو فيما أرى إمداده بما يُؤْنِسُهُ وَيُسَعِّدُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وهو في الْبَرزَخِ بَيْنَ الْحَيَاةِ الْأُولَى وَالْحَيَاةِ الْآخِرَى، ثُمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ.

فبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

وَرِيحَانٌ: جاء في اللغة أَنَّ «الرَّيْحَانَ كُلُّ نَبْتٍ طِيبِ الرَّاخَةِ - وَالرَّحْمَةُ - وَالرُّزْقُ» وجاء عند المفسرين أنه الرزق.

وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ الشَّهَدَاءَ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ وَأَنَّ أَرْوَاحَهُمْ تَدْخُلُ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ تُرْزَقُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ، حَتَّى بَعْثُهُمْ وَدُخُولُهُمُ الْجَنَّةَ.

فقد يكونُ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الَّذِينَ يُرْزَقُونَ بِوَسِيلَةٍ مَا بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَقَبْلَ بَعْثِهِمْ، أَوْ أَنَّهُمْ يُعَامَلُونَ مُعَامَلَةَ الشَّهَدَاءِ لكَثْرَةِ مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَنَّةُ نَعِيمٍ: هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَالَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْأَبْرَارُ وَالْمُحْسِنُونَ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ وَزِيَادَةٌ مِنْ دَرَجَاتٍ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، أَوْ مِنْ دَرَجَاتِهَا مَعَ دَرَجَاتٍ مِنْ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ

«النعيم»: كلمة اختيرت في القرآن للدلالة على كل ما في الجنة يوم الدين من أنواع سعادات ولذات وطيب حياة وعيش رغد.

• ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) ﴿سَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩١): أي: وأما إن كان الميت من أصحاب اليمين، ولم يرتق بصالحات أعماله إلى أن يكون من السابقين، فمن ثوابه عقب موته، استقبله بتحية طيبة تحييه بها ملائكة الرحمة.

والمعنى الذي أراه: فيقال له: سلام لك، أي: أمن وطمأنينة وتحية طيبة، موجهة لك، حالة كونك من صنف أصحاب اليمين. والمخاطبون له بهذا هم ملائكة الرحمة.

وقد تستقبله أرواح أصحاب اليمين بالتحية بالسلام، والدعاء له بالسلام.

وقال الله عز وجل في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) بشأن سلام الملائكة على المؤمنين حين يتوفونهم:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٣).

• ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩٢) ﴿فَنُزِّلَ مِنْ جَحِيمٍ﴾ (٩٣) ﴿وَنَصْلَةٍ جَحِيمٍ﴾ (٩٤): أي: وأما إن كان الميت من المكذبين للرسل والمكذبين بالقرآن ويوم الدين، وهم صنف أصحاب الشمال، فليس له من ملائكة الرحمة عند نزع روحه من جسده تحية طيبة، بل جاء في القرآن بيان أن ملائكة العذاب يضربون وجوههم وأذبارهم ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

قال الله عز وجل في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١).

وَالْمُرَادُ بِـ ﴿الضَّالِّينَ﴾ هُنَا الْمُبْتَعدُونَ عَنِ الْحَقِّ وَصِرَاطِ الْهُدَى،
يَكْسِبُ مِنْهُمْ، يَحْمِلُونَ بِهِ وِزْرَ ضَيَاعِهِمْ فِي مَتَاهَاتِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ.

﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ ٩٣﴾: أي: فَضَيَّافْتُهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ، مَاءٌ
حَارٌّ يُقَدَّمُ لَهُمْ لِيَشْرَبُوا، وَهُمْ شَدِيدُو الظَّمَا، وَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ مُضْطَرِّينَ أَنْ
يَشْرَبُوا مِنْهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ.

«النَّزْلُ»: هُوَ فِي اللَّغَةِ مَا يُعَدُّهُ الرَّجُلُ لَضَيْفِهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ
وَنَحْوِهَا إِذَا نَزَلَ بِهِ.

﴿وَتَصْلِيَةً جَحِيمٍ ٩٤﴾: يُقَالُ لُغَةً: «صَلَاةٌ تَصْلِيَّةٌ بِالنَّارِ» أي: أَدْخَلَهُ
فِيهَا لِيَخْتَرِقَ بِلَهَبِهَا.

وَالِإِضَافَةُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ بِمَعْنَى «فِي» أي: وَتَصْلِيَّةٌ فِي جَحِيمٍ، أي:
وَاخْتِرَاقٌ بِنَّارِ جَحِيمٍ.

جَحِيمٌ: لَفْظٌ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهَوَاةٍ. وَ «الْجَحِيمُ» اسْمٌ
مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثالث من دروس سورة (الواقعة) والحمد لله
على معونته وتوفيقه وفتحته.



(٩)

التدبر التحليلي للدرس الرابع الأخير من دروس سورة (الواقعة)
وهو الآيتان (٩٥ و ٩٦) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٩٦﴾:

جاء هذا البيان ختاماً مُناسِباً لكلِّ ما جاء في السُّورَةِ من بيانات، ولا سيما ما يتعلَّقُ منها بأنباء عن البعث ويوم الدين.

فالمشار إليه بعبارة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما جاء في السورة من بيانات بدءاً من قول الله عزَّ وجلَّ في صَدْرِهَا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَنُصِيبَنَّهَا كَذِِبَةٌ ۖ﴾ وحتَّى غاية الآية (٩٤) منها.

﴿هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾: أي: لهُو المستوى من اليقين الذي يُوصَفُ بأنَّه حقٌّ.

«الحقَّ»: هو الأمر الثابت الذي لا شكَّ فيه.

«اليقين»: هو العِلْمُ الذي لا شكَّ فيه، وأدنى مراتبِهِ ما اعْتَمَدَ على أدلَّةٍ فكريَّةٍ صحيحةٍ أو خبريَّةٍ صادقة. يقال لغة: «اسْتَيْقَنَ فُلَانٌ شَيْئاً» أي: عَلِمَهُ عِلْماً مُؤَكِّداً لا شكَّ فيه.

وجاءت جملة: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ٩٥ مؤكِّدةً بالمؤكدات: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة - وضمير الفصل».

مراتب اليقين:

دلَّت النصوص القرآنيَّة على أنَّ اليقِينَ لَهُ ثلاث مراتب:

المرتبة الدُّنيا: «عِلْمُ الْيَقِينِ» أي: المُستوى من اليقين الذي يُوصَفُ بأنَّه عِلْمٌ لا شكَّ فيه، إذ تكون أدلَّتُهُ فِكْريَّةً صحيحةً، أو خبريَّةً صادقة. وقد يطلق على هذه المرتبة لفظ «اليقين» فقط، دون إضافة لفظ «علم» إليه.

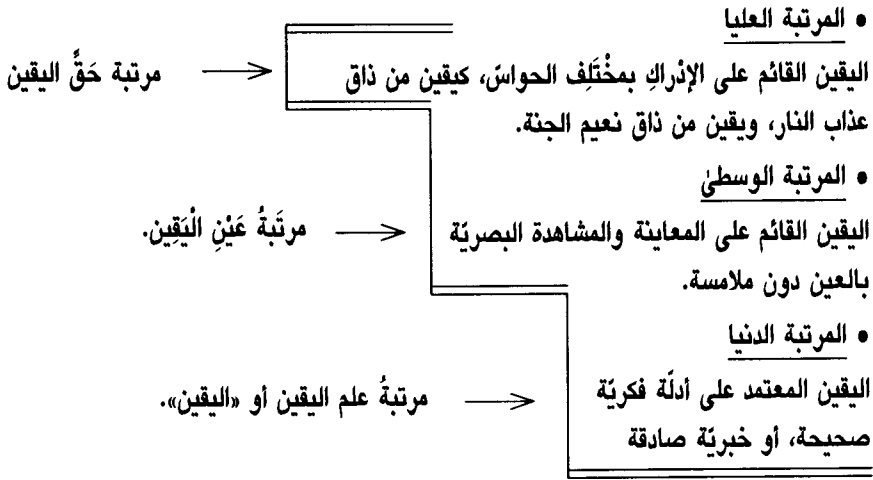
المرتبة الوسطى: «عَيْنُ الْيَقِينِ» أي: المستوى من اليقين القائم على المشاهدة بالْعَيْنِ مشاهدةً صحيحةً ليس فيها أدنى شك.

المرتبة العلِّيا: «حَقُّ الْيَقِينِ» أي: المستوى من اليقين القائم على

إدراك المعلوم بمختلف الحواس، كمُشَاهَدَةِ الْمَعْلُومِ وَلَمْسِهِ، وَذَوْقَانَ آلَامِهِ
أَوْ لَذَّاتِهِ.

مثل يَاقِينٍ مَنْ دَخَلَ النَّارَ وَذَاقَ عَذَابَهَا، وَيَقِينٍ مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَذَاقَ
نَعِيمَهَا.

رَسْمٌ بَيَانِيٌّ لِمَرَاتِبِ الْيَقِينِ



الأدلة

• فمن أدلة «علم اليقين» قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥)
مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩): فالمراد باليقين في هذه الآية الموت، وهو قبل أن تذوقه نفس المذرك علم لا شك فيه، مُعْتَمِدٌ عَلَى أدلة فكرية قطعية، قائمة على قياس المذرك نفسه على مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ، وعلى الخبر الصحيح: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (التكاثر/ ١٠٥ مصحف/ ١٦ نزول):

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (٥) ﴿فَعِلْمُ الْيَقِينِ أَذْنَى مَرَاتِبِ الْيَقِينِ.﴾

• وَمِنْ أَدَلَّةِ «عَيْنِ الْيَقِينِ» قول الله عز وجل في سورة (التكاثر) أيضاً:

﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾: أي: ثُمَّ لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ أَيُّهَا الْمَكْذُبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وبالأحداث التي تجري فيه، وهذا يكون حينما يَرَوْنَ الْجَحِيمَ بأعينهم، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَيَذُوقُوا الْعَذَابَ فيها.

• ومن أدلة «حَقِّ الْيَقِينِ» الآية التي نتابع تدبرها من سورة (الواقعة) وَوَصَفَ اللَّهُ أَنْبَاءَ الْقِيَامَةِ والأحداث التي تجري فيها بأنها حَقُّ الْيَقِينِ، نظراً إِلَى أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ مِنْ مَسْتَوَى «حَقِّ الْيَقِينِ» ونظراً إِلَى أَنَّ الْعِبَادَ بَعْدَ أَنْ تَجْرِيَ أَحْدَاثُ يَوْمِ الدِّينِ عليهم، وَيَذُوقُوا آلامَهَا أو لَذَاتَهَا، تَكُونُ حَيْثُذُ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِمْ «حَقُّ الْيَقِينِ».

ونظير ما جاء في هذه الآية، قولُ الله عز وجل في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ لَحِقَ الْيَقِينِ (٥)﴾:

وفي تدبر سورة (التكاثر) مَزِيدُ تفصيلٍ في الشواهد والأدلة القرآنية.

وَحَتَمَ اللَّهُ سورة (الواقعة) بِقَوْلِهِ خِطَاباً لِلْمُتَلَقِّي الْمُؤْمِنِ:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ وبمثل هذه الآية خَتَمَ اللَّهُ عز وجل سورة (الحاقة).

وهذه الآية قد جاءت أيضاً في آخر الدرس الثاني من دروس سورة (الواقعة) التي فتح الله في تدبرها ما فتح، وهي الآية (٧٤) وقد سبق تدبرها، فلا حاجةً للتكرار.

وبهذا انتهى تدبر سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته ومدِّهِ وتوفيقه وفتحهِ، وأسأله المزيدَ من فُيُوضٍ مِنْحِهِ.



ملاحق تدبر سورة (الواقعة)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: شجرة الرِّقْم في القرآن المجيد.

(١٠)

مستخرجات بلاغية من سورة (الواقعة)

تشتمل سورة (الواقعة) على اختيارات بلاغية بديعة، وقد فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عليَّ باستخراج طائفة منها، دون استقراء شامل.

أولاً:

مما جاء في هذه السورة من بلاغيات نفيسات اختيار نظام الآيات القصيرات المتقاربات التعادل في بنائها، مع التنوع في النظام التعادلي، وعَدَمُ التزام تعادلٍ مُعَيَّن، ابتعاداً عَنِ التَّمِطِيَّةِ الرَّتِيبَةِ الَّتِي تُؤَلِّدُ السَّامَ لِمَا فيها من السَّرْدِ الْمُمِلِّ.

وَمُتَابِعُ تَدَبُّرِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنْوِيعٍ مُدْهِشٍ، فِي بَنَائِهِ اللَّفْظِيِّ، وَفِي أَسَالِيْبِهِ الْبَيَانِيَّةِ، وَفِي صَوْرِهِ الْبَدِيعَةِ، وَفِي أَدِلَّتِهِ وَحُجَجِهِ، وَفِي تَرْغِيْبِهِ وَتَرْهِيْبِهِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى التَّضْرِيْفِ الَّذِي ذَكَرْتُ عَلَيْهِ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿... أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ۖ﴾

وقول الله عز وجل في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا ۖ﴾



ثانياً: ممّا في السورة من إيجاز ومساواة

(١) كثير جداً من آيات سورة (الواقعة) يُنطبقُ عَلَيْهِ عنوان «المساواة» وهي المطابقة التامة بين الكلام المنطوق به وبين المعاني المرادة.

فمن الأمثلة الواضحة فيها:

- ﴿أُولَٰئِكَ الْمَقْرُوبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ .

(٢) وفي السورة من «إيجاز الحذف» ما يلي:

- ﴿وَتَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٧﴾﴾ :
- أي: وتجعّلون بدل شكركم ربكم على رزقه إياكم أنكم تكذبون
رسوله، وتكذبون بكتابه وبما جاء فيه من حقّ وهداية.

- ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٧﴾﴾ :

أي: فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم.



ثالثاً: في السورة التوكيد لدواع بلاغية ببعض المؤكدات التالية

«القسم - إن - الجملة الاسمية - اللام المرحقة - ضمير الفصل -

لقد».

ومن الأمثلة فيها ما يلي:

- ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾﴾ .
- ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥١﴾ لَاكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُؤْمٍ ﴿٥٢﴾﴾ .

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٦).
- ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْقِعِ الْجُبُورِ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَدٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧).
- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٩٥).



رابعاً: في السورة من البلاغيات خروج الاستفهام عن أصل وضعه لدواع بلاغية

ومنه ما يلي:

(١) الاستفهام المراد به التعجيب من ارتفاع المنزلة أو انخفاضها،

في:

• ﴿فَأَصْحَبُ الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينَةِ﴾ (٨) ؟!

• ﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَّةِ﴾ (٩) ؟!

(٢) الاستفهام المراد به الإنكار، في:

• ﴿أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٤٧) ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٤٨) ؟!

(٣) الاستفهام المراد به التقرير، في:

• ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) ؟!

ولهذا المثال في السورة نظائر.

(٤) الاستفهام المراد به التلويح والتوبيخ، في:

• ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ (٨١) ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٢) ؟!



خامساً: الدلالة على ارتفاع المنزلة بذكر وصف أصحابها مكرراً، في:

• ﴿وَالسَّيْقُونَ السَّيْقُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّوْنَ ﴿٨﴾﴾.



سادساً: المذبح بأسلوب التشبيه، في:

• ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٧٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْأَكْثَنِ ﴿٧٣﴾﴾.

هذا التشبيه ذكّر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، ولم يذكر فيه وجه الشبه، فهو من التشبيه المرسل، لذكر أداة التشبيه فيه، ومن التشبيه المجمل لعدم ذكر وجه الشبه، فهو تشبيه مرسل مجمل.



(١١)

الملحق الثاني

شجرة الزقوم في القرآن المجيد

جاء بشأن شجرة الزقوم في القرآن ثلاثة نصوص يحسن تدبرها تدبراً تكاملياً، وهي:

(١) الآيات من (٤٩ - ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

(٢) الآيات من (٦٢ - ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

(٣) الآيات من (٤٣ - ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤

نزول).

النص الأول:

الآيات من (٤٩ - ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

قال الله عز وجل:

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَانَا الْمَضَالُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونَنَّ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَتْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾:

سبق تدبر هذا النص في موضع تدبره من السورة، وأوجز هنا ما سبق تفصيله وبسطه لإعطاء النظرة التكاملية بين النصوص حقها من التصور.

جاء هذا النص تعليماً من الله عز وجل لرسوله فلكل داع إلى الله من أمته، كيف يجيب المكابرين المعاندين، المصيرين على تكذيبهم الرسول، وتكذيبهم بالقرآن وبأنباء يوم الدين، دون أن يقدموا لتكذيبهم نقضاً لأدلة الإثبات، التي جاء بها القرآن، ولا حجة يتخذونها ذريعة لتكذيبهم، ولم يكن منهم في هذا الأمر إلا إطلاق الاستفهامات التعجبية، مع أن عبارات التعجب غير ذات قيمة ما، في ميادين المناظرات والمجادلات الفكرية، التي تطلب فيها البراهين، أو الحجج المنطقية المقبولة في العقول السليمة.

فلا جواب لهم إلا الإصرار على تأكيد وقوع ما به يكذبون، وهذا ما جاء في هذا التعليم الرباني.

• ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: قل لهؤلاء المكابرين المعاندين الذين وصلوا إلى دركة ميثوس من استجابتهم معها لدعوة الحق، بإراداتهم الحرة: إن الأولين من عهد آدم حتى عصرنا الحاضر، والآخريين من عصرنا الحاضر حتى آخر إنسان سيوجد على وجه الأرض.

• ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾: أي: لمبعوثون للحياة الأخرى بعد موتهم، وفناء أجسادهم، ولمجموعون مسوقين إلى ميقات حسابهم، وفضل القضاء الرباني بينهم، تمهيداً لتنفيذ الجزاء الذي

يَسْتَحِقُّونَهُ، بِعَذْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أو بفضلِهِ، في يوم معلوم عند الله عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ حَدَدَ زَمَانَهُ، ومكانَهُ، وَكُلَّ مَا يَجْرِي فِيهِ، في حُطَّةِ التَّكْوِينِ العامَّةِ، الَّتِي قضاها وقَدَرها، وَالَّتِي تُعْتَبَرُ الحِياةُ الدُّنيا مَرَحَلَةً مِنْ مَرَاجِلِهَا.

جاء تأكيد هذا البيان بـ «إِنَّ - وَالْجُمْلَةَ الاسمية - وَاللَّامَ المرحلقة».

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١): أي: ثُمَّ بَعْدَ مُحَاسَبَتِكُمْ، وفضل القضاء بينكم، مِنْ قِبَلِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، وانتظارِكم تَنْفِيذَ الجزاءِ، بِإِذْخَالِكُمْ جَهَنَّمَ دَارَ تَغْذِيْبِكُمْ، وَبَعْدَ تَهَيُّجِ بُطُونِكُمْ مِنْ آلامِ الجوعِ، أَيُّهَا الضَّالُّونَ المجافون لصراطِ الله المستقيم، والمبتعدون عَنْهُ معاندَةً للحقِّ والخيرِ والهُدَى، والمكذبونَ بالحقِّ الذي جاءكم مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ.

• ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ (٥٢): أي: لَمُلْجَؤُونَ مِنْ شِدَّةِ جُوعِكُمْ وَآلَمِهِ، إِلَى أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِ شَجَرٍ فِي جَهَنَّمَ، يُسَمَّى «شَجَرِ زُقُومٍ» أو «شَجَرِ الرَّقُومِ».

ويوحى البيان هنا بأنَّ في أكلهم من شجر الرقوم تَغْذِيْباً لهم، وَلَكِنَّهُمْ مُلْجَؤُونَ إِلَى الأكلِ مِنْهَا.

• ﴿فَالَّذِينَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٥٣): أي: فَمَالِثُونَ مِنَ الأكلِ مِنْ ثَمَرِهَا بِطُونِكُمْ، لأنكم مِنْهُمَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا لَا تَهْدَأُ آلامُ جُوعِكُمْ، وَلَكِنْ امْتَلَأَ بِطُونُكُمْ مِنْهَا لَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تُضِيفُوا شَيْئاً، إِلَّا مَاءً يَتَسَرَّبُ تَسَرُّباً، فِي فراغاتِ الطَّعامِ غيرِ السَّائلِ.

• ﴿فَسَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيعَةِ﴾ (٥٤): أي: فَشَارِبُونَ عَلَى مَا أَكَلْتُمْ مِنْ شَجَرِ الرَّقُومِ، مِنَ المَاءِ الحارِّ الشَّدِيدِ الحرارة، الذي لا تجدون أهْوَنَ مِنْهُ فِي دارِ عذابكم.

• ﴿فَسَرِبُونَ شُرَبَ الْمِيعَةِ﴾ (٥٥): أي: فَسَوْفَ تجدون أنفسكم مضطرين إلى تكرير الشُّربِ مِنْهُ، مَرَّةً فَمَرَّةً، لَأَنَّهُ لَا يُرْوِي ظَمَأَكُمْ الشَّدِيدَ،

فَتَشْرَبُونَ، وَتَشْرَبُونَ، وَتَشْرَبُونَ، مَثَلُ شَرْبِ الْإِبِلِ الْهِيمِ الْمُصَابَةِ بَدَاءِ الْهِيمِ، إِذْ تَسْتَمِرُّ بِهِ ظَامِنَةٌ شَدِيدَةُ الظَّمَا مَهْمَا شَرِبَتْ، فَتَسِيرُ فِي الْأَرْضِ هَائِمَةً كَثِيَّةٌ تُعَانِي مِنْ أَوْجَاعِهَا.

وفي ختام هذا التعليم قال الله عز وجل بشأنهم في النص:

• ﴿هَذَا نُزْلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٦): أي: هَذَا الطَّعَامُ الْكَرِيهَ النَّكِدُ الْمُؤْلَمُ، هُوَ الضِّيَافَةُ الَّتِي تُقَدَّمُ لَهُمْ فِي دَارِ عَذَابِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.
النُّزْلُ: هُوَ مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضيِّفه إِذَا نَزَلَ بِهِ.

وقد جاء هذا التعبير على سبيل الاستهزاء بهم، في مقابل استهزاء أَبِي جَهْلٍ بِالوَعِيدِ بِالرَّزْقِ لَمَّا سَمِعَ بِهِ، فِيمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. مِنْ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ جَمَعَ أَصْحَابَهُ، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِمْ زُبْدًا وَتَمْرًا، فَقَالَ لَهُمْ: تَزَقَّمُوا مِنْ هَذَا، فَوَاللَّهِ مَا يَتَوَعَّدُكُمْ مُحَمَّدٌ إِلَّا بِهَذَا.

وجمهور المفسرين على أَنَّ الشجرة الملعونة في القرآن، المذكورة في الآية (٦٠) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يُرَادُ بِهَا شَجَرَةُ الرِّزْقِ.

النص الثاني:

الآيات من (٦٢ - ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

قال الله عز وجل بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ لَقَطَاتٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَرَزَقِهِمْ فِيهَا، وَمَا يَكُونُ لَهُمْ فِي ضِيَافَةِ الرَّحْمَنِ:

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الرِّزْقِ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)
إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ (٦٥)
فَأَنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ (٦٧)
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾:

في هذه الآيات مع سوابقها المتضمنة بيان بعض نعيم أهل الجنة في الجنة، عَرْضُ مُقَارَنَةٍ وَاضِحَةٍ الْفَرْقِ الْعَظِيمِ، بَيْنَ ضِيَاةِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لِأَهْلِ كَرَامَتِهِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَضِيَاةِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ الْمُنْتَقِمِ ذِي الْعِقَابِ الْأَلِيمِ، لِلْكَافِرَةِ الْمُجْرِمِينَ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

• ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ تَزُلَا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ٤٦!؟: المشارُ إِلَيْهِ بعبارة:

﴿أَذَلَّكَ﴾؟ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٤٠ - ٤٩) مِنْ سُورَةِ (الصَّافَّاتِ) وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ٤٠ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّنْ كَرُمُوا ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى ثُرُورٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾:

• قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابنُ عامرٍ، ويعقوب: [المُخْلَصِينَ] بكسر اللام (اسم فاعل) وقرأ باقي القراء العشرة: [المُخْلَصِينَ] بفتح اللام (اسم مفعول). وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم مُخْلَصُونَ بأعمالهم، ومُخْلَصُونَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

• وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يُنْزَفُونَ] من فعل «أنزف» اللّازم، بمعنى «سكّر»، أو ذَهَبَ عَقْلُهُ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يُنْزَفُونَ] من فعل «نَزَفَهُ» المتعدي، أي: أَذْهَبَ عَقْلَهُ، أو مِنْ فِعْلِ «نَزَفَ» أي: ذَهَبَ عَقْلُهُ بِسُكْرِ أو نحوه.

ومؤدّى القراءتين في المعنى واحد.

• ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ٤١: أي: أُولَئِكَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ الْمُسْرَفُونَ بِعِبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَهُمْ مِنْ فَيْضِ عَطَاءِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في جَنَاتِ النِّعَمِ، رِزْقٌ مَعْلُومٌ عِنْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، عَلَى سَعَتِهِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ لَهَا حُدُوداً وَلَا مَقَادِيرَ.

• ﴿فَوَاكِهُهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٤٢) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾: أَي: وَمِنْ فَيْضِ الرِّزْقِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يُقَدَّمُ لَهُمْ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ الْأَنْوَاعِ، وَافرة المقادير، وَهُمْ مَعَ مَا يَتَنَعَّمُونَ بِهِ مِنْ رِزْقٍ وَفَوَاكِهُ مُكْرَمُونَ، تُكْرَمُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَيُكْرَمُهُمُ الْوَلَدَانُ الْمَخْلُودُونَ، وَالْحُورُ الْعِينِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِتَدْيِيرٍ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الرَّحِيمِ.

• ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤): أَي: يَكُونُونَ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ رَفِيعَةٍ الْمُسْتَوَى، عَظِيمَةِ الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ وَالنَّفَاسَةِ، مُتَقَابِلِينَ بِوُجُوهِهِمْ، يُؤَانِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

• ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٤٥): أَي: يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوَلَدَانُ الْمَخْلُودُونَ بِخَمْرِ فِي كَأْسٍ مَأْخُودَةٍ مِنْ أَنْهَارِ الْخَمْرِ الَّتِي تَجْرِي فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ.

الكَأْسُ: الْقَدْحُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَمْرُ، وَيُجْمَعُ عَلَى «أَكْؤُسٍ» وَ«كُؤُوسٍ» فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَمْرٌ فَهُوَ «كُؤُبٌ».

﴿مِنْ مَعِينٍ﴾: أَي: مِنْ نَهْرٍ خَمْرٍ يَجْرِي فِي الْجَنَّةِ، فَيَكُونُ ظَاهِراً يَسْهُلُ التَّائُلُ مِنْهُ.

• ﴿بَيَاضَةً لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَكُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿بَيَاضَةً﴾: وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَمَرَ الْجَنَّةِ بِأَنَّهَا بَيَاضَاءُ. قَالَ الْحَسَنُ: خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ.

﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾: أَي: كُلُّ غُنْصُرٍ مِنْ عُنَاصِرِهَا، وَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهَا تَمْنَحُ شَارِبَهَا لَذَّةً، فَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تُوصَفَ بِأَنَّهَا عَيْنُ اللَّذَّةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ.

• ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: أي: لَيْسَ فِيهَا غُنْصُرٌ مُسَكِّرٌ يُذْهِبُ الْعَقُولَ، وَيُسَبِّبُ ضِدَاعاً فِي الرُّؤُوسِ، وَقُدِّمَ ﴿فِيهَا﴾ لِإِفَادَةِ تَخْصِيصِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِنَزْعِ غُنْصُرِ الْإِسْكَارِ مِنْهَا.

• ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾: أي: وَلَا شَارِبُوهَا يَسْكُرُونَ بِسَبَبِ شُرْبِهِمْ لَهَا، إِذْ لَيْسَ فِيهَا غَوْلٌ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بِمِثَابَةِ التَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ خَمْرَ الْجَنَّةِ لَا غَوْلَ فِيهَا، أَي: لَيْسَ فِيهَا مَادَّةٌ إِسْكَارَ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ وَجُودِ لَذَّةِ الْخَمْرِ فِيهَا.

• ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾: أي: وَعِنْدَهُمْ حُورٌ مُهَيَّاتٌ لِنَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَلَا يُرِدْنَ غَيْرَهُمْ، لِأَنَّ قُلُوبَهُنَّ وَنَفُوسَهُنَّ مَمْلُوءَةٌ بِحُبِّ أَزْوَاجِهِنَّ فِي الْجَنَّةِ.

﴿عِينٌ﴾: جَمْعُ «عَيْنَاءٍ» وَهِيَ ذَاتُ الْعَيْنِ الْحَسَنَةِ الْوَاسِعَةِ.

• ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾: أي: كَأَنَّ أَلْوَانَ جُلُودِهِنَّ بَيْضُ النَّعَامِ، إِذْ تُكَيِّفُهَا النَّعَامَةُ بِالرِّيشِ مِنَ الرِّيحِ وَالْغُبَارِ، فَلَوْنُهُ أَبْيَضُ فِي صُفْرَةٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ أَلْوَانِ النِّسَاءِ. وَقِيلَ: كَبَيَاضِ الْبَيْضِ قَبْلَ أَنْ يُقَشَّرَ وَتَمَسَّهُ الْأَيْدِي.

وَالْمُرَادُ أَنَّ أَلْوَانَ أَجْسَادِهِنَّ أَجْمَلُ أَلْوَانٍ تَكُونُ عَلَيْهَا جُلُودُ النِّسَاءِ، وَأَنَّ نَضَارَتَهَا وَبَهَاءَهَا أَبَدُ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمُنْعَمُونَ.

بَعْدَ هَذَا الْوَصْفِ لَضِيآفَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، جَاءَ فِي مَقَابِلَةِ وَصْفِ الضِّيآفَةِ التَّهْكِيمِيَّةِ لِلظَّالِمِينَ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾: ﴿١٢﴾! أَي: أَذَلَّكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفاً مِنْ ضِيآفَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، بِمَا يَلْذُّ لَهُمْ وَيُسَعِدُهُمْ وَيَطِيبُ لَهُمْ،

خَيْرٌ أَمْ مَا يَنَالُهُ الظَّالِمُونَ مِنْ أَنْوَاعِ عَذَابٍ فِي الْجَحِيمِ، وَمِنْهُ الطَّعَامُ الَّذِي يُعَدُّ لَهُمْ، وَهُوَ ثَمَرُ صِنْفٍ شَجَرٍ يُسَمَّى الزَّقُومَ».

في هذه الآية استفهام يُرادُّ به استثارةِ مِخْوَري الطَّمَعِ والخوفِ معاً، وتَهْيِيجُهُمَا في نُفُوسِ الكَفَرَةِ المَكْذِبِينَ، إِنْ كَانَتْ لَدَيْهِمُ أَلْبَابٌ قَابِلَةٌ لِأَنْ تَسْتَجِيبَ، وَلَوْ اسْتِجَابَةً مِنَ الدَّرَجَاتِ الدُّنْيَا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِأَنَّهُمْ مَرَدُّوا عَلَى الكُفْرِ، وَتَحَجَّرَتْ قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ فَصَارَتْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ آخَرِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ، وَلَكِنَّ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَاداً لِأَنْ يَسْتَجِيبُوا اسْتِجَابَةً إِرَادِيَّةً لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، عَنْ طَرِيقِ اسْتِثَارَةِ مِخْوَري الطَّمَعِ وَالْخَوْفِ فِي نَفُوسِهِمْ، بَمَا جَاءَ فِي هَذَا الْبَيَانِ وَنَحْوِهِ.

﴿تَزَلَا﴾: التُّزُلُ: بضم الزاي وإسكانها ما يُعَدُّ الرَّجُلُ لضيفه من طعام وغيره، إِذَا نَزَلَ بِهِ، وَيَشْمَلُ الْمَكَانَ وَأَنْوَاعَ الْإِكْرَامَاتِ الْآخَرَى غَيْرَ الرِّزْقِ.

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٣):

أَصْلُ مَعْنَى «الْفِتْنَةِ» الصَّهْرُ بِالنَّارِ لِلْمُعْدِنِ، كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، لَتَمْيِيزِ رَدِيئِهِ مِنْ جَيِّدِهِ، وَشَاعَ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ بِمَعْنَى الْإِحْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ، وَيُظَلِّقُ وَيَرَادُّ بِهِ التَّعْذِيبُ بِالنَّارِ، أَوْ بِمَا يُشَبِّهُ التَّعْذِيبَ بِالنَّارِ. وَهَذَا الْمَعْنَى الْآخِيرُ، هُوَ الْمَعْنَى الْأَكْثَرُ مُلَاءَمَةً لِلآيَةِ هُنَا، لِأَنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ فِي جَهَنَّمَ شَجَرَةٌ يُعَذَّبُ بِالْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا الظَّالِمُونَ، وَهُمْ يُلْجَأُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، لِشِدَّةِ الْجُوعِ الَّذِي يُحْسِنُونَ بِأَلَامِهِ فِي بُطُونِهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ غَيْرَ ثَمَرِهَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ فِي الدَّرَكَاتِ الَّتِي هُمْ فِيهَا مِنْ جَهَنَّمَ.

﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: الْمَرَادُّ بِالظَّالِمِينَ هُنَا، الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، لَا الظَّالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

• ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤): أَي: تَنْبُتُ فِي قَعْرِ الْجَحِيمِ، دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ الْكَافِرَةِ الْمَكْذِبِينَ يَوْمَ الدِّينِ، عَذَاباً دَائِماً.

ولا عجب أن يُنبت الله عز وجل شجرةً في دار العذاب يوم الدين، فهو يخلق ما يشاء، ويجعل لما يخلق الأسباب الملائمة للظروف التي تُحيط بالمخلوق الذي يخلقه.

على أن الجحيم دار عذاب المجرمين ليست كلها لهباً في كل مواضعها، إنما تُحيط بها النار من كل جوانبها، ففيها مواضع حارة شديدة الحرارة ولكن ليس فيها نارٌ مُلتَهبة، وتختلف أماكنها ودركاتها بحسب مقادير ونسب معاصي المعدّبين فيها، وعصاة المؤمنين محميون فيها من الحريق، وعذابهم فيها على معاصيهم يكون بما دون الحريق، لقول الله عز وجل في سورة (الليل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول):

﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْفَى ۖ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ﴾ (١١).

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾: أي: لا يَحترق بنارها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

• ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾ (١٥): طلع الشجر ما يطلع فيه مما يؤكل من ثمراته. وقد وصف الله عز وجل طلع شجرة الزقوم بأنه يشبه رؤوس الشياطين، وفي هذا إحالة على متخيل في أذهان المخاطبين لرؤوس الشياطين، إذ يتخيلونها بأقبح صورة، وأشنع منظر.

• ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَائِلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (١٦): أي: إن الظالمين سوف يجدون أنفسهم ملجئين إلى الأكل من طلع صنف شجرة الزقوم، لشدة الجوع الذي تشتد آلامه في بطونهم، ولا يجدون في الجحيم شيئاً آخر يأكلونه أخف منه أذى وإيلاماً.

وبما أنه لا يُغني من جوع، فإنهم يملؤون منه بطونهم، عسى أن يكون ملؤها سبباً في إسكات جوع بطونهم.

• ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (١٧): أي: ثم بعد امتلاء

بُطُونُهُمْ مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الرِّقْم، يَشْتَدُّ ظَمُّهُمْ شِدَّةً عَظِيمَةً، فَلَا يَجِدُونَ مَاءً بَارِدًا وَلَا شَرَابًا حَسَنًا يُرْوُونَ بِهِ ظَمَّاهُمْ، بَلْ يَجِدُونَ حَمِيمًا، أَيْ: مَاءً شَدِيدَ الْحَرَارَةِ، قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ، فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ مُلْجِنِينَ، لِتَخْفِيفِ لَهَيْبِ ظَمَّتِهِمْ، فَيَدْخُلُ هَذَا الْمَاءُ الْحَمِيمُ إِلَى بُطُونِهِمْ، فَيَخْتَلِطُ بِمَا أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الرِّقْم.

﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾: الشَّوْبُ فِي اللَّغَةِ مَا اخْتَلَطَ بِغَيْرِهِ، وَدَلَّ نَصُّ سُورَةِ (الْوَاقِعَةِ) إِلَى أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ عَلَى مَا أَكَلُوا مِنَ الرِّقْم، مِنَ الْحَمِيمِ، وَهُوَ الْمَاءُ الشَّدِيدُ الْحَرَارَةِ، فَجَاءَ هَذَا النَّصُّ مِنْ سُورَةِ (الصَّافَاتِ) مَبِينًا أَنَّ الْحَمِيمَ يَدْخُلُ إِلَى بُطُونِهِمْ إِذَا شَرِبُوهُ فَيَكُونُ مَعَ مَا أَكَلُوا مِنَ الرِّقْم شَوْبًا، أَيْ: مَخْتَلِطًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

هَذَا الْحَمِيمُ مَعَ الرِّقْم الَّذِي يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الظَّمِّ وَحَرَارَتِهِ.

• ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾: دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ جُوعَهُمْ الشَّدِيدَ يَجْعَلُهُمْ يَرْحَلُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَحِيمِ، إِلَى قَاعِهَا حَيْثُ مَنَابِتُ شَجَرِ الرِّقْم، لِيَأْكُلُوا مِنْهُ، وَعَلَى أَنَّ ظَمَّاهُمْ الشَّدِيدَ يَجْعَلُهُمْ يَرْحَلُونَ إِلَى حَيْثُ يُوجَدُ الْمَاءُ، فَلَا يَجِدُونَ إِلَّا مَاءً حَمِيمًا، فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ شُرْبَ الْهَيْمِ، فَيَخْتَلِطُ فِي بُطُونِهِمْ بِمَا أَكَلُوا مِنْ شَجَرِ الرِّقْم، لِكِنَّهُمْ يَجِدُونَ مَوَاقِعَ شَجَرِ الرِّقْم، وَمَوَاقِعَ الْمَاءِ الْحَمِيمِ أَشَدَّ مِنْ مَنَازِلِهِمْ فِي الدَّرَكَاتِ الَّتِي هُمْ فِيهَا مِنَ الْجَحِيمِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دَرَكَاتِهِمْ فِيهَا، حَتَّى تُلْجِئَهُمُ الضَّرُورَةُ إِلَى رَحْلَةٍ أُخْرَى لِلْأَكْلِ مِنْ شَجَرِ الرِّقْم، وَلِلشُّرْبِ مِنَ الْحَمِيمِ.

فَأُضَافَ هَذَا النَّصُّ مِنْ سُورَةِ (الصَّافَاتِ) إِضَافَاتٍ لَمْ تَأْتِ فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الْوَاقِعَةِ).

وبهذا تَظْهَرُ لَنَا صُورَةٌ مِنْ صُورِ التَّكَامُلِ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي مُخْتَلَفِ السُّورِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ.

النص الثالث:

الآيات من (٤٣ - ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

(٤٥) • قرأ ابن كثير، وحفص، ورؤيس: [يَغْلِي] على أَنَّ الضمير يعود إلى الطعام.

وقرأ باقي القراء العشرة: [تَغْلِي] على أَنَّ الضمير يعود إلى شجرة الرقوم.

ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفتن في التعبير.

(٤٧) • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: [فَأَعْتَلُوهُ] بضم التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَأَعْتَلُوهُ] بكسر التاء.

القراءتان وجهان عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ، يقال لغة: «عَتَلَهُ» يَعْتِلُهُ، وَيَعْتَلُهُ.

(٤٩) • قرأ الكسائي: [ذُقْ أَنْتَ]. أي: ذُقْ لِأَنَّكَ كُنْتَ تَزْعُمُ فِي الدُّنْيَا أَنَّكَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [ذُقْ إِنَّكَ] على الابتداء، تهكماً به، إِذْ كَانَ مُسْتَكْبِراً عَنْ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، زاعماً أَنَّهُ عَزِيزٌ كَرِيمٌ فِي قَوْمِهِ، فلا يليق به اتِّبَاعُ رَسُولٍ بِشَرِّ مِثْلِهِ.

تمهيد:

جاء في هذا النص ما لم يأت في النصين السابقين، فالتكامل بينه وبينهما واضح، وفيه بيان أنّ شجرة الزقوم طعام الأثيم المسرف في آثامه، إذ تكون طعامه في الجحيم دار عذابه، وأنّ المأكول من شجرة الزقوم يكون كالمهل يغلي في البطون، وأنّ هذا الأثيم المنحط بآثامه إلى دركات الكافرين المجرمين، يأمر الله الملائكة المكلّفين المأمورين بتعذيبه أن يحملوه مهاناً إلى وسط الجحيم، وأنّ يصبوا فوق رأسه من الماء الحارّ الشديد الحرارة تعذيباً له، وأنّ يقولوا له: ذُقْ هذا العذاب، جزاء ما كنت تزعمه لنفسك من أنّك أنت العزيز الكريم لا غيرك، مُستكبراً عن الإيمان الذي أمرك به ربك، وعن العمل بما جاء من عنده من شرائع وأحكام ووصايا في الدين الذي اضطفاه لهم.

التدبر:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقْمِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ﴾: أي: سوف يكون طعام الأثيم في الجحيم يوم الدين، ممّا يؤكل من صنف شجرة الزقوم، التي سبق بيان تعريفها بها.

﴿الْأَثِيمِ﴾: هو المسرف الغالي في ارتكاب الذنوب والآثام من دركة الكفر، فهو يختص بالكافر الفاجر الذي كان في حياة الامتحان يكذب بيوم الدين، وبكلّ الأحداث التي تجري فيه.

قول الله تعالى:

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ﴾ كغلي الحميم ﴿٤٥﴾: في هاتين الآيتين إضافة وصف للمأكول من صنف شجرة الزقوم، من أنّه كالمهل،

وَأَنَّهُ إِذَا دَخَلَ بُطُونَ أَكْلِيهِ فِي الْجَحِيمِ صَارُوا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ يَغْلِي فِيهَا كَغَلِي الْمَاءِ الْحَارِّ.

﴿كَالْمُهْلِ﴾: المَهْلُ: يَطْلُقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْقَطْرَانِ السَّائِلِ - وَالْمُعْدِنِ الذَّائِبِ - وَدُرْدِي الرِّيتِ (أَي: عَكْرِ الزَّيْتِ).

﴿يَغْلِي﴾: أَي: يَفُورُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ، يُقَالُ لُغَةً: «غَلَتِ الْقِدْرُ، تَغْلِي، غَلِيًّا، وَغَلِيَانًا» أَي: فَارَتْ وَطَفَحَتْ بِقُوَّةِ الْحَرَارَةِ.
قول الله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الآيات مقتطعة من حَدَثٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ يَجْرِي يَوْمَ الدِّينِ، يَتَعَلَّقُ بِالْأُتَيْمِ، الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ طَعَامَهُ فِي الْجَحِيمِ، مِمَّا يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَةِ الرَّقُومِ.

يُقَالُ يَوْمَئِذٍ لِلْمَلَائِكَةِ الْمَكْلُوفِينَ أَنْ يُوصِلُوهُ إِلَى دَرَكَةِ عَذَابِهِ فِي الْجَحِيمِ:

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾: أَي: خُذُوهُ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَنْتَظَرُ فِيهِ تَنْفِيزُ قَضَاءِ اللَّهِ بِشَأْنِهِ، وَهُوَ تَعْذِيبُهُ فِي دَرَكَةِ عَذَابِهِ فِي الْجَحِيمِ، فَجَرُّهُ جَرًّا عَنِيفًا مَسْحُوبًا عَلَى مَا يُلَاقِي جِسْمَهُ مِنْ أَرْضِ الْمُحْشَرِ، فَاحْمِلُوهُ.
يُقَالُ لُغَةً: «عَتَلَهُ، يَعْتِلُهُ، عَتَلًا» أَي: جَرَّهُ جَرًّا عَنِيفًا، وَجَذَبَهُ فَحَمَلَهُ، كَمَا تُجَرُّ وَتُحْمَلُ الْأَشْيَاءُ الْمَهِينَةُ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يُذْرِكَ الْمَتَدَبِّرُ مَا فِي هَذَا الْعَتْلِ مِنْ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ وَتَعْذِيبٍ.

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: فَأَوْصِلُوهُ إِلَى وَسْطِ الْجَحِيمِ وَاطْرُحُوهُ. قَالَ الرَّجَاجُ: سَوَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ وَسْطُهُ.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٨): دَلَّ حرف العطف (ثُمَّ) عَلَى وُجُودِ فَاصِلٍ بَعِيدٍ بَيْنَ مَكَانِ انْتِظَارِهِ فِي الْمَحْشَرِ، وَمَكَانِ تَعْذِيبِهِ فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ.

وَصَبُّ الْمَاءِ وَنَحْوِهِ، سَكْبُهُ حَتَّى يَذْفَعَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَفِي كُلِّ جَدِيدٍ فِيهِ إِضَافَةٌ عَذَابٍ إِذَا كَانَ الْمُرَادُّ بِهِ التَّعْذِيبُ.

﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾: أَيُّ: مِنَ الْمَاءِ الْحَارِّ الَّذِي يَغْلِي، وَفِيهِ تَعْذِيبٌ لَهُ. وَلَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنْ صَبِّ الْحَمِيمِ فَوْقَ رَأْسِهِ إِيصَالُ الْعَذَابِ إِلَيْهِ، كَانَ التَّعْبِيرُ بِالصَّبِّ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، أَوَّلَى مِنَ التَّعْبِيرِ بِالصَّبِّ مِنَ الْحَمِيمِ الَّذِي فِيهِ عَذَابٌ لَهُ. وَالْإِضَافَةُ فِي ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ هِيَ عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ «مِنْ» أَيُّ: مِنْ عَذَابِ مِنَ الْحَمِيمِ.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩): أَيُّ: يَقَالُ لَهُ مَعَ صَبِّ الْحَمِيمِ فَوْقَ رَأْسِهِ الَّذِي يَعْمُ بَدَنُهُ وَهُوَ قَائِمٌ، ذُقْ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي سَبَبُهُ لَكَ كُفْرُكَ بِمَا جَاءَكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، إِذْ كُنْتَ فِي رِحْلَةٍ امْتَحَانِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكُفْرُكَ وَجُحُودُكَ الْحَقَّ سَبَبُهُ لَكَ تَوَهُُّمُكَ أَنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، فَلَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَتَّبِعَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، وَأَنْ تَعْمَلَ بِكِتَابٍ أَنْزَلَهُ لِيَعْمَلَ عِبَادُهُ الْمَكْلُفُونَ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ لَهُمْ، وَلِيَسِيرُوا عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

جاء في سبب النزول مَا أَخْرَجَ أَبُو مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

مَرَّ أَبُو جَهْلٍ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ، فَلَمَّا بَعُدَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى».

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ قَالَ: مَنْ تُوعِدُ يَا مُحَمَّدٌ؟.

قال: «يَاكَ».

قال: بِمِ تُوْعِدُنِي؟.

قال: «أُوْعِدُكَ بِالْعَزِيزِ الْكَرِيمِ».

فقال أبو جهل: أَلَيْسَ أَنَا الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ؟.

فأنزل الله عز وجل الآيات من (٤٣ - ٤٩) من سورة (الدخان).

جاء في العبارة القرآنية، وفي عبارة أبي جهل بحسب هذه الرواية، ما يدل على أن المعذَّب بصَّبِّ الحميم فوق رأسه، قد حَصَرَ وَضَفَى: «العزیز الکریم» بنفسه، والدَّالُّ على الحَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفِي الإسناد.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾: هَذِهِ عِبَارَةٌ مَقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ لِلْمُعَذَّبِينَ الْخَالِدِينَ فِي الْجَحِيمِ، وَهُمْ يَذُوقُونَ الْعَذَابَ فِيهَا.

﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾: أَي: مَا كُنْتُمْ بِهِ تُجَادِلُونَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّكِّ وَالرَّيْبَةِ، لِإِبْطَالِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، أَي: لَا شَكَّ فِيهِ.

الْمِرْيَةُ: الْجَدَلُ - وَالشَّكُّ. وَيُقَالُ: «مَارَاهُ مُمَارَاةً وَمِرَاءً» أَي: جَادَلَهُ وَنَازَلَهُ. وَ«تَمَارَى الْقَوْمُ» أَي: تَجَادَلُوا.

وَالْتَمَارِي، وَالْمُمَارَاةُ الْمَجَادَلَةُ عَلَى مَذْهَبِ الشَّكِّ وَالرَّيْبَةِ.

يُقَالُ لِلْمُنَازَعَةِ: «مُمَارَاةٌ» لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ يَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ وَيَمْتَرِيهِ، كَمَا يَمْتَرِي الْحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضَّرْعِ.

وَأَصْلُ الْمَادَّةِ تَدَوُّرُ حَوْلِ اسْتِخْرَاجِ الشَّيْءِ بِالْمَلَايَنَةِ وَالْإِينَاسِ، وَمِنْهُ الْمَسْحُ عَلَى ضَرْعِ النَّاقَةِ لِتَأْسَسَ فَيَدَّرَ لَبْنُهَا.

مادة «زَقَمَ» في اللغة:

جاء في «لسان العرب» لابن منظور ما يلي:

- (١) «زَقَمَ الشَّيْءُ يَزُقُمُهُ زَقْمًا» أي: ابتَلَعَهُ.
- (٢) «الزَّقَمُ» اللَّقْمُ، هما بمعنى واحد. يقال لغة: «لَقِمَهُ يَلْقُمُهُ».
- (٣) «الزَّقُومُ» التَّلَقُّمُ. والاسم: «الزَّقَمُ» كاللَّقَمِ.
- (٤) «زَقَمَ اللَّحْمَ» أي: بَلَعَهُ، بفتح اللام وكسرها.
- (٥) «أَزَقَمْتُهُ الشَّيْءَ» أي: أْبْلَعْتُهُ إِيَّاهُ.
- (٦) عَنْ ثَعْلَبٍ: «الزَّقُومُ» كُلُّ طَعَامٍ يَقْتُلُ، والزَّقْمَةُ: الطَّاعُونُ أَيْضًا.
- (٧) «الزَّقُومُ» من «الزَّقَمِ» وهو اللَّقْمُ الشَّدِيدُ، والشَّرْبُ المفرط.
- (٨) «الزَّقُومُ»: الحُلُقُومُ.

وبهذا انتهى الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته، ومَدِّدِهِ، وتوفيقه، وفتحِهِ.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٢٦ مصحف - ٤٧ نُزُول

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَقِيلَ: إِلَّا:

(١) الْآيَةُ ١٩٧ فَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

(٢) وَالْآيَاتُ مِنْ (٢٢٤) وَحَتَّى غَايَةِ الْآيَةِ (٢٢٧) آخِرُ السُّورَةِ

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَنَفَّسَكَ
 أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ
 أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ
 إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
 زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ

- ١ - • قرأ أبو جعفر: [طَا، سين، ميم] بالسكت على الأحرف الثلاثة بدون تنفّس.
- ٤ - • قرأ أبو جعفر: [إِنْ نَشَأْ] بالالف بدل الهمزة من «نَشَأْ» في الوصل والوقف. وكذلك هشام، وحمزة في الوقف فقط.
- ٤ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [نُنْزِلْ] من فَعْلٍ: «أُنْزِلَ». وقرأها باقي القراء العشرة: [نُنْزِلْ] من فعل: «نَزَلَ». «أُنْزِلَ» و«نَزَلَ» مُتَكَافِئَانِ.
- ٤ - • أَبْدَل الهمزة الثانية ياء: [السَّمَاءِ ءَايَةً] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورؤيس.
- وقرأها باقي القراء العشرة همزة محققة.
- ٥ - ٦ • ضم يعقوب هاء الضمير من [يَأْتِيهِمْ] و[فَسَيَأْتِيهِمْ] وكسرها الباقون.
- ١٠ - • أَبْدَل الهمزة من [أَتِ] في الوصل: ورش، والسوسي، وأبو جعفر. وحققها باقي القراء العشرة.
- وأما في الوقف فكلّ القراء يبتدون بهمزة وصل مكسورة، مع إبدال الهمزة الساكنة ياءً مدّية.

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
 أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي
 فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٤﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾
 قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾ فَأَتَيَا
 فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي
 إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِثْنَا فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ
 سِنِينَ ﴿١٩﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَاكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ
 ﴿٢٠﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢١﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا
 خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾ وَتِلْكَ
 نِعْمَةُ تَعْمُنَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
 مُوقِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
 آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمُ لَمَجْنُونٌ
 ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾

١٢ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء

المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٢ - ١٤ • قرأ يعقوب: [يُكْذِّبُونِي - يَقْتُلُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلًا ووقفًا.

وقراها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم: [يُكْذِّبُونَ - يَقْتُلُونَ].

١٣ - • قرأ يعقوب: [وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي] بنصب الفعلين، عطفًا على

[أَنْ يُكْذِّبُونِ] المنصوب.

وقراها باقي القراء العشرة بالرفع، على الاستثناف.

قَالَ لَيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
 أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ
 عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾
 يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السّٰحِرَةُ لِمِيقَاتِ
 يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنّٰسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ
 السّٰحِرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السّٰحِرَةُ قَالُوا
 لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

٣٠ - • قرأ السوسي، وأبو جعفر، [جِئْتُكَ] بإبدال الهمزة ياء، في الوصل والوقف، وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
 وقرأها باقي القراء العشرة: [جِئْتُكَ] بالهمزة.

٣٦ - • قرأ قالون، وابن وردان: [أَرْجِهْ] باختلاس كسرة الهاء.
 وقرأها وزش، والكسائي، وأبن جَمَاز، وخلف في اختياره: [أَرْجِهْ] بكسر الهاء مع صلتها.

وقرأها أبْنُ كثير، وهشام: [أَرْجِهْ] بإثبات الهمزة، وضَمَّ الهاء، مع إشباع الضم.
 وقرأها أبو عمرو ويعقوب: [أَرْجِهْ] أيضاً ولكن باختلاس الضم.
 وقرأها أبْنُ ذَكْوَان: [أَرْجِهْ] بإثبات الهمزة، وكسر الهاء مع الاختلاس.
 وقرأها باقي القراء العشرة: [أَرْجِهْ] بترك الهمزة، وإسكان الهاء. وهي وُجُوهُ عَرَبِيَّةٌ من الأداء.

٣٩ - • قرأ هشام، والكسائي، ورؤيس: [قِيلَ] بإشمام كسرة القاف. وقرأها باقي القراء العشرة بالكسرة الخالصة.

٤٢ - • قرأ الكسائي: [نَعَمْ].

إِذَا لَمِنَ الْمُفْرَيْنَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّقْمُونَ ﴿٤٣﴾
 فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾
 فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى
 السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنَاتِ فِرْعَوْنَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى
 وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرُكُمْ
 الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُفِطِنَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ مُنْكَرُونَ
 خَلِيفَ وَلَا صَبِيَّتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
 مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ
 مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾

= وقرأها باقي القراء العشرة: [نعم]. فتُح العين وكسرها وجهان عربيان لنطق كلمة «نعم».

٤٥ - • قَرَأَ حَفْصٌ: [هِيَ تَلْقَفُ]. وقرأها البزّي: [هِيَ تَلْقَفُ] بتشديد التاء والقاف في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [هِيَ تَلْقَفُ] بتشديد القاف فقط.

وبين التشديد وعدمه تكامل في أداء المعنى المراد.

٥٢ - • قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَجَعْفَرٌ، [أَنْ أَسْرِ] بوصل همزة «أَسْرِ» من فعل «سَرَى» ويلزم منه كسر نون «أَنْ» في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَنْ أَسْرِ] بقطع الهمزة وإسكان التون.

٥٢ - • قَرَأَ نَافِعٌ، وَأَبُو جَعْفَرٍ: [بِعِبَادِي إِنْكُمْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها: [بِعِبَادِي إِنْكُمْ].

٥٦ - • قَرَأَ نَافِعٌ، وَأَبْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَهَشَامٌ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوبُ:

[حَاذِرُونَ] جَمْعُ «حَاذِرٌ» مبالغة «حاذر».

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
تَرَوْا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ
مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا نَمًّ
الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَلَنْ رَبِّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِنْزَاهِيمَ
﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا

= وقرأها باقي القراء العشرة: [حَافِزُونَ] جمع «حَافِزٍ». وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٥٧ - • قرأ ابنُ كثير، وأبن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعُيُونٍ] وقرأها باقي القراء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضم العين. وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٦٢ - • قرأ حفص: [مَعِيَ رَبِّي] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٦٢ - • قرأ يعقوب: [سَيَهْدِينِي] بإثبات ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بِحَذْفِهَا، وهو من الإيجاز في النطق.

٦٤ - • وقف رُويس بهاء السكت في [نَمًّ].

٦٨ - • قرأ قائلون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهُوَ] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [لَهُوَ] بضمها.

وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٦٩ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهِمْ] بضم الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

وهما وجهان عربيان.

فَنَظَّلْهُمَا عَكْفَيْنِ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا
مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ
لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ
فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ
لِأَيِّئِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ
﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجَحُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

٧٧ - • قرأ نافع وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَدُوٌّ لِي إِلَّا] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها.

٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ • قرأ يعقوب: [يَهْدِينِي - وَيَسْقِينِي - وَيُحْيِينِي - ثُمَّ يُخْيِينِي] بإثبات ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم، وهو من الإيجاز في النطق.

٨٦ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [لِأَيِّئِي إِنَّهُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
 ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّكُم رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ
 ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا
 كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ
 قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٠٦﴾
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
 قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي
 لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
 مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْ

١٠٨ و ١١٠ • قرأ يعقوب [وأطيعوني] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
 وقرأها باقي القراء العشرة بحذفها.

١١١ • قرأ يعقوب: [وَأَتْبَاعُكَ] جمع «تابع».

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَاتَّبَعَكَ] فعلاً ماضياً.

ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفتن في التعبير.

١١٥ • قرأ قالون [إِنْ أَنَا إِلَّا] بإثبات ألف «أنا» وصلأً، في إحدى روايتي له.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذف الألف، وهو الوجه الثاني لقالون.

١١٧ • قرأ يعقوب: [كَذَّبُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلأً ووقفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [كَذَّبُونِ] بحذف ياء المتكلم.

وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ
 الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
 ﴿١٢٢﴾ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوَنَ
 ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾
 أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
 تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامِ
 وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

١١٨ - • قرأ وزش، وحفص: [وَمَنْ مَعِيَ مِنْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٢٢ - • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهُوَ] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بضم الهاء.

وهذا حكم هذا اللفظ حيث ورد، مع وقف يعقوب له بهاء السكت.

١٢٦ - • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلم وضلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذفها، وهو من الإيجاز في النطق.

١٢٧ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا]

بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان، وكذلك في الآية (١٠٩).

١٣٤ - • قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعْيُونِ] بكسر العين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَعْيُونِ] بضم العين.

١٣٥ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو: [إِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء

المتكلم.

عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ
 ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾
 فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ
 ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
 أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
 أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا
 ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
 هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا

= وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان: [إِنِّي أَخَافُ].

١٣٧ - • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وخلف: [خُلُقٌ] بضم الخاء واللام.

وقرأها باقي القراء العشرة [خُلُقٌ] بفتح الخاء وإسكان اللام.

١٤٤ - • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَأَطِيعُونَ] بحذفها، وهو من الإيجاز في النطق.

١٤٥ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٤٧ - • قرأ ابن كثير، وأبن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعُيُونٍ] بكسر العين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضم العين.

١٤٩ - • قرأ نافع، وأبن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [فَرِهَيْنَ] جمع

«فَرِه» من فعل: «فَرِهَ، يَفْرِهُ، فَرَاهُ، فَهَرِهَ» بمعنى: يَطْرُقُ وأشهر.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَارِهَيْنَ] جمع «فَارِه» من فعل: «فَرِهَ، يَفْرِهُ،

فَرَاهَ، وَفُرُوهُ، فَهَرِهَ»: أي: خَفَّ وَنَشِطَ، وَحَذَقَ وَمَهَرَ.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، إذ كانوا نشيطين أهل حذق

ومهارة، وكانوا يَطْرُقُونَ مُسْتَكْبِرِينَ.

اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ
 فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾
 مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾
 وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا
 فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
 ﴿١٥٩﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
 رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ
 يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ
 ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ
 ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ

١٥٩ - قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهُوَ] بإسكان الهاء.

وقراها باقي القراء العشرة بضمها: [لَهُوَ].

١٧٣ - قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهِمْ] بضم الهاء.

وقراها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ
 أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٧٧﴾
 إِلَيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾
 * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
 الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا
 إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ
 نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
 فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ

= وهما وجهان عربيان.

١٧٦ - • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [أَصْحَابُ لَيْكَةٍ].

وقراها باقي القراء العشرة: [أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ].

١٨٢ - • قرأ حفص، وحفزة، والكسائي، وخلف: [بِالْقِسْطَاسِ] بكسر القاف.

وقراها باقي القراء العشرة: [بِالْقِسْطَاسِ] بضم القاف.

والقراءتان وجهان عربيان لِنُطْقِ الكلمة.

١٨٧ - • قرأ حفص: [كِسْفًا] بفتح السين.

وقراها باقي القراء العشرة: [كِسْفًا] بإسكان السين. «كِسْفًا»، و«كِسْفًا» جمع

«كِسْفَةٍ» وهي القطعة من الشيء.

فالقراءتان متكافئتان.

١٨٨ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلم.

وقراها الباقيون بإسكان ياء المتكلم.

وهما كما عرفنا وجهان عربيان.

عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾
وَأَنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ
﴿١٩٦﴾ أَوَّلُ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُوهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾
وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ
ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٥﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٦﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٧﴾

١٩٣ - • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ] أي: نَزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالقرآن الرُّوحَ الْأَمِينُ جبريل.

وبَيَّنَّ القراءَتَيْنِ تكاملاً في أداء المعنى المراد.

١٩٧ - • قرأ ابنُ عامرٍ: [أَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ] بَرَفْعِ «آيَةٌ» على أنها فاعِلٌ أو اسم «تَكُنْ» التامة، والمصدر المؤوَّل من: [أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ] بدل من الفاعل، أو خبر «تَكُنْ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ] بِنَضْبِ «آيَةٌ» على أنها خبر «تَكُنْ» واسمها المصدر المؤوَّل من [أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ].

ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٩﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢٠﴾
 وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٢١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ
 لَمَعَزُولُونَ ﴿٢٢٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ
 الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٢٤﴾ وَخَفِضْ
 جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
 بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَزِيِّزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٧﴾
 الَّذِي يَرِنَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٢٩﴾ إِنَّهُ
 هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ
 ﴿٢٣١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ
 كَاذِبُونَ ﴿٢٣٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوْنُ ﴿٢٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ
 أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
 يَفْعَلُونَ ﴿٢٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ
 كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
 مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٣٧﴾ .

٢١٧ - • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [فَتَوَكَّلْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَتَوَكَّلْ].

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فالعطف بالفاء للإرشاد إلى ترتيب التوكل على معصيتهم له.

والعطف بالواو للإرشاد إلى التوكل على الله دواماً.

(٢)

مما وَرَدَ فِي السُّنَّةِ بِشَأْنِ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ)

جَاءَ عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْبَرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي السَّبْعَ الطُّوَالَ مَكَانَ التَّوْرَةِ، وَأَعْطَانِي الْمِثْنَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ، وَأَعْطَانِي الطَّوَاسِينَ مَكَانَ الزَّبُورِ، وَفَضَّلَنِي بِالْحَوَامِيمِ وَالْمَفْصَلِ مَا قَرَأَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

الطَّوَاسِينَ: وهي: ١ - «الشُّعْرَاءُ» المبدوءة بـ (طِسَمَ). ٢ - «النَّمْلُ» المبدوءة بـ (طَس) ٣ - «القَصَصُ» المبدوءة بـ (طِسَمَ).

الحَوَامِيمِ: هي المبدوءة بـ (حَم) وهي ست سور: ١ - «غافر» ٢ - «فُصِّلَتْ» ٣ - «الشُّورَى» ٤ - «الدُّخَانُ» ٥ - «الْجَاثِيَةُ» ٦ - «الْأَخْفَافُ».



(٣)

موضوع السورة

(١) تُتَابِعُ سُورَةُ (الشُّعْرَاءِ) مُعَالَجَةَ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، بِحَسَبِ الطَّوْرِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ هَذِهِ السُّورَةِ، إِذْ أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَإِذْ أَصْرُوا عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ، وَعَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَفُوهُ بِأَنَّهُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشَّعْرِ وَأَنَّ الْجَنَّ تُوحِي بِهِ إِلَيْهِ، وَإِذْ اسْتَهْزَؤُوا بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَاتُهُ مِنْ نُذُرِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الْمَعْجَلِ، وَبِئْذُرِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْخَالِدِ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ الْبُعْثِ وَالْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ.

وعلاج الكافرين حَوْلَ قَضِيَّتِي الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ مُنْزَلًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَيْسَ بِشَعْرٍ، وَلَا بِكَلَامٍ تُوحِي بِهِ الْجَنُّ لِلرَّسُولِ، قَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، فِي عِدَّةِ سُورٍ وَبِأَسَالِيْبٍ مُتَنَوِّعَةٍ،

فَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ كَمَالِ الْقُرْآنِ وَمَجْدِهِ وَإِعْجَازِهِ وَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّ صِفَاتِ الْقُرْآنِ الْإِعْجَازِيَّةَ تَتَضَمَّنُ بُرْهَانًا قَطْعِيًّا عَلَى صِدْقِ نُبُوءَةِ الرُّسُولِ وَصِدْقِ رِسَالَتِهِ، وَمِنْهَا مَا يَنْفِي عَنْهُ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ شِعْرٌ.

فجاء في سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨/ نزول) معالِجَةُ اتِّهَامِهِمْ لِلرُّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۝﴾.

وجاء في سُورَةِ (يس/ ٣٦/ مصحف/ ٤١/ نزول) نَفْيُ صِفَةِ الشَّاعِرِ عَنِ الرُّسُولِ ﷺ، وَنَفْيُ صِفَةِ الشُّعْرِ عَنِ الْقُرْآنِ، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝.

وعرَضَتِ السُّورَةُ أَمْثَلَةً مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَفِي كُلِّ مِنْهَا آيَةٌ وَاعْظَةٌ لِمَعَاصِرِي التَّنْزِيلِ مِنَ الْكَافِرِينَ الْمَعَانِدِينَ وَغَيْرِهِمْ.

(٢) وَتَتَابُعُ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) تَرْبِيَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُولِهِ بِشَأْنِ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى إِيْمَانِ قَوْمِهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَلَا سِيَّمَا عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبُونَ مِنْهُمْ، وَبِشَأْنِ اشْتِغَالِ نَفْسِهِ حَتَّى غُمِقَ فُؤَادُهُ بِالْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزَنِ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَالْإِحْسَاسِ بِمَشَاعِرِ الْأَلَمِ الشَّدِيدِ مِنْ أَجْلِهِمْ، خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ لِعَذَابٍ وَهَلَاكِ مُعْجَلِينَ إِذْ يُجْرِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ سُنَّتَهُ الَّتِي أَجْرَاهَا فِي كُفَارِ مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلِعَذَابِ أَلِيمٍ دَائِمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ، فِي الْجَحِيمِ دَارَ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ.

وَهَذَا الْإِحْسَاسُ النَّفْسِيُّ حَتَّى غُمِقَ فُؤَادُهُ جَعَلَهُ يَرْعَبُ فِي أَنْ يُرِيَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةً مِنَ الْخَوَارِقِ تَجْعَلُ قُلُوبَهُمْ تَخَضُّعُ لَهَا، وَتَجْعَلُ أَعْنَاقَهُمْ تُطَاطِئُ لَهَا ذُلًّا لِلَّهِ وَانْكَسَارًا، وَبِذَلِكَ تَلِينُ قُلُوبَهُمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وَيُسَلِّمُونَ لَهُ طَائِعِينَ.

ومعالجة نفس الرسول ﷺ بشأن همّه وغمّه الشديدين من أجل قومه، ولا سيما عشيرته الأقربون، قد سبقت في نجوم التنزيل في عِدَّة سُورٍ بأساليب مُتنوّعة، فمنها ما كان لِبَيَانِ وَظِيفَتِهِ فِي رِسَالَتِهِ، وَأَنَّهَا لَا تَتَجَاوَزُ حُدُودَ التَّبْلِيغِ وَالْبَيَانِ وَالتَّذْكِيرِ، وَمَا يُرْشِدُهُ إِلَى تَفْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَى رَبِّهِ، الَّذِي يَهْدِيهِ سَوَاءَ سَبِيلٍ دَعَاكَ لِرَبِّهِ، وَإِلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ، مُرَاقِباً دَوَاماً أَنَّ رَبَّهُ خَيْرٌ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ، عَلِيمٌ بِمَا هُوَ الْأَحْكَمُ مِنْ أَحْتِمَالَاتِ مُعَامَلَتِهِ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِهَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• فَمِنْهَا قَوْلُ اللَّهِ لَهُ فِي سُورَةِ (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (٥٨) ❦



(٤)

دروس سورة (الشعراء)

تشتمل هذه السُورَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ دُرُوسٍ مُتَعَانِقَةٍ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ. ضَمَّنَ نِظَامَ شَجَرِيٍّ.

الدرس الأول (هو الآيات من ١ - ٩):

وقد تضمن ما يلي:

(١) مُتَابَعَةُ الْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي جَاءَ فِي نَجُومِ التَّنْزِيلِ قَبْلَ سُورَةِ (الشعراء) وَعَنْ أَقْوَالِ الْمَكْذِبِينَ بِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كُلِّ تَنْزِيلٍ مُحَدَّثٍ مِنْ آيَاتِهِ وَسُورِهِ، وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ وَعِيدٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا، أَوْ مُؤَجَّلٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَإِنْدَارِهِمْ بِأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ فِي زَمَانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ فِي الدُّنْيَا، تَحْقِيقُ أَنْبَاءٍ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، مِنْ انْتِصَارِ

الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ عَلَيْهِمْ، وَهَزِمَتِهِمْ مُنْكَسِرِينَ أَذِلَّةً، وَهَلَاكِ مَنْ يَهْلِكُ مِنْهُمْ مُعَذِّبِينَ.

مَعَ عَرَضٍ دَلِيلٍ مِنْ أَدَلَّةٍ إِقْنَاعِهِمْ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، لِكَوْنِهِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ بِالرِّزْقِ، إِذْ يُنْبِتُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ كَرِيمٍ مِنْ أَصْنَافِ نَبَاتَاتِ الْأَرْضِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى جِرْمَانِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، عِقَاباً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِ بِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ.

(٢) مُتَابَعَةُ تَرْبِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، بِشَأْنِ هَمِّهِ، وَحُزْنِهِ الشَّدِيدِ، إِذْ لَمْ يُؤْمِنْ قَوْمُهُ وَلَا سِيَمَا عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، خَوْفاً عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمَعْجَلِ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَوْجَلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَفِي هَذِهِ الْمَتَابَعَةِ التَّرْبَوِيَّةِ تَنَبُّسٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ أَكْثَرُهُمْ مُسْتَقْبَلًا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، أَيْ: فَلْيَكُفُّ عَنْ شُغْلِ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ بِالْهَمِّ، وَالْحُزَنِ الشَّدِيدِ وَالْغَمِّ مِنْ أَجْلِهِمْ، فَقَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، وَعَلَيْهِ أَنْ يُوجِّهَ طَاقَاتِ دَعْوَتِهِ إِلَى آخِرِينَ، لَدَيْهِمْ أَمَارَاتُ الرَّجَاءِ بِاسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ.



الدرس الثاني (هو الآيات من ١٠ - ١٩١):

وهو يشتمل على لقطاتٍ من قِصَصِ سَبْعَةِ رُسُلٍ، سَابِقِينَ وَأَقْوَامِهِمْ، وَفِي نَهَايَةِ كُلِّ مِنْهَا تَكْرِيرٌ لِمَا جَاءَ فِي نَهَايَةِ الدَّرْسِ الْأَوَّلِ، تَغْقِيَاباً عَلَى بَيَانِ حَالِ كُفْرَاءِ كَفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوَّلَهَا، الْمَكْذِبِينَ بِإِصْرَارٍ وَمَعَانِدَةٍ وَمُكَابَرَةٍ، مِنْ وَصُولِ أَكْثَرِهِمْ إِلَى دَرَكَةِ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِيْمَانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَاباً لِرَسُولِهِ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وتيسيراً في التَّصْنِيفِ قَسَّمْتُ هَذَا الدَّرْسَ إِلَى سَبْعَةِ فُصُولٍ:

الفصل الأول: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ.

الفصل الثاني: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ فِي الْعِرَاقِ.

الفصل الثالث: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ.

الفصل الرابع: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ «عاد».

الفصل الخامس: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ «ثمود».

الفصل السادس: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِلُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ «أَهْلُ أَرْضِ سَدُومَ».

الفصل السابع: مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ «أَهْلُ مَدْيَنَ».

و«أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ».



الدرس الثالث: (هو الآيات من ١٩٢ - ٢٢٧ آخر السورة)

هذا الدرس مُرتَبَطٌ بِالدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، وَفِيهِ مُتَابَعَةٌ لِمَا جَاءَ فِيهِ.

• فجاء فيه الحديث عن القرآن الكريم.

• وجاء فيه توجيه تربويٍّ لِلرَّسُولِ ﷺ.

• وجاء فيه مُتَابَعَةٌ مُعَالَجَةٍ لِلْمَقْصُودِينَ بِالْمُعَاجَلَةِ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، وَرَدٌّ عَلَى بَعْضِ مَزَاعِمِهِمُ الْاِفْتِرَاطِيَّةِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسِنَةِ كُفَرَائِهِمْ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ وَقَبْلَهُ.



(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١ - ٩)

قال الله عز وجل:

﴿طَسَّرَ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② لَعَلَّكَ بَنِيعٌ فَسَكَ ③ أَلَّا يَكُونُوا ④ مُؤْمِنِينَ ⑤ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَبَّرٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَنِيهِمْ ⑧ أَنْبَتُوا ⑨ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑩ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ⑫ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ⑬ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑭﴾.

تمهيد:

في هذا الدرس تربية من الله عز وجل لِرَسُولِهِ ﷺ، بشأن شِدَّةِ هَمِّهِ وَغَمِّهِ وَحُزْنِهِ، خوفاً على قَوْمِهِ في مَكَّةَ وما حولها، ولا سيما عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبُونَ، من أن لا يكونوا مستقبلاً مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ، وَيَتَّبِعُونَ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ لِعِبَادِهِ، فَيَعْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ، في نارِ الْجَحِيمِ دارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ، مع ما قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَإِهْلَاكِ مُعَجَّلٍ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عقاباً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْمُنْزَلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وفيه إشارة إلى تَطَلُّعِ الرِّسُولِ ﷺ وَرَغْبَتِهِ فِي أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِهِ آيَةً خَارِقَةً، تَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ خَاضِعِينَ لِسُلْطَانِهَا، وَتَكُونُ سَبَباً لِإِنْقَادِهِمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ تَقْتَضِ حُكْمَتَهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ خَارِقَةٌ لِعِلْمِهِ جَلِّ جَلَالُهُ، بِأَنَّ الْمَعْنِيِّينَ بِهِمُ الرُّسُولِ وَغَمُّهُ وَحُزْنُهُ، قَدْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَجَحَدُوهُ، فَهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ دَلِيلًا يُثَبِّتُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ وَرَسُولٌ صَادِقٌ، وَأَنَّ كُلَّ مَا

جاء به حقٌ وصدقٌ، وإذ عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْحِكْمَةَ لَا تَسْتَدْعِي إِنْزَالَ آيَةٍ مِمَّا تَطَّلَعُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى إِنْزَالِهِ، دُونَ تَصْرِيحٍ مِنْهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَشَأْ إِنْزَالَ شَيْءٍ مِمَّا تَطَّلَعُ إِلَيْهِ وَرَغِبَ فِيهِ، فَعَدَمَ مَشِيئَتِهِ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ تَسْتَدْعِي عَدَمَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ.

وفي هذا الدرس بيان أن المعنيين بهم الرسول وغمه وحزنه، قد كذبوا جاحدين، مُصِرِّينَ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِالْأَنْبَاءِ الَّتِي فِيهَا وَعِيدٌ بِانْتِصَارِ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُطْمَئِنَّا لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَمُنْذِرًا لِلْجَاحِدِينَ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ:

﴿فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَأْتِيَهُمْ أَنْبَأُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وفي هذا الدرس تذكير للمعنيين بخطابٍ غَيْرِ مُوجِّهِ لَهُمْ، إِعْرَاضاً عَنْهُمْ فِي مَقَابِلِ إِذْبَارِهِمْ وَتَوَلِّيهِمْ عَنِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ، بآيَةٍ مِنْ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ الْمَشْهُودَةِ بِتَكَرُّارٍ، وَهِيَ آيَةُ إِنْبَاتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ صَنْفٍ كَرِيمٍ مُسْتَجْمِعِ صِفَاتِ الْحُسْنِ وَالنَّفْعِ.

وختم الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الدرس ببيان أن المعنيين قد مَرَدُّوا عَلَى بَاطِلِهِمْ، فَأَكْثَرُهُمْ لَنْ يَكُونُوا مُسْتَقْبَلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَاءَتْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ دَلَالَةٌ ضَمْنِيَّةٌ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَكْثَرِينَ سَيَجَازِيهِمُ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ الْغَالِبَةِ الْقَاهِرَةِ، وَأَمَّا الْأَقْلُونَ الَّذِينَ يُرْجَى إِيْمَانُهُمْ مُسْتَقْبَلًا فَسَيُعَامِلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

التدبر التحليلي:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿طس﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٦﴾

﴿طس﴾: هذه ثلاثة حُرُوفٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الْوَارِدَةِ فِي

أَوَائِلَ بَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لَدَى تَدَبُّرِ
أَوَّلِ سُورَةِ (القلم/ ٨٨ مصحف/ ٤ نزول).

قرأ أبو جعفر: «طَا، سَيْنٌ، مِيمٌ» بالسَّكْتِ على الأحرف الثلاثة بدون
تَنْقُصٍ، أَمَّا بَاقِي الْقِرَاءِ الْعَشْرَةِ فَلَمْ يَسْكُتُوا هَذَا السَّكْتُ.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: جاءت الإشارةُ إلى آياتِ القرآنِ
المجيدِ باسمِ الإشارةِ الموضوعِ للمشارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ ﴿تِلْكَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ
مَنْزِلَةِ الْقُرْآنِ عُلُوًّا لَا يُدَانِيهِ أَيُّ كَلَامٍ صَادِرٍ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا
تَسْتَطِيعُ الْخِلَاقُ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. وَأَرَى أَنَّهُ لَا
دَاعِيَ لَجْعَلِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ، إِذْ هِيَ دَاخِلَةٌ فِي عُمُومِ آيَاتِ
الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَا نَزَلَ مِنْهُ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْهُ بَعْدُ.

﴿آيَاتُ﴾: جَمْعُ «آيَةٍ» وَهِيَ فِي اللَّغَةِ الْعَلَامَةُ، وَالْأَمَارَةُ الدَّالَّةُ عَلَى
شَيْءٍ مَا.

وَكَلِمَةُ «آيَةٍ» وَجَمْعُهَا آيَاتٍ أُظْلِفَتْ فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: الْآيَاتُ الْكُونِيَّةُ الدَّالَّاتُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ
الرَّبِّ وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، وَمِنْهَا أَنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ رَحِيمٌ اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
صَنَعًا.

النَّوعُ الثَّانِي: الْآيَاتُ الْإِعْجَازِيَّةُ الْخَوَارِقُ، كَعَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَكَاخِيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَشِقَاقِ الْقَمَرِ لِمُحَمَّدٍ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

النَّوعُ الثَّلَاثُ: الْآيَاتُ الْجَزَائِيَّةُ، كإِغْرَاقِ قَوْمِ نُوحٍ، وَنَجَاةِ نُوحٍ وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ فِي السَّفِينَةِ، وَكَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَكُلِّ جُنْدِهِ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ
لِقِتَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَنَجَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَةِ فُلْقِ الْبَحْرِ لِمُوسَى.

النوع الرابع: الآيات البَيَانِيَّةُ الْمُنَزَّلَةُ، وهي الكلامُ الَّذِي يَنْتَهِي بفواصل داخل السُّورَةَ الْقُرْآنِيَّةَ، وَالآيَةُ مِنْهَا مَا يَنْتَهِي بِفَاصِلَةٍ وَلَوْ كَانَ كَلِمَةً، مِثْلُ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿١﴾ أو بعض الحروف المقطعة، مِثْلُ ﴿طَسَرَ﴾ ﴿١﴾.

﴿الْكِتَابِ﴾ : أي: الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، سُمِّيَ كِتَابًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الرَّسُولِ وَمَنْ سَاطَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْتُبُوهُ وَيَجْعَلُوا سُورَهُ مَجْمُوعَةً فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ ذِي دَفْتَيْنِ، مُمَيَّزًا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ.

و«ال» في لفظ «الْكِتَابِ» هُنَا لِلْكَمَالِ، نَظَرًا إِلَى أَنَّهُ بَالِغٌ دَرَجَةِ الْكَمَالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَبَانِيهِ وَمَعَانِيهِ.

﴿الَّذِينَ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» وهذا الفعل يأتي لازماً ومتعدياً.

فَمَعْنَاهُ عَلَى الْإِلَازِمِ: الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا غُمُوضَ فِيهِ لِمَنْ تَدَبَّرَ جُمْلَةَ نُصُوصِهِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ.

ومعناه عَلَى الْمُتَعَدِّي: الْمُظْهِرُ الْمُوَضِّحُ لِلْمَعَانِي الْمُرَادِ بِبَيَانِهَا لِلنَّاسِ، إِذَا أَحْسَنَ الْمُتَدَبِّرُ جَمَعَ النُّصُوصِ وَتَدَبَّرَهَا تَدَبُّرًا تَكَامُلِيًّا.

وكلا هَٰذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ مُرَادَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ظَاهِرٌ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ كَاشِفٌ مُظْهِرٌ لِلْمَعَانِي الْمُرَادِ بِبَيَانِهَا لِلنَّاسِ بِآيَاتِهِ، وَقَدْ يَقْتَضِي هَذَا الْكَشْفَ جَمْعَ عِدَّةِ نُصُوصٍ وَتَدَبُّرَهَا تَدَبُّرًا تَكَامُلِيًّا.

قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾ إِنْ شَأْنُ نَزَلٍ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ ﴿٣﴾.

﴿لَعَلَّكَ﴾: كَلِمَةُ «لَعَلَّ» تَدُلُّ عَلَى أَمْرِ مُتَوَقَّعِ الْحُصُولِ بِحَسَبِ نِظَامِ
الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، فَإِنْ كَانَ الْمَتَوَقَّعُ حُصُولُهُ مَرْغُوبًا فِيهِ كَانَ التَّوَقُّعُ
تَرَجُّيًا، وَإِنْ كَانَ الْمَتَوَقَّعُ حُصُولُهُ مَكْرُوهًا كَانَ التَّوَقُّعُ إِشْفَاقًا.
و«لَعَلَّ» هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْإِشْفَاقِ.

﴿بَنِيخُ نَفْسِكَ﴾: أَي: قَاتِلْ نَفْسَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزَنِ.
وَأَصْلُ الْبَنِيخِ فِي اللَّغَةِ أَنْ يَذْبَحَ الذَّابِحُ ذَبِيحَتَهُ، حَتَّى تَبْلُغَ سَكِينَتُهُ قَرِيبًا مِنْ
فَضْلِ الرَّأْسِ كُلِّهِ عَنْ سَائِرِ جَسَدِهَا.

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: أَي: حَذَرَ أَنْ لَا يَكُونَ قَوْمُكَ وَعَشِيرَتُكَ
الْأَقْرَبُونَ، الَّذِينَ اجْتَهَدْتَ فِي مُعَالَجَتِهِمْ مِنْذُ بَدْءِ رِسَالَتِكَ، مُؤْمِنِينَ قَبْلَ
انْتِهَاءِ أَجَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَيُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ اللَّهِ الْخَالِدِ فِي دَارِ
الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَهَلَاكِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
عِقَابًا لَهُمْ عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْجُحُودِ.

استعمل اسم الفاعل وهو لفظ «مؤمنين» هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاِسْتِقْبَالِ
فهو هنا بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ وَنِظَائِرِهِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وفي عبارة: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيخُ نَفْسِكَ﴾ رَائِحَةُ الْاِسْتِفْهَامِ الْعِتَابِيِّ، مَعَ التَّوْجِيهِ
الْمَشْدَدِ أَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ خَوْفِهِ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

فَالْمَعْنَى: أَشْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَنْ تُعَرِّضَهَا لِلْقَتْلِ بِسَبَبِ
الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزَنِ، مِنْ أَجْلِ قَوْمٍ لَمْ يُشْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ، مَعَ اسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ مِنْ صِدْقِ نُبُوتِكَ وَرِسَالَتِكَ، وَأَنَّ
الْقُرْآنَ الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ كَالْحِجَارَةِ بَلْ هِيَ أَشَدُّ قَسْوَةً، بِسَبَبِ كِبَرِهِمْ وَرَعَبَاتِ
الْفُجُورِ الَّتِي فِي نَفْسِهِمْ، وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ عِنَادٍ وَتَمَسُّكِ بِمَوَارِيثِهِمُ الْبَاطِلَةِ،
فَهُمْ لَيْسُوا صَالِحِينَ لِأَنْ تُشْفِقَ عَلَيْهِمْ، وَتَهْتَمَّ وَتَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ.

وقد دلّ هذا البيان على أنّ من نظام الأسباب والمسببات الربّانية في الناس، أنّ شدة الهمّ والغمّ والحزن، قاتلة للنفوس قتلاً باخعاً، فاصلاً للأرواح عنها فضلاً سريعاً، لا على سبيل الموت البطيء كالعشق، بل هو كالذبح إلى أقصى الرقبة.

وقد سبق في نجوم التنزيل أن خاطب الله عز وجلّ رسوله ﷺ بقوله له في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. وفي القراءة الأخرى:

[... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ].

﴿حَسْرَتٍ﴾: جمع «حسرة» وهي شدة التلهّف والحزن.

أي: فلا تحزن من أجل الذين كفروا من قومك، خوفاً عليهم من عذاب ربهم، فهم في حياة ابتلاء وامتحان، وإنّ الله عليم بما يصنعون لحظةً فلحظة، والحزن من أجلهم يُخالِف مقتضيات حكمة الله، إذ قضى وقدّر أن يمتحن عباده، فيكشف بالامتحان أحوال نفوسهم، وما تختار باختيارها الحرّ من خير أو شرّ، ومن اختار بإرادته الحرّة الباطل والشرّ، فعليه أن يتحمّل هو وحده نتيجة اختياره.

وسبق لدى تدبّر هذه الآية في أثناء تدبّر سورة (فاطر) شرح مناسب وبيان مُستفيض حولها، فليرجع إليه.

ولمّا كانت عاطفة الرسول نحو قومه شديدة في الخوف عليهم من عذاب النار يوم الدين، ورأى أنّ التوجيه الذي جاء في سورة (فاطر) توجيه إرشاديّ، فقد بقي يشعر بالحزن الشديد من أجلهم.

فاقتضت الحكمة التربويّة أن يُنزل الله عليه حول هذا الموضوع ما تدبرناه أيضاً من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصْرِفَ مَشَاعِرَ حُزْنِهِ عَلَى قَوْمِهِ، وَرَأَى أَنَّ التَّوْجِيهَ الرَّبَّانِيَّ إِرْشَادٌ لَا تَكْلِيفَ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿فَلَمَّا كَ بَخِجَ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿١٦﴾.

﴿عَلَى ءَاثَرِهِمْ﴾: أي: وأنت سائر على آثارهم تَحْرِصُ على هدايتهم وتخزن من أجلهم، وهم مُوْغِلُونَ في الابتعادِ عن صراطِ الحق والهُدَى الذي تَدْعُوهم إِلَيْهِ، فلا ترى إِلَّا آثارهم، إِذْ أَذْبَرُوا وَتَوَلَّوْا تَائِهِينَ فِي أودية الضلال والفسق والفجور.

﴿أَسَفًا﴾: أي: حُزْنًا. والمراد ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ آيات القرآن.

• ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ ﴿١٧﴾.

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ نَفْسَ الرَّسُولِ ﷺ تَطَلَّعَتْ، رَاغِبَةً فِي أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْآيَاتِ الْمَادِّيَّةِ، مَا يَجْعَلُ مَنْ هُوَ حَزِينٌ مِنْ أَجْلِهِمْ يُؤْمِنُونَ، حِرْصًا عَلَى نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَسَعَادَتِهِمْ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ ذَلِكَ بِدَعَاءٍ ظَاهِرٍ أَوْ خَفِيِّ.

لَكِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ الْعَلِيمِ بِخَفَايَا نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ اقْتَضَتْ عَدَمَ تَلْبِيَةِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ تُلْجِئُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ الْإِنْبَاءِ، إِذِ الْحِكْمَةُ فِي امْتِحَانِهِمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، تَقْتَضِي أَنْ تَدْفَعَهُمْ عُقُولُهُمْ وَضَمَائِرُهُمْ وَإِرَادَاتُهُمْ الْحَرَّةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ وَبِمَا جَاءَهُمْ عَنْهُ، وَإِسْلَامِهِمْ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ، لَا مُكْرَهِينَ، وَلَا مُلْجَبِينَ إِلَى الْإِنْبَاءِ بِمَخَافَةِ مَادِّيَّةِ، كَمَا فَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ رَفَعَ فَوْقَهُمُ الطُّورَ وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْقَائِيَةِ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾. البقرة.

﴿إِنْ نَشَأْ﴾: كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ، فَهُوَ يَدُلُّ

عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الْفِكْرِيِّ عَلَى أَنَّ حِكْمَتَهُ جَلٌّ وَعَلَا اقْتَضَتْ أَنْ لَا يَشَاءَ فَلَمْ يَشَأْ، لَكِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وَأَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، لَوْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَشَاءَ.

﴿إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾: أي: إِنْ شَأْنُ أَنْ نُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ تُلْجِئُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ نُنْزِلُهَا عَلَيْهِمْ، فَلَا أَمْرُ يَسِيرُ عَلَيْنَا لَا يَخْتِاجُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ نَقُولَ: «كُنْ» فَهُوَ يَكُونُ. لَكِنَّ حِكْمَتَنَا لَمْ تَقْتَضِ أَنْ نَشَاءَ إِنْزَالَ آيَةٍ مُلْجِئَةٍ. وَنَحْنُ نَخْتَارُ الْأَحْكَمَ وَالْأَحْسَنَ وَالْأَفْضَلَ دَوَامًا.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾: أي: فَدَامَتْ أَعْنَاقُهُمْ مُطَاطِئَةً مُنَحْنِيَةً لَهَا بِسَبَبِ خَوْفِهِمْ مِنْ انتِقَامِ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ، حَالَةً كَوْنِهِمْ فِي نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ خَاضِعِينَ لِرَبِّهِمْ، خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ وَجَبْرُوتِ سُلْطَانِهِ.

للمفسرين عدةٌ تخریجات لهذه العبارة، إذ أشكل عليهم استعمال لفظ ﴿خَاضِعِينَ﴾ الذي هو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سَالِمٍ، والظاهر أن يُقال: فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعَةً.

والذي أراه أن في الجُمْلَةِ مَحْذُوفًا دَلٌّ عَلَيْهِ لَفْظُ ﴿خَاضِعِينَ﴾ فالمراد فيما أَرَى الدَّلَالَةَ عَلَى أَمْرَيْنِ:

الأول: خضوع الظاهر بِطَاطَاةِ الرِّقَابِ وَانكِسَارِهَا وَانحنائها.

الثاني: خضوع النفوسِ وَالْقُلُوبِ مِنْ أَعْمَاقِهَا خَوْفًا مِنْ جَبْرُوتِ سُلْطَانِ اللَّهِ الْعَظِيمِ.

وَمُقْتَضَى الدَّلَالَةِ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَنْ يُقالَ: فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ مُنَحْنِيَةً خَاضِعَةً فِي السُّلُوكِ الظَّاهِرِ، وَظَلُّوا فِي نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ خَائِفِينَ خَاضِعِينَ مِنْ هَوْلِ مَا يُشَاهِدُونَ مِنْ عَظَمَةِ الْآيَةِ.

وإيجازاً في التعبير حُذِفَ مِنَ اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى انحناء الأعناق وانكسارها، اكتفاءً بِذِكْرِ ﴿أَعْنَاقِهِمْ﴾ وحذف من اللفظ ما يَدُلُّ على حالة نفوسهم وقلوبهم، التي هي في الحقيقة ذواتهم، اكتفاءً بِذِكْرِ: ﴿خَضِعِينَ﴾ ونظائرُ هذا الحذف في القرآن المجيد كثيرة.

﴿فَظَلَّتْ﴾: فعلٌ: «ظَلَّ، يَظَلُّ، ظَلًّا، وظُلُولاً» يأتي للدلالة على معنيين:

المعنى الأول: يقال فيه: «ظَلَّ فُلَانٌ يَعْمَلُ كَذَا» أي: استمرَّ يَعْمَلُ كذا نهاراً.

المعنى الثاني: يقال فيه: «ظَلَّ فُلَانٌ مُطِيعاً مُتَقَاداً». أي: دَامَ على الطاعة والانقياد.

وهذا المعنى الثاني هو الملائم للنص هنا.

وجاء استعمال الفعل الماضي: ﴿فَظَلَّتْ﴾ بمعنى الفعل المضارع لمجيئه في جواب «إِنْ» الشرطية^(١).

﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾: «أَعْنَاق» جمع «عُنُق» وهو وُضْلَةٌ بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجَسَدِ، «يَذَكِّرُ، وقد يُؤْنِثُ» ويُطْلَقُ عليه «الرَّقَبَةُ».

ويُطْلَقُ لفظ «الأَعْنَاقِ» على رُؤُوسِ الْقَوْمِ وسَادَتِهِمْ وأَعْيَانِهِمْ، وعلى هذا المعنى يقال في فهم الآية: فَظَلَّتْ سَادَاتُهُمْ لَهَا خاضِعِينَ.

﴿لَهَا خَضِعِينَ﴾: «لَهَا» مَعْمُولٌ لـ «خاضِعِينَ» مُقَدَّمٌ عليه، للتَّخْصِيسِ، وللتلاؤمِ مَعَ رُؤُوسِ الآيات.

(١) يقال لغة: إِنْ شَاءَ فَعَلَ، أي: إِنْ يَشَأُ يَفْعَلُ، وكلُّ أدوات الشرط يكونُ فعل الشرط وفعل جوابه فيها مضارعاً أو ماضياً، والماضي ينقلب بها معناه إلى المضارع. كما يَنْقَلِبُ المضارع إلى معنى الماضي إذا دَخَلَتْ عليه «لَمْ» الجازمة.

الْخُضُوعُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ الْمَمِيلُ وَالْانْحِنَاءُ، وَالذُّلُّ وَالْانْقِيَادُ، يُقَالُ لُغَةً: خَضَعَ، يَخْضَعُ، خَضَعًا، وَخُضُوعًا، وَخُضْعَانًا أَي: مَالَ وَانْحَنَى - وَذَلَّ وَانْقَادَ.

وَمِنَ الْخُضُوعِ اللَّيْنُ فِي الْقَوْلِ، تَذَلُّلاً وَاسْتِعْظَافًا، أَوْ اسْتِمَالَةً وَتَلَطُّفًا.

قول الله تعالى:

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥):

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُتَابَعَةٌ بَيَانٍ عَنِ الْمَعْنِيِّينَ بِهِمْ الرَّسُولَ وَعَمَّهُ وَحُزْنَ مِنْ أَجْلِهِمْ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ فِيمَا أَرَى، أَي: أَنْتَ شَدِيدُ الْحُزَنِ الْقَاتِلِ مِنْ أَجْلِهِمْ حَالَةَ كَوْنِهِمْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ.

﴿مِنْ ذِكْرِ﴾: أَي: مِنْ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ مُنْزَلٍ لِيَكُونَ ذِكْرًا يُسْتَذَكَّرُ عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ إِلَى تَذَكُّرِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَحَرْفُ «مِنْ» مَزِيدٌ لَتَوْكِيدِ الْعُمُومِ.

﴿مَنْ الرَّحْمَنِ﴾: اخْتِيرَ هُنَا اسْمُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ وَصَايَا وَشَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ هُوَ مِنْ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ لِعِبَادِهِ، إِذْ فِيهَا نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ الْأَبَدِيَّةُ الْخَالِدَةُ، إِذَا اهْتَدَوْا بِهَدَايَا، وَعَمِلُوا بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَوْامِرَ، وَاجْتَنَبُوا مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَوَاهِي.

﴿مُحَدَّثٌ﴾: أَي: مُحَدَّثُ التَّنْزِيلِ.

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: أَي: إِلَّا كَانُوا مُحَوِّلِينَ وَجُوهَهُمْ عَنْهُ.

الإِعْرَاضُ: مَنَزَلَةٌ وَسَطَى بَيْنَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ، وَأَضَلُّ الْإِعْرَاضِ

إِعْطَاءِ الْجَانِبِ، عُرِضَ الشَّيْءُ فِي اللُّغَةِ جَانِبَهُ، وَعَارِضًا الْإِنْسَانَ صَفَحَتَا خَدَّيْهِ.

وجاء وصفهم بالإعراض هنا مع أنهم مُذَبَّرُونَ عن الدين كله، وعن كُلِّ دَعْوَةٍ تَتَّصِلُ بِهِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا تَلَيْثَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ مُنْزَلَاتٍ تَنْزِيلًا مُحَدَّثًا سَمِعُوهَا، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْ مُقَابَلَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِوُجُوهِهِمْ، إِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِثِينَ بِهَا، وَلَا يَغْنِيهِمْ أَنْ يَسْمَعُوهَا.

فَابَانَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ الَّذِينَ يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ حُزْنًا شَدِيدًا مِنْ شَأْنِهِ فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ أَنْ يَكُونَ قَاتِلًا، قَدْ وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةِ مَيُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةِ، فَهُمْ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِهَمِّهِ وَغَمِّهِ وَحُزْنِهِ مِنْ أَجْلِ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَسَعَادَتِهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَالْمَعْنَى: رَاقِبُهُمْ وَأَنْتَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ذِكْرًا مُحَدَّثًا تَجِدُ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ وَهُمْ عَنْكَ مُعْرِضُونَ، إِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِثِينَ وَلَا مُكْتَرِثِينَ.

وَزَادَ حَالُهُمْ سُوءًا إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ/ ٢١ مِصْحَف/ ٧٣ نُزُول) إِذْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَّاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أَي: يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ مَشْغُولُونَ عَنْهُ بِاللَّعِبِ مَعَ أَنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَهُ، لَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَهُ، وَيَجْحَدُونَ مَا جَاءَ فِيهِ، وَيَجْحَدُونَ نُبُوَّةَ الرَّسُولِ وَرِسَالَتَهُ، فَقُلُوبُهُمْ لَاهِيَةٌ عَنْهُ.

قول الله تعالى:

• ﴿فَقَدْ كَذَبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَلْبَتَوْاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١﴾﴾

أي: فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ، وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ، وبأنباء الوعيد التي جاءت فيه، ومنها الوعيد بانتصار الرسول والذين آمنوا به واتبعوه عليهم، في زمن غير بعيد، واستهزؤوا بهذه الأنباء، إذ يرون الرسول والمؤمنين به ضعفاء مضطهدين، لا قوة لهم على مواجهة قوى كبراء مكة ذوي السلطان والغنى والاتباع والأنصار الكثيرين بالنسبة إلى جماعات المؤمنين المسلمين.

وتدبر هذه الآية بعُمقٍ يكشف أن فيها حذفاً من الأوائل تدل عليه الأواخر، وحذفاً من الأواخر تدل عليه الأوائل، وهو مما يسمى عند البلاغيين «الاحتباك» والتقدير:

فَقَدْ كَذَّبُوا واستهزؤوا بأنباء الوعيد التي جاءت في القرآن، ومنها انتصار المؤمنين عليهم في زمن قريب، فسَيأتيهم قريباً (بدليل استخدام حرف «السين») تحقيق أنباء ما كانوا به يكذبون ويستهزئون بتكرار متجدد حيناً فحيناً.

﴿أَنْبَاءٌ﴾: أي: أخبار، مُفْرَدُهَا «نَبَأٌ» وهو الخبر البارز الظاهر ذو الشأن المهم الرفيع.

الإنباء: الإخبار والإعلام، يُقَالُ لُغَةً «أَنْبَاءُ»، وَنَبَأُ الْخَبَرِ وَالْخَبَرُ أي: أَعْلَمُهُ بِهِ، وَيُسْتَعْمَلُ النَّبَأُ كَثِيراً فِي الْخَبَرِ ذِي الْخَطَرِ وَالشَّانِ الْمَثِيرِ لِلْعِنَايَةِ بِهِ، لَأَنَّ أَصْلَ مَادَّةِ الْكَلِمَةِ يَدُورُ حَوْلَ الارتفاعِ وَالظُّهُورِ.

وكل خبر له دلالة في الإدراك الذهني، وله تعلق بواقع يطابقه إن كان صادقاً، ولا يطابقه إن كان كاذباً.

وإتيان النبأ أو الخبر الصادق بالنسبة إلى تعلقه بالواقع المستقبلي، يكون بتحقيق وقوعه على وفق الصورة التي قدمها للإدراك الذهني.

وعبارة: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يراد بها الواقع المطابق للصورة التي قدمها للإدراك الذهني، هذا في التحليل الفلسفي.

أما بالنسبة إلى الشَّرح اللُّغويِّ فإلْبَارَةُ على تقدير: فَسَيَأْتِيهِمْ واقعٌ
أَنْبَاءٌ مَا كانوا بِهِ يُكْذِّبون وَيَسْتَهْزِئون من وعيدٍ.

ودلَّ قول الله لِرَسُولِهِ بشأنِ مَنْ يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ حُزْناً شَدِيداً، قاتلاً
بِحَسَبِ نِظامِ الأسبابِ والمسبِّباتِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: واستَهْزَؤُوا، على
أَنَّهُمْ غَيْرُ جَدِيرِينَ مُطْلَقاً بأن يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ حُزْناً مَا، أو أَنْ يَشْفَقَ
عَلَيْهِمْ، إِذِ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا جاحِدِينَ، لَا شاكِّين، وَلَا باحِثِينَ عَنِ الْحَقِّ
بِأَناءٍ وتفكُّرٍ، بَلْ قَدْ دَمَعَتْهُمُ الْحِجَّةُ، واستيقنَتْ أَنفُسُهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ
فِيمَا يُبْلَغُ عَنْ رَبِّهِ، فَهُمْ كَافِرُونَ كُفْراً إِرَادِيّاً يَسْتُرُونَ بِهِ الْحَقَّ الَّذِي
اسْتَيْقَنُوهُ، وَيُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُبْطِلُونَ، وَيَسْتَخْذِمُونَ وَسِيلَةَ
الاستِهْزاءِ لِتَضْلِيلِ جماهيرهم، والتَّغْشِيَةِ على بصائرهم.

قول الله تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾:

الواو العاطفة هُنَا بَعْدَ همزة الاستفهام عَطَفَتْ على محذوف يمكن
إدراكه واستخراجه بالتفكُّر المتأنِّي، أي: أَلَمْ يَشْهَدُوا آياتِ الله الكثيرة في
كُونِهِ، وَنِعَمَتِهِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إحصاء مفرداتها، وَلَمْ يَرَوْا بِأفكارهم
وقلوبهم ناظرين بأعينهم إلى الأرض كم أنبَتْنَا فيها من كُلِّ زَوْجٍ كريمٍ،
إِنْعَاماً مِنَّا عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةً مِنَّا بِهِمْ.

والاستفهام فيه معاني التلويح والتشريب والتوبيخ، وقد عَنَى اللهُ
بالخطاب هنا المكذِّبين المستهزئين، الذين يدور الحديث في هذا الدرس
حولهم، مع الإعراض عنهم، في مقابلِ إظهارهم وتوليهم، وجحودهم الذي
يُعَانِدُونَ به الْحَقَّ مع اسْتَيْقَانِ أَنفُسِهِمْ وقلوبهم به.

وقد ذَكَرْتُ أَنَّ الواو عاطفةٌ على محذوفٍ مطويٍّ في مَثَانِي دلالات
الآية، إِذْ دَلَّتْنِي الاسْتِعْمَالَاتُ الْقَرَأْنِيَّةُ عَلَى أَنَّ كُلَّ حُرُوفِ العطف يمكن أن

يُعْطَفَ بها على محذوفٍ مَطْوِيٍّ في مَثَانِي دَلَالَاتِ النَّصِّ، مثل «الفاء» التي سَمَّاهَا النُّحَوِيُّونَ الْفَاءَ الْفَصِيحَةَ، أَخْذًا مِنْ الْعُطْفِ بِهَا فِي الْقُرْآنِ عَلَى مُحذُوفٍ يُمَكِّنُ اسْتِخْرَاجَهُ ذَهْنًا.

وَالْفِعْلُ فِي ﴿يَرَوْا﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي «يَنْظُرُوا» فَعُدِّي تَعْدِيَتُهُ بِحَرْفِ الْجَرِّ «إِلَى»، وَالتَّقْدِيرُ: أَوْ لَمْ يَرَوْا نَاطِرِينَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْغَرَضُ الدَّلَالَةُ عَلَى الرُّؤْيَا الْفِكْرِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَعَلَى النَّظَرِ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى ظَاهِرَةِ إِبْنَاتِ اللَّهِ الْنبَاتَاتِ فِي الْأَرْضِ، ذَوَاتِ الثَّمَرَاتِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَنَوْعٍ وَصَنَفٍ.

﴿كَمْ أَفْلَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾:

كَلِمَةُ «كَمْ» هُنَا خَبَرِيَّةٌ، تَدُلُّ عَلَى عَدَدٍ كَثِيرٍ مُبْهَمٍ الْمَقْدَارَ وَالْجِنْسَ أَوِ النَّوعَ، أَوِ الصَّنْفِ. وَهِيَ اسْمٌ ثَنَائِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ، وَيَكُونُ تَمْيِيزُهَا مَجْرُورًا مُفْرَدًا أَوْ جَمْعًا. وَتَمْيِيزُهَا هُنَا «الْإِبْنَاتِ» الْمَفْهُومَ مِنْ ﴿أَفْلَنَّا﴾ وَهُوَ مُبَيَّنٌ هُنَا بِحَرْفِ «مِنْ» الْبَيَانِيَّةِ، فِي عِبَارَةٍ: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وَاخْتِيارَ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ فِي ﴿أَفْلَنَّا﴾ لَمَّا فِي هَذَا الْإِبْنَاتِ مِنْ دَلَالَةِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ بِهِمْ.

﴿زَوْجٍ﴾: يُرَادُ بِالزَّوْجِ هُنَا مَا يَشْمَلُ الْجِنْسَ، وَالنَّوعَ، وَالصَّنْفَ. وَإِطْلَاقُ لَفْظِ «الزَّوْجِ» عَلَى الْجِنْسِ، أَوِ النَّوعِ، أَوِ الصَّنْفِ، إِطْلَاقٌ لُغَوِيٌّ.

﴿كَرِيمٍ﴾: أَيُّ: جَامِعٍ لِلصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ النَّافِعَةِ لِلنَّاسِ وَلِسَائِرِ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ.

وَجَاءَ هُنَا تَخْصِيصُ آيَاتِ اللَّهِ فِي النَّبَاتِ بِالذِّكْرِ الصَّارِحِ فِي اللَّفْظِ، مَعَ الْعُطْفِ عَلَى مُحذُوفٍ مَطْوِيٍّ يَشْمَلُ سَائِرَ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي سَبَقَ فِي نَجُومِ التَّنْزِيلِ التَّنْبِيْهُ عَلَيْهَا، لِمَا فِي الْنبَاتَاتِ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَنِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ عَلَيْهِمْ، مِمَّا يَشْهَدُونَهُ فِي مُعْظَمِ أَوْقَاتِهِمْ نَهَارًا وَلَيْلًا، وَيَسْتَمْتِعُونَ بِهِ

في أقواتهم وفأكهاتهم، وأقوات ومنافع أنعامهم ودوابهم دواماً. وهذه النعم العظيمة والوفيرة تستدعي من الناس المستميتين بها في الأرض أن يقابلوها بالشكر، والطاعة، والإسلام، والإيمان، لا أن يقابلوها بالكفر والجحود والفسق والفجور والعصيان، كما يفعل الذين يكذبون ويستهزئون من كبراء كفار مكة وما حولها، وهم الذين يحزن الرسول محمد ﷺ من أجلهم، حزناً شديداً قاتلاً بحسب نظام الأسباب والمسببات في الناس.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أي: إن في ذلك المقدار العظيم الذي أنعمنا به على الناس، بما أنبئنا في الأرض من كل زوج كريم، آية عظيمة كافية للدلالة على ربوبية الله الخالق لعباده، وإنعامه عليهم، ورحمته بهم، ونحن نرضى لهم أن يؤمنوا ويشكروا، ونجزهم عليهما جزاء عظيم في جنات النعيم، وننقم منهم أن يجحدوا ويكفروا، مع استمتاعهم بأنواع وأصناف نعيمنا عليهم، ونجزهم بعقاب عادل على ما قدموا من سيئات، وعلى كفرهم بالحق الذي استيقنته أنفسهم، لكن جحدوه ظلماً وغلواً.

لكن ما وجدنا أكثر هؤلاء الذين يكذبون ويستهزئون ويحزن الرسول من أجلهم حزناً شديداً، ما وجدناهم ذوي قابلية - بحسب الحالة التي وصلوا إليها - لأن يؤمنوا مستقبلاً، إذ وصلت نفوسهم وقلوبهم إلى حالة من العناد والتحجر والهبوط في الدركات ميؤوس معها من إيمانهم وإسلامهم عن طريق إراداتهم الحرة، وفق نظام الأسباب والمسببات في طبائع الناس.

لفظ «كان» في عبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يدل على معنى

الصَّيْرُورَةُ ذاتِ الاستمرار، ونظائر هذه الدَّلَالَةِ لِفِعْلِ «كان» كثيرةٌ في القرآن المجيد. أي: وَصَّارَ أَكْثَرُهُمْ مَرْضَى الْقُلُوبِ مُتَحَجِّرينَ غيرِ ذوي قَابِلِيَّةٍ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، فَهُمْ ذُووُ حَالَاتٍ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أَنَّهُ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ.

ولأَمْرَاضِ قُلُوبِ النَّاسِ أَمَارَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا فِي ظَوَاهِرِ سُلُوكِهِمْ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الْعَلِيمِ الْمُطَّلِعِ عَلَى كُلِّ الظَّوَاهِرِ، وَعَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ وَالضَّمَائِرِ مِنْ سَرَائِرَ.

فعبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: مُسْتَقْبَلًا، تُفَسِّرُ تَفْسِيرًا تَدْبِيرِيًّا بِأَنَّهُ نَقُولُ: وَصَّارَ أَكْثَرُهُمْ غَيْرَ ذَوِي قَابِلِيَّةٍ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُوا.

استعمل اسم الفاعل ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ في مكان الفعل المضارع «يُؤْمِنُونَ» الدَّالَّ عَلَى الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ.

أَمَّا الَّذِينَ لَدَيْهِمْ مِنْهُمْ قَابِلِيَّةٌ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا فَهُمْ أَقَلُّهُمْ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقَلِّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ بَعْدَ نُزُولِ سُورَةِ (الشعراء) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَبَعْدَهُ، كَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ.

وَأَوْعَدَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ الْمَعَانِينَ الْمَصْرِينَ عَلَى الْبَاطِلِ، بِعِقَابٍ يُجْرِيهِ بِعِزَّتِهِ الْعَالِيَةِ، وَأَشَارَ إِلَى هَذَا الْوَعِيدِ بِذِكْرِ اسْمِهِ «الْعَزِيزِ».

وَأَطْمَعَ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا وَيَتَّبِعُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، بِمَغْفِرَةٍ وَبِثَوَابٍ يُجْرِيهِ لَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، وَأَشَارَ إِلَى وَعْدِهِ الْكَرِيمِ بِذِكْرِ اسْمِهِ «الرَّحِيمِ».

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِلرَّسُولِ وَلِكُلِّ مُتَلَقٍّ لِلخِطَابِ مِنْ بَعْدِهِ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

﴿الْعَزِيزُ﴾: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ.

﴿الرَّحِيمُ﴾: أي: الْعَظِيمُ الرَّحْمَةُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

جاء تأكيد هذه الجملة بالمؤكّدات: «إِنَّ - الجملة الاسميّة - اللّام

الْمُزَحَلَّة - ضمير الفصل).

وبهذا تمّ تدبّر الدرس الأوّل، مِنْ دُرُوسِ سورة (الشعراء) والحمد لله

على معونته، وتوفيقه، وفتحِهِ، وفيض عطائه.



(٦)

التدبّر التّخيلي للدرس الثاني من دُرُوسِ سورة (الشعراء)

وهو الآيات من (١٠ - ١٩١)

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

لقطات تتعلق بقصة موسى عليه السّلام وقومه مِنَ الْمُضْرِيّين

وهي الآيات من (١٠ - ٦٨).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْفَقِيرَ ٱلظَّالِمِينَ ۝١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ٱلَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ

۝١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ

إِلَىٰ هَارُونَ ۝١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا شَايَئِنَّا

إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ

مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُؤْتِكُنِي مِنَّا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ مِنَّا مِنْ عُثْرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾

وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ۝١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ

ٱلضَّالِّينَ ۝٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٢٣﴾

قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشَىءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَيْتَ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُوَكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَاجِرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّو فرعونَ إِنَّا لَخَيْرُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ فَتَتَّبِعُونِ ﴿٥٣﴾ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَشِيرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٠﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزْلَفْنَا نَحْمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾

تمهيد:

سبق تدبر هذا النصّ تدبراً تكاملياً مع النصوص القرآنية الأخرى المتعلقة بموضوعات فقراته، لدى تدبر ما يتعلّق بقصة موسى وهارون عليهما السلام في سورة (طه).

ولذا أقتصر هنا على تحليل فقرات هذا النصّ من سورة (الشعراء) دون إعادة الدراسة التكامليّة بينه وبين سائر النصوص القرآنية، المتعلقة بقصة موسى وهارون عليهما السلام.

ولما كان مشركو مكة قد ألحوا بطلب الآيات الماديّة، كآيات موسى عليه السلام قدّم الله هنا قصّته للدلالة على أنّ الآيات الماديّة لم يكن لها تأثير على قوم معاندين مكابرين، بينهم وبين معاندي كبراء قريش شبه كبير في الصفات النفسية المستكبرة المعاندة، فلا جدوى من إجراء الآيات الماديّة لهم.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَفْعَمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فَرَعُونَ ۖ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾: أي: واذكر الأحداث التي جرت وقت نداء ربك موسى، واذكر عظايتها، بمعنى: ضعها في ذاكرتك لتعلم سنّة ربك في عباده ومنهم أنبيأؤه ورسله، ثم من هم دونهم مؤمنينهم على مراتبهم ودرجاتهم، وكافريهم على مهابطهم ودرجاتهم.

﴿وَإِذْ﴾ العطف بالواو هنا يدلّ على مطويّ في اللفظ مقدّر في الذهن، أي: ضغ في ذاكرتك يا محمّد ما أرشدناك إليه في الدرس الأوّل من دروس السورة، من الكف عن الحزن الشديد من أجل كفار قومك

وعَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ، إِذْ وَضَعُوا أَنفُسَهُم بَاخْتِيَارَهُمِ الْحَرِّ فِي مَهَاوِي عَذَابِ رَبِّهِمِ الْخَالِدِ يَوْمَ الدِّينِ، وَضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ الْأَحْدَاثَ الَّتِي جَرَتْ وَقْتُ نَدَاءِ رَبِّكَ مُوسَى وَعِظَاتِهَا.

والخطابُ مُوجَّهٌ أيضاً بَعْدَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ يَنْتَفِعُ بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ دَلَالَاتٍ وَعِظَاتٍ.

[إِذْ]: ظرفٌ لِلزَّمانِ الماضي، وهو هنا زَمَنُ بعضِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي جَرَتْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقْتُ نَدَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى، وَمَا بَعْدَهُ حَتَّى آخِرِ الْأَحْدَاثِ الْمَبِينَةِ فِي النَّصِّ مِنْ قِصَّتِهِ.

﴿نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾: أي: دَعَا بِصَوْتٍ عَالٍ، أَصْلُ النِّدَاءِ فِي اللُّغَةِ: الدُّعَاءُ بِأَرْفَعِ صَوْتٍ يَسْتَطِيعُهُ الْمَنَادِي مِنَ النَّاسِ.

وكان هذا النداء من الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِمُوسَى قَبْلَ أَنْ يُقَرِّبَهُ وَيُنَاجِيَهُ مُنَاجَاةً، كما أَوْضَحْتُ هَذَا فِي النِّظَرَاتِ التَّكَامِلِيَّةِ لَدَى تَدْبِيرِ سُورَةِ (طه).

الْمُنَاجَاةُ: هِيَ الْإِسْرَارُ بِالْحَدِيثِ.

واختيرتْ هُنَا عِبَارَةُ ﴿رَبُّكَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى صِفَاتِ رُبِّيَّةِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى شُمُولِ عِلْمِهِ، وَسَامِيِ حِكْمَتِهِ فِي اخْتِيَارَاتِهِ لِمُقَادِيرِهِ فِي عِبَادِهِ، فَلَا يَنْبَغِي لِعِبَادِهِ الْمُضْطَفِّينَ الْأَخْيَارَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رَغَبَاتٌ مُخَالَفَاتٌ لِمَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ بِحِكْمَتِهِ فِي عِبَادِهِ.

﴿مُوسَى﴾: سَبَقَ فِي سُورَةِ (طه) مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْاسْمِ الَّذِي سُمِّيَ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةَ.

﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: «أَنْ» تَفْسِيرِيَّةٌ وَمَا بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لِبَعْضِ مَا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، دَلَّ عَلَى الْبُغْضِيَّةِ مَا جَاءَ فِي النِّصُوصِ الْأُخْرَى مِنْ بَيَانٍ لِمَا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ مُوسَى بِجَانِبِ الطُّورِ.

﴿أَنْتِ أَقْوَمُ﴾: أي: جيء القَوْمَ. يقال لغة: «أتى المكانَ أو الرجلَ يأتيه، أتياً، وإتياناً، وإتيّاً، ومأتى، ومأتاة» أي: جاءه.

وجاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) أن الله عز وجل قال لموسى:

﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ﴾

وبالنظرة التكامليّة بين الأمر بالذهاب والأمر بالإتيان يبدو لي أن التّكليف إذن له بأن يصل إلى أهله أولاً، وبعد ذلك يأتي إلى فرعون، ولكنّ عليه أن لا يتأخّر عن مُقابَلَةِ فرعون، وبعد تأخّره يكون بمثابة من ذهب مُباشرة من مُناجاة ربه إلى مُقابَلَةِ فرعون، ليبلغ رسالة ربه إليه.

ووصف الله عز وجل فرعون وقومه بوصف ﴿الظَّالِمِينَ﴾ للدلالة على ظلمهم في حق الله عليهم، وظلمهم لعباد الله بسُلطانهم الآثم الغاشم، وظلمهم أنفسهم بممارسة ما يضرهم ولا ينفعهم، ويُفهم هذا التّعميم من واقع حال فرعون، وملئه، وجنوده، وسائر قومه الذي جاء بيانه في القرآن المجيد في مختلف النصوص.

ويؤمى وصفهم بالظالمين إلى الحكمة الربّانية من إرسال رسولٍ إليهم، ليبيّن لهم مطلوب ربهم منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، تحقيقاً لسنّته في إرسال رسولٍ إلى كلّ أمة يتطلّب واقعها إرسال رسولٍ إليها، ليبلغها الدين الذي اصطفاه لعباده في حياة الابتلاء.

وأبان الله عز وجل المراد بالقوم الظالمين فقال تعالى: ﴿قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ﴾ ويدخل فرعون فيهم، لأنّه أكثرهم طغياناً وكُفراً وإمامهم في كلّ شرّ.

وهو بدّل أو عطف بيان من: ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقول الله تعالى لموسى بشأن قوم فرعون: ﴿... أَلَا يَنْقُوزُ﴾

يَتَّصِمُنْ تَعْلِيمًا لَهُ بِأَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ أَلَيْنَ الْقَوْلُ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ،
وَيَكُونُ هَذَا بِأَسْلُوبِ الْعَرْضِ الِاسْتِفْهَامِيِّ الرَّفِيقِ.

والمعنى: فَقُلْ لَهُمْ: «أَلَا تَتَّقُونَ»؟.

وهذه العبارة الرفيعة اللَّيْنَةُ قَدْ قَالَهَا كَمَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوَاضِعٍ
مِنْ سُورَةِ (الشَّعْرَاءِ) نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
لِأَقْوَامِهِمْ، فِي بَدَايَةِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ رَبِّهِمْ، الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ.

وقالها أيضا إيلياس عليه السلام لقومه، كَمَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي
الآيَةِ (١٢٤) مِنْ سُورَةِ (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مِصْحَف/ ٥٦ نَزُول).

وَعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَهَا فِي جَدَلِيَّاتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ، كَمَا
جَاءَ فِي الْآيَةِ (٣١) مِنْ سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مِصْحَف/ ٥١ نَزُول). وَفِي الْآيَةِ
(٨٧) مِنْ سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ/ ٢٣ مِصْحَف/ ٧٤ نَزُول).

﴿أَلَا نَنْقُوزُ﴾ الهمزة للاستفهام، وَيُرَادُّ بِهِ هُنَا الْعَرْضُ اللَّيْنُ الرَّفِيقُ
بِأَسْلُوبِ الِاسْتِفْهَامِ. وَ«لَا» حَرْفُ نَفْيٍ، وَ«تَتَّقُونَ» فِعْلٌ مُضَارِعٌ مَنْفِيٌّ بِـ «لَا»
الْمُسَبَّوقَةِ بِهَمْزَةٍ الِاسْتِفْهَامِ.

والمعنى: أَلَا تُرِيدُونَ أَنْ تَقُوزُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ عَاقِبَةِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ
بِرَبِّكُمْ، وَظُلْمٍ لِحَقِّهِ عَلَيْكُمْ، وَظُلْمٍ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَظُلْمٍ لِأَنْفُسِكُمْ بِمُمَارَسَةِ مَا
يَجْلِبُ لَكُمْ الضَّرَّ وَالْأَذَى، وَشُرُورًا لَا تَسْتَطِيعُونَ كَفَّ وَبِلَايَتِهَا عَنْكُمْ.

يَقَالُ لُغَةً: «اتَّقَى يَتَّقِي اتَّقَاءً، وَتَوَقَّى، يَتَوَقَّى تَوَقُّيًا، وَتَقَى، وَتَقِيَّةً،
وَتَقَاءً» أَيْ: جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَضُرُّهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أَوْ يُولِمُهُ مَا يَقِيهِ وَيَحْفَظُهُ مِنَ
الضَّرِّ وَالْأَذَى وَالْأَلَمِ. وَالْاسْمُ «التَّقْوَى».

و«الْوَقَاءُ، وَالْوَأَقِيَّةُ» كُلُّ مَا وَقِيَتْ وَحَفِظَتْ بِهِ شَيْئًا مَا، مِنْ مَادِيٍّ أَوْ
مَعْنَوِيٍّ.

قول الله عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۝ ۞ قَالَ كَلَّا فَذْهَبَا بِمَا بَيْنَنَا إِيَّاكُمْ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ۝ ۞ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ۞ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝﴾.

القراءات:

(١٢) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم.

وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان: [إِنِّي أَخَافُ] .

(١٢ - ١٤) • قرأ يعقوب: [يُكَذِّبُونِي - يَقْتُلُونِي] بإثبات ياء المتكلم وضلاً ووقفاً.

وقرأهما باقي القراء العشرة بِحَذْفِ ياء المتكلم: [يُكَذِّبُونِ] - [يَقْتُلُونِ]. حذف ياء المتكلم في النطق مألوف في اللسان العربي، وهو من الإيجاز في النطق.

(١٣) • قرأ يعقوب: [وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي] بِنَصْبِ الْفِعْلَيْنِ عِظْفًا عَلَى [أَنْ يُكَذِّبُونِ] المنصوب.

وقرأهما باقي القراء العشرة بالرفع على الاستئناف: [وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي].

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فقراءة يعقوب على معنى: وَأَخَافُ أَنْ يَضِيقَ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقَ لِسَانِي.

وقراءة الجمهور هي على معنى: وَأَنَا يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي بِحَسَبِ مَا أَعْرِفُ مِنْ نَفْسِي فِي الْمَوَاقِفِ الْحَرِجَةِ.

وإيرادُ القِرَاءَتَيْنِ يدلُّ على أنَّ مُوسَى عليه السلام عبَّرَ بالعبارتين، إحداهما أَبَانَ فيها ما يَعْلَمُ من نفسه بِحَسَبِ العادة، والأُخْرَى أَبَانَ فيها تَخَوُّفَهُ من أَنْ تَتَحَكَّمَ بِهِ صِفَتُهُ المعتادة.

التدبر التحليلي:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢): أي: قال موسى عليه السلام: رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي فِي أَتِي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَي: وَإِذَا كَذَّبُوا بِرِسَالَتِي وَبِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ يُنْكِلُونَنِي، إِذْ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ جَبَّارَةٌ، ذَوُو سُلْطَانٍ اسْتِبْدَادِيٍّ جَائِرٍ ظَالِمٍ.

• ﴿وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾: أي: وَأَنَا أَغْرِفُ مِنْ طَبْعِي أَنَّ صَدْرِي يَصِيقُ^(١)، فَلَا أَتَحَمَّلُ الْمَنَاطِرَاتِ وَالْمَجَادِلَاتِ، فَأَخْشَى أَنْ أَتَصَرَّفَ تَصَرُّفَاتٍ قَوْلِيَّةٍ أَوْ عَمَلِيَّةٍ تُعَرِّضُنِي لِلْهَلَاكِ. وَأَعْرِفُ أَنَّ فِي لِسَانِي حُبْسَةً تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَنْطَلِقَ مُنْدَفِعاً بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ فِي الْبَيَانِ، فَيَتَّخِذُ الْقَوْمَ هَذِهِ الْحُبْسَةَ مُتَكَاً لِلتَّهْكُمِ بِي وَالسُّخْرِيَةِ مِنِّي، وَقَدْ اسْتَغْلَاهَا فِرْعَوْنُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ لِقَوْمِهِ إِذْ قَالَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزُّحْرَفِ/٤٣) مَصْحَف/٦٣ (نزول) بقوله:

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ آلِيَّ إِلَىٰ مُلْكِي مِصْرَ وَهَذِهِ آلَانَهُرُ نَجْرِي مِنْ نَحْيٍ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾.

وَسَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ أَخِيهِ هَارُونَ وَزِيرًا لَهُ، وَشَرِيكًا لَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وَيُسَدِّدُ بِهِ أَرْزَهُ، فَقَالَ كَمَا جَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ الَّذِي

(١) ضيق الصدر: كناية عن سُرْعَةِ الانْتِفَاعِ بِالْمِثْرَاتِ، كَمِثْرَاتِ الْغَضَبِ، وَمِثْرَاتِ الْحُزَنِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

تَدَبَّرْهُ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰزُونَ﴾ أي: فاجْعَلْهُ نبيًّا ورَسُولاً مَعِيَ. وجاء في النصوص الأخرى التصريح بما طَوِيَ في هذا النص، وَقَدْ سَبَقَ إيضاحُ هذا في النظرات التكامليَّاتِ إلى النصوص لدى تَدَبُّرِ سُورَةِ (طه).

وقال مُوسَى عليه السَّلَام لِرَبِّهِ مُبْدِيًا تَخَوُّفُهُ مِنْ أَنْ يَقْتُلَهُ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ، عَقُوبَةً لَهُ عَلَى الْقَتِيلِ الَّذِي كَانَ قَدْ وَكَّزَهُ انتصاراً للإِسْرَائِيلِيَّيْنَ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ قَتْلَهُ، فقال لربه:

• ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٤):

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ تَخَوُّفِهِ مِنْ أَنْ تَقْتُلَهُ السُّلْطَةُ الْفِرْعَوْنِيَّةُ، بِسَبَبِ الذَّنْبِ الَّذِي كَانَ قَدْ ارْتَكَبَهُ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدِينِ فَارَا، إِذْ عَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ يَأْتِمُرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، وَبِقَتْلِهِ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ.

وَسَبَقَ فِي تَدَبُّرِ سُورَةِ (طه) بَيَانُ هَذِهِ الْقِصَّةِ.

فَأَجَابَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ لَهُ ﴿كَلَّا﴾ وفي هذا الجواب شِدَّةٌ فِيهَا مَعْنَى الرَّجَرِ، إِذْ لَمْ يَسْتَدْعِ ذَهْنُهُ بِسُرْعَةٍ، أَنَّ مُرْسِلَهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَالَّذِي بِيَدِهِ تَصَارِيفُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ، سَيَحْمِيهِ وَيُدَبِّرُ لَهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَقِيهِ، وَيَصْرِفُ عَنْهُ كَيْدَ مَنْ يُرِيدُهُ بِشَرٍّ وَبِكُلِّ مَا يَكْرَهُ مِنْ سُوءٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

• ﴿قَالَ كَلَّا فَإِذْهَبَا بِإِيتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (١٥):

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ وَجَّهَ لَهُ الْكَلِمَةَ الزَّاجِرَةَ، أَغْلَمَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَجَابَ طَلْبَهُ، فَجَعَلَ أَخَاهُ رَسُولًا مَعَهُ وَزِيْرًا وَمُسَاعِدًا، فَهُوَ يُوجِّهُ لَهُمَا مَعَ الْأَمْرِ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَيُلْحِقُ بِهِمَا سَائِرُ قَوْمِهِ، مَصْحُوبَيْنِ بِآيَتِي الْعَصَا وَالْيَدِ، وَسَائِرِ الْآيَاتِ التَّسْعِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، وَسَبَقَ بَيَانُهَا مُفَصَّلَةً فِي تَدَبُّرِ سُورَةِ (طه) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَمَصْحُوبَيْنِ بِآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ.

وَطَمَأْنَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ لَهُ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أَي: حِينَمَا تَصِلَانِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَيْهِ، نَكُونُ مَعَكُمْ مُسْتَمِعِينَ مَا تَقُولَانِ لِلْقَوْمِ، وَمَا يَقُولُ لَكُمْ فِرْعَوْنُ، وَمَا يَقُولُ مَلَأُوهُ فِي مَجْلِسِهِ الْمَلَكِيِّ الْمَهِيبِ، فَتَحْنُ بِالْمُرْصَادِ لِحِمَايَتِكُمَا وَتَأْمِينِكُمَا وَدَفْعِ كُلِّ شَرٍّ وَسُوءٍ عَنْكُمَا.

وجاء في هذه العبارة المطمئنة استِعْمَالُ ضَمِيرِ المتكلم العظيم، للدلالة على كَمَالِ قُدْرَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ على حمايتهما.

وجاءت مؤكدة بـ «إِنَّ - وَالْجُمْلَةَ الاسميّة» لزيادة طمأننتهما.

وَبَعْدَ هَذَا وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى وَلِأَخِيهِ الْعَاطِبِ عَنْ مَقَامِ الْخُطَابِ، تَعْلِيمًا مُجْمَلًا عَنْ مَضْمُونِ الْعَرْضِ الَّذِي يَعْرضُ بِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ عِنْدَ لِقَائِهِمَا لَهُ، وَيُلْحَقُ بِهِ التَّفْصِيلُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي التَّصَوُّصِ الْقِرْآنِيَةِ الْآخَرَى، مَعَ لَوَازِمِهَا الْفِكْرِيَّةِ، وَمَا تَسْتَدْعِيهِ مِنْ شَرْحٍ وَتَفْصِيلٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢﴾﴾

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥) قول الله عز وجل:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴿٤٧﴾﴾ ...

فما الحكمة من الإفراد في نص سورة (الشعراء)؟.

أقول: أوردَ المفسرون والنحاة عدّة تخريجات عَرَبِيَّةٍ، وَالَّذِي أَرَاهُ هُوَ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُهُ لَدَى تَدْبِيرِ سُورَةِ (طه). والمعنى: أَنَّنَا رَسُولَانِ وَلَكِنَّا بِمَثَابَةِ رَسُولٍ وَاحِدٍ، لَأَنَّنَا مُتَعَاْضِدَانِ مُتَكَامِلَانِ، فَمَا يَقُولُهُ أَحَدُنَا يُعْبَرُ عَنْ قَوْلِنَا مُجْتَمِعِينَ، لَا يَنْفِرِدُ أَحَدُنَا عَنِ الْآخَرِ بِشَيْءٍ.

وهذا نظير قولٍ وَفِدٍ مِنْ جُمْهُورٍ كَبِيرٍ لِلوَافِدِينَ عَلَيْهِ، نَحْنُ شَخْصٌ وَاحِدٌ، أَوْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، أَي: مُتَكَاتِفُونَ مُتَعَاْضِدُونَ، لَا يَنْفِرِدُ أَحَدُنَا بِرَأْيٍ عَلَى خِلَافِ آرَاءِ الْآخَرِينَ.

وبين التعلّمين تكامل، أي: قولاً له مرّة: «إِنَّا رُسُولَا رَبِّكَ» وقولاً له أخرى: «إِنَّا رُسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي: إِنَّا رُسُولَانِ بِمَثَابَةِ رُسُولٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ جميعاً، من أحياء وغير أحياء في السماوات والأرض.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٧) : «أَنْ» تفسيريّة، تُفسّرُ بَعْضُ مَضْمُونِ رِسَالَتِهِمَا إِلَيْهِ، إِذْ رِسَالَتُهُمَا إِلَيْهِ تَتَضَمَّنُ قَضِيَّتَيْنِ كُبْرَيْنِ:

القضية الأولى: دَعْوَةُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.

القضية الثانية: مطالبةُ فِرْعَوْنَ بِأَنْ يَأْذَنَ لِבَنِي إِسْرَءِيلَ بِالْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ بِقِيَادَتِهِمَا، وَعَوْدَتَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي قَدِمَ أَجْدَادُهُمْ مِنْهَا أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وطوى النصّ هنا أحداثاً كثيرة جاء بعضها في نصوص أخرى، وقفز إلى قول فِرْعَوْنَ لِمُوسَى مَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ التَّالِي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ أَلَمْ نُنَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ الْغِيَّةَ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾:

أي: قال فِرْعَوْنُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحَسَبِ دَلَالَةِ هَذَا الْبَيَانِ الْمَشْتَمِلِ عَلَى أَرْبَعِ قَضَايَا: مِنْهُنَّ ثَلَاثُ قَضَايَا مُصَدَّرَاتٍ بِاسْتِفْهَامِ تَقْرِيرِيٍّ مِنْ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لانتزاع إقراره بها، والقضية الرَّابِعَةُ يَتَّهِمُ فِرْعَوْنُ بِهَا مُوسَى بِأَنَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ، أي: من الْجَاحِدِينَ لِلْمَنْنِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهَا الْقَضَرُ الْفِرْعَوْنِي.

فَالْكَفْرُ: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى جُحُودِ النُّعْمَةِ لِلتَّنَصُّلِ مِنْ أَدَاءِ وَاجِبِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا.

القضية الأولى: استفهام تقريريّ، يَمْتَنُّ بِهِ فِرْعَوْنُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، بَأَنَّ الْقَصْرَ الْفِرْعَوْنِيَّ رَبَّاهُ مُنْذُ كَانَ وَلِيداً حَدِيثَ الْوِلَادَةِ، حَتَّى بَلَغَ وَاكْتَمَلَ، وَلَمْ يَقْتُلْهُ كَشَّانٍ سَائِرِ مَوَالِيدِ سَنَّتِهِ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، إِذِ اتَّفَقَتْهُ بَعْضُ آلِهِ مِنَ النَّيْلِ وَأَحْبَوْهُ وَكَرَّمُوهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيداً؟﴾ اسْتِفْهَامٌ مُسَلِّطٌ عَلَى الْمَنْفِيِّ بِحَرْفِ «لَمْ» لِيَقُولَ بَلَى فَعَلْتُمْ ذَلِكَ.

التربية: تَجْمَعُ فِي مَعْنَاهَا كُلُّ مَا يَتَطَلَّبُهُ إِنْشَاءُ الْمُرَبِّي وَرِعَايَتُهُ وَحِفْظُهُ، وَتَنْمِيَتُهُ جَسَدياً وَنَفْسِيّاً وَفِكْريّاً وَسُلُوكِيّاً.

والمراد: أَلَمْ نُزَيِّكْ فِي ضِمْنِ أُسْرَتِنَا الْمَلَكِيَّةِ كَأَحَدِ أَوْلَادِنَا، مُنْذُ كُنْتَ حَدِيثَ الْوِلَادَةِ، حَتَّى صِرْتَ رَجُلًا مُكْتَمِلًا ذَا قُوَّةٍ تَسْتَعِدُّ فِيهَا إِلَى أَنَّكَ وَاحِدٌ مِنَ أَفْرَادِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ الْفِرْعَوْنِيِّ فِي مِصْرَ.

القضية الثانية: اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ يَمْتَنُّ بِهِ فِرْعَوْنُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام بِأَنَّهُ لَبِثَ فِي رِعَايَةِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ وَحِمَايَتِهِ، وَمَنْحِهِ فُرْصَ الْارْتِقَاءِ وَالنَّجَاحِ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا كَأَحَدِ أَفْرَادِ الْقَصْرِ، طَوَالَ سِنِينَ مِنْ عُمُرِهِ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ لَهُ: ﴿وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

قيل: لَبِثَ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ (١٨) سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، وَقِيلَ: (٣٠) سَنَةً، وَقِيلَ: أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أي: أَوْ لَمْ تُقِمْ فِي كَنَفِنَا كَأَحَدِ أَفْرَادِ الْقَصْرِ مِنَ الْبَنَاءِ، سِنِينَ مِنْ عُمُرِكَ، وَنَحْنُ نَزْعَاكَ، وَنَمْنَحُكَ مَا تَطْلُبُ مِنْ مَطَالِبٍ، وَنُمِدُّكَ بِقُوَّةٍ مِنْ سُلْطَانِنَا، حَتَّى صِرْتَ رَجُلًا مُكْتَمِلَ الرُّجُولَةِ.

فَالِاسْتِفْهَامُ التَّقْرِيرِيُّ الْوَاردُ فِي الْقَضِيَّةِ الْأُولَى، مُنْسَجِبٌ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الثَّانِيَةِ.

اللُّبُّ: الْإِقَامَةُ فِي الْمَكَانِ زَمناً لَيْسَ بِالْقَصِيرِ.

القضية الثالثة: اسْتَفْهَامُ تَقْرِيرِيٍّ ثَالِثٍ، يُقَرَّرُ بِهِ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنَّهُ قَتَلَ نَفْسًا مِنَ الْمَضْرِيِّينَ، انتصاراً لإسرائيلِيٍّ هُوَ مِنْ شِيعَتِهِ وَقَوْمِهِ، وَهَذِهِ الْجَرِيْمَةُ تَسْتَحِقُّ عَقُوبَةَ الْقَتْلِ، وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ قَدْ سَقَطَتْ بِمُرُورِ الزَّمَنِ، بِمُقْتَضَى قَانُونِهِمْ حِينَئِذٍ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ لَهُ:

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ﴾:

أي: أَو لَمْ تَرْتَكِبْ جَرِيْمَةَ قَتْلِ الْمَضْرِيٍّ، انتصاراً لِرَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ.

والاستفهام التقريريُّ مُنْسَجِبٌ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَيْضاً وَمُرَادُ فِرْعَوْنَ مِنْ تَقْرِيرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِذِهِ الْقَضَايَا الثَّلَاثُ، إِشْعَارُهُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْآنَ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ سَابِقِ عَهْدِهِ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ وَآلِهِ، وَلَا سِيْمَا مَطَالَبَتَهُ بِالِإِذْنِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَن يَخْرُجُوا مِنْ مِصْرَ، مَعَ الْإِحْتِمَالِ الْقَوِيِّ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِمْ، لِيُعِدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً مُقَاتِلاً، وَيَرْجِعَ بِجَيْشِهِ لِتَقْوِيضِ مُلْكِ أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِ، وَانْتِزَاعِهِ مِنْهُمْ بِالْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمَمْلَكَاتِهِمْ، وَهُمْ خُبَرَاءُ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَبِرِجَالِهَا، وَبِمِرَازِ قُوَى سُلْطَانِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ فِيهَا، إِنَّ هَذَا عَمَلٌ مُنَافٍ لِفَضِيلَةِ الْوَفَاءِ.

وَالْمَعْنَى: فَكَيْفَ يَتَلَاءَمُ هَذَا مَعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ حَقٍّ وَخَيْرٍ وَرُشْدٍ وَفَضَائِلَ، فِي الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ.

القضية الرابعة: إِدَانَةُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ الْجَا حِدِينَ، لِمَا قَدَّمَهُ لَهُ الْقَصْرُ الْفِرْعَوْنِيُّ مِنْ نِعَمٍ وَمِنْ، وَقَدْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِهَذِهِ النِّعَمِ وَالْمِنْ، فَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْتِلِدِينَ الْمُنَاصِرِينَ، وَمِنْ ذَوِي الْوَلَاءِ الصَّادِقِ، لِأَنَّ الْكَافِرِينَ الْجَا حِدِينَ، الَّذِينَ يَقَابِلُونَ الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ، وَالْخَيْرَ بِالشَّرِّ، وَالْجَمِيلَ بِالْقَبِيحِ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ لَهُ:

﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: وأنت من الجاحدين للنعم والمنين التي تلقوها من أولياء الإحسان إليهم.

قول الله عز وجل:

﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا أَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنِ عُبُدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

تمهيد:

دلّت هذه الآيات الثلاث على ما أجاب به موسى عليه السلام على القضايا التي وجهها له فرعون.

وقد بدأ موسى عليه السلام بالإجابة على قتله المضري انتصاراً لأحد أفراد قومه الإسرائيليين، فأبان أنه قتل في الزمن الذي كان فيه من الضالين الجاهلين، الذين يندفعون مع أهوائهم وعصبياتهم، وولاءاتهم القومية، وفي الزمن الذي كان فيه خاضعاً لمؤثرات مدرسة القصر الفرعوني، النفسية، والاجتماعية، والتسلطية، وأبان له أنه لما علم بأن ملاً القصر يأمرون به ليقتلوه، فر منهم، وخرج من مضر هارباً، وأقام في مكان لا سلطان لحكام مضر عليه حينئذ. وأبان له أن الله ربه وهب له حكماً عقب فراره من مضر، وأن الله ربه جعله بعد ذلك من المرسلين.

التدبر التحليلي:

• ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا أَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِذَا﴾ قالوا: هي هنا حرف جواب، أي: نعم، قد فعلتها في حال أتى كنت من الصالين (أي: الجاهلين) الذين لا يعرفون الكثير من الأمور التي فيها تفريق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصالح والفاسد.

الضلال: يأتي في اللغة بمعنى الجهل بالشيء، لخلو الذهن من معرفته، وهذا المعنى هو المعنى المناسب هنا.

ولسْتُ أَذْرِي لِمَاذَا لَمْ يُورَدْ النَّحْوِيُّونَ اِحْتِمَالٌ أَنْ تَكُونَ ﴿إِذَا﴾ هُنَا دَالَّةٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ التَّنْوِينُ عِوَضاً عَنْ مُضَافٍ إِلَيْهِ مَحذُوفٍ، كَمَا قَالُوا فِي نَحْوِ «حِينَئِذٍ» وَ«يَوْمَئِذٍ». فَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْأَقْرَبُ خُطُوراً فِي الذَّهْنِ بِحَسَبِ سَوَابِقِ الْعِبَارَةِ وَلَوْ أَحَقَّهَا، أَيِ: فَعَلْتُهَا حِينَئِذٍ وَأَنَا مِنَ الصَّالِّينَ.

• ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾:

أَيِ: فَعَقِبَ وَقَتِ خَوْفِي مِنْكُمْ أَنْ تَقْتُلُونِي، هَرَبْتُ مِنْكُمْ إِلَى حَيْثُ لَا يُمَسِّكُ بِي جُنُودُكُمْ، لَيْسُو قَوْنِي إِلَيْكُمْ.

﴿لَمَّا﴾ ظَرَفٌ لِلزَّمَانِ الْمَاضِي هُنَا، أَيِ: حِينَ خِفْتُكُمْ فِيمَا مَضَى عَقِبَ قَتْلِي الْمَضْرِيَّ.

• ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾:

الهِبَةُ: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَغْرَاضِ. يُقَالُ لُغَةً: «وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ، وَهَباً، وَوَهَباً، وَهَبَةً، فَهُوَ وَهَبٌ، وَوَهَابٌ، وَوَهُوبٌ، وَوَهَابَةٌ».

﴿رَبِّي﴾: أَيِ: خَالِقِي، وَالَّذِي تَتَعَلَّقُ بِي دَوَاماً صِفَاتُ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيُمِدُّنِي دَوَاماً بِعَطَائِهَا، وَيُهَيِّمْنَ عَلَيَّ دَوَاماً بِسُلْطَانِهَا وَرَحْمَتِهَا.

﴿حُكْماً﴾: الْحُكْمُ: فِقْهُ الْأُمُورِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَحُدُودِهِمَا، وَمَعْرِفَةُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَحُدُودِهِمَا، وَالْحَسَنِ وَالسَّيِّئِ وَحُدُودِهِمَا، وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ وَحُدُودِهَا.

وَبِنَاءٌ عَلَى فِقْهِ الْأُمُورِ يُضْدِرُّ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامُهُ الْعِلْمِيَّةُ، وَأَحْكَامُهُ الْقَضَائِيَّةُ مُطَابَقَةً لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ.

وَالْمَعْنَى: فَأَعْطَانِي رَبِّي بِفَضْلٍ مِنْهُ فَقُهَا فِي الْأُمُورِ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ جَاهِلاً.

• ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١):

أي: وجعلني نبياً من الأنبياء ورَسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ قَبْلِي لِتَبْلِيغِ أُمَمِهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ.

وقد دَلَّ الواقع التاريخيُّ على أَنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولاً فِي زَمَنِ مُتَأَخِّرٍ عَنِ زَمَنِ فِرَارِهِ مِنْ مِصْرَ عَقِبَ قَتْلِهِ الْمِصْرِيِّ، لَكِنَّ عِبَارَةَ: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْهَيْبَةَ قَدْ كَانَتْ عَقِبَ فِرَارِهِ مِنْ جُنُودِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْرَ، فَالْعُطْفُ بِالْوَاوِ لِعِبَارَةِ: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى الْاقْتِرَانِ فِي الزَّمَنِ بَيْنَ هَيْبَتِهِ الْحُكْمَ وَبَيْنَ جَعْلِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ بَيَّنَّ الزَّمَنَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَجَابَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ بِهِ بِشَأْنِ قَتْلِهِ لِلْمِصْرِيِّ انْتِصَاراً لِلإِسْرَائِيلِيِّ، وَجَّهَ مُوسَى لَهُ الْجَوَابَ عَلَى الْمِنَنِ الَّتِي اِمْتَنَّنَ بِهَا فِرْعَوْنُ عَلَيْهِ، وَعَلَى إِدَانَتِهِ لَهُ بِأَنَّهُ مِنَ الْجَا حِدِينَ الَّذِينَ لَا يُقَابِلُونَ الْإِحْسَانَ بِالشُّكْرِ، بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ التَّالِيَةُ:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢)؟!.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبيٌّ مَحْذُوفٌ لَفْظاً، مُقَدَّرٌ ذَهْنًا.

﴿تَمُنُّهَا﴾: أي: تَتَحَدَّثُ بِأَنَّكَ تَفَضَّلْتَ بِهَا عَلَيَّ، وَتَغْتَبِرُهَا مِنْ مَحَامِدِكَ وَإِحْسَانَاتِكَ. والمشار إليه بعبارة ﴿تِلْكَ﴾ ما ذَكَرَ فِرْعَوْنُ مِنْ تَرْبِيَتِهِ لِمُوسَى فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَإِقَامَتِهِ فِيهِ كَأَحَدِ أَفْرَادِ الْقَصْرِ النَّاشِئِينَ فِيهِ، وَاسْتِعْمَلَ اسْمَ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعَ لِلْمِشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى احْتِقَارِهَا بِجَانِبِ الْاِسْتِعْبَادِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَى بَيْنِ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ.

﴿أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أي: أَنْ جَعَلْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبِيداً لَكَ وَلِقَوْمِكَ، بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَقُوَّةِ سُلْطَانِكَ.

وَالْمَعْنَى: أَيْتِلْكَ النُّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرْتَهَا تَصْلُحُ لِأَنْ تَمْتَنَّ بِهَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ جَعَلْتَهُمْ عِبِيداً لَكَ وَلِقَوْمِكَ .

وَطَوَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ بَيَانَ أَنَّ الْمِنَّةَ لِرَبِّي الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنَ الْقَتْلِ الَّذِي فَرَضْتُمُوهُ عَلَيَّ مَوَالِيدِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، إِذْ وَضَعْتَنِي أُمِّي فِي التَّابُوتِ، فَأَوْصَلَهُ رَبِّي إِلَيَّ قُرْبَ شَاطِئِ قَضْرِكُمْ، وَالتَّقَطُّبِي مِنْ طَرَفِ النَّهْرِ بَعْضُ آلِكَ، وَالْقَى مَحَبَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ، وَصَرَفَ نَفُوسَكُمْ عَنْ قَتْلِي مَعَ مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِي، إِذْ تَصَوَّرْتُمْ أَنَّنِي سَأَنْفَعُكُمْ، أَوْ أَنْ تَتَّخِذُونِي وَلِداً مِنْ أَوْلَادِكُمْ بِالتَّبَنِّي .

تِلْكَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ مِنْناً مَنَّتُمْ بِهَا عَلَيَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ، إِنَّمَا نَظَرْتُمْ فِيهَا إِلَى مَصَالِحِكُمْ، مَعَ مُرَاعَاةِ عَوَاطِفِ بَعْضِ آلِكُمْ، إِذْ أَلْقَى رَبِّي مَحَبَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ .

قول الله عز وجل:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رِجْزُكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ :

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانُ حَوَارِ فِكْرِي، انْتَقَلَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ اشْتِقَاقاً مِنْ قَوْلِ مُوسَى وَهَارُونَ لَهُ: ﴿... إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَعَرَضاً عَلَيْهِ وَعَلَى مَلَأَيْهِ وَقَوْمِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَّبِعُوا الدِّينَ الَّذِي حَمَلَهُمَا رِسَالَتَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ؟ :

[مَا] اسم استفهام يستفهم به عَنْ غَيْرِ ذِي الْعِلْمِ، وَيُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْعِلْمِ، وَمِنْ صِفَاتِهِ حَقِيقَةُ ذَاتِهِ .

وقد سأل فِرْعَوْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمقتضى دلالة هذه العبارة، عَنْ حَقِيقَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فأعرضَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ إجابةِ فِرْعَوْنَ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ جَلَّ جلالُهُ وَسَمَتْ عن الإدراكِ ذَاتُهُ، لَأَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِهِ لَا يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ إدْرَاكَهَا، وَلَأَنَّ نُورَ ذَاتِهِ، أَوْ نُوراً مِنْ ذَاتِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ إدْرَاكَهُ بِأَجْهَزَةِ الإدراكِ الَّتِي وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ إياها.

ولَكِنْ أَجابهُ بِعِبَارَاتٍ فِيهَا تَفْصِيلُ أَثَارِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ، الْجَامِعَةِ لَكثيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَاتِ الْعَظِيمَاتِ، كَالْعِلْمِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَكَالْإِرَادَةِ الْحَكِيمَةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ مَا يَشَاءُ، وَالتَّدْبِيرِ الدَّائِمِ الْكَامِلِ لِتَصَارِيفِ الْكَوْنِ، وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

فذكرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضَ مَظَاهِرِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ:

• ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُومَ مُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾.

خاطَبَ مُوسَى عليه السَّلَامُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ مِنْ حَوْلِهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْبَيَانُ.

والمعنى: رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ مَنْ لَهُ الصِّفَاتُ الْجَلِيلَاتُ الْعَظِيمَاتُ الَّتِي مِنْ أَثَارِهَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَلَهُ الْهَيْمَنَةُ عَلَى تَصَارِيفِ كُلِّ ذَلِكَ، وَبِخَلْقِهِ يَتَحَقَّقُ بقاءُ كُلِّ ذَلِكَ فِي الْوُجُودِ وَبِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ يُجْرِي مَقَادِيرَهُ عَلَى وَفْقِ حَكْمَتِهِ، وَشُمُولِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾: أَي: تُؤْمِنُونَ بِهِ وَلَوْ لَمْ تَعْلَمُوا حَقِيقَةَ ذَاتِهِ، مِنْ إدْرَاكِكُمْ لِأَثَارِ صِفَاتِهِ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْكَبِيرِ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُفَكِّرُوا بِالْحَقَائِقِ الَّتِي أَعْرِضُهَا عَلَيْكُمْ، فَتَصِلُوا إِلَى إدْرَاكِ الْحَقِّ، فَتُوقِنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، عَنْ طَرِيقِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، بِالنَّظَرِ فِي لَوَازِمِ خَلْقِهِ لِلْعَالَمِينَ، وَمِنْ الْعَالَمِينَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا.

بدأ مُوسَى عليه السلام في إجابته بإعطاء النَّظَرَةَ الْكَلِيَّةَ الشَّامِلَةَ للعالمين، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ لِهَذَا الْكَوْنِ كُلِّهِ خَالِقاً رَبّاً مُدَبِّراً مُتَصَرِّفاً بِكُلِّ حركاته وسكناته، وَمَا يَجْرِي فِيهِ من تَغْيِرَات، وهو مُقَدَّرُ مقاديرِ كُلِّ شيءٍ فيه .

اليقين: هو العلم الذي لا شكَّ فيه، وأدنى مراتبه ودرجاته ما اعتمدَ على أدلةٍ نظريَّةٍ عقليَّةٍ، أو خبريَّةٍ صادقة لا يعترِها شكٌّ.

وتلزمُ من هذا البيانِ مقالةٌ أخرى تُفهمُ باللزومِ الذهني، وهي: فإذا كنتم غيرَ مستعدين لأنْ تُفكروا فتوقنوا مستقبلاً بالحقِّ الذي أدعوكم إلى الإيمانِ به، مهما قدَّمْتُ لكم من الأدلة، فإنَّ بياني هذا لن يُغيِّرَ مِنْ جُحُودِكُمْ لِرَبِّكُمْ شيئاً.

عندئذٍ استغلَّ فرعونُ عَدَمَ إجابةِ مُوسَى لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ ذاتِ رَبِّ العالمين، فنظر إلى مَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَلَأِ قَوْمِهِ، فقال لهم مَا دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ؟!

أي: أَلَا تَسْمَعُونَ إجابته غيرَ المطابقةِ للسؤال، إِنِّي أَسْأَلُهُ عَنْ ذاتِ رَبِّ العالمين، الذي يَدْعُونَا إلى الإيمانِ به، فلا يجيبني بيانِ حَقِيقَةِ ذاته، وإنَّما يأتي ببعضِ عناصِرِ كونهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فيذكرُ أَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما بينهما.

وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي عَقْلِهِ خَللاً.

فتابعَ مُوسَى عليه السلام بيانه الذي دَلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ :

أي: رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ أَيْضاً رَبُّكُمْ الَّذِي يُمِدُّكُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ

دواماً، وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ مَاتُوا عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَهُنَا اسْتَغْلَ فِرْعَوْنُ جَهْلَ مَعْظَمِ مَلَائِكَةِ بِدَقَائِقِ مَا أَفَادَتْهُ أَجُوبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُسْتَغْلًا مَا فَرَضَهُ مِنْ إِلَهِيَّتِهِ الَّتِي جَعَلَ نَفْسَهُ فِيهَا مَعْبُوداً لِقَوْمِهِ، وَمُسْتَغْلًا خُضُوعَهُمْ وَخُنُوعَهُمْ وَاسْتِسْلَامَهُمْ لِكُلِّ مَا يَقُولُ لَهُمْ مِنْ رَأْيٍ، فَقَالَ لِمَلَائِكِهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٧٧):

قال فرعون هذا الكلام تهكُّماً، وإنكاراً لَأَن يَكُونَ رَسُولاً، أو صالحاً لَأَن يَحْمَلَ رِسَالَةً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا يَدَّعِي.

أي: أنا أسأله عن أشياء مُعَيَّنَةٍ، وهو يجيب بأجوبةٍ بَعِيدَةٍ عَمَّا أَسْأَلُهُ عَنْهُ، وَهَلِيزِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمَجَانِينِ وَأَكَّدَ لَهُمْ جُنُونَهُ بِثَلَاثِ مُؤَكَّدَاتٍ: «إِنَّ - وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ - وَاللَّامُ الْمَزْحَلَقَةُ» أي: بما يَدُلُّ فِي لُغَتِهِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمُؤَكَّدَاتِ.

وَلَمْ يَلْتَفِتْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اتِّهَامِ فِرْعَوْنَ لَهُ بِالْجُنُونِ فِي مُخَاطَبَتِهِ لِمَلَائِكِهِ، بَلْ صَبَرَ عَلَيْهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَتَابَعَ بَيَانَهُ بِقَوْلِهِ الَّذِي دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٨):

كَلِمَتَا «الْمَشْرِقِ» و«الْمَغْرِبِ» تَضْلُحَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَتَضْلُحَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَدَثِ كَمُضَدِّرٍ مِمِّيٍّ، إِذْ خَرَجَا عَنْ قَاعِدَةِ «مَفْعَلٍ» بَفَتْحِ الْعَيْنِ فِي اسْمِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْمَدَبِّرُ وَالْمَتَصَرِّفُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِمَكَانِ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَلِزَمَانِهِ، وَلِشُرُوقِهَا، وَحَرَكَتِهَا، وَمَسِيرَتِهَا، وَهُوَ

المدبّر والمتصرّف بصفات ربوبيّته لكان غروب الشمس ولزمانه، ولغروبها، ولظهور الليل والكواكب فيه. وهو ربّ كلّ ما بين المشرق والمغرب من أشياء، وناميات، ورياح وسحب، وقوى ظاهرة أو خفية، وظلمة وضياء، وأحياء وبشر، وغير ذلك.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾: أي: تذكرون حقيقة ربوبيّته للمشرق والمغرب وما بينهما، إن كنتم تعملون أذهانكم في التّفكّر في هذه الظواهر الكونية، وكلّما توصّلتم إلى حقيقة عقلموها بعقال في جهاز المعرفة لديكم، وهي تنقلكم إلى حقيقة بعدها في سلاسل متماسكة مترابطة متعاقدة، حتّى تذكروا أنّ الله الخالق هو ربّ كلّ شيء في الكون والمتصرّف فيه بتدبيراته الحكيمة، وهو المحرّك دوماً لكلّ متحرّك فيه، والمُسكّن لكلّ ساكن فيه، وهو القدير على إيجاد ما يشاء، وإعدام ما يشاء، وحسبكم أن تدلّكم الظواهر على صفاته، وما لكم وللبحث عن ذاته التي لستم مؤهلين بالأجهزة التي خلقها لكم لإدراكها؟ وهل تستطيعون إدراك كلّ شيء في الكون؟ ألا توجد أشياء تؤمنون بوجودها كأرواحكم وقدرات المعرفة فيكم وأنتم لا تعرفون حقيقة ذاتها؟.

كلّ هذه المعاني هي من لوازم عبارة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾.

وهنا أدرك فرعون أنّه يُناظر رجلاً ذا عقل كبير وحجج دامغة، وخشي أن يدرك ملؤه غمق حججه وبراهينه الدقيقة والمحكمة، فضاقت صدره، ولم يجد لديه إلا وسيلة التهديد الأولى بالسجن فقال له ما دلّ عليه قول الله عز وجل في الآية التالية:

﴿قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لَآجَعَلَنكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾: ﴿١٩﴾

أي: قال فرعون لموسى عليه السلام: لئن اتخذت عبوداً تُطيعه وتعبدّه غيري، لأجعلنك في السجن مع المسجونين من العصاة

والمجرمين. اللام في ﴿لَيْنَ﴾ مُوطئة للقسم، أي: أقسم لئن اتَّخَذْتَ معبوداً غيري لأُسْجِنَنَّكَ.

وهُنَا جَاءَ دَوْرُ مَا آتَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خَوَارِقِ أَوْلَى، وَهُمَا آيَتَا الْعَصَا وَالْيَدِ، لِإِخَافَتِهِ وَرَدْعِهِ عَنْ أَنْ يَتَصَرَّفَ تَصَرُّفاً فِيهِ إِذَاءَ لَهُ وَلِأَخِيهِ هَارُونَ، فَقَالَ لَهُ مَا جَاءَ بِيَانُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

• ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) ؟.

الواو بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ تَعْطِفُ عَلَى مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ مِنَ اللَّفْظِ، وَمُدْرِكٍ فِي الذَّهْنِ، أَي: أَتَأْمُرُ بِسُجْنِي وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ عَظِيمٍ، يُبَيِّنُ لَكَ أَنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقًّا وَصِدْقًا؟.

فَأَجَابَ فِرْعَوْنُ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ التَّالِيَةُ:

﴿قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) :

أَي: فَاتِّبِعْهُ الْآنَ بِهَذَا الشَّيْءِ الْمُبِينِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَأَجْرَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَعْطَاهُ رَبُّهُ وَأَذِنَ لَهُ بِإِجْرَائِهِ، وَهُمَا آيَتَا الْعَصَا وَالْيَدِ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:

• ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ (٣٣) :

أَي: فَأَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ، فَقَلَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ فَجَعَلَهَا ثُعْبَانًا مُخِيفًا، فَقَاجَأَتْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ بِتَحْوِيلِهَا ثُعْبَانًا وَاضِحًا جَلِيًّا مُرْعِبًا مُخِيفًا.

وَأَدْخَلَ يَدَهُ السَّمَرَاءَ فِي جَنِبِهِ (أَي: فِي فُتْحَةِ ثَوْبِهِ عِنْدَ صَدْرِهِ) إِلَى إِبْطِهِ، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ بَيْضَاءَ، وَأَخْرَجَهَا فَقَاجَأَتْ الْقَوْمَ بِتَحْوِيلِهَا بَيْضَاءَ مُتَلَأِّلَةً كَالْبَرْقِ اللَّامِعِ.

وَأَذْهَسَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فِي مَجْلِسِهِ،
وَأَذْرَكَ فِرْعَوْنَ قُوَّةَ تَأْثِيرِهِمَا عَلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَذَرِكَ
المَوْقِفَ الصَّعْبَ، فَقَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ مَا جَاءَ بَيَّانُ مَعْنَاهُ فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:
﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
يَسْخِرُوهُ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾.

أي: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَجْرَاهُ هُوَ مِنْ قَبِيلِ السُّحْرِ، وَلَيْسَتْ آيَتَيْنِ أَجْرَاهُمَا
- كما يَزْعُمُ - رَبُّ الْعَالَمِينَ، لِإثباتِ صِحَّةِ دَعْوَاهُ بِأَنَّهُ نَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، بِدَلِيلِ
أَنَّهُ يُطَالِبُ بَأَن نَأْذَنَ لَشَعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالخروج من مِصْرَ بِقِيَادَتِهِ وَقيادةِ
أَخِيهِ هَارُونَ، هَذَا يَجْعَلُنَا نُذْرِكَ أَنَّهُ يُرِيدُ تَكْوِينَ جَيْشٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
خَارِجَ مِصْرَ، لِيَرْجِعُوا وَيُقَاتِلُونَا وَيُخْرِجُونَا مِنْ أَرْضِنَا وَمُلْكِنَا وَأَمْوَالِنَا،
وَيَكُونُوا هُمْ ذَوِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فِي مِصْرَ، وَعِنْدَئِذٍ يُنْكَلُونُ بِنَا قَتْلًا
وَاستعبادًا، انْتِقَامًا مِنَّا لاسْتِعْبَادِنَا لَهُمْ، وَوَسِيلَتُهُ الْآنَ فِي إِخَافَتِنَا هِيَ السُّحْرُ
الَّذِي جَاءَنَا بِهِ.

وَعَقِبَ هَذَا اسْتَشَارَ فِرْعَوْنَ مَلَأَهُ قَائِلًا لَهُمْ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟﴾ أي:
فَمَا الشَّيْءُ الَّذِي تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيَّ، يُقَالُ لُغَةً: «أَمَرَ فُلَانًا بِشَيْءٍ» أي: أَسَارَ
بِهِ عَلَيْهِ.

فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِمَا جَاءَ بَيَّانُهُ فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾.

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: «أَرْجِئْهُ» والمعنى: أَخْرِجْهُ وَأَجْلِّهِ، يُقَالُ لُغَةً: «أَرْجَأَهُ،
يُرْجِئُهُ» أي: أَجْلَّهِ، أَوْ جَعَلَ لَهُ أَجَلًا.

أي: اجْعَلْ لَهُ وَلِأَخِيهِ أَجَلًا مُحَدَّدًا، لِإِجْرَاءِ مَبَارَاةِ سِحْرِيَّةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
سَحَرَةِ مِصْرَ، وَأَرْسِلْ مَبْعُوثِينَ مِنْ قَبِيلِكَ، لِلْبَحْثِ فِي الْمَدَائِنِ الْمِصْرِيَّةِ عَنْ

كُلُّ سَحَّارٍ عَلِيمٌ مَاهِرٌ فِي السَّحْرِ، وَحَاشِرِينَ إِلَيْكَ مَنْ يَجِدُونَ مِنْهُمْ فِي مَضْرٍ، وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ بِهِمْ، إِعْدَاداً لِلْمُبَارَةِ الَّتِي تُقِيمُهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

وسبق بيان وجوه القراءات في ﴿أَرْجِهْ﴾ لدى نصّ السورة.

﴿سَحَّارٍ﴾: صيغة مُبَالَغَةٍ لصيغة «سَاحِرٍ» وهي إحدى قراءتين في النصّ الذي في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

أي: اخشُرْ كُلَّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ، وَكُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

الحشر: هو في اللّغة الجمعُ والسُّوق.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾:

• ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢٨): أي: فَجَمَعَ جُنُودَ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ، لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ زَمَاناً وَمَكَاناً، فَصَارَ مَعْلُوماً لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُ الْمُبَارَاةِ.

﴿لِمِيقَاتِ﴾: اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ، وَفِي الْعِبَارَةِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: لِحَضُورِ الْمُبَارَاةِ فِي مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ.

المِيقَاتِ: الْوَقْتُ الْمَعْيَّنُ لِفِعْلِ مَا، وَالْمَوْعِدُ الَّذِي جُعِلَ لَهُ وَقْتُ مَا، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي جُعِلَ لشيءٍ يُفْعَلُ عِنْدَهُ.

• ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾؟

أي: وَقَالَ مُذِيعُو نَبَأِ الْمُبَارَاةِ عَلَى سَبِيلِ الْعَرْضِ لَا الْإِلْزَامِ لَجَمَاهِيرِ الْمَضْرِبِينَ: هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ؟

وفي هذا العرض بأسلوب الاستفهام ترغيب في الحضور .
واقترن بإذاعة النبأ توجيه عبارة الرجاء باتباع السحرة لتعلم السحر
منهم، إن كانوا هم الغالبين في المباراة بينهم وبين موسى الذي يقول: إن
ما جاء به هو من آيات رب العالمين؛ الذي يدعو إلى الإيمان به،
والإسلام له، واتباع دينه، هو وأخوه هارون.

قول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

دلّت هاتان الآيتان على أن فرعون دعا من جمع وساق من المدائن
المضرية إلى مجلسه، أو حضر إلى المكان الذي جمعهم فيه في عاصمته،
وعرض عليهم الغرض الذي جمعهم من أجله، وهو إجراء مباراة بينهم
وبين الإسرائيلي موسى، الذي يسحر عصاه فتصير ثعباناً مخيفاً.

ولما كان السحرة لا يجرون أعمالهم السحرية إلا بأجر، قالوا
لِفِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟.

أي: أنعطينا أجراً يكافئ المال والجهد الذي نبذله لإجراء أعمالنا
السحرية، إن كنا نحن الغالبين بسحرنا ما يأتي به موسى؟.

فأجابهم فرعون فوراً قائلاً لهم: ﴿نَعَمْ﴾ وقرىء [نعم] وزادهم
إطماعاً قائلاً لهم: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأجعلكم حينئذ من
المقربين عندي، من حاشية قصري أمنحكم من منحي، وأجيب طلباتكم،
وأحقق رغباتكم.

وطوى النص هنا أحداثاً، منتقلاً إلى أحداث إجراء المباراة في
الميقات الذي تم تحديده، والتقط منها لقطات لبيانها هنا في السورة،
فقال الله عز وجل:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَالَهُم وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ :

قول موسى لهم: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ جاء جواباً لعرضهم الذي
جاء بيانه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وفي سورة (طه/ ٢٠
مصحف/ ٤٥ نزول) وطوي هنا في (الشعراء).

أي: اطرخوا في ساحة المباراة ما عندكم من كيدٍ سحريٍّ أعدتُموه
لها، فإنا متحديكم، وقابلٌ تحدّيكم.

لقد طلب منهم أن يلقوا أولاً ليتسنى له إبطال كيدهم كله بسرعةٍ
مذهلة، واستغل لهذا تخييرهم له.

فطرح السحرة في ساحة المباراة أدواتهم السحرية، حبالهم
وعصيتهم، وأقسموا بقوة فرعون الإلهية الغالبة لكل القوى، قائلين بعد
القسام جواباً له: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فأكدوا عبارتهم هذه بأربع مؤكدات:
«إِنَّ - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة - ضمير الفصل».

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: بقوة فرعون الغالبة، المادية والمعنوية، إذ جعل
فرعون نفسه إلهاً لشعبه.

العِزَّة: القُوَّة الغالبة.

وبعد أن ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيتهم وأجروا أعمالهم
السحرية، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم، كما جاء في غير هذه
السورة، ألقى موسى عليه السلام عصاه كما قال الله تعالى في هذه
السورة:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ :

أي: فانقلبَت بِأمرِ الله التكويني عصا موسى عليه السلام حيَّة

عظيمة، وفاجأت المشاهدين بأنها شرعت تبتلع ابتلاعاً حقيقياً ثعابين السحرة التي هي في الحقيقة ما زالت حياً وعصياً.

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تتناول بسرعة في فمها فتبتلعه. يقال لغة: «لَقَفَ الشيء، يَلْقِفُهُ، لَقْفًا، وَلَقْفَانًا، أي: تناوله بسرعة، وأخذه بفمه فابتلعه. وقرئ [وَتَلْقَفَ] يَلْقِفُهُ، لَقْفًا، وَلَقْفَانًا، أي: تناوله بسرعة، وأخذه بفمه فابتلعه. وقرئ [تَلْقَفُ] أي: تبتلع بشدة وسرعة.

واجتهَد السحرة اجتهاداً بالغاً للمحافظة عليها موجودة في ساحة المباراة، ومنع حيّة موسى من ابتلاعها فخابوا ولم يفلحوا، وقد كان هذا الاجتهاد مُرافقاً لابتلاعها حبالهم وعصيهم بدلالة الفعل المضارع في عبارة: ﴿مَا يَأْكُونُ﴾: أي: وهم ما زالوا يُجدّدون أعمالهم السحرية الكواذب، التي تعتمد على كذب خداعي للأعين، وليس له حقيقة في الواقع.

«الإفك»: الكذب قولاً أو عملاً، يقال لغة: «أفك، يَأْفِكُ، أفكاً، وإفكاً، وأفوكاً - وَأَفُوكَا - وَأَفُكُ يَأْفِكُ أفكاً» أي: كذب.

وعَجَزَ السحرة عن اتخاذ أي شيء حبال العصا المنقلبة حيّة حقيقية، وابتلاعها كل أدواتهم السحرية، وأدركوا أنها آية من آيات خالق الكون، رب العالمين، فخرّوا ساجدين مُعلنين إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون.

قال الله عز وجل:

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

جاء الفعل في: ﴿فَأَلْقَى﴾ مبنياً لما لم يسم فاعله، للدلالة على أن سلطان آية الله بابتلاع كل ما صنع السحرة، جعلتهم يتلقائية مفسورين على أن يخرّوا ساجدين لله رب العالمين، مُجري هذه الآية العظيمة لموسى عليه السلام.

والفاء في العبارة دَلَّتْ على أَنَّهُمْ خَرُّوا سَاجِدِينَ عقب ابتلاع العصا
الْمُنْقَلِبَةِ حَيَّةً كُلَّ مَا صَنَعُوا، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ تَلَكُّوْ وَلَا تَرِيْثٌ، اِنْدِهَاشاً
بِالْحَدَثِ، وَمُعْتَرِفِينَ بِالْخِيَةِ، وَأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ حَقًّا.

﴿سَاجِدِينَ﴾: أي: حالة كَوْنِهِمْ سَاجِدِينَ حِينَ أُلْقُوا.

السُّجُود: يكونُ لغةً بِإِخْنَاءِ الظَّهْرِ وَتَطَامُنِهِ، وَأَقْصَاهُ يَكُونُ بَوْضِعَ
الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

يَحْكِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ إِعْلَانَهُمْ إِيمَانَهُمْ بِاللّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ، الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ مُوسَى وَهَارُونَ.

وَالْمَرَادُ هُنَا مِنْ كَوْنِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَوْنُهُ رَبِّ كُلِّ مَا فِي الْوُجُودِ
سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَأَنَارَ سُجُودَهُمْ وَإِعْلَانَهُمْ الْإِيمَانَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ،
غَضَبَ فِرْعَوْنَ وَسَخَطَهُ الشَّدِيدَ، فَقَالَ لَهُمْ مَا أَبَانَتْهُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ:

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْمَلُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيَّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى بَيَانِ ثَلَاثِ قَضَايَا وَجَّهَهَا فِرْعَوْنُ لِسَحَرَتِهِ
الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَآمَنُوا بِمُوسَى وَأَسْلَمُوا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ لِمَا قَالَه فِرْعَوْنُ
لِلْسَّحَرَةِ: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ﴾:

فَعَلَ «آمَنَ» يَتَعَدَّى بِحَرْفِ الْجَرِّ «الْبَاءِ» فَيُقَالُ لُغَةً: «آمَنَ بِهِ» أَي:
اعْتَقَدَهُ اعْتِقَادًا قَلْبِيًّا جَازِمًا بِهِ، فَلَمَّا ذَا عُدِّيَ هُنَا بِاللَّامِ؟.

أَقُولُ: ضُمِّنَ فَعَلَ «آمَنَ» مَعْنَى فَعَلَ «أَسْلَمَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَّتُهُ، فَصَارَ

المعنى: آمَنْتُمْ بِهِ وَأَسْلَمْتُمْ لَهُ، وبهذا التضمن مع التعدية التي تلائم الفعل المضمر غير المذكور في اللفظ، أغنت الجملة الواحدة عن جملتين، وهذا من روائع الإيجاز القرآني.

ويقال في التقدير: آمَنْتُمْ بِهِ مُسْلِمِينَ لَهُ.

ودلت عبارة ﴿بَلْ أَنْ أَدْنَى لَكُم﴾ على أَنَّ من نظام الحكم الفرعوني، أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ رَعِيَّةِ فِرْعَوْنَ، أَنْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ عَلَى خِلَافِ دِينِ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ الَّذِي يَقْضِي بِهِ فِرْعَوْنُ، وَمِنْهُ الصَّلْبُ بَعْدَ تَقْطِيعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافِ.

فالدين في نظامه تُجْبَرُ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ بِسُلْطَانِ الْقُوَّةِ.

«الإذن» يأتي في اللغة بمعنى «العلم». ويأتي بمعنى «الإباحة» وهذا المعنى الثاني هو الملائم هنا.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حكاية لمعنى مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِلْسَّحَرَةِ: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾:

في هذا القول حُكْمٌ عَلَيْهِمْ بِإِذَانِهِ افترائية، قَرَّرَ فِيهَا فِرْعَوْنُ أَنَّ مَا جَرَى قَدْ كَانَ مُؤَامَرَةً مُدَبَّرَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَى، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ مَعَهُ عَلَى أَنْ يُظْهِرُوا عَجْزَهُمْ، وَأَنْ يَغْلِبَ سِحْرُهُ سِحْرَهُمْ، وَأَنْ يَخْرُوا سَاجِدِينَ مُعْلِنِينَ إِيمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ. إِذْ هُوَ كَبِيرُهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السَّحْرَ، وَاتَّفَقُوا مَعَهُ عَلَى أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَهُ فِي حُكْمٍ مُضَرٍّ، بَعْدَ إِسْقَاطِ حُكْمِ فِرْعَوْنَ.

ويظهر أَنَّ فِرْعَوْنَ أَعْلَنَ هَذَا لِإِقْنَاعِ جَمَاهِيرِ الْمُضْهِرِينَ بِأَنَّ مَا جَرَى مُؤَامَرَةً مُدَبَّرَةً، حَتَّى لَا يَنْسَاقُوا وَرَاءَ السَّحَرَةِ فَيُؤْمِنُوا بِمُوسَى نَبِيًّا وَرَسُولًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُسَلِّمُوا لَهُ، وَبِذَلِكَ يَفْلَتُ زَمَامُ الْأَمْرِ مِنْ يَدِهِ جَمَاهِيرِيًّا، مَعَ أَنَّ مَا أَعْلَنَهُ لَيْسَ لَهُ أَمَارَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ مُوسَى خَارِجَ مُضَرٍّ فَارًّا مِنْ الْقَتْلِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَى مَا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ مِنْ عِقَابٍ: ﴿فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا أَفْطِنُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَابَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩):

في هذا بيان أن فِرْعَوْنَ أَكَّدَ عَزْمَهُ عَلَى مُعَاقَبَتِهِمْ بِمَا جَاءَ فِي هَذَا الْقَوْلِ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ بَيْنَ الْوَعِيدِ وَبَيْنَ التَّنْفِيزِ فُسْحَةً دَلَّتْ عَلَيْهَا أَدَاةُ التَّسْوِيفِ الطَّوِيلِ «سَوْفَ» رَجَاءً أَنْ يَتُوبُوا، وَيَعُودُوا إِلَى حَظِيرَتِهِ، سَدَاداً لِمُلْكِهِ الْقَاهِرِ لَجْمَاهِيرِ الْقَبْطِ، وَالْمُسْتَعْبِدِ لِلْإِسْرَائِيلِيِّينَ.

فالعبرة على تقدير: إِنْ لَمْ تَتُوبُوا وَتَرْجِعُوا إِلَى حَظِيرَتِي.

وجاء الوعيد مؤكداً باللام الواقعة في جواب قَسَمٍ مِنْوِي، ومؤكداً بنون التوكيد الثقيلة في ﴿لَا أَفْطِنُ﴾ و﴿لَا أَصْلَابَكُمْ﴾ وبلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

تَقْطِيعُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ يَكُونُ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُمْنَى. وَالرَّجْلِ الْيُسْرَى، أَوْ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُسْرَى وَالرَّجْلِ الْيُمْنَى، وَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّشْوِيهِ الْعِقَابِيِّ فِي الْأَعْضَاءِ، أَخْفَتْ ضَرَرًا مِنْ قَطْعِ الْيُمْنَى مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا، أَوْ الْيُسْرَى مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا، لِأَنَّ السَّالِمَةَ تُعِينُ الْمَقْطُوعَةَ مِنْ جِهَتِهَا.

وَزَادَ فِرْعَوْنُ فِي تَوَعُّدِهِ وَتَهْدِيدِهِ، فَأَعْلَنَ لِسَحَرَتِهِ أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ مُقْطَعِي الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ زَمَنًا يُعَذِّبُونَ فِيهِ، ثُمَّ لِيُصْلَبْنَهُمْ أَجْمَعِينَ، تَصْلِيبًا عَنِيفًا شَدِيدًا يَكُونُ بِهِ تَعْذِيبُهُمْ وَمَوْتُهُمْ صَبْرًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ بِهِ التَّشْهِيرُ بِهِمْ أَمَامَ الْعَادِينَ وَالرَّائِحِينَ مِنَ الشَّعْبِ الْمَضْرِيِّ وَغَيْرِهِمْ، لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ دِينِ الْمَلِكِ وَنِظَامِ حُكْمِهِ.

الصَّلْبُ: شَدُّ أَطْرَافِ الْجِسْمِ، وَتَغْلِيقُهُ عَلَى خَشَبَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِالصَّلِيبِ، وَتَكُونُ عَلَى شَكْلِ سَطْرِ قَائِمٍ عَمُودِيٍّ، وَسَطْرٍ آخَرَ يُوضَعُ وَسْطُهُ عَلَى السَّطْرِ الْقَائِمِ دُونَ رَأْسِهِ بَنَحْوِ الرَّبْعِ.

وقد يكونُ هذا الصَّلْبُ على سُوْقِ شَجَرٍ ذَوَاتِ سُوْقٍ مُرْتَفَعَةٍ عَالِيَةٍ،
كَالنَّخْلِ، وَالسَّرْوِ، وَنَحْوِهِمَا.

قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لمعنى ما أجاب به السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى
تَوَعُّدِهِ لَهُمْ:

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا
أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا نعتبرُ ما ستنزلهُ بنا بمقتضى تهديدك ضارًّا
لنا، بل هو سيزيدنا عند ربنا سعادةً وأجرًا عظيمًا، وما نلقاهُ من جنودك
وزبائنك لا يزيدُ في اعتبارنا على كونه أذى.

يقال لغة: «ضَارُهُ يَصِيرُهُ أَمْرٌ كَذَا» و«ضَارُهُ يَصُورُهُ» أي: أضَرَّ به.

إِنَّ السَّحَرَةَ مِنْذُ أَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ، قَدْ صَارَتْ لَدَيْهِمْ بَصِيرَةٌ
إِيمَانِيَّةٌ نَفَّاذَةٌ، وَتَعَلَّقَ كَامِلٌ بِالْآخِرَةِ، وَاسْتَهَانَتْ بِالْدُّنْيَا وَبِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ
مَسَرَّاتٍ وَمَكَارِهِ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ وَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاجِعُونَ.

يُقَالُ لُغَةً: «انْقَلَبَ» أَي: رَجَعَ، وَانْصَرَفَ.

وفي عبارتهم هذه كنايةٌ عَنْ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ بِرَحْمَتِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ
سَوْفَ يَشْمَلُهُمْ بِالْغَفْرَانِ وَالْإِسْعَادِ، وَيُفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ هِبَاتِهِ وَعَطَايَاهُ خَيْرًا
عَظِيمًا، وَيُدْخِلُهُمْ فِي جَنَّتِهِ، فَيَمْنَحُهُمْ فِيهَا سَعَادَةً أَبَدِيَّةً خَالِدَةً.

وقالوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

لَقَدْ أَدْرَكَ السَّحَرَةُ أَنَّ لَهُمْ خَطَايَا كَثِيرَةً سَبَقَ أَنْ ارْتَكَبُوهَا، وَلَا سِيَّمَا
أَعْمَالُ السُّحْرِ وَوَسَائِلُهُ الَّتِي كَانُوا يُمَارِسُونَهَا، فَهَمُ إِذَا صَبَرُوا عَلَى الْعَذَابِ
الَّذِي يَتَوَعَّدُهُمْ فِرْعَوْنُ بِهِ، فَإِنَّهُمْ يَظْمَعُونَ فِي أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ رَبُّهُمْ خَطَايَاهُمْ

بَسَبَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْقَبْطِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَهَارُونُ عَنْ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ وَاقِعِ الشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ، أَمَّا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَعْلَنَ إِيمَانَهُ.

﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: بأن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ. والباءُ الْمُقَدَّرَةُ قَبْلَ «أَنْ» سَبِيَّةٌ.

والمعنى: لَقَدْ سَبَقَ أَنْ كَانَ مِنَّا خَطَايَا كَثِيرَةٌ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَنَظْمَعُ الْآنَ فِي أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا، بِسَبَبِ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقَبْطِ.

وَلَزِمَ ذِكْرُ قَيْدِ الْقَبْطِ، لِأَنَّ السَّحَرَةَ يَعْلَمُونَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَسَائِهِمْ سَبَقَ أَنْ آمَنُوا بِمُوسَى وَهَارُونَ نَبِيِّنِ وَرَسُولَيْنِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَآمَنُوا بِالَّذِينَ الَّذِينَ جَاءُوا بِهِ عَنْهُ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّابِقِينَ إِلَى الْإِيمَانِ، أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ.

قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَسْرَٰءَ يَوْمَ بَدْرٍ إِنَّهُمْ لَمُنْكَرُونَ ۝٥٢﴾:

قَفَزَ النَّصُّ هُنَا فِي (الشُعْرَاءِ) إِلَى بَيَانِ رِحْلَةِ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ مِنْ مِصْرَ، وَطَوَيْتُ أَحْدَاثَ كَثِيرَةً بَيْنَ حَدِيثِ الْمُبَارَاةِ مَعَ السَّحَرَةِ، وَحَدِيثِ الْخُرُوجِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ أَحْدَاثٍ مِنْهَا فِي نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُخْرَى مِنْ سُورٍ غَيْرِ (الشُعْرَاءِ) سَبَقَ بَيَانُهَا فِي تَدْبِيرِ سُورَةِ (طه).

• قرأ نافع، وأبْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ: [أَنْ أَسْرَ] بَوَضِلِ الْهَمْزَةِ، وَكَسْرِ النُّونِ فِي الْوَصْلِ، مِنْ فِعْلِ «سَرَى يَسْرِى» يُقَالُ لُغَةً: «سَرَى بِفُلَانٍ لَيْلًا» أَيْ: جَعَلَهُ يَسِيرُ فِيهِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ أَسْرَ] بِإِسْكَانِ النُّونِ، وَقَطْعِ هَمْزَةِ

«أَسْرَ» من فعل: «أَسْرَى يُسْرِى». يقال لغة: «أَسْرَى اللَّيْلَ وَبِهِ يُسْرِى» أي: سَرَى. ويُقال أيضاً: «أَسْرَى فُلَانًا، وَأَسْرَى بِهِ» أي: سَرَى بِهِ.

فالقراءتان لغتان متكافئتان.

أي: سَرِبَهُمْ لَيْلًا. السَّرَى: المشي في الليل.

فالمعنى: وَأَبْلَغْنَا مُوسَى عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ أَمْرًا بِأَنْ يَخْرُجَ لَيْلًا مع بني إسرائيل من مِصْرَ، فخرج بهم باتجاه سيناء.

[أَنْ أَسْرَ]: «أَنْ» تفسيريّة بمعنى «أي» وما بَعْدَهَا يُفَسِّرُ مَا هُوَ مُبْهَمٌ في عبارة [وَأَوْخِينَا] ويجوزُ أي تكون «أَنْ» مخففة من الثقيلة، واسمها ضَمِيرُ الشَّانِ محذوفٌ وجوباً كما يَقُولُ النحويّون، وتقديره، أَنَّ الشَّانَ العظيمَ الخطيرَ هُوَ أَمْرُنَا لَكَ بِأَنْ تَسْرِيَ لَيْلًا بعبادي بني إسرائيل.

﴿بِعِبَادِي﴾: الباء الجارة هُنَا للتعدية، لأنّه يقال لغة: «أَسْرَى فُلَانًا وَأَسْرَى بِهِ، أي: جعله يَسِيرُ لَيْلًا.

ووصف الله عزّ وجلّ جُمهُور بني إسرائيل الخارجين مع موسى عليه السّلام بأنّهم عباده على معنيين:

المعنى الأول: العُبوديّة الاختياريّة والجبريّة معاً، وهذه تلائم مَنْ كان قد آمَنَ فِعْلاً من بني إسرائيل بموسى عليه السّلام، وبما جاء به عَنْ رَبِّهِ.

المعنى الثاني: العبوديّة الجبريّة فقط، وهذه تلائم الَّذِينَ لم يُؤْمِنُوا به بَعْدُ من بني إسرائيل، ولم يُسْلِمُوا، وَقَدْ خَرَجُوا مَعَهُ خُرُوجاً قَوْمِيّاً، لا انتماءً دينيّاً.

بدليل ما جاء في الآية (٨٣) من سورة (يونس/ ١٠) مصحف/ ٥١ نزول) من أنّه لم يُؤْمِنْ لموسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ.

وَأَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى بِقَوْلِهِ لَهُ: ﴿إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ أَنْ فِرْعَوْنَ وَجَيْشاً مَعَهُ سَيَتَّبِعُونَهُمْ لِقَاتِهِمْ، وَرَدَّ جُمْهُورَهُمْ إِلَى الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِذْلَالِ.

ولهذا الإعلام لوازم فِكْرِيَّةٌ، أي: وَلِكِنِّي سَأَتَوَلَّى إِنْقَادَكُمْ وَتَنْجِيَّتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بِمَا أَشَاءُ مِنْ وَسَائِلِي فَلَا تَخَفْ مِنْ اتِّبَاعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ، وَكُنْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ مَطْمَئِنِّينَ لَتَذْيِيرِي، وَقَضَائِي وَقَدْرِي.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣):

أي: فَلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ دُونَ إِذْنٍ مِنْهُ، أَرْسَلَ قُوَّاداً مِنْ قَبْلِهِ حَاشِرِينَ جُنُودَ قِتَالٍ فِي الْمَدَائِنِ الْمَضْرِيَّةِ، مِنْ كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ، لَتَكُونِ جَيْشٌ كَبِيرٌ، يُتَابِعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْفَارِّينَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالْمَرَادُ رَدُّ جَمَاهِيرِهِمْ إِلَى الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ، بَعْدَ قَتْلِ زُعَمَائِهِمُ الَّذِينَ قَادُوا أَسْبَاطَهُمْ فِي الْخُرُوجِ، وَمَنْعُهُمْ مِنْ تَكْوِينِ جَيْشٍ خَارِجٍ مِصْرَ، وَمِنْ عَوْدَتِهِمْ مُقَاتِلِينَ لِلْأَسْتِيلَاءِ عَلَى حُكْمِ مِصْرَ، بِقِيَادَةِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَى مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ خَطَبَ فِي الْجَيْشِ الَّذِي جَمَعَهُ وَسَاقَهُ مُحَرَّضاً عَلَى الْمَسِيرِ لِقِتَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَوْ خَطَبَ مُوجِهاً كَلَامَهُ لِعُمُومِ الشَّعْبِ.

• ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤):

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾: الْمَشَارُ إِلَيْهِمْ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ فَرَّوْا مِنَ الْإِسْتِعْبَادِ وَالْإِذْلَالِ الْفِرْعَوْنِيِّ وَالْقِبْطِيِّ.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: أي: لَجَمَاعَةٌ ضَعِيفَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَلِيلُونَ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى الْقِتَالِ، فَالسَّيْطَرَةُ عَلَيْهِمْ سَهْلَةٌ ميسُورَةٌ.

وَتُجْمَعُ «شِرْذِمَةٌ» على «شَرَاذِمَ». وَيُطْلَقُ لفظ الشِرْذِمَةِ في اللُّغَةِ على الْقِطْعَةِ مِنَ الشَّيْءِ. ويقال لغة: «ثِيَابٌ شَرَاذِمٌ» أي: ثِيَابٌ مُمَزَّقَةٌ بِالْيَدِ خَلَقَةً.

وقد جاء تأكيد العبارة بالمؤكدات: «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللام المَرْحَلَةُ» وهذه تَرْجَمَةٌ لما يُسَاوِيها في لغة فرعون.

قول الله عز وجل متابعاً حكاية معنى ما قاله فرعون لجيشه في خُطْبَتِهِ:

﴿وَأَنتُمْ لَنَا لَعَّاطُونَ﴾:

«الغيط»: الغَضَبُ الشديد، يُقَالُ لغة: «غَاظَهُ، يَغِيظُهُ، غَيْظًا» أي: أَغْضَبَهُ أَشَدَّ الغَضَبِ. ويقال أيضاً: «أَغَاظَهُ يُغِيظُهُ».

والمعنى: إِنَّ هؤلاء الإسرائيليين قَدْ أَغْضَبُونَا أَشَدَّ الغَضَبِ بَتَصَرُّفَاتِهِمْ، وبخُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ دُونَ إِذْنِ مِنَّا، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْ رُعَمَائِهِمْ وَتَأْدِيبِ جَمَاهِيرِهِمْ.

خَاطَبَ فرعونُ قَوْمَهُ بِضَمِيرِ المتكلم العظيم، إِذِ ادَّعَى لِنَفْسِهِ الْإِلَهِيَّةَ وَالرُّبُوبِيَّةَ.

وجاء تأكيد عبارته بالمؤكدات: «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللام المَرْحَلَةُ» لتدلَّ على عبارته التوكيدية في لغته.

قول الله عز وجل متابعاً حكاية معنى ما قاله فرعون لجيشه في خُطْبَتِهِ:

﴿وَأَنَا لَجَمِيعٍ حَازِرُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [حَازِرُونَ] جَمْعُ

حَازِرٍ، مُبَالِغاً فِي بَيَانِ شِدَّةِ حَازِرِهِ فِي عِبَارَةِ لَا حِقَّةَ لِلأُولَى.

أي: خَائِفُونَ عَلَى مُلْكٍ مِصْرَ، وَعَلَى الشَّعْبِ الْقِبْطِيِّ مِنْ خُرُوجِهِمْ،

إِذْ قَدْ يُكُونُونَ خَارِجَ مِصْرَ جِيشًا قَوِيًّا، ثُمَّ يَرْجِعُونَ مُقَاتِلِينَ، لانتزاع الحكم بالقوة، واستعباد الشعب القبطي بقوة السلطان، انتقاماً من استعباده لهم بسُلطاننا الفرعوني.

هذا ما دلت عليه عبارة: ﴿الْجَمِيعُ﴾: أي: المَلِكُ، ورجال دولته، وسائر القبط في مصر.

والعبارة مؤكدة كسابقها.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾:

وفي قراءة أخرى: [وَعُيُونٍ] بِكسر العين.

تحدث الله عز وجل في هاتين الآيتين عن حكمته في تدبيراته. للانتقام من فرعون وجنوده.

أي وكان في إغرائهم وتهيجهم منا لنفوسهم وقلوبهم، وإحداث الغضب الشديد فيها، والرغبة في متابعة بني إسرائيل الضعفاء، أن أخرجنا فرعون وآله، وعليه قومه، مما يملكون من جنات وعيون ماء جاريات، ومما يملكون من كنوز ذهبية وغيرها، جمعوها بقوة سلطانهم في مصر، وأخرجناهم من مقام كريم، كانوا فيه مكرمين مفضلين أعزاء، ذوي علو في أرض مصر، وهو مقام سلطتهم التي هي لهم في عموم مصر.

﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع «جنة» وهي الحديقة المكتظة بالأشجار، فهي سائر لما تحتها من أرض وأشياء وأحياء.

﴿وَمَقَامٍ﴾: المقام: يُراد به المكان المعنوي الرفيع، الذي كانوا فيه أهل ولاية وحكم وسُلطان.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: مُفَضَّلٌ على ما سواه من الأمكنة المعنوية.

قول الله عز وجل:

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾ (٥٩)

تَبَادَرَ لِأَذْهَانٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ، مَا كَانَ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَعَلِيَّةِ قَوْمِهِ فِي مِصْرَ، فَفَقَهُمُوا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى وَفْقِ هَذَا الَّذِي تَبَادَرَ لَهُمْ.

مع أَنَّ الثَّابِتَ تَارِيخِيًّا أَنَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَمْ يَعُودُوا إِلَى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْهَا، بَلْ أَبْقَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَائِهِينَ فِي صَحْرَاءِ سِينَا وَمَا حَوْلَهَا، مِمَّا يَتَّصِلُ بِهَا بَرًّا أَرْبَعِينَ سَنَةً، لِأَنَّ مَعْظَمَهُمْ قَدْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ مُقَاتِلِينَ، وَقَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا مَا دَامُوا فِيهَا. وَقَالُوا لَهُ: أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ.

وَبَعْدَ أَنْ تُوفِّي هَارُونُ ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَضَتْ أَرْبَعُونَ سَنَةً تَائِهِينَ فِي الْأَرْضِ، غَيْرَ مُسْتَقَرِّينَ فِي مَدِينٍ وَلَا قَرْيَةٍ، وَبَعْدَ أَنْ نَشَأَ جِيلٌ جَدِيدٌ قَادِرٌ عَلَى الْقِتَالِ، هِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَقُودُهُمْ، فَدَخَلُوا أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ بِقِتَالٍ، وَهِيَ أَرْضُ فِلِسْطِينَ، وَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَكَهُمْ مَا كَانَ لِمُلُوكِ هَذِهِ الْأَرْضِ الْجَبَابِرَةِ الْوُثْنِيِّينَ الْكَفَرَةِ، مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ.

وبالتأمل والتفكير الدقيق، ظهر لي أَنَّ قول الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ﴾ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ غَيْرِ أَهْلِ مِصْرَ نَظِيرَ مَا حَصَلَ لِأَهْلِ مِصْرَ مع بني إِسْرَءِيلَ، فَنَصَرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَيْهِمْ، وَمَلَكَهُمْ مَا كَانَ لِمُلُوكِهِمْ وَأَثْرِيَائِهِمْ مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قول الله عز وجل: ﴿... وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾ (٥٩): أَي: وَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ هُمُ الْمَالِكِينَ لَهَا، بَعْدَ مَالِكِيهَا السَّابِقِينَ، عَنْ طَرِيقِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ وَالْمَعُونَةِ الرَّبَّائِيَّةِ.

وبهذا ينحلُّ الإشكال، وَيَتِمُّ التوفيقُ بَيْنَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَالْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ.

ونلاحظ أنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ قَفَزَتْ بِعِبَارَةِ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً إِلَى جِهَةِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَعِيداً عَنْ حَدَثِ عُبُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، وَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَكُلِّ جُنُودِهِ الَّذِينَ تَابَعُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ.

وقد جاءت هذه الآية كالمعتضة ضَمَّنَ الْكَلَامَ عَنْ تَسْلُسِلِ الْأَحْدَاثِ بَتَّابِعٍ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَحَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا كَانَ وَعْدَ بِهِ أَجْدَادَهُمُ الْمُرْسَلِينَ، وَكَانَ تَأْخِيرَ تَحْقِيقِ وَعْدِهِ بِسَبَبٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسَهُمْ، إِذْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ مُقَاتِلِينَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيُظْفَرُوا بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ (= الْقُدْسُ وَمَا حَوْلَهُ) وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾:

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾: أَي: فَسَارَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بِقِيَادَتِهِ، فِي أَثَرِ جُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَارُوا فِيهِ.

يقال لغة: «تَبِعَهُ، يَتَّبِعُهُ، تَبَعًا، وَتُبِعُوا، وَتَبَاعًا، وَتَبَاعَةً» أَي: سَارَ فِي أَثَرِهِ. وَكَذَلِكَ يُقَالُ: «اتَّبَعَهُ، وَاتَّبَعَهُ» أَي: سَارَ فِي أَثَرِهِ يَطْلُبُهُ.

﴿مُشْرِقِينَ﴾: أَي: حَالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي وَقْتِ شُرُوقِ الشَّمْسِ. يُقَالُ لُغَةً: «أَشْرَقَ الْقَوْمُ» أَي: دَخَلُوا فِي وَقْتِ شُرُوقِ الشَّمْسِ، عِنْدَ طُلُوعِهَا، وَمَدَّ ضِيَاءَهَا عَلَى الْأَرْضِ.

لَمْ يُحَدِّدِ النَّصُّ الْيَوْمَ الَّذِي اتَّبَعُوهُمْ فِيهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ نُقَدِّرَ زَمَنًا مَا

يُسْتَطَاعُ فِيهِ جَمْعُ الْجَيْشِ وَحَشْرُهُ وَسَوْفُهُ مِنَ الْمَدَائِنِ الْمَصْرِيَّةِ، وَإِعْدَادُهُ بِأَفْضَى سُرْعَةٍ، لِمَلَا حَقَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَوْهُ.

قول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُُونَ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٢﴾﴾

أي: فَلَمَّا وَصَلَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بِقِيَادَتِهِ، إِلَى مَكَانٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَرَى فِيهِ كُلُّ جَمْعٍ مِنَ الْجَمْعَيْنِ الْآخِرِ، قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، وَالْمُسْلِمُونَ لَهُ، وَالْمَلَا زُمُونَ مُرَافَقَتَهُ، وَالْمَحِيطُونَ بِهِ كَالْهَالَةِ، الَّذِينَ اسْتَخْلَصَهُمْ لَصُحْبَتِهِ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ: ﴿إِنَّا لَمَذْكُُونَ﴾ مِنْ قَبْلِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «تَرَأَى الْفَرِيقَانِ، أَوِ الْجَمْعَانِ، أَوِ الشَّخْصَانِ الْمُتَبَاعِدَانِ» أَي: رَأَى كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ، أَوْ وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ يُمَكِّنُ فِيهِ أَنْ يَرَى كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ.

[مَذْكُونَ]: اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ فَعَلَ «أَذْرَكَ» يُقَالُ لُغَةً: «أَذْرَكَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أَي: لَحِقَهُ وَبَلَغَهُ وَنَالَهُ.

وَالْمَعْنَى: قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى الْمَقْرَّبُونَ لَهُ: إِنَّ جَيْشَ فِرْعَوْنَ سَيُذَرِكُنَا، وَسَيَنَالُنَا بِأَسْلِحَتِهِ مُقَاتِلِينَ لَنَا، فَقَدْ وَصَلَ هَذَا الْجَيْشُ إِلَى مَكَانٍ يَرَوْنَاهُ فِيهِ وَنَرَاهُمْ، وَأَمَامَنَا الْبَحْرُ، فَمَاذَا نَفْعَلُ لِلنَّجَاةِ مِنْ هَذَا الْجَيْشِ الَّذِي لَا قِبَلَ لَنَا بِمُقَاتِلَتِهِ؟.

فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ زَاجِرًا وَمُعَلِّلاً زَجْرَهُ: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: لَا تَخْشَوْا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ، وَلَا عَلَى جُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّ

مَعِيَ رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بِأَنْ أَسْرِيَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَعْلَمَنِي بِأَنْتَا مُتَّبِعُونَ، فَهُوَ حَتْمًا سَيَهْدِينِي إِلَى وَسِيلَةِ النِّجَاةِ مِنْ هَذَا الْجَيْشِ الَّذِي لَا قُدْرَةَ لِقَوْمِي بِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُقَاتَلَتِهِ.

وكانوا قد وصلوا إلى بحر «سوف» وهو «البحر الأحمر».

قول الله عز وجل:

• ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: فعقب إعلان أصحاب موسى تخوفهم من إدراك جيش فرعون لهم، وتخوفهم من البحر إذا فروا من مواجهة الجيش الفرعوني، وعقب إجابة موسى عليه السلام لهم بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٦﴾﴾ أَوْحَى اللهُ عز وجل إلى موسى عليه السلام بأن يضرب البحر بعصاه لينشق، وليكون لهم في قاع البحر طريق يابس جاف، فإذا عبر هو وقومه فيه فإنهم لا يخشون أن يدرِكهم عدوهم، ولا يخشون فيه غرقاً.

فضرب موسى عليه السلام البحر مباشرة بعصاه البحر، تنفيذاً للأمر الرباني، فانفلق البحر بأمر الله التكويني، فكان كل فرقة كالطود العظيم.

الفِرْق: الفِلَقُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا انشَقَّ.

الطَّوْدُ: الْجَبَلُ الْعَظِيمُ الذَّاهِبُ صُعْدًا فِي الْجَوِّ.

والمعنى: فكان كل قسم انفرق من الماء مُنَحَازًا لِإِحْدَاثِ طَرِيقٍ يَغْبُرُ مِنْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخِرِ، كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ قَائِمًا ثَابِتًا لَا يَسِيلُ مِنْ مَائِهِ شَيْءٌ إِلَى الطَّرِيقِ الْيَبَسِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ عز وجل في قاع البحر.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾: أي: وقربنا هناك الآخرين، وهم جيش

فِرْعَوْنَ بِقِيَادَتِهِ، وَجَعَلْنَاهُمْ يِقْتَرِبُونَ مِنْ مَكَانِ الْفَرْقِ، فَرَأَوْا طَرِيقاً وَاسِعاً مُنْفَتِحاً فِي وَسْطِ الْبَحْرِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ مِنْ مَاءٍ مُتَجَمِّدٍ، أَحَدُهُمَا عَلَى يَمِينِ الْعُبُورِ، وَالْآخَرُ عَلَى يَسَارِهِ. ﴿وَأَزَلَّاهُ﴾: أَي: وَقَرَّبْنَاهُ. «أَزَلَّاهُ وَزَلَّاهُ» قَرَّبَهُ.

﴿ثُمَّ﴾: اسْمٌ يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ ظَرْفٌ لَا يَتَصَرَّفُ، وَقَدْ تَلَحُّقَهُ التَّاءُ، فَيُقَالُ: ثَمَّةً، وَيُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْهَاءِ.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، إِذْ يُجْرِي فِي كَوْنِهِ مَا يَشَاءُ، وَيَخْلُقُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

وَطَمَسَ اللَّهُ عَلَى بَصِيرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَادَةَ جَيْشِهِ، وَسَائِرِ جُنُودِهِ، فَدَخَلُوا فِي الطَّرِيقِ الْيَبَسِ مُتَابِعِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمُتَوَهِّمِينَ أَنَّ انفِلَاقَ الْبَحْرِ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي قَدْ تُخَدِّثُهَا الرِّيَّاحُ الْبَارِدَةُ، وَلَمْ يُدْرِكُوا أَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لِيُنْجِيَهُمْ ثُمَّ لِيُغْرِقَ فِيهِ عَدُوَّهُمْ.

وَكَانَ لثَوْرَةِ الْغَضَبِ الْمَجْنُونَةِ، مَعَ الطَّمَعِ بِالظَّفَرِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، أَثَرٌ فِي طَمَسِ بَصَائِرِهِمْ جَمِيعاً، إِذْ أَغْمَاها عَنْ إِدْرَاكِ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَجَيْشِهِ بِعِبَارَةِ ﴿الْآخِرِينَ﴾ اسْتِهَانَةً بِهِمْ، وَتَحْقِيرًا لَهُمْ.

وَدَخَلَ فِرْعَوْنُ وَآلُهُ وَسَائِرُ جَيْشِهِ مِنْ مَكَانِ الْفَرْقِ مُتَابِعِينَ جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَخَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الْبَرِّ مِنْ جِهَةِ الشَّاطِئِ الْمَقَابِلِ، مَعَ كُلِّ دَوَابِّهِمْ وَأَحْمَالِهِمْ.

وَتَرَكَّ اللَّهُ الْبَحْرَ عَلَى حَالِهِ الْمَفْرُوقِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّى يَكُونَ

فِرْعَوْنَ وَجَيْشُهُ كُلَّهُمْ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ الْيَبَسِ فِي الْبَحْرِ، بِدَلَالَةِ حَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وَلَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجَيْشُهُ إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ الْأَخِيرِ مِنَ الطَّرِيقِ الْيَبَسِ دَاخِلَ الْبَحْرِ، أَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ بِأَنْ يَنْضَمَّ مَأْوُهُ عَلَيْهِمْ، فَسَالَتِ الْجِبَالُ الْمَائِيَّةُ عَلَيْهِمْ مُتَدَفِّقَةً بِشِدَّةٍ وَعُنْفٍ، فَعَذَّبَتْهُمْ وَأَغْرَقَتْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وختَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْفَصْلَ بِالْفَاصِلَةِ الَّتِي جَاءَتْ مُكَرَّرَةً ثَمَانِي مَرَّاتٍ فِي السُّورَةِ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾:

أَي: إِنَّ مَا جَرَى لِمُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا جَرَى لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ لَآيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ، وَمَعَ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْمَغْنِيَيْنِ الَّذِينَ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ فِي الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، وَهُمْ كُتَبَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، الَّذِينَ وَصَلَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى حَالَةِ مَيُوسٍ مِنْ إِيْمَانِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَالَّذِينَ كَانُوا الرُّسُولَ ﷺ يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ حُزْنًا قَاتِلًا، بِحَسَبِ نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمَسَبِّبَاتِ فِي النَّاسِ، أَكْثَرُهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا مَهْمَا غُولُجُوا وَأُمُهَلُّوا، وَصَارَ أَنْزَالُ الْعِقَابِ عَلَيْهِمْ وَتَطْيِيقُ سُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ بِنَصْرِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ عَلَيْهِمْ هُوَ الْأَمْرُ الْحَكِيمُ.

وَقَدْ سَبَقَ تَحْلِيلُ بَقِيَّةِ مَا جَاءَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فِي آخِرِ الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ.



الفصل الثاني

لقطات تتعلق بقصة إبراهيم عليه السلام وقومه

وهي الآيات من (٦٩ - ١٠٤)

﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَارَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَكَفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُحْيِيهِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّبِّ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لَأَيِّ لَيْتَ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَضُرُّوكُمْ أَوْ يُنْصِرُونَكُمْ ﴿٩٣﴾ فَكُنْجُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ .

تمهيد:

هذه لقطات من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه، فيها آية ذات عِظَاتٍ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّعِظَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وفيها عِظَاتٌ لِلْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَامًا، فَيَعْكُفُونَ عَلَيْهَا، وهي لا تنفعهم ولا تكشف عنهم ضرراً، ولا تدفع عنهم

والمُسَبِّبَاتِ فِي النَّاسِ، قِصَّةَ مُوسَى، وَالْآيَاتِ الَّتِي أُجْرِيَتْهَا لَهُ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا أَثَرٌ فِي فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَشَعْبِهِ الْمَعَانِدِينَ الْمَكَابِرِينَ الْمَصْرِينَ عَلَى بَاطِلِهِمْ، أَشْبَاهِهِمْ، أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ فِي دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ الْوَثْنِيِّينَ، الَّذِينَ تُشَابُهُ حَالُهُمْ حَالُهُمْ، فإِبْرَاهِيمُ وَالِدُ جَدِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ، وَهُوَ الَّذِي أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِمَكَانِ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، الَّتِي يَرْتَبِطُ بِهَا مَجْدُهُمْ بَيْنَ الْعَرَبِ، وَهُوَ الَّذِي بَنَاهَا مَعَ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ عَدُوًّا لِلْأَوْثَانِ الَّتِي كَانَ قَوْمُهُ يَعْبُدُونَهَا، وَهَاجَرَ مُفَارِقًا لَهُمْ، وَقَدِمَ إِلَى وَادِي مَكَّةَ وَتَرَكَ فِيهِ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ مَعَ أُمِّهِ هَاجِرَ، لِيُؤَسِّسَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ، وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، ثُمَّ أَقَامَ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ لِلتَّوْحِيدِ وَمَحَارَبَةِ الْوَثْنِيَّةِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا وَصُورِهَا.

تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ: النَّطْقُ بِهِ مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أُنْزِلَهُ اللَّهُ، فَإِذَا كَانَ تَتَبُّعًا لِلْمَكْتُوبِ فَهِيَ قِرَاءَةٌ.

• ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[إِذَا] ظَرَفٌ لِحَدِيثٍ مَضَى مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ هُنَا [أَتْلُ] أَيْ: أَتْلُ عَلَيْهِمْ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟ وَمُنَاطَرَتُهُ لَهُمْ بَعْدَ هَذَا السُّؤَالِ.

بَدَأَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعْوَتَهُ لِأَبِيهِ فَقَوْمِهِ بِسُؤَالِهِمْ عَمَّا يَعْبُدُونَ، لِيَسْتَفْهَمَ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَلِيَعْرِفَ مَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ صِفَاتٍ لَهَا تَسْتَحِقُّ عِنْدَهُمْ أَنْ تُعْبَدَ بِحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمْ، أَوْ لِيَكْشِفَ جَهْلَهُمْ وَحِمَاقَتَهُمْ فِي عِبَادَتِهَا.

وَبَدَأَهُ بِأَبِيهِ الْبَرِّ بِمَنْهَجِ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، إِذْ تَقْتَضِي الْبَدْءَ بِالْأَقْرَبِينَ، فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ فِي الْقُرْبِ، حَتَّى قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ.

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟؟ أي: ما حقيقة ما تعبدون؟ «مَا» الاستفهامية يُسْتَفْهَمُ بها عَنْ غَيْرِ ذِي الْعِلْمِ، وَيُسْتَفْهَمُ بها عن صفاتِ ذِي الْعِلْمِ، وَمِنْ صِفَاتِهِ حقيقة ذاته.

فَسَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِ مَا يَعْبُدُونَ، وَعَنْ صِفَاتِهِ الَّتِي تَوْهَّلُهُ لِأَنْ يُعْبَدَ.

● ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ (٧٦): فَذَكَرُوا لَهُ ذَوَاتِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَأَبَانُوا أَنَّهَا أَصْنَامٌ مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ مِنْ أَخْشَابٍ أَوْ مَعْدِنٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ جَامِدَاتٍ مُصَوِّرَاتٍ بِصُورِ أَحْيَاءٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، كَالْبَقَرِ. لَمْ يَقْهَمُ أَبُوهُ وَقَوْمُهُ أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عَنْ حَقِيقَتِهَا وَالصِّفَاتِ الَّتِي تَوْهَّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ، فَأَجَابُوهُ عَنْ ذَوَاتِهَا، وَعَنْ نَوْعِ عِبَادَتِهِمْ لَهَا.

الصَّنَمُ: تِمَثَالٌ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ خَشَبٍ، أَوْ مَعْدِنٍ، يَزْعُمُ عَابِدُوهُ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهُ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ، أَوْ إِلَهٍ غَيْرِهِ يَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا.

وعبادة الأصنام تكون بِتَقْرِيبِ الْقَرَابِينِ لَهَا، أَوْ السُّجُودِ لَهَا، أَوْ الطَّوَافِ حَوْلَهَا، أَوْ الْعُكُوفِ عَلَيْهَا، أَوْ التَّمَسُّحِ بِهَا، أَوْ سُؤَالِهَا بِالْדُّعَاءِ لَجَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ.

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: [عَٰكِفِينَ]: أي: ملازمين ملازمةً الْمُقِيمِ الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ نَفْسِهِ وَحَوَاسِهِ لِمَا هُوَ عَٰكِفٌ عَلَيْهِ، يُقَالُ لُغَةً: «عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ يَعْكَفُ، وَيَعْكِفُ، عَكْفًا، وَعُكُوفًا» أي: أَقْبَلَ عَلَيْهِ مُلَازِمًا لَهُ، لَا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْهُ، كَأَنَّهُ حَاسِسٌ نَفْسَهُ عَلَيْهِ. وَهَذَا لَوْنٌ مِنَ أَلْوَانِ عِبَادَةِ الْعَٰكِفِ لِلْمَعْكُوفِ عَلَيْهِ.

ضُمِّنَ اسْمُ الْفَاعِلِ [عَٰكِفِينَ] مَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ «عَابِدِينَ» فَعُدِّي تَعْدِيته بِلَامِ التَّقْوِيَةِ، وَقُدِّمَ الْمَعْمُولُ [لَهَا] عَلَى عَامِلِهِ.

والتقدير: فَظَلَّ عَاكِفِينَ عَلَيْهَا عَابِدِينَ لَهَا.

[فَنَظَّلُ]: أي: فَنَدَاوِمُ عَلَى عِبَادَتِهَا بِالْعُكُوفِ. يقال: «ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ

كذا». وَقَدْ يَأْتِي هَذَا الْفِعْلُ بِمَعْنَى الدَّوَامِ وَلَوْ فِي غَيْرِ النَّهَارِ.

وَإِذَا كَانُوا هُمْ مِنْ عِبَادِ الْكَوَاكِبِ فَإِنَّهُمْ يَعْْبُدُونَ رُمُوزَهَا الَّتِي هِيَ

الْأَصْنَامُ فِي النَّهَارِ، وَيَتَوَجَّهُونَ لِعِبَادَتِهَا فِي اللَّيْلِ عِنْدَ ظُهُورِهَا فِي السَّمَاءِ.

• ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾﴾:

كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ مِنْ حَالِ قَوْمِهِ أَنَّهُمْ يَعْْبُدُونَ أَصْنَامَهُمْ

بِالدُّعَاءِ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعًا أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا،

دَلَّ عَلَى هَذَا سُؤَالَانِ لِقَوْمِهِ جَاءَ بَيَانُهُمَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ.

طَرَحَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَبِيهِ أَوَّلًا فَقَوْمِهِ بَعْدَ ذَلِكَ سُؤَالَيْنِ:

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: هَلْ يَسْمَعُونَكَ حِينَ تَدْعُونَهُمْ لِمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ مِنْ

رِزْقٍ، وَنَصْرِ، وَذُرِّيَّةٍ، وَأَمْنٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ.

نَزَلَ أَصْنَامَهُمْ مَنَزِلَةَ الْعُقَلَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ، مُجَارَاةً لَهُمْ فِي مَعْتَقَدِهِمْ،

وَرُبَّمَا كَانَتْ صُورُ أَصْنَامِهِمْ عَلَى صُورِ بَشَرٍ مَاتُوا، فَذَكَرَهُمْ بِصِغَةِ جَمْعٍ

الْعُقَلَاءِ.

السُّؤَالُ الثَّانِي: هَلْ يَنْفَعُونَكَ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِيُحَقِّقُوا لَكُمْ نَفْعًا؟ هَلْ

يَضُرُّونَكَ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِاسْتِرْضَائِهِمْ حَتَّى لَا يَضُرُّوكُمْ؟ أَوْ هَلْ يَضُرُّونَ

أَعْدَاءَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِإِنْزَالِ الضَّرَرِ بِهِمْ؟

أَسْئَلُهُ تَابَعَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنَاطَرَتَهُ لِقَوْمِهِ، الَّتِي بَدَأَهَا

بِالسُّؤَالِ الْأَوَّلِ: مَا تَعْبُدُونَ؟

هَذَا مَنَهْجُ جَدَلِيٍّ حَكِيمٍ يُبَاشِرُ الْمَوْضُوعَ مِنْ أَقْرَبِ السُّبُلِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ إِثْبَاتِ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ تَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ، وَعَجَزُوا

عَنْ إِثْبَاتِ أَنَّهَا تَجْلُبُ نَفْعًا أَوْ ضَرًّا كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

فأجابوا بما جاءَ بَيَانُهُ في الآيةِ التَّالِيَةِ:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

[بَلْ] هُنَا تَعْطِفُ عَلَى مَحْذُوفٍ فيما يظهر، أي: لَا نَسْتَطِيعُ إثْبَاتَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ دُعَاءَنَا، وَلَا نَسْتَطِيعُ إثْبَاتَ أَنَّهَا تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ، بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي نَفَعَلُهُ نَحْنُ مِنْ عِبَادَاتِ لَهَا بِالْعُكُوفِ، والدُّعَاءِ وغيرهما، فَتَحْنُ عَلَى آثَارِ آبَائِنَا سَائِرُونَ، وَلَهُمْ مُقْلَدُونَ.

وبهذا كشف إبراهيم عليه السلام لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى باطلٍ واضح البُطْلَانِ، نظراً إِلَى أَنَّ تَقْلِيدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ لَا يَصْلُحُ لِأَنَّهُ يَكُونُ دَلِيلًا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، لاحتِمَالِ أَنَّهُمْ كَانُوا جَاهِلِينَ، أَوْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ يَتَّبِعُونَ فِيهَا الْأَهْوَاءَ، أَوْ كَانُوا مُتَأَثِّرِينَ بِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَسَوِيَلَاتِهِمْ.

وَعِنْدَئِذٍ رَأَى مِنْ الْحِكْمَةِ فِي الْمُنَاطَرَةِ أَنَّ يُغْلِنَ لَهُمْ أَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ وَمَعْبُودَاتِ آبَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَعْدَاءٌ لَهُ، إِذْ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤْهِلُهَا لِأَنَّ تَعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَعِبَادَتُهَا عُذْوَانٌ عَلَى حَقِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَنَّ لَا يُعْبَدَ شَيْءٌ وَلَا كَائِنٌ مِمَّا مِنْ دُونِهِ، إِذْ لَا إِلَهَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ، فَهُوَ وَحْدَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

فَقَالَ لَهُمْ فِي الْمُنَاطَرَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا هَذَا النَّصُّ، مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

﴿قَالَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُتُبٌ مَتَّعِدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الفاءُ فِي: [أَفَرَأَيْتُمْ] فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَى مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: أَتَفَكَّرْتُمْ تَفَكُّراً سَلِيمًا سَدِيداً، فَرَأَيْتُمْ بِعُقُولِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ بُطْلَانَ مَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ، تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا زِلْتُمْ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ، تَقْلِيداً لِآبَائِكُمْ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي، لِأَنَّهُمْ بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ وَصْفٌ

ما، وَأَنَا أَعْتَبِرُ كُلَّ بَاطِلٍ عَدُوًّا لِي، أَكْفُرُ بِهِ، وَأُعَادِيهِ، وَأَقَاتِلُهُ، وَمِنَ اللَّازِمِ الْفِكْرِيِّ لِمُعَادَاةِ الْبَاطِلِ مُعَادَاةُ أَنْصَارِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالذَّاعِينَ إِلَيْهِ.

وجاء في النَّصِّ إِيْثَارُ عِبَارَةٍ [مَا كُنْتُمْ] عَلَى غَيْرِهَا لَتَشْمَلَ آبَاءَهُمُ الْأَقْدَمِينَ، وَهِيَ تَنْسَحِبُ إِلَى مَا قَبْلَ لِحْظَةِ التَّكْلُمِ، عَلَى أَنَّ فِعْلَ «كَانَ» لَهُ فِي الِاسْتِعْمَالِ صِفَةُ الدَّوَامِ أَوِ الِاسْتِمْرَارِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ، وَلَهُ صِفَةُ الصَّيْرُورَةِ الَّتِي يُلَازِمُهَا غَالِبًا الِاسْتِمْرَارُ.

ووصف إبراهيم عليه السلام آباءَهُمُ بِالْأَقْدَمِينَ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْأَقْدَمِيَّةَ لَا تُغْطِي الْبَاطِلَ مَشْرُوعِيَّةَ الْبَقَاءِ، وَلَا تُكْسِبُهُ شَيْئاً مِنْ صِفَاتِ الْحَقِّ، فَالْبَاطِلُ أَزْلاً بِاطِلٌ أَبَدًا، وَالْبَاطِلُ لِذَاتِهِ فِيمَا مَضَى، بِاطِلٌ دَوَامًا فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

يُطْلَقُ لَفْظُ «عَدُوٌّ» بِالْإِفْرَادِ عَلَى الْمَفْرَدِ وَالْمُثْنَى وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ، وَيُسْتَعْمَلُ أَيْضاً عَلَى الْأَصْلِ فِي الْمِطَابَقَةِ.

وَكِلَا طَرَفَيِ الْعِدَاءِ عَدُوٌّ لِلْآخَرِ، وَمَنْ اتَّخَذَ حَيًّا أَوْ جَمَاداً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ عَدُوًّا، فَإِنَّهُ يُرِيدُ النِّكَايَةَ بِهِ، وَإِنْ زَالَ الْمَكْرُوهُ فِيهِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُتَاحَةِ لَهُ، وَلِهَذَا كَسَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَضْنَامَهُمْ فِي مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِحِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، إِذِ اتَّخَذَهَا عَدُوًّا لَهُ.

وَلَمَّا كَانَ قَوْمُهُ مُشْرِكِينَ، يَعْبُدُونَ أَضْنَامَهُمْ وَيَعْبُدُونَ أَيْضاً مَعَ عِبَادَتِهِمْ لَهَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَسْتَنْبِيْهُ فَيَقُولَ: [إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ]، أَي: إِلَّا الْمَعْبُودَ الْمُتَّصِفَ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، أَي: خَالِقُ الْعَالَمِينَ، وَالْمُتَّصِرُفُّ دَوَاماً بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ سِوَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لِمُعْظَمِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا.

وَإِذِ اسْتَنْبَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّ الْعَالَمِينَ، أَبَانَ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَهُ، فَقَالَ:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾:

فذكر إبراهيم عليه السلام من صفات ربوبيّة ربّ العالمين التي له بها ارتباط شديد في حياته تسعة ظواهر

الظاهرة الأولى: أَنَّهُ خَلَقَهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ شَيْئاً مَذْكُوراً، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾، أي: الذي حدّد مقادير كل شيء فيّ، وابتدعني من العدم، بعد أن لم أكن شيئاً مذكوراً. الخلق: يأتي في اللغة بمعنيين:

المعنى الأول: التقدير، وهو إعطاء أجزاء الشيء مقاديرها بإتقان.

المعنى الثاني: ابتداع الشيء على غير مثال سبق، وإيجاده من العدم.

وكلا هذين المعنيين مُرادان هنا، فالله الخالق عزّ وجلّ أبدعه من العدم على غير مثال سبق، وأعطى أجزاءه مقاديرها بعظيم حكمته، المُفْتَرِئَة بِعِلْمِهِ الْمُحِيط بِكُلِّ شَيْءٍ، وأتقن صنعه.

الظاهرة الثانية: أَنَّهُ يَهْدِيهِ لَتَنْفِيزِ الْأَعْمَالِ الْمُحَقَّقَةِ لِلْأَغْرَاضِ مِنْهَا، وهذه الهداية تشمل كلّ تصرّفاتِه الإرادية، الجسديّة والنفسية، فقال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي: فهو وحده الذي يهديني، ومن أمثلة هذه الهداية الربانية ما يلي:

١ - هداية الطفل الصغير إلى كيفية ارتضاع الثدي، بعد أن أعطى كلّ جزء من فمه المقدار الحكيم الملائم للرضاع.

٢ - هداية أصابع اليدين للقيام بوظائفها العمليّة الحركيّة، بعد أن

أَعْطَى كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا الْمِقْدَارَ الْحَكِيمَ الْمَلَائِمَ لِمُخْتَلِفِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا رَاحَةُ الْيَدِ وَالْأَصَابِعُ فِيهَا.

٣ - هداية الفكر لمعرفة كثير من حقائق الأشياء بما جعل الله فيه من مَوَازِين.

٤ - هداية الرُّجُلَيْنِ للقيام بالمشي وسائر أعمالِهِمَا، بعد أن أُعْطِيَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ رِجْلَيْهِ الْمِقْدَارَ الْحَكِيمَ الْمَلَائِمَ لِمُخْتَلِفِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الرُّجُلَانِ.

وهكذا إلى كلِّ شَيْءٍ، فِي مُخْتَلِفِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، وَخَصَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ نَفْسَهُ، لِيَكْشِفَ لِقَوْمِهِ سَبَبَ عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ وَخَدَهُ، وَلِيَقْيِسُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ.

الظاهرة الثالثة: أَنَّهُ هُوَ وَخَدَهُ الَّذِي يُطْعِمُهُ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾، أَي: وَالَّذِي هُوَ وَخَدَهُ يُطْعِمُنِي لَا غَيْرَهُ، اسْتَفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ ضَمِيرِ الْفَضْلِ، وَقَدْ جَاءَ بَيْنَ اسْمِ الْمَوْصُولِ وَصَلْتِهِ.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ، وَيَخْلُقُ وَسَائِلَهَا فِي كَوْنِهِ، وَإِبْرَاهِيمَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَلَوْلَا خَلْقُ اللَّهِ وَقَضَاؤُهُ وَقَدْرُهُ لَمْ يَنْبُتْ نَبَاتٌ، وَلَمْ تَحْيَ أَحْيَاءٌ، وَلَوْلَا تَهْيِئَةُ وَسَائِلِ الطَّعَامِ لَمْ يَطْعَمْ طَاعِمٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْلَا أَنْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْأَحْيَاءِ أَفْوَاهًا تَأْكُلُ، وَمَجَارِي إِلَى بَطُونِهِمْ تَبْلَعُ، وَعُنَاصِرَ هَضْمٍ تَهْضِمُ، وَأَدَوَاتٍ وَعُنَاصِرَ تُوَزَّعُهُ إِلَى مَوَاضِعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ الْأَجْسَادِ، وَتَضَرِّفُ عَنْهَا أَدَى فَضْلَاتِهِ، لَمْ يَطْعَمْ طَاعِمٌ.

وَلَوْ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ سَوَائِهِ لَمَا وَصَلَ الطَّعَامُ إِلَى مَوَاضِعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَلَمَا وَصَلَتِ الْأَقْوَاتُ إِلَى مُقْتَاتِيهَا.

الظاهرة الرابعة: أَنَّهُ هُوَ وَخَدَهُ الَّذِي يَسْقِيهِ مَاءً وَأَنْوَاعَ شَرَابَاتٍ أُخْرَى، فَقَالَ: ﴿وَيَسْقِينِي﴾، أَي: وَالَّذِي هُوَ وَخَدَهُ يَسْقِينِي لَا غَيْرَهُ، هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿يُطْعِمُنِي﴾، فَلَهَا حُكْمُهَا مِنَ الْقَصْرِ.

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَاءَ وَسَائِرَ الْأَشْرِبَةِ
الَّتِي يُعْتَبَرُ الْمَاءُ الْعُنْصَرَ الْأَكْثَرَ وَالْأَعْظَمَ فِيهَا، وَهُوَ الَّذِي يُضَعِدُ مِيَاهَ الْبَحَارِ
وَيَجْعَلُهَا سَحَابًا، ثُمَّ يُنْزِلُهَا مَاءً طَهُورًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ فِي
أَجْسَادِ الشَّارِبِينَ الْأَدْوَاتِ الصَّالِحَاتِ لِإِيصَالِ الْمَاءِ إِلَى مَوَاضِعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ
مِنَ الْأَجْسَادِ، وَجَعَلَ لِمَا يَحْمِلُ مِنْ فَضْلَاتِ مُؤْذِيَاتِ أَدْوَاتِ تَضْرِيْفٍ لَهَا.
ولو اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ سَوَائِهِ لَتَعَطَّلَتْ حَيَاةُ الْأَحْيَاءِ، وَاشْتَدَّتْ
آلَامُهَا.

الظاهرة الخامسة: ظاهرة الأمراض التي هي من عناصر ابتلاء الله
لعباده في الحياة الدنيا، لِيَذْكُرَ عِبَادَهُ بِهِ، فَيَعُودُوا إِلَيْهِ بِالْذُّعَاءِ وَالْخُضُوعِ
وَالْتَذَلُّ، سَائِلِينَ أَنْ يَشْفِيَهُمْ.

وقد تَأَذَّبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَبِّهِ، فَلَمْ يَنْسُبْ إِلَيْهِ الْقَضَاءَ
بِالْمَرَضِ الَّذِي هُوَ مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، بَلْ قَالَ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

الظاهرة السادسة: ظاهرة الشفاء من المرض، الذي لا يَتَحَقَّقُ إِلَّا
بِتَقْدِيرِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضَاءِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾،
جَوَابًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

إِنَّ الشِّفَاءَ مِنْ عَوَارِضِ الْأَمْرَاضِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ
وَقَضَاءِ، فَإِذَا قَضَى اللَّهُ بِالشِّفَاءِ أَلْهَمَ الطَّبِيبَ الدَّوَاءَ الَّذِي جَعَلَهُ هُوَ سَبَبًا
لِلشِّفَاءِ، فَشَفَى بِهِ الْمَرِيضَ، الدَّوَاءُ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي خَلَقَهَا هُوَ فِي
كُونِهِ، وَالشِّفَاءُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ، فَتَعَالَى الْخَلَّاقُ الْفَعَّالُ مَا
يَشَاءُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

الظاهرة السابعة: ظاهرة إماتة الأحياء، إِنَّهَا هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ،
إِذْ يَتَحَقَّقُ الْمَوْتُ بِفَضْلِ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ السَّرُّ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي تَكُونُ بِهِ
النَّفُوسُ حَيَّةً، فَإِذَا فُصِّلَ عَنْهَا صَارَتْ مَيِّتَةً.

وَكُلٌّ مِّنَ الْوَضَلِ وَالْفَضْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَفِعْلِهِ.

فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي﴾، ومعلوم أن الموت يقين لا يجحده أشد الناس كُفراً وعناداً.

الظاهرة الثامنة: ظاهرة إعادة الحياة للموتى يوم البعث، وقد أراد إبراهيم أن يعلن إيمانه بيوم الدين، الذي يُبعث فيه الناس إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، على ما قدم العبد في حياة الامتحان في الدنيا من إيمان وكفر، وخير وشر، فقال في دعوته لأبيه وقومه: ﴿ثُمَّ يُحْيِي﴾، أي: ويحييكم ليحاسبكم، ويفصل قضاءه بينكم، وليجازيكم بحسب ما كسبتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

الظاهرة التاسعة: ظاهرة غفران الله لمن آمن من عباده وأسلم له، وسأله أن يغفر له، وهذه الظاهرة تكون يوم الدين، ويظمع بها المؤمنون المسلمون، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾:

وقد اعتبر إبراهيم عليه السلام هذه الظاهرة التي يؤمن بها، مع الظاهرة الثامنة التي أعلن إيمانه أيضاً بها، مماثلتين للظواهر السابقة لهما في بيانه الدعوي، نظراً إلى أن الإيمان بالله وباليوم الآخر وما فيه من حساب، وفصل قضاء، وتحقيق جزاء، هما الركنان الأعظمان في أسس العقائد الإيمانية في الدين الذي اصطفاه الله لعباده، في كل ما بعث به أنبياءه ورسله.

ومن حكمة إبراهيم عليه السلام الدعوية أنه عرض عقيدته الإيمانية لأبيه ولقومه، ليرك لهم فرصة مناظرته بشأنها، وعندئذ يقدم حججه البرهانية حول ما يبدون من شكوكهم بشأنه.

وظاهر في دعوة إبراهيم لأبيه وقومه بشأن الإيمان بالله وباليوم

الآخر، أَنَّهَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْأُسْلُوبِ غَيْرِ الْمُبَاشَرِ، إِذْ بَيَّنَّ لَهُمْ إِيْمَانَهُ بِالْقَضَايَا الَّتِي عَرَضَهَا، وَلَمْ يَقُلْ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ بِهَا، لَكِنْ يُفْهَمُ هَذَا بِاللُّزُومِ الدُّهْنِيِّ.

وَاتَّبَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَانَهُ لِمَا يُؤْمَنُ بِهِ بِشَأْنِ الْقَضَايَا الَّتِي عَرَضَهَا، بِدَعَاءٍ دَعَا بِهِ رَبُّهُ الَّذِي أَبَانَ أَنَّهُ رَبُّ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لِأَيِّئِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

عناصرُ هذا الدُّعَاءِ تُؤَكِّدُ إِيْمَانَهُ بِيَوْمِ الدِّينِ إِيْمَانًا لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، وَدَعَاؤُهُ رَبَّهُ بِهَا أَمَامَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ، هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ دَعْوَةٌ غَيْرُ مُبَاشَرَةٍ، إِلَى الْإِيْمَانِ بِمِثْلِ مَا يُؤْمَنُ هُوَ بِهِ، وَالْمَطَالِبُ الَّتِي سَأَلَهَا رَبَّهُ فِي دَعَائِهِ، تَسْتَشِيرُ دَوَافِعَ ذَوِي الْعُقُولِ الرَّشِيدَةِ إِلَى طَلِبِهَا وَالتَّعَلُّقِ بِهَا.

وهي حَمْسُ مَطَالِبَ لِنَفْسِهِ، وَمَطْلَبٌ لِأَبِيهِ دَفَعَتْهُ إِلَيْهِ عَاطِفَتُهُ نَحْوَهُ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَانَ لَهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الدُّعَاءُ بِالْمَغْفِرَةِ لِكَافِرٍ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الدُّعَاءِ يَتَنَافَى مَعَ قَضَاءِ اللَّهِ بِشَأْنِهِ، لَكِنْ أَبَانَ اللَّهُ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ دَعَا لَهُ لِأَبِيهِ قَدْ كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ بِأَنَّهُ يُؤْمِنُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

وفيما يلي شرحُ عناصر الدُّعَاءِ الْخَمْسَةِ، الَّتِي دَعَاها إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ:

الْفُغْضُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾:

الْحُكْمُ: فَهَهُ الْأُمُورُ، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَحُدُودِهِمَا، وَمَعْرِفَةُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَحُدُودِهِمَا، وَمَعْرِفَةُ الْحَسَنِ وَالسَّيِّئِ وَحُدُودِهِمَا، وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ وَحُدُودِهِمَا.

وبناءً على فقه الأمور يُضدِّر مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحكامه الْعِلْمِيَّةَ
وأحكامه القضائية مطابقةً للحق والخير والفضيلة.

وَيَدْخُلُ فِي إِيْتَائِهِ الْحُكْمَ إِيْتَاؤُهُ الْقُدْرَةَ عَلَى تَقْدِيمِ الْحُجَجِ الدَامِغَةِ،
وَالْبِرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ لِحُجُجِ الْمُبْطِلِينَ وَالْمَرَاوِغِينَ، وَمُحَاصِرَتِهِمْ مِنْ كُلِّ
مَهْرَبٍ فِكْرِيٍّ.

وَقَدْ أَتَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ حُجَّتَهُ الدَامِغَةَ لِقَوْمِهِ، أَهْلَ الْبَاطِلِ
وَالشُّرْكِ، وَظَهَرَ هَذَا فِي مَجَادَلَاتِهِ وَمُنَاطَرَاتِهِ لِقَوْمِهِ وَلِمَلِكِهِمْ نُمْرُودَ، وَذَكَرَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْضَهَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَلَمْ أَفْسِرَ الْحُكْمَ هُنَا بِالنُّبُوَّةِ، لِأَنَّ سَوَابِقَ هَذَا الدُّعَاءِ تُشْعِرُ بِأَنَّهُ يَدْعُو
قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، مِنْ مَوْقِعِ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، عَلَى أَنَّ النُّبُوَّةَ تَأْتِي
اضْطِفَاءً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا تَأْتِي بِطَلَبِ الْعَبْدِ لَهَا.

الهِبَةُ: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَغْرَاضِ، يُقَالُ لُغَةً: «وَهَبَ لَهُ
الشَّيْءَ، يَهِيئُهُ: وَهَبًا، وَوَهَبًا، وَهَبَةً، فَهُوَ وَهَبٌ، وَوَهَابٌ، وَوَهُوبٌ،
وَوَهَابَةٌ».

العنصر الثاني: قوله: ﴿...وَالْحَقُّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣): أي: واجْعَلْنِي
أَلْحَقُ الصَّالِحِينَ السَّابِقِينَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ قَبْلِي، مِنْ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أي: فَإِذَا لَحِقْتُهُمْ سِرْتُ مَعَهُمْ سَابِقًا فِي الْخَيْرَاتِ الَّتِي
تُرْضِيكَ عَنِّي.

و«ال» في: ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ لِلْكَمَالِ، أي: واجْعَلْنِي مِنْ ذَوِي الْكَمَالِ
فِي صَلَاحِهِمْ، الْخَالِينَ مِنْ كُلِّ فُسَادٍ مَهْمَا قَلَّ.

الصَّلَاحُ: ضِدُّ الْفُسَادِ، يُقَالُ لُغَةً: «صَلَحَ يَصْلُحُ صَلَاحًا، وَصُلُوحًا،
وَصَلَحَ، فَهُوَ صَالِحٌ»، أي: خِلا مِنْ الْفُسَادِ. وَالْمَعَاصِي فِي السُّلُوكِ الدِّينِيِّ
مِنَ الْفُسَادِ.

وجاء في القرآن لفظ «الصَّالِحِينَ» وصفاً للأنبياء والمرسلين، وطائفة من المؤمنين، الذين يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ بإذنه الله.

العنصر الثالث: قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾:

أي: واجْعَلْنِي دوماً حَتَّى آخِرِ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ كَامِلِي الصَّلَاحِ، حَتَّى يَكُونَ لِي ثَنَاءٌ حَسَنٌ صَادِقٌ مُطَابِقٌ لَوَاقِعِ حَالِي فِي الْآخِرِينَ مِنَ النَّاسِ، بِمَقْتَضَى سُنَّتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي: ثناء صادقاً لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ وَلَا زِيَادَةً عَنْ وَاقِعِ الْحَالِ الَّذِي تَجْعَلُنِي فِيهِ، «أُطْلِقَ اللِّسَانُ وَأُرِيدَ بِهِ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ الَّذِي يَنْطِقُ اللِّسَانُ بِهِ، وَإِضَافَةُ اللِّسَانِ إِلَى الصِّدْقِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ، أَيْ: لِسَاناً صِدْقاً، وَهَذَا مِنَ الْوَصْفِ بِالْمُضَدَّرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمِطَابَقَةِ التَّامَّةِ بَيْنَ الثَّنَاءِ وَالصِّدْقِ فِيهِ.

وهذا الاستعمالُ هو من استعمالات العرب في أقوالهم، ونظيره قولهم: «رَجُلٌ صِدْقٍ» أي: رَجُلٌ نِعَمَ هُوَ رَجُلًا. و«امْرَأَةٌ صِدْقٍ»: أي: وامْرَأَةٌ نِعْمَتْ هِيَ امْرَأَةً، فَهُوَ تَعْبِيرٌ مِنْ تَعْبِيرَاتِ الثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ. ومن نظائره في القرآن: «قَدَمُ صِدْقٍ - مَقْعَدُ صِدْقٍ - مُبَوِّأُ صِدْقٍ - مَدْخَلُ صِدْقٍ - مَخْرَجُ صِدْقٍ - لِسَانُ صِدْقٍ»، أي:

• قَدَمُ نِعَمَ هُوَ قَدَمًا - مَقْعَدُ نِعَمَ هُوَ مَقْعَدًا - مُبَوِّأُ نِعَمَ هُوَ مُبَوِّأً - مَدْخَلُ نِعَمَ هُوَ مَدْخَلًا - مَخْرَجُ نِعَمَ هُوَ مَخْرَجًا - لِسَانُ نِعَمَ هُوَ لِسَانًا.

وَالْوَصْفُ بِالْمُضَدَّرِ مِثْلُ: «رَجُلٌ عَدْلٌ» يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ الْمِطَابَقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصُّورَةِ الْمُثَلَّى لِنَوْعِهِ، فَالرَّجُلُ الْكَامِلُ فِي نَوْعِهِ يَكُونُ مُتَّصِفًا بِأَكْمَلِ صُورَةِ الْعَدَالَةِ. وَالْمَقْعَدُ الْكَامِلُ فِي صِفَاتِ حُسْنِهِ، هُوَ ذُو الصُّورَةِ الْمُثَلَّى لِنَوْعِهِ، فَإِذَا لَاقَ الْمَقْعَدُ الْكَامِلَ عَلَيْهِ إِطْلَاقٌ فِيهِ كِمَالُ الصِّدْقِ، وَهَكَذَا إِلَى سَائِرِ الْأَمْثِلَةِ.

وسؤال إبراهيم عليه السلام الثناء الحسن الصادق في الآخرين، هو في الحقيقة دعاء بكمال المداومة على أن يكون من كامل الصالحين، طوال أزمان حياته في الدنيا، حتى آخر زمن من أزمان حياته فيها، وهو عليه السلام يعلم من سنة الله في عباده، أن من كان كذلك جعل الله له ثناء حسناً صدقاً في الآخرين بعد موته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويستمر كذلك في الآخرة يوم الدين.

وأجرى الله عز وجل سنته، فجعل لإبراهيم عليه السلام لسان ثناء غاية في الصدق في الآخرين، إذ كان طوال حياته من كامل الصلاح.

العنصر الرابع: قوله: ﴿وَلَجَعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥):

﴿مِنْ وَرَثَةٍ﴾ «ورثة»: جمع «وارث» وهو من يصير إليه ما كان لغيره من مال، أو مجد، أو غيرهما، دون عوض.

وقد علم إبراهيم عليه السلام، أن دخوله الجنة نعيم يوم الدين إنما يكون بفضل الله لا بأعماله مهما كانت صالحة، فطلب من ربه أن يتفضل عليه فيجعل له من ورثة الجنة نعيم، بفيض عطائه، وربما لاحظ مع هذا أن الجنة معدة إعداداً صالحاً لنعيم كل الإنس والجن فيها إذا آمنوا وأسلموا، لكن أكثرهم سيكونون بالامتحان من أهل النار لا من أهل الجنة، فيرث أهل الجنة ما كان مهيئاً للذين استحقوا دخول النار بالامتحان، فيملكونها ميراثاً بلا عوض.

وبهذا يكون ميراث الجنة بمعنى الهبة بلا عوض، وبمعنى امتلاك ما كان مهيئاً لآخرين، لكنهم حجبوا عنه بكفرهم، وأدخلوا دار العذاب النار.

العنصر الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا

بُنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾:

﴿وَلَا تُخْزِي﴾: يأتي في اللغة الخزي للدلالة على عدة معان:

المعنى الأول: الوقوع في الشرّ والعذاب والمصائب والبلايا.

المعنى الثاني: الافتضاح بالقبائح والسيئات والآثام المكتومة،
المُورِثَةُ للخجل الشديد منها.

المعنى الثالث: الاستحياء ممّا يَنْزِلُ مِنْ دُلّ وهوان.

وهذه المعاني كلّها صالحة لأن تكون مُرادّة هنا، على معنى اخْفَظْنِي رَبِّ وَاغْصِمْني مما يكون سبباً في إنزالِ العذاب بي، وسبباً في افتضاحي بالقبائح والسيئات، وسبباً فيما يُخْجِلُنِي مِنْ دُلّ وهوان، يَوْمَ يُبْعَثُ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ لِلْحِسَابِ، وَفُضِّلَ الْقَضَاءُ، وَتَنْفِيذُ الْجَزَاءِ.

وهذه العِصْمَةُ تكون بإِعَانَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ حَتَّى يُدَاوِمَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ اعْتِقَاداً، وَقَوْلًا، وَعَمَلًا، وَنِيَّةً.

فدعا بأن يكون معصوماً في الدُّنْيَا مِنَ الْمَعَاصِي، لِيَكُونَ مَحْمِيّاً مِنْ الْخِزْيِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَقَدْ أَعْلَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَعَائِهِ هَذَا أَمَامَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ، أَنَّ إِيمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ لِرَبِّهِ نَاجٍ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، وَمِنْ افْتِضَاحِهِ بِالْقَبَائِحِ، وَمِمَّا يُخْجِلُهُ مِنْ دُلّ وَهَوَانٍ بِسَبَبِ تَنَكُّبِهِ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهُوَ يَسْأَلُ لِنَفْسِهِ الْحِفْظَ وَالْعِصْمَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ حَتَّى آخِرِ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَالْعَاقِلُ الرَّشِيدُ مِنْ قَوْمِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِ، شُعوراً مِنْهُ بِأَنَّهُ صَادِقٌ حَقّاً فِي دَعَائِهِ، خَائِفٌ حَقّاً مِنْ خِزْيِ يَوْمِ الدِّينِ، وَهَذَا الْأَسْلُوبُ مِنْ أَشَدِّ الْأَسَالِيبِ غَيْرِ الْمُبَاشَرَةِ تَأْثِيراً فِي الْآخِرِينَ.

وَأَتَمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِعْظَافَهُ لِرَبِّهِ فِي دُعَائِهِ بِوَضْفِهِ لِيَوْمِ الْبَعْثِ بِمَا يَعْلَمُ مِنَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِشَأْنِهِ، فَقَالَ:

• ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

لفظ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ...﴾ بدل من: [يَوْمَ يُنْعَثُونَ].

والمعنى: يوم لا يَنْفَعُ مَالٌ أحداً كان قد جمعه في الدنيا، وأنفقَهُ أو تَرَكَه ميراثاً، بالغاً ما بلغ، ولا يَنْفَعُ أحداً أبناؤه الَّذِينَ كان في الدنيا يعتزُّ بهم، وكانوا يَنْصُرُونَهُ، والبنون هم أَلَصَقُ الناسِ بِالرَّجُلِ لِنُصْرَتِهِ.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾: أي: إِلَّا مَنْ أَتَى الله بَعْدَ مَوْتِهِ بِقَلْبٍ سليمٍ خالٍ من الأمراض الصارفة لَهُ عن الإيمان، وَعَنْ طَاعَةِ الله في أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيهِ، كَمَرَضِ الكُفْرِ، وَكَمَرَضِ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ والآثام.

وذو القلب الذي كان في الحياة الدُّنيا سليماً من مَرَضِ الكُفْرِ، وأمراضِ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ والآثام، وَأَتَى رَبَّهُ يومَ الدِّينِ وهو سليم القلب، قَدْ يَنْتَفِعُ بثواب أمواله التي كان قَدْ جَمَعَهَا مِمَّا أُذِنَ الله به، وَأَنْفَقَهَا فيما أذن الله به، وَأَدَّى الحقوق التي فَرَضَهَا الله فيها.

وذو القلب الذي كان في الحياة الدُّنيا سليماً من مَرَضِ الكُفْرِ، وأمراضِ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ والآثام، وَأَتَى رَبَّهُ يومَ الدِّينِ وهو سليم القلب، قَدْ يَنْتَفِعُ بِبَنِيهِ، إِذْ يجد في صحيفته ثواب تربيته لهم تَرْبِيَةً إيمانيةً إسلاميةً، وَقَدْ يَنْتَفِعُ بِأَدْعِيَةٍ كانوا قَدْ دَعَوْا بها في حياتِهِمْ لأبيهِمْ، فاستجابةُ اللَّهِ دُعَاءَهُمْ هُوَ من آثار أعمالهم الصالحة، وهذه تَظْهَرُ يَوْمَ الدِّينِ، وبهذا يَكُونُ الأبناءُ نَافِعِينَ لِآبَائِهِمْ.

وَيُلْحَقُ بِالمالِ كُلُّ ما يَمْلِكُ الإنسانُ في الحياة الدنيا أَنْ يَتَصَرَّفَ فيه، وَيُلْحَقُ بِالْبَنِينَ كُلُّ مَنْ للإنسان به صِلَةٌ ما نَتَجَّ عَنْهَا دعاءٌ صالح مقبولٌ عند الله، أو عَمَلٌ ما مِمَّا فيه رضوانٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وكان لهذه الصِّلَةِ تأثيرٌ في كَسْبِ عَمَلٍ مَبْرُورٍ مأجورٍ عند الله.

فالاستثناء الواردُ في العبارة على وفق هذا الفهم استثناءٌ مَتَّصِلٌ

بوضوح، وقد اتَّجَهْتُ لهذا الفَهم، لأنَّه لا مال لأحدٍ يومَ الدين، حتَّى يُتَصَوَّرَ أَنَّهُ يَنْفَعُهُ، إلَّا إذا اعتَبَرْنَا أنَّ العبارة على تقدير أَنَّهُ لا أحدٌ يَمْلِكُ يومَ البعثِ مالا حتَّى يُتَصَوَّرَ أَنَّهُ تَنْفَعُهُ، ولا أحدٌ يَجْتَمِعُ حَوْلَهُ بُنُوهُ، حتَّى يُتَصَوَّرَ أَنَّهُم قد ينصرونه، إذ يَفِرُّ المَرءُ يومئذٍ من أخيه، وأُمِّه وأبيه، وصاحِبَتِهِ وبَنِيهِ، فلكلِّ امرئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

وأتباعاً لِبَيَانِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَام في دعوته لأبيه وقومه، وإذ وَصَلَ إلى غَايَةِ مَا أَرَادَ إِسْمَاعُهُ بأسلوبٍ غير مباشر، كان من الحكمة في البَيَانِ القرآني، أَنْ يُقَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَقَطَاتٍ عَنِ الْجَنَّةِ وَالْجَحِيمِ، مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَام، لَكِنْ اسْتَدْعَتْهَا الْمُنَاسَبَةُ، وَفِي ذِكْرِهَا عَقَبَ كَلَامِهِ، إِشْعَارُ بَأَنَّ كَلَامَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الدِّينِ وَيَوْمِ يُبْعَثُونَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ كَلَامٍ صَادِرٍ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ لِبَلِيسَ أَجْعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

في هذه الآياتِ مَشْهَدٌ من مشاهدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، وَفِيهَا لَقَطَاتٌ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، هِيَ بِالتَّفْصِيلِ خَمْسُ لَقَطَاتٍ:

اللَّفْطَةُ الْأُولَى: تَقْرِيبُ الْجَنَّةِ إِلَى حَيْثُ يَرَاهَا الْمُتَّقُونَ فِي مَكَانٍ تَجْمِيعِهِمُ الْخَاصَّ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، الْوَاقِعِ إِلَى جِهَةِ يَمِينِ الْعَرْشِ، مِنْ أَرْضِ الْمَحْشَرِ. دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

الإِزْلَاف: التقريب، يقال لغة: «أُزْلِفَ الشَّيْءُ»، أي: قَرَّبَهُ.

لِلْمُتَّقِينَ: أي: لكلِّ زُمْرٍ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ اتَّقَوْا بِإِيمَانِهِمُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ، ولو كانوا مِنْ مُرْتَكِبِي كِبَائِرِ الْإِثْمِ، وصار معلوماً أَنَّ الْمُتَّقِينَ على مراتب ودرجاتٍ في كُلِّ مَرْتَبَةٍ، فالدُّنْيَا مرتبة التقوى ذات الدَّرَجَاتِ المتفاضلات الكثيرات، والوَسْطَى مَرْتَبَةُ الْبِرِّ، ذات الدَّرَجَاتِ المتفاضلات الكثيرات، والعُلْيَا مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ، ذات الدَّرَجَاتِ المتفاضلات الكثيرات.

اللُّقْطَةُ الثَّانِيَّة: تَبْرِيزُ الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ، دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) : [وَبُرِزَتْ]: أي: وَأُظْهِرَتْ بَعْدَ خَفَاءٍ. يقال لغة: «بَرَزَ، يَبْرِزُ، بُرُوزاً» أي: ظَهَرَ بَعْدَ خَفَاءٍ.

[الْجَحِيم]: اسم من أسماء النَّارِ، دار العذاب يوم الدِّينِ، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ في اللُّغَةِ.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الْغَاوُونَ: هم الضَّالُّونَ المجافون لسبيل الحقِّ والهُدَى، اتِّبَاعاً لأهوائهم وشهواتهم، والفاستِدُونَ الخائِبُونَ.

يقال لغة: «غَوَى، يَغْوِي، غَيًّا» و«غَوِيَ، يَغْوِي، غَوَايَةً» أي: ضَلَّ، وَفَسَدَ، وخاب، تاركاً سبيل الرُّشد عن قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ اتِّبَاعاً لأهوائه وشهواته، ولوساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعاتهم بالباطل.

ويراد بِالْغَاوِينَ الَّذِينَ تَبَرَّزُ الْجَحِيمَ لَهُمْ، وهم في مكان تجميعهم في المحشر الخاصِّ بأصحاب الشمال، الواقع إلى جِهَةِ شَمَالِ الْعَرْشِ، الْكَافِرُونَ، الَّذِينَ يُقْضَى عَلَيْهِمُ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ.

اللُّقْطَةُ الثَّالِثَة: مَقَالَةٌ تَحْسِيرِيَّةٌ يَقُولُهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُكَلَّفُونَ بِحَشْرِهِمْ وَبِسَوْقِهِمْ إِلَى مَصَائِرِهِمْ فِي الْجَحِيمِ، دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقِيلَ لِمَ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ (٩٣) : أي: فِي أَيِّ مَكَانٍ يُوجَدُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، هَلْ تَجِدُونَ لَدَيْهِمْ مَا يَنْفَعُكُمْ، أَوْ يَدْفَعُ عَذَابَ اللَّهِ عَنْكُمْ.

فَإِنْ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ دَعَوْكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِمْ، أَوْ مِنَ الَّذِينَ رَضُوا بِذَلِكَ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْتَصِرُوا لَأَنْفُسِهِمْ، فَيَذْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ، فَضلاً عَنْ أَنْ يَنْصُرُوكُمْ، فَيَذْفَعُوا عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ.

وإن كانت أوثاناً حجارةً أو أخشاباً أو معادنٍ أو نحو ذلك، فلا وجود لَهَا كُلِّهَا مطلقاً، لأنها صارت خطأً مفتتةً ضِمنَ ذرّاتِ الأرض، كسائر ما في الأرض من أشياء، والمرموزُ بها إليهم يَتَبَرَّؤْنَ مِنْ عَابِدِيهَا.

الاستفهام في ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾؟ فيه معنى تَحْسِيرِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، إِذْ ظَهَرَتْ خِيبَةُ مَسَاعِيهِمْ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ، بِعِبَادَتِهِمْ لِإِلَهِةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتَغْرِيزِهِمْ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ خَالِدٍ فِي الْجَحِيمِ، دَارِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ.

اللقطة الرابعة: فيها بيانُ كِبْكَبَةِ الْمُشْرِكِينَ، وسائرِ الْغَاوِينَ، وَجُنُودِ إِبْلِيسَ أَجْمَعِينَ، فِي الْجَحِيمِ، فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۚ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۖ﴾ (٩٥)

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۚ﴾ (٩٤): أَي: أُلْقُوا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ وَعَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ مُنْقَلِبِينَ فِي الْجَحِيمِ جَمَاعَةً فَجَمَاعَةً، وَزُمْرَةً فَزُمْرَةً، وَكَذَلِكَ سَائِرِ الْغَاوِينَ.

الضمير في [هُم] يَعُودُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنَ الْغَاوِينَ، وَهَذَا يَدُلُّ الْمَتَدَبِّرَ عَلَى أَنَّ [وَالْغَاوُونَ] يُرَادُ بِهِمْ وَسَائِرُ الْغَاوِينَ، سِوَاءِ أَكَانُوا مُشْرِكِينَ، أَمْ شَرَّاءَ مِنْهُمْ كَالْجَاهِلِينَ وَجُودَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكَالَّذِينَ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُقِ.

سبق آنفاً شرحُ معنى: «الغاوين».

يقال لُغَةً: «كُبْكَبَ الشَّيْءُ»: أَي: قَلَبَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَرَمَاهُ فِي مَهْوَاةٍ.

الْكَبْكَبَةِ: الكَبُّ الذي يَتَّبِعُهُ كَبٌّ. «فَكُكِبُوا» مُضَاعَفٌ «كُتُّوا» بتكرير اللفظ الذي قد يدلُّ على تكرير المعنى، مثل: «كُفِّفَ دَمْعُهُ» و«لَمَلَمَ مَتَاعُهُ» و«جَزَجَرَ الشَّرَابُ».

﴿وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥: أي: والمُغْوُونَ الدَّاعُونَ إلى الغواية، الَّذِينَ هُمْ جُنُودُ إِبْلِيسَ، سواءً أكانوا مِنَ الْجِنِّ أَمْ مِنَ الْإِنْسِ، ونظراً إلى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُغْوِينَ الَّذِينَ هُمْ جُنُودُ إِبْلِيسَ عُذْرٌ مَا، جَاءَ تَأْكِيدُ كَبْكَبَتِهِمْ فِي الْجَحِيمِ بِعِبَارَةِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾، أي: لَا يُسْتَنَنَّى مِنْهُمْ أَحَدٌ بِجَهْلِ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا قَدْ يُعْذَرُ بِهِ بُلَهَاءُ الْغَاوِينَ، فَجُنُودُ إِبْلِيسَ فُطَنَاءُ أَشْرَارٍ.

اللقطة الخامسة: لَقْطَةُ تَخَاصُمٍ بَيْنَ الْغَاوِينَ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا سَبِيًّا فِي غَوَايَتِهِمْ، وَهُمْ فِي الْجَحِيمِ يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦ تَاللهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦: أي: قَالَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، أَضْناً أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَهُمْ فِي الْجَحِيمِ يُعَذَّبُونَ، لِمَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ لَهُمْ رَاضِينَ، أَوْ اتَّخَذُوا أَنْفُسَهُمْ آلِهَةً أَوْ أَزْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفِرَعُونَ مُوسَى، وَأَمَرُوا النَّاسَ بِعِبَادَتِهِمْ، يُخَاصِمُونَهُمْ وَيُنَازِعُونَهُمْ.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: يَتَخَاصِمُونَ وَيَتَنَازَعُونَ مَعَ الَّذِينَ كَانُوا مَعْبُودِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يُقَالُ لُغَةً: «اِخْتَصَمَ الْقَوْمُ» أي: خَاصَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فِي جِدَالٍ وَمُنَازَعَةٍ.

جملة: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حَالِيَّةٌ مُقَدِّمَةٌ عَلَى مَقُولِ الْقَوْلِ.

﴿تَاللهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٩٧ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾:

﴿تَاللَّهِ﴾: التاء من حروف القسم، قال سيبويه: إِنَّ الْعَرَبَ لَا يُدْخِلُونَ تَاءَ الْقَسَمِ فِي غَيْرِ لَفْظِ «اللَّهُ». فلا يقولون مثلاً «تَرَبِّي» كما يقولون: «وربِّي» وجواب القسم: ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «إِنْ» هُنَا هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَهِيَ مَهْمَلَةٌ مِنَ الْعَمَلِ، وَاللَّامُ فِي [لَفِي] هِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَ «إِنْ» الْمُخَفَّفَةِ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ«إِنْ» النَّافِيَةِ، وَهِيَ مُؤَكَّدَةٌ لَخَبَرِ [كُنَّا].

﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أَي: لَفِي ضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ، وَهَذَا الضِّيَاعُ مُبِينٌ، مِنْ فِعْلٍ «أَبَانَ» الْإِلَازِمُ بِمَعْنَى: «ظَهَرَ وَوَضَحَ» أَي: لَفِي ضَلَالٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ ظَاهِرٍ وَوَاضِحٍ.

﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: [إِذْ] ظَرْفِيَّةٌ فِيهَا مَعْنَى التَّعْلِيلِ، أَي: كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ حِينَ كُنَّا نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي إِلَهِيَّتِهِ أَوْ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَتَعْبُدُكُمْ كَعِبَادَةِ الْعَابِدِينَ لَهُ.

يُقَالُ لُغَةً: «سَوَّى الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ» أَي: جَعَلَهُ مَسَاوِيًّا لَهُ مُمَازِلًا مُعَادِلًا.

[رَبُّ الْعَالَمِينَ] هُوَ الْخَالِقُ لِمَا سِوَاهُ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْعَالَمِينَ دَوَامًا بِصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا مِرَارًا.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾: أَي: وَمَا كَانَ سَبَبَ ضَلَالِنَا عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْهُدَى غَيْرُ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةً لِلشُّرْكِ بِرَبِّنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذْ جَعَلُوا نَفُسَهُمْ جُنُودًا لِإِبْلِيسَ فِي الْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ عَنْ الْحَقِّ وَالْهُدَى وَفِعْلِ الْخَيْرِ، وَعَنْ صِرَاطِ النِّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

الْمُجْرِمُونَ: هُمْ مَرْتَكِبُوا الْجَرَائِمَ الْكُبْرَى، وَالْآثَامَ الْعَظْمَى، وَمَنْ أَشْنَعُهَا الْإِغْوَاءُ، وَدَفْعُ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى الْعَوَايَةِ، وَأُطْلِقَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مُسْتَحَقِّي الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ عَلَى تَنَازُلِ دَرَكَاتِهِمْ فِيهَا، حَتَّى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْهَا.

وبعد هذا قالوا مُتَحَسِّرِينَ:

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

[مِنْ] زِيدَتْ لتأكيد استغراق عُمومِ النفي والتنصيص عليه، أي: فَلَيْسَ لَنَا شَافِعُونَ بالاستغراق الشَّامِلِ يشفعون لنا، فَوَاحَسَرْنَا على ما فَرَّطْنَا فِي جَنبِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لَنَا صَدِيقٌ مَا حَمِيمٌ يَنْصُرُنَا أَوْ يُوَسِّسِنَا فِي عَذَابِنَا فَوَاحَسَرْنَا على ما فَرَّطْنَا فِي جَنبِ اللَّهِ!!

الصَّدِيقُ الحميم: هو الَّذِي يَوَدُّكَ وَيُدَافِعُ عَنْكَ، وَتَوَدُّهُ وَتُدَافِعُ عَنْهُ. كُلُّ خُلَّةٍ وَصَدَاقَةٍ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ، تَنْقَلِبُ إِلَى عَدَاوَةٍ شَدِيدَةٍ يَوْمَ الدِّينِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أَمَّا الْمُتَّقُونَ فَيَحْفَظُ اللَّهُ لَهُمْ خُلَاتِهِمْ وَمَوَدَّاتِهِمْ، لِأَنَّهَا مِنْ عُنَاصِرِ سَعَادَاتِهِمْ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ.

وَأخِيرًا يُعْلِنُ هَؤُلَاءِ الْغَاوُونَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْْبُدُونَ مَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَمَيُّهُمُ، أَنْ تَكُونَ لَهُمْ عَوْدَةٌ إِلَى حَيَاةِ الْامْتِحَانِ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، لَا يُخَالِطُ إِيْمَانَهُمْ شِرْكٌ مَا، فَيَقُولُونَ:

﴿قُلُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: الْفَاءُ عَاطِفَةٌ [لَوْ] هُنَا

لِلتَّمْنَى، إِذْ عَلِمُوا أَنَّ طَلَبَهُمُ الرَّجْعَةَ إِلَى حَيَاةِ الْامْتِحَانِ، فَيَكْرَهُوا مِنْهَا مُؤْمِنِينَ إِلَى حَيَاةِ الْجَزَاءِ، طَلَبَ مَرْفُوضٍ، فَلَا يَمْلِكُونَ إِلَّا التَّمْنَى.

الْكَرَّةُ: وَاحِدَةُ «الْكَرْ» وَهُوَ الرَّجُوعُ إِلَى الْوَرَاءِ لاسْتِنَافِ الْإِقْبَالِ إِلَى الْأَمَامِ.

[مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]: أَي: مِنْ فِتَّةِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ، الَّذِينَ

لَا يَخَالِطُ إِيْمَانَهُمْ شِرْكٌ فِي رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

وفي ختام هذا الفصل المتعلق بإبراهيم عليه السَّلام ودعوته لأبيه وقومه، جاءت في السُّورة الآيتان اللتان جَعَلَهُمَا اللهُ بمِثَابَةِ فَاصِلٍ يُكْرَّرُ في نِهَآيَةِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ فِي السُّورَةِ مِنْ قِصَصِ رُسُلِ سَبْعَةِ أَقْوَامِهِمْ، وهما:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾:

وقد سبقَ تَدْبِيرُهُمَا، فلا حاجة إلى التكرار، ولا شكَّ أنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام وقومه، وما سَيَلَقُونَهُ يومَ الدِّينِ تشتمل على آيَةٍ عَظِيمَةٍ ذاتِ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تلك العِبَرِ والعِظَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْمُعْنِيَيْنِ بِالْمَعَالِجَةِ فِي السُّورَةِ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا.



الفصل الثالث

لقطات تتعلق بقصة نوح عليه السَّلام وقومه
وهي الآيات من (١٠٥ - ١٢٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴿١٠٦﴾ إِلَيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتَؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَبْنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحْ بَنِيَّ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

تمهيد:

جاء بِشَأْنِ نوحٍ عليه السَّلَامُ وقومِهِ في القرآن الكريم (٢٨) نصّاً من (٢٨) سورة، وهذا هو النَّصُّ الثامن بِحَسَبِ ترتيب النزول، وقد كنت تدبّرت هذه النصوص في كتاب خاصّ بها، عنوانه «نوح عَلَيْهِ السَّلَام وقومه في القرآن المجيد»، واكتشفت عن طريق وضع جداول للأفكار التي اشتملت عليها هذه النصوص، فوجدتها متكاملة فيما بينها، والمكررات فيها هي المدخل إلى ذِكْرِ اللَّقَطَاتِ المختارات في النَّصِّ من السّورة، والموعظة التي تشتمل عليها النصوص، وهي بمثابة تكرير العلاج الدوائي، ثم ما كان مُكرّراً في واقع القصة، فجاء التكرير تنبيهاً عليه.

وإذ أُحِيلُ على ذَلِكَ التدبّر الَّذِي أفرَدْتُ لَهُ كتاباً خاصّاً، فإني أقتصر هنا على تدبّر آيات هذا الفصل، دون توجيه العناية لإبراز التكامل بين هذا النَّصِّ وبين سائر النصوص، الثمانية والعشرين، وقد سبق في هذا الكتاب التدبيريّ تدبّر سبعة نصوصٍ في مواضعها من سورها.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾:

كلمة «قوم» اسمُ جَمْعٍ لآدميٍّ، فيجوزُ في العَرَبِيَّةِ تذكيره وتأنيثه، وهنا جاء تأنيثه. وجاء تذكيره في: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الأنعام آية (٦٦).

واسم الجَمْعِ لغير الآدميِّ يجبُ في العَرَبِيَّةِ تأنيثه دوماً.

القوم: هم الجماعة من الناس الذين تجمعهم جماعة يقومون لها، ذكوراً وإناثاً.

وقد يُخَصَّصُ اللَّفْظُ بِالذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، كقول زهير:

وَمَا أَذْرِي وَلَسْتُ بِإِخَالٍ أَذْرِي أَقَوْمٌ آلَ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءٍ
ونوح عليه السلام قد سبق التعريف به في هذا الكتاب، وهو من
أولي العزم من الرسل.

﴿الرَّسُلِينَ﴾: جاء هنا لفظ المرسلين مجموعاً، وجاء في القرآن نظيره
بالنسبة إلى «عاد» و«ثمود» و«قوم لوط» و«أصحاب الأيكة».
أورد المفسرون عدة احتمالات للمراد بالجمع، ومنها اعتبار مَنْ
كذَّبَ رسولاً واحداً بمثابة مَنْ كَذَّبَ كُلَّ الرُّسُلِ.

والذي ترجَّحَ لَدَيَّ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ لِقَوْمِ نُوحٍ عِدَّةُ رُسُلٍ، وَأَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ
السَّلَامُ كَانَ آخِرَهُمْ إِرْسَالاً إِلَيْهِمْ، أَوْ بَقَاءً فِيهِمْ^(١)، وهذا لا يتعارض مع
ما جاء في حديث الشفاعة يوم الدين، إِذْ يَأْتِي النَّاسُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَعْتَذِرَ
آدَمُ مِنَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، فيقولون له: أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ، إِذْ يُرَادُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ
أَنَّهُ أَوَّلُ الرُّسُلِ مِنْ أُولِي الْعِزْمِ، لَا أَوَّلُ الرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَقَدْ جَاءَ
قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ آدَمُ، وَشِيثُ، وَإِدْرِيسُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا
مِنْ أُولِي الْعِزْمِ، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ يَطُوفُونَ عَلَى كُلِّ
الرُّسُلِ بَلْ يَنْتَقُونَ بَعْدَ نُوحٍ أُولِي الْعِزْمِ مِنْهُمْ، وَهُمْ إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى،
وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ يَأْتُونَ آخِيراً إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فيشفع لهم.

وكذلك جاء للأقوام «عاد» و«ثمود» و«قوم لوط» و«أصحاب الأيكة»
عِدَّةُ رُسُلٍ قَبْلَ: «هود» و«صالح» و«لوط» و«شعيب» عليهم السلام، ولا
داعيَ لِمُخَالَفَةِ ظَاهِرِ الْفَرْقِ الَّذِي جَاءَ مَجْمُوعاً بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾ (١٦٦)؟:

(١) انظر في الصفحة (٣٦١) من المجلد الأول: «هل كان نوح عليه السلام أول رسل
الله للناس؟»

أُخُوَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ قَدْ كَانَتْ أُخُوَّةَ نَسَبٍ، فَهُوَ مِنْهُمْ، وَلَا يَلْزَمُ هَذَا فِي كُلِّ الرُّسُلِ، فَقَدْ جَاءَ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ نَسَبًا، بَلْ كَانَ وَافِدًا إِلَيْهِمْ، وَلَا يَرْجِعُ نَسَبُهُ إِلَى جَدِّهِمْ، فَأُخُوَّتُهُ لَهُمْ قَدْ كَانَتْ أُخُوَّةَ مُوَاطَنَةٍ وَلِسَانٍ، وَأُخُوَّةَ تَرْجِعُ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَوْجِهِ.

﴿أَلَا نُنْفِقُ﴾: عَرَضَ رَفِيقُ بِأَدَاةِ الْعَرَضِ «أَلَا» وَأَرْجَحُ أَنَّهَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، تَسْتَعْمَلُ لِلْعَرَضِ، وَلِلتَّحْضِيضِ، وَلِلإِسْتِفْتَاحِ وَالتَّنْبِيهِ، وَلَيْسَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ هَمْزَةِ الْإِسْتِفْهَامِ وَحَرْفِ النِّفْيِ «لَا» وَلَوْ كَانَ أَضْلُهُا كَذَلِكَ، إِذْ أَقُولُ: إِنَّ ذَلِكَ الْأَضْلَ قَدْ تُنَوِّسِي، وَصَارَتْ «أَلَا» بِالِاسْتِعْمَالِ كَلِمَةً وَاحِدَةً.

وَالَّذِي عَرَضَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ أَنْ يَتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ الْمُؤَجَّلَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُنْزِلُهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ، وَقَدْ تَحَقَّقَ بِإِغْرَاقِهِمْ إِغْرَاقًا جَمَاعِيًّا.

﴿نُنْفِقُ﴾: مُضَارِعُ فِعْلٍ «اتَّقَى» أَي: جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَحْذَرُ وَقَايَةً تَحْمِيَةً، مِنْ ضَرٍّ أَوْ أَذًى أَوْ عُقُوبَةٍ، وَالْوَقَايَةُ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَكُونُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرَكَّ مَا نَهَى عَنْهُ، وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ أَوَّلُ مَا مُمَوِّرٍ بِهِ فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَالْكَفْرُ وَأَدْنَاهُ الشُّرْكُ أَوَّلُ مَنْهِيٍّ عَنْهُ فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

تَقُولُ لُغَةً: «اتَّقَيْتُ اتَّقَاءً» وَ«تَوَقَّيْتُ، تَوَقَّيًّا، وَتُقَيَّ، وَتَقِيَّةً، وَتَقَاءً» أَي: جَعَلْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَا يَضُرُّكَ أَوْ يُؤْذِيكَ أَوْ يُؤْلِمُكَ، أَوْ يُحْزِنُكَ، مَا يَقِيكَ، وَالْإِسْمُ «التَّقْوَى».

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حِكَايَةِ مَعْنَى مَا قَالَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

• ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧):

﴿رَسُولٌ﴾: أَي: نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، لِأَنَّ التَّبَوُّةَ سَابِقَةً لِلرَّسَالَةِ، وَمُرَافِقَةٌ لَهَا دَوَامًا بَعْدَ تَكْلِيفِ النَّبِيِّ مَسْئُولِيَّاتِهَا.

﴿أَمِينٌ﴾: أي: مُتَّصِفٌ بِخُلُقِ الْأَمَانَةِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَأَمِينٌ عَلَى رِسَالَاتِ رَبِّي، أُبَلِّغُهَا لَكُمْ كَمَا أَتْلَقَافَا بِالْوَحْيِ عَنْهُ، لَا أَزِيدُ فِيهَا شَيْئاً مِنْ عِنْدِي، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا.

عبارة [لَكُمْ] معمول للفظ [رَسُولٌ] قُدِّمَ عَلَى عَامِلِهِ لِإِفَادَةِ التَّخْصِيسِ، أَي: رِسَالَتِي خَاصَّةٌ بِكُمْ، فَأَنَا مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَكُمْ، لِأُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِهِ.

والمعنى: إِنِّي لَكُمْ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيسِ نَبِيٌّ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، وَأَمِينٌ عَلَى رِسَالَاتِهِ، أُبَلِّغُكُمْ إِيَّاهَا كَمَا أَتْلَقَافَا بِالْوَحْيِ عَنْهُ، دُونَ زِيَادَةٍ فِيهَا وَلَا نَقْصَانٍ.

وبما أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَى كَوْنِهِ نَبِيّاً رَسُولاً، يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ رِسَالَاتِهِ، أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ، قَالَ لَهُمْ:

• ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٨) : أَي: فَاتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَأَطِيعُونِي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، لَا تَنْكُمُ إِذَا لَمْ تُطِيعُونِي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، كُنتُمْ مُسْتَحَقِّينَ لِعِقَابِهِ وَعَذَابِهِ، فَلَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ قَضِيَّتِي الْخَاصَّةِ بِي، وَإِنَّمَا هِيَ قَضِيَّةُ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، وَلَهَا عِلَاقَةٌ بِي وَبَكُمْ مَعاً.

وقال لهم مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾:

إِنَّ أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْأَقْوَامِ الْمَدْعُوعِينَ مِنْ قِبَلِ أَيِّ دَاعٍ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى مَبْدِئٍ أَوْ فِكْرَةٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ جَمَاعَةٍ، أَنْ يَتَّهِمُوهُ بِأَنَّهُ لَهُ مَصْلَحَةٌ شَخْصِيَّةٌ مِنْهُمْ، يَحْصُلُ عَلَيْهَا مِنْ جَرَاءِ اتِّبَاعِهِمْ لَهُ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ أَنْ يُعْلِنَ الرَّسُولُ تَجَرُّدَهُ مِنْ أَيَّةِ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ يَحْصُلُ عَلَيْهَا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَذْنَى الْمَصَالِحِ وَأَخْفَهَا، مَطَالِبَتُهُمْ بِأَجْرِ عَلَى مَا يُقَدِّمُ لَهُمْ مِنْ تَعْلِيمٍ وَنُصْحٍ

وإِرشَاد، ومُجَاهِدَةٌ فِي ابْتِغَاءِ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَتَدْرِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَشَاعِرِهِ، وَأَثَارِهِ فِي السُّلُوكِ، وَعَلَى مُمَارَسَةِ الْفَضَائِلِ الْخُلُقِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفَقَّ أَحْكَامَ شَرَائِعِهِ.

وظاهر أَنَّ التَّجَرُّدَ وَالتَّبَرُّؤَ مِنْ أَذْنَى الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ وَأَخْفَهَا، يَسْتَلْزِمُ بَدَاهَةَ التَّجَرُّدِ مِمَّا هُوَ أَضْعَبُ عَلَى نَفُوسِ الْقَوْمِ وَأَشَدَّ.

ولكن لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أَجْرًا مَّا مُطْلَقًا، فَهَذِهِ مِثَالِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَشَرِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أُولَى الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَهُوَ لَا يَدَّعِيهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ هُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ يَظْفَرُ بِهِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمَدْعُودِينَ بِأَجْرِ الدُّعَاءِ إِلَى دِينِهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ. وَلَثَلَا يَفْهَمُ مِنْهُ هَذَا الْفَهْمُ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أَي: مَا أَجْرِي الَّذِي أَسْتَحِقُّهُ إِلَّا عَلَى كِفَالَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ وَخَدَهُ الضَّامِنُ لَهُ، وَهُوَ وَخَدَهُ الَّذِي تَحْمَلُهُ وَتَكْفُلُ بِهِ، وَهُوَ وَخَدَهُ الَّذِي أَثِقُ بِأَنْ يَمْنَحَنِي إِيَّاهُ يَوْمَ الدِّينِ.

وبناءً عَلَى هَذَا فَإِنِّي أُعِيدُ عَلَيْكُمْ مَقَالَتي لَكُمْ، وَأَنَا مَتَّصِفٌ بِكَامِلِ التَّجَرُّدِ مِنْ أَيَّةِ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ أَطْلُبُهَا لِنَفْسِي مِنْكُمْ:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾.

قول الله عز وجل:

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝﴾؟:

﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾: أَي: أَنْتُمْ بِكُمْ وَبِمَا جِئْتُمْ بِهِ، مُسْلِمِينَ وَمُنْقَادِينَ لَكُمْ. ضَمَّنَ فِعْلَ «نُؤْمِنُ» مَعْنَى فِعْلِ «نُسْلِمُ» فَعْدِي تَعْدِيَّتُهُ، فَأَغْنَتْ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ.

﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾: أَي: وَالْحَالُ أَنَّهُ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ.

الْأَرْذَلُونَ: هُمُ الْأَخْسَنُونَ مِنَ النَّاسِ، أَصْحَابُ الْمِهَنِ الْحَقِيرَةِ، والأعمال التي يترفع عنها أهل الكرامة والشرف، و يترفع عنها أيضاً الذين هم من وسط الناس، وَقَدْ عَرَّفُوهُمْ بِأداة التعريف «ال» للدلالة على أَنَّهُمْ مُشْتَهَرُونَ بِالْأَرْذَلِيَّةِ، فهم يذكرون بها.

وَالْأَرْذَلُونَ أَيْضاً: هم أهلُ الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا في المجتمع، والذين لَهُمْ أعمالٌ رَدِيئَةٌ، أو هم مَتَّهَمُونَ بِالْقَبَائِحِ وفِعْلِ الرَّذَائِلِ.

ويظهر أَنَّ الذين قالوا هذه المقالة هُمُ كبراء قوم نوح وملوهم، وَرَبَّمَا قَالَهَا مَنْ هُم من وسط الناس، لَأَنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَخُصَّ الْمَلَأَ في هذا النصِّ بالذكر.

لقد استكبر قومُ نوح عليه السَّلام عن اتِّباعه، وَتَعَلَّلُوا بِأَنَّهُ قد اتَّبَعَهُ الْأَرْذَلُونَ فَيَمَنْ اتَّبَعَهُ، فَهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ يَكْثُرُ في أَتْبَاعِهَا الْأَرْذَلُونَ.

وَيُذَكِّرُ الْمَتَدَبِّرَ أَنَّهُمْ تَعَلَّلُوا بهذه العلة في مرحلة متقدمة من مراحل دعوته لقومه، ولهذا اقتصر النصُّ هنا على بيان هذا التعلُّل من تعللاتهم، ثم جاء في نصوص أخرى إضافة تعللات لم تذكر في هذا النصِّ، للإشارة إلى أَنَّها كانت في مراحل لاحقة من مراحل دعوته لقومه.

ولما كانت كلمة الْأَرْذَلِينَ قد تعني فريقين من الناس:

١ - فريق المتَّهَمِينَ بِفِعْلِ الْقَبَائِحِ وَالرَّذَائِلِ.

٢ - فريق أهل الطبقة الاجتماعية الدُّنْيَا وَالْمِهَنِ الْحَقِيرَةِ.

كان جوابُ نوح عليه السَّلام يتضمَّن الردَّ على الأمرين معاً، فقال لهم ما أبانه الله عزَّ وجلَّ بقوله:

• ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: أَنُؤْمِنُ وَنُؤْخِذُ مُنْقَادِينَ لَكَ، وَالْحَالُ أَنَّهُ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَرْذَلُونَ، لَيْسُوا أَخْفَاءَ عَلَيْكَ، فَأَجَابَهُمْ بِهَذَا الْجَوَابِ.

أي: وَمَا تَأْثِيرَ عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فِي دَعْوَةِ رَبَّانِيَّةِ أَمْرِي رَبُّ الْعَالَمِينَ بِأَن أُبَلِّغَهَا لَجَمِيعِ قَوْمِي دُونَ اسْتِثْنَاءِ.

أَلَيْسَ هَؤُلَاءِ بَشَرًا مُطَالِبِينَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَهْمَا كَانَتْ طَبَقَتُهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي نَظَرِكُمْ طَبَقَةً خَاسِيَّةً.

أَلَا يَسْتَحَقُّونَ مِثْلَ غَيْرِهِمْ ثَوَابَ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ، إِذَا آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؟!

أَلَا يَسْتَحَقُّونَ مِثْلَ غَيْرِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ وَالنَّارَ، إِذَا كَفَرُوا وَعَمِلُوا السَّيِّئَاتِ؟!

أَلَيْسُوا بَشَرًا قَابِلِينَ لِلتَّوْبَةِ وَالْإِصْلَاحِ مَهْمَا كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ رَذِيلَةً سَيِّئَةً قَبْلَ الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ؟!

إِنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ يَجْبَانِ مَا كَانَ قَبْلَهُمَا مِنْ مَعَاصِي وَأَثَامِ.

وَإِذَا كُنْتُ أَغْلَمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ، فَهَلْ مِنْ وَظِيفَتِي أَنْ أَحَاسِبَهُمْ عَلَيْهَا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ؟!

إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ رِسَالَاتِ رَبِّي، أَمَّا حِسَابُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فَعَلَى رَبِّي، وَهُوَ الَّذِي سَوْفَ يَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِيمَا يَجَازِي عَلَيْهِ، وَفِيمَا يَكْفُرُهُ مِنْ خَطَايَا، وَلَا سِيمَا جُبُّ الْخَطَايَا الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١٣﴾

فَعِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَجْعَلُنِي أَتْرُكُ دَعْوَتَهُمْ، وَهُمْ بَشَرٌ مِنْ

عباد الله، مَسْئُولُونَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وهم في الحياة الدنيا مُمْتَحَنُونَ كَغَيْرِهِمْ، وَسَوْفَ يُحَاسَبُونَ يَوْمَ الدِّينِ، ويجازَوْنَ على أعمالهم كَغَيْرِهِمْ، وأنا رَسُولُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ في دائرة امتحان النَّاسِ في الحياة الدنيا.

ويدلُّ حرف العطف في أوَّل قول نوح عليه السَّلام لِقَوْمِهِ عَنِ الْأَرْذَلِينَ:

﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على أَنَّهُ قد قال كلاماً قَبْلَهُ، وعطف عليه هذا القول، والمعطوف عليه مَطْوِيٌّ في النِّصِّ القرآني، وَنَسْتَطِيعُ بالتأمل أَن نَكْشِفَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

إِنَّ نوحاً عليه السَّلام لا بُدَّ أَن يكون قَدْ قَدَّمَ لقومه بياناً دَلَّهم فيه على أَنَّ هؤلاء الذين يَرَوْنَهُمُ الْأَرْذَلِينَ هُمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وَمَسْئُولُونَ تُجَاهَ رَبِّهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَدَعْوَتِهِمْ وَدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَلَيْسَ مَبْعُوثاً لَطَبَقَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ خَاصَّةٍ دُونَ طَبَقَةٍ أَوْ طَبَقَاتٍ أُخْرَى، فقال لهم بعد هذا البيان:

• ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾:

وأعلن تَمَنِّيَهُ أَن يَشْعُرُوا بِالْحَقَائِقِ الَّتِي أَبَانَهَا قَائِلًا لَهُمْ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، فلفظ «لَوْ» هنا حرف تَمَنٍّ، أي: أتمنَّى لكم أَن تَشْعُرُوا بِهِذِهِ الْحَقَائِقِ.

الشُّعُورُ بِالشَّيْءِ أَوَّلُ مَرَاكِزِ إدْرَاكِهِ، وَلَعَلَّهُ مَأْخُوذٌ فِي اللُّغَةِ مِنَ الشَّيْءِ يُلَامِسُ الشَّعْرَ، فَيُحَسُّ بِهِ الْإِنْسَانُ إحْسَاساً خَفِيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ تَوْسَعاً إِلَى الْإِدْرَاكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولَى الْخَفِيفَةِ.

ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ الشُّعُورِ إدْرَاكَاتٌ أَقْوَى قَدْ تَوَصَّلَ إِلَى الْعِلْمِ، فَإِلَى الْيَقِينِ.

ومع هذا التَّمَنِّي يُلَمِّحُ نوحٌ عليه السَّلام إلى أنَّهم ما زَالُوا في جَهَالَةٍ مُطَبِّقَةٍ، إِذْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى مَرَحَلَةِ الشُّعُورِ بِأُولَى الْحَقَائِقِ الَّتِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهَا.

وطلَّبهُ كُبرَاءُ قَوْمِهِ وَمَعَهُمْ أَوْسَاطُهُمْ، بَأَن يَطْرُدَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مُؤْمِنِينَ بِهِ، وبما جاء به عن الله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهم الذين وَصَفُوهُمْ بِأَنَّهُم الْأَرْذَلُونَ، واعتبروا طَرْدَهُ لَهُمْ شرطاً لقبول اتِّباعه والإسلام له، دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَطْلَبِ مِنْ مَطَالِبِهِمْ قَوْلُهُ الَّذِي حَكَى اللهُ مَعْنَاهُ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زِيدَتْ «الباء» فِي ﴿يَطَارِدِ﴾ لِلتَّوَكِيدِ.

طارِد: اسم فاعل من فعل «طَرَدَهُ، يَطْرُدُهُ، طَرَدًا» أَي: نَحَاهُ وَأَبْعَدَهُ وَمَنَعَهُ مِنَ الْإِقْتِرَابِ، اسْتِخْفَافاً بِهِ، أَوْ عِقَاباً لَهُ.

لَمْ يَقُلْ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلام: وما أنا بطاردهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: إرادة التعميم.

الأمر الثاني: بيان الدَّاعِي الَّذِي يوجب عليه أَن يمتنع عن طَرْدِهِمْ، وَهُوَ وَصْفُ الْإِيمَانِ.

أَي: وما أنا بطارد أَيِّ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ دَخَلُوا فِي سِلْكِ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، إِذِ الْإِيمَانُ يَجْعَلُهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، مَهْمَا كَانَ وَضْعُهُمْ الْاجْتِمَاعِي قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَهْمَا كَانَ سُلوُكُهُمْ مِنْ قَبْلُ، فَالْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ.

وأخيراً أَبَانَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومه وَظِيفَتَهُ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَقُومَ بِهَا تُجَاهَ الْمَكْذِبِينَ الْجَاكِدِينَ، فَقَالَ لَهُمْ مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

• ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١١٥): «إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَى «مَا». أَي:

ما أنا بالنسبة إلى غير المُستَجِيبين لدَعَوَتِي، الراضين لها بعدَ البيان الكافي الوافي، بإصرارٍ ومُعانَدَةٍ، واستِكْبَارٍ عن اتِّباع الحقِّ، وإيثارٍ لمتاع الحياة الدُّنيا، إلَّا نذيرٌ مُبين.

فهو عليه السَّلام يُنذِرُهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَكِبَرِهِمْ، وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَاضِحٌ فِي رِسَالَتِهِ كُلِّ الْوُضُوحِ، يَدْعُو كُلَّ طَبَقَاتِ الْمَجْتَمَعِ، وَكُلَّ أَفْرَادِهِ الْمُؤَهَّلِينَ لِإِذْرَاكِ الدَّعْوَةِ، أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا.

وَلَيْسَ صَاحِبَ تَنْظِيمٍ سَرِّي يُخْفِي فِيهِ بَعْضَ مَبَادِئِهِ وَغَايَاتِهِ، وَيَجْمَعُ عَلَى مَا يُخْفِي فِيهِ أَصْحَابُ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مِنْهُ، وَيُتَعَدُّ الْآخَرِينَ.

إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ مُبِينٌ، وَاضِحٌ كُلِّ الْوُضُوحِ، مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» اللَّازِمِ، بِمَعْنَى ظَهَرَ وَاتَّضَحَ فَهُوَ «مُبِينٌ» أَي: ظَاهِرٌ وَاضِحٌ، وَهُوَ أَيْضاً مُبِينٌ لِكُلِّ عُنَاصِرٍ دَعْوَتِهِ، لَا يُخْفِي مِنْهَا شَيْئاً، مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» الْمُتَعَدِّي، أَي: أَبَانَ الشَّيْءَ إِذَا أَظْهَرَهُ وَوَضَّحَهُ.

وَهَكَذَا كُلُّ الْمُرْسَلِينَ الْمَبْعُوثِينَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهَكَذَا كُلُّ رِسَالَاتِ اللَّهِ لِلنَّاسِ، إِنَّهَا ذَوَاتُ بَيَانَاتٍ وَاضِحَاتٍ مَعْرُوضَاتٍ لِلْجَمِيعِ عَلَى السَّوَاءِ.

وَجَاءَ تَخْصِيصُ وَصْفِ «نَذِيرٍ» بِالذِّكْرِ هُنَا لِأَنَّ الْمَخَاطِبِينَ مِنْ قَوْمِهِ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلدَّعْوَةِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَا بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ لَهُمْ «نَذِيرٌ» مَا دَامُوا عَلَى هَذَا الْوَضْفِ.

فَالْقَصْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ النِّفْيُ الْإِسْتِثْنَاءُ هُنَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ، لَا الْحَقِيقِيِّ، أَي: مَا أَنَا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْكُمْ فِي مَوْضِعِ رِسَالَتِي، بَعْدَ أَنْ أُبَلِّغْتُكُمْ مَا أَمَرَنِي رَبِّي بِتَبْلِيغِهِ إِلَّا مَنْذَرٌ لَكُمْ بِعَذَابِ رَبِّي، وَيَشْمَلُ هَذَا الْإِنْذَارُ مَوْجَلَ الْعِقَابِ وَمَعْجَلَهُ.

ولو أنهم آمنوا لكان لهم «بشيراً» بثواب الله العظيم في جنّات النعيم.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١١٦﴾:

لقد انتهت المراجعات الجدليّة الكلاميّة بين نوح وقومه في آخر مراحل دعوته لهم، عند الموقف الحازم الذي أعلن فيه قوله لهم: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١٥﴾، وأعلنوا فيه إصرارهم على الكفر، وتمسكهم بباطلهم، ومعاداتهم للحقّ الربّاني وللداعي إليه.

وإذ لم يبقَ في جعّة نوح عليه السلام إلا أن يُنذَر كفّار قومه بعقاب الله لهم، وإذ بلغ كفّار قومه إلى حالة ميؤوسٍ معها من أن يؤمنوا عن طريق إراداتهم الحرّة، كان من تلقائية الرد أن يهدّده بالرجم إن لم ينته عن متابعه دعوته لهم، بمنهج الإقناع وبالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، وبالمجادلة الحكيمة بالتّي هي أحسن.

• ﴿... لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١١٦﴾:

اللام في [لئن] موطئة للقسم، فهي واقعة في جواب قسم منويّ، أي: نقسم لئن لم تنته يا نوح عن متابعة الدّعوة إلى دينك، والمُحاجة والمجادلة للإقناع به، لنحكمنّ عليك وعلى من آمن معك بالقتل رجماً بالحجارة، ولننفذنّ ذلك عملياً، ولكوننّ واحداً من المرجمين الذين سنرجمهم ونخلص منهم.

وبهذا قطعوا عليه طريق متابعه دعوته لمن يستمع إليه من قومه، ويظهر أنهم أصدروا قرارهم برجمه ورجم الذين يدعون إلى دينه من الذين آمنوا به، فتوجّه نوح عليه السلام لربه داعياً.

قال الله عز وجل قاصاً ما دعا به نوح عليه السلام ربه:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾:

فأبان نوح عليه السلام في دُعائه لربه أنه يؤس من إيمان قومه عن طريق إراداتهم الحرّة يأساً نهائياً، إذ قال في دُعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ وفي قراءة يعقوب: [كَذَّبُونِي] بإثبات ياء المتكلم، أي: إنَّ كلَّ قومي كَذَّبُونِي باستثناء القلّة الذين آمنوا بي واتبعوني، ومنعوني من متابعة دعوتي في عامتهم، فلم يبق لي مطمَع في هداية أحدٍ منهم غير الذين آمنوا بي، وقد بلغوا دركة التّكذيب الجازم لي، بعد كلِّ بياناتي ومجادلاتي لهم.

وطوى عليه السلام في دُعائه لربه، ذكر تهديد كُبراء قومه له ولمن آمن به واتبعهُ، بالقتل رجماً بالحجارة، إذا تابَعُوا الدَّعوة في عامتهم إلى الإيمان بالله وبالذين الذي اصطفاه لعباده، واكتفى في دُعائه بقوله:

﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾:

الفتح: يُطْلَقُ في اللغة على النصر، ويُطْلَقُ على الحكم والقضاء.

ويظهر أن المراد بقول نوح عليه السلام في دُعائه لربه: ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاقض ربّ واحكم بيني وبين قومي، مُنتَصِراً لأوليائك على أعدائك بما تشاء من فتح، فقد وصل قومي إلى دركة لا مطمَع بعدها في استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرّة لدعوة الحق، ولم يبق إلا أن تفصل الحكم والقضاء المعجل في الحياة الدنيا بحكمتك بيني وبينهم.

ولم يذكر نوح عليه السلام في دُعائه لربه نوعاً من أنواع الفتح الذي سأله ربه، بل قال: ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: فتحاً ما بحكمتك وعلى مرادك. وربما يكون مراده فتحاً عظيماً شاملاً يُناسب غلوهم في العناد والكفر والتكذيب، ويُناسب توعدهم له بالقتل رجماً بالحجارة.

﴿...وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وَنَجِّنَا مِمَّا تَوَعَّدُونَا بِهِ،
فالموقفُ بيننا قد صار موقفَ قوَّةٍ مادِّيَّةٍ، لَا نَسْتَطِيعُ مُوَاجَهَتَهَا بِقُوَّتِنَا دُونَ
أَنْ تَنْصُرَنَا أَنْتَ بِنَصْرِكَ رَبَّنَا.

لقد كانت قوَّةُ نوحٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تُكَافِئُ بِمَقْتَضَى نِظَامِ
الْكَوْنِ السَّبَبِيَّ قُوَّةَ قَوْمِهِ الَّذِينَ تَوَعَّدُوهُمْ بِالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ تَوَقَّفَ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ،
عَنِ الْقِيَامِ بِدَعْوَةِ كُفَّارِ قَوْمِهِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَاقْتَصَرَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَاتَّبَعُوهُ، خَشْيَةً أَنْ يَتَعَرَّضَ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ لِلْقَتْلِ، بِدَلِيلِ أَنَّ النُّصُوصَ
الْقُرْآنِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِقِصَّةِ نُوْحٍ لَمْ تَذْكَرْ شَيْئاً عَنْ أَعْمَالٍ قَامَ بِهَا كُفَّارُ قَوْمِهِ
لِتَنْفِيزِ مَا تَوَعَّدُوهُمْ بِهِ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ أَيْضاً أَنَّ دُعَاءَ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ
مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَدْ كَانَ بَعْدَ أَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ بِالتَّزَامِ الصَّمْتِ عَنِ الدَّعْوَةِ
إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، وَهُوَ ذُو الْبَيَانِ وَالْحُجْجِ الْجَدَلِيَّةِ الدَّامِغَةِ، خَوْفاً عَلَى نَفْسِهِ
وَعَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، مِنْ أَنْ يُنْفَذَ فِيهِمْ قَوْمُهُمْ قَرَارُهُمْ الظَّالِمَ الْآثِمَ
الطَّاغِي، فَيَرْجُمُوهُمْ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى الْقَتْلِ.

وطوى النصُّ هنا أحداثاً جَرَتْ بَيْنَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ، وَبَيْنَ نَجَاةِ نُوْحٍ
فِي الْفُلِّ، وَمَا تَبِعَهُ مِنْ إِغْرَاقِ كُفَّارِ قَوْمِهِ.

وَاعْتَبِرَ الْفَاصِلُ الزَّمَنِيُّ بَيْنَهُمَا مَهْمَا كَانَتْ مُدَّتُهُ بِمِثَابَةِ الصَّفَحَاتِ
الْمَنْزُوعَاتِ مِنْ مُجَرَّيَاتِ الْقِصَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

الفاءُ فِي [فَأَنجَيْنَاهُ] فَصِيحَةٌ تَغْطِفُ عَلَى مَنْحَذُوفٍ، يُمَكِّنُ اسْتِخْرَاجَهُ
ذِهْنًا، وَالتَّقْدِيرُ:

فَاسْتَجَبْنَا دُعَاءَهُ مَبَاشَرَةً، فَحَكَمْنَا بِإِغْرَاقِ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ، وَبِنَجَاةِ نُوحٍ
وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، وَأَمَرْنَاهُ بِصُنْعِهِ، وَقَامَ بِأَعْمَالِ الصَّنْعِ
حَتَّى كَمَلَتْ، وَجَاءَ الْمَوْعِدُ الْمُقَرَّرُ، وَأَمَرْنَا نُوحًا بِرُكُوبِ السَّفِينَةِ، وَبِأَنْ
يَحْمِلَ مَعَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَهْلَهُ إِلَّا مَنْ سَبَقَ الْقَوْلُ بِإِغْرَاقِهِ
لِكُفْرِهِ، وَبِأَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِهِ، وَرَكِبُوا، وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ مَاءً،
وَفَاضَتِ الْأَرْضُ يَنَابِيعَ، وَارْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ مَعَ ارْتِفَاعِ الْمَاءِ، وَجَرَتْ بِهِمْ،
وَأُنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ مِمَّا تَوَعَّدَهُ بِهِ قَوْمَهُ.

[الْفُلِّك]: مَرَكَبُ الْبَحْرِ، يُطْلَقُ بِالْإِفْرَادِ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْاثْنَيْنِ
وَالْجَمْعِ، وَيَذَكَّرُ وَيؤنث، وَقَدْ جَاءَ هُنَا مُذَكَّرًا.

[الْمَشْحُونِ]: أَي: الْمَمْلُوءِ، فَالْمَشْحُونُ هُوَ مَلَأُ السَّفِينَةِ، وَإِتْمَامُ
جَهَازِهَا كُلِّهِ.

[ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْبَاقِينَ]: دَلَّ الْعَطْفُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» الدَّالَّ عَلَى
الترتيب مع التراخي، عَلَى أَنَّ إِغْرَاقَ كَفَّارِ قَوْمِهِ قَدْ تَحَقَّقَ بَعْدَ مُدَّةٍ
مُتَرَاخِيَةٍ. وَالذَّهْنُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ الْقَوْمَ أَخَذُوا يَتَسَارَعُونَ إِلَى الْجِبَالِ،
وَالِى كُلِّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ، فِرَاراً مِنْ تَكَاثُرِ الْمِيَاهِ الْمُنْصَبَّةِ مِنَ السَّمَاءِ،
وَالْمُتَفَجِّرَةِ مِنَ الْأَرْضِ، فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ قُوَّةً عَلَى صُعودِ الْجِبَالِ حَتَّى أَعَالِيهَا
بَغْيَةً أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الْغَرَقِ، أَكْثَرُهُمْ فِي تَأْخِيرِ سَاعَةِ الْغَرَقِ عَنْ نَفْسِهِ،
لَكِنْ الْمَاءُ كَانَ يُلَاحِظُهُ صُعوداً شَيْئاً فَشَيْئاً، وَمَرَّتْ أَيَّامٌ وَأَسَابِيعَ، وَأَكْثَرُ،
حَتَّى أَغْرَقَتِ الْمِيَاهُ أَعَالِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ.

عِنْدَئِذٍ تَمَّ إِغْرَاقُ جَمِيعِ الْبَاقِينَ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، وَهُمْ الَّذِينَ
لَمْ يَرْكَبُوا مَعَهُ فِي الْفُلِّ.

كَلِمَةُ [الْبَاقِينَ] تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغَرَقَ عَمَّ كُلَّ قَوْمِ نُوحٍ، بِاسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ
حَمَلَهُمُ الْفُلُّ، وَلَيْسَ صَرِيحاً بِأَنَّهُمْ الْبَاقُونَ فِي عَمُومِ الْأَرْضِ.

وفي ختام هذا الفصل المتعلق بنوح عليه السلام وبقومه، جاءت في السورة الآيتان اللتان جعلهما الله عز وجل بمثابة فاصلٍ يُكرَّرُ في نهاية كُلِّ مَجْمُوعَةٍ من اللَّقَطَاتِ المختارات في السورة، من قِصَصِ رُسُلِ سبعة وأقوامهم، وهما

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُهُمَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّكْرَارِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قِصَّةَ نوح عليه السلام وقومه، قد اشتملت على آية عظيمة ذات عِبَرٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تِلْكَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ فِي السُّورَةِ وَهُمْ كِبَارُ كِفَارِ قُرَيْشٍ، قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، فَهُمْ غَيْرُ مُتَنْظِرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا مَهْمَا أُمْهَلُوا وَعُورِلُوا.



الفصل الرابع

لقطات تتعلق بقِصَّةِ هُودٍ عليه السلام وقومه عاد
وهي الآيات من (١٢٣ - ١٤٠)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةً ثَعْبُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا إِلَهِي أَمَذُّكُمْ يَمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَذُّكُمْ بِأَنْعَمِ رَبِّينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ

فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ :

تمهيد:

سبق تدبر ما جاء بشأن هود عليه السلام، وقومه عاد، في السور التالية، بحسب ترتيب نزول سُورِها:

- ١ - سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول)، الآيات من (٦ - ٩).
 - ٢ - سورة (النجم/ ٥٣ مصحف ٢٣ نزول)، الآية (٥٠).
 - ٣ - سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول)، الآيات من (١٢ - ١٤).
 - ٤ - سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول)، الآيات من (١٨ - ٢١).
 - ٥ - سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)، الآيات من (١٢ - ١٤).
 - ٦ - سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)، الآيات من (٦٥ - ٧٢).
 - ٧ - سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)، الآية (٣٨).
 - ٨ - وهذه الآيات من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (١٢٣ - ١٤٠) تَدْعُو إلى تدبرها مع آيات هذه السورة.
- وبقي بعد هذه الآيات تدبر ما في السور التالية:

- ٩ - سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) الآيات من (٥٠ - ٦٠) و(٨٩).
- ١٠ - سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)، الآية (٣١).
- ١١ - سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول)، الآيات من (١٣ - ١٦).
- ١٢ - سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول)، الآيات من (٢١ -

١٣ - سورة (الذاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول)، الآيتان (٤١ و٤٢).

١٤ - سورة (إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول)، الآية (٩).

١٥ - سورة (الحاقة/٦٩ مصحف/٧٨ نزول)، الآيات من (٤ - ٨).

١٦ - سورة (العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول)، الآية (٣٨).

١٧ - سورة (الحجّ/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول)، الآية (٤٢).

١٨ - سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول)، الآية (٧٠).

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيَّ بِتَدَبُّرِ جَمِيعِ هَذِهِ النُّصُوصِ، تَدَبُّراً تَكَامُلِيّاً، فِي مَلْحَقٍ مِنْ مَلْحَقِ هَذِهِ السُّورِ الَّتِي لَمْ أَتَدَبَّرْهَا بَعْدُ، إِنَّهُ هُوَ الْمُعِينُ وَالْفَتَّاحُ الْوَهَّابُ.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿عَادٌ﴾: أُمَّةٌ مِنَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ، مُسَمَّاةٌ بِاسْمِ جَدِّهَا «عَاد» وَهُوَ مِنْ سُلَالَةِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، وَهِيَ أَرْضٌ مِنْ جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، تَقَعُ فِي شِمَالِ حَضْرَمَوْتِ، وَيَقَعُ فِي شِمَالِ الْأَحْقَافِ الرَّبِيعُ الْخَالِي، وَفِي شَرْقِهَا عُمانُ، وَمَوْضِعُ بِلَادِهِمُ الْيَوْمَ رِمَالٌ قَاحِلَةٌ، وَهِيَ مُطَلَّةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُقَالُ لَهَا: «الشَّخْر» وَاسْمُ وَادِيهِمْ «مَغِيث».

وباقِي تدبر هذه الآية مشابه لتدبر الآية السابقة (١٠٥) بشأن قوم نوح فلا حاجة للتكرار هنا.

قول الله عز وجل:

• ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ إِنِّي لَكُرْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٥﴾ فَأَنفَقُوا اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿١٧٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾﴾:
 وقرأ يعقوب: [وأطيعوني] بإثبات ياء المتكلم.

هذا البيان عن قول هود عليه السلام لقومه عاد في دعوته مطابق تماماً للبيان الذي سبق عن قول نوح لقومه في دعوته لهم، فالتدبر الذي سبق للآيات من (١٠٥ - ١٠٩) المتعلقة بقصة نوح وقومه يُلاحظ كله هنا، إلا اسم الرسول، فهناك «نوح» عليه السلام، وهنا «هود» عليه السلام. وهذا من شواهد وخدة رسالات الله لعباده، ولو تعدد المرسلون في الأمم.

﴿هُودٌ﴾: نبي من أنبياء الله ورسول من رسله، بعثه إلى عاد، القوم الذين سبق التعريف بهم آنفاً، وهو منهم نسباً، يصل نسبُه إلى سام بن نوح عليه السلام، وهو منهم موطناً ولغة.

وجاء في تفصيل نسبه ثلاثة أقوال، لم أر داعياً إلى ذكرها هنا.

قول الله عز وجل في حكاية بعض ما قاله لقومه:

• ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٧٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٨٠﴾ فَأَنفَقُوا اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿١٨١﴾﴾:

﴿أَتَبْنُونَ؟!﴾: استفهام فيه معنى الإنكار عليهم، لاتهامهم إياهم بالعبث في قوله لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: أي: بكل طريق. الرِّيعُ: السبيل، سلك أم لم يسلك - الطريق المنفرج بين الجبل - الطريق عامة. والظاهر أن لفظ «كل» لإفادة الكثرة لا الاستغراق.

﴿ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾: أي: أتبنون علامةً مُرتفعةً بكل طريق لا مصلحة لكم

فيها، ولا نفعَ فيها، والاشتغالُ ببنائها وإنفاقُ الأموال فيها عبثٌ لا فائدة فيه، وهذا يدلُّ على أنهم كانوا أهلَ بناءٍ حضاري، وكانوا يتفاخرون ببناء الآياتِ المُرتَفَعَاتِ، كالتماثيل التي يَصْنَعُهَا بَعْضُ الملوك والرؤساء لأنفسِهِم، وَيَنْصِبُونَهَا فِي مواضع بارزة من الطُّرُق والميادين، لِيَشْهَدَهَا الغادون والرائحون، وكالمِسلَّاتِ التي كان قُدَمَاءُ المِصْرِيِّينَ يَنْصِبُونَهَا، لِلتَّفَاخُرِ بِسُلْطَانِهِم، وَعِظَمَةِ مُلْكِهِم.

إنَّهَا لو كانت أُنْبِيَّةَ حَضَارِيَّةً نَافِعَةً، لَمَا لَامَهُمْ رَسُولُهُمْ هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهَا، بَلْ هِيَ أُنْبِيَّةٌ يَبْنُونَهَا لِمَجَرَّدِ التَّفَاخُرِ والتعظيم، فَهِيَ عَبْثٌ لَا نَفْعَ فِيهِ.

الْعَبْثُ: هُوَ الْعَمَلُ فِيمَا لَيْسَ لَهُ فَائِدَةٌ تُرْجَى مِنْهُ، فَتَضْيِيعُ الطَّاقَةِ الْمَبْدُولَةِ فِيهِ دُونَ تَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ.

• ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩): أَرَى أَنَّ الْكَلَامَ هُنَا مُسْتَأْنَفٌ، أَوْ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى كُلِّ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، وَلَيْسَ الْاِسْتِفْهَامُ التَّلْوِيْمِي مُسَلِّطاً عَلَى ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، لِأَنَّ اتِّخَاذَ الْمَصَانِعِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا لَيْسَ مِنْ قِبَلِ الْعَبْثِ، بَلْ فِيهَا مَصَالِحٌ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أَي: وَأَنْتُمْ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ، أَلَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ.

المصانع: جَمْعُ مَفْرُودَةٍ «الْمَصْنَعَةِ» و«الْمَصْنَعِ» وَهِيَ كُلُّ مَا يُصْنَعُ مِنْ أُنْبِيَّةٍ، وَقُصُورٍ، وَحُصُونٍ، وَأَحْوَاضٍ مِيَاءٍ، وَنَحْوِهَا.

قَالَ الْأَضْمَعِيُّ: الْعَرَبُ تُسَمِّي الْقَرْيَ (أَي: كُلُّ مُجْمَعٍ سَكَنِي) مَصَانِعَ، وَاجِدَتْهَا مَصْنَعَةً.

فَالْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ نِعَمًا وَفِيرَةً، مِنْ مَظَاهِرِهَا أَنَّكُمْ تَبْنُونَ مُدُنًا وَقُصُورًا وَحُصُونًا وَأَحْوَاضَ مِيَاءٍ، وَهَذِهِ أَنْسَكْتُمْ الْمَوْتَ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ بَعْدَ الْبَعْثِ، فَتَرَكْتُمْ الْعَمَلَ فِيمَا يَقِيكُمْ عَذَابَ

اللَّهُ يَوْمَ الدِّينِ، من إيمانٍ صحيح، وطاعةٍ لله فيما يأمرُكم به وفيما يَنْهَأُكُمْ عَنْهُ، وقد كَانَ الواجِبُ عليكم أَنْ تَشْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالإيمان الصحيح الصادق، وبالإسلام له والعمل بمراضيه، لَا أَنْ تَسْتَخْدِمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ في معصيته.

وعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَكْثَرُ فِكْرَةٍ زِيَادَةٍ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يُبَالِغُونَ في إنشاءِ الْمُنْشآتِ الحضاريةِ الَّتِي تَفَوَّقُوا فيها على الأَقْوَامِ من حولهم، حَتَّى صَارُوا يَنْبُونُ الْمَبَانِي الْعَبَثِيَّةَ لِلتَّفَاخُرِ، غُلُوبًا في الدَّلَالَةِ على أَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ مُتَرْفُونَ، وتَدُلُّ مَظَاهِرُهُمْ على أَنَّهُمْ نَسُوا الْمَوْتَ، وَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ خَالِدُونَ، فجاءت عبارة هود عليه السَّلَام لهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ بمثابةِ قوله: أَلَعَلَّكُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ في هذه الحياة الدُّنْيَا، الَّتِي تُبَالِغُونَ في اتِّخَاذِ مَا يُتْرَفِكُمْ فيها نَاسِينَ الْمَوْتَ، وَالبَعْثَ، وَيَوْمَ الدِّينِ.

كلمة «لَعَلَّ» تَدُلُّ على معنى التَّوَقُّعِ، وَسَيَقْتُ هُنَا مَسَاقَ الشَّيْءِ الْمُسْتَفْتِهِمِ عَنْهُ، أَي: أَتَتَوَقَّعُونَ أَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ، مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ يَقِينٌ لَا يَنْزِلُ عَنْ مَسْتَوَى الْيَقِينِ، وهذا التَّوَقُّعُ أَنْسَاكُمْ الْعَمَلَ لِلْآخِرَةِ.

● ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٥﴾﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ هود عليه السَّلَام سَاقَهَا مَسَاقَ عِبَارَتِهِ قَبْلَهَا.

أَي: وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ بِالْقُوَّةِ الْمُتَفَوِّقَةِ على قُوَى كُلِّ الْأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِكُمْ، حَتَّى صِرْتُمْ بِامْتِلَاكِكُمْ لِلْقُوَى الَّتِي سَبَقْتُمْ بِهَا مَنْ حَوْلَكُمْ جَبَّارِينَ في الْأَرْضِ، فَإِذَا بَطِشْتُمْ بِأَعْدَائِكُمْ أَوْ بِخُصُومِكُمْ بَطِشْتُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ جَبَّارِينَ ظَالِمِينَ طُغَاةَ بُغَاةٍ بغيرِ حَقٍّ.

﴿بَطِشْتُمْ﴾: الْبَطْشُ: «التَّناوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَةِ - الْأَخْذُ الشَّدِيدُ في كُلِّ شَيْءٍ - الْأَخْذُ الْقَوِيَّ الشَّدِيدَ - السَّطْوُ في سُرْعَةٍ». تَقُولُ لُغَةً: «بَطِشَ، يَبِطِشُ، وَيَبِطِشُ، بِطِشًا».

﴿جَبَّارِينَ﴾: جمع مفردة «جَبَّار»، وَيُطْلَقُ عَلَى: «مَنْ يُكْرِهُ النَّاسَ بِالْقُوَّةِ وَالْعُنْفِ عَلَى مَا يُرِيدُ بغيرِ حقٍّ - وعلى الْمُكْرِهِ الْمُجْبِرِ بِسُلْطَانِهِ - وعلى المتكبر، والعاتي، والمُتَسَلِّطِ بِالْقُوَّةِ».

المعنى: وَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالْقُوَّةِ السَّابِقَةِ الْمُتَفَوِّقَةِ، أَنْ تَقِيمُوا الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، لَا أَنْ تَكُونُوا مُسْتَكْبِرِينَ عَتَاةً تَسْلُطُونَ عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ، وَتُكْرِهُونَ النَّاسَ عَلَى مَا تُرِيدُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتَبْطِشُونَ جَبَّارِينَ.

● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣٠): أَي: فَاتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبَّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، بَعْدَ اسْتِخْدَامِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِمَّا أُثْرِفْتُمْ فِيهِ، وَمِنْ قُوَى مُتَفَوِّقَةٍ سَابِقَةٍ لِقَوَى مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ، فِي مَعْصِيَتِهِ وَفِي ظَلَمِ عِبَادِ اللَّهِ، وَالْعَتْوِ وَالطَّغْيَانِ فِي الْأَرْضِ، وَأَطِيعُونِي فِيمَا أَوْصَيْكُمْ بِهِ، وَفِيمَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ، بَلَاغاً عَنْ رَبِّكُمْ، فَإِنَّ فِي اتِّخَاذِكُمْ مَا تَقُونَ بِهِ عَذَابَ رَبِّكُمْ، وَفِي طَاعَتِي الَّتِي يَأْمُرُكُمْ بِهَا رَبِّكُمْ، سَعَادَةً لَكُمْ، وَنَجَاةً مِنْ عَذَابِهِ، وَفَوْزاً عَظِيماً.

وقد جاءت هذه العبارة ملائمةً ملائمةً تَامَّةً لِلْفَهْمِ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ بِهِ لِلآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ (١٢٩ - ١٣٠).

وَقَالَ لَهُمْ أَيْضاً كَمَا حَكَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

● ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي يَمَّا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣١) أَمَّا بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ (١٣٢) وَحَتَّى وَعِيُونَ (١٣٤) إِنَّ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥):

[وَعِيُونَ] فِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى.

أَي: إِذَا كُنْتُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا اتَّخَذْتُمُوهُ مِنْ مُدُنٍ، وَقُرَى، وَقُصُورٍ، وَخُصُوفٍ، وَأَخْوَاضٍ مِيَاءٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُ مِنْ صُنْعِكُمْ، وَمِنْهُ تَفُوقُكُمْ بِالْقَوَى الْحَرْبِيَّةِ عَلَى مَنْ حَوْلَكُمْ، وَتَجْهَلُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ

الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِكُلِّ ذَلِكْ، لِيَبْلُوَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ، فَانظُرُوا إِلَى مَا أَمَدَّكُمْ بِهِ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَقِيناً أَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكُمْ لَكُمْ، فَقَدْ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ لَكُمْ، وَأَمَدَّكُمْ بِبَنِينَ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيْضاً وَتُؤْمِنُونَ مَوْقِنِينَ بِأَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ لَكُمْ، وَأَمَدَّكُمْ بِجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ مَوْقِنِينَ بِأَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ لَكُمْ، فَلَا تَقَابِلُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ الَّتِي أَمَدَّكُمْ بِهَا، وَجَعَلَهَا وَافِرَةً كَثِيرَةً عِنْدَكُمْ، بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ وَالْعِضْيَانِ.

• ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ وَأَنْتُمْ قَوْمِي وَعَشِيرَتِي، مُقَامُنَا وَاحِدٌ، وَجَدُنَا وَاحِدًا، وَلَعَنُنَا وَاحِدَةً ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هُوَ يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ، الَّذِي تُبْعَثُ فِيهِ الْخَلَائِقُ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقُ الْجَزَاءِ، مَعَ مَا قَدْ يُعَجَّلُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ عِقَابٍ، إِذَا كَانَ هَذَا الْبَيَانُ صَادِرًا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعِقَابِ الْمَعْجَلِ الْمَصْحُوبِ بِإِهْلَاكِ شَامِلٍ، بِاسْتِنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

قول الله عز وجل يَحْكِي رَدَّ كُفَّارٍ قَوْمِهِ عَلَى مَوْعِظَتِهِ لَهُمْ

• ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾

﴿سَوَاءٌ﴾: هَذِهِ بِمَعْنَى التَّسْوِيَةِ، وَتَأْتِي بَعْدَهَا هَمْزَةُ التَّسْوِيَةِ، الَّتِي يُؤَوَّلُ مَا بَعْدَهَا بِمُضَدَّرٍ، وَالتَّقْدِيرُ هُنَا، وَغُظُّكَ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا. وَبَعْدَ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ تَأْتِي «أَمْ» كَمَا فِي الْآيَةِ.

﴿أَوَعَضْتَ﴾: الْوَعْظُ: النَّصْحُ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْتَّرَكِ، الْمَقْرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَوْ الرَّهْبَةَ فِي النَّفْسِ، لِلانْتِفَاعِ بِالتَّضَحِّيِّ، وَاتِّبَاعِ مَا هَدَى إِلَيْهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًَا.

قال ابنُ سَيِّدِهِ: الْوَعْظُ تَذَكِيرُكَ لِلْإِنْسَانِ بِمَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثَوَابِ وَعِقَابِ.

والموعظة: ما يكون به الوَعظُ مِنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ.

والمعنى: لَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْنَا يَا هُودُ بَوَعظِكَ، فَكُفَّ عَنْهُ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَكْثَرَ مِنْ وَعْظِهِ لَهُمْ، وَتَخَويفِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَإِصْرَارٍ عَلَى التَّزَامِ الْبَاطِلِ، وَاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قول الله عز وجل:

• ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧) وفي القراءة الأخرى [خُلُقٌ] بفتح الخاء وإسكان اللام ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨):

بين القراءتين: [خُلُقٌ] و[خُلُقٌ] تكاملٌ في أداء المعنى المراد، الظاهر أن قَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا لَهُ مَقَالَتَيْنِ:

المقالة الأولى: قَالُوا لَهُ فِيهَا: إِنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ هُوَ عَادَةُ الْأَوَّلِينَ مِنْ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا، وَنَحْنُ عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، وَلَمْ يُهْلِكِ اللَّهُ آبَاءَنَا، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ مَا تُنْذِرُنَا بِهِ.

استُعملَ لفظ «الخُلُق» بمعنى العادة المُتَمَكِّنة، إِذِ الْعَادَةُ الْمُتَأَصِّلَةُ بِمِثَابَةِ الْخُلُقِ الْفِطْرِيِّ، يَكُونُ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى سُلُوكِ الْإِنْسَانِ.

المقالة الثانية: اتَّهَمُوهُ فِيهَا بِأَنَّهُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ بِمَا يُبَلِّغُ مِنْ دِينٍ، وَبِمَا يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ دَلَّتْ عَلَيْهَا كَلِمَةُ [خُلُقٌ] بِمَعْنَى افْتِرَاءِ الْكَذِبِ وَاخْتِلَاقِهِ، أَي: مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُنَا بِهِ إِلَّا افْتِرَاءٌ وَكَذِبٌ مِنْ نَوْعِ افْتِرَاءِ مَنْ سَبَقَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا الْفَهْمُ يَزِيدُ فِي تَرْجِيحِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْسَلَ لِعَادِ رُسُلًا قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِهِ يَكُونُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) مَحْمُولًا عَلَى ظَاهِرِهِ بِلَا تَأْوِيلٍ.

وَيُؤَكِّدُ هَاتَيْنِ الْمَقَالَتَيْنِ قَوْلُ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨)، أي: لَمْ يُعَذِّبْ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا حَتَّى نُعَذِّبَ نَحْنُ، وهذا مَحْمُولٌ عَلَى الْعَذَابِ الْمَعْجَلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِذْ نَرَى أَنَّ مَا تَقُولُهُ لَنَا اخْتِلَاقٌ وَكَذِبٌ، فَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ بِالْعَذَابِ الَّذِي تُنذِرُنَا بِهِ مَعْجَلًا كَانَ أَمْ مُؤَجَّلًا.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾: أي: فَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ أَنْ كَذَّبُوهُ بِلا احتمال رَجْعَةٍ عَنْ قَرَارِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ^(١).

وفي ختام هذا الفصل المتعلق بهودٍ عليه السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، جَاءَتْ فِي السُّورَةِ الْآيَتَانِ اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَثَابَةِ فَاصِلٍ يُكَرِّرُ فِي نَهَايَةِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ فِي السُّورَةِ، مِنْ قِصَصِ رُسُلٍ سَبَعَةٍ وَأَقْوَامِهِمْ، وَجَاءَتْ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْهُمَا هُنَا بَعْضَ آيَةٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠).

وقد سبقَ تَدَبُّرُ هَذَا الْبَيَانِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّكْرَارِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قِصَّةَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى آيَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، وَمَعَ تِلْكَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ فِي السُّورَةِ وَهُمْ كُفَرَاءُ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ، قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مِثْوُوسٍ مِنْهَا، فَهَمَّ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، مَهْمَا أُمْهَلُوا وَعُورِلْجُوا.



(١) وقد جاء تفصيل إهلاكهم في نصوص أخرى، يأتي إن شاء الله تدبرها في دراسة تكاملية.

الفضل الخامس

لقطات تتعلق بقصة صالح عليه السلام وقومه ثمود
وهي الآيات من (١٤١ - ١٥٩)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَتَزَكُّونَ فِي مَا هُنَّاءٌ ءَامِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَدَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيبِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾:

تمهيد:

جاء في القرآن المجيد (٢١) نصاً عرضت لقطات من قصة ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام، موزعات في (٢١) سورة، وقد سبق أن تدبرنا منها ما جاء في (٩) سور، هي (الفجر - النجم - الشمس - البروج - ق - القمر - ص - الأعراف - الفرقان)، وجاء الحديث عنهم موسعاً في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول).

وأسأل الله عز وجل أن يمدني بمعُونَتِهِ وَفَتْحِهِ، حتى أتدبر كل النصوص المتعلقة بهم تدبراً تكاملياً، في ملحق من ملحقات السور التي فيها الحديث عنهم، مما لم أتدبره بعد.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

جاء في عرض اللقطات من قصّة نوح عليه السّلام وقومه في الآيات (١٠٥ - ١٠٩) وفي عرض اللقطات من قصّة هود عليه السّلام وقومه في الآيات من (١٢٣ - ١٢٧)، نظير هذه الآيات الواردة في اللقطات المختارات لسورة (الشعراء) من قصّة صالح عليه السّلام وقومه، وبما أنّها متطابقة تطابقاً تاماً، دالاً على وحدة الرّسالات الرّبانيّة في أصولها للناس، فإنّي أكتفي بما سبق تدبّره للآيات المتعلّقات بقصّة نوح عليه السّلام وقومه، فالآيات هنا مطابقة للآيات هناك، وتدبّرها مطابق لما سبق بيانه، ولا حاجة للإعادة، لأنّها ذات سياقٍ وسياقٍ واحدٍ، والمُحال عليه قريب.

قول الله عز وجل في حكاية قول من أقوال صالح عليه السّلام، في دعوته لقومه إلى دين الله الحقّ الذي جاءهم به:

﴿أَتَنْزَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْبُونَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْجَثُونَ مِنْ آلِجَالِ يُونَا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُتْسِرِّينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

الظاهر من هذه المقالات أنّها من أواسط دعوته لقومه، وليست من أوائلها.

القراءات:

جاء في هذه الآيات قراءتان في [عُيُونٍ] وفي [فَارِهِينَ] إحداهما كما جاء في المصحف، والأخرى كما يلي:

• فقرأ ابن كثير، وابنُ ذَكْوَان، وشعبة، وحمزة، والكسائي:
[وَعِیُونَ] بكسر العين، والقراءتان لغتان عربيّتان.

• وقرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب
[فَرِهَيْن] جمع «فَرِه».

فَارِهَيْن: جمع «فَارِه» اسم فاعل من فعل «فَرِهَ، يَفْرِهُ، فَرَاهَةً،
وَفُرُوهُةً»، أي: جُمِلَ وَحُسِّنَ، وَخَفَّ وَنَشِطَ، وَحَذِقَ وَمَهَرَ.

فَرِهَيْن: جَمْعُ «فَرِه» صفة مشبّهة باسم الفاعل من فعل «فَرِهَ، يَفْرِهُ،
فَرَهَا، فهو فَرِه»، أي: بَطَرَ وَأَشْرَ وَاسْتَكْبَرَ بما يَمْتَلِكُ من وسائل رفاهية.

فَبَيَّنَ القراءَتَيْنِ تكاملاً في أداء المعنى المراد بيانه، إذ كانوا ذوي
خَفَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَحَذِقٍ وَمَهَارَةٍ، وَنَضَارَةٍ وَحُسْنٍ، بِسَبَبِ ما يَسْتَمْتِعُونَ به من
نَعَمٍ وَافِرَةٍ، وَأَرْزَاقٍ فَاحِشَةٍ، وَكَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ بِطَرِيقَيْنِ أَشْرَيْنِ، يَجْحَدُونَ
الحَقَّ وَيَتَّبِعُونَ الهوى، وَيَسْتَكْبِرُونَ على عباد الله.

التدبر التحليلي:

جاء في هذه الآيات بيانُ خَمْسِ مقالاتٍ وَجَّهَهَا صالح عليه السَّلام
لقومه ثمود.

المقالة الأولى: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَئِنَا
ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾:

بدأت هذه المقالة باستفهام تحذيري مِنْ مَغَبَّةِ إصرارهم على الكفر،
وما هم فيه من سيئات، مشيراً به إلى أَنَّ اللَّهَ العزيز الجَبَّارَ لَنْ يَتْرُكَهُم
أَمِينِينَ يَسْتَمْتِعُونَ بما أَنْعَمَ عليهم من جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ هي من
خَيْرِ أشجارِهِمْ، ذاتِ طَلْعٍ فاخِرٍ.

﴿أَتَذْكُرُونَ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ تحذيريٌّ، يُثِيرُ به في نفوسهم وقلوبهم الخوف

من عقاب الله المعجل لهم على كفرهم وقبائح أعمالهم، ومعاصيهم لبارئهم، وهذه أمور تستدعي بحسب سنة الله في عباده، أن يسلبهم الله ما هم فيه من نعم وافرة، باطنة وظاهرة.

فمن النعم التي كانوا يستمتعون بها نعمة «الأمن» دل عليها قوله لهم: ﴿ءَامِنِينَ﴾، أي: أيتركم لكم ربكم نعمة الأمن، وأنتم تكفرون به، وتعبدون من دونه شركاء، وتعضونه بالظلم والعدوان، والبغي والفجور في الأرض. ومن سنته في عباده أن ينزل عقوبته ويسلب نعمة عن الذين تصل خطاياهم إلى مثل الحال التي وصلت إليهم.

ومن النعم التي كانوا يستمتعون بها نعمة الجنات، وهي الحدائق المكتظة بالأشجار، ذوات الظل والثمار.

ومن النعم التي كانوا يستمتعون بها نعمة العيون التي كان الله عز وجل يفجرها لهم، فيشربون منها ماء حسناً، ويسقون منها أنعامهم وزرورعهم.

ومن النعم التي كانوا يستمتعون بها نعمة الزروع المختلقة لهم ولأنعامهم ودوابهم، إذ ينبت لها لهم، ويحميها لهم من الآفات والجوائح، ولولا حفظ الله العليم الحكيم الرحيم لها، لتعرضت للآفات والجوائح المتلفة والمدمرة لها.

وخص عليه السلام بالذكر نعمة أشجار النخل ذوات الطلع الهضيم، لأن أشجار النخل أكرم الأشجار وأنفسها عند سكان شبه الجزيرة العربية منذ ما بعد عصر نوح عليه السلام.

﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي: ثمرها ناعم لطيف لين مريء. أقول: وهو أيضاً سهل الهضم في الجوف، لأن «هضيماً» بمعنى مهضوم، والطعام المهضوم هو الذي يسهل في المعدة تفتيته، ويسهل في الأمعاء امتصاص عناصره النافعة، وانجدار فضلاته.

والأَضْلُ في لفظة (الَطَّلَع) أَنَّهَا غِلاف يشبه الكوز، يَنْفَتَح عَنْ حَبِّ مَنْضُودٍ، فِيهِ مَادَّةُ إِخْصَابِ النَخْلَةِ. ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ مَا يَطْلُعُ فِي الشَّجَرِ مِنْ ثَمَرٍ تَوْسَعًا.

والتَّوَسُّعُ فِي دَلَالَةِ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ لَهُ نِظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَنَحُّنُ مِنْ أَجْبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾، وفي القراءة الأخرى: [فَرِهِينَ].

وقد سَبَقَ قَرِيباً تَحْلِيلُ مَعْنَى [فَارِهِينَ] و[فَرِهِينَ] وَأَنْهُمَا قِرَاءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى، فَدَلَّتْ قِرَاءَةُ «فَارِهِينَ» عَلَى أَنَّهُمْ حَازِقُونَ وَمَهْرَةٌ، وَعَلَى أَنَّهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ بِبَنَمٍ وَافِرَةٍ فَهُمْ بِهَا نَضِرُونَ تَظْهَرُ عَلَيْهِمُ آثَارُ الرِّفَاحِيَةِ، وَدَلَّتْ قِرَاءَةُ «فَرِهِينَ» عَلَى أَنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ أَشْرُونَ بِطُرُونٍ طَاغُونَ.

وكَانَتْ لَهُمْ فِي مَدَائِنِهِمْ فِي الْحَجَرِ أَعْمَالُ عُمْرَانِيَّةٍ مَا زَالَتْ بَعْضُ آثَارِهَا ظَاهِرَةً فِي جِبَالِ وَادِيهِمْ، فَكَانُوا يَقْطَعُونَ الصَّخْرَ، وَيَنْحِتُونَهُ، وَيَبْنُونَ بِهِ مَسَاكِينَ لَهُمْ تَضُمُّدٌ طَوِيلًا تُجَاهَ عَوَارِضِ الْأَيَّامِ، بَيْنَمَا كَانَتْ مَسَاكِينُ أَهْلِ الْقُرَى مِنْ حَوْلِهِمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالطَّيْنِ، وَهِيَ لَا تَضُمُّدٌ لِلْأَحْدَاثِ كَمَا تَضُمُّدُ الصُّخُورِ، وَكَانُوا يَنْقُبُونَ الْجِبَالَ فَيَتَّخِذُونَ لَهُمْ دَاخِلَهَا بَيْوتًا، وَمَدَافِنَ لِعِظَمَائِهِمْ.

وكانت مهاراتهم العمرانيَّة ذات هدفين:

الهدف الأول: الترف، بما يَصْنَعُونَ لأنفسهم من مُتَرَفَاتٍ.

الهدف الثاني: الاستكبارُ وَحُبُّ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيُّهُمْ وَرَسُولُهُمُ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ نَسَبًا،

ولغة، وموطنًا، مُحَذَّرًا لَهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، ومَحَذَّرًا لَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ، أَتَتْرَكُونَ أَيْضًا فِيمَا هَهُنَا تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ؟! .

أي: اخذروا فإنَّ رَبَّكُمْ سَيُنْزِلُ بِكُمْ نِقْمَتَهُ وبَأْسَهُ وَيَسْلُبُكُمْ نِعَمَهُ، إذا لم تُؤْمِنُوا إيماناً صحيحاً صادقاً وتُسَلِّمُوا له وتُطِيعُوا .

المقالة الثالثة: دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فاتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ وعَذَابَهُ، واتَّقُوا أَنْ يَسْلُبَكُمْ رَبُّكُمْ مَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَيْكُمْ .

جاء الأمر بتقوى اللَّهِ في هذه المقالة الثانية، مرتباً ومُتَفَرِّعاً على الاستفهام التحذيري من عقاب الله ونقمته الذي جاء في المقالة الأولى، فالفاء للترتيب مع التفرع .

وقد سبقَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ شَرْحُ معنى «التقوى» وخُلاصَتُهُ أَنْ يَجْعَلَ الْمُتَّقِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيهِ، أَوْ يَضُرُّهُ، أَوْ يُؤْلِمُهُ، أَوْ يُخْزِنُهُ، وَقَايَةً تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ، وَتَقْوَى اللَّهِ تَكُونُ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِسْلَامِ لَهُ، وَالْعَمَلِ بِمَرْضِيهِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ أَوْ نَهَى عَنْهُ .

المقالة الرابعة: دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَطِيعُوا﴾، أي: وأطيعوني فيما أوصيكم به، وفيما أَنهَاكُمُ عَنْهُ بِلَاغاً عَنِ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَطَاعَتُكُمْ لِي هِيَ مِنْ طَاعَتِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَأْمُرُكُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ الْمُؤَيَّدِ مِنْ قِبَلِهِ بِمَا يُثْبِتُ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ، وَصِدْقَهُ فِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ .

المقالة الخامسة: دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾: .

المُسْرِفُ: هُوَ مَنْ يَتَجَاوَزُ حَدَّ الْحِكْمَةِ وَالْحَقِّ فِي تَصَرُّفَاتِهِ، وَيَتَجَاوَزُ مَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ الرَّاجِحُ. يقال لغة: «أُسْرِفَ، يُسْرِفُ، إِسْرَافاً»، أي: جاوز حَدَّ الْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ الرَّاجِحُ. وَجَهْلٌ، وَغَفْلٌ .

وَمِنْ شَأْنِ الْمُسْرِفِ أَنْ يَفْعَلَ الشَّرُّورَ، وَيَرْتَكِبَ الْحِمَاقَاتِ، وَيَقْتُلَ
بَغَيْرِ حَقٍّ، وَيَلْتَزِمَ الْبَاطِلَ، وَيَكُونَ كَفُوراً جَحُوداً، وَلَا سِيماً إِذَا كَانَتْ لَهُ
مَكَانَةُ اجْتِمَاعِيَّةٌ ذَاتُ وَزْنٍ، أَوْ لَهُ قُوَّةٌ مَرْهُوبَةٌ، أَوْ كَانَ ذَا ثَرَاءٍ مَالِيٍّ
وَاسِعٍ، أَوْ كَانَ ذَا حُظُوءَةٍ عِنْدَ ذَوِي السُّلْطَانِ.

وكان الكبراء المُسْرِفُونَ فِي ثُمُودٍ مَعْرُوفِينَ بِتَصَرُّفَاتِهِمُ الْآثِمَةِ الظَّالِمَةِ
الطَّاعِيَةِ الْبَاغِيَةِ، وَكَانُوا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ لِقُوَّةِ سُلْطَانِهِمْ، وَتَحْقِيقِ
مَصَالِحِهِمُ الْخَاصَّةِ، وَزِيَادَةِ مَا يَمْتَلِكُونَ مِنْ ثَرَوَاتٍ، وَيَضْعُونَ الشَّعَارَاتِ
وَالْأَنْظِمَةَ الَّتِي يُوْهَمُونَ بِهَا أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ.

وهذا هُوَ شَأْنُ الْمُسْرِفِينَ الطُّغَاةِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ، يُنَافِقُونَ
الشُّعُوبَ بِظَوَاهِرِ إِضْلَاحِيَّةٍ خَادِعَةٍ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يُفْسِدُونَ، مُطَبِّقِينَ
مَبَادِئَ شَيْطَانِيَّةٍ، وَسَالِكِينَ مَسَالِكَ إِبْلِيسِيَّةٍ، وَيَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ آلِهَةً تُعْبَدُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ، فَيَضْعُونَ الْقَوَانِينَ الْمُفْسِدَةَ الضَّارَّةَ، الَّتِي تَخْدُمُ مَصَالِحَهُمْ،
وَتُمْكِّنُ سُلْطَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَتَحَقِّقُ لَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَتُرْضِي
إِمَامَهُمُ الْأَكْبَرَ إِبْلِيسَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي
قَاعِ الْجَحِيمِ.

الْفَسَادُ: ضِدُّ الصَّلَاحِ. وَالْإِفْسَادُ: تَحْوِيلُ الصَّالِحِ مِنْ كَوْنِهِ نَافِعاً
مُفِيداً، إِلَى كَوْنِهِ ضَاراً أَوْ مُؤْذِياً، وَيَأْتِي بِمَعْنَى إِتْلَافِ الصَّالِحِ، كِلْإِحْرَاقِ
الْأَشْجَارِ النَّافِعَةِ، وَهَدمِ الْمَبَانِي الْمُفِيدَةِ، وَقَتْلِ الْعُلَمَاءِ، وَإِثَارَةِ الرِّعَاعِ
الْجَهْلَةِ الْحَقْمَى عَلَى الْحُكَمَاءِ، وَسَجْنِ وَتَغْذِيبِ الْأَبْرِيَاءِ.

وبهذه المقالة نهى صالح عليه السلام عامة ثُمُودٍ، عَنْ طَاعَةِ كُبَرَائِهِمْ
ذَوِي السُّلْطَانِ فِيهِمْ، الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيُوْهَمُونَ
بِشَعَارَاتِهِمُ الْكَاذِبَاتِ الْمَزَيَّنَاتِ بِزُخْرَفِ الْقَوْلِ، أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ.

قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَخْكِي بَعْضَ أَقْوَالِ كُبَرَاءِ ثُمُودَ فِي رَدِّهِمْ دَعْوَةَ رَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ:

• ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: عبارة فيها قَصْرٌ بِأداة «إنما» أي: ما أنت إِلَّا مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وهو قصر إضافي، أي: ليس لك من الصفات بالنسبة إلى أَدْعَائِكَ الرسالة إِلَّا أَنْكَ مُسَحَّرٌ.

«الْمُسَحَّرُ»: الَّذِي سُحِرَ مَرَّةً فَمَرَّةً حَتَّى فَسَدَ عَقْلُهُ وَمَسَّهُ الْخَبَلُ. يُقَالُ لَعْنَةً: «سَحَرَ السَّاحِرُ فَلَانًا»، أي: سَحَرَهُ مَرَّةً مَرَّةً حَتَّى تَخَبَّلَ عَقْلُهُ، وَضَاعَ رُشْدَهُ.

فَاتَّهَمَ كُبَرَاءُ ثُمُودَ رَسُولَهُمْ صَالِحًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مُسَحَّرٌ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ مُسَحُورٍ، أي: إِنَّ السَّحَرَ الَّذِي سُلِّطَ عَلَيْهِ جَعَلَهُ مُخْتَلِّ الْعَقْلِ مُخْبَلًا، لَا يُقَدَّرُ خُطُورُهُ مَا يَقُولُ بِشَأْنِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، وَوَاجَهُوهُ بِهَذَا الْاِتِّهَامِ، وَلَمْ يَقُولُوهُ فِي غَيْبَتِهِ.

وَتَعَلَّلُوا لِرَفْضِ بُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ بِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، مُوْهِمِينَ بِأَنَّهُ كَوْنُهُ بَشَرًا يُنَافِي كَوْنَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَبْعُوثًا مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالُوا لَهُ: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، أي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ نِظَامِ الْبَشَرِ، كَعَدَمِ حَاجَتِكَ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَعَدَمِ حَاجَتِكَ إِلَى أَنْ تَتَزَوَّجَ، مَا يُؤْهِلُكَ لِأَنْ تَكُونَ نَبِيًّا تَتَلَقَّى الْوَحْيَ عَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِأَنَّ تَكُونَ رَسُولًا تَحْمِلُ رِسَالَةَ مِنْهُ وَتُبَلِّغُنَا بِهَا.

وَتَعَلَّلُوا كُفَّارِ الْأُمَمِ بِبَشَرِيَّةِ أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ ظَاهِرَةً مَأْلُوفَةً، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ فُسَادِ مَا تَعَلَّلُوا بِهِ بِمَقَائِيسِ الْعَقْلِ السَّوِيِّ، وَالْحُجَجِ الْمُنَاطِقَةِ الْبِرْهَانِيَّةِ.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَوْضَحْتُ هَذَا فِي الْمَلْحَقِ الثَّالِثِ مِنْ مَلَا حَقِّ تَدَبُّرِ سُورَةِ

(يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بعنوان: «بيان اعتراض الأمم على بَشَرِيَّةِ الرُّسُلِ في القرآن»^(١).

وَبَعْدَ أَنْ رَفَضُوا نُبُوءَتَهُ وَرِسَالَاتَهُ تَعَلَّلُوا بِبَشَرِيَّتِهِ، قَالُوا لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّحْدِي:

• ﴿... فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٥٤): أي: فَأْتِ بِعَلَامَةٍ مِنْ الْعَجَائِبِ الْخَوَارِقِ الْمُعْجَزَةِ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

جاء في العبارة الدَّالَّةُ على مقالتهم استعمال كَلِمَةِ «إِنْ» الْمُشْعِرَةِ بِأَنَّهُمْ يَشْكُونُ بَلْ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجَزَةٍ. فَاسْتَجَابَ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ لَطَلِبِهِمُ الْمُعْجَزَةَ الْحِسِّيَّةَ عَلَى مَا يُحَدِّدُونَ.

وأشارت الدلائل الضمنية للنصوص إلى أَنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ مَا يَخْتَارُونَ مِنْ آيَةٍ مُعْجَزَةٍ، وَكَانُوا مُعْجِبِينَ بِالْإِبْلِ.

فَطَلَبُوا أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ عَيْنُوهَا نَاقَةٌ ذَاتُ أَوْصَافٍ عَيْنُوهَا، فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ. فَخَرَجَ اللَّهُ لَهُمُ النَّاقَةُ مِنَ الصَّخْرَةِ كَمَا طَلَبُوا، فَأَمَّنَ بَعْضُهُمْ، وَأَصَرَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ.

وَأَبَانَ لَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ وَوَاجِبَاتِهِمْ نَحْوَهَا، وَقَالَ لَهُمْ: يَكُونُ لِهَذِهِ النَّاقَةِ يَوْمٌ تَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ مِنْهُ، وَالْيَوْمُ الثَّانِي يَكُونُ لَكُمْ، فَالْمَاءُ قِسْمَةٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا عَلَى التَّائِبِ.

وَقَالَ لَهُمْ: يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَذَرُوهَا تَأْكُلُ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ مَا تَشَاءُ، وَأَنْ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ، وَأَنْ لَا تَمَسُّوا الْمَاءَ الْمَخْصَصَ لَهَا فِي يَوْمِهَا بِسُوءٍ، وَإِلَّا نَزَلَ بِكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

(١) انظر المجلد السادس ص(٢٦٣) وما بعدها حتى الصفحة (١٨١).

وَشَدَّدَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَحْذِيرِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: اخْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ وَسُفْيَاهَا، أَنْ تَمَسُّوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ بِسُوءٍ، فَقَدْ أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ، وَعَلَى الْأَوْصَافِ الَّتِي حَدَّدْتُمْ، وَمِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنْتُمْ، فَمَعْصِيَتُكُمْ بَعْدَ كُلِّ هَذَا مَعْصِيَةُ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ فِيهَا شَبْهَةٌ عُذْرٍ مَا.

والتزمت ثمود بالواجبات التي كانت صعبة عليهم، خوفاً من أن يُنزِلَ الله بهم عذاب يومٍ عظيم.

ثم تأثرت مصالح كثيرة لهم بهذا الالتزام، فعزموا على أن يتخلَّصُوا مِنَ النَّاقَةِ بِعَقْرِهَا وَذَبْحِهَا، وَاسْتَهَانُوا بِإِنذَارَاتِ رَسُولِهِمْ، فَحَرَّضُوا أَشْقَاهُمْ عَلَى قَتْلِهَا، فَأَخَذَ سِلَاحَهُ، وَتَطَاوَلَ مُسْتَكْبِراً، وَعَقَرَ النَّاقَةَ.

وقد سبق في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) ذكر بَقِيَّةِ التفصيلات.

وجاء هنا في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) بيان موجز جداً عن آيَةِ النَّاقَةِ، وَعَقْرِ ثَمُودَ لَهَا، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبْ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَعَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ...﴾: ﴿لَنَا شَرِبٌ﴾: الشَّرْبُ: الحِطُّ مِنَ الْمَاءِ. وَقِيلَ: وَفُتُّ الشَّرْبِ، وَنُوبَةُ الْإِسْتِقَاءِ.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾: أَي: فَيَقْبِضُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤْلِماً لَكُمْ بَعْثٌ وَشِدَّةٌ، فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ الْأَهْوَالِ، عَظِيمٍ وَسَائِلِ الْعَذَابِ.

﴿فَمَعَرُوهَا﴾: الْعَقْرُ: هُوَ قَطْعُ إِحْدَى قَوَائِمِ الْبَعِيرِ لِيَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ،

حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ الْعَاقِرُ مِنْ نَحْرِهِ. وَيَأْتِي الْعَقْرُ بِمَعْنَى ذَبْحِ الْحَيَّوانِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ عَقَرُوهَا فَذَبَحُوهَا أَوْ نَحَرُوهَا.

﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾: تَدُلُّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ عَقْرَهُمْ لِلنَّاقَةِ قَدْ كَانَ قُبَيْلَ الْغُرُوبِ، أَوْ بَعْدَهُ. وَأَنَّ أَمَارَاتِ نَزُولِ عَذَابِ اللَّهِ فِيهِمْ بَدَأَتْ مَعَ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ فَنَدِمُوا.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾: دَلَّتِ الْفَاءُ هُنَا عَلَى أَنَّ أَخَذَ الْعَذَابُ لَهُمْ قَدْ كَانَ عَقِبَ نَدِيمِهِمْ، فَلَمْ يَطُلِ الزَّمَنُ الْفَاصِلُ بَيْنَ نَدِيمِهِمْ وَأَخَذِ الْعَذَابِ لَهُمْ.

وَقَدْ جَاءَ فِي نَصُوصٍ أُخْرَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَهُمْ بِصَيِّحَةٍ مَضْحُوبَةٍ بِصَاعِقَةٍ طَافِغَةٍ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ.

وَبَقِيَتْ قِصَّتُهُمْ تُرَوَّى، وَمَسَاكِنُهُمْ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ.

وَفِي خِتَامِ هَذَا الْفَضْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، جَاءَتْ فِي السُّورَةِ الْآيَتَانِ اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَثَابَةِ فَاصِلٍ يُكْرَرُ فِي نَهَائِهِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ فِي السُّورَةِ مِنْ قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وَأَقْوَامِهِمْ، وَجَاءَتْ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْهُمَا هُنَا بَعْضُ آيَةٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَئِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَذَا الْبَيَانِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّكْرَارِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قِصَّةَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى آيَةٍ عَظِيمَةٍ، ذَاتِ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، وَمَعَ تِلْكَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمُعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ، وَهُمْ كُفَرَاءُ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ، قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، فَهُمْ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، مَهْمَا أُمِهُلُوا وَغُولَجُوا.



الفصل السادس

لَقَطَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ

وهي الآيات من (١٦٠ - ١٧٥)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

تمهيد:

جاء ذكر «لوط» عليه السلام وقومه في (١٥) نصاً في القرآن المجيد، من (١٥) سورة، وجاء في معظمها ذكر لقطاتٍ من قِصَّتِهِ مع قَوْمِهِ، متكاملات فيما بينها، وقد سبق تدبُّر هذه النصوص تدبُّراً تَكَامُلِيًّا في الملحق الخامس من ملاحق تدبُّر سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول)^(١). وإذ أُحِيلَ على هذا المُلْحَقِ في التدبُّر التكاملي للنصوص بشأن لُوطٍ عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، فإنِّي أقتصر هنا على تدبُّر فقرات هذا النصِّ الوارد في سورة (الشعراء) إذ قد سبق تدبُّره مع سائر النصوص بصورة تكاملية.

اجتنبى الله عز وجل «لوطاً» ابن أخى إبراهيم عليهما السلام، فجعله نَبِيًّا، ثم بَعَثَهُ رَسُولاً إِلَى أَهْلِ «سَدُومَ» وكانت لهم خَمْسُ قُرَى فِي مَكَانٍ

(١) انظر الصفحات من (٢٧٩ - ٣٥١) من المجلد الخامس.

الْبَحْرِ الْمَيِّتِ فِي فَلَسْطِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا كُفْرَةً مُشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنْ رِذَائِلِهِمْ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى فِعْلِ الْخَبَائِثِ، وَمِنْهَا إِيْتَانُهُمُ الذُّكْرَانَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، فَرَفَضُوا دَعْوَةَ رَسُولِهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً حَارَّةً قَاتِلَةً، وَقَلَبَ دِيَارَهُمْ فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَخَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

هذا البيان عن لوط عليه السلام مطابق تماماً للبيان الذي سبق عن نوح، وهود، وصالح، عليهم السلام، وجاء فيه أنه أخوهم مع أنه ليس منهم نسباً، إنما كان مواطناً، وكانت زوجته منهم.

فالتدبر الذي سبق للآيات من (١٠٥ - ١٠٩) المتعلقة بقصة نوح وقومه، يلاحظ كله هنا إلا اسم الرسول.

وهذا من شواهد وَحْدَةِ رِسَالَاتِ اللَّهِ لعباده، ولو تَعَدَّدَ الْمُرْسَلُونَ فِي الْأُمَمِ.

قول الله عز وجل حكايةً لِبَعْضِ مَا قَالَ «لُوطُ» عَلَيْهِ السَّلَام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٢٦﴾﴾:

كلمة «الذَّكْرَانِ» أخف من كلمة «الرجال» التي جاءت في نص سورة (الأعراف) لِأَنَّهَا قَدْ تُحْمَلُ عَلَى الْغُلَمَانِ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّأْنِيبَ قَدْ كَانَ فِي الْمَرَحَلَةِ الْأُولَى مِنْ تَلْوِيمِهِمْ لَهُمْ، عَلَى هَذِهِ الشَّنِيعَةِ مِنْ أَفْعَالِهِمْ الشَّائِعَةِ فِي مَجْتَمَعِهِمْ بِوَقَاحَةٍ.

والاستفهام الذي في عبارة ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ﴾؟! استفهامٌ خارجٌ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ الَّتِي هِيَ طَلَبُ الْإِفْهَامِ، إِلَى مَعْنَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَتَلْوِيمِهِمْ وَتَأْنِيهِمْ عَلَى مِمَارَسَةِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ بَوَاقَاةٍ.

والمعنى: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ النَّاسِ فِي أَذْبَارِهِمْ حَيْثُ الْقَذَارَاتُ، وَتَذَرُونَ مَكَانَ الطَّهَارَةِ وَالنِّقَاءِ الَّذِي خَلَقَهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ فِي فُرُوجِ أَزْوَاجِكُمْ مِنَ النِّسَاءِ.

وتدلُّ عبارة: ﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ على أَنَّ قَوْمَهُ رَدُّوا عَلَيْهِ قَائِلِينَ: لَسْنَا الْوَحِيدِينَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مِمَارَسَةِ هَذِهِ الْعَادَةِ لِتَحْقِيقِ لَذَاتِ الْفُرُوجِ، فَفِي كُلِّ الْأُمَمِ أَنْاسٌ يُمَارِسُونَهَا، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: أَي: بَلْ أَنْتُمْ أَنْفَرَدْتُمْ فِي مِمَارَسَةِ هَذِهِ الْقَبِيحَةِ الشَّاذَّةِ بِجُرْأَةٍ وَوَقَاحَةٍ، إِذْ تَجَاوَزْتُمْ الْحُدُودَ النَّسَبِيَّةَ الَّتِي تَوْجَدُ عِنْدَ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْفُجُورِ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا وَكَيْفًا.

يقال لغة: «عَدَا، يَعْدُو، عَدُوًّا، فَهُوَ عَادٍ»، وَالْجَمْعُ «عَادُونَ» أَي: تَجَاوَزَ الْحَدَّ الْمَحْتَمَلَّ عَادَةً فِي التَّجَاوُزِ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْعَصَاةُ. وَالْمَعْنَى تَجَاوَزْتُمْ فِي انْحِرَافِكُمْ وَشُدُودِكُمْ مَا عَلَيْهِ غَيْرُكُمْ، بِنِسْبَةِ عَدَدِ الْأَفْرَادِ الْمُنْحَرِفِينَ الشَّاذِينَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَفِي كَيْفِيَّةِ مُمَارَسَةِ هَذَا الشُّدُودِ مُجَاهَرَةً وَوَقَاحَةً وَعُدُوَانًا عَلَى غَيْرِ الْمُنْحَرِفِينَ الَّذِينَ يَسُوُّهُمْ أَنْ تُمَارَسَ مَعَهُمْ هَذِهِ الْفَاحِشَةُ.

أَي: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ مُتَجَاوِزُونَ حُدُودَ الْفَوَاحِشِ الَّتِي يَعْصِي بِهَا عُصَاةُ النَّاسِ لِرَبِّهِمْ.

وفي مرحلة متأخرة مِنْ دَعْوَةِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، قَالُوا لَهُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

• ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ بِلُوطٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾:

اللّام في ﴿لَيْنٍ﴾ مُوطئة للقسم، أي: نُقَسِمُ لَيْنٍ لَمْ تَنْتَهُ يَا لُوطُ عَنْ دَعْوَتِنَا إِلَى دِينِكَ، وَتَأْنِينِنَا وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْنَا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا أَنْتَ وَمَنْ هُوَ عَلَى دِينِكَ وَطَرِيقَتِكَ.

ولم يجد «لوط» عليه السّلام وهو مُهَدَّدٌ بالإخراج القسري من كلِّ أَرْضٍ «سَدُومَ» إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ سَخَطَهُ وَعَدَمَ رِضَاهُ عَنْ أَعْمَالِهِمِ الْمُنْكَرَةِ الْقَبِيحَةِ الشَّيْئَةِ، ويقول لهم ما جاء بيانه في الآية التالية:

• ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾:

أي: إِنِّي لِعَمَلِكُمْ الَّذِي أَنْكَرْتُهُ عَلَيْكُمْ، مُبَلِّغًا رِسَالَاتِ رَبِّي مِنَ الْكَارِهِينَ الْمُبْغِضِينَ، الْمُسْتَنْكَرِينَ الْهَاجِرِينَ.

يقال لغة: «قَلَى الشَّيْءَ»، وَقَلَى فُلَانًا، يَقْلِيهِ قَلَى» أي: أَبْغَضَهُ وَهَجَرَهُ.

ودعا «لوط» عليه السّلام رَبَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ وَأَنْ يُنَجِّيَ أَهْلَهُ مِنْ مَعْبَةِ مَا يَعْمَلُ قَوْمُهُ، مُدْرِكًا أَنَّهُمْ مُهْلِكُونَ لَا مَحَالَةَ، فَقَالَ مَا جَاءَ بِيَانُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

• ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾:

أي: نَجِّنِي وَأَهْلِي مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ الَّذِي سَيَنْزِلُ بِقَوْمِي، جَزَاءً مَا يَعْمَلُونَ مِنْ شُرُكِيَّاتٍ، وَقَبَائِحَ وَمُنْكَرَاتٍ.

ويظهر أَنَّهُ أَدْخَلَ زَوْجَتَهُ فِي عُمُومِ دُعَائِهِ، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ وَالْمُنْكَرَاتِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُفْرِهَا، وَكَوْنِهَا مَعَ قَوْمِهَا، إِلَّا أَنَّ قِضَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَمَلَهَا بِأَنْ تَكُونَ مَعَ الْهَالِكِينَ مِنْ أَجْلِ كُفْرِهَا، وَخِيَانَتِهَا لَزَوْجِهَا بِإِبْلَاحِ قَوْمِهَا بِبَعْضِ مَا يَجْرِي فِي دَارِهِ، وَبِبَعْضِ تَصَرُّفَاتِهِ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ نَجَّاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ الْعَجُوزَ فَقَدْ

جَعَلَهَا فِي الْغَابِرِينَ الْهَالِكِينَ، وَأَنَّهُ دَمَّرَ الْآخِرِينَ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَاءِ أَرْضِهِمْ حِجَارَةً مُهْلِكَةً، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَنَجِّنُهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿٧١﴾﴾:

أي: فاستجبنا له دُعاءهُ، فنَجَّيناهُ وأَهْلُهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا مِنْ أَهْلِهِ هي امرأته كائنته في الغَابِرِينَ، الهَالِكِينَ، والباقيين في أَرْضِهِمْ لم يُنَجِّهِمُ اللَّهُ.

الغَابِرُ: يأتي في اللغة بمعنيين:

المعنى الأول: الماكث الذي لَا يَتَحَوَّل.

المعنى الثاني: الزاهبُ الماضي الذي لم يَبْقَ لَهُ وجود.

وَكَلَّا الْمَعْنِيِّينَ يُنْطَبِقَانِ عَلَى امْرَأَةِ لُوطَ، فَقَدْ أَثْبَتَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَرْضِ قَوْمِهَا، وَلَمْ يُنَجِّهَا مَعَ مَنْ أَنْجَى مِنْ أَهْلِهِ، وَجَعَلَهَا تَمْضِي هَالِكَةً مَعَ قَوْمِهَا فَلَمْ يَبْقَ لَهَا وجودٌ ضَمَّنَ الْأَحْيَاءَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ كَافِرَةً وَمَعَ هَوَى قَوْمِهَا، فَهِيَ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ «لُوطَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَمَّنَ عَمُومَ أَهْلِهِ، إِذْ كَانَتْ عَلَى غَيْرِ دِينِهِ وَعَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخْرَجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لُوطًا وَأَهْلَهُ، وَهَمَّا ابْنَتَاهُ، مِنْ أَرْضِ «سَدُومَ» وَأَوْصَلَهُمْ إِلَى مَكَانٍ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ وَسَائِلُ إِهْلَاكِ قَوْمِهِ أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمَهُ، فَقَالَ تَعَالَى فِي النَّصِّ:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخِرِينَ ﴿٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ ﴿٧٣﴾ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حَرْفٌ عَظِيمٌ دَلَّ عَلَى التَّرَاخِي بَيْنَ خُرُوجِ «لُوطَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِهِ مِنْ أَرْضِ «سَدُومَ» لِإِبْعَادِهِمْ عَنْ دَائِرَةِ نُزُولِ الْعَذَابِ، فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا فِي مَكَانٍ آمِنٍ بَعِيدٍ، أَنْزَلَ اللَّهُ وَسَائِلَ تَدْمِيرِ قَوْمِهِ، وَهُمْ كُلُّ الْآخِرِينَ بَعْدَ «لُوطَ» وَالتَّاجِينَ مِنْ أَهْلِهِ.

التَّذْمِيرُ: هو الإهلاك باستئصال، ومَحْوُ المباني وآثارها، حَتَّى لَا يُرَى مِنْهَا شَيْءٌ.

وأضْلُ معنى التَّذْمِيرِ: تَحْطِيطُ الشَّيْءِ المُدْمَرِ، عَلَى وَجْهِ لَا يُرْجَى بَعْدُهُ إِضْلَاحُهُ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ جَاءَ هُنَا الْمَطَرُ مُنْكَرًا مَقْرُونًا بِعِبَارَةِ دَمٍّ لَهُ، وَجَاءَ فِي نَصِّ آخِرِ بَيَانٍ أَنَّ الْمَطَرَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِ «لُوطٍ» قَدْ كَانَ «حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ»، أَيِ: حِجَارَةٍ أَصْلُهَا طِينٌ تَحْجَرُ، وَرُبَّمَا كَانَ لِلنَّارِ مَعَ مَوَادِّ كَالْكَبْرِيتِ أَثَرٌ فِي جَعْلِهِ مُتَحَجِّرًا مُحْرَقًا.

وَجَاءَ فِي نَصِّ آخِرِ بَيَانٍ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَلَبَ عَلَيْهِمْ أَرْضَهُمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا.

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾: الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ الدَّالُّ عَلَى سُوءِ عَاقِبَةِ الْمُفْسِدِينَ، «سَاءٌ» فَعْلٌ لِإِنْشَاءِ الدَّمِّ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ، ﴿مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ فَاعِلٌ «سَاءٌ»، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: مَطَرُهُمْ، دَلَّتْ عَلَيْهِ عِبَارَةُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾.

وَدَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾ عَلَى أَنَّ «لُوطًا» عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِعَذَابِ يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِهِمْ، فَيُهْلِكُهُمْ بِهِ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُقْلِعُوا عَنْ قَبَاحَتِهِمْ وَفَوَاحِشِهِم.

وَفِي خَتَامِ هَذَا الْفَصْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِلُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، جَاءَتْ فِي السُّورَةِ الْآيَتَانِ اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَثَابَةِ فَاصِلٍ يُكْرَّرُ فِي نَهَائِهِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ فِي السُّورَةِ، مِنْ قِصَصِ رُسُلٍ سَبَعَةٍ وَأَقْوَامِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

وقد سبقَ تَدَبُّرَ هذا البيان في المَرَّةِ الأولى مِنْ إيرادِهِ في السورة،
فلا حاجةَ إلى التكرار.

ولا شَكَّ أَنَّ قِصَّةَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، قد اشتمَلَتْ على آيَةٍ
عظيمة، ذاتِ عِبَرٍ وعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تِلْكَ العِبَرِ والعِظَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ
المعْنِيِّينَ بالمعالجة في السورة، وهم كُبراءُ كَفَّارِ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ قالَ اللهُ
لرَسُولِهِ بِشأنِهِمْ: ﴿لَمَّا كَ بَيْعُ قَسَاكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ ﴿٢﴾ قد وَصَلُوا إلى
حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ من إيمانِهِمْ مَعَهَا عن طَرِيقِ إراداتِهِم الحَرَّةَ، فَهُمْ عَيْرُ مُنْتَظَرٍ
مِنْهُمْ بِحَسَبِ واقعِ حالِهِم النَفْسِي أَنْ يُؤْمِنُوا، مَهْمَا أُمْهَلُوا وَعُولِجُوا.



الفصل السابع

لَقَطَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ
الآيات من (١٧٦ - ١٩١)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِلَيَّ
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾
وزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَرِينَ
﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا
مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْغَرِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٩١﴾ :

تمهيد:

جاء في القرآن المجيد ذكر شعيب عليه السّلام وذكر قومه في تسعة نصوص من تسع سُور، ففي أَرْبَعَةٍ مِنْهَا جاء التصريح باسم شعيب عليه السّلام، وفي ثلاثة منها جاء ذكر قومه بعنوان: «مَدين» وفي اثْنَيْنِ منها جاء ذكرهم بعنوان: «أَصْحَابِ مَدين» وفي أربعة منها جاء ذكرهم بعنوان «أَصْحَابِ الْاَيْكَةِ»؛ إِذْ كانت لهم اَيْكَةُ (أي: غيضة) نفيسة تُقَصَّدُ فيها نَاعِمُ الشجر.

وقد اشتمل كلّ نصٍّ من هذه النصوص على لقطات موجزات من مُجْمَلِ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عليه السّلام وقومه.

وقد سبق تدبُّر هذه النصوص تدبُّراً تكاملياً في المُلْحَقِ السادس من ملاحق تدبُّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)^(١).

وإِذْ أُحِيلَ على هذا الملحق في التدبُّر التكاملي للنصوص بشأن شُعَيْبٍ عليه السّلام وقومه في القرآن المجيد، فَإِنِّي أَقتصر هنا على تدبُّر فقراتِ هذا النّصّ الوارد في سورة (الشعراء)، إِذْ قد سبقَ تدبُّرُهُ مَعَ سائر النصوص بصورة تكاملية.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ اَلْاَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ اَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ اِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللهَ وَاَطِيعُوهُ ﴿٧٩﴾ وَمَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ اِنْ اَجْرِى اِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

هذا البيان عن شعيب عليه السّلام، مطابقٌ تماماً للبيان الذي سبق عَنْ نوح، وَعَنْ هُود، وَعَنْ صالح، وَعَنْ لُوط، عليهم السّلام.

فالتدبر الذي سبقَ للآيات من (١٠٥ - ١٠٩) المتعلقة بقصة نوح عليه السلام وقومه يُلاحظُ هنا إلا اسمَ الرسول، وإلا أنَّ شعيباً لم يُذكرَ هنا بأنَّه أخو أصحاب الأيكة، مع ذكره بأنَّه أخو أصحاب مدين في نصِّ سورة (الأعراف)، وفي نصِّ سورة (هود)، وفي نصِّ سورة (العنكبوت)، فهل عدَمَ ذِكرُ أنَّه أخو أصحاب الأيكة يدلُّ على أنَّ أصحاب الأيكة كانوا مجاورين لأصحاب مدين ولم يكنْ جدُّهم مدين، وقد أُرسلَ شعيبٌ عليه السلام إلى أصحاب مدين الذين كانَ أخاهم نسباً ومواطنةً، وأُرسلَ أيضاً في الوقتِ نفسِه إلى أصحاب الأيكة المجاورين لهم، ولم يكنْ شعيبٌ عليه السلام أخاهم نسباً ولا مواطنةً، فلم يُذكر في نصِّ من التصوص أنَّه أخوهم.

أقول: هذا فهمٌ يرجحُ أنَّ أصحاب مدين غيرُ أصحاب الأيكة، مع أنَّهما جميعاً قومُ النبيِّ الرسولِ شعيبٍ عليه السلام واختلطاً بمقتضى التجاور، فهما أُمَّةٌ واحدةٌ باعتبار أنَّ شعيباً عليه السلام، قد كانَ رسولاً لهما معاً وفي وقتٍ واحد، وهما قومانِ باعتبار أنَّ أهلَ مدين يتنسبونَ إلى جدِّهم مدين بن إبراهيم عليه السلام، وأمَّا أصحاب الأيكة فلا يتصلُ نسبُهُم به، وكانت الغيضة غيظتَهُم (الأيكة) وليست غيضة أصحاب مدين، والله أعلم.

وهذا تعديلٌ لما كُنْتُ ذَكَرْتُ في الملحقِ السَّادِس من ملاحقِ تدبرِ سورة (الأعراف) من أنَّ أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة فيما ترجَّح لديَّ هناك.

قول الله عزَّ وجلَّ يحكي بعضَ مقالاتِ شعيبٍ عليه السلام لأصحاب الأيكة:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنُؤُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٨﴾ وَأَنْتُمْ
الَّذِينَ خَلَقْتُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٩﴾ :

في هذه الآيات الأربع، بيان سِتِّ قضايا وجَهَّها شعيب عليه السلام
لأصحاب الأيكة، أمراً، وناهياً، ومُحذِّراً.

القضية الأولى: دَلَّ عليها ما حكاه الله عز وجل عنه بقوله: ﴿أَوْفُوا
الْكَيْلَ...﴾، أي: اجعلوا الكَيْلَ تاماً كاملاً وافياً غير منقوص.

الكَيْلُ: مَضْدَرُ «كَالَ» يقال لغة: «كَالَ الحَبَّ» أو نَحَوَهُ من جامدٍ أو
سائلٍ، كَيْلًا، وَمَكَالًا، أي: قَدَّرَ كميَّته بالمِكيَالِ، وهو وعاءٌ تَعَارَفَ
الناسُ على مقدار ما يَسْتَوْعِبُ، فَتُكَالُ بِهِ الأشياءُ لمعرفةٍ مقدار حَجْمِها.

وقَدْ كان هؤلاء القومُ يَتَلَاعَبُونَ بالكَيْلِ وبالمكاييلِ، فَيَنْقُصُونَ النَّاسَ
حَقَّهُمْ إذا كَالُوا لَهُمْ، أَمَا إذا كَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ من النَّاسِ فَإِنَّهُمْ يُوفُونَ، أو
يَزِيدُونَ على الوفاء بالاختيالِ، فَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا ما حكاه الله عز وجل عنه بقوله: ﴿... وَلَا
تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾، أي: وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ النَّاسَ
حُقُوقَهُمْ.

يقال لغة: «أَخْسَرَ فَلَانُ الشَّيْءِ»، أي: نقصه.

أَمَرَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوفاء، ونهاهم عَنْ ضِدِّهِ الَّذِي هو
الإخسار، وهو النقص، مع العِلْمِ به من الأمرِ بالوفاء، لِأَنَّ الأَمْرَ بِالشَّيْءِ
نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ بَدَاهَةً، إِلَّا أَنَّ النَّصَّ تَضَمَّنَ الدَّلَالََةَ عَلَى أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ
السَّلَامُ قد كَانَ خَطِيبًا بارِعًا، وَمِنْ بَرَاعَتِهِ فِي خُطَابَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ
وَيَنْهَى عَنْ ضِدِّهِ، لإيضاح مقولاته إيضاحاً لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ.

القضية الثالثة: دَلَّ عليها ما حكاه الله عز وجل عنه بقوله:

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿١٩١﴾. «القِسْطَاسُ» فيها قراءتان بضمِّ القافِ

وَكَسَّرَهَا، وهما لغتان عربيتان لهذه الكلمة، وهو أضبط الموازين وأقومها وأعدلها، أي: وزنوا بأضبط الموازين وأقومها وأعدلها.

المستقيم: أي: المعتدل المستوي، الذي توزن به الأشياء فلا يزيد على مقاديرها الحقيقية، ولا ينقص منها. والمراد بإضافة هذا الوصف التثنية على وجوب عدم التلاعب بما يسمّى في أعرافهم قسطاساً.

وقد كان هؤلاء القوم يتلاعبون بالوزن وبالموازين، ليأكلوا يتلاعبهم أموال الناس بالباطل، فأمرهم رسولهم شعيب عليه السلام بأن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وفي هذا نهى لهم عن التحايل بالوزن وبالموازين ليأكلوا أموال الناس بالباطل.

القضية الرابعة: دلّ عليها ما حكاه الله عزّ وجلّ عنه بقوله:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...﴾ (١٨٢)، أي: ولا تنقصوا الناس أشياءهم، سواءً أكان ذلك عن طريق الكيل أم المكيال، أم عن طريق الوزن أم الميزان، أم عن طريق آخر، ففي هذه العبارة تغميهم بعد تخصيص.

البخس: هو النقص، وفعل «بخس» مثل فعل «نقص» يتعدّى إلى مفعولين. يقال لغة: «بخس فلان فلاناً حقّه» أي: نقصه حقّه.

والنقص عن الحقّ مع العلم لا يكون إلا بظلم، وقد تستخدم فيه وسائل الاختيال والكذب والمخادعة.

دلّت هذه القضايا الأربع على أنّ شعيباً عليه السلام، قد كان يلجأ في خطباته ومواعظه لقومه إلى أسلوب الإطناب، لأنّ أحوالهم كانت تقتضي ذلك، وأنّهم كانوا يفعلون بالتفصيل كلّ هذه الرذائل والعدوانات على عباد الله من قومهم ومن غير قومهم.

وقد كان من فصاحته عليه السلام، أنّه كان يتّوّع في الكلمات وفي

الأساليب، ويأتي للدلالة على المعنى الواحد من وجوه مختلفة، فمرة من جهة الإيجاب، ومرة من جهة السلب، ومرة بتعيين القضية، وأخرى بإدخالها ضمن قضية عامة، وهكذا تكون براعة الخطباء.

القضية الخامسة: دلّ عليها ما حكاه الله عز وجلّ عنه بقوله:

﴿... وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: ﴿١٨٣﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾: العثو: أشد الفساد. يقال لغة: «عَثِيَ، يَعْثِي، عُثُوًّا»

أي: أفسد إفساداً شديداً جداً.

وقد دلّ هذا النهي على أن قوم شعيب عليه السلام، كانوا من الذين يُفسدون في الأرض أشد الفساد، بأعمالهم الإجرامية الظالمة الجائرة، ولهذا رأى شعيب عليه السلام من الحكمة أن يخص إفسادهم في الأرض بنهي يشدد فيه.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حال مؤكدة لعاملها.

الفساد: هو في اللغة التلّف والعطب، وتحوّل الشيء من كونه صالحاً نافعاً إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل ربّما يصير ضاراً كريهاً مُفسداً للأشياء الصالحة.

الإفساد: الإتلاف، وتحويل الشيء عن صلاحه، وقد يصل إلى جعل الشيء ضاراً كريهاً مُفسداً للأشياء الصالحة.

ويشمل النهي عن الإفساد في الأرض بعمومه، النهي عن كل الممارسات الظالمة الجائرة، ذوات العدوان على عباد الله، التي كان قوم شعيب عليه السلام يمارسونها بانتشار عام، ومنها نشر الكفريات والشركيات وأنواع الفسق والفجور، وكل فساد خلقي وسلوكي فردي واجتماعي.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَقُوا
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨٤):

الجيلة: الأمة من الخلق، والجماعة من الناس.

أي: واتقوا عقاب ربكم الذي خلقكم، وخلق الناس قبلكم، بأن
تجعلوا بينكم وبين عقابه لكم وقاية تحميكم، وهذه الوقاية التي تحميكم
هي الإيمان الصحيح الصادق به وبصفاته، والإسلام له، وطاعته في أوامره
ونواهيه.

فمن كان لديه عقل وبصيرة، وعلم بأحوال الأمم السالفة، وما أنزل
الله رب العالمين بالكافرين من عذاب، وإهلاك شامل، اقتنع واتعظ، فلم
يعرض نفسه لسخط الله عليه بمعضيته من الكبائر، حتى لا يكون غرضه
لعقابه العادل، الذي لا محيص عنه إلا بالاستغفار والتوبة الصحيحة
الصادقة، فالله جل جلاله غفورٌ غفورٌ رحيمٌ بعباده.

قول الله عز وجل يحكي رد أصحاب الأيكة على شعيب عليه
السلام فيما وجهه لهم من دعوة إلى دين الله، وفيما أمرهم به ونهاهم
عنه:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾:

تضمن قولهم هذا أربع قضايا ردوا بها على جملة مقولاته لهم:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا
إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥):

هذا الاتهام نظير الاتهام الذي وجهته ثمود لرسولهم صالح عليه
السلام، والذي سبق تدبره قريباً.

«المُسْحَرُ» هُوَ الَّذِي سُحِرَ مَرَّةً فَمَرَّةً حَتَّى صَارَ مَخْبَلًا وَفَسَدَ عَقْلَهُ.
وفي العبارة قصر بأداة «إنما» أي: ما أَنْتَ إِلَّا من المسْحَرِينَ، وهو
من قِسْمِ القصر الإضافي، أي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى
ادْعَائِكَ الرِّسَالَةِ، وَبَيِّنَاتِكَ فِي دَعْوَتِكَ، إِلَّا أَنَّكَ مُسْحَرٌ مِنَ الْمُسْحَرِينَ.
فَاتَّهَمَ كُتَبَاءَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ رَسُولَهُمْ شَعِيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مُسْحَرٌ،
وَلَيْسَ مُجَرَّدَ مَسْحُورٍ، أي: إِنَّ السُّحْرَ الَّذِي سُلِّطَ مُتَتَابِعًا عَلَيْكَ قَدْ جَعَلَكَ
مُخْتَلًّا الْعَقْلَ مُخْبَلًا، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ تَوَاجَهَ كُتَبَاءُ قَوْمِكَ بِمَا يَسُوؤُهُمْ، دُونَ
أَنْ تُقَدَّرَ خُطُورَةُ مَا تَوَاجَهُهُمْ بِهِ مِنْ أَقْوَالِكَ.
القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا
أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾ (١٨٦):

وهذه أيضاً نظيرُ التي اغترَضْتُ بها ثُمُودُ على رَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، والتي سبقَ تدبُّرها قَرِيبًا.

أي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ نِظَامِ الْبَشَرِ فِي
طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَنِكَاحِهِمْ، مَا يُؤْهِلُكَ لِأَنْ تَكُونَ نَبِيًّا تَتَلَقَّى الْوَحْيَ عَنِ
اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِأَنْ تَكُونَ رَسُولًا تَحْمِلُ رِسَالَةَ مِنْهُ وَتُبَلِّغُنَا بِهَا.

وعلى مِثْلِ هَذَا تَعَلَّلَ كُفَّارُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لَشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ
كَانُوا بَعْدَهُ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَصْلُحُ لِلنَّبُوَّةِ، وَلَا لِتَلَقِّي رِسَالَةِ رَبَّانِيَّةٍ،
وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ وَعَدَمِ تَقْدِيرِهِمْ رَبَّهُمْ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ
يَخْصَّ بَعْضَ عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

وقد سبقَ تدبُّرُ النُّصوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْضُوعِ «بَيَانِ اعْتِرَاضِ
الْأُمَمِ عَلَى بَشَرِيَّةِ الرُّسُلِ فِي الْقُرْآنِ» فِي الْمَلْحَقِ الثَّالِثِ مِنْ مَلَاْحِقِ تَدْبُّرِ
سُورَةِ (يَس/٣٦/ مَصْحَف/٤١/ نَزُول)^(١).

القضية الثالثة: دلّ عليها ما حكاه الله عزّ وجلّ عنهم بقوله:
﴿...وَأَن تَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٨٦):

أي: ونؤكد لك أننا نظنّك كاذباً من الكاذبين، الذين يفترون على ربهم بادعاء النبوة والرّسالة.

[إن] هي المخففة من الثقل، ويؤازرها في التوكيد اللام في عبارة [لمن]، وتُسمّى اللام الفارقة بين «إن» المخففة من الثقل وبين «إن» النافية.

ونظراً إلى أنّه قد كان عليه السّلام معروفاً لدى عامّة قومه وخاصّةتهم بأنّه صادق لا يقول إلّا حقّاً، ما استطاعوا أن يقولوا له عبارة يجرّمون فيها بأنّه كاذب في دعواه النبوة والرّسالة، أو بأنّه واحد من المتنبّئين الكاذبين، بل اكتفوا ببيان أنّ ما يتصوّرونه فيه هو من قبيل الظنّ، لا من قبيل اليقين المستند إلى علم وخبرة بأحواله وأفعاله وأقواله.

وصبر شعيب عليه السّلام على شتائم الكبراء من كفّار قومه له، كما صبر سائر رسل الله على شتائم أقوامهم لهم، فلم يقابلوا شتائم أقوامهم لهم بأمثالها.

القضية الرابعة: دلّ عليها ما حكاه الله عزّ وجلّ عنهم بقوله:
﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٨٧):

[كسفاً] فيها قراءتان بفتح السين، وهي قراءة حفص، وبإسكانها وهي قراءة باقي القراء العشرة. الكسف والكسف: القطع من أيّ شيء، واللفظ جمعٌ واجدته «كسفة» وهي القطعة من شيء ما.

والمعنى: فأسقط علينا ما نستطيع إسقاطه من قطع من جهة السّماء تُعذبنا وتهلكنا بها، إن كنت من الصّٰدقين في أنك نبيّ ورسل أرسلك الله ربنا إلينا.

جاء في العبارة استعمال حرف الشرط «إن» للدلالة على أنهم لا يؤمنون بنبوتيه ولا برسالتيه، فهم يطلبون منه هذا الطلب على سبيل التعجيز، وهم يعتقدون أنه غير قادر على التنفيذ.

لقد غرهم طول إمهال الله عز وجل لهم، مع وجود رسوله بينهم، يعالجهم بكل وسائل الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ويرون أنهم ممكنون في أرضهم.

فأجابهم شعيب عليه السلام بجواب دل عليه ما حكاه الله عز وجل عنه بقوله:

• ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

أي: لست أنا الذي أسقط الكسف من السماء، إنما الذي يفعل ذلك هو ربي، وربّي إنما يفعل أو يفعل شيئاً آخر يهلككم به، إذا علم من أعمالكم الظاهرة والباطنة، الجسدية والنفسية، أنكم صرتم تستحقون إنزال العقاب الشامل فيكم، واقتضت حكمته ذلك، إنه - جلّ جلاله وعظم سلطانه - أعلم بما تعملون.

فتعذيبكم وإهلاككم إنما يتم بتقدير ربي وقضائه على وفق حكمته المقرونة بعلمه المحيط بكل شيء.

وحين وصل قوم شعيب عليه السلام إلى دركة ميؤوس معها من أن يؤمنوا به وبما جاء به عن ربه عن طريق إراداتهم الحرة، بحسب طبائع النفوس في الواقع البشري، وعنوان هذه الدركة تكذيبهم إياه تكذيباً لا علاج له، بإقناع، أو ترغيب، أو تهيب، أو جدال بالتي هي أحسن، أنزل الله بهم وسائل تغذيتهم وإهلاكهم إهلاكاً شاملاً مستأصلاً.

دل على هذا قول الله عز وجل:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾:

[فَكَذَّبُوهُ]: هذا عنوان الدركة السفلى التي وصل قوم شعيب عليه السلام إليها، بعد الرحلة الدعوية الطويلة، التي عالجهم فيها رسولهم بكل الوسائل الحكيمة، فلم يؤمنوا، وأصرُّوا بعنادٍ نهائيٍّ على تكذيبه.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾: أي: فقَبَضَ على جميع كفَّارِ قومه قَبْضاً شديداً قاهراً عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ.

أَسْنَدَ الْأَخْذَ إِلَى الْعَذَابِ، لَأَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ أَخْذٍ وَسَائِلِهِ لَهُمْ، إِذِ الْمَرَادُ تَعْذِيبُهُمْ بِالْوَسَائِلِ.

الظُّلَّةُ: هِيَ فِي اللَّغَةِ كُلُّ شَيْءٍ أَظْلَّ وَسَتَرَ وَأُطْبِقَ مِنْ فَوْقِ.

والإضافة في [يَوْمِ الظُّلَّةِ] هي بمعنى اللام، أي: يَوْمِهِمُ الْخَاصُّ بِالظُّلَّةِ الَّتِي عَمَّتْ أَرْضَهُمْ وَمَسَاكِينَهُمْ.

وكانت الظُّلَّةُ عَمَامَةً حَارَّةً ذَاتَ سَمُومٍ يَنْدَفِعُ مِنْهَا إِلَى أَرْضِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ، فَيُعَذِّبُ مَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ بَحْرَهَا وَسَمُومَهَا، وَبِمَا تُحْدِثُهُ مِنْ اخْتِنَاقَاتٍ، وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْعَمَامَةُ الْعَذَابِيَّةُ، طَوَالَ يَوْمٍ تَعْذِيبُهُمْ مُطَبِّقَةً عَلَى أَرْضِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ.

ووصف الله عزَّ وجلَّ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ بِأَنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، وَظَاهِرٌ أَنَّ عَذَابَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَذَاباً عَظِيماً مَصَاحِباً كُلَّ أَجْزَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ.

وفي ختام هذا الفصل المتعلق بشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، جَاءَتْ فِي السُّورَةِ الْآيَتَانِ اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَثَابَةِ فَاصِلٍ يُكْرَّرُ فِي نِهَآيَةِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ فِي السُّورَةِ، مِنْ قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وَأَقْوَامِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ :

وقد سبق تدبرُ هذا البيان في المرّة الأولى من إيراده في السورة في الآيتين (٨ و ٩) فلا داعي إلى التكرار.

ولا شكَّ أَنَّ قِصَّةَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام وقومه، قد اشتمَلَت على آية عظيمة، ذاتِ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، وَمَعَ تِلْكَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ، وَهُمْ كُفَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِهِمْ:

﴿لَمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ فُتُورٌ قَالَ أَفَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (١٩٢) :

قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْ إِيْمَانِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ، بِحَسَبِ طَبَائِعِ النَّفُوسِ، وَمَا تُصَابُ بِهِ الْقُلُوبُ مِنْ أَمْرَاضٍ مَعْنَوِيَّةٍ جَلَبَهَا أَصْحَابُهَا إِلَيْهَا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ.

وقد أَمَسَى هَؤُلَاءِ غَيْرَ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِ وَاَقَعَ حَالِهِمُ النَّفْسِيَّ وَالْقَلْبِيَّ، أَنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أَمْهَلُوا وَعَوَّلَجُوا، وَقَارَبُوا أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِمْ سُنَّةُ اللَّهِ، فِي إِهْلَاكِ مَنْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ، وَعَمَّ هَذَا الْحَالُ مَعْظَمَ أَفْرَادِهِمْ.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من ذرُوس سورة (الشعراء)
وهو الآيات من (١٩٢ - ٢٢٧ آخر السورة)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّمَا لَنِي ذِكْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْلَىٰ يَكُنْ لَهُمْ

ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ
 عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
 فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ
 ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَنُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا
 أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا مَنَ مُنْذَرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ
 الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾
 فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونِ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
 وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي
 السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾
 نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ
 يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا
 لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ
 بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

تمهيد:

عناصر هذا الدرس الثالث من دروس السورة موصولة بعناصر الدرس الأول منها، في نسيج تكاملي حكيم.

أما الدرس الثاني بفضوله السبعة فقد جاء بأمثلة تاريخية سبعة من رسل الله وأقوامهم، فيها آيات تربوية للرسول ﷺ وللدعاة إلى الله من أمته، إذ الرسل أسوة حسنة يقتدى بهم في حكمتهم الدعوية، وفي صبرهم على أقوامهم، وفيها آيات ذوات عبر وعظات لمعالجة المعنيين بالمعالجة في الدرس الأول، وهم كبراء مشركي قريش، الذين قال الله عز وجل لرسوله ﷺ بشأنهم في أوائل السورة:

﴿لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾.

وتتضح صلة عناصر الدرس الثالث الأخير من دروس السورة،
بعناصر الدرس الأول منها، بالبيان التالي:

(١) لقد جاء في الدرس الأول الحديث عن الكتاب المبين (القرآن الكريم).

(٢) وجاء فيه بيان حُزن الرُّسُولِ ﷺ على قومه إذ لم يُؤْمِنُوا مع همِّه
الشديد من أجلهم تَخَوُّفاً عَلَيْهِمْ أَلَّا يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، فيكونوا من المعذِّبين
بنار الجحيم عذاباً أَبَدِيًّا.

(٣) وجاءت فيه الإشارة إلى تطلُّع الرُّسُولِ ﷺ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً
حِسِّيَّةً على وفق طلبهم، رجاء أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فَيُتَّقِدُوا بالإيمان أَنْفُسَهُمْ من
الخلود في عذاب الجحيم.

(٤) وجاء فيه بيان إعراض المعنَّين بالمعالجة وهم كبراء مُشْرِكِي
قريش، عَنْ كُلِّ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ مُحَدَّثِ التَّنْزِيلِ، يَتْلُوهُ الرُّسُولُ ﷺ عَلَيْهِم.

وأضيف إلى هذا ما أبانته نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ سَابِقَةٌ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْقُرْآنَ
لَوْ مِنْ أَلْوَانِ الشَّعْرِ، تَهَرَّبًا مِنْ تَدَبُّرِهِ على أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ،
وما جاء فيها مِنْ بيان أَنَّهُمْ غَيْرَ عَابِثِينَ بِهِ.

وأضيف إلى هذا أيضاً ما أبانته نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ سَابِقَةٌ، مِنْ جَدَلِيَّاتٍ
قَدَّمُوها فِي مَزَاعِمِهِمْ، إِذْ طَرَحُوا اخْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ رِئْيٌ مِنَ الْجِنِّ هُوَ الَّذِي
يُوحِي لِلرُّسُولِ بِالنُّجُومِ الْقُرْآنِيَّةِ.

هذه العناصر مجتمعة تَسْتَدْعِي بَسْطَ الْبَيَانِ حَوْلَ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَتَسْتَدْعِي بَيَانَ أَنَّ الْجِنَّ مَعْزُولُونَ عَنِ السَّمْعِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ
يَسْتَرْقُوا اسْتِمَاعَ الْقُرْآنِ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، لِيُوحُوا بِهِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْإِنْسِ.

وبيانَ أَنَّ القرآنَ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الشُّعْرِ على ما زَعَمُوا لِلتَّبَائِنِ بَيْنَ أَغْراضِ الشعراءِ على يَعلَمُ كُبراءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، إِذِ الشعراءُ في كُلِّ وادٍ يَهيمُونَ، وَيَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَبَيْنَ القرآنِ الَّذِي يَشْتَمِلُ على الإيمانِ والإسلامِ، وحقائقِ الوجودِ، وكمالِ الحكمةِ، وفضائلِ الأخلاقِ، وكمالاتِ السُّلُوكِ الإنسانيِ.

وهذه العناصرُ تَسْتَدْعِي مَزِيدَ تَرْبِيَةٍ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وللدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فجاءت الآيات من (٢١٣ - ٢٢٠) فيها توجيهُ تَرْبَوِيٍّ مُلائمٍ للمرحلة الدَّعَوِيَّةِ، الَّتِي يَمُرُّ بها الرسول ﷺ إِبَّانَ نُزُولِ سورة (الشعراء). وبهذا نلاحظ النسيجَ المتشابهَ في عناصر السُّورة الَّتِي اشتمَلَتْ عليها دروس السُّورة الثلاثة.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ بادئاً بالحديث عن القرآن ومخاطباً رسوله:

﴿وَإِنَّهُمْ لَنُزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

تمهيد:

إِنَّ حَالَ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ وَهُمْ كِبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، الَّذِينَ جَحَدُوا كَوْنَ القرآنِ تَنْزِيلاًً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وحاولوا إِفْتِنَاعَ جَماهيرهم بِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أنواعِ الشُّعْرِ المَعْجَبِ، الَّذِي تُوحِي به الشياطين من الجنِّ إلى قُرَائِئِهِم من الإنسِ، على ما كانوا يَعتَقِدُونَ في الشعراءِ، قد اقتضى مَزِيدَ بيانٍ لتأكيدِ أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، واقتضى دَفْعَ شُبْهَةِ الشُّعْرِ عن القرآنِ، ودَفْعَ فُرْيَةِ أَنَّهُ مما تُوحِي به الجنِّ.

ولإدراك أَنَّ هذا الدرس الثالث مُرتَبِطٌ ارْتِباطاً فِكْريّاً بما جاء في

الدَّرْسِ الْأَوَّل من دُرُوسِ السُّورَةِ، جاء مُصَدَّرًا بِحَرْفِ العُطْفِ «الواو» في: [وَأَنَّهُ] أي: وَإِنَّ الْكِتَابَ الْمُبِينَ الَّذِي جاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُ فِي الْآيَةِ (٢) من السُّورَةِ، وَفِي الْآيَةِ (٥) مِنْهَا لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُولُوا الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، مَا لَمْ تَصُدَّهُمْ حَوَاجِزُ كَبِيرٍ، وَهَوَى، وَاتَّبَاعِ لِلشَّهَوَاتِ، وَاتَّبَاعِ لَتَقَالِيدِ عَمِّيَاءَ، أَوْ مَا لَمْ تَظْمِسْ بِصَائِرِهِمْ نَوَازِعُ النُّفُوسِ وَنَوَازِعُ الشَّيَاطِينِ.

التدبر:

• ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: فَهُوَ فِي سُمُوهِ وَعَظَمَةِ مَعَانِيهِ وَمَبَانِيهِ عَلَى قَدْرِ الْمُنْزَلِ، يُذَكِّرُ هَذَا مِنْ أَحْسَنَ تَذَكُّرِ آيَاتِهِ وَسُورِهِ.

تَنْزِيلٌ: مُصَدَّرٌ «نَزَلَ» وَصِفَ الْقُرْآنُ هُنَا بِالْمُصَدَّرِ، فِي مَكَانِ الْوَصْفِ بِاسْمِ الْمَفْعُولِ «مُنْزَلٌ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ مَبَانِيهِ، وَكُلُّ دَلَالَةٍ مِنْ دَلَالَاتِهِ، وَكُلُّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ، مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ بِمَثَابَةِ الْحَدِيثِ الْمُصَدَّرِيِّ، الَّذِي هُوَ «التَنْزِيلُ» مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِمُجْتَمَاعِهِ كُلِّ صِفَاتِ حَدِيثِ هَذَا التَّنْزِيلِ.

وَدَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ هُوَ تَنْزِيلٌ، وَلَوْ كَانَ مِنْ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ، كَخَلْقِهِ الْأَنْعَامَ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ هُوَ مِنْ دُونِهِ، فَكُلُّ عَطَاءَاتِهِ، وَخَلْقِهِ، وَتَصَارِيفِهِ، تَنْزِيلٌ.

وجاءت هذه الجملة في الآية مؤكدةً بالمؤكدات: «إِنَّ - الْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ - اللَّامُ الْمُزْحَلَقَةُ».

وعبارة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، لِمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ أَنَّ مَا يَصْدُرُ عَنْ عَظِيمٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَظِيمًا، أَي: فَتَذَكَّرُوهُ بِاتِّقَانٍ وَوَعْيٍ، وَاسْتِيعَابٍ فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَهُ عَظِيمًا عَلَى قَدْرِ مُنْزَلِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قول الله تعالى

• ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾: الرُّوحُ: هو هُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَوَصَفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْأَمِينِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَزِيدُ فِيْمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ شَيْئًا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا، كَمَا هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ رَسُولٌ كَامِلٌ الْأَمَانَةِ فِيْمَا يَحْمِلُ عَنْ رَبِّهِ مِنْ رِّسَالَاتٍ، وَفِيْمَا يُوْدِّيْهَا.

جاء في القرآن الكريم ذكر جبريل عليه السلام بعنوان «الروح» أو «الروح الأمين» أو «روح القدس» تِسْعَ مَرَّاتٍ.

وجاء في القراءة الأخرى: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ]، أَي: نَزَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ جِبْرِيلُ الرُّوحُ الْأَمِينُ، وَبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامِلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ.

قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله مُحَمَّد ﷺ:

﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

أَعْرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مَخَاطَبَةِ الْمُقْصُودِينَ بِالْمَعَالِجَةِ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ تَلْقَى الْقُرْآنِ، إِذْ جَاءَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

وَخَاطَبَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِهَذَا الْبَيَانِ، لِيَسْمَعَ الْمُقْصُودُونَ بِالْمَعَالِجَةِ بِطَرِيقَةِ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ.

أَي: نَزَلَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِبْرِيلُ نُزُولًا نَافِذًا مِنْ حَاسَّةٍ سَمِعَكَ وَمَنْصَبًا عَلَى قَلْبِكَ يَا مُحَمَّد.

يَرَادُ بِالْقَلْبِ هُنَا جِهَازُ الْإِذْرَاكِ الْوَاعِي لِلْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ وَالْأَقْوَالِ فِي غُمْقِ الْإِنْسَانِ، وَدَلَّ ذِكْرُ الْقَلْبِ عَلَى تَحَقُّقِ الرَّسُولِ ﷺ وَاسْتِيعَابِهِ لِكُلِّ مَا يَنْزِلُ بِهِ الْوَحْيُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَكُنْ يَقْتَصِرُ عَلَى إِبْلَاحِ السَّمْعِ، إِذْ قَدْ

تَسْمَعُ الْأَذْنَ وَلَا يَعْيِي الْقَلْبُ مَا سَمِعَتْهُ، بَلْ كَانَ يَنْفُذُ مِنَ السَّمْعِ وَأَجْهَزَتْهُ
الْمُوصِلَةَ حَتَّى يَكُونَ الْمُوَحَّى بِهِ مُسْتَقَرًّا فِي عُمَقِ الْقَلْبِ، أَي: فِي عُمَقِ
جهاز الإدراك الواعي للمعارف والعُلُوم والأقوال فِي عُمَقِ الْإِنْسَانِ.

وجاء ذِكْرُ عبارة: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ للدلالة بها عن طريق اللوازم
الذهنيّة على كُلِّ وظائف الرّسول الدّعويّة الّتي يأتي الإنذار فِي آخرها.
وأولّها التبليغ، ثمّ البيان والتّوضيح، ثمّ اتّخاذ وسائل الإقناع بالحجج
والبراهين، ثمّ الترغيب والترهيب، ثمّ الجدل بالّتي هي أحسن، ثمّ متابعه
التذكير بما سَبَق، فإذا وَصَلَ الْمَدْعُوءُونَ إِلَى حَالَةٍ مَيُوسٍ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ
مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، كَانَ الْإِنذَارُ هُوَ الْخِتَامُ الَّذِي تَنْقَطِعُ عَنْدهُ
وَسَائِلُ الْعِلَاجِ الْبَيَانِي.

الإنذار: هو الإغلام بما هو مخوف منه. وبالعواقب غَيْرِ الحميدة،
للأعمال السيّئة أو المنهيّ عنها، ومن العواقب غير الحميدة العذاب الأليم
من قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَعْصِيَةِ عِبَادِهِ لَهُ بِالْكَفْرِ فِيمَا دُونَهُ.

قول الله تعالى: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٥):

يُطْلَقُ «اللِّسَانُ» وَيُرَادُ بِهِ لُغَةُ الْقَوْمِ، وَهَذَا إِطْلَاقٌ لُغَوِيٌّ، وَهُوَ مِنْ
التَّوَسُّعِ فِي الدَّلَالَةِ، إِذْ أَضْلُ مَعْنَى اللِّسَانِ الْأَدَاةُ اللَّحْمِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِي
الْفَمِ، وَيَكُونُ بِهَا تَذَوُّقُ الطَّعَامِ، وَهِيَ إِخْدَى جِهَازِ النُّطْقِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ،
فِيُطْلَقُ عَلَى اللُّغَةِ لِأَنَّهُ الْأَدَاةُ النَّاطِقَةُ بِهَا، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَجَازٌ مَرْسَلٌ.

والمعنى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ بِوَاسِطَةِ أَمِينٍ
الوحي جبريل، بِلُغَةِ الْعَرَبِ، ذَاتِ النُّطْقِ الْفَصِيحِ الْمُبِينِ، وَالْكَلِمَاتِ
الدَّلَالَاتِ عَلَى الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ بِهَا دَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ، لَا غُمُوضَ فِيهَا،
لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ تَحْدِيدٍ لِلْمَعَانِي، عَنْ طَرِيقِ الْحَقَائِقِ الْوَضْعِيَّةِ،
وَالْمَجَازَاتِ الْجَلِيَّاتِ، وَالْكِنَايَاتِ الْبَدِيعَاتِ.

وفي هذا ثناءً على اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُحَرَّضٌ لِلْعَرَبِ عَلَى أَنْ يَفْتَحِرُوا
بِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ مُعْجِزاً مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهذا يدعوهم
إلى الإيمان به، لا إلى جُحُودِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ، مع وُضُوحِ دلائل الإعجاز فيه.
﴿مُيِّنٍ﴾: مِنْ فِعْلٍ «أَبَانَ» وهذا الفعل يأتي لازماً، ويأتي مُتَعَدِّياً،
فَعَلَى اللُّزُومِ يَكُونُ الْمَعْنَى: «هُوَ وَاضِحٌ وَظَاهِرٌ» وَعَلَى التَّعَدِّيَةِ يَكُونُ الْمَعْنَى
«هُوَ مُوَضِّحٌ وَمُظْهِرٌ»، أي: للمعاني التي يراد بيانها به، في كلماتٍ وجُمَلٍ
وَأَسَالِيبَ وَحَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ وَكُنَايَاتٍ وَتَشْبِيهَاتٍ.

وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ صَالِحَانِ هُنَا، فَهُمَا مُرَادَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾: ﴿١٩٦﴾

زُبُرٌ: جَمْعُ «زُبُورٍ» وَهُوَ الْكِتَابُ الْمَزْبُورُ، أَي: الْمَكْتُوبُ، يُقَالُ لُغَةً:
«زَبَرَ الْكِتَابَ يَزْبُرُهُ» أَي: كَتَبَهُ، أَوْ أَتَقَنَ كِتَابَتَهُ، فَهُوَ مَزْبُورٌ وَزُبُورٌ.

﴿لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾: أَي: لَفِي الْكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أُنْزِلُهَا اللَّهُ عَلَى
الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، لِهَدَايَةِ الْأُمَمِ الْأَوَّلِينَ.

أَي: وَإِنَّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَقَائِقِ إِيمَانِيَّةٍ، وَمُبَادِيٍّ أَخْلَاقِيَّةٍ،
وَشَرَائِعِ إِسْلَامِيَّةٍ، هِيَ مَوْجُودَةٌ بِوَجْهِ عَامٍّ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى
الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، لِهَدَايَةِ الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ الْأَوَّلِينَ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَجْحَدُهَا
الْمُشْرِكُونَ.

وَهَذَا الْبَيَانُ لَا يُنَافِي مَا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ عُلُومٍ وَإِقْنَاعَاتٍ
وَجَدَلِيَّاتٍ، لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهَا زُبُرُ الْأَوَّلِينَ، لِأَنَّ جُحُودَ الْكَافِرِينَ وَإِنْكَارَاتِهِمْ
مُنْصَبَّةٌ عَلَى أَسُسِ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَشَرَائِعِ الْمَعَامَلَاتِ، وَأَحْكَامِ الْحَلَالِ
وَالْحَرَامِ، فَهِيَ جَوْهَرُ الدِّينِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ حَتْمًا فِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ، وَلَوْ
عَلَى سَبِيلِ التَّوْزِيعِ بَيْنَهَا، بِحَسَبِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الَّتِي أُنْزِلَتْ لِهَدَايَتِهَا.

قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾:

وفي قراءة ابن عامر: [أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ]، برفع [آية] وقد سبق توجيه القراءتين عند ذكر القراءات.

جاء عند علماء علوم القرآن أن هذه الآية مدنية ضُمَّتْ إلى سورة مكية، والله أعلم.

أقول: دلَّتْ هذه الآية على أَنَّ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ فِي السُّورَةِ، وَهُمْ كُتُبَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، قَدْ سَأَلُوا سِرّاً عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي رِحْلَاتِهِمْ إِلَى يَثْرِبَ وَكَانَتْ لَهُمْ بِهِمْ صِلَاتٌ تَجَارِيَّةٌ، عَنِ الْقَضَايَا الدِّينِيَّةِ الَّتِي أَبَانَتْهَا السُّورُ الْقُرْآنِيَّةُ، الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ)، فَأَبَانُوا لَهُمْ أَنَّهَا مِمَّا يَعْلَمُونَهُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَأَنَّهَا حَقٌّ، وَرَبِّمَا سَأَلُوهُمْ عَنِ النَّبِيِّ الْمُنْتَظَرِ، فَأَبَانُوا لَهُمْ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَاتِهِ، وَكَتَمَ كُتُبَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ بِمَا جَرَى، فَقَالَ لَهُمْ كَاتِمًا خَبَرَ سُؤَالِهِمْ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَطَاوِيّاً لَهُ فِي مَثَانِي النَّصِّ، وَعَاطِفاً عَلَيْهِ بِالْوَاوِ قَائِلاً عَنْهُمْ: أَلَمْ يَسْأَلُوا عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ (أَي: عَلَامَةٌ دَالَّةٌ) أَنْ يَعْلَمَ صِدْقَ مَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ سَأَلُوهُمْ.

ولم يأتِ في الآية التَّضْرِيحُ بِسُؤَالِهِمْ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبِجَوَابِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ لَهُمْ، لِثَلَا يَتَجَرَّؤُوا عَلَى إِنْكَارِ الْحَادِثَةِ، إِذْ كَانَتْ سِرّاً، وَبِاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَجْحَدُوهَا، إِذْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ شُهُودٌ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهَا. وَهَذِهِ مِنْ رَوَائِعِ وَبِدَائِعِ الطَّلِيّ الْقُرْآنِيِّ فِي الْمَثَانِي، الَّذِي يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ بِاسْتِطَابَةِ وَفَهْمِهِ.

قول الله عز وجل بِشَأْنِ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ تُجَاهِ الْقُرْآنِ:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿الْأَعْجَمِينَ﴾: قال أبو الفتح بن جني: أضلُّ «الْأَعْجَمِينَ» الأعجميين، ثُمَّ حُذِفَتْ ياءُ النَّسَبِ، وجُعِلَ جَمْعُهُ بالياءِ والنونِ دليلاً عَلَيْهَا.

يُشيرُ هذا البيانُ ضِمناً إلى العُنْجُهيَّةِ العَرَبِيَّةِ والكِبَرِ القوميِّ، الذي يَتَصِفُ به هؤلاء المعنيُّون بالمعالِجَةِ في السُّورَةِ.

فلَوْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ جَمَعَ إلى إعْجَازِهِ في مَبَانِيهِ وَمَعَانِيهِ، وإنْزَالِهِ على أُمِّيٍّ، بُرْهَاناً آخَرَ، فَأَنزَلَهُ كِتَاباً مَكْتُوباً على بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ، الَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ فِي نَشَاتِهِمُ التُّطْقَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، وَلَا اسْتَكْبَرُوا بِعُنْجُهيَّتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ اتِّبَاعِ أَعْجَمِيٍّ، مَعَ رَفْضِهِمْ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الَّتِي تُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وتَقَالِيدَهُمُ الْعَمِيَاءَ.

وفي هذا تَيْئِيسٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، إِذْ وَصَلَتْ حَالَتُهُمُ النَّفْسِيَّةُ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ إِلَى دَرْكَةٍ لَا يُجْدِي مَعَهَا أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِآيَةٍ حَسِيَّةٍ عَلَى مَا يَطْلُبُونَ، كَعَصَا مُوسَى، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى.

وفي هذا البيانِ تَرْبِيَّةٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقْطَعَ رَجَاءَهُ عَنْ إِيْمَانِ أَكْثَرِهِمْ، وَأَنَّ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَأَنْ لَا يَحْمِلَ هَمَّ إِيْمَانِهِمْ، إِذْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِحُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَهَمِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، كما قال له في أوائل السُّورَةِ: ﴿لَمَّا بَنَعَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

وفي هذا البيانِ أيضاً دَمْعٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ جُفَاءَ مُعَانِدُونَ، لَا يَسْتَحِقُّونَ حِرْصَ الرَّسُولِ ﷺ على إِيْمَانِهِمْ، وَحُزْنَهُ وَهَمَّهُ مِنْ أَجْلِهِمْ، فَهُمْ سَيَلْقَوْنَ مَصِيرَهُمْ خِزياً في الدُّنْيَا، وَسَوْفَ يَلْقَوْنَ مَصِيرَهُمْ عَذَاباً أَبدياً في جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ كُلِّ الْمُجْرِمِينَ تُجَاهَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ وَفِي كُلِّ عَصْرِ، وَأَنَّ حَالَ قُلُوبِهِمْ كَحَالِ قُلُوبِ أَكْثَرِ كُفَرَاءِ كُفَّارِ قَرِيشَ:

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٦﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٧﴾ يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾:

﴿سَلَكْنَاهُ﴾: أي: أَدْخَلْنَاهُ، يُقَالُ: «سَلَكَ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ»، أي: أَدْخَلَهُ فِيهِ، وَجَعَلَهُ يَغْبِرُهُ.

يَدْخُلُ الْمَحْبُوبُ فِي الْقُلُوبِ دُخُولَ مَسْرَةٍ وَإِنَاسٍ وَإِسْعَادٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْشُوقًا لَهَا.

وَتَدْخُلُ الْحَقَائِقُ الْإِيمَانِيَّةُ فِي الْقُلُوبِ الَّتِي تُحِبُّ الْحَقَّ، فَتُؤْمِنُ بِهَا، وَتَعْشَقُهَا.

وَتَدْخُلُ الْفَضَائِلُ الْأَخْلَاقِيَّةُ فِي الْقُلُوبِ الَّتِي تُحِبُّ الْفَضَائِلَ، وَتُحِبُّ الْخَيْرَ، فَتَتَعَلَّقُ الْقُلُوبُ بِهَا وَتَعْشَقُهَا، وَتَرْغَبُ فِي مُمَارَسَتِهَا.

وهذا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْقُلُوبِ، وَهِيَ نَتَائِجُ لِاخْتِيَارِ حُرِّ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ.

وَيَدْخُلُ الْمَكْرُوهُ فِي الْقُلُوبِ دُخُولًا مُشْقِيًا لَهَا وَمُعَذِّبًا، فَتَحْمِلُ بِهِ حَزْنًَا، أَوْ هَمًّا وَغَمًّا، وَمَا دَامَ سَالِكًا فِيهَا فَهُوَ مُعَذِّبٌ لَهَا، وَمِنْ أُمُثْلَتِهِ الْحِقْدُ وَالْحَسَدُ، وَالبغضاء، والعداوة المعذبة للقلوب.

وَيَدْخُلُ تَصَوُّرُ الْحَقِّ الْمَجْهُودِ فِي الْقُلُوبِ الَّتِي لَا تُحِبُّ الْحَقَّ، فَتَكْفُرُ بِهِ، وَتَتَأَلَّمُ مِنْ انْتِشَارِهِ، وَمِنْ قُوَّةِ سُلْطَانِهِ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ خَاطِرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَمَسُّهَا بِعَذَابٍ.

وَتَدْخُلُ تَصَوُّرَاتُ الْفَضَائِلِ وَالْمَتَحَلِّينَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، فِي قُلُوبِ مُرْتَكِبِي الرَّذَائِلِ الْغَارِقِينَ فِي أَوْحَالِهَا، فَتَمَسُّهَا هَذِهِ التَّصَوُّرَاتُ بِالْمَكَارِهِ،

وتحاولُ القُلُوبُ الكارِهَةُ لِمُمَارَسَةِ الفضائلِ جُحُودَهَا، واتِّهَامَ المتحلِّينَ بها بالتَّفَاق، وابتغاء المصالح الدُّنْيَوِيَّةِ من التَّظَاهِرِ بها.

ومن هذا التَّحْلِيلِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَا يَسْلُكُ فِي القُلُوبِ قِسْمَانِ:

القِسْمُ الأوَّلُ: هو القِسْمُ الَّذِي تَرَعَّبُ فِيهِ القُلُوبُ السَّوِيَّةُ، وتَأَنَسُ بِهِ وتَحِبُّهُ، وَإِذَا كَانَ مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ آمَنَتْ بِهِ، وَإِذَا كَانَ مِمَّا يُعْشَقُ عَشَقَتْهُ.

القِسْمُ الثَّانِي: هو القِسْمُ الَّذِي تَنَفَّرُ مِنْهُ القُلُوبُ المَرِيضَةُ، وتتأذَى بِهِ، وَإِذَا كَانَ مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ كَفَرَتْ بِهِ وَجَحَدَتْهُ، وَإِذَا كَانَ مِمَّا يَحْسُنُ حُبُّهُ، كَرِهَتْهُ وَشَقِيتْ بِكَرَاهِيَّتِهِ لَهُ.

وكلُّ ذَلِكَ خَاضِعٌ لِسُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، الَّتِي هِيَ مِنْ نَتَائِجِ اخْتِيَارَاتِهِمُ الحُرَّةِ، للحَقِّ أَوْ للباطلِ، للخيرِ أَوْ للشرِّ، للفضائلِ أَوْ للردائِلِ.

وعلى هذا فالقرآنُ وحقائِقُهُ يَدْخُلُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ دُخُولَ مَكْرُوهٍ مَجْجُودٍ مَكْفُورٍ بِهِ، وَهَذَا هُوَ سُلُوكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ اخْتَارُوا بِإِرَادَاتِهِمُ الحُرَّةِ سُبُلَ الضَّلَالِ وَالْإِثْمِ والجريمة.

ويَدْخُلُ القرآنُ وَحَقَائِقُهُ فِي قُلُوبِ مُحِبِّي الحَقِّ والخيرِ، دُخُولَ مَحْبُوبٍ مُعْتَرَفٍ بِهِ مُحَاطٍ بِالْإِيْمَانِ بِهِ وَالْإِذْعَانِ لَهُ، وَهَذَا هُوَ سُلُوكُهُ فِي القُلُوبِ السَّلِيمَةِ الزَكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ أَرْجَاسِ حَبِّ الإِثْمِ وَالشَّرِّ وَارْتِكَابِ الجرائم.

فالمعنى: ومثل سُلُوكِ القرآنِ فِي قُلُوبِ كُفَّارِ كِبَرَاءِ قُرَيْشِ الْمُجْرِمِينَ، سُلُوكِ كُفْرٍ بِهِ، وَنُفُورٍ مِنْهُ، وَعَدَاوَةٍ لَهُ، نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ سَائِرِ الْمُجْرِمِينَ، مِنْ غَيْرِ المَعْنِيَيْنِ بالمعالَجَةِ فِي السُّورَةِ، فِي كُلِّ عَصْرِ، وَفِي كُلِّ أَرْضٍ وَقَرْيَةٍ وَمَضَرٍّ، لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الحَقَّ والخَيْرَ والفضيلةَ، مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ وشهواتِهِمْ وتقاليدهم العَمِيَاءَ، ووساوسِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ وتَسْوِيلاتِهِمْ.

وهذا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ النَّاتِجَةُ عَنْ اخْتِيَارَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، بَلَا جَبْرِ وَلَا إِلْزَامٍ قَهْرِيٍّ، وَهُوَ كإِخْرَاقِ اللَّهِ يَدَ مَنْ يَضَعُ يَدَهُ فِي النَّارِ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ.

قول اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى جُحُودِ الْحَقِّ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً، وَيَكْفُرُونَ بِالْقُرْآنِ مَعَ فَهْمِهِمْ لِقَضَايَاهِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي أَبَانَهَا فِي آيَاتِهِ وَسُورِهِ:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ ﴿فَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ﴿٢٢٣﴾:

فدَلَّ هذا البيان على أَنَّ التجربة في معالجة المدْعَوِينَ، مَتَى قَدَّمَ الْمَعَالِجَ فِيهَا كُلَّ وَسَائِلِ الإِقْنَاعِ الْفِكْرِيِّ بِحُجَجِهِ وَبِرَاهِينِهِ، وَكُلَّ وَسَائِلِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، بِمَا فِيهَا مَا يَتَسَرُّ مِنْ تَأْلِيلِ الْقُلُوبِ بِعَطَاءٍ مَادِّيٍّ، وَكُلَّ مَا يَلْزُمُ مِنْ مُجَادَلَةٍ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى الْإِفْحَامِ، ثُمَّ تَابَعَ الْمَعَالِجَ التَّذْكِيرَ بِمَا سَبَقَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ دُونَ جَدْوَى، صَارَ تَغْيِيرُ حَالِهِمْ إِلَى الْإِسْتِجَابَةِ أَمْرًا مَيُوسَّرًا مِنْهُ، بِكُلِّ حَدِيثٍ بَيَانِيٍّ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا تَخْوِيفُهُمْ بِقَوَائِلِ الْعَذَابِ الَّتِي كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوا بِهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ وَعَلَامَاتِهِ، فَإِذَا رَأَوْا هَذِهِ الْمَقْدِمَاتِ وَالْقَوَائِلَ قَادِمَةً إِلَى أَرْضِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ أَوْ مَوَاطِنِ تَجَمُّعِهِمْ، وَأَذْرَكُوا أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ الْأَلِيمَ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَنَازِلٌ عَلَيْهِمْ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُمْ عِنْدَئِذٍ يُؤْمِنُونَ، لَكِنَّ إِيْمَانَهُمْ سَاعَتِيذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَرْفَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ إِيْمَانٌ نَاتِجٌ عَنْ خَوْفٍ مِنْ عَذَابٍ مَشْهُودٍ الْمَقْدِمَاتِ، فَهُوَ كَالْإِيْمَانِ عِنْدَ طُلُوعِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ، وَشُهُودِ شَيْءٍ مِنْ مُقَدِّمَاتِ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَالْمَطْلُوبُ فِي امْتِحَانِ الْعِبَادِ أَنْ يَكُونَ إِيْمَانُهُمْ إِيْمَانًا بِالْغَيْبِ عَنْ طَرِيقِ الْبَرَاهِينِ الْفِكْرِيَّةِ، لَا إِيْمَانًا عَنْ طَرِيقِ الشُّهُودِ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ.

فَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٢٢١﴾ عَلَى أَنَّ

إِيْمَانَهُمْ فِي ظُرُوفِ حَيَاةِ الْاِمْتِحَانِ غَيْرُ مَطْمُوحٍ فِيهِ مُطْلَقًا، فَلَا جَدْوَىٰ مِنْ مُتَابَعَةِ مُعَالَجَتِهِمْ.

وَإِذَا افْتَضَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ انْزَالَ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا، فَإِنَّ عَذَابَ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ مُبَاغِتًا مُفَاجِئًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ أَوْ هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا تَوَهَّمُوا أَنَّ سَحَابَةَ الْعَذَابِ الْقَادِمَةِ سَحَابَةٌ مَطَرٍ نَافِعٍ، حَتَّىٰ إِذَا فَرَحُوا بِهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِمْ مَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِهِ عَذَابًا أَلِيمًا، وَيَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْمُهْلِكَاتِ الْمَاحِقَاتِ.

وَحِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ يَقُولُونَ وَهُمْ يَذُوقُونَ الْآلَامَ الشَّدِيدَةَ: هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ قَلِيلًا حَتَّىٰ نُؤْمِنَ تَائِبِينَ إِلَىٰ رَبِّنَا؟!

وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَنْ يُنْظَرُوا، فَقَدِ انْتَهَىٰ وَقْتُ الْاِبْتِلَاءِ، وَجَاءَ زَمَنُ الْجَزَاءِ.

• ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٢١):

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجَاءَهُ دُونَ إِشْعَارٍ سَابِقٍ، يُقَالُ لُغَةً: «بَغْتُهُ، يَبْغَتْهُ، بَغْتًا، وَبَغْتَةً» أي: فَجَأَهُ وَبَهْتَهُ، وَيُقَالُ: «بَاغْتُهُ، مُبَاغِتَةً، وَبِغَاتًا» أي: فَاجَأَهُ.

أُطْلِقَ الْمَصْدَرُ «بَغْتَةً» فِي مَوْقِعِ اسْمِ الْفَاعِلِ «بَاغِتٌ» أَوْ «مُبَاغِتٌ»، أَوْ هُوَ صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مَطْلُوقٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: فَيَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ إِيْتَانًا بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمُقَدَّمَاتِ إِيْتَانِهِ. الشُّعُورُ: أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ، كَمَنْ يُحَسُّ بِأَنَّ شَيْئًا قَدْ مَسَّ أَطْرَافَ شَعْرِهِ.

• ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (٢٢٢):

أي: فَيَقُولُوا عَقِبَ أَنْ يَذُوقُوا أَوَائِلَ عَذَابِ اللَّهِ لَهُمْ: هَلْ نَحْنُ مُمَهَّلُونَ مُؤَخَّرُونَ قَلِيلًا، حَتَّىٰ نَتُوبَ إِلَىٰ بَارِئِنَا وَنُؤْمِنَ؟!

﴿مُنْظَرُونَ﴾: اسْمٌ مَفْعُولٌ، مِنْ فَعَلَ «أَنْظَرَهُ» بِمَعْنَى أَمْهَلَهُ وَأَخَّرَهُ، أَي: هَلْ نَحْنُ نُمْهَلُ وَيُؤَخَّرُ تَعْذِيبُنَا حَتَّى نُوْمِنَ تَائِبِينَ إِلَى بَارِئِنَا؟!!

لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطْلُبُوا إِمْهَالَهُمْ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ فَقَدْ أَمْهَلُوا كَثِيرًا، فَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ بِأَسْلُوبِ الْاسْتِفْهَامِ، فَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا يُرَادُّ بِهِ التَّعْبِيرُ عَنْ تَمَنِّيهِمْ، وَهُمْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنْ أُمْنِيَّتَهُمْ لَنْ تَتَحَقَّقَ، فَقَدْ عُولِجُوا طَوِيلًا وَجَحَدُوا، وَكَذَّبُوا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَلَا عُدْرَ لَهُمْ فِيمَا كَانُوا بِهِ مِنْ تَكْذِيبٍ.

قول الله عز وجل يَصِفُ اسْتِعْجَالَ الْكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ عَذَابَ اللَّهِ، إِذْ يَقُولُونَ لِلرُّسُولِ: ائْتِنَا بِالْعَذَابِ الَّذِي تُنْذِرُنَا بِهِ، وَمِنْهُمْ الْمَعْنِيُّونَ بِالْمَعَالِجَةِ فِي السُّورَةِ، وَهُمْ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ:

• ﴿أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ﴾ (٢٢٧):

دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ الرُّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ، كَانَ قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) يُنْذِرُ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْمُكَابِرِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمَكْذِبِينَ لَهُ، وَالْمَكْذِبِينَ بِمَا جَاءَهُمْ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِعَذَابٍ يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، عُقُوبَةً لَهُمْ، شَأْنُهُ فِي هَذَا كَشَّانٍ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ مَعَ كُفَّارِ أَقْوَامِهِمُ الْمُعَانِدِينَ الْمُكَابِرِينَ الْجَا حِدِينَ.

وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّسُولَ لَمَّا تَابَعَ عَلَيْهِمْ إِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ، وَأَظْمَعَهُمْ إِمْهَالَ اللَّهِ وَتَأْخِيرُهُ إِنْزَالَ عَذَابِهِ عَلَيْهِمْ، صَارُوا يَقُولُونَ لِلرُّسُولِ ﷺ: أَيْنَ الْعَذَابُ الَّذِي تَتَوَعَّدُنَا بِهِ؟ هِيَ أَنْزِلْهُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَرَبِّمَا أَلْحُوا عَلَيْهِ بِهَذَا الْاسْتِعْجَالِ لِإِشْعَارِ جَمَاهِيرِهِمْ بِأَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنْ وَعِيدٍ.

وَحِكْمَةُ اللَّهِ الْمُفْتَرِنَةُ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِأَحْوَالِ نَفُوسِهِمْ، قَدْ قَضَتْ بِإِمْهَالِهِمْ جَمِيعًا، لِأَنَّ فِيهِمْ أَفْرَادًا لَدَيْهِمُ الْإِسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إِذَا أَمْهَلُوا.

فَاسْتَعْلَجَ الْجَا حِدُونَ الْمُعَانِدُونَ الْمُكَابِرُونَ هَذَا لِتَوْجِيهِ عِبَارَاتِ
الاستِعْجَالِ، بُغْيَةً تَضْلِيلَ أَتْبَاعِهِمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ رَسُولًا صَادِقًا، وَهُمْ فِي
الحَقِيقَةِ لَا يُرِيدُونَ نُزُولَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ.
وَقَدْ تَحَدَّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِحَسَبِ ظَاهِرِ أَقْوَالِهِمْ، فَقَالَ
بشأنهم:

• ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢١٤)؟! اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِ اسْتِعْجَالِهِمْ
العذاب الذي لَا يَفْعَلُهُ مِنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ فَهَمٍ.

يقال لغة: «اسْتَعْجَلَ الأمر» أي: طَلَبَ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ الذي
تَقْتَضِي الحِكْمَةُ تَحْقِيقُهُ فِيهِ.

والباء في [بِعْدَابِنَا] ثَلَاثُ الْفِعْلِ الْمَضْمَنَ فِي فِعْلِ «اسْتَعْجَلَ» ويمكن
تقديره بِأَن نَقُولَ: أَيْسْتَعْجِلُونَ عَذَابَنَا اسْتِهَانَةً بِهِ، وَهُوَ عَذَابٌ لَا يَسْتَهِينُ بِهِ
مَنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلِ أَوْ فَهَمٍ أَوْ عِلْمٍ، وَحِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ يَتَمَتَّنُونَ لَوْ كَانُوا
يَمْلِكُونَ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَقَدَّمُوهَا فِدَاءً.

فالاستفهام في العبارة استفهامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِ اسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ
رَبِّهِمْ، حَمَلًا لاسْتِعْجَالِهِمْ عَلَى ظَوَاهِرِ عِبَارَاتِهِمْ، لَا عَلَى مُرَادَاتِهِمْ مِنْهَا،
الرَّامِيَّةِ إِلَى إِقْنَاعِ أَتْبَاعِهِمْ بِكَذِبِ الرَّسُولِ، مُغْتَرِّينَ بِإِمْهَالِ اللَّهِ لَهُمْ.



وَجَاءَ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ بَعْدَ التَّعْجِيبِ مِنْ اسْتِعْجَالِهِمْ، إِقْنَاعُهُمْ
بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ لَهُمْ بِالْخِطَابِ، بَلْ عَنْ طَرِيقِ مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ بِشَأْنِهِمْ،
وَمُخَاطَبَةِ كُلِّ مُتَلَقٍّ لَخِطَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢١٥) ثُرُ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٦﴾ مَا
أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿٢١٧﴾:

الفاء في [أَفْرَأَيْتَ] فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَى مَحْذُوفٍ يُدْرِكُ بِالتَّأْمُلِ،
وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ بِمَا يَلِي: أَفَكُفِّرُ فِي حَالِ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ الْمَكْذِبِينَ،
فَرَأَيْتَ بِفِكْرِكَ وَعِلْمَتِ، أَنَّنَا إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ عِدَّةَ سِنِينَ بِأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ مَتَاعِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعْدَ هَذِهِ السِّنِينَ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَى
لِسَانِ رَسُولِهِمْ بَلَاغًا عَنَّا، فَسَيَجِدُونَ أَنَّ كُلَّ مَتَاعٍ تَمَتَّعُوهُ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا
وَلَذَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا مَا صَرَفَ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ
تَحْقِيقًا لِلْوَعْدِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَهُ.

إِنَّ الْإِمْهَالَ وَالْإِنْظَارَ مع واقعِ حَالِ قُلُوبِهِمْ الْمَرِيضَةِ يُطِيلُ مُدَّةَ
اسْتِمْتَاعِهِمْ بِمَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ الْفَانِيَةِ، فَمَاذَا يَفْعَلُونَ بَعْدَهَا
بِالْعَذَابِ الْخَالِدِ الْأَبَدِيِّ فِي الْجَحِيمِ.

هَلْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ذِكْرِيَاثَ الْمَتَاعِ الَّذِي مَتَّعْنَاهُمْ إِيَّاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
شَيْئًا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، أَوْ تُخَفِّفُ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْ مَقَادِيرِ أَنْوَاعِ
الْعَذَابِ؟!

لَقَدْ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ بِالتَّنَازُلِ
عَنْ كِبَرِهِمْ وَعَنْجَهِيَّاتِهِمْ وَحِمَاقَاتِهِمْ، وَإِعْلَانِهِمْ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ، وَلَنْ
يَخْسَرُوا مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا شَيْئًا قَلِيلًا هُوَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ،
إِذَا اسْتَقَامُوا، وَيَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ إِذَا لَمْ
يَسْتَقِيمُوا.



قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٧٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٧٩﴾﴾:

هَذَا الْبَيَانُ مَوْضُوعٌ بِمَا جَاءَ فِي السُّورَةِ بِشَأْنِ الْأُمَمِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُ
إِهْلَاكِهَا، وَهِيَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، وَقَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٌ، وَثَمُودٌ، وَقَوْمُ لُوطٍ،

وأصحابُ الأيكة، ودَلَّتْ أَحَدَاتُ إِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ الْمُهْلَكِينَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا أُنْبَلِغُوهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَقَامُوا بِوِظَائِفِهِمُ الدَّعَوِيَّةَ أَحْسَنَ قِيَامٍ، وَكَانَ آخِرُ أَمْرِ كُلِّ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذَرَ الَّذِينَ أَصْرُوا مِنْ قَوْمِهِ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً عَلَى الْبَاطِلِ، بِعَذَابٍ يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ بِهِ إِهْلَاكًا مُسْتَأْصِلًا، وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْوَاقِعِ مَا كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ.

واقْتَضَى هَذَا التَّفْصِيلُ الْجُزْئِيُّ إِضْدَارَ قَاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ تَكْشِفُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي كُلِّ عِبَادِهِ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ أَهْلِ قَرْيَةٍ قَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ لَهُمْ مَنْ أُنْبَلِغُهُمْ دِينَهُ، وَبَيَّنَّهُ لَهُمْ، وَوَعَّظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ وَقَامَ بِكُلِّ وَظَائِفِهِ الدَّعَوِيَّةَ فِيهِمْ، فَلَمَّا أَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالجُحُودِ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، أَنْذَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ بِهِمْ عَذَابًا مُهْلِكًا، وَتَمَّ فِي الْوَاقِعِ تَحْقِيقُ مَا كَانَ أَنْذَرَهُمْ بِهِ.

وَيَدْخُلُ ضِمْنَ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ وَصُورُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ كِبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمُعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ، إِلَى مَرَحَلَةِ الْإِنْذَارِ الْأَخِيرِ بِعَذَابٍ مُهْلِكٍ لَهُمْ، وَقَدْ أَلْمَحَتْ إِلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الْأَخِيرَةِ الْآيَةُ (١٩٤) فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ، وَخَطَابًا لِرَسُولِهِ:

﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

أَي: لِتَكُونَ مُنْذِرًا بِالْعَذَابِ الْمُهْلِكِ مِنَ الْمُنْذِرِينَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا أَقْوَامَهُمْ بِعَذَابٍ مُسْتَأْصِلٍ، مَعَ إِنْذَارِهِمْ لَهُمْ بِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ يَوْمَ الدِّينِ فِي الْجَحِيمِ.

المعنى: فَكُونُوا يَا كِبَرَاءَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فِي حَالَةِ تَوْقِعِ تَحْقِيقِ مَا أَنْذَرَكُمْ بِهِ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ.

وَتَحْلِيلُ الْآيَةِ كما يلي: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِلَّا فِي حَالٍ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُنْذِرُونَ قَدْ أَنْذَرُوهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمُ الْمُهْلِكِ، فَتَمَرَّدُوا وَعَانَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَعُذِبُوا وَأُهْلِكُوا، إِذْ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ.

«مِنْ» فِي «مِنْ قَرْيَةٍ» زِيدَتْ لِتَأْكِيدِ الْعُمُومِ وَالتَّنْصِصِ عَلَيْهِ.

«إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ»: اسْتِثْنَاءٌ مِنْ عُمُومِ الْأَحْوَالِ.

«ذَكَرَى»: تَأْتِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:

المعنى الأول: الذُّكْرَى: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرِ. أَي: يَأْتِي فِي الْقُرْآنِ تَكْرِيرُ بَيَانِ إِهْلَاكِ الْكُفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ، بَعْدَ إِنْذَارِ رُسُلِهِمْ لَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ، إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَجُحُودِهِمْ، تَذْكِيراً بِهَذِهِ السَّنَةِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

المعنى الثاني: الذُّكْرَى: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرَةِ. أَي: نَضَعُ أَمَامَ النَّاسِ أُمُثْلَةً إِهْلَاكِنَا الْمُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ، لِتَكُونَ بِمِثَابَةِ بِطَاقَةِ مُذَكَّرَةٍ، أَوْ آيَةٍ وَسِيلَةٍ مُذَكَّرَةٍ كَالرَّيْثِمَةِ، تُذَكَّرُ بِسُنَّتِنَا فِي عِبَادِنَا الْمَجْرِمِينَ.

المعنى الثالث: الذُّكْرَى: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرِ. وَهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَبْعَدٌ هُنَا فِيمَا

أَرَى.

«وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ»: أَي: وَمَا كُنَّا بِإِهْلَاكِنَا الْمُجْرِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى السَّابِقِينَ ظَالِمِينَ، بَلْ كُنَّا عَادِلِينَ نَتَصَرَّفُ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ.

وَفِي هَذَا الْإِمَّاخِ إِلَى أَنَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُثَالِ الْأَوَّلِينَ، مِنْ الْمُجْرِمِينَ الْآخِرِينَ تَحْقِيقاً لِسُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ، لَنْ يَكُونَ فِيهِ ظَالِماً، بَلْ يَكُونُ فِيهِ عَادِلاً يَتَصَرَّفُ فِي عِبَادِهِ بِكَمَالِ حِكْمَتِهِ.

فَلْيَتَوَقَّعِ الْمُجْرِمُونَ مِنَ الْآخِرِينَ تَحْقِيقَ سُنَّتِنَا فِيهِمْ، مَهْمَا عَلَوْا فِي الْأَرْضِ، وَكَانُوا فِيهَا ذَوِي قُوَى قَاهِرَةٍ، وَمَهْمَا كَانُوا فِيهَا جَبَّارِينَ.



قول الله عز وجل بشأن القرآن، ردّاً على افتراء كُبراء كُفّار قُرَيْشٍ،
بأنّ القرآن يُوحى به إلى مُحَمَّدٍ رَّبِّي مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، كما يوحى القرينُ
منهم للشاعر أجمل شعره:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٦٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٦٧﴾ إِنَّهُمْ عَنْ
السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

في هذه الآيات الثلاث بيان أربع قضايا لدفع مزاعم أئمة التضليل
من كُبراء كُفّار قُرَيْشٍ، المعنيتين بالمعالجة في السورة:

القضية الأولى: دلّ عليها قول الله عز وجل: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ
﴿٦٦﴾﴾: أي: وما تنزلت بالقرآن الشياطين على مُحَمَّدٍ، إذ دلّالات آيات
القرآن الدنيّة المُشتملة على الحقّ والخير وفصائل السلوك الفردي
والاجتماعي، والمُشتمل على الجزاء الثوابي بفضل الله للمؤمنين الذين
يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ، والجزاء العقابي بعَذَلِ الله للكفّرة والجاحدين
والآثمين بفعل السيئات، تتنافى تنافياً كليّاً مع أهداف الشياطين القائمة
على الإغواء والتضليل عن الحقّ وصراط الله المُستقيم.

فبين أهداف الشياطين ومسالكهم، وما اشتمل عليه القرآن، تباين
التضاد والتناقض، فالقرآن لا تنزل به الشياطين.

إنّ الشياطين إذا أوحى شيئاً إلى قُرنائهم من البشر، فإنها تُوحى
بالكُفر بالله، وبجُحود الحقّ، وبإنكار الجزاء، وبالتكذيب بيوم الدين،
وبنشر كل رذيلة، وبمُحاربة كل فضيلة، وتزيين كل ذلك بزُخرف من
القول، للإيهام بصحّة ما تُوحى به وتدعو إليه.

وأما غير الشياطين من الجنّ، فإذا كانوا مُؤمنين، فإنهم يخافون
عذاب الله فلا يفترون عليه، وإذا كانوا أصحاب أديان ومذاهب مُنافية
للإسلام، فإذا شاء بعضهم أن يُوحى إلى بشر بشيء فإنه يُوحى بما يؤيد
دينه أو مذهبه، ولا يُوحى بما يضاده أو يناقضه.

وَبِهَذَا تَسْقُطُ فَرِيَةُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَمْلَاهُ عَلَى مُحَمَّدٍ قَرِينٌ لَهُ أَوْ قُرْنَاءُ مِنَ الْجِنِّ، شَيَاطِينُ كَفَرَةٌ أَوْ غَيْرَ شَيَاطِينِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾: أي: وَمَا يَصْلُحُ لِلشَّيَاطِينِ، وَمَا يَتَسَهَّلُ لَهُمْ أَنْ يُوحُوا بِالْقُرْآنِ لِأَحَدٍ.

فمبادئ القرآن، وتعليماته، ووصاياه، مُنافيةٌ لمبادئ الشياطين، وتعليماتهم، وَمَا يَحْرِضُونَ عَلَى إِغْرَاءِ النَّاسِ بِهِ. وإعجاز القرآن في مبانيه، وفي معانيه، مِمَّا تَعَجُّزُ الشَّيَاطِينُ عَنْهُ، وَيَعَجُّزُ عَنْهُ سَائِرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ أَنْ يُوحُوا بِهِ.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي: وَمَا يَسْتَطِيعُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يُؤَلَّفُوا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ هُمْ وَكُلُّ الْجِنِّ مَعَ الْإِنْسِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وَمَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْتَرْقُوا اسْتِمَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، إِذْ عَزَّلُوا بِالْقَهْرِ عَنِ اسْتِراقِ السَّمْعِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَى تَدْبِيرِ سُورَةِ (الجن/٧٢ مصحف/٤٠ نزول).

حُذِفَ الْمَفْعُولُ بِهِ وَهُوَ مُلَاحَظٌ تَقْدِيرًا، وَيَسْهَلُ إِذْرَاكُهُ ذَهْنًا.

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾، أي: لَمُبْعَدُونَ مَطْرُودُونَ.

يُقَالُ لُغَةً: «عَزَلَهُ يَعْزِلُهُ عَزْلًا» أي: أَبْعَدَهُ وَنَحَاهُ.

وسبق لَدَى تَدْبِيرِ الْآيَاتِ مِنْ (٨ - ١٠) مِنْ سُورَةِ (الجن/٧٢ مصحف/٤٠ نزول) شَرْحُ وَتَفْصِيلُ عَزْلِ الْجِنِّ عَنْ اسْتِراقِ السَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِأَقْوَالِ النَّفَرِ مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثَحْلٍ حَرِيسٍ ۚ وَشَهِبًا ۖ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّيْلِ لِلْخَمِيرِ ۖ فَمَنْ يُسْمِعُ الْآلَانَ يَجِدْ لَهُمْ شِهَابًا رَصَدًا ۖ (٩) وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ (١٠)﴾ .



قول الله عز وجل خطاباً للرَّسُولِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي توجيهِ تَرْبَوِيٍّ، موصول بالآيتين (٣ و ٤) في أوائل السُّورة، وبآيات من (١٩٢ - ١٩٦) من أول هذا الدرس الثالث.

• ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ۖ (١١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ (١١٤) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ (١١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۖ (١١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۖ (١١٧) الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِمَن يَشَاءُ ۖ (١١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ۖ (١١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ (١٢٠)﴾ :

وفي القراءة الأخرى [فَتَوَكَّلْ] بالفاء بدل الواو، والقراءتان متكاملتان في الدلالة على المعنى المراد، أي: فَإِنْ عَصَوْكَ عِصْيَانًا شَدِيدَ الْإِيلَامِ لِقَلْبِكَ وَنَفْسِكَ، فَبَاشِرٌ دُونَ إِبْطَاءٍ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. وَإِنْ عَصَوْكَ عِصْيَانًا عَادِيًّا مُتَحَمِّلًا بِالصَّبْرِ، فَأَنْتَ فِي فُسْحَةٍ مِنْ أَمْرِكَ أَنْ تُبْطِئَ قَلِيلًا بِإِعْلَانِ تَوَكُّلِكَ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، لِأَنَّ «الواو» لَا تَقْتَضِي تَرْبِيًّا وَلَا تَعْقِيًّا.

هذا التوجيه التربويُّ يَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعِ قَضَايَا:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ۖ (١١٣)﴾ :

أي: فتفريعاً على كَوْنِ الْقُرْآنِ تَنْزِيلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، لَا تَدْعُ لَدَى قِيَامِكَ بِوُظَائِفِ رِسَالَتِكَ مَعَ اللَّهِ مَعْبُوداً آخَرَ غَيْرَ اللَّهِ، فَتَكُونَ إِنْ دَعَوْتَ إِلَهًا آخَرَ

مَعَ دُعَائِكَ اللَّهُ مُعَذِّبًا مِنَ الْمُعَذِّبِينَ الْمُشْرِكِينَ، لَأَنَّكَ بِدُعَائِكَ إِلَهًا آخَرَ
تَكُونُ مُشْرِكًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أي: بعبادتك إلهًا آخر.

خاطَبَ اللَّهُ رَسُولَهُ بهذا الخطاب، مَعَ أَنَّهُ ﷺ ما كَانَ، وَلَا هُوَ كَائِنٌ
عِنْدَ الْخَطَابِ، وَلَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ وَيَعْبُدُونَ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، إِذْ هُوَ مَعْصُومٌ عَنْ كُلِّ مَعَاصِي مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ بِعِصْمَةِ اللَّهِ
لَهُ، لِيَعْلَمَ الْكَافِرُونَ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا سِيَّمَا الدُّعَاةَ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ، أَنَّ
الرَّسُولَ مُحَاطَبٌ بِعَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَبِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ بِوُضُوفِهِ أَوَّلَ
مُخَاطَبِهَا، فَلَا إِغْفَاءَ لَهُ بِإِعْتِبَارِهِ رَسُولًا مَفْضَلًا مُخْتَارًا، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ
أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ لِكُلِّ الْمُكَلَّفِينَ.

وَإِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ وَحْيِيَّهُ الْمُصْطَفَى غَيْرَ مَعْفِيٍّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَذِّبًا
مِنَ الْمُعَذِّبِينَ، لَوْ أَنَّهُ أَشْرَكَ فَدَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ
دُونَهُ مِنَ الْمُنْهَيَّينَ عَنْ أَنْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، أَوْ يَدْعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَعْبُودًا
آخَرَ.

﴿فَلَا تَدْعُ﴾ : أضل معنى الدعاء، النداء، والطلب، والدعاء لله من
أجل أنواع عبادته، وحمل الدعاء معنى العبادة بوجه عام في الاستعمال.
فالمعنى: فَلَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ
الْأَقْرَبِينَ﴾ (١٦٤): وهذا يَنْسَجِبُ عَلَى كُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

هذه الآية تَكْشِفُ أَنَّ الَّذِينَ حَزَنَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَجْلِهِمْ وَحَمَلَ هَمَّ
الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، فَيَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ
يَوْمَ الدِّينِ، وَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُ بِشَأْنِهِمْ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿لَمَّا بَلَغَ
نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)، قَدْ كَانَتْ عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ مِنْ أَكْثَرِ الَّذِينَ
كَانَ يُعَانِي الْحُزْنَ وَالْهَمَّ مِنْ أَجْلِهِمْ، خَوْفٌ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَإِذْ قَدْ

وَصَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى دَرَكَةٍ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، وَأَنَّ حَالَتَهُمْ يُنَاسِبُهَا تَوَجُّيهِ الْإِنذَارِ الْخَتَامِيِّ لَهُمْ، فَقَدْ عَالَجَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِكُلِّ مَرَاجِلِ الْعِلَاجِ الْبَيَانِيِّ، مَعَ شَيْءٍ مِنْ عِلَاجِهِمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَفَقَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَمَمِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ.

وَالْمَعْنَى: فَوَجَّهَ إِنْذَارَكَ الْخَتَامِيَّ لِلْمَعْنِيِّينَ بِالْمُعَالَجَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَابْدَأَ بِإِنْذَارِ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ الْبَدْءَ بِهِمْ يَدُلُّ الْآخَرِينَ عَلَى أَنَّكَ مُتَجَرِّدٌ فِي دَعْوَتِكَ مِنْ عَوَاطِفِكَ نَحْوِ الْأَقْرَبِينَ مِنْ عَشِيرَتِكَ، إِذْ إِنَّكَ تَبْدَأُ بِهِمْ فِي تَوَجُّيهِ الْإِنذَارِ الْخَتَامِيِّ لَهُمْ، بِأَنَّهُمْ قَدْ عَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لانتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ بِإِنْزَالِ الْعَذَابِ الْمُهِلِكِ لَهُمْ، وَتَفَعَّلُوا هَذَا طَاعَةً لِرَبِّكَ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

هذا الفهم هو الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السَّبَاقُ وَالسِّيَاقُ فِي السُّورَةِ. وَلَكِنْ يُشَكِّلُ مَعَهُ مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ آيَةَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٤) وَتَطْبِيقَ الرَّسُولِ ﷺ لَهَا بِإِنْذَارِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ، قَدْ نَتَجَ عَنْهُ قَوْلُ أَبِي لَهَبٍ لِلرَّسُولِ: تَبَّ لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ سُورَةُ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١١٤)، وَهِيَ فِيمَا ذَكَرُوا السُّورَةَ السَّادِسَةَ مِنَ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، وَتَرْتِيبُ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) عِنْدَ عُلَمَاءِ عُلُومِ الْقُرْآنِ (٤٧) وَلَيْسَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا يُشْعِرُ بِأَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ.

وَالْحَلَّ أَنْ آيَةَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٤) قَدْ نَزَلَتْ عَلَى الرَّسُولِ تَكْلِيفًا قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (الْمَسَدِ) فَأَدَّى الرَّسُولُ ﷺ مَا جَاءَ فِيهَا تَبْلِيغًا وَإِنْذَارًا أَوَّلِيًّا، ثُمَّ نَزَلَتْ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) لِيُقَدَّمَ لِعَشِيرَتِهِ الْإِنْذَارَ الْآخِيرَ، بَعْدَ وُضُوعِهِمْ إِلَى دَرَكَةٍ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِيْمَانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ^(١).

(١) فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بِهَذَا الْفَهْمِ، مُسْتَفِيدًا مِمَّا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) مَعَ مَخَالَفَةٍ لَهُ فِي بَعْضِ الرَّأْيِ.

﴿عَشِيرَتَكَ﴾: عَشِيرَةُ الرَّجُلِ بَنُو أَبِيهِ الْأَقْرَبُونَ، وقبيلته.

مِمَّا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ بِشَأْنِ آيَةِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤):

(١) روى البخاري ومُسلم عن عائشة، وابن عباس، وأبي هريرة:

«لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤)، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَدَعَا قُرَيْشًا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَعَمَّ وَخَصَّ، يَا بَنِي كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِّبِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَابُلَهَا بَيْلَالُهَا».

أي: سَأَرُشُ عَلَيْهَا مَاءً مِنْ عِنْدِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ سَيَصِلُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِصِلَاتٍ تَقْتَضِيهَا الرَّحِمُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِنَافِعَةٍ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا.

(٢) وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسلمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

«لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤)، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا وَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ

النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبٍ بَنِي لُؤَيٍّ،
 أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي
 قُصَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا
 مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
 وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا
 أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ،
 فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، إِلَّا أَنْ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلْهَا بِلَالِهَا».

(٣) وروى البخاري عن ابن عباس قال:

«لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤) صَعَدَ النَّبِيُّ عَلَى الصَّفَا،
 فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فَهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا
 فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا، لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ
 أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ
 مُصَدِّقِي؟»

قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، إِلَهَذَا جَمَعْتَنَا؟!

فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
 كَسَبَ (١٢).

وتوجد روايات أخرى، منها الصحيح ومنها الضعيف، أورد عدداً
 منها ابن كثير في تفسيره.

القضية الثالثة: دَلَّ عليها قول الله عز وجل: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾: وهذا التَّوَجُّيهُ يَنْسَجِبُ أيضاً على الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ، وعلى أُمَّةٍ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَهْتَدِي بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ عِلْماً وَعَمَلًا.

والمراد بخفض الجناح للمؤمنين، التَّوَضُّعَ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةَ الْمُلتَصِفَةَ بِهِمْ، وَالْحُنُوءَ عَلَيْهِمْ، وَضَمُّ أَفْرَادِهِمْ كَأَنَّهُمْ أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَالْهَيْمَنَةُ عَلَيْهِمْ. هكذا يخفض الطائر الحائِي جَنَاحَهُ على فِرَاحِهِ تواضعاً، وَحُنُوءاً، وَرَحْمَةً، وَضَمّاً، وَهَيْمَنَةً. وَقَيْدُ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَنْ يَتَّبِعُكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ تَخْفِضَ جَنَاحَكَ لَهُمْ.

هذه العبارة: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١٥﴾ هي من التشبيه المَكْنِيّ (وهو تشبيه مُضْمَرٌ لم يُذَكَّرْ فيه لفظُ المُشَبَّهِ بِهِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِيهِ بَعْضُ صِفَاتِهِ، أَوْ بَعْضُ خَصَائِصِهِ، أَوْ بَعْضُ لَوَازِمِهِ) وَأَضْلُهُ تَشْبِيهُ بَلِيغٌ^(١).

ففي هذه العبارة تَشْبِيهُ التَّوَضُّعِ وَالرَّحْمَةِ وَضَمُّ الْأَفْرَادِ وَالْهَيْمَنَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ الْإِمَامِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، بِخَفْضِ الطَّائِرِ جَنَاحَهُ مُنْكَسِراً لِفِرَاحِهِ، وَلَكِنْ أَضْمَرَ التَّشْبِيهِ، فَلَمْ يُذَكَّرْ لَفْظُ المُشَبَّهِ بِهِ، وَإِنَّمَا كُنِيَ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَهُوَ الْجَنَاحُ.

فالمعنى: لَتَكُنْ فِي تَوَاضُّعِكَ وَرَحْمَتِكَ وَحُنُوءِكَ وَهَيْمَنَتِكَ كَطَائِرٍ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ لِفِرَاحِهِ، فَحَذَفَتْ أَوَّلَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ، فَصَارَ تَشْبِيهاً بَلِيغاً، ثُمَّ حُذِفَ لَفْظُ المُشَبَّهِ بِهِ، وَرُمِزَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهُوَ الْجَنَاحُ، الَّذِي يَخْفِضُهُ الطَّائِرُ لِفِرَاحِهِ تَذَلُّلاً وَرَحْمَةً وَحُنُوءاً.

(١) اعتبار هذا المثل ونظيره من التشبيه المكني، هو ما ترجح لدي في كتابي: «البلاغة العربية»، ويجعله كثير من الباحثين والكاثرين من الاستعارة التخيلية المكنية، بسبب عدم فرز قسم التشبيه المكني عن التشبيه البليغ. انظر: «التشبيه المكني» في الصفحات من (٢٠٤ - ٢٠٨) منه.

الخفض في اللُّغة: التواضعُ ولين الجانب، والميلُ إلى المنخفض من الأرض، وهو ضدُّ الرفع.

القضية الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٧﴾ الَّذِي يَرْبُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢٨﴾ وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٢٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣٠﴾: وهذا التوجيه يَنْسَجِبُ أيضاً على الدُّعاةِ إلى الله.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: أي: فإن لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتِكَ، ولم يؤمنُوا، ولو كانوا عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ.

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي: فَقُلْ لَهُمْ بِصَرَاحَةٍ لَا مُدَارَاةَ فِيهَا وَلَا مُصَانَعَةَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. أي: إِنِّي مفارقٌ ومُبْتَعدٌ ومُتَحَلٌّ عَمَّا تَصْنَعُونَ، وَلَنْ أَذْفَعَ عَنْكُمْ شَيْئاً من عقاب الله، وقرايتي لن تَنْفَعَكُمْ بشيءٍ. ولَمَّا كَانَ الْكُفْرُ بِالْحَقِّ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْإِرَادِيَّةِ، كَانَ إِعْلَانُ تَبَرُّهِ مِمَّا يَعْمَلُونَ تَبَرُّاً مِنْ كُلِّ كُفْرِيَاتِهِمْ، وَأَثَامِهِمْ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢٢٧): وفي القراءة الأخرى: [فتوكل] وسَبَقَ بَيَانُ التَّكَامُلِ بَيْنَ الْقَرَاءَتَيْنِ.

وفي الأمر بالتَّوَكُّلِ إشعارٌ ضمنيٌّ بأنَّه رُبَّمَا يُلَاقِي من الَّذِينَ يُعْلِنُ لَهُمْ بَرَاءَتَهُ مِمَّا يَعْمَلُونَ، إِرَادَةً شَرًّا أو ضُرًّا أو أذىً، وَعَلَيْهِ تُجَاهٌ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْهُمْ ضِدُّهُ أو ضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: أي: وَوَجِّهْ قَلْبَكَ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ رَبِّكَ، وَحَرِّكْ فِكَرَكَ وَلِسَانَكَ بِعِبَارَةٍ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ: الاستِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيقِ الْمَرْجُوِّ إِلَيْهِ، مَعَ الْقِيَامِ بِالْأَسْبَابِ الْمُسْتَطَاعَةِ، الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ.

يقال: «تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلْ تَوَكَّلًا»، أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعْتِمَادًا صَادِقًا، مُسْتَسْلِمًا لما يختاره لَهُ مِنْ أَمْرٍ، مع قيامه بالأسباب الكونية، التي لَمْ يُحَرِّمِ اللَّهُ اتِّخَاذَهَا، دُونَ تَفْرِيطِ شَيْءٍ مِنْهَا.

واخْتِيرَ هُنَا بِعِنَايَةِ اسْمِ اللَّهِ «العزیز» واسْمِ اللَّهِ «الرَّحِيمِ» إِذْ يَفْصِمُ بِعِزَّتِهِ مَنْ أَرَادَ التَّوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ بِسُوءٍ. وَيَشْمَلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ، فَيَحْمِيهِ وَيَحْفَظُهُ وَيُعِينُهُ.

العزیز: القويُّ الغالب، من قولهم: مَنْ عَزَّ بَزًّا، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبًا.

الرَّحِيمِ: أي: العَظِيمُ الرَّحْمَةُ كَمَا وَكَيْفًا.

﴿الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٦٨﴾ وَتَقُوبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٦٩﴾﴾:

أي: إِنَّ تَوَكُّلَكَ عَلَى رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ مَعْلُومٌ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِكَ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ.

وَأَعْلَمَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنَّهُ يَرَاهُ حِينَ يَقُومُ عَابِدًا رَبَّهُ بِالْقِيَامِ لَيْلًا، وَحِينَ يَتَقَلَّبُ رَاكِعًا وَسَاجِدًا لِرَبِّهِ ضِمْنَ السَّاجِدِينَ، وَحِينَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي صَلَوَاتِهِ، وَحِينَ يَدْعُوهُ مُتَضَرِّعًا لَهُ.

السُّجُود: يَشْمَلُ الرُّكُوعَ لَعَةً، إِذْ هُوَ الْإِنْحِنَاءُ وَالتَّطَامُّنُ، وَغَايَتُهُ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ فِي صَلَوَاتِهِ يَتْلُو الْقُرْآنَ، وَيُرَدِّدُ الْأَذْكَارَ، وَيَدْعُو رَبَّهُ، مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

• ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧٠﴾﴾: أي: إِنَّ الْعَزِيزَ الرَّحِيمَ هُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ السَّمِيعُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَبِعِزَّتِهِ وَبِرَحْمَتِهِ يَنْصُرُهُ عَلَى مَنْ يُرِيدُهُ بِسُوءٍ أَوْ ضَرًّا أَوْ شَرًّا.

فَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ الْبَصِيرُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، لَنْ يَتَخَلَّى عَنْ نُصْرَةٍ مِنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا كَانَ رَسُولًا مِنْ رُسُلِهِ الْمَصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ، ثُمَّ كَيْفَ بِهِ إِذَا كَانَ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ.

قول الله عز وجل:

• ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَذِبُوكَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

في هذه الآيات عَوْدٌ لِلْحَدِيثِ عَنْ الشَّيَاطِينِ الْوَاردِ قَبْلَ ثَمَانِي آيَاتٍ، عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي الْمُرَاوَحَةِ، وَنَقْلِ الطَّاعِمِ مِنْ مَائِدَتِهِ عَنْ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِهَا إِلَى غَيْرِهِ، وَالْعَوْدَةِ بِهِ إِلَيْهِ، لَمَّا فِي هَذَا مِنْ تَجْدِيدِ نَشَاطِ الذَّهْنِ لَتَنَاوُلِ الْمَعَارِفِ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا.

سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٢١٠ - ٢١٢) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٥﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٦﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

أَمَّا الْآيَاتِ مِنْ (٢٢١ - ٢٢٣) فَالْحَدِيثُ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِالْكُفَّانِ الَّذِينَ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، لِإِبْيَانِ الْفَارِقِ الْعَظِيمِ بَيْنَ مَنْ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَبَيْنَ رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْوَحْيُ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمِنْهُمْ رَسُولُهُ الْعَظِيمُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

إِنَّ الْفَارِقَ بَيْنَهُمَا كَالْفَارِقِ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ وَبَيْنَ مَسَاكِينِ الشَّيَاطِينِ فِي الْأَرْضِ.

فَالرَّسُولُ الَّذِي يَنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِآيَاتٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، طَاهِرُ الْقَلْبِ، طَاهِرُ النَّفْسِ، ذُو خُلُقٍ عَظِيمٍ، وَاسْتِقَامَةٍ بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ عَلَى فُضَائِلِ السُّلُوكِ،

وعلى مُخْتَلَفِ أنواعِ الكمالات، ومنها الصُّدُق والأمانة والعِفَّة.

أَمَّا مَنْ تَنْزَّلَ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ كَالْكُهَّانِ، فَمِنْ صفاتهم الواضحاتِ فيهم أَنَّهُمْ أَفَّاكُونَ، كَذَّابُونَ يَصْرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَيَدْعُونَ إِلَهَهُ شُرَكَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِهِ، فَهُمْ فَاسِدُونَ كَالشَّيَاطِينِ الَّتِي تَنْزَلُ عَلَيْهِمْ.

• ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾:

استفهامٌ يُرادُ به استشارةُ حوافِزِ النَّفْسِ، لمعرفةِ الْفِتْنَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، فَتُوحِي إِلَيْهِمْ بِالضَّلَالَاتِ، وَزُخْرَفِ الْأَقْوَالِ، وَيُرَادُ بِهِ الْإِخْبَارُ بِأَمْرِ حَقٍّ، أَيُّ: إِنِّي أُنَبِّئُكُمْ بِصِفَاتِ الْفِتْنَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، فَاسْمَعُوا وَعُوا، وَقَارِنُوا بَيْنَ صِفَاتِ الرُّسُلِ وَصِفَاتِ الْكُهَّانِ.

• ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيرٌ﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿٣٣٣﴾:

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ جَوَابٌ مَنْ يَقُولُ: نعم على الاستفهام بحرف الاستفهام [هَلْ].

﴿آفَاكٍ﴾: صِيغَةُ مبالغَةٍ لاسمِ الْفَاعِلِ مِنْ فَعَلَ: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكًا، وَإِفْكًا، وَأَفُوكًا» و«أَفَكَ، يَأْفِكُ، إِفْكًا»، وهذا الْفَعْلُ وَتَصَارِيفُهُ يَأْتِي بِمَعْنَى «كَذَبَ عَامِداً مُفْتَرِياً»، وبمعنى «صَرَفَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ».

فمعنى «آفَاكٍ» كَذَّابٌ مُفْتَرٍ. كَثِيرُ صَرَفِ الْأَشْيَاءِ عَنْ وُجُوهِهَا الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا. وهَذَانِ الْوَصْفَانِ مِنْ أَوْصَافِ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، أَيُّ: فَشَاطِينُ الْجِنِّ تَنْزَلُ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَاطِينِ الْإِنْسِ.

﴿أَثِيرٌ﴾: صِيغَةُ مبالغَةٍ لاسمِ الْفَاعِلِ، «آثِمٌ» أَيُّ: كَثِيرُ ارْتِكَابِ الْإِثْمِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾: أي: يُبَالِغُونَ فِي شِدَّةِ الإِصْغَاءِ لِشَيَاطِينِ الْجَنِّ، لَالتِقَاطِ الْأَخْبَارِ عَنْهُمْ، حَتَّى كَأَنَّ أَسْمَاعَهُمْ مُلْقَاةٌ مِنْ مَوَاضِعِهَا عَلَى مَا يُخْبِرُهُمْ بِهِ شَيَاطِينُ الْجَنِّ، لِأَخْذِهِ بِاسْتِيعَابٍ كَامِلٍ، كَمَنْ يُلْقِي كُلَّ كَفِّهِ عَلَى مَا يَقْبِضُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يُحِبُّ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ أَكْبَرَ قَدْرِ يَسْتَطِيعُ أَخْذَهُ.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾: أي: وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْكُهَّانَةِ وَسَائِرِ الَّذِينَ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، كَاذِبُونَ فِيمَا يُخْبِرُونَ عَنْ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ. وجاء بيان هذا في عدة رواياتٍ عن النبي ﷺ.

مما جاء في السُّنَّةِ عَنْ تَلْقَى الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ:

(١) روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سَأَلَ نَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيَسُوءُ بِشَيْءٍ».

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا.

فقال النبي ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطُفُهَا الْجَنِّي، فَيَقْرُئُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجِ، فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ كَذِبَةٍ».

(٢) وروى البخاري عن أبي هريرة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُّو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُّو السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ».

وصفه سُفْيَانُ أَحَدَ رُوَاةِ الْحَدِيثِ بِيَدِهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ:

«فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ

تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةً كَذِبَةً، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا، فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

(٣) وروى البخاري عن عُرْوَةَ عن عائشة، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُحَدِّثُ فِي الْعَنَانِ (وَالْعَنَانُ: الْعَمَامُ) بِالْأَمْرِ فِي الْأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ، فَتُقْرِئُهَا فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ كَمَا تُقْرِئُ الْقَارُورَةَ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِئَةً كَذِبَةً».

وتوجد روايات أخرى وبعضها عند مسلم في صحيحه.

قول الله عز وجل يصف الشعراء بأنهم غَيْرُ مُؤَهَّلِينَ لِتَلْقَى الْوَحْيِ الرَّبَّانِي، لِدَفْعِ اتِّهَامِ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ، وَأَنَّ مَا يَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ لَوْ أَنَّ مِنْ أَلْوَانِ الشَّعْرِ:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿١٢٩﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ ﴿١٣٠﴾﴾:

تمهيد:

سبق أن عرفنا أن أبرز مقالاتِ المَعْنِينِ بالمُعَالَجَةِ في السُّورَةِ، إِبَّانُ نزول سورة (الشُّعْرَاءِ) كانت تَدُورُ حول رَغْمَيْنِ ساقِطَيْنِ:

الرَّغْمِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْقُرْآنَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ أَقْوَالِ الْكُفَّانِ وَالسَّحَرَةِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ يَتَلَقَّوْنَ عَنْ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْجِنِّ، وَعَلَى هَذَا فَمُحَمَّدٌ كَاهِنٌ، أَوْ سَاحِرٌ.

وقد سَبَقَ فِي الْآيَاتِ بَيَانُ الْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَبَيْنَ

أَقْوَالِ الْكَهَنَةِ وَأَقْوَالِ السَّحَرَةِ، وَبَيَانَ الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّسُولِ الَّذِي يَتْلَقَى الْوَحْيَ عَنْ رَبِّهِ، فِي كِمَالَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالسَّلُوكِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الطَّهَارَةِ وَالنَّقَاءِ وَالْفَضَائِلِ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَلَقَّوْنَ عَنِ الْجَنِّ الَّذِينَ هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ شَيَاطِينٌ، سَوَاءٌ أَكَانُوا كَهَنَةً أَمْ سَحَرَةً، إِذْ هُمْ أَخْبَاطٌ أَفَّاكُونَ أَثِيمُونَ، يُلْقُونَ السَّمْعَ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ، فَيَتَلَقَّوْنَ عَنْهُمْ، وَيُضِيفُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، أَكَاذِيبَ إِلَى مَا سَمِعُوهُ مِنْ شَيَاطِينِهِمْ، وَيُحَدِّثُونَ بِهَا النَّاسَ.

الرَّعْمُ الثَّانِي: أَنَّ الْقُرْآنَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّعْرِ، وَقَدْ كَانَ قَائِمًا فِي أَذْهَانِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يُوحِي إِلَيْهِ بِالشُّعْرِ، وَاسْتَعْلَ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ هَذَا لِإِظْلَاقِ فِرْيَةٍ أَنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ، وَلَيْسَ رَسُولًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ سَبَقَ فِي آيَاتِ السُّورَةِ بَيَانُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَبَيْنَ مَعْظَمِ فَنُونِ الشُّعْرِ، الْمَعْرُوفَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فِي الْأَسَالِيبِ، وَفِي الْأَغْرَاضِ، وَفِي الْمَجَالَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَنْظُمُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ شِعْرَهُمْ، إِنَّهُ كَالْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَ الْعَرْشِ وَبَيْنِ الْأَرْضِ حَيْثُ يَنْظُمُ الشُّعْرَاءُ قِصَائِدَهُمْ، وَيَرْسُمُونَ فِيهَا أُخْلِيَّتَهُمْ، وَيَتَّبِعُونَ فِيهَا أَهْوَاءَهُمْ، وَيُطْلِقُونَ مِنْ خِلَالِهَا أَكَاذِيبَهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ (٢٢٤ - ٢٢٧) بَيَانُ الْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَ صِفَاتِ الرَّسُولِ وَبَيْنِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الشُّعْرَاءُ غَالِبًا، بِاسْتِثْنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْنَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ وَإِسْلَامُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ التَّكُسْبِيَّةِ، وَمِنْ افْتِرَاءِ الْأَكَاذِيبِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوَنُ ﴿٢٢٥﴾﴾:

سَبَقَ فِي الْآيَةِ (٢١٥) تَوْصِيَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِأَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِمَنْ أَتَبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ ضَمْنِيَّةٌ إِلَى أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ الصَّادِقِينَ، هُمَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ، وَيَهْتَدُونَ بِهُدَى اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاتَّبَعُوا الرَّسُولَ لِمَا رَأَوْا عِنْدَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى وَالْفَضَائِلَ وَالْكَمَالَاتِ.

وَهَذَا يَسْتَدْعِي الْمُقَارَنَةَ بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ الشَّاعِرِ، مِنْ خِلَالِ التَّفَكُّرِ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ، وَبَيْنَ أَتْبَاعِ الشُّعْرَاءِ.

وَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ هُمَ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ، وَكَانَ أَتْبَاعُ الشُّعْرَاءِ هُمُ الْغَاوِينَ، وَكَانَ الْغَاوُونَ لَا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ صَادِقِينَ، كَانَ هَذَا دَلِيلًا مِنْ وَاقِعِ حَالِ الْأَتْبَاعِ أَنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا لَيْسَ بِشَاعِرٍ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِشِعْرِ.

فَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ شَاعِرًا لَاتَّبَعَهُ الْغَاوُونَ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ الْمُؤْمِنُونَ طَالِبُو الْهِدَايَةِ، وَمُحِبُّو الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ، الْحَرِيصُونَ عَلَى سُلُوكِ سَبِيلِ الرُّشْدِ.

﴿الْفَاوَنَ﴾: هُمُ الضَّالُّونَ الْفَاسِدُونَ، الَّذِينَ يَتْرَكُونَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ اتِّبَاعًا لِلْهَوَى.

وَإِذَا كَانَ الْغَاوُونَ هُمَ أَتْبَاعُ الشُّعْرَاءِ، فَكَيْفَ تَكُونُ أَحْوَالُ الْمَتَّبِعِينَ، إِنَّ مَزَالَقَ الشُّعْرِ كَثِيرَةٌ تُزَلِّقُ الشَّاعِرَ إِلَى أَوْدِيَةِ الْفُسْقِ وَالْفُجُورِ وَالْكَذِبِ، وَهَجَاءِ الْفُضْلَاءِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَمَذْحِ الْأَرْذَلِينَ وَالْأَخْسِينَ اسْتِجْدَاءً، وَلِلنَّكَايَةِ بِأَعْدَائِهِمْ زُورًا وَبُهْتَانًا، وَقَلَمًا يَتَّجِهُ شِعْرُهُمْ إِلَى ذُرُواتِ الْفَضَائِلِ وَالْكَمَالَاتِ، بَلْ يَنْحَدِرُ غَالِبًا إِلَى أَوْدِيَةِ سَحِيقَةٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْعَوَايَةِ، بِاسْتِثْنَاءِ الشُّعْرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ رَبَّهُمْ، وَيُوظَّفُونَ شِعْرَهُمْ فِي تَأْيِيدِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضَائِلِ.

قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الشُّعْرَاءِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾: أي: استَفَرَّيْ أَيُّهَا الْمُتَفَكِّرُ الْبَاحِثُ إِذَا كُنْتَ لَا تَعْلَمُ، أَحْوَالَ مُعْظَمِ الشُّعْرَاءِ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُهُمْ فِي الْأَوْدِيَةِ يَهِيمُونَ، وَقَلَمًا يَصْعَدُونَ فِي اتِّجَاهِ الذُّرُورَاتِ.

﴿يَهِيمُونَ﴾: أي: يَسِيرُونَ فِي حَيَاتِهِمْ عَلَى غَيْرِ خُطَّةٍ سَابِقَةٍ، وَعَلَى غَيْرِ هُدًى وَاضِحٍ الْمَعَالِمِ، بَيْنَ الْمَسَالِكِ، بَلْ تُسِيرُهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ وَرَغْبَاتُهُمْ أَنَا فَنَاءً، دُونَ أَنْ يَعْلَمُوا غَايَةَ يَسْعُونَ لِتَحْقِيقِهَا.

يقال لغة: «هَامَ فَلَانٌ يَهِيمُ هَيْمًا، وَهَيْمَانًا»، أي: خَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ فِي الْأَرْضِ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهْ، فَهُوَ يَذْهَبُ كُلَّ مَذْهَبٍ، مُتَحِيرًا مُضْطَرِبًا لَا خُطَّةَ لَهُ فِي اتِّجَاهِهِ.

الوادي: كُلُّ مُنْفَرَجٍ بَيْنَ الْجِبَالِ وَالتَّلَالِ وَالْآكَامِ.

والمَرَادُ هَيْمَانُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَعْمَالِ، وَالمَرَادُ بِالْوُدْيَانِ مَجَالَاتُ أَنْشِطَتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ فِي الْحَيَاةِ، إِذْ هُمْ لَا يَخْتَارُونَ مَعَالِيَ الْكَمَالَاتِ وَالْفَضَائِلِ، مِثْلَ كَمَالَاتِ الْمَعْرِفَةِ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي فِيهَا نَفْعٌ وَخَيْرٌ عَامٌ، وَمِثْلَ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِثْلَ تَرْبِيَةِ الْأَجْيَالِ عَلَى الْفَضَائِلِ، بَلْ يَتَعَلَّقُونَ بِالتُّرَهَاتِ، وَسَفَاسِفِ الْأُمُورِ، فَيُضَيِّعُونَ أَعْمَارَهُمْ بِالْمَدِيحِ لاسْتِجْدَاءِ الْعَطَايَا، أَوْ بِهَجَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُغْدِقُوا عَلَيْهِمْ عَطَايَاهُمْ، أَوْ بِالتَّفَاخُرِ الْكَاذِبِ، أَوْ بِالذَّمِّ الظَّالِمِ، أَوْ بِالتَّعَزُّلِ بِالْعَفِيفَاتِ الشَّرِيفَاتِ، أَوْ بِوَصْفِ الْعِشْقِ اللَّاهِبِ، وَالبُكَاءِ الصَّاخِبِ، أَوْ بِالتَّرْلَفِ الْكَاذِبِ، إِلَى غَيْرِ هَذِهِ الْأُمُورِ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ ذُرُوءَةٌ جَبَلٍ، أَوْ تَلَّةٌ، أَوْ أَكْمَةٌ، بَلْ كُلُّهَا حَضِيضٌ مُنْحَطٌّ فِي الْوُدْيَانِ، أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام عن نفي العلم، للتقرير بالعلم، أو للإعلام بالحقيقة. والمخاطبُ كُلُّ مُتَلَقِّ صَالِحٍ لِلخِطَابِ.

• فإذا كَانَ عَالِمًا قَالَ: بَلَى، فَأَقْرَرِ بِعِلْمِهِ، وَتَحَقَّقِ الْمَطْلُوبَ،
فَالرُّسُولُ لَيْسَ شَاعِرًا.

• وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا، فَالْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ يَقُولُ لَهُ: فاعْلَمْ إِذَا، واعْلَمْ
أَنَّ الرُّسُولَ مُحَمَّدًا مُتَّبِعًا مِنْ رَبِّهِ وَلَيْسَ شَاعِرًا.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الشُّعَرَاءِ أَيْضًا:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾: ﴿٣٦﴾

ظَاهِرُ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ
فِي: [يَقُولُونَ] وَفِي [يَفْعَلُونَ] أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا: نَحْنُ نَفْعَلُ الْآنَ كَذَا فَإِنَّهُمْ
يَكْذِبُونَ فِي هَذَا الْقَوْلِ، كَأَن يَقُولَ قَائِلُهُمْ لِمَمْدُوحِهِ: أَنَا أُحِبُّكَ الْآنَ
وَأُحِبُّكَ وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ وَأَعْظَمِهِمْ حِكْمَةً وَذَكَاةً، وَسَمَاحَةً
وَسَخَاءً، وَأَنَا عَظِيمُ الشُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ وَالْفَرَحِ بِلِقَائِكَ، مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ هَذَا
الَّذِي ذَكَرَهُ كَاذِبٌ لَا يَفْعَلُ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا مِنْهُ.

وَكَأَن يَقُولَ قَائِلُهُمْ: عِنْدِي آيَاتٌ أَنْفِقُ عَلَيْهِمْ، وَأَسْعَى فِي كَسْبِ
الرِّزْقِ لِإِطْعَامِهِمْ، وَكُسُوتِهِمْ، وَإِيْوَاتِهِمْ، وَتَهْيِئَةِ سَائِرِ مَطَالِبِ حَيَاتِهِمْ، وَأَنَا
فَقِيرٌ لَا مَالَ عِنْدِي، مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ كَاذِبٌ، لَا يَفْعَلُ فِي
وَاقِعِ حَالِهِ شَيْئًا مِمَّا ادَّعَى.

وَأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا: سَنَفْعَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا
يَعِدُونَ أَنَّهُمْ سَيَفْعَلُونَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، إِذْ لَيْسَ فِي إِرَادَاتِهِمْ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ
يَفْعَلُوا مَا ذَكَرُوهُ بِالنِّسْبَةِ مِنْ وَعْدٍ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ الْمُخَادَعَةَ، لِتَحْقِيقِ
غَرَضٍ أَنِّي لَأَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ كَاذِبُونَ ابْتِدَاءً فِي مَوَاعِيدِهِمْ، لِأَنَّ عَادَتَهُمْ
الْكَذِبُ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا.

وَقِيَاسًا عَلَى أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا يَقُولُونَ، وَهَذَا الْكَذِبُ عَادَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ
مُتَجَدِّدَةٌ لَدَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ بِاللُّزُومِ الدُّهْنِي لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَا ضِيهِمْ مِثْلَ

حَاضِرِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ، إِذْ لَمْ يَكْتَسِبُوا عَادَةَ الْكَذِبِ الَّتِي صَارُوا بِهَا كَذَّابِينَ، مَا لَمْ يُمَارِسُوا الْكَذِبَ زَمَنًا طَوِيلًا قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى أَكْتَسَبُوا عَادَةَ الْكَذِبِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ:

«وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا».

فَدَلَّتِ الْآيَةُ بِمَنْطُوقِهَا وَبِلَازِمِهَا الدُّهْنِيَّ، عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ الشُّعْرَاءِ، بِاسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا، كَذَّابُونَ.

أَي: فَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ لَيْسَ مِنْ فِتْنَةِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ زَعَمَ كِبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُ شَاعِرٌ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَتْلُوها عَلَيْهِمْ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشُّعْرِ.

فَلَيْسَ الْقُرْآنُ مَذْهَبًا مِنْ مَذَاهِبِ الشُّعْرِ، وَلَيْسَ مُحَمَّدٌ شَاعِرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ.

وسبق في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) قول الله عز وجل بشأنه:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾ (٦٩).

قول الله عز وجل في آخر آية من آيات سورة (الشعراء) يَسْتَنْبِي مِنْ عُمومِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٧).

اسْتَنْبَى اللَّهُ عز وجل مِنْ عُمومِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ يَكْثُرُ فِيهِمُ الْغَاوُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَيَكْثُرُ فِيهِمُ الْكَذَّابُونَ، فِتْنَةُ الشُّعْرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ يَتَحَلَّلُونَ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ:

الصفة الأولى: صفة الإيمان الصادق، دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الصفة الثانية: مُمَارَسَةُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الصفة الثالثة: مُمَارَسَةُ ذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا، دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وَأَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُؤُلَاءِ بِأَنْ يَنْتَصِرُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْعَدْلِ، فِيمَا يَقُولُونَ مِنْ شَعْرٍ، إِذَا ظَلَمُوا بِهِجَاءٍ أَوْ بغيرِهِ، دُونَ أَنْ يَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَدْلِ، وَهُوَ مُقَابَلَةُ الظُّلْمِ بِمِثْلِهِ الْمَأْذُونِ بِهِ شَرْعًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤) :

وَمِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُقَابَلَةُ هِجَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِلرُّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْقُرْآنِ، بِهِجَاءِ شَعْرِيٍّ مِنْ قِبَلِ الشُّعْرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْإِعْلَامُ الشُّعْرِيُّ مِنْ أَقْوَى وَسَائِلِ الْحَرْبِ الْإِعْلَامِيَّةِ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَمَرَّ وَسِيلَةً فَعَّالَةً فِي عِدَّةِ عُصُورٍ.

وَفِي آخِرِ آيَةِ اسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ عُمُومِ الشُّعْرَاءِ أَنْذَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِالطَّعْنِ فِي دِينِ اللَّهِ، أَوْ بِالطَّعْنِ فِي الرُّسُولِ أَوْ الْمُؤْمِنِينَ، بِأَنَّهُمْ سَيَنْقَلِبُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَسَيَنْصُرُ الرُّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ نَصْرًا عَظِيمًا، وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا بَعْدَ هِجْرَةِ الرُّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) :

﴿وَسِعَلَرُ﴾: استعمال «السَّيْن» هُنَا يُشْعِرُ بَأَنَّ حُصُولَ هَذَا الْعِلْمِ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ، لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي اسْتِعْمَالِ الْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ بِحَرْفِ «سَوْفَ» أَمَّا «السَّيْن» فَالْغَالِبُ أَنْ يَكُونَ لَمَّا هُوَ فِي الدُّنْيَا مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ.

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أَي: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَخْدِمُونَ الشُّعْرَ وَسِيلَةً لِمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ، وَشَتِيمَةِ الرُّسُولِ وَهَجَائِهِ، وَشَتِيمَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ وَهَجَائِهِمْ، وَلَمْ يَتُوبُوا، بَلْ أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَاتُوا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا سَيِّئَاتِهِمْ بِالْحَسَنَاتِ.

﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾:

«يَنْقَلِبُ» مُطَاوَعُ فِعْلٍ «قَلْبُهُ يَقْلِبُهُ قَلْبًا فَانْقَلَبَ»، أَي: جَعَلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، أَوْ بَاطِنَهُ ظَاهِرَهُ، أَوْ يَمِينَهُ شِمَالَهُ، وَيَأْتِي الْفِعْلُ بِمَعْنَى صَرْفِهِ. وَيَأْتِي فِعْلُ: «انْقَلَبَ» بِمَعْنَى رَجَعَ، وَبِمَعْنَى انْصَرَفَ.

وَالْمَعْنَى الْمَلَأْتُمْ هُنَا انْقِلَابُ حَالِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ وَالْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ، إِلَى الضَّعْفِ، وَالذَّلَّةِ، وَالْخَوْفِ، وَالْعَذَابِ.

[أَي]: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، وَهِيَ هُنَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلِ [يَنْقَلِبُونَ]، وَالتَّقْدِيرُ: يَنْقَلِبُونَ انْقِلَابًا أَيَّ انْقِلَابٍ.

أَمَّا انْقِلَابُهُمْ بِمَعْنَى رُجُوعِهِمْ إِلَى بَارِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُلَاقُوا عَذَابَهُمْ فِي الْجَحِيمِ، إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَاتُوا عَلَيْهِ، فَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ، وَالسَّبَاقُ فِي الْآيَاتِ يُشْعِرُ بَأَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا أَئِمَّةَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يُحَرِّضُونَ شُعْرَاءَهُمْ عَلَى هَجَاءِ الرُّسُولِ ﷺ، وَمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَجَائِهِمْ وَإِذَائِهِمْ، بِأَشْعَارِهِمْ وَقَصَائِدِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ أَدْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلشُّعْرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَجَائِهِمْ انْتِصَارًا لَأَنْفُسِهِمْ، وَلِلرُّسُولِ وَالْإِسْلَامِ.

وبهذا تم تدبر سورة (الشعراء) والحمد لله على معونته ومدّده،
وتوفيقه.



ملاحق تدبر سورة (الشعراء)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة

الملحق الثاني: حول الشعر والشعراء في القرآن والسنة.

(٨)

مستخرجات بلاغية من سورة (الشعراء)

توجد في سورة (الشعراء) بلاغيات وفنّيات بيانية عديدة، وقد
استخرجت منها بتوفيق الله ومعونته ما يلي دون استيعاب:

أولاً:

من الإيجاز بالحذف الأمثلة التالية:

المثال الأول: في قول الله عز وجل:

﴿إِنْ شَأْنُنَا نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

في هذه الآية حذف يُمكنُ استخراجه بالتدبر، والتقدير: فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ مُنْكَسِرَةً فِي ظَاهِرِ سُلُوكِهِمْ، وَظَلُّوا مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ خَاضِعِينَ
لَهَا.

المثال الثاني: في قول الله عز وجل:

﴿فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَبْنَوْا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾:

في هذه الآية حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وبالعكس، وهو ما
يُسمى عند البلاغيين «الاحتباك» والتقدير:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ واستَهْزَؤُوا ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ تَحْقِيقُ ﴿أَنْتَوُا مَا كَانُوا بِهِ﴾
يُكَذِّبُونَ و﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وبهذا التقدير يظهر للمتدبر حذف مُضافٍ قبل: ﴿أَنْتَوُا﴾ أيضاً.

المثال الثالث: في قول الله عز وجل:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧).

الواو في [أَوَلَمْ] تَغْطِفُ على محذوف يمكن بالتدبر تقديره على
الوجه التالي: أَلَمْ يَشْهَدُوا آيَاتِ اللَّهِ الْكَثِيرَةَ فِي كَوْنِهِ، وَنِعْمَهُ الْكَثِيرَةَ الَّتِي
لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا، وَلَمْ يَرَوْا بِأَفْكَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ نَاطِرِينَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى
الْأَرْضِ، كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنْعَاماً مَنّاً عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً مَنّاً
بِهِمْ.

المثال الرابع: في قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ أَلْظَلَمِلِينَ﴾ (١٠).

أي: ضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ يَا مُحَمَّدٌ مَا أَرَشَدْنَاكَ إِلَيْهِ سَابِقاً فِي السُّورَةِ،
وَضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ الْأَحْدَاثَ الْآتِيَةَ بَيَانُهَا عَنْ مُوسَىٰ لِلانْتِفَاعِ بِهَا، وَالْقِيَاسِ
عَلَيْهَا وَالاعتبار بها.

المثال الخامس: في قول الله عز وجل حكاية لقول موسى عليه
السَّلام لِفِرْعَوْنَ بعد أن هدَّده بالسَّجن:

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٢٠).

أي: أَتَأْمُرُ بِسَجْنِي وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ يُبَيِّنُ لَكَ أَتَى رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ حَقّاً وَصِدْقاً.

فالواو في [أَوْلَوْ] عَطَفَتْ على محذوفٍ من السَّهْلِ استخراجه ذُهناً
بالتدبر.

المثال السادس: في قول الله عز وجل:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٧٨):

أي: فجمع السحرة لإجراء المباراة بينهم وبين موسى في ميقات يوم محدد معلوم.

المثال السابع: في قول الله عز وجل:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَّالِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩):

أي: قالوا لا نعلم أن أجدنا يسمعوننا، أو ينفعوننا، أو يضروننا، بل وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها.

المثال الثامن: في قول الله عز وجل:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧):

الفاء في: [أَفَرَأَيْتُمْ] فصيحة، أي: أتفكرتم تفكراً سليماً سديداً، فرأيتم بعقولكم وقلوبكم ما كنتم أنتم وأباؤكم الأقدمون تعبدون من دون الله رب العالمين، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، لأنها آلهة باطلة.

المثال التاسع: في قول الله عز وجل:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٧٥) ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٧٦) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَمُونَ﴾ (٧٧):

الفاء في [أَفَرَأَيْتَ] فصيحة، تعطف على محذوف، والتقدير: أفكرت في هؤلاء المعاندين المكذبين، فرأيت بفكرك أننا إن أمهلناهم ومتعناهم سنين، ثم بعدها جاءهم ما كانوا يوعدون من تغذيب وإهلاك، فهل يغني عنهم ما زدناهم من متاع في الحياة الدنيا؟

إِنَّهُمْ بَعْدَ إِنْزَالِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ بِهِمْ، يَجِدُونَ أَنَّهُ مَا أُغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ شَيْئًا.



ثانياً:

من القصر الأمثلة التالية:

المثال الأول: في قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله إبراهيم عليه السلام:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ (٨٠)﴾:

في هذه الآيات قَصْرُ الهداية والإطعام والسقي والشفاء بالله الخالق عز وجل. استفيد القصر من تعريف طرفي الإسناد، أو من ضمير الفصل. وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي.

المثال الثاني: في قول الله عز وجل في حكاية قول الضالين الأتباع وهم يُعَذَّبُونَ في الجحيم:

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝ (٩٩)﴾:

دل على القصر في هذه الآية النفي والاستثناء، وهو من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف، وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ بحسب ادِّعَائِهِمْ.

المثال الثالث: في قول الله عز وجل حكاية لما قاله نوح عليه السلام لقومه:

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ (١١٥)﴾:

دل على القصر النفي بـ«إِنْ» والاستثناء بـ«إِلَّا» وهو من قَصْرِ موصوف على صفة. وهو قصر إضافي، أي: ما أنا بالنسبة إليكم يا قومي

الَّذِينَ كَذَّبْتُمُونِي، وفي حُدُودٍ وظَائِفٍ رسالتي إليكم، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتُمْ إِلَى دَرَكَةِ مَيْئُوسٍ مِنْ إِضْلَاحِكُمْ معها عن طريقِ إراداتكم الحُرَّة، إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بِعَذَابِ رَبِّكُمْ، فقد أَذِيتُ كُلَّ وظَائِفٍ رسالتي، ولم يَبْقَ عِنْدِي إِلَّا أَنْ أَنْذِرْكُمْ.

المثال الرابع: في قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله هود عليه السلام لقومه:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٧):

أي: ما أجري إِلَّا على رب العالمين، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهو قَصْرٌ حَقِيقِيّ.

المثال الخامس: في قول الله عز وجل:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢٧):

دلّ على القصر التفي والاستثناء، وهو من قصر صفة على موصوف، وهو قَصْرٌ إِضَافِيّ.

المثال السادس: في قول الله عز وجل في حكاية معنى قول ثمود لرسولهم صالح عليه السلام:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...: ﴿١٥٣﴾

دلّ على القصر أداة «إنما» في الآية (١٥٣) و«ما» و«إلا» في التي بعدها.

أي: ما أَنْتَ إِلَّا من المخبّلين الذين سُحِرُوا مرّةً بعد مرّة، وهو من قصر موصوف على صفة، وهو قَصْرٌ إِضَافِيّ، أي: بالإضافة إلى ادّعاءاتك.

وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ، لَا تَصْلُحُ بِبَشَرِيَّتِكَ لِأَنْ تَكُونَ رَسُولَ رَبِّ

العالمين، وهو قَصْرٌ إضافي، من قَصْرِ الموصوفِ على صفة في ادعائهم الباطل.

المثال السابع: في قول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (١٢٨):

دلّ على القصر النفي والاستثناء، وفيه قَصْرٌ إهلاك الله أهل القرى السابقين إهلاكاً جماعياً مقروناً بتغذيب، على من أُرْسِلَ إليهم رُسُل قاموا بوظائف رسالة ربهم إليهم، فلما كذبوهم تكذيباً لا أمل معه بصلاحيهم إذا أمهلوا، أَهْلَكَهُمُ الله.



ثالثاً:

التوكيد للجمل الخبرية لوجود الدواعي إليه من أحوال المقصودين بالخطاب، وفي السورة أمثلة كثيرة، منه:

المثال الأول: في قول الله عز وجل:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٩):

المؤكدات في هذه العبارة: «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللَّامُ المرحّلة - ضمير الفصل».

رُوعي في هذا التأكيد حال المكذبين، وحال الشاكين على دركاتهم.

المثال الثاني: في قول الله عز وجل لموسى عليه السلام:

﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (١٥):

التوكيد هنا بـ«إِنَّ - والجملة الاسمية»، والهدف زيادة طمأنة موسى وهارون، عند مقابلتهما فرعون وملأه.

المثال الثالث: في قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله فرعون

لملئه عن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ٧٤١:

المؤكّدات في هذا القول: «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللام المرحّلة»،
يؤكد فرعون لملائته جنون موسى، ليضربهم عن التفكير ببَيِّنَاتِهِ القويّة.

المثال الرابع: في قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى قول فرعون لموسى عليه السّلام:

﴿قَالَ لَئِنْ أُتِّخِذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ ٧٤٢:

المؤكّدات في هذه العبارة: «القسم الذي دلّت عليه اللام الموطّئة
للقسم في [لَئِنْ] ونون التوكيد الثقيلة اللازمة بعد هذا القسم».

المثال الخامس: في قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قاله السّحرة حين ألقوا أدوات سحرهم:

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ٧٤٣:

المؤكّدات في عبارتهم: «القسم (بعِزَّةِ فرعون) - إِنَّ - الجملة
الاسميّة - اللّام المرحّلة - ضمير الفصل (نحن)».

المثال السادس: في قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قاله فرعون لسحرّته بعد أن خرّوا ساجدين وأعلنوا إيمانهم برّب العالمين، ربّ موسى وهارون:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٧٤٤:

المؤكّدات هنا: «لام الابتداء - والقسم المنويّ الذي دلّت عليه اللام
في [لَأَقْطَعَنَّ]، وفي [لَأَصْلَبَنَكُمْ]، ونون التوكيد الثقيلة فيهما».

المثال السابع: في قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قاله فرعون لجنوده الذين جمعهم وساقهم لقتال بني إسرائيل الفارين من مصر:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَئِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

في كلٍّ من هذه الآيات الثلاث التوكيد بالمؤكّدات: «إِنَّ - والجملة الاسميّة - واللّام المزحلّقة».

المثال الثامن: في قول الله عزّ وجلّ حكاية لما قال أصحاب موسى له ولما أجابَهُمْ به حين اقترب منهم جيش فرعون:

﴿إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

المؤكّدات: «إِنَّ - الجملة الاسميّة - اللّام المزحلّقة»، في عبارة أصحاب موسى عليه السّلام.

أمّا في عبارة موسى عليه السّلام فالمؤكّدات: «إِنَّ - الجملة الاسميّة» مع ما في [كَلَّا] مِنْ زَجْرٍ يَتَضَمَّنُ معنى التوكيد.

المثال التاسع: في قول الله عزّ وجلّ يحكي ما سَوَفَ يقوله الاتّباع الذين يُعَذِّبُونَ في الجحيم للآلهة الذين كانوا يَعْبُدُونَهُمْ من دون الله:

﴿تَاللّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سُؤِيتُمْ رَبِّ الْأَعْلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

المؤكّدات: «القسم - إِنَّ المخفّفة من الثّقيلة - الجملة الاسميّة - اللّامُ المزحلّقة».

والغرض تأكيد ما يَشْعُرُونَ به مِنْ تَحَسُّرٍ وَندَمٍ على ما كانوا فيه في الدُّنيا من ضلالٍ وسوءٍ اعتقادٍ وفسادٍ في الرّأيِ واتّباعٍ للباطل.

المثال العاشر: في قول الله عزّ وجلّ يحكي ما سَوَفَ يقوله هؤلاء أيضاً:

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

زيدت «مِنْ» لتوكيد استغراق العموم والتّنصيص عليه.

المثال الحادي عشر: قول الله عز وجل يحكي بعض مقالات نوح

عليه السلام لقومه:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٤):

زيدت «الباء» للتوكيد.

المثال الثاني عشر: في قول الله عز وجل يحكي بعض مقالات كبراء

قوم نوح عليه السلام له:

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمَّا تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١١٦):

أكدوا تهديدهم لنوح بالمؤكّدات: «القسم المنوي - اللام الواقعة في

جوابه - نون التوكيد الثقيلة».

المثال الثالث عشر: في قول الله عز وجل يحكي مقالة قالها هوذا

عليه السلام لقومه:

﴿وَمَا أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجِرٍ إِنْ آجَرَيْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٧):

• زيد «مِنْ» لتأكيد عموم النفي والتنصيص عليه.

• وفيها القصر كما سبق بيانه.

ومقالته لهم

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٥):

أكدها بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية.

المثال الرابع عشر: في قول الله عز وجل يحكي مقالة قالها قوم

لوط عليه السلام له:

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمَّا تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (١١٧):

جاء تأكيدها بـ «القسم المنوي - اللام في جوابه - نون التوكيد

الثقيلة».

المثال الخامس عشر: قول الله عز وجل يحكي ردّ لوط على قومه:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْفَالِينَ﴾ (١٦٨):

فجاء في هذا الردّ التوكيد بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية.

المثال السادس عشر: قول الله عز وجل يحكي مقالة قالها قوم

شُعَيْبَ له:

﴿وَإِن تَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٨٦):

فجاء فيها التوكيد بـ «إِنَّ» المخففة من الثقيلة - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة.

المثال السابع عشر: قول الله عز وجل بشأن القرآن المجيد:

﴿وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٦) و﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٩٦):

جاء في هاتين الآيتين التوكيد بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة.

المثال الثامن عشر: قول الله عز وجل بشأن إهلاكه للقرى الظالمة:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (٢٠٨)

زيدت «من» لتوكيد عموم النفي والتنصيص عليه.



رابعاً:

الإشارة إلى القريب باسم الإشارة الموضوع للبعيد لداعٍ بلاغي:

وهو الدلالة على بُعد مَنْزِلَتِهِ ارتقاءً في اتجاه الأعلى، أو تَسْفُلاً في اتجاه الحضيض.

المثال الأول: قول الله عز وجل بياناً لارتفاع منزلة آيات القرآن

المجيد:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢):

فدل اسم الإشارة «تلك» على ارتفاع منزلة هذه الآيات التي تتلى من القرآن.

المثال الثاني: قول الله عز وجل يخكي مقالة قالها موسى عليه

السلام لفرعون، إذ امتنَّ عليه بنعمة تربيته في القصر الفرعوني وإقامته فيه، حتى صار رجلاً ذا قيمة اجتماعية:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٧٧):

فدل باسم الإشارة «تلك» الموضوع للمشار إليه البعيد، على

اختقاره، وإبعاده ما أنعم به عليه القصر الفرعوني إلى الدركات السفلى، بجانب أنه استعبد بني إسرائيل، وأصدر قراراً بتذبيح مواليدهم من الذكور، الأمر الذي ألجا أمه إلى وضعه في تابوت (صندوق محكم) وإلقائه في اليم، فأوصله الله بحكمته وألطافه الخفية إلى ساحل القصر الفرعوني، فالتقطه آل فرعون.



خامساً:

اختيار ضمير المتكلم العظيم (وهو ضمير الجماعة) بدل ضمير

المتكلم المفرد، للدلالة على عظمة ربوبية الرب، وصفاته الجليلات:

ومن الأمثلة قول الله عز وجل:

١ - ﴿أَنبَأْنَا﴾ في الآية (٧) من السورة.

٢ - ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ في الآية (١٥) من السورة.

٣ - ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ في الآية (٢٠٨) من السورة.



سادساً:

فَنِيَّةُ الإِعْرَاضِ عَنِ الْمَعْنِيِّينَ بِالخِطَابِ، وَالْحَدِيثِ عَنْهُمْ بِأُسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، وَتَوْجِيهِ الْكَلَامِ لغيرِهِمْ، مُعَامَلَةٌ لَهُمْ بِالْمِثْلِ إِذْ أَعْرَضُوا عَنْ تَلْقَى مَا يَنْزِلُ مِنْ قُرْآنٍ بِإِقْبَالٍ، وَحَوَّلُوا وَجُوهَهُمْ عَنِ الْمَقَابَلَةِ: وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ مَا يَلِي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ بشأن المكذّبين المعرضين عن تلقّي نجوم التنزيل، دون مواجعتهم بالخطاب:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَثْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن القرآن، مُعْرِضاً عَنْهُمْ أَيْضاً، وَمَوْجَّهاً خِطَابَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَعَ أَنَّهُمْ هُمُ الْمَعْنِيُّونَ بِالخِطَابِ، فِي مَقَابِلِ إِعْرَاضِهِمْ وَإِذْبَارِهِمْ عَنْ تَلْقَى الْقُرْآنِ بِإِقْبَالٍ وَمُوَاجَهَةٍ:

﴿وَإِنَّهُ لَازْنِبِلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.



سابعاً:

استخدام أُسْلُوبِ الْكِنَايَةِ، بِإِطْلَاقِ الْعِبَارَةِ وَإِرَادَةِ لَوَازِمِهَا الْفِكْرِيَّةِ:

وَمِنْ أَمْثِلَتِهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ لَمَّا قَالَهُ شَعِيبٌ لِقَوْمِهِ إِذْ تَحَدَّوْهُ بِأَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ:

﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

فَكُنِيَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ عَنْ أَنَّ مُنْزَلَ الْكِسْفِ مِنَ السَّمَاءِ هُوَ اللَّهُ عزّ وجلّ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَحِينَ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ إِهْلَاكَكُمْ فَهُوَ الَّذِي يُهْلِكُكُمْ، وَلَسْتُ أَنَا الَّذِي أَهْلِكُكُمْ.

ثامناً:

التشبيه المكني، وهو تشبيه مُضْمَر لم يُذَكَّر فيه لفظ المشبَّه به، وإنما ذُكِرَ فيه بعض صفاته، أو بعض خصائصه، أو بعض لوازمه، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في السَّورة:

﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٥):

في هذه الآية تشبيه التواضع، والرَّحْمَةِ، وَضَمَّ الأفراد، والهِيمَنَةِ عليهم، بخفض الطَّائر جَنَاحَهُ مُنْكَسِراً لفراخه. ولكن أضمِر التشبيه فلم يُذَكَّر لفظ المشبَّه به، وإنما كُنِيَ عَنْهُ بشيءٍ من صفاته وهو الجَنَاح.

هذا ما ترجَّح عندي في كتابي «البلاغة العربية» لا أنه من قبيل الاستعارة المكنية.

تاسعاً:

خروج الاستفهام عن أصل وضعه اللغوي وهو طلبُ الإفهام، للدلالة على معانٍ أُخرى تُدُلُّ عليها القرائن، أو الاقتضاءات الفكرية: ومن أمثلته في السَّورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧):

يُرَادُ بالاستفهام هنا التلويُّم والتثريب والتوبيخ.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لمقالة قالها فرعون لموسى عليه السَّلام:

﴿قَالَ أَلَمْ نَرْبِكْ فِينَا وَلَبَدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٨):

الاستفهام في هذه العبارة استفهام تقييري.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ حكاية لما ردَّ به موسى عليه السَّلام على فرعون:

﴿وَلَكَ نِعْمَةٌ تَنْهَا عَلَى أَنْ عَبَدَتْ بَنَى إِسْرَءِيلَ ۖ﴾؟:

الاستفهام الملاحظ ذهنًا في هذه العبارة استفهام تعجبي إنكاري.

المثال الرابع: قول الله عز وجل حكاية لدعوة جمهور المصريين لحضور المباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۚ﴾؟:

يراد بالاستفهام هنا العرض المتضمن معنى الحث على حضور المباراة.

المثال الخامس: قول الله عز وجل حكاية لمقالة قالها إبراهيم عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ (٧٧)﴾؟:

يراد بالاستفهام في هذا القول الإخبار والإعلام، أي: انظروا متفكرين فيما تعبدون من دون الله فإنهم عدو لي.

المثال السادس: قول الله عز وجل بشأن ما يقال للمشركين الذين تبرؤ الجحيم لهم يوم الدين:

﴿وَقِيلَ لِمَنْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْصُرُونَ ۖ (٩٣)﴾؟:

الاستفهام في هذا القول يراد به التحسير على ما فرطوا في جنب الله، وكانوا من العاوين، فجلبوا لأنفسهم الخلود في عذاب الجحيم.

المثال السابع: قول الله عز وجل حكاية لمقالة قالها قوم نوح عليه السلام له:

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۖ﴾؟:

يُرِيدُونَ بِتَوَجِيهِهِ الِاسْتِفْهَامَ النَّفْيِ وَالِاسْتِنْكَارَ، أَي: لَا نُؤْمِنُ بِكَ مُسْلِمِينَ لَكَ، وَنَسْتَنْكِرُ اتِّبَاعَكَ وَقَدْ اتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ.

المثال الثامن: قول الله عز وجل حِكَايَةً لِمَقَالَةٍ قَالَهَا هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾﴾؟:

يُراد بالاستفهام النفي هذه العبارة الاستنكار والتلويح على العَبَثِ، وبَذَلِ الطَّاقَاتِ وَالْأَمْوَالِ فِيمَا لَا نَفْعَ فِيهِ.

المثال التاسع: قول الله عز وجل حِكَايَةً لِمَقَالَةٍ قَالَهَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ثَمُودَ:

﴿أَتَنْتَرِكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾؟:

يُراد بهذا الاستفهام النفي والتحذير، أَي: لَا تُتْرَكُونَ آمِنِينَ، وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ، وَتَعْصُونَ اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَلَا تُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ وَلَا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّكُمْ.

المثال العاشر: قول الله عز وجل حِكَايَةً لِمَقَالَةٍ قَالَهَا لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾؟:

الاستفهام في هذه العبارة يُراد به الاستنكار، والتلويح، والتوبيخ.

المثال الحادي عشر: قول الله عز وجل حِكَايَةً لِمَا يَقُولُهُ مَنْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ مَقَدَّمَاتِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ لِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ:

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾؟:

الاستفهام في مقالتهُم يُراد به التمني.

المثال الثاني عشر: قول الله عز وجل بشأن هؤلاء:

﴿أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٢٧٤﴾؟:

الاستفهام في هذا البيان استفهامٌ تَعْجِييٌّ من أمرهم.

وفي السورة بلاغيات أخرى أترك استخراجها للمختصين بعلوم
البلاغة والفنون الجمالية البيانية.



(٩)

الملحق الثاني

حول الشعر والشعراء في القرآن والسنة

ما جاء في القرآن حول الشعر والشعراء
ومزاعم المشركين بشأن القرآن والرسول

لم يجد كبراء مشركي مكة الذين أصرّوا على الكفر والعناد والمكابرة
بالباطل، ورفض الإيمان بأن القرآن تنزيلٌ من رب العالمين، وأنّ محمد بن
عبد الله نبيّ يتلقّى الوحي منه، ورسولٌ يبلغ رسالاته للناس، ما يزعمونه
ضدّ القرآن وضدّ الرسول ﷺ، إلّا أنّه كاهنٌ أو شاعرٌ، وأنّ القرآن الذي
يتلّوه عليهم كهانةٌ من نوع أقوال الكهّان، أو شعرٌ اتّخذ فيه محمدٌ مذهباً
جديداً في الشعر غير معروف لدى الشعراء.

وكان ما زعمه المشركون بشأن القرآن والرسول ﷺ في بداية الأمر
همساً، ثم صار حديثاً معلناً، ثم صار إشاعة تكررُها أفواه أتباعهم، ثم
صار مقالةً إعلاميةً دائرةً يراود بها صدّ الذين تتجّه قلوبهم للدخول في
الإسلام، تأثراً بالقرآن المجيد، وبالكمالات الفكرية والخلقية والسلوكية
التي يتصف بها رسول الله محمد ﷺ.

وَلَمْ يَتْرُكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا زَعَمَهُ كُفْرَاءَ الْمُشْرِكِينَ، وَأُظْلِقُوهُ مِنْ مَزَاعِمَ فِي جَمَاهِيرِهِمْ، دُونَ أَنْ يُتَابَعَ إسْقَاطُهُ مَعَ الْأَطْوَارِ الَّتِي يَتَطَوَّرُ فِيهَا ضَعْفًا وَشِدَّةً، حَتَّى بَدَأَ الْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ وَيَقْوَى، وَتَسْقُطُ مَعَ انْتِشَارِهِ مَزَاعِمُ كُفْرَاءَ الْمُشْرِكِينَ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهَا صَوْتٌ يَرْتَفِعُ، وَلَا مَقُولَةٌ مَسْمُوعَةٌ، وَكَانَ هَذَا قُبِيلَ أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ مِنْ مَسِيرَةِ الرَّسُولِ الدَّعْوِيَّةِ.

وَنَجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ سِتَّةَ نُصُوصٍ مَكِّيَّةٍ التَّنْزِيلِ، ذَوَاتِ مَرَاكِزَ، تَابَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا الْأَطْوَارَ الَّتِي كَانَتْ تَتَطَوَّرُ إِلَيْهَا هَذِهِ الْمَزَاعِمُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَشَأْنِ الرَّسُولِ ذِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالْعَمَلِ السَّيِّدِ، وَالْمَنْهَجِ الرَّشِيدِ.

وَمِنْ الْمُفِيدِ لِلْمُتَدَبِّرِ عَرْضُ هَذِهِ النُّصُوصِ السِّتَةِ، مَعَ بَيَانِ تَرْتِيبِ نُزُولِ سُورَتِهَا، وَالنَّظَرِ فِيهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّدَبُّرِ:

النَّصُّ الْأَوَّلُ:

قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يَس/ ٣٦/ مصحف/ ٤١/ نزول) بِشَأْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

وقد سبقَ تدبُّرُ هذا النَّصِّ لَدَى تَدَبُّرِ سُورَةِ (يَس).

وَأَوْجِزُ هُنَا مَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَتَتَكَامَلَ صُورَةُ مُتَابَعَةِ الْمَرَاكِزِ فِي ذَهْنِ الْمُتَدَبِّرِ، وَاللَّهُ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ.

أَي: وَمَا عَلَّمْنَا رَسُولَنَا مُحَمَّدًا شِعْرًا أَوْحَيْنَا بِهِ إِلَيْهِ، وَمَا جَعَلْنَا فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ اسْتِعْدَادًا لِقَرُضِ الشُّعْرِ، ذِي الْمَوَازِينِ الْخَاصَّةِ بِهِ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَضْلُحُ لَهُ وَلِدَعْوَتِهِ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا

بِحَسَبِ تَصَوُّرِ قَوْمِهِ الْعَرَبِ لِلشُّعْرَاءِ، وَمَا يَسْهُلُ لَدَيْهِ أَنْ يَنْظِمَ الشُّعْرَ وَيَقْرِضَهُ، لِأَنَّا لَمْ نَجْعَلْ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى نَظْمِ الشُّعْرِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نُذْرِكَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ عَدَمِ هِبَةِ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى نَظْمِ الشُّعْرِ، سَدُّ ذَرِيعَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ، إِذْ لَوْ كَانَ شَاعِرًا بِفِطْرَتِهِ لَوَجَدُوا رَوَاجًا لَا تَهَامِيهِمْ إِيَّاهُ بَأَنَّ النَّزْعَةَ الشُّعْرِيَّةَ فِي نَفْسِهِ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَتَخَيَّلُ تَحْيَلَاتِ النُّبُوَّةِ، وَجَعَلَتْهُ يَتَطَلَّعُ إِلَى صِنَاعَةِ الْبَيَانِ الرَّفِيعِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ صُنْعِهِ وَإِبْدَاعَاتِهِ.

يُضَافُ إِلَى هَذَا مَا فِي نَفُوسِ مُعْظَمِ الشُّعْرَاءِ الْفُحُولِ، وَاسْعِي الْخَيَالِ، مِنْ اسْتِعْدَادِ لِلدُّخُولِ هَائِمِينَ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْكَلَامِ، مَهْمَا كَانَ وَادِيًا سَحِيقًا هَابِطًا إِلَى أَوْحَالٍ غَيْرِ أَخْلَاقِيَّةٍ، فِيهَا الْكَذِبُ، وَالرِّيَاءُ، وَالتَّفَاقُ، وَالهَجَاءُ الْفَاحِشُ، وَالتَّنَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالِاسْتِجْدَاءُ، وَالتَّغَرُّلُ بِالْعَفِيفَاتِ الشَّرِيفَاتِ، الْمُشْعَرُ بِرِضَاهُنَّ، وَبِأَنَّهُنَّ يُشَارِكُنَ الشَّاعِرَ الْهَوَى، وَلَهُنَّ مَعَهُ لِقَاءَاتٌ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ.

أَمَّا الْقُرْآنُ فَمَا هُوَ إِلَّا كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِيَتَبَلَّغَهُ النَّاسُ، وَيَتَفَهَّمُوهُ، وَيَعُوَّهُ، وَيَحْفَظُوهُ، ثُمَّ لِيَتَذَكَّرُوا مِنْهُ مَا يُلَايِمُ الْحَالَةَ الَّتِي يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهَا، وَلِيُنْذَرَ بِهِ الرُّسُولُ وَكُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ كَانَ ذَا حَيَاةٍ قَلْبِيَّةٍ، تَوَثَّرَ فِيهِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ إِنْذَارَاتٍ، أَمَّا مَوْتَى الْقُلُوبِ بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْكُفْرَ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ، فَيَحِقُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ الْخَالِدِينَ فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

فَأَبَانَ هَذَا النَّصَّ أَنَّ الرُّسُولَ لَيْسَ شَاعِرًا، وَلَا يَمْلِكُ مَوْهَبَةَ الشُّعْرِ، وَأَنَّ الشُّعْرَ لَا يَنْبَغِي لَهُ، وَأَبَانَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ شِعْرًا وَلَا مَذْهَبًا مِنْ مَذَاهِبِ الشُّعْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِيَكُونَ ذِكْرًا لِمَنْ يَتْلَقَاهُ مُؤْمِنًا بِهِ.

النص الثاني:

قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ/ ٢٦ مِصْحَف/ ٤٧ نَزُول) بِشَأْنِ
الشُّعْرَاءِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ:
﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٧﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾:
وقد سبقَ تَدَبُّرُ هَذِهِ الْآيَاتِ قَرِيبًا، وَهِيَ آخِرُ آيَاتِ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ)
وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْإِعَادَةِ بِسَبْطٍ وَلَا إِيجَازٍ.

النص الثالث:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مِصْحَف/ ٥٦ نَزُول)
بِشَأْنِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يُعَذِّبُونَ فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا
ءِلَهَتِنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُومِ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا
الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ كُتُبَاءَ الْكُفَرَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ
سُورَةِ (الصَّافَّاتِ) كَانُوا بِسَبَبِ مَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ كِبَرٍ يَتَّهِمُونَ الرَّسُولَ
مُحَمَّدًا ﷺ بِصِفَتَيْنِ تَجْعَلَانِيهِمْ يَأْنِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ:

الْصِّفَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ شَاعِرٌ وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا شَاعِرًا،
لَأَنَّ الشُّعْرَاءَ فِي تَصَوُّرِهِمْ مُتَسَوِّلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ وَالْعِظَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ
وَالرُّؤَسَاءِ، وَفِي نَفْسِهِمْ خِسَّةٌ الذَّلُّ بِالِاسْتِجَاءِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْطَانٌ
يُوحِي إِلَيْهِ بِشِعْرِهِ.

الْصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: الْجَنُونُ، إِذْ جَاءَ قَوْمُهُ بِدِينٍ جَدِيدٍ، فَفَرَّقَ بِهِ جَمْعَهُمْ،
وَسَقَّاهُ بِهِ أَحْلَامَ كُتُبَاءِ عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَجْنُونٌ.

• ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٥): أي: إنهم كانوا في الحياة الدنيا إذا قيل لهم: آمنوا بالرسول وقولوا لا إله إلا الله يستكبرون عن الإيمان به، وعن اتباعه، فهم لا يقولون لا إله إلا الله، استكباراً منهم عن اتباع الرسول.

دلّ على هذا ما جاء في الآية التالية:

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٣١): استفهام يدلّ على استنكارهم استنكاراً شديداً، أن يتركوا إلهتهم التي كان يعبدونها آباؤهم وأجدادهم، وورثوا عنهم عبادتها، استجابةً لدعوة شاعر مجنون، والشاعر ليس مؤهلاً لأن يخترم رأيه ويستجاب لدعوته، فكيف به وهو يتصف بالمجنون، مع اتصافه بكونه شاعراً!!

والمعنى: إننا نؤكد بشدة أننا لن نتبع هذا الذي يزعم أنه رسول رب العالمين، لأنه شاعر بيبانه، مجنون في تصرفاته في دعوة قومه إلى نبذ دين آبائهم، واتباع الدين الجديد الذي أتاهم به.

فردّ الله عزّ وجلّ هذه المقولة الشيطانية اللئيمة الخسيسة بقوله في الآية التالية:

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤٧): أي: ليس شاعراً ولا مجنوناً، بل رسولاً يبلغ عن ربه، بدليل أنه جاء بالحق، فليس في شيء مما جاء به باطل، وصدق فيما جاء به المرسلين الذين أرسلهم الله من قبله، ومن تصديقه للمرسلين أن مضمون أسس الدين الذي جاء به، مطابق لمضمون ما جاء به المرسلون من قبله، ومنها أنباء يوم الدين، يوم البعث والحساب وفضل القضاء وتحقيق الجزاء.

وهذه حقائق لا يأتي بها شاعر ولا مجنون، بل يأتي بها الإنسان الكامل المصطفى من رب العالمين بالنبوة، ولحمل رسالاته لإباده.

وَبِمَا أَنَّهُمْ بِحَسَبِ الْمَشْهَدِ الْمَعْرُوضِ هُمْ فِي يَوْمِ الدِّينِ يُعَذَّبُونَ، فَمِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ يُخَاطَبُوا وَهُمْ فِي الْعَذَابِ يَتَقَلَّبُونَ، بِمَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّالِي:

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: إِنَّكُمْ مُسْتَمِرُّونَ فِي أَنْ تَذُوقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فِي الْجَحِيمِ، وَإِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ بِالْعَدْلِ، لَا تُظْلَمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَأَنْتُمْ مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ بِإِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّةَ.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) في بيان حال كبراء مشركي مكة إبان نزول هذه السورة:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّبُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلِمَ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾:

• قرأ حَفْصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [قَالَ رَبِّي] بِالْفِعْلِ الماضي «قَالَ»، وقرأ باقي القراء العشرة: [قُلْ رَبِّي] بفعل الأمر.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: قال الله عز وجل لرسوله [قُلْ] فقال الرَّسُولُ ﷺ: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قول الله عز وجل:

• ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾:

الاقترب: معلوم، وهو الدنو. يقال لغة: «اقترب الشيء للشيء»، أي: دنا منه.

﴿لِلنَّاسِ﴾: المراد بالناس في المدة التي نزلت فيها سورة (الأنبياء) كبراء مشركي مكة المعانيدون المصرون على الكفر جحوداً، مع استيقان نفوسهم بصدق الرسول، وبأن القرآن تنزل من رب العالمين، بذلك ما جاء في الآية (٢) عقب هذه الآية كما سيأتي بيانه.

﴿حِسَابُهُمْ﴾: أي: حسابهم المعجل، والقضاء بشأنهم، وإنزال العقاب بهم، وهو ما حدث في غزوة بدر وما بعدها.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾: الغفلة عن الشيء: انصراف الذهن عن ملاحظته ومراقبته مع وجوده في مجال الإدراك، أو وجود أدلته، وإمكان إدراكه، لولا وجود الصارف أو السهو، يقال لغة: «غفل فلان عن الشيء يغفل غفولاً وغفلة».

﴿مُعْرِضُونَ﴾: الإغراض: وسط بين الإقبال والإدبار، وأضل الإعراض إعطاء الجانب. عرض الشيء في اللغة جانبه، وعارضا الإنسان صفحتا خديه.

والإغراض عن الشيء يدل على عدم العناية بالشيء، وعدم الاكتراث له أو المبالاة به.

قول الله عز وجل:

• ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَعْبُونَ ﴿٢﴾﴾:

أي: ما يأتيهم من نعيم قرآني محدث التنزيل، إلا استمعوه مذكرين

الدَّلَالَاتِ الْعَامَّةَ لِآيَاتِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ انْصِرَافَ أَذْهَانِهِمْ عَنْهُ بِاللَّعِبِ الَّذِي يَلْعَبُونَهُ سَاعَتِيذٍ، وهذا اللَّعِبُ قَدْ يَكُونُ بِشُؤْنٍ دُنْيَاهُمْ، أَوْ بِالْعَابِ كَانُوا يُمَارِسُونَهَا لِرِيَاضَةِ الْفِكْرِ، أَوْ رِيَاضَةِ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ، كَدَحْوِ الْحَجَارَةِ، وَرَمِي السَّهَامِ، ونحو ذلك.

وَسَبَقَ أَنْ نَزَلَ بِشَأْنِهِمْ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُعَذِّبٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

والفرق بَيْنَ آيَةِ (الشُّعْرَاءِ) وَآيَةِ (الْأَنْبِيَاءِ) أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَطْمَعَهُمْ بِرَحْمَتِهِ فِي آيَةِ الشُّعْرَاءِ، إِذْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، وَأَنَّهُمْ كَانُوا حِينِيذٍ فِي حُدُودِ «مُعْرِضِينَ».

أَمَّا آيَةُ (الْأَنْبِيَاءِ) فَقَدْ خَوَّفَهُمُ اللَّهُ فِيهَا بِسُلْطَانِ رَبُّوبِيَّتِهِ لَهُمْ؛ إِذْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ﴾، وَأَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى طَوْرِ أَنْ يَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ.

وظَاهِرٌ أَنَّ الْإِعْرَاضَ السَّائِكِينَ أَخَفُّ مِنَ الْاسْتِمَاعِ الْخَفِيِّ مَعَ إِظْهَارِ اللَّعِبِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ:

• ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

أَي: إِلَّا اسْتَمَعُوهُ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي حَرَكَاتِ أَجْسَادِهِمْ حَالَةً كَوْنٍ قُلُوبُهُمْ لَاهِيَةً عَنِ التَّأَثُّرِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، إِذْ تَسْتَمِيلُهَا الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ وَرَغْبَاتُهُمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

اللَّهُو: الْإِشْتِغَالُ عَمَّا يَجِبُ تَوْجِيهِ الْجَهْدِ وَالْعَمَلِ لَهُ، بِكُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ

ذِي قِيمَةٍ حَقِيقَةٍ تُعَادِلُ قِيمَةَ الْمَثْرُوكِ، أَوْ تُقَارِبُهَا، وَرَبَّمَا كَانَ الْمَعْتَنَى بِهِ مِنْ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ أَوْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا السَّرِيعِ الزَّوَالِ.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: اشْتَغَلَ النُّحْوِيُّونَ بِتَوْجِيهِ وَجُودِ الْفَاعِلِ ضَمِيرًا مُتَّصِلًا فِي ﴿وَأَسْرُوا﴾، وَوُجُودِهِ اسْمًا ظَاهِرًا فِي ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَأُورِدُوا وَجُوهًا إِعْرَابِيَّةً مُتَعَدِّدَةً، وَعِنْدَ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّ هَذَا عَلَى لُغَةٍ مِنْ يَقُولُ مِنَ الْعَرَبِ: «أَكْلُونِي الْبَرَاغِيثَ»، وَهِيَ لُغَةٌ عِنْدَ «هَذَاذِيلٍ». وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالظُّلْمِ لِكُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ، وَلِإِرَادَتِهِمُ الصَّدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

﴿النَّجْوَى﴾: الْإِسْرَارُ بِالْحَدِيثِ. وَهَذَا يُقَالُ: إِذَا كَانَتْ النُّجْوَى الْإِسْرَارُ بِالْحَدِيثِ، فَلَمَّا ذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾؟

أَقُولُ: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ بِالْعُتَا فِي إِخْفَاءِ تَنَاجِيهِمْ، حَتَّى عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، لِئَلَّا تَعْلَمَ جَمَاهِيرُهُمْ مَا تَشَاوَرُوا فِيهِ، لِإِشَاعَةِ مَا يَرْجُونَ التَّأْثِيرَ بِهِ عَلَى الْعَامَّةِ مِنْ مَقَالَاتٍ، لَصَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَقَدْ تَوَصَّلُوا بَعْدَ تَنَاجِيهِمْ الَّذِي أَسْرَوْهُ عَنْ عَامَّتِهِمْ إِلَى إِشَاعَةِ مَقَالَتَيْنِ، تَبِعَتْهُمَا أَرْبَعُ مَقَالَاتٍ:

فَالْمَقَالَتَانِ جَاءَ بَيَانُهُمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ، وَالْمَقَالَاتُ الْأَرْبَعُ الْأُخْرَى جَاءَتْ فِي الْآيَةِ (٥) الْآتِيَةِ.

الْمَقَالَةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟﴾ أَيُّ: هَلْ هَذَا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِعَالَمِ الْغَيْبِ وَتَلْقَى الْوَحْيِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لَقَدْ أَعْجَبَتْهُمْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ، وَرَأَوْا أَنَّهَا صَالِحَةٌ لَصَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ، بَعْدَ التَّنَاجِيِ السَّرِيِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَسَبَقَ أَنْ قَالُوهَا كَمَا جَاءَ فِي

سُورَةُ (الْفُرْقَان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وَلَكِنْ لَا بِعنوان لفظ «بَشَر»، بل بِذِكْرِ بَعْضِ صِفَاتِ الْبَشَرِ، مِنْ أَنَّهُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ أَوْ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ يَكْتَسِبُ رِزْقَهُ:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَظَرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

وقد سبق تدبر هاتين الآيتين لدى تدبر سورة (الفرقان). وهي مقولة اتكأ عليها كل مكذبي الرسل السابقين، وقد جاء تفصيل هذا في الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

وفي إشارتهم إلى الرسول ﷺ باسم الإشارة [هَذَا] في عِبَارَتِهِمْ: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، إِرَادَةُ أَزْدِرَائِهِ لَدَى تَرْوِيجِ عِبَارَاتِ الصَّدِّ عَنْ الْإِسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

المقالة الثانية: دَلَّ عليها قول الله عز وجل حكاية لها: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾: أي: أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ مَجْدُوبِينَ إِلَيْهِ بِسُخْرِهِ الْكَلَامِيِّ الَّذِي يُسْمِعُكُمْ إِيَّاهُ، وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، يَأْكُلُ مِثْلَمَا تَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُ مِثْلَمَا تَشْرَبُونَ، وَيَنْكِحُ النِّسَاءَ كَمَا تَنْكِحُونَ.

هذه هي الفكرة الدعائية الثانية، التي اتَّفَقَ أَيْمَةُ الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ عَلَى تَرْوِيجِهَا، لِإِبْعَادِ الْجَمَاهِيرِ عَنِ الْإِسْتِمَاعِ لِمَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَسُورِهِ، زَاعِمِينَ أَنَّ تَأَثَّرَهُمْ بِالْقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّأْثِيرِ السُّخْرِيِّ.

وَبَلَغَتِ الرَّسُولَ ﷺ الْمَقَالَتَانِ الدَّعَائِيَّتَانِ اللَّتَانِ شَرَعُوا فِي تَرْوِيجِهِمَا، فَقَالَ مُلَوِّحًا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، لِإِرَادَتِهِمُ الصَّدَّ عَنْ دِينِهِ بِالْأَبَاطِيلِ، مَا أَبَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾:

أي: سواء أَسَرَرْتُمْ نَجْوَاكُمْ لَصْنَعِ الْمَكِيدَةِ الدَّعَائِيَّةِ بُغْيَةَ الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، أَمْ أَغْلَنْتُمْ أَقْوَالَكُمْ الْكَيْدِيَّةَ، فَإِنَّ رَبِّي الَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولًا، وَيُنَزِّلُ عَلَيَّ نُجُومَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، يَعْلَمُ كُلَّ قَوْلٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَاسْتَخَفَّاؤَكُمْ بِإِسْرَارِ النَّجْوَى الْكَيْدِيَّةِ لَا يَحْجُبُكُمْ عَنْ سَمْعِ رَبِّي وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ..

وَتَابَعَ أَيْمَةُ الْكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ، مُشَاوَرَاتِهِمُ الْكَيْدِيَّةَ الَّتِي يُبَالِغُونَ فِي كِتْمَانِ التَّنَاجِي بِهَا عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، فَنَجَمَ عَنْ تَنَاجِيهِمُ التَّشَاوُرِي الْعَزْمَ عَلَى تَرْوِيجِ إِشَاعَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مُخْتَلِطَاتٍ لِتَضْلِيلِ الرَّأْيِ الْعَامِّ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْقَرْتُهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنَسْ إِثَابَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝﴾:

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مُشَاوَرَاتِهِمُ الْكَيْدِيَّةَ السُّرِّيَّةَ اللَّاحِقَةَ، نَتَجَ عَنْهَا قَرَارٌ بِتَرْوِيجِ أَرْبَعِ مَقَالَاتٍ دَعَائِيَّاتٍ صَادَّاتٍ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَعَنْ رَسُولِهِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، إِضَافَةً إِلَى الْمَقَالَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ:

المقالة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾:

﴿بَلْ﴾ هُنَا لِلْإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِيِّ لَا لِإِبْطَالِ مَا سَبَقَ أَنْ قَرَّرُوا تَرْوِيجَهُ.

أي: قَرَّرُوا أَنْ يُرَوِّجُوا فِكْرَةَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ لَا تَرَابُطَ بَيْنَ جُمْلِهِ وَمَعَانِيهِ، فَهُوَ لَا يَضْلُحُ لِأَنَّهُ يَكُونُ تَنْزِيلًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

هذه الفكرة قد تَرَوَّجُ عِنْدَ الْأَغْبِيَاءِ مِنَ الدَّهْمَاءِ، الَّذِينَ لَا يُدْرِكُونَ

حُطِّوْطِ التَّرَابُطِ الذَّهْنِيِّ الْعَجِيبِ، بَيْنَ فِقَرَاتِ الْآيَةِ، مَعَ وَحْدَةِ مَوْضُوعِ السُّورَةِ، وَلَا بَيْنَ الْمَعَانِي الَّتِي تُكْشِفُهُ اللَّوْازِمَ الْفِكْرِيَّةَ، وَالْمَحَاضِفَ فِي النَّصِّ.

﴿أَضَعْتُ أَهْلِي﴾: أي: كالأضغاثِ مِنَ الْأَحْلَامِ، عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ. أي: الْقُرْآنَ أَفْكَارًا مُخْتَلِطَةً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، لَا نِظَامَ لَهَا، وَلَا تَرَابُطَ بَيْنَهَا، كَالْأَحْلَامِ الْمُخْتَلِطَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ مَنْ يَرَاهَا اسْتِبَانَةَ فِقَرَاتِهَا، وَلَا إِدْرَاكَ التَّرَابُطِ بَيْنَهَا.

أَضَلُّ مَعْنَى «الضُّغْتُ» مَا جُمِعَ مُخْتَلِطًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَقُبِضَ عَلَيْهِ بِجُمُعِ الْكَفِّ وَنَحْوِهِ، كَقَبْضَةِ مِنْ حَشِيشٍ مُخْتَلِفِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ اخْتِلَاطًا عَشَوَانِيًّا، وَجَمْعُهُ «أَضْغَاثٌ».

وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مَا كَانَ مِنْهَا مُلْتَبَسًا مُضْطَرِبًا مُخْتَلِطًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ عَنْهُمْ: ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾: أي: بَلْ صَنَعَهُ مُحَمَّدٌ، وَادَّعَى كَذِبًا أَنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ وَحْيًا.

هَذِهِ الْمَقَالَةُ تَسْنُدُ الْمَقَالََةَ الْأُولَى الَّتِي زَعَمُوا فِيهَا أَنَّ الْقُرْآنَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ فِي مُحْطَطِهِمُ الْكِيدِي.

أي: وَبِمَا أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَضْلُحُ لِأَنَّهُ يَكُونُ تَنْزِيلًا مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَقُولُهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ بِإِرَادَةِ جَازِمَةٍ.

المقالة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ عَنْهُمْ: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾: أي: بَلْ صَنَعَ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى قَرْضِ الشَّعْرِ، وَبِهَذَا تُوجَدُ فِي الْأَقْوَالِ الَّتِي يَقُولُهَا عَلَى أَنَّهَا قُرْآنٌ تَحْلِيقَاتٌ شِعْرِيَّةٌ

سَاحِرَةٌ، تَجْدِبُ هَوَاهُ الْبَيَانِ الشُّعْرِيَّ الْبَدِيعَ، وَقَدْ ابْتَكَرَ مُحَمَّدٌ طَرِيقَةً بَيَانَهُ فِيهِ عَلَى مَذْهَبٍ شُعْرِيٍّ غَيْرٍ مَعْرُوفٍ لَدَى الشُّعْرَاءِ مِنْ قَبْلِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَنَّ مَضَامِينَ الْقُرْآنِ لَا تَلْتَقِي مَعَ أَغْرَاضِ الشُّعْرَاءِ، لَا فِي نَزَعَاتِهِمْ، وَلَا فِي نَزَغَاتِهِمْ، وَلَا فِي الْوِذْيَانِ الرَّجْسِيَّةِ الَّتِي يَهْبُطُونَ إِلَيْهَا، أَوِ الْمَلِئَةِ بِالْوَحْلِ وَالْمُتْنِتَاتِ.

المقالة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ عَنْهُمْ: ﴿فَلْيَأْزِنَا بَيَاتِهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾:

هَذِهِ الْمَقَالَةُ الدَّعَائِيَّةُ الَّتِي تَصَوَّرُوا أَنَّهَا مَقَالَةٌ صَادَّةٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ وَاتِّبَاعِهِ، تُوجِّهُ جَمَاهِيرَهُمْ لِمَطَالَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مَادِّيَّةٍ يَشْهَدُ اللَّهُ لَهُ بِهَا أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقًا، مِثْلَ عَصَا مُوسَى، وَإِخْيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنبياء) عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الدَّعَائِيَّةِ، الَّتِي قَرَّرَ كُتُبَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ تَرْوِجُهَا بَيْنَ جَمَاهِيرِهِمْ، إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

النص الخامس:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) خِطَابًا لِرَسُولِهِ مُكَلَّفًا وَمُثَبَّنًا:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ إِنْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ مَثَلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

تابع المشركون بتوجيه من أئمة الضلال والتضليل، وهم كُتُبَاءُ كُفَّار

قُرَيْشٍ الْمُعَانِدُونَ، تَرْوِجُ اتِّهَامَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ، وَاتِّهَامِهِ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ، لِيُثْنُوهُ عَنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ، وَلِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، وَعَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَالْإِيمَانِ بِمَا يُبَلِّغُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ.

فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يُتَابَعَ تَذَكِيرَ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى دَرَكَةِ مِنَ الْجَحودِ الْعِنَادِيِّ، مَيُؤَسِّسٍ مَعَهَا مِنْ إِيْمَانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، فَقَالَ لَهُ فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ سُورَةِ (الطور):

• ﴿تَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٦):

أي: فَتَابِعْ تَذَكِيرَكَ لِمَنْ تَطْمَعُ بِاسْتِجَابَتِهِمْ، فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ عَلَيْكَ بِالْقُرْآنِ، وَبِالْإِصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، بِكَاهِنٍ مِنَ الْكُهَّانِ، وَلَا مَجْنُونٍ، كَمَا زَعَمَ الْمُعَانِدُونَ الْمَكْذُبُونَ.

الكَاهِنُ: الَّذِي يَتَلَقَّى عَنْ قَرِينِهِ مِنَ الْجِنِّ عُلُومًا غَيْبِيَّةً، أَوْ يَدَّعِي عُلُومًا غَيْبِيَّةً، وَالكَاهِنُ غَالِبًا ذُو ذِكَاءٍ مَفْرُطٍ مَعَ خَبْثٍ فِي دَاخِلِهِ. وَالْمَجْنُونُ: فَاسِدُ الْعَقْلِ، فَكَيْفَ صَدَرَ عَنْهُمْ هَذَا التَّنَاقُضُ.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (٢٧):

﴿أَمْ﴾ هَذِهِ هِيَ الْمُنْقَطِعَةُ، وَهِيَ بِمَعْنَى «بَل» الَّتِي هِيَ لِلْإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِي، أَي: بَلْ أَيْقُولُونَ مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ يَأْتِي بِأَقْوَالٍ هِيَ مِنْ نَوْعِ الشُّعْرِ الْمُؤَثِّرِ الَّذِي ابْتَكَرَ فِيهِ مَذْهَبًا جَدِيدًا فِي الشُّعْرِ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ مَوْتَهُ لِنَسْتَرِيحَ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ.

﴿نَتَرَبَّصُ﴾: أَي: نَنْتَظِرُ. التَّرَبُّصُ: الْإِنْتِظَارُ.

﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾: أَي: حَوَادِثُ الدَّهْرِ الْمُؤِمِّيَّةِ. الْمَنُونُ: الْمَوْتُ. يُقَالُ: هِيَ الْمَنُونُ، وَقَدْ يُذَكَّرُ، فَيُقَالُ: هُوَ الْمَنُونُ.

فَعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُ:

• ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَاصِينَ﴾ (٣٦): أي: انتظروا موتي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنَظِّرِينَ أَنْ يَنْصُرَنِي اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ.

• ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ (٣٧):

الأخلام: العقول. الطاعون: أي المتجاوزن الحدود المقبولة المُحْتَمَلَة في التجاوز بحَسَبِ معاصي الناس إلى البَغْيِ والعُدوانِ والفسادِ ونَشْرِ الفساد في الأرض، ومُحَارَبَةِ الحق والخير والفضيلة ودين الله الحق.

والمعنى: بَلْ أَتَأْمُرُهُمْ عُقُولُهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا فِي أَقْوَالِهِمْ مُتَنَاقِضِينَ؟! إِنْ هَذَا لِأَمْرٍ مُسْتَنَكِرٍ لَدَى كُلِّ أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْمُتَنَزِّمِينَ بِالاختيار المعقول المقبول، وهو يَدُلُّ على أَنَّهُمْ لَا عُقُولَ لَهُمْ.

بل هم قَوْمٌ طَاعُونَ طَغِياناً فَاجِشاً جَدّاً، لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ غُلَاةِ الْفَاسِدِينَ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ، وَهَذَا الطَغِيَانُ هُوَ الَّذِي يَسْقُطُهُمْ فِي التَّنَاقُضِ.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٨) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٩):

﴿نَقُولُهُ﴾: أي: اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ اخْتِلَاقاً مِنْ عِنْدِهِ، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، النَّقُولُ: تَكْلُفُ الْقَوْلِ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ غَالِباً إِلَّا فِي صُنْعِ الْقَوْلِ الْمَكْذُوبِ الْمُفْتَرَى بِنَسْبِهِ إِلَى غَيْرِ قَائِلِهِ.

أي: بَلْ أَيْقُولُونَ إِنْ مُحَمَّدًا تَقَوَّلَ الْقُرْآنَ وَنَسَبَهُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بَلْ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مُسْتَقْبَلًا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ حَجَبُوا قُلُوبَهُمْ بِحُجُبٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الْكِبَرِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَالشَّهَوَاتِ وَرَغْبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَوَصَلُّوا إِلَى دَرَكَةِ مِنْ جُحُودِ الْحَقِّ، وَالْعِنَادِ الْإِجْرَامِيِّ، مَيُّوسٍ مَعَهَا مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ.

وَإِذْ تَضَمَّنَ ادِّعَاؤُهُمْ تَقْوَلُ الرَّسُولِ لِلْقُرْآنِ أَنَّ الْبَشَرَ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، كَانَ مِنَ الْأَمْرِ الْحَكِيمِ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ، إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ بِأَنَّ الْبَشَرَ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَهُمْ بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ، فَلْيَجْتَمِعْ بُلْعَاؤُهُمْ وَفُصَحَاؤُهُمْ وَمُفَكَّرُوهُمْ وَأَذْكِيَاؤُهُمْ، وَلْيَضْنَعُوا قُرْآنًا مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ.

إِنَّ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) خطاباً لغير المؤمنين:

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ (٤٢) نَزِيلٌ (٤٣) مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ (٤٧)﴾.

قُرئ: [يُؤْمِنُونَ] و[تُؤْمِنُونَ] و[يَذْكُرُونَ] و[تَذْكُرُونَ] و[تَذْكُرُونَ] على التوزيع ضَمَّنَ القراء العشرة، وَبَيَّنَ هَذِهِ القراءات تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ فِي الْخَطَابِ وَالْعَيْبَةِ، وَبَحَذَفَ التَّاءَ الثَّانِيَةَ فِي: [تَذْكُرُونَ] تَخْفِيفاً، وَبِإِذْغَامِهَا بِالذَّالِ فِي: [يَذْكُرُونَ] و[تَذْكُرُونَ].

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾: نَفْيُ الْقَسَمِ جَاءَ هُنَا عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ مِنْ مُرَاعَاةِ اقْتِضَائَيْنِ: أَحَدُهُمَا يُلَايِمُهُ الْقَسَمُ الْمُؤَكَّدَ لِلخَبَرِ، وَالْآخَرُ يُلَايِمُهُ عَدَمُ الْقَسَمِ لِغَدَمِ حُصُولِ الْفَائِدَةِ مِنْهُ، فَكَانَ الْحُلُّ الْبَيَانِيُّ الْمُبْتَكَّرَ اخْتِيَارَ ذِكْرِ لَفْظِ الْقَسَمِ وَالْمُقَسَمِ بِهِ تَنْبِيهاً عَلَيْهِ، مَعَ سَبْقِهِ بِأَدَاءِ النَّفْيِ «لَا».

والجانب الذي اقتضى القَسَمَ رُوعِي حاله بِذِكْرِ القَسَمِ والمُقَسَمِ به،
والجانب الذي اقتضى عدم حُصُولِ الفائدة المرجوة مِنَ القَسَمِ رُوعِي حاله
بِنَفْيِ القَسَمِ بأداة النَفْيِ «لا».

إنَّ الموجودات الكونيَّة التي لَا يُبْصِرُهَا النَّاسُ، لَا يَعْرِفُ المخاطَبُونَ
إِبَّانَ التنزيلِ قِيَمَتَهَا وَعَظَمَتَهَا، وَعَظْمَةُ خَلْقِ اللَّهِ لَهَا، فَلَا فَايِدَةَ تُرْجَى مِنَ
القَسَمِ بها، لتأكيد أنَّ القُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَكِنْ سَيَأْتِي زَمَنٌ
يَكْتَشِفُ الْبَاحِثُونَ الْعِلْمِيُّونَ فِيهِ عَظْمَةُ الْمَوْجُودَاتِ الكونيَّةِ، الَّتِي لَا
يُبْصِرُونَهَا بِأَعْيُنِهِمْ، فَالْقَسَمُ بها يُؤَكِّدُ لَدَيْهِمْ خَبَرَ أَنَّ القُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ.

وَمُرَاعَاةً لَهُؤُلَاءِ وَهؤُلَاءِ مَعَا ذَكَرَ اللَّهُ الْقِسْمَ، وَنَفَاهُ بِأَدَاةِ النَفْيِ «لَا».

﴿... بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أَي: بِمَا تَرَوْنَ أَثَرَهَا
النَّاسُ الْمَعْنِيُّونَ بِالْخِطَابِ بِأَبْصَارِكُمْ مِمَّا خَلَقْتُ فِي كَوْنِي، وَمَا لَا تَرَوْنَهُ
بِأَبْصَارِكُمْ مِمَّا خَلَقْتُ فِي كَوْنِي.

وَقَدْ أَثْبَتَتِ الْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ أَنَّ الْكَائِنَاتِ غَيْرَ الْمَرِيَّةِ بِأَبْصَارِ النَّاسِ
أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ جِدًّا مِنَ الْمَرِيَّةِ بِالْأَبْصَارِ، وَقَدْ تَكُونُ نِسْبَةُ الْمَرِيَّةِ إِلَى غَيْرِ
الْمَرِيَّةِ بِالْأَبْصَارِ، كِنِيسَةِ الذَّرَّةِ إِلَى حَجْمِ الْكَوْرةِ الْأَرْضِيَّةِ أَوْ أَقْلً.

• ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾: إِنَّ الْقُرْآنَ لَقَوْلُ نَزَلَ بِهِ رَسُولٌ كَرِيمٌ
مِنْ لَدُنَّا هُوَ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ، وَأَوْحَى بِهِ إِلَى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ قَوْلًا
مَلْفُوظًا، فَتَلَقَّاهُ مُحَمَّدٌ كَمَا أَوْحَى إِلَيْهِ بِهِ رَسُولُنَا جِبْرِيلُ، حَرْفًا فَحَرْفًا،
وَكَلِمَةً فَكَلِمَةً، وَآيَةً فَآيَةً.

• ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أَي: لَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِ
يُمْكِنُ أَنْ يَصْدَرَ عَنْ شَاعِرٍ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّا لَكُمْ فِي سُورَةِ (يَس) وَفِي
سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ) وَفِي سُورَةِ (الصَّافَّاتِ) أَنَّ الشُّعَرَاءَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ

هَذَا الْقُرْآنَ، لِلتَّبَاطِينِ بَيْنَ مَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنَ، وَمَا تَضَمَّنَهُ شِعْرُ كُلِّ الشُّعْرَاءِ،
وَلِلتَّبَاطِينِ بَيْنَ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ لِلشَّاعِرِ، وَبَيْنَ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ
وَالسُّلُوكِيَّةِ لِلنَّبِيِّ الرَّسُولِ، وَقَدَّمْنَا لَكُمْ الْإِقْنَاعَ الْكَافِي، وَلَكِنَّكُمْ قَلِيلاً مَا
تُؤْمِنُونَ، إِنَّكُمْ قَدْ يَحْصُلُ فِي نَفُوسِكُمْ اسْتِيقَانٌ بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ إِذَا خَالَفَ
هَوَاكُم وَمَا تُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِهِ إِيْمَاناً إِرَادِيّاً
دَافِعاً لَكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَيَقْتَضِيهِ، أَمَّا إِذَا وَافَقَ هَوَاكُم فَإِنَّكُمْ
تُؤْمِنُونَ بِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ الَّذِي يُوَافِقُ هَوَاكُمْ قَلِيلاً، وَكَانَ الْحَقُّ الَّذِي يَخَالَفُ
هَوَاكُم كَثِيراً، فَإِنَّهُ يَضِدُّ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ ﴿قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾، أَي: إِيْمَاناً قَلِيلاً
جِداً بِالْحَقَائِقِ تُؤْمِنُونَ.

لَفْظُ «قَلِيلاً» صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مُحذُوفٍ مُقَدَّمٌ عَلَى فِعْلِهِ، وَلَفْظُ «مَا»
لَفْظٌ مُبْتَهَمٌ جِيءَ بِهِ لِتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ.

• ﴿وَلَا يَقُولُ كَآهِنٍ قَلِيلاً مَا نَذْكُرُونَ﴾ (٤٢): أَي: وَلَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَوْلٍ
يُمْكِنُ أَنْ يَضْدَرَ عَنْ كَآهِنٍ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّا لَكُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ
تَنْزَلَ بِهِ الشَّيَاطِينُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ)، وَلَكِنَّكُمْ قَلِيلاً مَا تَذْكُرُونَ.
﴿نَذْكُرُونَ﴾: أَضْلَاهَا: «تَذْكُرُونَ» حُذِفَتِ التَّاءُ الثَّانِيَةُ تَخْفِيفاً فِي النُّطْقِ.

لَقَدْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا مَا سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّاهُ لَكُمْ تَذْكُراً
دَافِعاً إِلَى الْإِيْمَانِ بِالْحَقِّ، لَكِنَّكُمْ تَهْمِلُونَ مَا لَا يُوَافِقُ هَوَاكُمْ فَتُبْعِدُونَهُ عَنْ
ذَاكِرَاتِكُمْ، فَلَا تَسْتَخْصِرُونَهُ عِنْدَ وَجُودِ الدَّاعِي إِلَى اسْتِحْضَارِهِ، وَتَسْتَمِرُّونَ
عَلَى تَكْرِيرِ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَكُمْ مِنْ بَاطِلٍ.

• ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣): أَي: إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي تَزْعُمُونَ مَرَّةً أَنَّهُ
قَوْلُ شَاعِرٍ، وَتَزْعُمُونَ أُخْرَى أَنَّهُ قَوْلُ كَآهِنٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا يَقُولُهُ عَلَى رَبِّهِ
كَذِباً وَافْتِرَاءً، هُوَ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ،
فَاوْحَى بِهِ إِلَى مُحَمَّدٍ.

وَلِلرَّدِّ عَلَى زَعْمِهِمْ أَنَّ مُحَمَّدًا تَقَوَّلَهُ عَلَى رَبِّهِ، أَبَانَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَوْ تَقَوَّلَ شَيْئًا قَلِيلًا عَلَيْنَا لَقَتَلْنَاهُ بِقَطْعِ وَتِينِهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

سَبَقَ قَرِيبًا بَيَانُ مَعْنَى التَّقَوُّلِ، وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُ يَقُولُ كَلَامًا مِنْ عِنْدِهِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ.

﴿الْوَتِينَ﴾: هُوَ الشَّرِيَانُ الرَّئِيسَ الَّذِي يُغْذِي جِسْمَ الْإِنْسَانِ بِالْدَّمِ النَقِيِّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ.

الْمَعْنَى: أَلَمْ تُفَكِّرُوا بَعْدَ أَنْ أُيِّدْنَاهُ بِآيَاتِنَا لِنَشْهَدَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَّا، قَدْ بَعَثْنَاهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِنَا، أَنَّهُ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، فَإِنَّا لَنْ نَتْرَكُهُ يَكْذِبُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَشْهَدُ بِصِدْقِهِ فِي نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَفِي تَبْلِيغَاتِهِ عَنَّا.

إِنَّهُ لَوْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، وَلَعَذَّبْنَاهُ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَنَالَ نَصِيبَهُ مِنَ الْعَذَابِ لَقَطَعْنَا مِنْهُ وَتِينَهُ فَهَلَكَ، وَلَمْنَعْنَاهُ بِذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيْنَا.

وَعِنْدئذٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَحْجُزَنَا عَنْ تَعْذِيبِهِ وَإِهْلَاكِهِ، مَهْمَا جَمَعَ مَعَهُ مِنْ جُمُوعٍ وَكَانُوا مَعَهُ حَاجِزِينَ.

نُزِّلُ الْوَاحِدُ مَنَزِلَةً الْجَمْعِ الَّذِي يَجْمَعُهُمْ مَعَهُ، فَجَاءَ الْخَبَرُ عَنْهُ بِلَفْظِ [حَاجِزِينَ].



ما جاء في السنة بشأن الشعر والشعراء:

جاء في السنة الثناء على الشعر الذي يشتمل على حقٍّ وحكمةٍ ودَعْوَةٍ إلى الخير ومكافحةٍ للباطل والمبطلين، ودفاعٍ عن الدين الحق، وعن

الرَّسُولَ وصالحِي الْمُؤْمِنِينَ، وَحَثَّ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُلْزَمُ مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ عَلَى شُعْرَاءِ هَذَا النُّوعِ مِنَ الشَّعْرِ.

وَجَاءَ فِيهَا ذَمُّ الشُّعْرِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى بَاطِلٍ أَوْ رَذِيلَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ الْمُبْطِلِينَ وَالْمُجْرِمِينَ، أَوْ يَشْتَمِلُ عَلَى شَتِيمَةٍ أَوْ هِجَاءٍ بَغْيٍ حَقٍّ، أَوْ فَضْحٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَوْ إِشَاعَةٍ لِلْفَاحِشَةِ وَالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ، أَوْ تَعْرِيفَةٍ لِلْعَوْرَاتِ أَوْ إِسَاءَةٍ أَوْ تَجْرِيعٍ أَوْ غِيَّةٍ أَوْ نَمِيمَةٍ لِلْمُسْتَوْرِينَ، أَوْ يَشْتَمِلُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الدِّينُ فِي أَيِّ كَلَامٍ، سِوَاءٍ أَكَانَ نَثْرًا أَمْ شِعْرًا.

وَيُلْزَمُ مِنْ ذَمِّ هَذَا النَّوعِ مِنَ الشُّعْرِ ذَمُّ شُعْرَائِهِ، مَهْمَا كَانُوا مِنْ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ، وَمَهْمَا كَانَتْ مَوْهَبَتُهُمْ عَالِيَةً فِي الْإِبْدَاعِ وَالتَّخْلِيقِ الشُّعْرِيِّ.

مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ مِنْ ثَنَاءٍ عَلَى الشُّعْرِ الْمَأْذُونِ بِهِ فِي الدِّينِ:

(١) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمًا»^(١).

(٢) وَجَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«يَا حَسَّانُ أَجِبْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»؟

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «نَعَمْ». وَرُوحُ الْقُدُسِ: هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:

«اهْجُؤْهُمْ، أَوْ هَاجِئْهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ».

(١) انظر الحديث (٢٢١٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.

(٤) وروى مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ لحَسَّانَ:

«إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَفَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

(٥) وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعْرَاءِ مَا أَنْزَلَ!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ».

أي: مَا تَرْمُونَ بِهِ أُمَمَ الْكَافِرِينَ وَأَتْبَاعَهُمْ مِنْ شِعْرٍ، يُشْبَهُ نَضْحَهُمْ بِالسَّهَامِ.

النَّضْحُ بِالنَّبْلِ: الرَّمْيُ بِالسَّهَامِ، يُقَالُ لُغَةً: «نَضَحَ الْقَوْمَ بِالنَّبْلِ» أي: رماهم بالنبل، فَفَرَّقَهُمْ.

(٦) وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، فِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ نَقُولُ الشُّعْرَ؟! :

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

«خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَإِنَّهُ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ».

(٧) وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ بِسَنَدِهِ إِلَى خُرَيْمِ بْنِ أَوْسٍ بْنِ حَارِثَةَ أَنَّهُ قَالَ: هَاجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، مُنْصَرَفَةً مِنْ

تَبُوكَ، فَسَمِعْتُ الْعَبَّاسَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُمْتَدِّحَكَ، فَقَالَ:
«قُلْ لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكَ».

فقال العباسُ أبياتاً سبعة، مِنْهَا قوله:

مِنْ قَبْلِهَا طُبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الْوَرَقُ
فقال له النبي ﷺ: «لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكَ»^(١).

(٧) وثبت أن الرسول ﷺ أجاز «كَعْبَ بْنَ زُهَيْرٍ» فخلَعَ عليه بُرْدَتَهُ،
إِذْ جَاءَ مُؤْمِناً، وَأَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ، الَّتِي يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا عَلَى عَادَةِ
الشُّعْرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ، إِذْ يَبْدَأُونَ قَصَائِدَهُمْ بِالنَّسِيبِ:

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ^(٢)

وانتقل إلى الاغتذار والتوبة ومَدَحِ الرسول ﷺ.

(٩) وقال أبو هريرة: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمَنْبَرِ:

«أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الْعَرَبُ، كَلِمَةُ لَيْدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ
بَاطِلٌ».

(١٠) وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْتَنْشِدُ شِعْرَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، لِمَا فِيهِ
مِنَ الْحِكْمَةِ، وَقَالَ بِشَائِهِ: كَادَ أُمَيَّةٌ أَنْ يُسْلِمَ.

ما جاء في السنة من دَمٍّ للشعر غير المأذون به:

(١) روى الإمام أحمدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ
مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعَرَجِ، إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(١) أَخَذَ مِنَ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِرِ بْنِ عَاشُورٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِآخِرِ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ).

(٢) بَانَتْ: ابْتَعَدَتْ. مَتَبُولٌ: أَسْقَمَ الشَّوْقَ. مُتَيِّمٌ: ذَلِيلٌ مُسْتَعْبِدٌ. لَمْ يُفَدَ: لَمْ يَخْلُصْ مِنَ
الْأَسْرِ. مَكْبُولٌ: مَقِيدٌ.

«خُذُوا الشَّيْطَانَ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ، لِأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا».

وهذا محمولٌ على أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ يُنْشِدُ شِعْرًا فِيهِ ضَلَالٌ وَإِثْمٌ، وَفَسَادٌ وَشَرٌّ، فَوَصَفَهُ الرَّسُولُ بِأَنَّهُ شَيْطَانٌ، وَقَالَ: لِأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا، أَي: مِنْ هَذَا الشَّعْرِ الْقَذِرِ.

(١) وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لِأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا».

«يَرِيهِ»: أَي: يَأْكُلُهُ وَيُفْسِدُهُ، يُقَالُ لَغَةٍ: «وَرَى الْقَيْحُ جَوْفَ الْمَرِيضِ يَرِيهِ»، أَي: أَكَلَهُ وَأَفْسَدَهُ.

وهذا مَحْمُولٌ عَلَى الشَّعْرِ الْمَتَضَمِّنِ ضَلَالًا وَإِضْلَالًا، وَفَسَادًا وَإِفْسَادًا، نَظِيرُ الْحَدِيثِ السَّابِقِ.

مما ورد بأن الشعر كسائر الكلام:

(١) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: رَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّاسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْنٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«حَسَنُ الشَّعْرِ كَحَسَنِ الْكَلَامِ وَقَبِيحُ الشَّعْرِ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ»

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: رَوَاهُ إِسْمَاعِيلُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْنِ الشَّامِيِّ، وَحَدِيثُهُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ صَحِيحٌ فِيمَا قَالَ يَخْبَى بْنُ مَعِينٍ وَغَيْرِهِ.

(٢) قَالَ: وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«الشَّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ».

الرَّسُولُ يَطْلُبُ اسْتِمَاعَ شِعْرِ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ:

رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَمْرٍو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَدَفْتُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فقال: «هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ؟»
قُلْتُ: نَعَمْ. قال: «هِيَه»، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا. فقال: «هِيَه»، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ
بَيْتًا، فقال: «هِيَه»، حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِثْلَهُ بَيْتًا.

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَامِلُهُ النُّعْمَانُ بْنُ عَدِيٍّ:

ذكر مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، ومُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ، والرُّبَيْرُ بْنُ
بُكَارٍ فِي كِتَابِ الْفُكَاهَةِ، أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ
عنه، اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ بْنَ عَدِيٍّ بنِ نَضْلَةَ، عَلَى مِيسَانَ مِنْ أَرْضِ الْبَصْرَةِ،
وكَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ، فَقَالَ:

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنَّ خَلِيلَهَا	بِمِيسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَتِمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرِيَةٍ	وَرَقَاصَةٌ تَحْدُو عَلَى كُلِّ مِبْسَمِ
فَإِنْ كُنْتُ نَذْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي	وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَشَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ	تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

نَذْمَانِي: أَي نَذِيمِي. النَّدِيم: المصاحبُ على الشرابِ المسامر.

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
إِي وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَيَسُوؤُنِي ذَلِكَ، وَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ عَزَلْتُهُ.

وَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾. أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي قَوْلُكَ:

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ
وَأَيْمُ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيَسُوؤُنِي، وَقَدْ عَزَلْتُكَ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بَكَتَهُ بِهَذَا الشَّعْرِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَا شَرِبْتُهَا قَطُّ، وَمَا ذَاكَ الشَّعْرَ إِلَّا شَيْءٌ طَفَحَ عَلَى لِسَانِي.

فَقَالَ عُمَرُ: أَطُنُّ ذَلِكَ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَعْمَلُ لِي عَمَلًا أَبَدًا، وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ.

شعراء المشركين كانوا يهجون الرسول ﷺ:

كَانَ نَفَرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ بِمَكَّةَ يَهْجُونَ الرَّسُولَ ﷺ، وَكَانَتْ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَسْمَعُونَ أَشْعَارَهُمْ، وَهَجَاءَهُمْ لِلرَّسُولِ. وَمِنْهُمْ:

(١) النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ.

(٢) هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ.

(٣) مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ.

(٤) أَبُو عَزَّةَ الْجُمَحِيِّ.

(٥) ابْنُ الزَّبْعَرِيِّ.

(٦) أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ.

(٧) أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ.

(٨) أُمُّ جَمِيلٍ، الْعَوْرَاءُ بِنْتُ حَرْبٍ، زَوْجُ أَبِي لَهَبٍ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ وَأَنَابَ، وَأَسْلَمَ وَاخْتَارَ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ، وَتَحَوَّلَ إِلَى مَدْحِ الرَّسُولِ وَتَمْجِيدِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْهُمْ:

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْعَرِيِّ، وَمِنْ شِعْرِهِ بَعْدَ إِسْلَامِهِ:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَةِ نِ الْغَيِّ وَمَنْ مَالٌ مَيْلُهُ مَثْبُورُ

(٢) أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَشَدِّ

النَّاسِ عداوةً لِلرَّسُولِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، وَمَنْ أَكْثَرِهِمْ هِجَاءً لَهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ
لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَارَ يَمْدَحُهُ فِي شِعْرِهِ،
وَيَتَوَلَّاهُ.

من الذين أسلموا من الشعراء ومنهم من جاهد بشعره:

(١) من شعراء الأنصار الذين أسلموا وجاهدوا بشعرهم: «عبد الله بن رَوَاحَةَ، وحسان بن ثابت».

(٢) ومن الشعراء الذين أسلموا من غير الأنصار: «لييد» و«كعب بن زهير» و«سحيم عبد بني الحسحاس».



خاتمة المجلد الثامن

بفضلٍ من الله الجليل الرحيم الرؤوف الوهاب، كتبتُ هذا المجلد الثامن المشتمل على تدبر السُّور الثلاث (طه - الواقعة - الشعراء) وملاحق هذا التدبر، وأنا مُنبِطِحٌ على السَّرير أرتقي سُلّم العافية درجةً فدرجةً، بعناية ربِّي وأُطافِهِ الخفية، ولساني وقلبي يسألانه تمام العافية وتمام الشفاء، وأن يَمُدَّنِي بالمُعونة، وَيَهْبِي الْقُوَّةَ وَالْبَصِيرَةَ النَّفَّاذَةَ، وَالْفَهْمَ السَّيِّدَ على مُرَادِهِ من آيَاتِ كتابه، حَتَّى يُنْهِيَ لِي بِفَيْضِ عَطَائِهِ، تَدَبُّرَ سَائِرِ سُورِهِ، وَيَجْعَلَهُ مُبِيناً لِحَقَائِقِهِ، وَدَقَائِقِهِ، وَنَافِعاً لِرَاغِبِي فَهْمَ كِتَابِهِ فِي الْعَالَمِينَ، وَخَالِصاً لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

والحمد لله على ما فتح به، وَعَلَّمَ، وَأَلْهَمَ، وَوَفَّقَ، وَأَعَانَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ لِي عَبْدًا شَكُورًا.

وكان الفراغُ من كتابة هذا المجلد، صباح يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك من سنة (١٤٢١) هجرية، الموافق لـ (١٨) من شهر كانون الأول لسنة (٢٠٠٠م)، في دار إقامتي بمكة المكرمة، وفي غرفة أرى من نافذتها غارَ حراء، فيذكّرني بالصلاة والسلام على سيّدنا محمّد بن عبد الله، الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَوَّلَ سُورَةِ (الْعَلَقِ)، وَهُوَ يَعْبُدُهُ فِي الْغَارِ الْكَائِنِ فِي ذُرْوَتِهِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ مَعَ بَدْءِ نُبُوَّتِهِ ﷺ.

رَبِّ لَا تَقْطَعْ عَنِّي مَدَدَكَ وَفَتْحَكَ وَمُعَوَّنَتَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَعَافِيَتَكَ، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ، رُؤُوفٌ رَحِيمٌ وَهَّابٌ.

٢٢ رمضان المبارك، ١٤٢١ هجرية، عبد الرحمن حسن حبّكه الميّداني

٢٠٠٠/١٢/١٨ ميلادية

الفهرس

الصفحة

الموضوع

سورة طه

٢٠ مصحف / ٤٥ نزول

- (١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٧
- (٢) مما ورد في السيرة النبوية بشأن سورة (طه) ٢١
- (٣) موضوع سورة (طه) ٢٥
- (٤) دروس سورة (طه) ٢٦
- (٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ - ٨) ٢٨
- ﴿طه﴾ (١) ٢٩
- ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ٢٩
- ﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٣) ٣٠
- ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ (٤) ٣٢
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ٣٣
- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) ٣٤
- ﴿وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) ٣٦
- ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) ٣٨
- (٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه)، الآيات من (٩ - ٩٩) ... ٣٩
- الفقرة الأولى : الآيات من (٩ - ٣٦) ٣٩
- القراءات ٤٠
- تمهيد ٤٢
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) ٤٣

الموضوع

الصفحة

- ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هَدًى﴾ (١٧) ٤٤
- نظرة إلى ما جاء في النصوص الأخرى في القرآن بشأن هذا الحدث في (النمل) و(القصص) و(مريم) ٤٦
- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٢) ٤٨
- شرح المفردات والجمل ٤٩
- ما يظهر لمتدبر هذه النصوص تدبراً تكاملياً ٥١
- ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦) ٥٣

في هذا التكليم بيان ست قضايا

- القضية الأولى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ٥٣
- القضية الثانية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ ٥٣
- القضية الثالثة: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ ٥٤
- القضية الرابعة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ٥٤
- القضية الخامسة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١٥) ٥٥
- القضية السادسة: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦) .. ٥٧
- (الآيات من (١٧ - ٢٤) من سورة (طه) وما جاء في (النمل) و(القصص) .. ٥٨
- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَىٰ بِهَا عَلَىٰ غَمِّي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (١٨) ٥٩
- ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ (١٩) ٦١
- ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (٢٠) وما جاء في سورتي (النمل) و(القصص): .. ٦٢
- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (٢١) ٦٤
- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيَضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٢) وما جاء في سورتي (النمل) و(القصص) ٦٥
- الآيات التسع التي آتاها الله عز وجل لموسى عليه السلام ٦٩

الصفحة

الموضوع

- ٧٢ الآيات من (٢٥ - ٣٦) من سورة (طه)
- ٧٢ القراءات وما جاء في سورتي (القصص) و(الشعراء)
- ٧٩ تدبر هذه النصوص الثلاثة تدبراً تكاملياً
- ٧٩ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥)
- ٧٩ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦)
- ٧٩ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨)
- ٨٠ ﴿وَاجْعَلْ لِي زَبيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾ (٣٥)
- ٨١ ﴿أَشِدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ (٣٦)
- ٨١ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٦)
- ٨١ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ (٣٤)
- ٨٢ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ (٣٥)
- ٨٢ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (٣٦)
- ٨٣ الفقرة الثانية: الآيات من (٣٧ - ٦٠)
- ٨٤ القراءات
- ٨٥ تمهيد بشأن منة الله على موسى عليه السلام وهو طفل رضيع
- ٨٨ ما جاء عند الإسرائيليين بشأن طفولة موسى
- ٨٩ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (٣٧)
- ٩٠ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ (٣٨)
- ٩١ ﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾
- ٩١ ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ فِي السَّاحِلِ﴾
- ٩٢ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾
- ٩٢ ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾
- ٩٣ ﴿وَلِتُضِنَّ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (٣٩)
- ٩٣ ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾
- ٩٤ ﴿هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾
- ٩٤ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

الموضوع

الصفحة

- ما جاء في سورة (القصص) الآيات من (٧ - ١٣) ٩٦
- ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ ١٠٦
- ما جاء في سورة (القصص) الآيات من (٢٠ - ٢٢) ١٠٧
- ﴿وَفَتْنَاكَ قَتُونًا﴾ ١٠٨
- ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ ١٠٨
- ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ ١٠٩
- ﴿وَاضْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ١١٠
- الآيات من (٤٢ - ٥٢) ١١٢
- تمهيد ١١٢
- ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ ١١٣
- وجوه ذكر الله عز وجل ١١٤
- ﴿اذهبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ١١٦
- ما جاء في سورة (النازعات) ١١٧
- ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ١١٨
- ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ١٢٠
- ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ١٢٠
- الآيتان (٤٧ و ٤٨) وفيهما سِتُّ قضايا ١٢١
- القضية الأولى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ﴾ ١٢١
- القضية الثانية: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٢٢
- القضية الثالثة: وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ١٢٢
- القضية الرابعة: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ١٢٣
- القضية الخامسة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى﴾ ١٢٣
- القضية السادسة: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ١٢٣
- ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ١٢٤
- ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ١٢٤
- تَمَّة مما جاء في سورة (الشعراء) الآيات من (١٨ - ٢٦) ١٢٦

الموضوع

الصفحة

- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۝٥٢﴾ ١٢٦
- تنمة ممّا في (الشعراء) الآيات من (٢٧ - ٥١) ١٢٧
- تدبر النصوص تدبراً تكاملياً ١٢٧
- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ كُلًّا فَاكْذَبُوا وَابَىٰ ۝٥٦﴾ ١٣٩
- القراءات ١٣٩
- تمهيد ١٣٩
- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ١٤١
- ﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ١٤٢
- ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ١٤٣
- ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ ١٤٣
- ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ ١٤٤
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤﴾ ١٤٥
- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ ١٤٦
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ كُلًّا فَاكْذَبُوا وَابَىٰ ۝٥٦﴾ ١٤٦
- تكملة من سورة (الشعراء) وسورة (الأعراف) ١٤٧
- ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّنْ نَخْلُقَهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦١﴾ ١٤٩
- الفقرة الثالثة: الآيات من (٦١ - ٧٦) ١٥٤
- القراءات ١٥٥
- تمهيد ١٥٨
- التدبر ١٥٩

الصفحة

الموضوع

- ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ﴿٦٦﴾ حتى غاية الآية (٦٤) ١٥٩
- مقدمة ١٦٠
- تدبر الآية (٦١) ١٦٠
- ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ ﴿٦٢﴾ ١٦٢
- ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ ﴿٦٣﴾ ١٦٣
- ﴿فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ ﴿٦٤﴾ ١٦٤
- الآيات من (٦٥ - ٧٣) وتكملات من سورتي (الأعراف) و(الشعراء) ١٦٦
- تمهيد ١٦٧
- التدبر ١٦٧
- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنِ الْقَىٰ﴾ ﴿٦٥﴾ ١٦٨
- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ١٦٩
- فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴿٦٧﴾ ١٦٩
- نظرات تكاملية بين نصوص (طه) و(الأعراف) و(الشعراء) ١٦٩
- ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ * وألق ما في يمينك تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿٧١﴾ ١٧٣
- ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا فَطَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمْنَ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿٧٣﴾ ١٨٠
- التدبر التحليلي للنصوص الثلاثة ١٨١
- ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٧٤﴾ .. ١٩٤
- ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ ﴿٧٦﴾ ١٩٥

الصفحة

الموضوع

١٩٧	الفقرة الرابعة: الآيات من (٧٧ - ٧٩)
١٩٧	القراءات
١٩٨	تمهيد
١٩٩	نظرات تدبّرية تكاملية لنصوص من السّور التالية
٢٠٠	١ - من سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) الآيات (٣٦ - ٤٠)
٢٠٨	٢ - من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) الآيتان (١٣ و ١٤)
٢١٣	٣ - من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) الآيات من (٢٣ - ٤٦)
٢٣٥	٤ - من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) الآيات من (١٠١ - ١٠٣) .
٢٤٢	٥ - من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (٥٢ - ٦٨) ...
٢٤٤	ومن سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) الآيات من (٧٧ - ٧٩)
٢٥٧	مما جاء عند الإسرائيليين بشأن العبور خروجاً من مصر
٢٥٨	٦ - ومن سورة (يونس/ ٢٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآيات من (٩٠ - ٩٢) ...
٢٦٣	٧ - ومن سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) الآية (١٣٦)
٢٦٤	٨ - ومن سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) الآيات من (١٥ - ٢٦) .
٢٧٢	الفقرة الخامسة: الآيات من (٨٠ - ٨٢)
٢٧٢	القراءات
٢٧٣	تمهيد
٢٧٥	• ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ...﴾ (٨٠)
٢٧٦	• ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾
٢٧٦	• ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ (٨٠)
	• ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ (٨١)
٢٧٨	• ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٢)
٢٨١	ما جاء في القرآن من بيان عن المَنَّ والسَّلوى
٢٨٢	الفقرة السادسة: الآيات من (٨٣ - ٩٩)
٢٨٣	القراءات

الصفحة

الموضوع

- ٢٨٥ تمهيد
- ٢٩٠ التدبر التحليلي
- ﴿وَمَا أَغْبَلْكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (٨٤) ٢٩٠
- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) ٢٩٢
- ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا...﴾ (٨٦) ٢٩٣
- ﴿... قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا...﴾ (٨٦) ٢٩٥
- ﴿... أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦) ٢٩٥
- ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنسِي﴾ (٨٨) ٢٩٥
- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩) ٢٩٧
- ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (٩٠) ٢٩٨
- ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (٩١) ٢٩٩
- ٣٠٠ تكميل من سورة (الأعراف)
- ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤) ٣٠٠
- ٣٠٢ محاسبة موسى عليه السلام للسامري: (الآيات من ٩٥ - ٩٨) ٣٠٢
- ٣٠٣ تمهيد
- ٣٠٣ التدبر التحليلي
- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (٩٥) ٣٠٣
- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦) ٣٠٤

الموضوع

الصفحة

- ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧) ٣٠٥
- ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨) ٣٠٧
- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ...﴾ (٩٩) ٣٠٩
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (طه): الآيات (من بعض الآية ٩٩ - ١٠٤) ٣٠٩
- القراءات ٣٠٩
- تمهيد ٣١٠
- ﴿... وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩) ٣١٠
- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) ٣١٢
- ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١) ٣١٣
- ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢) ٣١٤
- ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١٠٣) ٣١٥
- (٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (طه): الآيات من (١٠٥ - ١١٢) ٣١٨
- القراءات ٣١٩
- تمهيد ٣١٩
- ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٠٧) ٣٢٢
- ﴿يَوْمِئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ٣٢٥
- ﴿... وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٠٨) ٣٢٦
- ﴿يَوْمِئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) ٣٢٧
- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ٣٢٧
- ﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١١٠) ٣٢٨
- ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١١١) ٣٢٨

الموضوع

الصفحة

- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١١٢) ﴿ ٣٢٩
- (٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (طه): الآيتان (١١٣ و ١١٤) ٣٣٠
- القراءات ٣٣٠
- تمهيد ٣٣٠
- التدبر التحليلي ٣٣٢
- وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣) ﴿ ٣٣٢
- ﴿تَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ٣٣٥
- ﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤) ﴿ ٣٣٦
- (١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (طه): الآيات من (١١٥ - ١٢٧) ٣٣٩
- القراءات ٣٤٠
- تمهيد ٣٤١
- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ (١١٥) ﴿ ٣٤٢
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (١١٦) ﴿ ٣٤٥
- ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿ ٣٤٦
- ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (١١٨) ﴿ .. ٣٤٨
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ (١١٩) ﴿ ٣٤٩
- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَفَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢٠) ﴿ ٣٥٢
- ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٢١) ﴿ ٣٥٤
- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٢) ﴿ ٣٥٤
- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (١٢٣) ﴿ ٣٥٦

الموضوع

الصفحة

- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧) ٣٥٨
- (١١) التَّدْبِيرُ التَّحْلِيلِيُّ لِلدَّرْسِ السَّابِعِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (طه): الْآيَتَانِ (١٢٨) - (١٢٩) ٣٥٩
- تمهيد ٣٥٩
- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ ٣٥٩
- ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) ٣٦٠
- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩) ٣٦١
- (٢) التدبر التحليلي للدَّرْسِ الثَّامِنِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (طه): الْآيَاتِ مِنْ (١٣٠) - (١٣٥) آخر السورة) ٣٦٣
- القراءات ٣٦٤
- تمهيد ٣٦٥
- التدبر التحليلي ٣٦٨
- ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (١٣٠) ٣٦٨
- ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٣١) ٣٧٢
- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢) ٣٧٦
- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تُأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (١٣٤) ٣٧٩
- ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَى﴾ (١٣٥) ٣٨١

ملاحق تدبر سورة (طه)

- (١٣) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية وفنية من سورة (طه) ٣٨٣
- (١٤) الملحق الثاني: حول الشفاعة يوم الدين وأنواعها ٣٩٢

سورة الواقعة

٥٦ مصحف / ٤٦ نزول

- ٤٢٣ (١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات
- ٤٢٨ (٢) ممّا جاء في السنة بشأن سورة (الواقعة)
- ٤٢٩ (٣) موضوع سورة (الواقعة)
- ٤٣٠ (٤) دروس سورة (الواقعة)
- ٤٣١ (٥) السور التي سبق الحديث فيها عن الجزاء والبعث ويوم الدين
- ٤٣١ (٦) التدبر التحليلي للدّرس الأول من دروس سورة (الواقعة): الآيات من ١ - ٥٦
- ٤٣٢ (٦ - ١) الآيات من
- ٤٣٢ تمهيد
- ٤٣٣ التدبر التحليلي
- ٤٣٣ • إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾
- ٤٣٤ • لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾
- ٤٣٦ • خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾
- ٤٣٦ • إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٤﴾
- ٤٣٨ (٧ - ٢٦) الآيات من
- ٤٣٨ تمهيد
- ٤٣٩ التدبر التحليلي
- ٤٣٩ • وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٥﴾
- ٤٣٩ • فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٦﴾
- ٤٤١ • وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٧﴾
- ٤٤٢ • وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٨﴾
- رَسْمٌ بَيَانِي لِمِيزَانِ التَّقَابُلِ بَيْنَ الْأَصْنَافِ الَّذِينَ تَرْفَعُهُمُ الْوَاقِعَةُ، وَالَّذِينَ تَخْفِضُهُمُ الْوَاقِعَةُ
- ٤٤٣ • فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٩﴾
- ٤٤٤ •

الصفحة

الموضوع

- ٤٤٦ ﴿عَلَى سُرْرِ مَوْضُونَةٍ﴾ (١٥) •
- ٤٤٦ ﴿مُتَكَبِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (١٦) •
- ٤٤٧ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ * بَأْكُوبِ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينِ﴾ (١٧) •
- ٤٥٠ ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ (١٩) •
- ٤٥١ ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (٢٠) •
- ٤٥١ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢١) •
- ٤٥١ ﴿وَحُورٍ عِينٍ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (٢٣) •
- ٤٥٤ ﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤) •
- ٤٥٤ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٢٦) •
- ٤٥٥ الآيات من (٢٧ - ٤٠) •
- ٤٥٦ تمهيد •
- ٤٥٦ التدبر التحليلي •
- ٤٥٦ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) •
- ٤٥٧ ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ (٢٨) •
- ٤٥٨ ﴿وَوُطِّلِحَ مَنْضُودٍ﴾ (٢٩) •
- ٤٥٨ ﴿وَوُظِّلَ مَمْدُودٍ﴾ (٣٠) •
- ٤٥٩ ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ (٣١) •
- ٤٥٩ ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (٣٣) •
- ٤٥٩ ﴿وَفُتْرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرُبًا أَثْرَابًا
- ٤٦٠ * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٣٨) •
- ٤٦٢ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (٤٥) •
- ٤٦٣ الآيات من (٤١ - ٥٦) •
- ٤٦٣ تمهيد •
- ٤٦٤ التدبر التحليلي •
- ٤٦٤ ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ (٤١) •
- ٤٦٥ ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ (٤٢) •

الصفحة

الموضوع

- ٤٦٥ ﴿وَزَلَّ مِنَ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٤٨) ٤٦٦
- الآيات من (٤٩ - ٥٥) ٤٦٩
- ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (٤٩) ٤٦٩
- ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٥٠) ٤٧٠
- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْيَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ﴾ (٥١) ٤٧١
- ﴿لَا يَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ﴾ (٥٢) ٤٧١
- ﴿فَمَا لِيُثْبِتُ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٥٣) ٤٧٣
- ﴿فَسَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَسَارِبُونَ شُرْبِ الْهِيمِ﴾ (٥٥) ٤٧٣
- ﴿هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٦) ٤٧٤
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (الواقعة): الآيات من (٥٧ - ٧٤) ٤٧٧
- تمهيد ٤٧٨
- التدبر التحليلي ٤٧٩
- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) ٤٧٩
- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٨) ٤٨٠
- المنى عند الأطباء ٤٨١
- ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ٤٨٣
- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) ٤٨٥
- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٦٧) ... ٤٨٧
- إتيان صنع النبات وقيمته في الحياة ٤٨٨
- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧١) ٤٩٢
- آيات الله والآؤه في الماء ٤٩٣

الصفحة

الموضوع

- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ *
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ٤٩٥
- النَّارُ فِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ ٤٩٦
- ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ ٤٩٧
- (٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الواقعة): الآيات من
٤٩٨ (٧٥ - ٩٤)
- تمهيد ٤٩٩
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ ٥٠١
- ما يقوله علماء الفلك بشأن النجوم ٥٠٤
- ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٥٠٦
- ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٥٠٩
- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٥١٠
- ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ
وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٥١٠
- الموت والحياة ظاهرتان مِنْ ظَوَاهِرِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِي ٥١٢
- ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ
مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ
مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ * فَأُتْرُكٌ مِنَ حَمِيمٍ * وَنَضْلِيَّةٌ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ ٥١٥
- (٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع الأخير من دروس سورة (الواقعة): الآيتان
٥١٨ (٩٥ و ٩٦) آخر السورة
- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ ٥١٨
- مراتب اليقين ٥١٩
- رسم بياني لمراتب اليقين ٥٢٠
- ملاحق تدبر سورة (الواقعة) ٥٢٢
- (١٠) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة (الواقعة) ٥٢٢

الصفحة

الموضوع

(١١) الملحق الثاني: شجرة الرُّقُومِ في القرآن ٥٢٥

سورة الشعراء

٢٦ مصحف/٤٧ نزول

(١) نَصُّ السُّورَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ فُرَشِ الْقِرَاءَاتِ ٥٤٣

(٢) مِمَّا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ بِشَأْنِ سُورَةِ (الشعراء) ٥٥٦

(٣) موضوع سورة (الشعراء) ٥٥٦

(٤) دروس سورة (الشعراء) ٥٥٨

(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الشعراء): الآيات من (١ - ٩) . ٥٦١

تمهيد ٥٦١

التدبر التحليلي ٥٦٢

• ﴿طَسَمَ * تَلَكَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢) ٥٦٢

• ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ

آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (٤) ٥٦٤

• ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥) .. ٥٧٠

• ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦) ٥٧١

• ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧) ٥٧٣

• ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

﴾ (٩) ٥٧٥

(٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (الشعراء): الآيات من

(١٠ - ١٩١) وفيه سبعة فصول ٥٧٧

الفصل الأول: لقطات تتعلق بقصة موسى وقومه من المصريين: الآيات من

(١٠ - ٦٨) ٥٧٧

تمهيد ٥٧٩

التدبر التحليلي ٥٧٩

• ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) قَوْمُ فِرْعَوْنَ ... ﴿﴾ (١١) .. ٥٧٩

الآيات من (١٢ - ١٧) ٥٨٣

الصفحة

الموضوع

- ٥٨٣ القراءات
- ٥٨٤ التدبر التحليلي
- ٥٨٤ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٧)
- ٥٨٤ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ (١٣)
- ٥٨٥ ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٤)
- ٥٨٥ ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (١٥)
- ٥٨٥ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٦)
- ٥٨٦ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكَ﴾ (١٦)
- ٥٨٧ ﴿الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٦)
- ٥٩٠ الآيات من (٢٠ - ٢٢)
- ٥٩٠ تمهيد
- ٥٩٠ التدبر التحليلي
- ٥٩٠ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠) ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (٢٠)
- ٥٩١ ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١)
- ٥٩٢ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٢)
- ٥٩٣ الآيات من (٢٣ - ٢٨)
- ٥٩٣ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣)
- ٥٩٤ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤)
- ٥٩٥ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ﴾ (٢٥)
- ٥٩٥ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ (٢٦)
- ٥٩٦ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧)
- ٥٩٦ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)
- ٥٩٧ ﴿قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩)
- ٥٩٨ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٣٣)

الموضوع

الصفحة

- ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) ٥٩٩
- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧) ٥٩٩
- ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ﴾ (٤١) ٦٠٠
- ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ﴾ (٤٢) ٦٠١
- ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ﴾ (٤٤) ٦٠٢
- ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ٦٠٢
- ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨) ٦٠٣
- ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩) ٦٠٤
- ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَنظُمُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١) ٦٠٧
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (٥٢) ٦٠٨
- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣) ٦١٠
- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ (٥٥) ٦١٠
- ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٦) ٦١١
- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) ٦١٢
- ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩) ٦١٣
- ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) ٦١٤
- ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) ٦١٥
- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٦٦) ٦١٦

الموضوع

الصفحة

- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾ ٦١٨
- الفصل الثاني: لقطات تتعلق بقصة إبراهيم عليه السلام وقومه: الآيات من (٦٩ - ١٠٤) ٦١٩
- تمهيد ٦١٩
- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ٦٢٠
- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ﴿٧١﴾ ٦٢٢
- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ﴾ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ٦٢٣
- ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ ٦٢٤
- ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٦٢٤
- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٦﴾ ٦٢٦
- ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخِفَافِي بِالصَّالِحِينَ﴾ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ٦٣٠
- الآيات من (٩٠ - ١٠٢) ٦٣٦
- وفيها مشهد من مشاهد يوم القيامة، وفي هذا المشهد لقطات من أحداث يوم الدين ٦٣٦
- اللقطة الأولى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمَتَّقِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ ٦٣٦
- اللقطة الثانية: ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿٩١﴾ ٦٣٧
- اللقطة الثالثة: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٢﴾ ٦٣٧
- اللقطة الرابعة: ﴿فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ٦٣٨
- اللقطة الخامسة: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ٦٣٩

الصفحة

الموضوع

- ٦٤٢ • ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾ .
- ٦٤٢ الفصل الثالث: لقطات تتعلق بقصة نوح عليه السلام وقومه: الآيات من (١٠٥ - ١٢٢)
- ٦٤٣ تمهيد
- ٦٤٣ التدبر التحليلي
- ٦٤٣ • ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نوح المرسلين﴾ ﴿١١٥﴾
- ٦٤٤ • ﴿إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُمْ نُوحُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١١٦﴾
- ٦٤٥ • ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١١٧﴾
- ٦٤٦ • ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١١٨﴾
- ٦٤٦ • ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٩﴾
- ٦٤٧ • ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٢٠﴾
- ٦٤٧ • ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ ﴿١٢١﴾
- ٦٤٨ • ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ
- ٦٤٨ • ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٥﴾
- ٦٥٣ • ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾
- ٦٥٣ • ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾
- ٦٥٤ • ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٣٠﴾
- ٦٥٥ • ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾
- ٦٥٧ الفصل الرابع: لقطات تتعلق بقصة هود عليه السلام وقومه عاد: الآيات من (١٢٣ - ١٤٠)
- ٦٥٧ تمهيد
- ٦٥٨ التدبر التحليلي
- ٦٥٩ • ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾
- ٦٥٩ • ﴿إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾
- ٦٦٠

- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣٦) ٦٦٠
- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣٥) ٦٦٣
- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) ٦٦٤
- ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨) ٦٦٥
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤٠) ٦٦٦
- الفصل الخامس: لقطات تتعلق بقصة صالح عليه السلام وقومه ثمود: الآيات من (١٤١ - ١٥٩) ٦٦٧
- تمهيد ٦٦٧
- التدبر التحليلي ٦٦٨
- ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٥) ٦٦٨
- ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْنَا آمَنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْجَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٤٦) ٦٦٨
- القراءات ٦٦٨
- التدبر التحليلي: في هذه الآيات بيان خمس مقالات وجهها صالح لقومه .. ٦٦٩
- المقالة الأولى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْنَا آمَنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (١٤٨) ٦٦٩
- المقالة الثانية: ﴿وَتَنْجَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (١٤٩) ٦٧١
- المقالة الثالثة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ ٦٧٢
- المقالة الرابعة: ﴿... وَأَطِيعُوا﴾ (١٥٠) ٦٧٢
- المقالة الخامسة: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٥٢) ٦٧٢

الموضوع

الصفحة

- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ
- ٦٧٤ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾
- ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ
- فِيَاخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ
- العَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
- ٦٧٦ العزيز الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾
- الفصل السادس: لقطات تتعلق بقصة لوط عليه السلام وقومه: الآيات من
- ٦٧٨ (١٦٠ - ١٧٥)
- ٦٧٨ تمهيد
- ٦٧٩ التدبر التحليلي
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي
- لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
- ٦٧٩ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
- ﴿اتَّاتَوْا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
- بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾
- ٦٧٩ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾
- ٦٨٠ ﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
- ٦٨١ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾
- ٦٨١ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾
- ٦٨٢ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ * وَامْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٢﴾
- ٦٨٢ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾
- ٦٨٣ الفصل السابع: لقطات تتعلق بشعيب عليه السلام وقومه: الآيات من (١٧٦ - ١٩١)
- ٦٨٤ تمهيد
- ٦٨٥ التدبر التحليلي
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي
- لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
- ٦٨٥ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾

- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى﴾ ٦٨٦
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحَرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٦٩٠
- ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٦٩٣
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ٦٩٤
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦٩٥
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الشعراء): الآيات من (١٩٢ - ٢٢٧ آخر السورة) ٦٩٥
- تمهيد ٦٩٦
- ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأُولَى﴾ ٦٩٨
- ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٧٠٣
- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ٧٠٤
- ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ٧٠٥
- ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ٧٠٩
- ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ٧١٠
- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .. ٧١١
- ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ ٧١٤
- الآيات من (٢١٣ - ٢٢٠): وفيها أربع قضايا موجهة للرسول ٧١٦
- القضية الأولى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَعْذِبِينَ﴾ ٧١٦
- القضية الثانية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ٧١٧

الصفحة

الموضوع

- ٧٢٠ القضية الثالثة: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) *
 القضية الرابعة: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ * وَتَوَكَّلْ عَلَى
 العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إِنَّهُ
 ٧٢٢ هو السميع العليم ﴿٢٢٠﴾ *
 • ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ
 ٧٢٤ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٢٣) *
 • ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ
 يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ
 كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
 ٧٢٧ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) *
 ٧٣٧ تمهيد
 ٧٢٨ التدبر التحليلي

ملاحق تدبر سورة الشعراء

- ٧٣٥ (٨) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة (الشعراء)
 ٧٥٠ (٩) الملحق الثاني: حول الشعر والشعراء في القرآن والسنة
 ٧٧٦ خاتمة المجلد الثامن
 ٧٧٧ الفهرس